(١٩) سورة مريم مكية
وآياتها ثمان وتسعون

سورةُ مريم من السور المكية التي تقرر توحيدَ الله ، وقدرتَه ، وتنزيهَه عما لا يليق به ، وتُقرِّر عقيدةَ البعثِ والجزاء ، وهي إحدى تسع وعشرين سورة بُدئت بالحروف الهجائية ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، ونفي الولدِ والشريك ، ويتناول أيضاً قَصَص بعض الأنبياء ، بدءاً من قصة زكريا وولده يحي ، ثم قصةِ مريم البتول ومولد عيسى ، ثم قصةِ إبراهيمَ مع أبيه ، ثم تذكر بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : إسحاقَ ويعقوبَ ، وموسى وهارونْ ، وإسماعيلَ وإدريسَ ، وآدم ونوح ، ويستغرق الحديث عن قصص هؤلاء الأنبياء حوالَيْ ثلثي السورة ، ويستهدفُ إثباتَ الوحدانية ، ونفيَ الولد والشريك ، وبيانَ منهجِ المهتدين ، ومنهج الضالين المنحرفين عن هداية النبيِّين .

سُميتْ السورةُ الكريمة « سورة مريم » لذكر قصتها وقصة ولدها عيسى عليه السلام بالتفصيل وقد جاء الحديث عن حملها بالسيدِ المسيح بعد تلك المخاوف التي كانت تساور نفسها ، ثم ارتياب قومها بذلك الحمل لأنها عذراء ، ثم تمنيها الموت قبل أن تلقى ذلك الاتهام الشنيع ، ثم إكرام الله لها بإنطاق الغلام وهو طفل في المهد إلى آخر ما هنالك من أحداثٍ غريبة تتعلق بميلاد عيسى عليه السلام .

بدأت السورة الكريمة بقصةِ نبيِّ اللهِ زكريا وولده يحي ، وقبل أن تذكر قصته الغريبة بدأت بدءاً غير مألوف ليكون البدء الغريب قرعاً

للأسماع وتنبيهاً لقدرة الله العظيمة في إبداع الأشياء العجيبة ﴿كهيعص . ذكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا . إذ نادى ربَّه نداءً خفياً . قال ربِّ إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيباً ولم أكنْ بدعائِك ربِّ شقياً﴾ وبعد ذلك الدعاء المنيب في ضراعةٍ وخفية ، يأتي الطلب الرفيق بأن يهبَ الله له الولد ، ليكون عوناً له في حياته سيَّما بعد بلوغ الشيخوخة ، ووارثاً له من بعد مماته يرثه في مقام الدعوةِ إلى الخير ، وميراثِ النبوة التي ورثها عن آبائه وأجداده ، ويقدّم بين يدي هذا الدعاء التلطف والرجاء ، فامرأته عاقر لا تلد ، وهو شيخٌ هرم قد بلغ من الكِبَر عتياً ، ولكنه لا ييأس من رَوْح الله لأن الله السميع البصير يسمع دعاء المكروب ﴿وإني خِفْتُ الموالِيَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهبْ لي من لَدُنْكَ ولياً . يرثني ويرثُ من آلِ يعقوبَ واجعلْه ربِّ رضياً﴾ ويستجيب الله دعاءه وتأتيه البشارة بالغلام النبيه ، مغموراً بالرعاية والعطف والرضى ، ﴿يا زكريا إنَّا نبشّرك بغلامٍ اسمُهُ يَحْيي لم نجعلْ له من قَبْلُ سَمِياً﴾ والعبرةُ في قصة زكريا أنَّ أقربَ الدعاءِ إلى الإجابة ما كان نابعاً من القلب ، مقروناً بالذلةِ والحاجة والانكسار ، خفياً عن الأسماع والأبصار ، مقصوداً به وجهُ الله تعالى . وتنتقل السورة إلى قصةٍ أعجب وأغرب من قصة ميلاد يحي ، تلك هي قصةُ مريم العذراء وإنجابها لطفلٍ من غير بعل ، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخ البشرية ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الباهرة في مولد عيسى من غير أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار في الخلق والإيجاد ، والإفناء والإعدام ﴿واذكرْ في الكتاب مريم إذْ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلْنا إليها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً . قالتْ إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إن كُنْتَ تَقياً . قال إنما أنا رسولُ ربك لأَهَبَ لكِ غلاماً زكياً﴾ ويتمُّ الأمرُ ، وينتهي

الجَدَلُ ، وتُبدعُ القدرة الإلهية ذلك الحدثَ الغريب الذي كثر حوله القيلُ والقال ، فمن زاعمٍ أنه ابنُ الله ، ومن أنه ولدُ بغيّ ، ويحسم القرآن ذلك في هذه الكلماتِ الموجزة ،التي فيها العظة والاعتبار بقدرة الله الواحد القهار ﴿ ذلك عيسَى ابنُ مريم قولَ الحقّ الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون . وإنَّ الله ربي وربُّكُمْ فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم﴾ .

ومن الحديث عن قصة عيسى ابن مريم إلى بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مَشْهدِ يومٍ عظيمٍ . أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يوم يأتوننا لَكِنِ الظالمون اليوم في ضلالٍ مبين . وأنذرهُمْ يومَ الحسرةِ إذ قُضِيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لا يُؤْمنون . إنّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعُون﴾ ثم يأتي الحديثُ عن أسلوب إبراهيم في الدعوة إلى الله ، وهو أسلوبُ الدعوةِ بالحلمِ الواسعِ ، والأدب الجمّ ، الذي من شأنه أن يجذب إليه القلوب النافرة ، والنفوس الشاردة ، مع وضوحِ الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخطأ والفساد ﴿ واذكرْ في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يسمعُ ، ولا يُبصرُ ، ولا يُغْني عنك شيئاً ؟ يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتكَ فاتَّبِعْني أَهْدِكَ صراطاً سوياً﴾ وهكذا يسلك إبراهيم في دعوةِ أبيه طريق الحكمة والموعظةِ الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدةِ والجفوةِ والإنكارِ والتهديد ﴿ قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لم تنته لأرجمنَّك واهجرني ملياً﴾ فيقابل إبراهيم تهديد أبيه بالسلام والدعاء والاستغفار ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لكَ ربي إنه كان بي حفياً﴾ وبعد أن تتحدث السورة عن جملة من الأنبياء الكرام تنتقل إلى الحديث عن المعاندين المكذبين ، وتردُّ على حججهم الواهية بالبراهين القاطعة

إيجاز البيان م - ٦

التي تقصم ظهر الباطل ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوفَ أُبْعَثُ حياً ؟ أوَ لا يذكُرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئاً فوربِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطينَ ثُمَّ لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ ومن هذا المشهد المفزع الذي يجثو فيه العُتاة المتجبرون جثوَّ الخزي والمهانة تنتقل الآيات إلى عَرْضٍ لمصارع المشركين والمكذبين ، وإلى مقالتهم الشنيعة التي يصورها القرآن بصورةٍ حسيّة حيث يرى الإنسان السمواتِ والأرضَ والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تتفطر وتنشقُّ من هول ذلك الكلام ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدّاً . تكادُ السمواتُ يتفطَّرْنَ منه ، وتنشقُّ الأرضُ ، وتخِرُّ الجبالُ هدَّاً . أَنْ دَعَوْا للرحمنِ ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إنْ كلّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمنِ عبداً﴾ ثم تختم السورة الكريمة بوَضع صورتَيْن متباينتيْن : صورةِ المؤمنين الذين ترتبط قلوبهم برباطِ المودةِ والمحبة ، لأنهم كانوا في الدنيا متحابين في الله ، وصورة الكافرين الجاحدين تمزِّق العداوة قلوبهم وتقطع ما بينهم من صلات ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ وُدّاً . فإنما يسرناه بلسانك لتُبشّر به المتقين وتُنْذِر به قوماً لُدّاً﴾ .

سورة مريم

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] الآية.

[٥٩٣] أخرج البخاري(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله [ﷺ] لجبريل: **«ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»** فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(٢).

[٥٩٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبريل في النزول أربعين يوماً فذكر نحوه.

[٥٩٥] وأخرج ابن مردويه(٣) عن أنس قال: سأل النبي [ﷺ] جبريل **«أي البقاع أحب إلى الله وأبغض إلى الله فقال ما أدري حتى أسأل»** فنزل جبريل وكان قد أبطأ عليه فقال: **«لقد أبطأت علي حتى ظننت أن ترى علي موجدة»** فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(٤) الآية.

[٥٩٦] وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن قريشاً لما سألوا عن أصحاب الكهف مكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً فلما نزل جبريل قال له أبطأت فذكره.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [مريم: ٧٧] الآية.

[٥٩٧] أخرج الشيخان وغيرهما(٥) عن خباب بن الأرت قال: جئت

---

[٥٩٣] (١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي نعيم عن ذر به مثله ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٢) و(١٧٣) من طريق عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

(٢) سورة مريم الآية (٦٤).

[٥٩٥] (٣) انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٦/٢).

(٤) سورة مريم: الآية (٦٤).

[٥٩٧] (٥) رواه البخاري في صحيحه عن الحميدي عن سفيان ومسلم في صحيحه عن الأشج عن وكيع كلاهما عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن خباب والواحدي في أسباب النزول ص (١٧٣) ورواه الواحدي بلفظ آخر من طريق أبي معاوية عن الأعمش به نحوه.

العاصي بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا حتى تموت وحتى تبعث قال: فإني لميت ثم مبعوث فقلت: نعم فقال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [مريم: ٩٦] الآية.

[٥٩٧م] أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[1] قال محبة في قلوب المؤمنين.

* * *

[٥٩٧م](١) سورة مريم: الآية (٩٦).

سورة مريم

وهي ثمانٍ وتسعون آية، مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ①﴾

قبل الخوض في القراءات لا بد من مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: أن حروف المعجم على نوعين ثنائي وثلاثي، وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا: با تا ثا وكذلك أمثالها، وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة فيقولوا: دال ذال صاد ضاد وكذلك أشكالها، أما الزاي وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الأمران، فإن من أظهر ياءه في النطق حتى يصير ثلاثيًّا لم يُمله، ومن لم يُظهر ياءه في النطق حتى يشبه الثنائي يُمله.

أما المقدمة الثانية: ينبغي أن يُعلم أن إشباع الفتحة في جميع المواضع أصل والإمالة فرع عليه؛ ولهذا يجوز إشباع كل ممال ولا يجوز إمالة كل مشبع من الفتحات.

المقدمة الثالثة: للقراء في القراءات المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق: **أحدها:** أن يتمسكوا بالأصل وهو إشباع فتحة الهاء والياء. **وثانيها:** أن يُميلوا الهاء والياء. **وثالثها:** أن يجمعوا بين الأصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر، ولهم في السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان: الأول: أن الفتحة المشبعة أصل والإمالة فرع مشهور كثير الاستعمال، فأُشبع أحدهما وأُميل الآخر ليكون جامعًا لمراعاة الأصل والفرع، وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر. القول الثاني: أن الثنائية من حروف المعجم إذا كانت مقطوعة كانت بالإمالة، وإذا كانت موصولة كانت بالإشباع، وها ويا في قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ مقطوعان في اللفظ موصولان في الخط فأميل أحدهما وأشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيًّا جانب القطع اللفظي وجانب الوصل الخطي، إذا عرفت هذا فنقول: فيه قراءات: **إحداها:** وهي القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعًا. **وثانيها:** كسر الهاء وفتح الياء، وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر والقطعي عن أيوب، وإنما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقًا بينه وبين الهاء الذي للتنبيه فإنه لا يكسر قط. **وثالثها:** فتح الهاء وكسر الياء، وهو قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم، وإنما كسروا الياء دون الهاء لأن الياء أخت الكسرة وإعطاء الكسرة أختها أولى من إعطائها إلى أجنبية مفتوحة للمناسبة. **ورابعها:** إمالتهما جميعًا، وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهري وابن

جرير، وإنما أمالوهما للوجهين المذكورين في إمالة الهاء وإمالة الياء. **وخامسها:** قراءة الحسن وهي ضم الهاء وفتح الياء، وعنه أيضًا فتح الهاء وضم الياء، وروى صاحب (الكشاف) عن الحسن بضمهما، فقيل له: لـمَ تُثبت هذه الرواية عن الحسن لأنه أورد ابن جني في كتاب (المكتسب) أن قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين، وقال بعضهم: إنما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لأنه تصور أن عين الفعل في الهاء والياء ألف منقلب عن الواو، كالدار والمال، وذلك لأن هذه الألفات وإن كانت مجهولة لأنها لا اشتقاق لها فإنها تُحمل على ما هو مشابه لها في اللفظ. والألف إذا وقع عينًا فالواجب أن يعتقد أنه منقلب عن الواو، لأن الغالب في اللغة ذلك، فلما تصور الحسن أن ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله في حكم الواو وضم ما قبله لأن الواو أخت الضمة. **وسادسها:** ها يا بإشمامهما شيئًا من الضمة.

المسألة الثالثة: قرأ أبو جعفر كهيعص يفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع إظهار نون العين، وباقي القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون.

المسألة الثالثة: القراءة المعروفة (صاد، ذكر) بالإدغام، وعن عاصم ويعقوب بالإظهار.

البحث الثاني: المذاهب المذكورة في هذه الفواتح قد تقدمت، لكن الذي يختص بهذا الموضع ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى (كهيعص) ثناء من الله على نفسه، فمن الكاف وصفه بأنه كافٍ ومن الهاءِ هادٍ ومن العين عالم ومن الصاد صادق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أنه حمل الكاف على الكبير والكريم، ويحكى أيضًا عنه أنه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى، وعن الربيع بن أنس في الياء أنه من مجير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في العين أنه من عزيز ومن عدل، وهذه الأقوال ليست قوية لما بينا أنه لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز؛ لأنا إن جوزنا ذلك فتُح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطنًا، واللغة لا تدل على ما ذكروه فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول ﷺ أو الملائكة أو الجنة أو النار، فيكون حَمْله على بعضها دون البعض تحكمًا لا تدل عليه اللغة أصلاً.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في لفظة (ذكر) أربع قراءات: صيغة المصدر أو الماضي مخففة أو مشددة أو الأمر: أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر (رحمة ربك) على الإضافة ثم فيها ثلاثة أوجه: أحدها: نصب الدال من (عبده) والهمزة من (زكرياء) وهو المشهور. وثانيها: برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هي عبده زكرياء عن ابن عامر. وثالثها: بنصب الأول وبرفع الثاني والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء. وأما صيغة الماضي بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة. وأما صيغة

الماضي بالتخفيف ففيها وجهان: أحدهما: رفع الباء من (ربك) والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء. وثانيها: نصب الباء من (ربك) والرفع في (عبده زكرياء) وذلك بتقديم المفعول على الفاعل. وهاتان القراءتان للكلبي، وأما صيغة الأمر فلا بد من نصب (رحمة) وهي قراءة ابن عباس. واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضي يكون التقدير: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من قوله (رحمة ربك) أعني عبده زكرياء. ثم في كونه رحمة وجهان: أحدهما: أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات. والآخر: أن يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ وعلى أمة محمد؛ لأن الله تعالى لما شرح لمحمد ﷺ طريقه في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى الله تعالى، صار ذلك لفظًا داعيًا له ولأمته إلى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكرياء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص. وثانيها: أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة. وثالثها: أسره من مواليه الذين خافهم. ورابعها: خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ (صوته خفات وسمعه تارات).

فإن قيل: من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيًّا؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفًا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظرًا إلى قصده وخفيًّا نظرًا إلى الواقع. الثاني: أنه دعا في الصلاة لأن الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] فكون الإجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيًّا.

القراءة فيها مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَهَنَ) بالحركات الثلاث.

المسألة الثانية: إدغام السين في الشين (مِنَ الرَّأْسِ شَيْبًا) عن أبي عمرو.

المسألة الثالثة: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ بفتح الياء وعن الزهري بإسكان الياء من (الموالي) وقرأ عثمان وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس (خفت) بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء، وهذا يدل على معنيين: أحدهما: أن يكون (ورائي) بمعنى (بعدي) والمعنى أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعده، فسأل ربه تقويتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى (قدامي) والمعنى أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تَقَوٌّ واعتضاد.

المسألة الرابعة: القراءة المعروفة: (مِنْ وَرائِي) بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة، وعن حميد بن مقسم كذلك لكن بفتح الياء، وقرأ ابن كثير (وَرَايَ) كعصاي.

المسألة الخامسة: في يرثني ويرث وجوه: أحدها: القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة. وثانيها: وهي قراءة أبي عمرو والكسائي والزهري والأعمش وطلحة بالجزم فيهما جوابًا للدعاء. وثالثها: عن علي بن أبي طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة: ﴿يَرِثُنِي﴾ جزم وارث بوزن فاعل. ورابعها: عن ابن عباس: ﴿يَرِثُنِي﴾ وارث من آل يعقوب. وخامسها: عن الجحدري ﴿وَيَرِثُ﴾ تصغير وارث على وزن أفيعل. (اللُّغَةُ) الوهن: ضعف القوة، قال في (الكشاف) شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال: النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزًا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثَمَ فصحت هذه الجملة، وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الإجابة كما أن مقابل الأمر الطاعة، وأما أصل التركيب في (وَلِيٍّ) فيدل على معنى القرب والدنو، يقال: وليته أليه وليًا، أي دنوت، وأوليته: أدنيته منه وتباعد ما بعده وولي، ومنه قول ساعدة (ابن جؤية):

وَعَدَتْ عَوَادٍ دونَ وَلْيِكَ تَشْعَبُ(١)

وكُلْ مما يليك وجلست مما يليه، ومنه الولي وهو المطر الذي يلي الوسمي، والولية البرذعة لأنها تلي ظهر الدابة وولي اليتيم والقتيل وولي البلد لأن من تولى أمرًا فقد قرب منه، وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠] مِنْ قَوْلِهِمْ: وَلاَّهُ بِرُكْنِهِ أَيْ جَعَلَهُ مِمَّا يَلِيهِ، أَمَّا وَلَّى عَنِّي إِذَا أَدْبَرَ فَهُوَ مِنْ بَابِ تَثْقِيلِ الْحَشْوِ لِلسَّلْبِ(٢) وقولهم فلان أولى من

---

(١) هذا الشطر الثاني من البيت للشاعر ساعدة الهذلي وهو من البحر الكامل، والبيت كاملاً هكذا:

هَجَرَت غَضوبُ وَحُبَّ مَن يَتَجَنَّبُ وَعَدَت عَوادٍ دونَ وَلِيكَ تَشعَبُ

وساعده هو ساعدة الهذلي هو: ساعدة بن جؤية بن كعب بن كاهل من سعد هذيل. شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم وليست له صحبة، قال الأمدي: شعره محشو بالغريب والمعاني الغامضة.

(٢) التثقيل هنا التشديد والحشو هنا وسط الكلمة والسلب هنا معناه الضد والمعنى أنه شدد اللام من ولي ليفهم الضد فإن (ولي) مكسورة اللام مخففة معناه أقبل و (ولي) مفتوحة اللام مشددة معناها أدبر والأدبار ضد الأقبال وهذا معنى تثقيل الحشو للسلب والله أعلم.

فلان، أي أحق، أفعل التفضيل من الوالي أو الولي كالأدنى والأقرب من الداني والقريب، وفيه معنى القرب أيضًا لأن من كان أحق بالشيء كان أقرب إليه، والمولى اسم لموضع الولي كالمرمى والمبنى اسم لموضع المرمى والبناء، وأما العاقر فهي التي لا تلد، والعقر في اللغة الجرح، ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة، وعقرتُ الفرس بالسيف إذا ضربت قوائمه، وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم إليه، ثم قد يؤول أمرهم إليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى، كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي ﷺ.

واعلم أن زكرياء عليه السلام قدم على السؤال أمورًا ثلاثة:

أحدها: كونه ضعيفًا.

والثاني: أن الله تعالى ما رد دعاءه ألبتة.

والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين. ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال.

أما المقام الأول وهو كونه ضعيفًا: فأثر الضعف إما أن يظهر في الباطن أو في الظاهر، والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر؛ فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن، وجُعلت كذلك لمنفعتين:

إحداهما: لأن تكون أساسًا وعمدًا يعتمد عليها سائر الأعضاء الأُخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام، والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول.

والثانية: أنه احتيج إليها في بعض المواضع لأن تكون جُنة يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر، وما كان كذلك فيجب أن يكون صُلبًا ليكون صبورًا على ملاقاة الآفات بعيدًا من القبول لها.

إذا ثبت هذا فنقول: إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى، ولأن العظم إذا كان حاملاً لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبًا لتطرقه إلى المحمول؛ فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء.

وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس.

فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة.

المقام الثاني: أنه ما كان مردود الدعاء ألبتة ووجه التوسل به من وجهين:

أحدهما: ما روي أن محتاجًا سأل واحدًا من الأكابر وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا. فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا! ثم قضى حاجته. وذلك أنه إذا قَبِله أولاً فلو أنه رده ثانيًا لكان الرد محبطًا للإنعام الأول والمنعم لا يسعى في إحباط إنعامه.

والثاني: وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس، فإذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردودًا بعد ذلك لكان في غاية المشقة، ولأن الجفاء ممن يُتوقع منه الإنعام يكون أشق فقال زكرياء عليه السلام: إنك ما رددتني في أول الأمر مع أني ما تعودت لطفك وكنت قوي البدن قوي القلب، فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغًا إلى الغاية القصوى في ألم القلب، واعلم أن العرب تقول: سعد فلان بحاجته، إذا ظفر بها وشقي بها إذا خاب ولم ينلها، ومعنى (بدعائك) أي بدعائي إياك، فإن الفعل قد يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى.

المقام الثالث: بيان كون المطلوب منتفعًا به في الدين، وهو قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ **وفيه أبحاث:**

الأول قال ابن عباس والحسن: إني خفت الموالي، أي الورثة من بعدي. وعن مجاهد: العصبة. وعن أبي صالح: الكلالة. وعن الأصم: بنو العم وهم الذين يلونه في النسب. وعن أبي مسلم: المولي يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب، وهو هاهنا من يقوم بميراثه مقام الولد، والمختار أن المراد من الموالي: الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فإنه كان متعينًا في الحياة.

الثاني: اختلفوا في خوفه من الموالي: فقال بعضهم: خافهم على إفساد الدين. وقال بعضهم: بل خاف أن ينتهي أمره إليهم بعد موته في مال وغيره مع أنه عرف من حالهم قصورهم في العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب. وفيه قول ثالث وهو أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبي له أب إلا واحد، فخاف أن يكون ذلك من بني عمه إذ لم يكن له ولد، فسأل الله تعالى أن يهب له ولدًا يكون هو ذلك النبي، وذلك يقتضي أن يكون خائفًا من أمر يهتم بمثله الأنبياء وإن لم يدل على تفصيل ذلك. ولا يمتنع أن زكرياء كان إليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة، فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما. أما قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ﴾ فهو وإن خرج على لفظ الماضي، لكنه يفيد أنه في المستقبل أيضًا، كذلك يقول الرجل: قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا. أي أنا خائف. لا يريد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي أنها عاقر في الحال، وذلك لأن العاقر لا تُحول ولودًا في العادة، ففي الإخبار عنه بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد في ذلك، وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد، فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى وإلى هذا يرجع الأمر في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ لأنه إنما قصد به الإخبار عن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف في الحال، وأيضًا فقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] والله أعلم.

وأما قوله ﴿مِن وَرَآءِي﴾ ففيه قولان: **الأول:** قال أبو عبيدة: أي قدامي وبين يدي وقال آخرون أي بعد موتي. وكلاهما محتمل. فإن قيل: كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلاً من أن يخاف شرهم؟ قلنا: إن ذلك قد يُعرف بالأمارات والظن وذلك كافٍ في حصول الخوف، فربما عرف ببعض الأمارات استمرارهم على عادتهم في الفساد والشر.

واختلف في تفسير قوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ فالأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون: بل طلب من يقوم مقامه، ولدًا كان أو غيره، والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه:

الأول: قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عمران: ٣٨].

والثاني: قوله في هذه السورة: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾.

والثالث: قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ [الأنبياء: ٨٩] وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي وأنه غير منفرد عن الورثة، وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه، لكن حمله على الولد أظهر.

واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بُشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال: إنى يكون لي غلام؟! ولو كان دعاؤه لأجل الولد لما استعظم ذلك. **الجواب:** أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد؟ وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره: إن قول زكرياء عليه السلام في الدعاء: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ إنما هو على معنى مسألته ولدًا من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد، فكأنه عليه السلام قال: إني أيست أن يكون لي منها ولد فهب لي من لدنك وليًّا كيف شئت إما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن تهب لي من غيرها، فلما بُشر بالغلام سأل أيُرزق منها أو من غيرها. فأخْبر بأنه يُرزق منها.

واختلفوا في المراد بالميراث على وجوه: **أحدها:** أن المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال. وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك. **وثانيها:** أن المراد به في الموضعين وراثة النبوة. وهو قول أبي صالح. **وثالثها:** يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة. وهو قول السدي ومجاهد والشعبي وروي أيضًا عن ابن عباس والحسن والضحاك. **ورابعها:** يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة. وهو مروي عن مجاهد.

واعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة، ولفظ الإرث مستعمل في كلها: أما في المال فلقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وأما في العلم فلقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣] وقال عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا**

دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم» (١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٥، ١٦] وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة، وقد يقال: أورثني هذا غمًّا وحزنًا، وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه.

واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول:

أما الخبر فقوله عليه السلام: «رحم الله زكريا ما كان له من يرثه» (٢) وظاهره يدل على أن المراد إرث المال وأما المعقول فمن وجهين.

الأول: أن العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل إلا بالاكتساب، فوجب حمله على المال.

الثاني: أنه قال ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة لكان قد سأل جعل النبي ﷺ رضيًا وهو غير جائز لأن النبي لا يكون إلا رضيًا معصومًا، وأما قوله عليه السلام: «إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ» (٣) فهذا لا يمنع أن يكون خاصًّا به. واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين، وقيل: لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين فلهذا كان مهتمًّا به. أما قوله: النبوة كيف تورث؟ قلنا: المال إنما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ما حصل لأبيه، وإلا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث، فكذلك إذا كان المعلوم في الإبن أن يصير نبيًّا بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام: «إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ» فهذا وإن جاز حمله على الواحد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] لكنه مجاز وحقيقته الجمع، والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لا سيما وقد روي قوله: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ».

والأَوْلى أن يُحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح في الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع في الدين والمال الصالح، فإن كل هذه الأمور مما يجوز توفر

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (العلم) باب (الحث على طلب العلم) (٣/ ٣١٦) حديث رقم/ ٣٦٤١ من طريق عبد الله بن داود... به. وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) (١/ ٨١) حديث رقم/ ٢٢٣ من طريق عبد الله بن داود... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٩٦) من طريق ابن عياش... به. والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (في فضل العلم والعالم) (١/ ٩٤) حديث رقم/ ٣٤٣ كلاهما (عبد الله بن داود، ابن عياش) عن عاصم... به. جميعًا من طريق داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء... فذكره.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٤٨) من طريق معمر عن قتادة... فذكره. ورواه أيضًا في (١٦/ ٤٨) من طريق جابر بن نوح عن مبارك عن الحسن... نحوه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام بالسنة) باب (ما يُكره من التعمق والتنازع) (١٣/ ٢٩٠) حديث رقم/ ٧٣٠٥ ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (حكم الفيء) (٣/ ٤٩/ ١٣٧٧) كلاهما من طريق ابن شهاب... به.

الدواعي على بقائها ليكون ذلك النفع دائمًا مستمرًا. **السابع:** اتفق أكثر المفسرين على أن يعقوب هاهنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام لأن زوجة زكرياء هي أخت مريم، وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب، وأما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هارون أخي موسى عليه السلام، وهارون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحاق، وكانت النبوة في سبط يعقوب لأنه هو إسرائيل ﷺ وقال بعض المفسرين: ليس المراد من يعقوب هاهنا ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان، أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء. وهذا قول الكلبي ومقاتل.

وقال الكلبي: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا رأس الأحبار يومئذٍ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بني ماثان ملكهم.

واعلم أنهم ذكروا في تفسير الرضي وجوهًا:

أحدها: أن المراد واجعله رضيًا من الأنبياء. وذلك لأن كلهم مرضيون فالرضي منهم مفضل على جملتهم فائق لهم في كثير من أمورهم، فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين، لم يعص ولم يهم بمعصية، وهذا غاية ما يكون به المرء رضيًا.

وثانيها: المراد بالرضي أن يكون رضيًا في أمته لا يُتلقى بالتكذيب ولا يواجَه بالرد.

وثالثها: المراد بالرضي أن لا يكون متهمًا في شيء ولا يوجد فيه مطعن ولا يُنسب إليه شيء من المعاصي.

ورابعها: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا في الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[البقرة: ١٢٨] وكانا في ذلك الوقت مسلمين، وكأن المراد هناك ثبّتنا على هذا. أو المراد: اجعلنا فاضلَين من أنبيائك المسلمين. فكذا هاهنا واحتج أصحابنا في مسألة خلق الأفعال بهذه الآية لأنه إنما يكون رضيًا بفعله، فلما سأل الله تعالى جعله رضيًا دل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى. فإن قيل: المراد منه أن يلطف له بضروب الألطاف فيختار ما يصير مرضيًا فينسب ذلك إلى الله تعالى. والجواب من وجهين: الأول: أن جعله رضيًا لو حملناه على جعل الألطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيًا لكان ذلك مجازًا وهو خلاف الأصل. والثاني: أن جعل تلك الألطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الإخلال به، وما كان واجبًا لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في من المنادي بقوله: (يا زكريا): فالأكثرون على أنه هو الله

تعالى، وذلك لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله، وهو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]وقوله: ﴿فَهَبْ لِي﴾ [مريم: ٥]وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]وإذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطابًا مع الله تعالى، وجب أن يكون النداء من الله تعالى وإلا لفسد النظم. ومنهم من قال: هذا نداء المَلَك واحتج عليه بوجهين: **الأول:**قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]. **الثاني:**أن زكريا عليه السلام لما قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٨، ٩]وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله، فوجب أن يكون كلام المَلَك. **والجواب عن الأول:** أنه يحتمل أن يقال: حصل النداءان نداء الله ونداء الملائكة. **وعن الثاني:** أنا نبين إن شاء تعالى أن قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] يمكن أن يكون كلام الله.

المسألة الثانية: فإن قيل: إن كان الدعاء بإذن فما معنى البشارة، وإن كان بغير إذن فلماذا أقدم عليه؟ والجواب هذا أمر يخصه، فيجوز أن يسأل بغير إذن، ويحتمل أنه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبُشر به.

المسألة الثالثة: اختلف المفسرون في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ على وجهين:

أحدهما: وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم.

الثاني: أن المراد بالسمي: النظير، كما في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] واختلفوا في ذلك على وجوه: أحدها: أنه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية، كأنه جواب لقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فقيل له: إنا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيهًا في الدين، ومن كان هكذا فهو في غاية الرضا. وهذا الوجه ضعيف لأنه يقتضي تفضيله على الأنبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وإبراهيم وموسى، وذلك باطل بالاتفاق. وثانيها: أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم، في الوجود، وأما يحيى عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية. **وثالثها:** أنه وُلد بين شيخ فان وعجوز عاقر.

واعلم أن الوجه الأول أَوْلى وذلك لأن حمل السمي على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم، ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة. وإنه لا يجوز، وأما قول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لأنه قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته، فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر، أما هاهنا لا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب إجراؤه عليه،

ولأن في تفرده بذلك الاسم ضربًا من التعظيم لأنا نشاهد أن الملك إذا كان له لقب مشهور فإن حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيمًا له فكذلك هاهنا.

المسألة الرابعة: في أنه عليه السلام سمي بيحيى، روى الثعلبي فيه وجوهًا: **أحدها**: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أحيا به عقر أمه. **وثانيها**: عن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، والله تعالى سمى المطيع حيًّا والعاصي ميتًا بقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. **وثالثها**: إحياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ عَصَى أَوْ هَمَّ إِلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ لَمْ يَهُمَّ وَلَمْ يَعْمَلْهَا**»[1] **ورابعها**: عن أبي القاسم بن حبيب أنه استشهد وأن الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. **وخامسها**: ما قاله عمرو بن عبد الله المقدسي: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قل ليسارة، وكان اسمها كذلك: بأني مُخرج منها عبدًا لا يهم بمعصية اسمه يحيى. فقال: هبي له من اسمكِ حرفًا. فوهبته حرفًا من اسمها فصار يحيى، وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة. **وسادسها**: أن يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حيًّا بذلك الإيمان، وذلك أن أم يحيى كانت حاملاً به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى: يا مريم أحامل أنت؟ فقالت: لماذا تقولين؟ فقالت: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك. **وسابعها**: أن الدين يحيا به لأنه إنما سأله زكريا لأجل الدين.

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأن أسماء الألقاب لا يُطلب فيها وجه الاشتقاق، ولهذا قال أهل التحقيق: أسماء الألقاب قائمة مقام الإشارات، وهي لا تفيد في المسمى صفة ألبتة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (عتيًّا وصليًّا وجثيًّا وبكيًّا) بكسر العين والصاد والجيم والباء، وقرأ حفص عن عاصم بكيًّا بالضم والباقي بالكسر، والباقون جميعًا بالضم، وقرأ ابن

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٥٤) حديث رقم/ ٢٢٩٤ قال: حدثنا عفان... به. وأبو يعلى في (مسنده) (٤/ ٤١٨) حديث رقم/ ٢٥٤٤ من طريق عفان... به. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٢٢٢) حديث رقم/ ٦٦٥ من طريق حماد بن سلمة... به. والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ١٨٦) من طريق حماد بن سلمة... به. والحديث مداره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. ورواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (١١/ ٥٦١) حديث رقم/ ٣٢٥٧٠ من طريق يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو وقال... فذكره موقوفًا وهو صحيح موقوف.

مسعود بفتح العين والصاد من عتيًا وصليًا. وقرأ أُبي بن كعب وابن عباس عسيًّا بالسين غير المعجمة، والله أعلم.

المسألة الثانية: في الألفاظ وهي ثلاثة: الأول: الغلام الإنسان الذكَر في ابتداء شهوته للجماع، ومنه اغتلم إذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال: غلام ثعلب. الثاني: العتي والعبسي واحد، تقول: عتا يعتو عتوًّا وعتيًّا فهو عاتٍ وعسا يعسو عسوًّا وعسيًّا فهو عاسٍ والعاسي هو الذي غيَّره طول الزمان إلى حال البؤس. وليل عاتٍ: طويل. وقيل: شديد الظلمة. الثالث: لم يقل عاقرة لأن ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فإنه لا تدخل فيه الهاء، نحو امرأة عاقر وحائض، قال الخليل: هذه الصفات مذكرة وُصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا: رجل ملحة وربعة وغلام نفعة.

المسألة الثالثة: في هذه الآية سؤالان: **الأول:** أن زكريا عليه السلام لمَ تعجَّب بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ مع أنه هو الذي طلب الغلام؟ السؤال الثاني: أن قوله: أنى يكون لي غلام لم يكن هذا مذكورًا بين أمته لأنه كان يخفي هذه الأمور عن أمته، فدل على أنه ذكره في نفسه، وهذا التعجب يدل على كونه شاكًا في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الأنبياء عليهم السلام. **والجواب عن السؤال الأول:** أما على قول من قال: (إنه لم يطلب خصوص الولد) فالسؤال زائل، وأما على قول من قال (إنه طلب الولد) فالجواب عنه أن المقصود من قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد، أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وما هذا الإصلاح إلا أنه أعاد قوة الولادة، وقد تقدم تقرير هذا الكلام، وذكر السدي في الجواب وجهًا آخر فقال: إنه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال: إن هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك. فلما شك زكريا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ واعلم أن غرض السدي من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له أن يقول ذلك فارتكب هذا، وقال بعض المتكلمين: هذا باطل قطعًا إذ لو جوز الأنبياء في بعض ما يرد عن الله تعالى أنه من الشيطان، لجوزوا في سائره ولزالت الثقة عنهم في الوحي وعنا فيما يوردونه إلينا ويمكن أن يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم في أول الأمر، وإنما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة في هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها، والله أعلم، والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: **الأول:** أن قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] ليس نصًّا في كون ذلك الغلام ولدًا له، بل يحتمل أن زكريا عليه السلام راعى الأدب ولم يقل هذا الكلام هل يكون لي ولد أم لا، بل ذكر أسباب تعذر حصول الولد في العادة حتى أن تلك البشارة إن كانت بالولد فالله تعالى يزيل الإبهام ويجعل

الكلام صريحًا، فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكًّا في قدرة الله تعالى عليه. **الثاني:** أنه ما ذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته، وهذا كالرجل الذي يرى صاحبه قد وُهب الكثير الخطير فيقول: إنّى سمحَتْ نفسك بإخراج مثل هذا من ملكك؟! تعظيمًا وتعجبًا. **الثالث:** أن من شأن من بُشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول ما يرد على استثبات ذلك الكلام، إما لأن شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر، وهذا كما أن امرأة إبراهيم عليه السلام بعد أن بُشرت بإسحاق قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢] فأزيل تعجبها بقوله: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: ٧٣] وإما طلبًا للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى، وإما مبالغة في تأكيد التفسير.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ وجوه: أحدها: أن الكاف رفع، أي الأمر كذلك تصديقًا له. ثم ابتدأ قال ربك. وثانيها: نصب يقال وذلك إشارة إلى مبهم تفسيره هو عليّ هين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وثالثها: أن المراد لا تعجب فإنه كذلك قال ربك لا خُلْف في قوله ولا غلط ثم قال بعده: هو عليَّ هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئًا. ورابعها: أنا ذكرنا أن قوله: (إنّى يكون لي غلام) معناه تعطيني الغلام بأن تجعلني وزوجتي شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة في الحال.

المسألة الثانية: قرأ الحسن (وهو عليَّ هين) وهذا لا يخرج إلا على الوجه الأول، أي الأمر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك عليَّ هين.

المسألة الثالثة: إطلاق لفظ الهين في حق الله تعالى مجاز؛ لأن ذلك إنما يجوز في حق من يجوز أن يصعب عليه شيء، ولكن المراد أنه إذا أراد شيئًا كان.

المسألة الرابعة: في وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فنقول: إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفي المحض كان قادرًا على خلق الذوات والصفات والآثار، وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات، والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معًا أَوْلى أن يكون قادرًا على تبديل الصفات، وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماءان اللذان من

اجتماعهما يُخلق الولد؛ ولذلك قال: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا وجه الاستدلال.

المسألة الخامسة: الجمهور على أن قوله: (قال كذلك قال ربك) يقتضي أن القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] قول الله تعالى. وقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ قول الله تعالى وهذا بعيد؛ لأنه إذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح إدراج هذه الألفاظ فيما بين هذين القولين؟! والأَوْلى أن يقال: قائل هذا القول أيضًا هو الله تعالى، كما أن الملك العظيم إذا وعد عبده شيئًا عظيمًا فيقول العبد: من أين يحصل لي هذا؟! فيقول: إن سلطانك ضمن لك ذلك. كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطانًا مما يوجب عليه الوفاء بالوعد، فكذا هاهنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: (طَلَب الآية لتحقيق البشارة) وهذا بعيد لأن بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول، وقال آخرون: البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يُعرف وقتها بمجرد البشارة، فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق.

المسألة الثانية: اتفقوا على أن تلك الآية هي تعذر الكلام عليه، فإن مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة، ثم اختلفوا على قولين: أحدهما: أنه اعتقل لسانه أصلاً. والثاني: أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكنًا من ذكر الله ومن قراءة التوراة. وهذا القول عندي أصح لأن اعتقال اللسان مطلقًا قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله، فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتقال معجزًا إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات، وهذا مما لا يُعرف إلا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة إلى دلالة أخرى، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة، علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض، بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية ومعجزة، ومما يقوي ذلك قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ خص ذلك بالتكلم مع الناس، وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادرًا على التكلم مع غير الناس.

المسألة الثالثة: اختلفوا في معنى ﴿سَوِيّٗا﴾ فقال بعضهم: هو صفة لليالي الثلاث. وقال أكثر

المفسرين: هو صفة لزكريا والمعنى: آيتك أن لا تكلم الناس في هذه المدة مع كونك سويًّا لم يحدث بك مرض.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ قيل: كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل إلى قومه، فعند ذلك أوحى إليهم. وقيل: كان موضعًا يصلي فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلا بإذنه، وأنهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن، فخرج إليهم وهو لا يتكلم فأوحى إليهم.

المسألة الثانية: لا يجوز أن يكون المراد من قوله (أوحى إليهم) الكلام لأن الكلام كان ممتنعًا عليه، فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك، إما بالإشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة، لأن كل ذلك يفهم منه المراد، فعلموا أنه قد كان ما بُشر به، فكما حصل السرور له حصل لهم، فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالإجابة، واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]والرمز لا يكون كناية للكلام.

المسألة الثالثة: اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة، وهو جائز في اللغة، يقال: سبحة الضحى، أي صلاة الضحى، وعن عائشة رضي الله عنها في صلاة الضحى: (إني لأسبحها) أي لأصليها، إذا ثبت هذا فنقول: روي عن أبي العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشي صلاة العصر. ويحتمل أن يكون إنما كانوا يصلون معه في محرابه هاتين الصلاتين، فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه، فلما اعتقل لسانه خرج إليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى وصف (يحيى) في هذه الآية بصفات تسع:

الصفة الأولى: كونه مخاطبًا من الله تعالى بقوله: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذي يجوز أن يخاطبه بذلك، فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه.

المسألة الثانية: الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التي هي نعمة الله على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦]ويحتمل أن يكون

كتابًا خص الله به يحيى، كما خص الله تعالى الكثير من الأنبياء بذلك، والأول أَوْلى لأن حمل الكلام هاهنا على المعهود السابق أَوْلى ولا معهود هاهنا إلا التوراة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ ليس المراد منه القدرة على الأخذ لأن ذلك معلوم لكل أحد، فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة، وحاصلها يرجع إلى حصول ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهي عنه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ اعلم أن في الحكم أقوالاً: الأول: أنه الحكمة، ومنه قول الشاعر:

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ ... إِلَى حَمَامٍ سِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ (١)

وهو الفهم في التوراة والفقه في الدين. والثاني: وهو قول معمر أنه العقل، روي أنه قال: ما للعب خلقنا. والثالث: أنه النبوة فإن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمدًا عليهما السلام وقد بلغا الأشد، والأقرب حمله على النبوة لوجهين: الأول: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذِكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها، فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها. الثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة. فإن قيل: كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا: هذا السائل إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه: فإن منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات، ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلاً أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق، كما يقال: (حنين الناقة) وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها، ذكر الخليل ذلك في الحديث: «أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُصَلِّي إِلَى جِذْعٍ من الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا اتُّخِذَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ، حَنَّتْ تِلْكَ الْخَشَبَةُ حَتَّى سَمِعَ حَنِينُهَا» (٢) فهذا هو الأصل ثم قيل: تحنن فلان على فلان إذا تعطَّف

---

(١) البيت للشاعر النابغة الذبياني وهو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. ١٨ ق.هـ/ ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (المناقب) باب (علامات النبوة في الإسلام) (٦/ ٦٩٦) حديث رقم/ ٣٥٨٣ والترمذي في كتاب (أبواب الصلاة) باب (ما جاء في الخطبة على المنبر) (٢/ ٣٧٩) حديث رقم/ ٥٠٥ والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (ما أكرم النبي ﷺ بحنين المنبر) (١/ ١٨) حديث رقم/ ٣١ جميعًا من طريق عثمان بن عمر... به.

عليه ورحمه، وقد اختلف الناس في وصف الله بالحنان: فأجازه بعضهم وجعله بمعنى الرؤوف الرحيم، ومنهم من أباه لما يرجع إليه أصل الكلمة، قالوا: لم يصح الخبر بهذه اللفظة في أسماء الله تعالى. إذا عرفت هذا فنقول: الحنان هنا فيه وجهان.

أحدهما: أن يُجعل صفة لله.

وثانيهما: أن يُجعل صفة ليحيى، أما إذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول: التقدير وآتيناه الحكم حنانًا أي رحمة منا. **ثم هاهنا احتمالات:**

الأول: أن يكون الحنان من الله ليحيى، المعنى: آتيناه الحكم صبيًّا، ثم قال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي إنما آتيناه الحكم صبيًّا حنانًا من لدنا عليه، أي رحمة عليه وزكاة، أي وتزكية له وتشريفًا له. **الثاني:** أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام، فكأنه تعالى قال: إنما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولدًا ثم آتيناه الحكم صبيًّا وحنانًا من لدنا عليه، أي على زكريا فعلنا ذلك. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء. **والثالث:** أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام، كأنه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا﴾ منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وإرشاده.

أما إذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه:

الأول: آتيناه الحكم والحنان على عبادنا، أي التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم، كما وصف نبيه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة، ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب، لأن الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فالمعنى إنما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات، ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية، وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ والمعنى آتيناه الحكم صبيًّا تعظيمًا إذ جعلناه نبيًّا وهو صبي ولا تعظيم أكثر من هذا، والدليل عليه ما روي أنه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء، ويقول: أحد أحد!! فقال: والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لأتخذنه حنانًا!! أي معظمًا.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ وفيه وجوه:

أحدها: أن المراد: وآتيناه زكاة، أي عملاً صالحًا زكيًّا، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج.

وثانيها: زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء، عن الحسن.

وثالثها: زكيناه بحسن الثناء كما تُزكي الشهود الإنسان.

ورابعها: صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي.

وخامسها: بركة ونماء وهو الذي قال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

واعلم أن هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى؛ لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى، وحَمْله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وقد عرفت معناه، وبالجملة فإنه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله، وأَوْلى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية، وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك، فإن قيل: ما معنى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وهذا حين ابتداء تكليفه؟ قلنا: إنما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب، وذلك من صفات المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال، ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر؟! ولذلك فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعدًا عن رحمة الله تعالى وعن الدين. وقيل: الجبار هو الذي لا يرى لأحد على نفسه حقًّا، وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد، وقال سفيان في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: إنه الذي يقبل على الغضب. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وقيل: كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

الصفة الثامنة: قوله: ﴿عَصِيًّا﴾ وهو أبلغ من العاصي، كما أن العليم أبلغ من العالم.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وفيه أقوال:

أحدها: قال محمد بن جرير الطبري: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أي أمان من الله يوم وُلد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أي وأمان عليه من عذاب القبر: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي ومن عذاب القيامة.

وثانيها: قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه

خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا ما شاهدهم قط، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة.

وثالثها: قال عبد الله بن نفطويه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ أي أول ما يرى الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة. وإنما قال: ﴿حَيًّا﴾ تنبيهًا على كونه من الشهداء لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فروع. الأول: هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة، وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى.

الثاني: ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩] لأنه قال و﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام.

الثالث: روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام: أنت أفضل مني لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على نفسي. وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيى لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به.

الرابع: السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلاً من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث في المحشر - فقد يجوز أن يكون ثوابًا كالمدح والتعظيم، والله تعالى أعلم.

القول في فوائد هذه القصة:

الفائدة الأولى: تعليم آداب الدعاء وهي من جهات: أحدها: قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ولأن رفع الصوت مُشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مُشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار والتبري عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه. وثانيها: أن المحتسب أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها، كما في قوله تعالى عنه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ثم يذكر كثرة نعم الله على ما في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]. وثالثها: أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥]. ورابعها: أن يكون الدعاء بلفظ (يا رب) على ما في هذا الموضع.

الفائدة الثانية: ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام: أما زكريا فأمور: أحدها: نهاية تضرعه في نفسه وانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية. وثانيها: إجابة الله تعالى دعاءه. وثالثها: أن الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمران معًا. ورابعها: اعتقال لسانه عن الكلام

دون التسبيح. وخامسها: أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١].

الفائدة الثالثة: كونه تعالى قادرًا على خلق الولد وإن كان الأبوان في نهاية الشيخوخة؛ ردًا على أهل الطبائع.

الفائدة الرابعة: صحة الاستدلال في الدين لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

الفائدة الخامسة: أن المعدوم ليس بشيء والآية نص في ذلك، فإن قيل: المراد: ولم تك شيئًا مذكورًا كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] قلنا: الإضمار خلاف الأصل. وللخصم أن يقول: الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئًا. ونحن نقول به لأن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض مخصوصة، والجواهر المتألفة الموصوفة بالأعراض المخصوصة غير ثابتة في العدم، إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهي ليست بإنسان، فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب.

الفائدة السادسة: أن الله تعالى ذكر هذه القصة في سورة آل عمران وذكرها في هذا الموضع، فلنعتبر حالها في الموضعين فنقول: الأول: أنه تعالى بَيَّن في هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبيَّنه في آل عمران بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨] والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا. الثاني: وهو أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة لقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وفي هذه السورة الأظهر أن المنادي بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] هو الله تعالى، وقد بينا أنه لا منافاة بين الأمرين. الثالث: أنه قال في آل عمران: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٤٠] فذكر أولاً كبر نفسه ثم عقر المرأة، وهو في هذه السورة قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] وجوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب. الرابع: قال في آل عمران: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: ٤٠] وقال هاهنا ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾ [مريم: ٨] وجوابه أن ما بلغك فقد بلغته. الخامس: قال في آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران: ٤١] وقال هاهنا: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] وجوابه: دلت الآيتان على أن المراد ثلاثة أيام بلياليهن، والله أعلم.

القصة الثانية: قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام: اعلم أنه تعالى إنما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام، لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات – من

تخليق الولد لا من الأب ألبتة، وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقيًا إلى الأصعب فالأصعب.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إذ) بدل من (مريم) بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه.

المسألة الثانية: النبذ أصله الطرح والإلقاء، والانتباذ افتعال منه، ومنه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وانتبذت: تنحّت، يقال: جلس نبذة من الناس و(نبذة) بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا إذا جلس قريبًا منك حتى لو نبذت إليه شيئًا وصل إليه. ونبذت الشيء رميته، ومنه النبيذ لأنه يُطرح في الإناء، وأصله منبوذ فصُرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به، ومنه النهي عن المنابذة في البيع وهو أن يقول: إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع إذا عرفت.

هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحية الشرق، ثم بَيَّن تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجابًا مستورًا، وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع، بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط أو غيره، ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم سترًا، وهذا الوجه الثاني أظهر من الأول، ثم لا بد من احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكورًا، واختلف المفسرون فيه على وجوه: الأول: أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد؛ للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود، فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام. والثاني: أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة. والثالث: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها. والرابع: أنها كان لها في منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها، فتمنت (على) الله (أن) تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك. وخامسها: عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي.

واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها.

المسألة الثالثة: المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة! لقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

المسألة الرابعة: أنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح، واختلف المفسرون في هذا الروح: فقال الأكثرون: إنه جبريل عليه السلام. وقال أبو مسلم: إنه الروح الذي تصور في بطنها بشرًا. والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحًا قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]وسُمي روحًا لأنه روحاني وقيل: خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريبًا، كما تقول لحبيبك (روحي) وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا، وإذا ثبت أنه يسمى روحًا فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام. **واختلفوا في أنه كيف ظهر لها. فالأول:**أنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق. **والثاني:**أنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس. وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين: ثم قال: وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه. **ثم هاهنا إشكالات:**

أحدها:وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك في صورة إنسان معين، فحينئذٍ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالأمس؛ لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفَتْح هذا الباب يؤدي إلى السفسطة، لا يقال هذا إنما يجوز في زمان جواز البعثة، فأما في زماننا هذا فلا يجوز لأنا نقول: هذا الفرق إنما يُعلم بالدليل، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالأمس.

وثانيها:أنه جاء في الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جدًا، فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الإنسان؟ أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل؟ أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال؟

وثالثها:وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي، فلِمَ لا يجوز تمثله في صورة جسم أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض، ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل.

ورابعها:أن تجويزه يفضي إلى القدح في خبر التواتر، فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمدًا بل كان شخصًا آخر تَشَبَّه به، وكذا القول في الكل. **والجواب عن الأول:**أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار، فقد قطع بكونه تعالى قادرًا على أن يخلق شخصًا آخر مثل زيد في خلقته وتخطيطه، وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في أن زيدًا المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس أم لا، ومن أنكر الصانع المختار وأسند

الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك، لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب في الأفلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الأمور، وحينئذٍ يعود التجويز المذكور.

وعن الثاني: أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة، والأجزاء الأصلية قليلة جدًّا فحينئذٍ يكون متمكنًا من التشبه بصورة الإنسان، هذا إذا جعلناه جسمانيًّا، أما إذا جعلناه روحانيًّا، فأي استبعاد في أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير.

وعن الثالث: أن أصل التجويز قائم في العقل، وإنما عُرف فساده بدلائل السمع، وهو الجواب عن السؤال الرابع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾

وفيه وجوه: أحدها: أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك. وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي، وهو كقوله: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يُخشى في حال دون حال. وثانيها: أن معناه ما كنت تقيًّا حيث استحللت النظر إليَّ وخلوت بي. وثالثها: أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء، فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى. والأول هو الوجه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لما علم جبريل خوفها قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف، ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول، بل لا بد من دلالة تدل على أنه جبريل عليه السلام وما كان من الناس، فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام، ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة، فلما قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك، فيكون ذلك هو العلم. وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال: إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم أن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالاً، فكيف يصح ذلك؟! وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام، وكان رسولاً وكل ذلك كان عالمًا به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولاً للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالمًا به، وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزًا له؟ بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر ونافع (ليهب) بياء مفتوحة بعد اللام، أي ليهب الله لك، والباقون بهمزة مفتوحة بعدها، أما قوله (لأهب لك) ففي مجازه وجهان: الأول: أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى، جعل نفسه كأنه هو الذي وهب

لها، وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل، قال تعالى في الأصنام: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٦] . الثاني: أن جبريل عليه السلام لما بشَّرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة.

فإن قال قائل: ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها؟ والذي يقال فيه: إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الأشياء: أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز، وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة، وهو ضعيف لأن للخصم أن يقول: لا نسلم أن كل محدث إما متحيِّز أو قائم به، بل هاهنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز، ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالاً لذات الله تعالى؟ لأن الاشتراك في الصفات الثبوتية لا يقتضي التماثل، فكيف في الصفات السلبية؟! سلَّمنا كونه جسمًا فلمَ قلتُ الجسم لا يقدر عليه. قوله: الأجسام متماثلة. قلنا: نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات، أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها. والأول مسلَّم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات، والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات المواصفات، سلَّمنا أن الأجسام متماثلة فلمَ لا يجوز أن يقال: إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك. والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال إجماع الأمة فقط، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الزكي يفيد أمورًا ثلاثة: الأول: أنه الطاهر من الذنوب. والثاني: أنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له: زكي، وفي الزرع النامي زكي. والثالث: النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يُبعث نبيًا، وقال بعض المتكلمين: الأولى أن يُحمل على الكل. وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين، سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازًا وفي الآخر حقيقة.

المسألة الرابعة: سماه زكيًا مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا، وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئًا فهو شقي عندك. وإنما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكيًا، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب، وأنت فإنما تسمي بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنها إنما تعجبت بما بشَّرها جبريل عليه السلام لأنها عرفت بالعادة أن

الولادة لا تكون إلا من رجل، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة، فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء، وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد، ولأنها كانت منفردة بالعبادة، ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدخل تحته قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادتها؟ ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]فلم تذكر البغاء. والجواب من وجوه: أحدها: أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]والزنا ليس كذلك، إنما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات. وثانيها: أن إعادتها لتعظيم حالها كقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]فكذا ههنا إن من لم تُعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية، فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): البغي الفاجرة التي تبغي الرجال، وهو فَعول عند المبرد بَغُوى فأُدغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب (التمام): هو فعيل ولو كان فعولاً لقيل بَغوا كما قيل نَهوا عن المنكر.

المسألة الرابعة: أن جبريل عليه السلام أجابها بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وهو كقوله في آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه، ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد.

المسألة الخامسة: الكناية في: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ تحتمل وجهين: الأول: أن تكون راجعة إلى الخلق، أي أن خلقه عليَّ هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ وُلد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر، فيكون قبول قوله أقرب. الثاني: أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة، أُعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الأمر الغريب، فأما قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيحتمل أن يكون معطوفًا على ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فعلنا ذلك، ويحتمل أن يكون معطوفًا على الآية أي: ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه؛ لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً، وهو محال والمفضي إلى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب، وأيضًا فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر إلى

واجب الوجود، والمنتهي إلى الواجب انتهاء واجبًا يكون واجب الوجود، وإذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والأسف، وهذا هو سر قوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدَرِ هَانَتْ عليه المصائب»(١).

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أي في عيسى عليه السلام، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها، واختلفوا في النافخ: فقال بعضهم: كان النفخ من الله تعالى لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فكذا هاهنا. وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام، فلا بد من إحالة النفخ إليه. ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين: الأول: قول وهب: إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم. الثاني: في ذيلها فوصلت إلى الفرج. الثالث: قول السدي: أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت، فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا: إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك. فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. الرابع: أن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال، إذا عرفت هذا ظهر أن في الكلام حذفًا وهو: وكان أمرًا مقضيًّا، فنفخ فيها فحملته.

المسألة الثانية: قيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشرين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال.

المسألة الثالثة: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت والدهن فيها، واختلفوا في علة الانتباذ على وجوه: **أحدها:** ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال: إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم

(١) تقدم تخريجه.

يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهادًا ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير في أمرها، فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل، فأول ما تكلم أن قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري. فقالت: قل قولاً جميلاً. قال: أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكَر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة؟ أو تقول: إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف: لا أقول: هذا ولكني أقول إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون، فقالت له مريم: أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟

فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلما دنا نفاسها اوحى الله إليها أن أخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك. فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة، وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها.

وثانيها: أنها استحيت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا.

وثالثها: أنها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء في تربيتها وتكفُّل زكريا بها، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى، فلما كانت في نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة، فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا.

ورابعها: أنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم، واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الرابعة: اختلفوا في مدة حملها على وجوه: الأول: قول ابن عباس رضي الله عنهما: إنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء، بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع، فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر. الثاني: أنها كانت ثمانية أشهر، ولم يعش مولود وُضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام. الثالث: وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك: سبعة أشهر. الرابع: أنها كانت ستة أشهر. الخامس: ثلاث ساعات حملته في ساعة وصُوِّر في ساعة ووضعته في ساعة. السادس: وهو فول ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: كانت مدة الحمل ساعة واحدة. ويمكن الاستدلال عليه من وجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ [مريم: ٢٢]﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ [مريم: ٢٣]﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤]والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه

الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل، وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة، لا يقال انتباذها مكانًا قصيًّا كيف يحصل في ساعة واحدة؟! لأنا نقول: السُّدي فسره بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها. الثاني: أن الله تعالى قال في وصفه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهذا مما لا يُتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة.

المسألة الخامسة: ﴿قَصِيًّا﴾ أي بعيدًا من أهلها، يقال: مكان قاصٍ وقَصِي بمعنى واحد، مثل عاص وعَصِي، ثم اختلفوا فقيل: أقصى الدار، وقيل: وراء الجبل، وقيل: سافرت مع ابن عمها يوسف. وقد تقدمت هذه الحكاية.

المسألة السادسة: قال صاحب (الكشاف): (أَجَاءَ) منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فإنك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما تقول: بلغنيه وأبلغته، والمعنى أن طلقها ألجأها إلى جذع النخلة، ثم يُحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلبًا لسهولة الولادة للتشبث بها. ويحتمل للتقوية والاستناد إليها، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنت الموت.

المسألة السابعة: قال في (الكشاف): قرأ ابن كثير في رواية (المِخاض) بالكسر يقال: مخضت الحامل مَخاضًا ومِخاضًا وهو تمخض الولد في بطنها.

المسألة الثامنة: قال في (الكشاف): كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل: (جذع النخلة) فُهم منه ذلك، دون سائره، وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، ولأن النخلة أقل الأشياء صبرًا على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح، وإذا قطعت رأسها لم تثمر، فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكَر، فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إني أُظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكَر.

المسألة التاسعة: لمَ قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها، وخلَق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين؟ والجواب من وجهين: **الأول:** قال وهب: أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس (مِنْ) بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام. **الثاني:** أن عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك. وروي عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر تقع على الشجرة وتأكل من الثمر! وددت أني ثمرة ينقرها الطائر! وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض وقال: ليتني

هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئًا! وقال علي يوم الجمل: يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وعن بلال: ليت بلالاً لم تلده أمه. فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم. **الثالث:** لعلها قالت ذلك لكيلا تقع المعصية ممن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بُشرت به.

المسألة العاشرة: قال صاحب (الكشاف): النسي ما من حقه أن يُطرح ويُنسى كخرقة الطمث ونحوها، كالذِّبح اسم ما من شأنه أن يُذبح، كقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] تمنت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة (نَسيًا) بالفتح والباقون (نسيًا) بالكسر قال الفراء: هما لغتان كالوَتر والوِتر والجَسر والجِسر. وقرأ محمد بن كعب القرظي نسيئًا بالهمزة وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه أهله لقلته وقرأ الأعمش (مِنِسيًّا) بالكسر على الإتباع كالمِغير والمِنخر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: (فناداها من تحتها) القراءة المشهورة (فناداها) وقرأ زر وعلقمة (فخاطبها) وفي الميم فيها قراءتان: فتح الميم وهو المشهور، وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص، وفي المنادي ثلاثة أوجه: **الأول:** أنه عيسى عليه السلام. وهو قول الحسن وسعيد بن جبير. **والثاني:** أنه جبريل عليه السلام وأنه كان كالقابلة للولد. **والثالث:** أن المنادي على القراءة بالكسر هو المَلَك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم. والأول أقرب لوجوه: **الأول:** أن قوله: (فناداها مَن تحتها) بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحدًا والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام، فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادي جبريل عليه السلام، فقد صح قولنا. **الثاني:** أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة. **الثالث:** أن قوله (فناداها) فعل ولا بد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ [مريم: ٢٢] والضمير هاهنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى. **والرابع:** وهو دليل الحسن بن علي عليه السلام أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام. فأما من قال: (المنادي هو عيسى عليه السلام) فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول

الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال: (المنادي جبريل عليه السلام) قال: إنه أُرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أُرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيرًا لها بما تقدم من أصناف البشارات.

وأما قوله: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ فإن حملناه على الولد فلا سؤال، وإن حملناه على الملك ففيه وجهان: الأول: أن يكونا معًا في مكان مستو، ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا، فكل من كان أقرب منها كان فوق، وكل من كان أبعد منها كان تحت. وفسر الكلبي قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]بذلك وعلى هذا الوجه، قال بعضهم: إنه ناداها من أقصى الوادي. والثاني: أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر، فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل، وعلى هذا الوجه روي عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية. وفيه وجه ثالث: يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة. ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته، وأنها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شيء من ذلك.

المسألة الثانية: اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري هو النهر والجدول، سُمي بذلك لأن الماء يسري فيه. وأما الحسن وابن زيد فجعلا السري عيسى، والسري هو النبيل الجليل، يقال: فلان من سروات قومه، أي من أشرافهم. وروي أن الحسن رجع عنه وروي عن قتادة وغيره أن الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فقال: إن كان لسريًّا وإن كان لكريمًا. فقال له حميد: يا أبا سعيد إنما هو الجدول. فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك.

واحتج من حمله على النهر بوجهين: **أحدهما:** أنه سأل النبي ﷺ عن السري فقال: هو الجدول [(١)]. **والثاني:** أن قوله: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب. واحتج مَن حَمَله (على) عيسى بوجهين: **الأول:** أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها، ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها، كما في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]لأن هذا حمل للفظ على مجازه، ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز. **الثاني:** أنه موافق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]والجواب عنه ما تقدم أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين، فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان من تحت. فرعان: الأول: إن حملنا السري على النهر ففيه وجهان: أحدهما: أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب. والثاني: أنه كان هناك ماء جارٍ. والأول

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٠٥) حديث رقم/ ٣٤١٣ من طريق سفيان عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب... فذكره موقوفًا. وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

أقرب لأن قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ مُشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعَظيمًا لشأنها، وذلك لا يَثبت إلا على الوجه الذي قلناه. **الثاني:** اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقًا، وهو قول أبي عبيدة والفراء، أو النهر الصغير على ما هو قول الأخفش.

المسألة الثالثة: قال القفال: الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الثمرة. وقال قطرب: كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع. وأما الباء في قوله (بجذع النخلة) فزائدة والمعنى: هزي إليك، أي حركي جذع النخلة، قال الفراء: العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة. وقال الأخفش: يجوز أن يكون على معنى (هزي إليك رطبًا بجذع النخلة) أي على جذعها.

إذا عرفت هذا فنقول: قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير، وهل أثمر مع الرطب غيره؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة لقوله (بجذع النخلة) وأنه ما أثمر إلا الرطب.

المسألة الرابعة: قال صاحب (الكشاف): تساقط فيه تسع قراءات: (تسَّاقطِ) بإدغام التاء و(تتساقط) بإظهار التاءين و(تساقط) بطرح الثانية و(يسَّاقط) بالياء وإدغام التاء و(تساقط) و(تسقط) و(يَسقط) و(تُسقط) و(يُسقط) التاء للنخلة والياء للجذع.

المسألة الخامسة: رطبًا تمييز أو مفعول على حسب القراءة (الجني) المأخوذ طريًا وعن طلحة بن سليمان جِنيًا بكسر الجيم للإتباع والمعنى: جمعنا لكِ في السري والرطب فائدتين: إحداهما: الأكل والشرب. والثانية: سلوة الصدر بكونهما معجزتين. فإن قال قائل: فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن؟ قلنا: قالت المعتزلة: إنها كانت معجزة لزكريا وغيره من الأنبياء. وهذا باطل لأن زكرياء عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها، فكيف بتلك المعجزات؟! بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام.

المسألة السادسة: (فكلي واشربي وقري عينًا) قرئ بكسر القاف لغة نجد. ونقول: قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء، ثم قال: (وقري عينًا).

وهاهنا سؤال، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش، والدليل عليه أمران: **أحدهما:** أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن، وألم الروح أقوى من ألم البدن. **والثاني:** ما روي أنه أجيعت شاة ثم قُدم العلف إليها ورُبط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفًا من الذئب، ثم كُسرت رجلها وقُدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن، دلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن.

إذا ثبت هذا فنقول: فلمَ قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف؟ والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً؛ لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت

فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى.

المسألة السابعة: قال صاحب (الكشاف) قرأ: (ترئن) بالهمزة ابن الرومي عن أبي عمرو، وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق: (وذلك) لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صَوْمًا﴾ صمتًا، وفي مصحف عبد الله (صمتًا) وعن أنس بن مالك مثله وقيل صيامًا إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، فعلى هذا كان (ذكر) الصوم دالاً على الصمت وهذا (النوع) من النذر كان جائزًا في شرعهم، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا؟ قال القفال: لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس، وروي أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر: إن الإسلام هدم هذا فتكلمي. والله أعلم.

المسألة الثامنة: أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين: أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا.

المسألة التاسعة: اختلفوا في أنها هل قالت معهم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فقال قوم: إنها ما تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتي بهذا النذر عند رؤيتها، فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها. وقال آخرون: إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وهذه الصيغة وإن كانت عامة إلا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنها كيف أتت بالولد؟ على أقوال: **الأول**: ما روي عن وهب قال: أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام، فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها. **الثاني**: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار، فأدخلها فيه أربعين يومًا حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله

ومسيحه. وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: الفرئ: البديع وهو من فري الجلد، يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ فيحتمل أن يكون المراد شيئًا عجيبًا خارجًا عن العادة، من غير تعيير وذم، ويحتمل أن يكون مرادهم شيئًا عظيمًا منكرًا، فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ لأن هذا القول ظاهره التوبيخ، وأما هارون ففيه أربعة أقوال: **الأول**: أنه رجل صالح من بني إسرائيل، يُنسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنكِ كنت في الزهد كهرون فكيف صرتِ هكذا؟! وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة، ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفًا كلهم يسمون هارون تبركًا به وباسمه. **الثاني**: أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبي ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابه، وإنما قيل (أخت هارون) كما يقال: يا أخا همدان أي يا واحدًا منهم. **والثالث**: كان رجلاً معلنًا بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. **الرابع**: كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به، وهذا هو الأقرب لوجهين: الأول: أن الأصل في الكلام الحقيقة، وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهارون. الثاني: أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح، وحينئذٍ يصير التوبيخ أشد؛ لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

المسألة الثالثة: القراءة المشهورة: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ وقرأ عمرو بن رجاء التميمي: (مَا كَانَ أَبَاكِ امْرُؤُ سَوْءٍ).

المسألة الرابعة: أنهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت إليه، أي إلى عيسى عليه السلام، أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا غضبًا شديدًا وقالوا: لَسخريتُها بنا أشد من زناها. روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان. وقيل: إن زكرياء عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها، فقال لعيسى عليه السلام: انطق بحجتك إن كنت أُمرت بها. فقال عيسى عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] فإن قيل: كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم؟ قلنا: إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام - ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمَرها عند رؤية الناس بالسكوت، فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام، أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكرياء أو لعلها عرفت بالوحي إليها على سبيل الكرامة. **بقي هاهنا بحثان**:

البحث الأول: قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي حصل في المهد فـ(كان) ههنا بمعنى حصل ووجد، وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوهًا أُخر.

البحث الثاني: اختلفوا في المهد: فقيل: هو حجرها لما روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها، فلما رأوها قالوا لها ما قالوا، فأشارت إليه وهو في حجرها، ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد، أو المعنى: كيف نكلم صبيًّا سبيله أن ينام في المهد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ **وفيه فوائد:**

الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية، فإن كان صادقًا في مقاله فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية، فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أَوْلى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أَوْلى. فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًّا، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيمًا حاصرًا يُبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول: إما أن يعتقدوا كونه متحيزًا أو لا: فإن اعتقدوا كونه متحيزًا أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام، وحينئذٍ يبطل كل ما فرعوا عليه. وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم؛ لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام، فإذا لم يكن جسمًا استحال ذلك، ثم نقول: للناس قولان في الإنسان: منهم من قال: إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها. ومنهم من يقول: إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام. فنقول: هؤلاء النصارى إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من

صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه، أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه، أو يقولوا: لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول: إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهًا، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا: إنه على سبيل التشريف اتخذه ابنًا، كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً.

فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل:

أما القول الأول بالاتحاد: فهو باطل قطعًا؛ لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودًا والآخر معدومًا، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل، وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضًا لا يكون اتحادًا بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين وحصول شيء ثالث، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال: المعدوم بعينه هو الموجود، فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال.

وأما الحلول فلنا فيه مقامان:

المقام الأول: أن التصديق مسبوق بالتصور، فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح، وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة: أحدها: كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسمًا، وهم وافقونا على أنه ليس بجسم. وثانيها: حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول: المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعًا لحصول محله فيه، وهذا أيضًا إنما يعقل في حق الأجسام لا في حق الله تعالى. وثالثها: حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات، فنقول: هذا أيضًا باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج، فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجًا فكان ممكنًا فكان مفتقرًا إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته.

المقام الثاني: احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقًا بأن قالوا: لو حل لحل إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل، والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل، وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل، وكلاهما باطلان؛ لأنا دللنا على أن الله قديم، وعلى أن الجسم محدث، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجبًا لذاته، وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل؛ مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاته وحلوله في المحل أمر جائز، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز، فيلزم أن يكون حلوله في المحل أمرًا زائدًا على ذاته، وذلك محال لوجهين:

أحدهما: أن حلوله في المحل لو كان زائدًا على ذاته، لكان حلول ذلك الزائد في محله زائدًا على ذاته أو لزم التسلسل، وهو محال.

والثاني: أن حلوله في ذلك لما كان زائدًا على ذاته، فإذا حل في محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة، وذلك محال لأنه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته، وكانت حاصلة أزلاً، وذلك محال لأن وجود الحوادث في الأزل محال، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل؛ لأنه يلزم، إما حدوث الحال أو قدم المحل، قلنا: لا نسلم وجوب أحد الأمرين، ولمَ لا يجوز أن يقال: إن ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل، ففي الأزل ما وُجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب، فلا جرم لم يجب الحلول، وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب، سلمنا أنه يلزم إما حدوث الحال أو قدم المحل فلمَ لا يجوز. قوله: إنا دللنا على حدوث الأجسام، قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً أو نفسًا أو هيولى على ما يثبته بعضهم، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء. قوله ثانيًا: لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل. قلنا: لا نسلم وجوب أحد الأمرين بل هاهنا احتمالان آخران:

أحدهما: أن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول، فلمَ لا يجوز أن يقال: إن ذاته غنية عن ذلك المحل، ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول، فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته، وقد ثبت أن العلة وإن استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضي احتياجها إلى المعلول.

الثاني: أن يقال: إنه في ذاته يكون غنيًّا عن المحل وعن الحلول، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل، فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية إلى الغير افتقار ذاته إلى الغير؛ وذلك لأن جميع الصفات الإضافية الحاصلة له مثل كونه أولاً وآخرًا ومقارنًا ومؤثرًا ومعلومًا ومذكورًا مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز، وكيف لا والإضافات لا بد في تحققها من أمرين، سلَّمنا ذلك فلمَ لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل. قوله: يلزم أن يكون حلوله فيه زائدًا عليه، ويلزم التسلسل. قلنا: حلوله في المحل لما كان جائزًا كان حلوله في المحل زائدًا عليه. أما كون ذلك الحلول حالاً في المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائدًا عليه فلا يلزم التسلسل. قوله ثانيًا: يلزم أن يصير محل الحوادث. قلنا: لمَ لا يجوز ذلك. قوله: يلزم أن يكون قابلاً للحوادث في الأزل. قلنا: لا شك أن تمكنه من الإيجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهي إلى ذاته، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثرًا في الأزل، فكل ما ذكرتموه في المؤثرية فنحن نذكره في القابلية، **والجواب:** أنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه

الأسئلة، فنقول: ذاته، إما أن تكون كافية في اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية في ذلك، فإن كان الأول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال. وإن كان الثاني كان كونه مقتضيًا لذلك الحلول أمرًا زائدًا على ذاته حادثًا فيه، فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه، لكن يستحيل أن يكون قابلًا للحوادث، وإلا لزم أن يكون في الأزل قابلًا لها وهو محال على ما بيناه، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل، فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال، فهاهنا أيضًا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت في الأزل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور.

هذا تمام القول في هذه الأدلة ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر.

أحدها: أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا: الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال: إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها، فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين. وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال: العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلمَ لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى؟ وإن كان الثاني لزم أن يقال: إن الله تعالى لم يبق عالمًا بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام، وذلك مما لا يقوله عاقل.

وثانيها: مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى، فقلت له: هل تُسلِّم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا؟ فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديمًا لأن دليل وجوده هو العالم، فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل، وإن سلَّمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فنقول: إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه، فكيف عرفت أن كلمة الله تعالى ما دخلت في زيد وعمرو، بل كيف أنها ما حلت في هذه الهرة وفي هذا الكلب؟ فقال لي: إن هذا السؤال لا يليق بك لأنا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فإذا لم نجد شيئًا من ذلك ظهر على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول؟! فقلت له: إني عرفت من هذا الكلام أنك ما عرفت أول الكلام لأنك سلَّمت لي أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنه وجد ما يدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو، ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول، فثبت أنك مهما جوزت القول بالاتحاد

والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد، وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات، ولا شك أن المذهب الذي يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعًا، ثم قلت له: وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت؟ أليس أن انقلاب العصا ثعبانًا أبعد من انقلاب الميت حيًّا، فإذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لا يدل هذا على إلهية عيسى أولى.

وثالثها: أنا نقول: دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية؛ لأنه كان مجتهدًا في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد، فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى: إن اليهود قتلوه. ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية؟!

ورابعها: المسيح إما أن يكون قديمًا أو محدثًا، والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه وُلد وكان طفلاً ثم صار شابًّا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثًا كان مخلوقًا ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل: المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الإلهية فيه. قلنا: هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله، والمسيح هو المحل، والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح (إلا) عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية.

وخامسها: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فإن كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه، فإذن قِد اشتركا من بعض الوجوه، فإن لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر، وإن حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك، فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن، فالواجب ممكن، هذا خلف محال، هذا كله على الاتحاد والحلول.

أما الاحتمال الثالث: وهو أن يقال: معنى كونه إلهًا أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم. فهذا أيضًا باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه، ولو كان قادرًا على خلق الأجسام لما قدروا على قتله، بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرًا يذبون عنه.

وأما الاحتمال الرابع: وهو أنه اتخذه ابنًا لنفسه على سبيل التشريف، فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية، وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ.

فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال: إني عبد الله.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف الناس فيه: فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره. وقال أبو القاسم البلخي: إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذي يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف. أما

الأولون فلهم قولان: أحدهما: أنه كان في ذلك الصغر نبيًّا. الثاني: روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر. ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبيًّا، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور: أحدها: أن النبي لا يكون إلا كاملاً، والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدي من الصغير منفرًا بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة. وثانيها: أنه لو كان نبيًّا في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدمًا على ادعائه للنبوة، إذ النبي لا بد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدمًا على التحدي، وإنه غير جائز. وثالثها: أنه لو كان نبيًّا في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام وتعريف الشرائع، ولو وقع ذلك لاشتهر ولنُقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبيًّا في ذلك الوقت. أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبي ناقصًا ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر جسمه ونقصان فهمه، فإذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل. وعن الكلام الثاني: لمَ لا يجوز أن يقال: إكمال عقله وإن حصل مقدمًا على دعواه إلا أنه معجزة لزكريا عليه السلام، أو يقال: إنه إرهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام، وعندنا الإرهاص والكرامات جائزة، وعن الكلام الثالث: لمَ لا يجوز أن يقال: مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز، ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الأحكام، فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبيًّا في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يدل على كونه نبيًّا في ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة، أما قول أبي القاسم البلخي فبعيد، وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك الكتاب: فقال بعضهم: هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود، والكتاب المعهود لهم هو التوراة، وقال أبو مسلم: المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس، أي آتاني من هذا الجنس، وقال قوم: المراد هو التوراة والإنجيل؛ لأن الألف واللام تفيد الاستغراق.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبيًّا لأن قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل، إما ملاصقًا لذلك الكلام أو متقدمًا عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيًّا وأمَره بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقيل: هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه. وقيل: لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ قال بعضهم: أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولاً لأنه في ذلك

الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبيًا أنه رفيع القدر على الدرجة. وهذا ضعيف لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصًا إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله: ﴿ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ فلقائل أن يقول: كيف جعله مباركًا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة، فلما جاء صار بعضهم يهودًا وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث، ولم يبق على الحق إلا القليل، والجواب ذكروا في (تفسير المبارك) وجوهًا: **أحدها:** أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير، فمعناه جعلني ثابتًا على دين الله مستقرًا عليه. **وثانيها:** أنه إنما كان مباركًا لأنه كان يُعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق، فإن ضلوا فمن. قبل أنفسهم لا من قبله، وروى الحسن عن النبي ﷺ قال: أَسْلَمَتْ أُمُّ عِيسَى عَلَيْهَا السَّلَامُ عِيسَى إِلَى الْكُتَّابِ فَقَالَتْ لِلْمُعَلِّمِ: أَدْفَعُهُ إِلَيْكَ عَلَى أَنْ لاَ تَضْرِبَهُ. فَقَالَ لَهُ الْمُعَلِّمُ: اكْتُبْ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: اكْتُبْ أَبْجَدْ. فَرَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا أَبْجَدْ؟ فَعَلَاهُ بِالدِّرَّةِ لِيَضْرِبَهُ فَقَالَ: يَا مُؤَدِّبُ لاَ تَضْرِبْنِي إِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَاسْأَلْنِي فَأَنَا أُعَلِّمُكَ الْأَلِفُ مِنْ آلاَءِ اللَّهِ، وَالْبَاءُ مِنْ بَهَاءِ اللَّهِ، وَالْجِيمُ مِنْ جَمَالِ اللَّهِ، وَالدَّالُ مِنْ أَدَاءِ الْحَقِّ إِلَى اللَّهِ (١). **وثالثها:** البركة: الزيادة والعلو فكأنه قال: جعلني في جميع الأحوال غالبًا مفلحًا منجحًا لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليًا بالحجة، فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء. **ورابعها:** مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص فقالت: طوبى لبطن حملك وثدي أُرضعت به!! فقال عيسى عليه السلام مجيبًا لها: طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارًا شقيًا. أما قوله: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل: إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فإن قيل: كيف أمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلاً صغيرًا والقلم مرفوع عنه على ما قاله ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ...» (٢) الحديث، وجوابه من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) **ضعيف جدًا**: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١/ ٥٣) من طريق إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود سمعه ابن كدام عن عطية عن أبي سعيد... فذكره. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ٢٥١) من طريق مسعر عن عطية عن أبي سعيد... به. وابن عدي في (الكامل) (١/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي... به. وقال: إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي مدني يحدث عن الثقات بالبواطيل.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود) باب (في المجنون يسرق أو يصيب حدًا) (٤/ ١٣٧) حديث رقم/ ١٣٩٨ من طريق يزيد بن هارون... به. والنسائي في كتاب (الطلاق) باب (من لا يقع طلاقه من الأزواج) (٦/ ٤٦٨) حديث رقم/ ٣٤٣٢ من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وابن ماجه في كتاب (الطلاق) باب (طلاق=

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ، فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ. الثاني: لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغًا عاقلاً تام الأعضاء والخلقة، وتحقيقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أنه تعالى خلق آدم تامًا كاملاً دفعة، فكذا القول في عيسى عليه السلام، وهذا القول الثاني أقرب إلى الظاهر لقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته. ولكن لقائل أن يقول: لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصًا كامل الأعضاء تام الخلقة، وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجبًا فكان ينبغي أن لا يعجبوا، فلعل الأول أن يقال: إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة، والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رُفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي جعلني برًّا بوالدتي. وهذا يدل على قولنا: إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه برًّا إنما حصل بجعل الله وخلقه، وحَمْله على الألطاف عدول عن الظاهر. ثم قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورًا بتعظيمها. قال صاحب (الكشاف): جعل ذاته برًّا لفرط بره، ونصبه بفعل في معني (أوصاني) وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحد.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وهذا أيضًا يدل على قولنا لأنه لما بَيَّن أنه جعله برًّا وما جعله جبارًا فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جبارًا وغيره بار بأمه، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي ما جعلني متكبرًا بل أنا خاضع لأني متواضع لها، ولو كنت جبارًا لكنت عاصيًا شقيًّا. وروي أن عيسى عليه السلام قال: قلبي لين وأنا صغير في نفسي. وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جبارًا شقيًّا وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولا تجد سيئ الملكة إلا مختالاً فخورًا وقرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦].

الصفة الثامنة: هي قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال بعضهم: لام التعريف في (السلام) منصرف إلى ما تقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾[مريم: ١٥] أي السلام الموجه إليه في المواطن الثلاثة موجه

=المعتوه والصغير والنائم) (١/ ٦٥٨) حديث رقم/ ٢٠٤١ من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٠٠) من طريق عفان... به. والدارمي في كتاب (الحدود) باب (رُفع القلم عن ثلاثة) (٢/ ١٩) حديث رقم/ ٢٢٩٦ من طريق حماد بن سلمة... به. جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

إليَّ أيضًا وقال صاحب (الكشاف): الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضًا باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق، فإذا قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ فكأنه قال: وكل السلام عليَّ وعلى أتباعي فلم يبقَ للأعداء إلا اللعن، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] بمعنى أن العذاب على من كذَّب وتولى، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض.

المسألة الثانية: روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى: أنت خير مني، سلَّم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال: إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه.

المسألة الثالثة: قال القاضي: السلام عبارة عما يحصل به الأمان، ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات، فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة، وأعظم أحوال الإنسان احتياجًا إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة، وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونًا عن الآفات والمخافات في كل الأحوال.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها، فلو وُجدت لنُقلت بالتواتر، ولو كان ذلك لعرفه النصارى لا سيما وهم من أشد الناس بحثًا عن أحواله وأشد الناس غلوًّا فيه حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله، عَلِمنا أنه لم يوجد، ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة، فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم، فحيث لم يحصل شيء من ذلك، علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا، لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد، وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني: لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه، فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وابن عامر: (قَوْلَ الْحَقِّ) بالنصب وعن ابن مسعود: (قال الحق)

و(قال اللَّهُ) وعن الحسن: (قُولَ الْحَقِّ) بضم القاف وكذلك في الأنعام قوله: (الْحَقُّ) والقَول والقال والقُول في معنى واحد كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فُسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل، والله أعلم.

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم، وفي قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله. فأما قوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ ففيه وجوه: أحدها: وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق، وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول: (عيسى كلمة الله) وبين أن نقول: (عيسى قول الحق). وثانيها: أن يكون المراد: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْقَوْلُ الْحَقُّ) إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وفائدة قولك: (القول الحق) تأكيد ما ذكرت أولاً من كون عيسى عليه السلام ابنًا لمريم. وثالثها: أن يكون ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووَصْفنا له هو قول الحق. فكأنه تعالى وصفه أولاً ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم، ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية، ويكون في معنى إن هذا لهو الحق اليقين.

فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران، روي أن عيسى عليه السلام لما رُفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ما تقول في عيسى؟ فقال: هو إله والله إله وأمه إله. فتابعه على ذلك ناس وهم الإسرائيلية، وقيل للرابع: ما تقول؟ فقال: هو عبد الله ورسوله وهو المؤمن المسلم، وقال: أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك؟ فخصمهم.

أما قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ فهو يحتمل أمرين: أحدهما: أن ثبوت الولد له محال، فقولنا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ كقوله: (ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي) لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله، فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ كقولنا: (ما كان لله أن يظلم) أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته، واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الإيجاد، أي ليس له هذا الاختيار. وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى، فلا جرم قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾.

أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تعالى لما قال ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ثم قال عقيبه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن

﴿فَيَكُونُ﴾ كان كالحجة على تنزيهه عن الولد، وبيان ذلك أن الذي يجعل ولدًا لله إما أن يكون قديمًا أزليًا أو يكون محدثًا: فإن كان أزليًا فهو محال لأنه لو كان واجبًا لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد. هذا خلف. وإن كان ممكنًا لذاته كان مفتقرًا في وجوده إلى الواجب لذاته غنيًّا لذاته فيكون الممكن محتاجًا لذاته فيكون عبدًا له لأنه لا معنى للعبودية إلا ذلك، وأما إن كان الذي يجعل ولدًا يكون محدثًا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وإيجاده وهو المراد من قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيكون عبدًا له لا ولدًا له، فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ على قدم كلام الله تعالى، قالوا: لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له: (كن فيكون) فلو كان قوله: (كن) محدثًا لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قول الله قديم لا محدث.

واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه:

أحدها: أنه تعالى أدخل عليه كلمة (إذا) وهذه الكلمة دالة على الاستقبال، فوجب أن لا يحصل القول إلا في الاستقبال.

وثانيها: أن حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء، والمتأخر عن غيره محدث.

وثالثها: الفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ يدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل، فيكون قول الله متقدمًا على حدوث الحادث تقدمًا بلا فصل، والمتقدم على المحدث تقدمًا بلا فصل يكون محدثًا، فقول الله محدث.

واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضي أن يكون قوله: ﴿كُن﴾ قديمًا وذلك باطل بالاتفاق، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعى قدم شيء آخر.

المسألة الثالثة: من الناس من أجرى الآية على ظاهرها، فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئًا قال له: (كن) وهذا ضعيف لأنه إما أن يقول له (كن) قبل حدوثه أو حال حدوثه: فإن كان الأول كان ذلك خطابًا مع المعدوم وهو عبث، وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وُجد بالقدرة والإرادة فأي تأثير لقوله كن فيه؟ ومن الناس من زعم أن المراد من قوله: ﴿كُن﴾ هو التخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشيء غير وتكوين الشيء غير، فإن الله سبحانه قادر في الأزل وغير مكون في الأزل، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون؛ لأنا نقول: المكون إنما حدث لأن الله تعالى كَوَّنه فأوجده، فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا (المكون إنما وجد بتكوين الله تعالى) نازلاً

منزلة قولنا (المكوَّن إنما وجد بنفسه) وذلك محال، فثبت أن التكوين غير المكون فقوله: ﴿ كُن﴾ إشارة إلى الصفة المسماة بالتكوين، وقال آخرون قوله: ﴿ كُن﴾ عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات. فإن وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

اعلم أن قوله:﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ . فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح (أن)، ومعناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء، وفي حرف أُبي (إن الله) بالكسر من غير واو، أي بسبب ذلك فاعبدوه.

المسألة الثانية: أنه لا يصح أن يقول الله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى، وفيه قولان: الأول: التقدير: فقل يا محمد: إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله. الثاني: قال أبو مسلم الأصفهاني: الواو في (وإن الله) عطف على قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]كأنه قال: إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه. وقال وهب بن منبه: عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته أن الله ربي، وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى، على خلاف قول المنجمين: إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل أيضًا على أن الإله واحد لأن لفظ (الله) اسم علم له سبحانه فلما قال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد.

أما قوله: ﴿ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مُشعر بالعلية فهاهنا الأمر بالعبادة وقع مرتبًا على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه ربًا لنا، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعمًا على الخلائق بأصول النعم وفروعها، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]يعني أنها لما لم تكن مُنعمة على العباد لم

تجز عبادتها، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان ربًا ومربيًا لعباده وجبت عبادته، فقد ثبت طردًا وعكسًا تعلق العبادة بكون المعبود منعمًا. أما قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمي هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهًا بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة، أما قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ ففي الأحزاب أقوال: **الأول:** المراد فِرق النصارى على ما بينا أقسامهم. **الثاني:** المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولدًا وبعضهم كذابًا. **الثالث:** المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا في زمن محمد ﷺ وإذا قلنا: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي قل يا محمد: إن الله ربي وربكم. فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه، وكذا قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مؤكد لهذا الاحتمال، وأما قوله: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فالمشهد إما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به، أو الشهادة وما يتعلق بها: أما الأول: فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب، والجزاء في القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو وقت الشهود. وأما الشهادة فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والأنبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه، وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لا شيء أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة، ولا شيء من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا شيء من المضار أعظم مما هنالك من العقاب.

أما قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾. **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قالوا: التعجب هو استعظام الشيء مع الجهل بسبب عظمه، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول، قال الفراء: قال سفيان: قرأت عند شريح: (بل عجبتُ ويسخرون) [الصافات: ١٢] فقال: إن الله لا يعجب من شيء إنما يُعَجب من لا يعلم. فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إن شريحًا شاعر يعجبه علمه، وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها: (بل عجبتُ ويسخرون) [الصافات: ١٢] ومعناه أنه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم، وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء إلى الله تعالى.

وإذا عرفت هذا فنقول: للتعجب صفتان: إحداهما: ما أفعله. والثانية: أفعِلْ به كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ والنحويون ذكروا له تأويلات: **الأول:** قالوا: (أكرِم بزيد) أصله أكرمَ زيد، أي صار ذا كرم كأغَدَّ البعير، أي صار ذا غدة، إلا أنه خرج على لفظ الأمر ومعناه الخبر، كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] أي يمد له الرحمن مدًا، وكذا قولهم: (رحمه الله) خبر وإن كان معناه الدعاء والباء زائدة.

الثاني: أن يقال: إنه أمر لكل أحد بأن يجعل زيدًا كريمًا، أي بأن يصفه بالكرم، والباء زائدة مثل قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]ولقد سمعت لبعض الأدباء فيه تأويلاً ثالثًا وهو أن قولك: (أكرم بزيد) يفيد أن زيدًا بلغ في الكرم إلى حيث كأنه في ذاته صار كرمًا حتى لو أردت جعل غيره كريمًا فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك، كما أن من قال: (أكتب بالقلم) فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك.

المسألة الثانية: قوله ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ **فيه ثلاثة أوجه.**

أحدها:- وهو المشهور الأقوى - أن معناه: ما أسمعهم وما أبصرهم. والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذٍ جدير بأن يُتعجب منهما بعدما كانوا صمًّا وعميًا في الدنيا، وقيل: معناه التهديد مما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم.

وثانيها:قال القاضي: ويحتمل أن يكون المراد أسمِع هؤلاء وأبصِرهم، أي عَرِّفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا.

وثالثها:قال الجبائي: ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصِرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم.

أما قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **ففيه قولان: الأول**:لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وفي الآخرة يعرفون الحق. **والثاني**:﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهم في الآخرة في ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ فلا شبهة في أنه أمر لمحمد ﷺبأن ينذر مَن في زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أراد به اختلاف جميعهم في زمن الرسول ﷺوأما الإنذار فهو التخويف من العذاب لكي يحذروا من ترك عبادة الله تعالى، وأما يوم الحسرة فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار، وقيل: يتحسر أيضًا في الجنة إذا لم يكن من السابقين الواصلين إلى الدرجات العالية. والأول هو الصحيح لأن الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب. أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ففيه وجوه: **أحدها**: إذ قُضى الأمر ببيان الدلائل وشرح أمرالثواب والعقاب. **وثانيها**: إذ قُضى الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف. والأول أقرب لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فكأنه تعالى بَيّن أنه ظهرت الحجج والبينات وهم في غفلة وهم لا يؤمنون. **وثالثها**: روي أنه سئل النبي ﷺعن قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فقال: «**حِينَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ وَالْفَرِيقَانِ يَنْظُرَانِ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا عَلَى فَرَحٍ، وَأَهْلُ النَّارِ غَمًّا عَلَى غَمٍّ**»(١) واعلم أن الموت عَرَضٌ فلا يجوز أن يصير جسمًا حيوانيًا

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩) وأحمد في (مسنده) (٣/ ٩) حديث رقم/ ١١٠٨١ كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد... به.

بل المراد أنه لا موت ألبتة بعد ذلك. وأما قوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي عن ذلك اليوم وعن كيفية حسرته، وهم لا يؤمنون أي بذلك اليوم. ثم قال بعده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي هذه الأمور تؤول إلى أن لا يملك الضر والنفع إلا الله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي إلى محل حكمنا وقضائنا لأنه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع إليه، وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

القصة الثالثة: قصة إبراهيم عليه السلام.

اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبودًا سوى الله تعالى، وهؤلاء فريقان: منهم من أثبت معبودًا غير الله حيًّا عاقلاً فاهمًا وهم النصارى، ومنهم من أثبت معبودًا غير الله جمادًا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان، والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم، فلما بيَّن تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ والواو في قوله: (واذكر) عطف على قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال (قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال إبراهيم) وإنما أمر بذكره لأنه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارًا عن الغيب ومعجزًا قاهرًا دالاً على نبوته. وإنما شرع في قصة إبراهيم عليه السلام لوجوه:

أحدها: أن إبراهيم عليه السلام كان أب العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] فكأنه تعالى قال للعرب: إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرًا هو إبراهيم عليه السلام، فقلِّدوه في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان، وبالجملة فاتبِعوا إبراهيم إما تقليدًا وإما استدلالاً.

وثانيها: أن كثيرًا من الكفار في زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا؟! فذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه، ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدليل رد على الأب الأشرف الأكبر الذي هو إبراهيم عليه السلام.

وثالثها: أن كثيرًا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال، على ما قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٢] و﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهًا لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة، ثم قال تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ وفي الصِّديق قولان:

أحدهما: أنه مبالغة في كونه صادقًا وهو الذي يكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك، يقال: رجل خِمير وسِكير، للمولع بهذه الأفعال.

والثاني: أنه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورًا به والأول أَوْلى وذلك لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه صِديقًا إلا إذا كان صادقًا في ذلك التصديق فيعود الأمر إلى الأول. فإن قيل: أليس قد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ [الحديد: ١٩] قلنا: المؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق، واعلم أن النبي يجب أن يكون صادقًا في كل ما أخبر عنه لأن الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق، وإلا لزم الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقًا في كل ما يقول، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] والشهيد إنما يُقبل قوله إذا لم يكن كاذبًا. فإن قيل: فما قولكم في إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٣] و﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ٨٩] قلنا: قد شرحنا في تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة أن شيئًا من ذلك ليس بكذب، فلما ثبت أن كل نبي يجب أن يكون صِديقًا ولا يجب في كل صديق أن يكون نبيًا ظهر بهذا قرب مرتبة الصِّديق من مرتبة النبي فلهذا انتقل من ذكر كونه صِديقًا إلى ذكر كونه نبيًا. وأما النبي فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس، وأي رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده. وقوله: ﴿كَانَ صِدِّيقٗا﴾ قيل: إنه صار وقيل: إن معناه وُجد صديقًا نبيًا، أي كان من أول وجوده إلى انتهائه موصوفًا بالصدق والصيانة. قال صاحب (الكشاف): هذه الجملة وقعت اعتراضًا بين المبدل منه وبدله أعني إبراهيم وإذ قال، ونظيره قولك: رأيت زيدًا ونعم الرجل أخاك. ويجوز أن يتعلق إذ بـ(كان) أو بصديقًا نبيًا أي كان جامعًا لخصائص الصِّديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات. أما قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ فالتاء عوض عن ياء الإضافة ولا يقال (يا أبتي) لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء.

واعلم أنه تعالى حكى أن إبراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام:

النوع الأول: قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ ووصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية، وبيان ذلك من وجوه: **أحدها:** أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الإنعام، وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦] وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨] وكما يُعلم بالضرورة أنه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لايجوز الاشتغال بعبادتها. **وثانيها:** أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها، فأي فائدة في عبادتها؟! وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالمًا بكل المعلومات حتى يكون العبد آمنًا من وقوع الغلط للمعبود. **وثالثها:** أن الدعاء مخ العبادة [(١)] فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته؟! وإذا كانت لا تبصر بتقرب من يقترب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب؟! **ورابعها:** أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريًا عن كل ذلك، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن، فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس؟! **وخامسها:** إذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يُخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها؟! **وسادسها:** إذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذًا، فأي رجاء للغير فيها.

واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه: أحدها: لا يسمع. وثانيها: لا يبصر. وثالثها: لا يغني عنك شيئًا كأنه قال له: بل الإلهية ليست إلا لربي فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر، كما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ويقضي الحوائج: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] واعلم أن قوله هاهنا: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ محمول على نفس العبادة، وأما قوله في المقام الثالث: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ لا يقال ذلك بل المراد الطاعة لأنهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة، ولأنا نقول: ليس إذا تركنا الظاهر هاهنا لدليل وجب ترك الظاهر في المقام الأول بغير دليل.

فإن قيل: إما أن يقال: إن أبا إبراهيم كان يعتقد في تلك الأوثان أنها آلهة بمعنى أنها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات، أو يقال: إنه ما كان يعتقد ذلك بل كان يعتقد أنها تماثيل الكواكب والكواكب هي الآلهة المدبرة لهذا العالم، فتعظيم تماثيل الكواكب بموجب تعظيم

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٥٦) حديث رقم/ ٣٣٧١ من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صبيح عن أنس بن مالك... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ورواه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ٢٩٣) حديث رقم/ ٣١٩٦ من طريق ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صالح عن أنس بن مالك... به. وقال: لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله، تفرد به ابن لهيعة.

الكواكب، أو كان يعتقد أن هذه الأوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر، فتعظيمها يقتضي كون أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى، أو كان يعتقد أن تلك الأوثان طلسمات رُكبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها، وأنها مشفع بها، أو غير ذلك من الأعذار المنقولة عن عبدة الأوثان.

فإن كان أبو إبراهيم من القسم الأول كان في نهاية الجنون لأن العلم بأن هذا الخشب المنحوت في هذه الساعة ليس خالقًا للسماوات والأرض - من أجلى العلوم الضرورية، فالشاك فيه يكون فاقدًا لأجلى العلوم الضرورية فكان مجنونًا والمجنون لا يجوز إيراد الحجة عليه والمناظرة معه. وإن كان من القسم الثاني فهذه الدلائل لا تقدح في شيء من ذلك لأن ذلك المذهب إنما يبطل بإقامة الدلالة على أن الكواكب ليست أحياء، ولا قادرة على خلق الأجسام وخلق الحياة، ومعلوم أن الدليل المذكور هاهنا لا يفيد ذلك المطلوب، فعَلِمنا أن هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات. قلنا: لا نزاع أنه لا يخفى على العاقل أن الخشبة المنحوتة لا تصلح لخلق العالم، وإنما مذهبهم هذا على الوجه الثاني، وإنما أورد إبراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لأنهم كانوا يعتقدون أن عبادتها تفيد نفعًا إما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر، فبَيَّن إبراهيم عليه السلام أنه لا منفعة في طاعتها ولا مضرة في الإعراض عنها فوجب أن لا تحسن عبادتها.

النوع الثاني: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ومعناه ظاهر، وطِمع في التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد: أما أهل التعليم فقالوا: إنه أمره بالاتباع في الدين وما أمره بالتمسك بدليل لا يستفاد إلا من الاتباع، وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به أيضًا من هذا الوجه، ومن الناس من طعن أنه أمره بالاتباع لتحصل الهداية، فإذن لا تحصل الهداية إلا باتباعه، ولا تبعية إلا إذا اهتدى لقولنا: إنه لا بد من اتباعه فيقع الدور وإنه باطل. (والجواب) عن الأول: أن المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وإيضاحه، فعند هذا عاد السائل فقال: أنا لا أنكر أنه لا بد من الدلالة، ولكني أقول: الوقوف على تلك الدلالة لا يستفاد إلا ممن له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطأ، وهي نفس النبي المعصوم أو الإمام المعصوم، فإذا سلَّمت أنه لا بد من النبي في هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض، أجاب المجيب وقال: أنا ما سلمت أنه لا بد في الوقوف على الدلائل من هداية النبي، ولكني أقول: هذا الطريق أسهل وإن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى الأسهل. والجواب عن سؤال الدور أن قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد.

النوع الثالث: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ أي لا تطعه لأنه عاصٍ لله. فنفره بهذه الصفة عن القبول منه؛ لأنه أعظم الخصال المنفرة، واعلم أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصيًا لله، ولم يذكر

معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه، وأيضًا فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي، ومن كان كذلك كان حقيقًا أن لا يُلتفت إلى رأيه ولا يُجعل لقوله وزن. فإن قيل: إن هذا القول يتوقف على إثبات أمور: أحدها: إثبات الصانع. وثانيها: إثبات الشيطان. وثالثها: إثبات أن الشيطان عاصٍ لله. ورابعها: أنه لما كان عاصيًا لم تجز طاعته في شيء من الأشياء. وخامسها: أن الاعتقاد الذي كان عليه ذلك الإنسان كان مستفادًا من طاعة الشيطان، ومن شأن الدلالة التي تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة، ولعل أبا إبراهيم كان منازعًا في كل هذه المقدمات، وكيف والمحكى عنه أنه ما كان يُثبت إلهًا سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الإله الرحمن؟! وإذا لم يسلم وجوده، فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصيًا للرحمن؟! ثم إن على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان؟! بل لعله يقلب ذلك على خصمه. قلنا: الحجة المعول عليها في إبطال مذهب آزر هو الذي ذكره أولاً من قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ فأما هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة، وعلى هذا التقدير يسقط السؤال.

النوع الرابع: قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قال الفراء: معنى أخاف: أعلم. والأكثرون على أنه محمول على ظاهره، والقول الأول إنما يصح لو كان إبراهيم عليه السلام عالمًا بأن أباه سيموت على ذلك الكفر، وذلك لم يثبت، فوجب إجراؤه على ظاهره فإنه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يُصِر فيموت على الكفر، فيكون من أهل العقاب، ومن كان كذلك كان خائفًا لا قاطعًا، واعلم أن من يظن وصول الضرر إلى غيره فإنه لا يسمى خائفًا إلا إذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر إليه تألم قلبه، كما يقال: أنا خائف على ولدي. أما قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فذكروا في الولي وجوهًا: أحدها: أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار، والولاية سبب للمعية، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وإن لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] واعلم أن هذا الإشكال إنما يتوجه إذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة، أما إذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالإشكال ساقط. وثانيها؛ أن يُحمل العذاب على الخذلان، أي إني أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير مواليًا للشيطان ويبرأ الله منك، على ما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. وثالثها: وليًّا، أي تاليًا للشيطان، تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تاليًا وليًا.

فإن قيل: قوله: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يقتضي أن تكون ولاية

الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم، فما السبب لذلك.

والجواب: أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢] فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمَره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي، ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه، وإنما فعل ذلك لوجوه: أحدها: قضاء لحق الأبوة على ما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣] والإرشاد إلى الدين من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضاف إليه رعاية الأدب والرفق كان ذلك نورًا على نور. **وثانيها**: أن الهادي إلى الحق لا بد وأن يكون رفيقًا لطيفًا يورد الكلام لا على سبيل العنف؛ لأن إيراده على سبيل العنف يصير كالسبب في إعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعيًا في الإغواء. **وثالثها**: ما روى أبو هريرة أنه قال عليه السلام: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّكَ خَلِيلِي، فَحَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ تَدْخُلْ مَدَاخِلَ الْأَبْرَارِ، فَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ أَنْ أُظِلَّهُ تَحْتَ عَرْشِي وَأَنْ أُسْكِنَهُ حَظِيرَةَ قُدْسِي وَأُدْنِيهِ مِنْ جِوَارِي» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ، وأورد كل ذلك مقرونًا باللطف والرفق، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك، فقابل حجته بالتقليد، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليدًا، وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم، وقابل رفقه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾[مريم: ٤٤] بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وإنما حكى الله تعالى ذلك لمحمد ﷺ ليخفف على قلبه ما كان يصل إليه من أذى المشركين، فيعلم أن الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة، أما قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

﴿ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان؛ لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة، وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة، فما فائدة هذا القول؟ وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها، فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها، فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل - بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه.

أما قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الرجم هاهنا قولان: **الأول:** أنه الرجم باللسان، وهو الشتم والذم، ومنه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] أي بالشتم، ومنه الرجيم، أي المرمي باللعن، قال مجاهد: الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم. **والثاني:** أنه الرجم باليد، وعلى هذا التقدير ذكروا وجوهًا: **أحدها:** لأرجمنك بإظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك. **وثانيها:** لأرجمنك بالحجارة لتتباعد عني. **وثالثها:** عن المؤرج: (لأقتلنك) بلغة قريش. **ورابعها:** قال أبو مسلم: لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة إلا أنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والإبعاد اتساعًا، ويدل على أنه أراد الطرد قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ واعلم أن أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحَمْله عليه أَوْلى، فإن قيل: أفما يدل قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ على أن المراد به الرجم بالشتم؟ قلنا: لا، وذلك لأنه هدده بالرجم إن بقي على قربه منه وأمَره أن يبعد هربًا من ذلك، فهو في معنى قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ .

المسألة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ قولان: أحدهما: المراد واهجرني بالقول. والثاني: بالمفارقة في الدار والبلد. وهي هجرة الرسول والمؤمنين، أي تباعَدْ عني لكيلا أراك. وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿مَلِيّٗا﴾ قولان: **الأول:** مليًا، أي مدة بعيدة، مأخوذ من قولهم (أتى على فلان مُلاوة من الدهر) أي زمان بعيد. **والثاني:** مليًا بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال فلان ملي بكذا، إذا كان مطيقًا له مضطلعًا به.

المسألة الرابعة: عطف (اهجرني) على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك، أي فاحذرني واهجرني لئلا أرجمنك. ثم إن إبراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب عن أمرين. أحدهما: أنه وعده التباعد منه، وذلك لأن أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الأمر وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ توادع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج، وعلى أنه تحسن مقابلة الإساءة بالإحسان، ويجوز أن

يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده بالاستغفار، ثم إنه لما ودع أباه بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ضم إلى ذلك ما دل به على أنه وإن بعد عنه فاشفاقه باقٍ عليه كما كان، وهو قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾.

واحتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء، وتقريره أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز لأنه استغفر لأبيه وهو كافر، والاستغفار للكافر لا يجوز، فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز، إنما قلنا. إنه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الشعراء: ٨٦] وأما أن أباه كان كافرًا فذاك بنص القرآن وبالإجماع، وأما أن الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ١١٣]. الثاني: قوله في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الممتحنة: ٤] إلى قوله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤] وأمَر الناس إلا في هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه.

والجواب: لا نزاع إلا في قولكم (الاستغفار للكافر لا يجوز) فإن الكلام عليه من وجوه:

أحدها: أن القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يُعرف إلا بالسمع، فلعل إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر، فلا جرم استغفر لأبيه.

وثانيها: أن الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة، كما في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[الجاثية: ١٤] والمعنى سأسأل ربي أن لا يجزيك بكفرك ما كنت حيًا بعذاب الدنيا المعجل.

وثالثها: أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان، فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار، ولعل في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجي منه الإيمان، والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣] فبيّن أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٤] فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن، فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه، فإن قيل: فإذا كان الأمر كذلك فلم مُنعنا من التأسي به في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الممتحنة: ٤] إلى قوله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤] قلنا: الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في ذلك لكن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية، فإن كثيرًا من الأشياء هي من خواص رسول الله ﷺ ولا يجوز لنا التأسي به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام.

ورابعها: لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الأَوْلى وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي لطيفًا رفيقًا يقال: أحفى فلان في المسألة بفلان إذا لطف به وبالغ في الرفق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾[محمد: ٣٧] أي وإن لطفت المسألة، والمراد أنه سبحانه للطفه بي وإنعامه عليّ عودني الإجابة، فإذا أنا استغفرت لك حصل المراد. فكأنه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران. (الجواب الثاني) من الجوابين قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاعتزال للشيء هو التباعد عنه، والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضًا وأبعد عنكم، وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي، فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فواجب عليَّ مجانبتكم، ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أرجو أن لا أكون كذلك، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢] وأما قوله: ﴿شَقِيًّا﴾ مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم، على ما قرره أولاً في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه ما خسر على الله أحد، فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره - لم يضره ذلك دينًا ودنيا، بل نفعه فعوضه أولادًا أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولاً إلى خلقه، ويُلزم الخلق طاعته والانقياد له، مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة، ثم بيّن تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب، ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ولسان الصدق: الثناء الحسن، وعبَّر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يعطي باليد وهو العطية، واستجاب الله دعوته في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤] فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الحج: ٧٨] ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٣] قال بعضهم: إن الخليل اعتزل عن الخلق على ما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم: ٤٨] فلا جرم بارك الله في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

وثانيها: أنه تبرأ من أبيه في الله تعالى على ما قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤] لا جرم أن الله سماه أبًا للمسلمين فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]

وثالثها: تل ولده للجبين ليذبحه على ما قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] لا جرم فداه الله تعالى على ما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ورابعها: أسلم نفسه فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فجعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا فقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وخامسها: أشفق على هذه الأمة فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات الخمس، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وسادسها: في حق سارة في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] لا جرم جعل موطئ قدميه مباركًا: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وسابعها: عادى كل الخلق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] لا جرم اتخذه الله خليلاً على ما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ليعلم صحة قولنا أنه ما خسر على الله أحد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

(القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام)

اعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور:

أحدها: أنه كان مخلصًا فإذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاحتباء، كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه، وإذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والإخلاص هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده، ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به، فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين. **وثانيها:** كونه رسولاً نبيًّا، ولا شك أنهما وصفان مختلفان، لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول، ومن الناس من أنكر ذلك، وقد بينا الكلام فيه في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ [الحج: ٥٢]. **وثالثها:** قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من اليمين أي من ناحية اليمين، والأيمن صفة الطور أو الجانب. **ورابعها:** قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ ولما ذكر كونه رسولاً قال: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ وفي قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ قولان: **أحدهما:** المراد قرب المكان، عن أبي العالية: قرَّبه حتى سمع صرير القلم حيث كُتبت التوراة في الألواح. **والثاني:** قرب المنزلة، أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة، قال القاضي: وهذا أقرب لأن استعمال القرب في الله قد صار بالتعارف لا يراد به إلا المنزلة، وعلى هذا الوجه يقال في العبادة تقرب، ويقال في الملائكة عليهم السلام: إنهم مقربون وأما ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ فقيل فيه: أنجيناه من أعدائه.

وقيل: هو من المناجاة في المخاطبة. وهو أَوْلى. **وخامسها:** قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك إجابة لدعائه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[طه: ٢٩-٣٢] فأجابه الله تعالى إليه بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦] وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[القصص: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

(القصة الخامسة قصة إسماعيل عليه السلام)

اعلم أن إسماعيل هذا هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، واعلم أن الله تعالى وصف إسماعيل عليه السلام بأشياء: **أولها:** قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى، ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس: أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئًا مما يؤمر به من طاعة ربه، وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمَرهم بتأدية الشرع، فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك، ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. **وأما الثاني:** فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فالله تعالى وصفه بهذا الخُلق الشريف. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، وأيضًا وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢] ويروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل: انتظرني حتى آتيك. فقال عيسى عليه السلام: نعم. وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء لحاجة إلى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد، وعن رسول الله ﷺ: **«أَنَّهُ وَاعَدَ رَجُلًا وَنَسِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَانْتَظَرَهُ مِنَ الضُّحَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ»**(١) وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادًا إلى أي وقت ينتظره؟ فقال: إن واعده نهارًا فكل النهار، وإن واعده ليلاً فكل الليل. وسئل إبراهيم بن زيد عن ذلك فقال: إذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى. **وثانيها:** قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ وقد مر تفسيره. **وثالثها:** قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حُمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حُمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله، أي

---

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أَوْلى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها طاعة الله تعالى والإخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكانُ يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء. **ورابعها**:قوله؛ ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح لأن المَرضى عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

(القصة السادسة قصة إدريس عليه السلام)

اعلم أن إدريس عليه السلام هو جد أبي نوح عليه السلام، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ، وَوَصفه الله تعالى بأمور: **أحدها**:أنه كان صِديقًا. **وثانيها**:أنه كان نبيًا وقد تقدم القول فيهما. **وثالثها**:قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود. الثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عالٍ وهذا أَوْلى؛ لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة، ثم اختلفوا: فقال بعضهم: إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حي لم يمت. وقال آخرون: بل رُفع إلى: السماء وقبض روحه، سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعبًا عن قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه، فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة فإذا ملك الموت يقول: بُعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. وأنا أقول: كيف ذلك وهو في الأرض؟! فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك. واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة، ولذلك قال في حق الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]وهاهنا آخر القصص.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء، ثم جمعهم آخرًا فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ أي بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه و(أولئك) إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس، ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام، فقد كان سابقًا على نوح على ما ثبت في الأخبار، والذين هم من ذرية من حمل مع نوح، هو إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم، ثم خص بعضهم بأنهم من ولد إسرائيل أي يعقوب، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم، فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهًا بذلك على أنهم كما فُضلوا بأعمالهم فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء، ثم بَيَّن أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهًا بذلك على أنهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم، ولأنه اختارهم للرسالة ثم قال: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ تتلى عليهم أي على هؤلاء الأنبياء، فبَيّن تعالى أنهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذي عند تلاوة آيات الله يخرون سجدًا وبكيًّا خضوعًا وخشوعًا وحذرًا وخوفًا، والمراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم. وقال أبو مسلم: المراد بالآيات التي فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار. وهو بعيد لأن سائر الأيات التي فيها ذكر الجنة والنار إلى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا، فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لأن كل ذلك إذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكي، واختلفوا. فقال بعضهم في السجود: إنه الصلاة. وقال بعضهم: المراد سجود التلاوة على حسَب ما تعبدنا به. وقيل: المراد الخضوع والخشوع. والظاهر يقتضي سجودًا مخصوصًا عند التلاوة، ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة للقرآن، ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لأجل ذكر السجود في الآية. قال الزجاج في بكيًّا: جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود، ثم قال: الإنسان في حال خروره لا يكون ساجدًا، فالمراد خروا مقدرين للسجود. ومن قال في بكيًّا: إنه مصدر. فقد أخطأ لأن سجدًا جمع ساجد وبكيًا معطوف عليه وعن رسول الله ﷺ: «اتْلُوا الْقُرْآنَ وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»(١). وعن صالح المري قال: قرأت

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الدورقي في (مسند سعد) (١/ ٢١٤) حديث رقم/ ١٢٨ من طريق وكيع، حدثنا=

القرآن عن رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. وعن رسول الله ﷺ: «القرآن نزل فاقرأوه بحزن»(١) وعن رسول الله ﷺ: «مَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنٌ بِهِ بِمَاءٍ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ جَسَدَهَا»(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «لاَ يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»(٣) وقال العلماء: يدعو في سجود التلاوة بما، يليق بها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه السجدة قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آيات كتابك.

=عبد الرحمن بن أبي بكر... به. وأخرجه ابن ماجه في كتاب (الزهد) باب (الحزن والبكاء) (٢/ ١٤٠٣) حديث رقم/ ٤١٩٦ من طريق بشير بن ذكوان الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو رافع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب... به. والبيهقي في (السنن الكبرى) (١٠/ ٢٣١) من طريق الوليد بن مسلم... به. والبزار في (مسنده) (٤/ ٦٩) حديث رقم/ ١٢٣٥ من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر... به. وأبو يعلى في سنده (٢/ ٤٩) حديث رقم (٦٨٩). من طريق الوليد قال: حدثنا إسماعيل بن رافع أبو رافع... به. وضعَّف إسناده الألباني في ضعيف ابن ماجة. قلت وعلته عبد الرحمن بن أبي بكر فهو ضعيف والوليد بن مسلم يدلس وعنعنه في بعض طبقات السنة والله أعلم.

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٤٢٤) حديثص رقم/ ١٣٣٧ وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٤٩) حديث رقم/ ٦٨٩ والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٠٥١ جميعًا من طريق الوليد بن مسلم حدثنا أبو رافع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعد بن أبي وقاص... به. وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٤٨٣٥) وقال: ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ١٨٩) قال: أخبرنا شيخ من أهل البصرة عن شيخ لهم عن عمر بن سعيد عن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ... به. ورواه ابن عدي في (الكامل) (٢/ ٨٥) حديث رقم/ ٣٠٥ من طريق تميم بن خرشف عن قتادة عن أنس... به. وقال: تميم بن خرشف هذا لا أعرف له هذا الحديث، وهذا الحديث عن قتادة لم يروه عنه غيره وهو منكر.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل الجهاد) باب (فضل الغبار في سبيل الله) (٤/ ١٤٧) حديث رقم/ ١٦٣٣ من طريق عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الجهاد) باب (فضل من عمل في سبيل الله على قدمه) (٣/ ٣١٠، ٣١١) حديث رقم/ ٣١٠٨ من طريق هناد بن السري عن ابن المبارك عن المسعودي... به. وابن ماجة في كتاب (الجهاد) باب (الخروج في التغبر) (٢/ ٩٢٧) حديث رقم/ ٢٧٧٤ من طريق سفيان بن عيينة... به. والحميدي في (مسنده) (٢/ ٤٦٦) حديث رقم/ ١٠٩١ قال: حدثنا مسعر. وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٠٥) من طريق المسعودي... به. جميعًا (المسعودي، سفيان، مسعر) عن محمد بن عبد الرحمن... به.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الأنبياء بصفات المدح ترغيبًا لنا في التأسي بطريقتهم، ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال: فخلف من بعدهم خلف، وظاهر الكلام أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم، يقال: خلفه، إذا أعقبه ثم قيل في عقب الخبر خلف بفتح اللام وفي عقب الشر (خَلف) بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث: «فِي اللَّهِ خَلَفٌ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ»(١) وفي الشعر للبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ(٢)

ثم وصفهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات، فإضاعة الصلاة في مقابلة قوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ [السجدة: ١٥] واتباع الشهوات في مقابلة قوله: ﴿وَبُكِيّٗا﴾ لأن بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم، وظاهر قوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها، لكن تركها قد يكون بأن لا تُفعل أصلاً وقد يكون بأن لا تفعل في وقتها، وإن كان الأظهر هو الأول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضي الله عنهما. هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب.

واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ على أن تارك الصلاة كافر، واحتج أصحابنا بها في أن الإيمان غير العمل لأنه تعالى قال: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فعطف العمل على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه، أجاب الكعبي عنه: بأنه تعالى فرق بين التوبة والإيمان والتوبة من الإيمان، فكذلك العمل الصالح يكون من الإيمان وإن فرق بينهما. وهذا الجواب ضعيف

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٣/ ٦٠) حديث رقم/ ٤٣٩٢ والطبراني في (الأوسط) (٨/ ١٠٩) حديث رقم/ ٨١٢٠ كلاهما من طريق محمد بن بشر بن مطر، حدثنا كامل بن طلحه حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك. . . به. وقال الحاكم: عباد بن عبد الصمد ليس من شرط هذا الكتاب. ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ٦٠) حديث رقم/ ٦٨٨٣ والشافعي في (مسنده) (١/ ٣٦١) كلاهما من طريق القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده. . . فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن عبد الصمد أبو معمر، ضَعَّفه البخاري وقال الهيثمي أيضًا (٩/ ٣٥) رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن ميمون القداح وهو واهب الحديث.

(٢) هذا البيت من البحر الكامل للشاعر الأمير الصنعاني وهو الأمير الصنعاني، وهو: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني الصنعاني أبو إبراهيم عز الدين. ١٠٩٩- ١١٨٢ هـ/ ١٦٨٨- ١٧٦٨ م مجتهد من بيت الإمامة في اليمن، يلقب (المؤيد بالله) بن المتوكل على الله. أصيب بمحن كثيرة من الجهلة والعوام، له نحو مائة مؤلف، ذكر صديق حسن خان أن أكثرها عنده (في الهند) ولد بمدينة كحلان ونشأ وتوفي بصنعاء.

لأن عطف الإيمان على التوبة يقتضي وقوع المغايرة بينهما، لأن التوبة عزم على الترك والإيمان إقرار بالله تعالى وهما متغايران، فكذا في هذه الصورة.

ثم بيّن تعالى أن مَن هذه صفته ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وذكروا في الغي وجوهًا:

أحدها: أن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، قال الشاعر(١):

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا

وثانيها: قال الزجاج: ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي يلقون جزاء الغي، كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي مجازاة الآثام.

وثالثها: غيًّا عن طريق الجنة.

ورابعها: الغي وادٍ في جهنم يستعيذ منه أوديتها. والوجهان الأولان أقرب فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز، ولا يخرج مَن أن يكون المراد ما قدمنا لأنه المعقول في اللغة، ثم بين سبحانه أن هذا الوعيد فيمن لم يتب، وأما من تاب وآمن وعمل صالحًا فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم.

وهاهنا سؤالان: الأول: الاستثناء دل على أنه لا بد من التوبة والإيمان والعمل الصالح وليس الأمر كذلك؛ لأن من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة، أو كانت المرأة حائضًا فإنه لا يجب عليها الصلاة والزكاة أيضًا غير واجبة، وكذا الصوم، فهاهنا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة، مع أنه لم يصدر عنه عمل، فلم يجز توقف الأجر على العمل الصالح، والجواب أن هذه الصورة نادرة، والمراد منه الغالب. السؤال الثاني: قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ هذا إنما يصح لو كان الثواب مستحقًّا على العمل؛ لأنه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم، لكن من مذهبكم أنه لا استحقاق للعبد بعمله إلا بالوعد. الجواب: أنه لما أشبهه أجري على حكمه.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في التائب أنه يدخل الجنة، وصف الجنة بأمور:

أحدها: قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ والعدن: الإقامة، وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم، ولذلك فإن حالها لا يتغير في مناظرها، فليست

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر المرقشي الأصغر وهو: ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة. ٥٤ ق.هـ/ ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل نجد، من شعراء الطبقة الثانية، أشعر المرقشين، وكان من أجمل الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا، كلف بفاطمة بنت الملك المنذر وأكثرَ من ذكرها في شعره، وهو عم طرفة بن العبد.

كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور والثمر، وبيّن تعالى أنها وعد الرحمن لعباده. وأما قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه تعالى وعدهم إياها وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها.

والثاني: أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عبادًا بالغيب أي الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فإنهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر، وهو قول أبي مسلم. والوجه الأول أقوى لأنه تعالى بيّن أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل؛ لذلك قال بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أما قوله: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ فقيل: إنه مفعول بمعنى فاعل، والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها، قال الزجاج: كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه، وما أتاك فقد أتيته. والمقصود من قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ بيان أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل، والمراد تقرير ذلك في القلوب.

وثانيها: قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ واللغو من الكلام ما سبيله أن يلغي ويُطرح وهو المنكر من القول، ونظيره قوله: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾[الغاشية: ١١] وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التي لا تكليف فيها، وما أحسن قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥].

أما قوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: أن فيه إشكالاً وهو أن السلام ليس من جنس اللغو، فكيف استثنى السلام من اللغو؟ **والجواب عنه من وجوه:**

أحدها: أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، وأهل الجنة لا حاجة بهم إلى هذا الدعاء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام.

وثانيها: أن يُحمل ذلك على الاستثناء المنقطع.

وثالثها: أن يكون هذا من جنس قول الشاعر:

وَلاَ عَيبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[1]

البحث الثاني: أن ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى، على ما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] وقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[يس: ٥٨].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

---

(١) هذا البيت للشاعر النابغة الذبياني، وقد تقدمت ترجمته.

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: أن المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة، ووصول الرزق إليهم بكرة وعشيًا ليس من الأمور المستعظمة.

والجواب من وجهين: الأول: قال الحسن: أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا، ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم، والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرة وكانت من عادة أشراف العرب في اليمن، ولا شيء كان أحب إلى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك. الثاني: أن المراد دوام الرزق كما تقول: (أنا عند فلان صباحًا ومساء وبكرة وعشيًا) تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين.

السؤال الثاني: قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] وقال عليه السلام: «لا صباح عند ربك ولا مساء» والبكرة والعشي لا يوجدان إلا عند وجود الصباح والمساء. والجواب: المراد أنهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشي، إلا أنه ليس في الجنة غدوة وعشي إذ لا ليل فيها، ويحتمل ما قيل: إنه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشي، ويُحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاءوا كما جرت العادة في الغداة والعشي. وخامسها: قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ وفيه أبحاث: الأول: قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ هذه الإشارة إنما صحت لأن الجنة غائبة. وثانيها: ذكروا في (نورث) وجوهًا: الأول: نورث استعارة أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث. الثاني: أن المراد أنا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم، فجعل هذا النقل إرثًا، قاله الحسن. الثالث: أن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى. ورابعها: معنى (من كان تقيًا) مَن تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات، قال القاضي: فيه دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقيًا، والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك. والجواب: الآية تدل على أن المتقي يدخلها، وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها، وأيضًا فصاحب الكبيرة متقٍ عن الكفر، ومَن صدق عليه أنه متقٍ عن الكفر فقد صدق عليه أنه متقٍ لأن المتقي جزء من مفهوم قولنا المتقي عن الكفر، وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متقٍ وجب أن يدخل تحته، فالآية بأن تدل على أن صاحب الكبيرة يدخل الجنة أَوْلى من أن تدل على أنه لا يدخلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن في الآية إشكالاً وهو أن قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]

كلام الله وقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كلام غير الله، فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل؟ والجواب: أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح، كما أن قوله سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥] هو كلام الله وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ٣٦] كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر، واعلم أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ خطاب جماعة لواحد، وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول، ويحتمل في سببه ما روي أن قريشًا بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد ﷺ وهل يجدونه في كتابهم، فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه، وقالت اليهود: نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف، فاسألوه عنهن، فإن أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح قال: فجاءوا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب، فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك، ولم يقل (إن شاء الله) فاحتبس الوحي عنه أربعين يومًا وقيل: خمسة عشر يومًا. فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي ﷺ: «**أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك**» قال: إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبست. فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] وأنزل قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] وسورة الضحى، ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل وما بينهما، أو الدنيا والآخرة وما بينهما، فإنه يعلم إصلاح التدبير مستقبلاً وماضيًا وما بينهما، والغرض أن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته وحكمته، لا اعتراض لأحد عليه فيه. وقال أبو مسلم: قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن يكون قول أهل الجنة، والمراد: وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا، أي في الجنة، مستقبلاً، وما خلفنا مما كان في الدنيا، وما بين ذلك أي ما بين الوقتين، وما كان ربك نسيًا لشيء مما خلق فيترك إعادته لأنه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول ﷺ ويتصل به: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بل هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ﴾ قال القاضي: وهذا مخالف للظاهر من وجوه: أحدها: أن ظاهر التنزل نزول الملائكة إلى الرسول ﷺ لقوله (بأمر ربك) وظاهر الأمر بحال التكليف أليق، وثانيها: أنه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة. وثالثها: أن ما في سياقه من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ لا يليق إلا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول ﷺ فكأنهم قالوا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٤٣٠) حديث رقم/ ٢٠٩١٨ من طريق معمر عن قتادة قال: قال النبي ﷺ . . . به.

للرسول: وما كان ربك يا محمد نسيًا يجوز عليه السهو حتى يضرك إبطاؤنا بالتنزل عليك إلى مثل ذلك. **ثم هاهنا أبحاث:**

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): التنزل على معنيين: أحدهما: النزول على مهل. والثاني: بمعنى النزول على الإطلاق، والدليل عليه أنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج، واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل، والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتًا بعد وقت ليس إلا بأمر الله تعالى.

البحث الثاني: ذكروا في قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وجوهًا: **أحدها:** له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه، فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته، فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره. **وثانيها:** له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا، وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك وما بين النفختين وهو أربعون سنة. **وثالثها:** ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التي نحن فيها. **ورابعها:** ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا. **وخامسها:** الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض. وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه؟!

البحث الثالث: قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي تاركًا لك، كقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] أي ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك. أما قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالمراد أن من يكون ربًا لها أجمع لا يجوز عليه النسيان إذ لا بد من أن يمسكها حالاً بعد حال، وإلا بطل الأمر فيهما وفيمن يتصرف فيهما.

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى؛ لأن فعل العبد حاصل بين السماء والأرض. والآية دالة على أنه رب لكل شيء حصل بينهما، قال صاحب (الكشاف): رب السماوات والأرض بدل من (ربك) ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي هو رب السماوات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته، فهو أمر للرسول ﷺ بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الأداء والإبلاغ وفيما يخصه من العبادة، فإن قيل: لمَ لم يقل (واصطبر على عبادته) بل قال (واصطبر لعبادته) قلنا: لأن العبادة جُعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب (اصطبر لقرنك) أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته. والمعنى أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضق صدرك من إلقاء أهل الكتاب إليك الأغاليط عن احتباس الوحي عنك مدة وشماتة المشركين بك.

أما قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لا سَمي له، والأقرب هو كونه منعمًا بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه، فإذا كان هو

قد أنعم عليك بغاية الإنعام، وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة، ومن الناس من قال: المراد أنه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين: **الأول:** أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن، فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى بالرحمن غيره. **الثاني:** هل تعلم من سمى باسمه. على الحق دون الباطل؟ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية، والقول الأول هو الصواب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها، فكأن سائلاً سأل وقال: هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا، وأما في الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة مفيد، فلهذا حكى الله تعالى قول منكري الحشر فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وإنما قالوا ذلك على وجه الإنكار والاستبعاد، وذكروا في الإنسان وجهين: **أحدهما:** أن يكون المراد الجنس بأسره، فإن قيل: كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول؟ قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** أن هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم، كما يقال: (بنو فلان قتلوا فلانًا) وإنما القاتل رجل منهم. **والثاني:** أن هذا الاستبعاد موجود ابتداء في طبع كل أحد إلا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبني على محض الطبع بالدلالة القاطعة التي قامت على صحة القول به. **الثاني:** أن المراد بالإنسان شخص معين فقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو أُبي بن خلف، وقيل: المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث.

ثم إن الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ والقراء كلهم على (يذَّكَّر) بالتشديد إلا نافعًا وابن عامر وعاصمًا فقد خففوا، أي أو لا يتذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل، وإذا قرئ أو لا (يذكّر) فهو أقرب إلى المراد إذ الغرض التفكر والنظر في أنه إذا خُلق من قبل لا من شيء فجائز أن يعاد ثانيًا. قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانيًا أهون من الإيجاد أولاً، ونظيره قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن المعدوم ليس بشيء. وهو ضعيف لأن الإنسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت

بها أعراض، وهذا المجموع ما كان شيئًا، ولكن لمَ قلت: إن كل واحد من تلك الأجزاء ما كان شيئًا قبل كونه موجودًا؟ فإن قيل: كيف أمر تعالى الإنسان بالذكر مع أن الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو؟ قلنا: المراد أوَ لا يتفكر فيعلم. خصوصًا إذا قرئ: أو لا يَذَّكر الإنسان بالتشديد، أما إذا قرئ: أو لا يَذْكر بالتخفيف فالمراد أو لا يعلم ذلك من حال نفسه لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حيًّا في الدنيا ثم صار حيًّا.

ثم إنه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه:

أحدها: قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ وفائدة القسم أمران: أحدهما: أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين. والثاني: أن في إقسام الله تعالى باسمه مضافًا إلى اسم رسوله ﷺ تفخيم لشأنه ﷺ ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] والواو في ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى (مع) وهي بمعنى (مع) أوقع، والمعنى أنهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يُقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

وثانيها: قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم، ثم إنه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى: ﴿جِثِيًّا﴾ لأن البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز، فإن قيل: هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] والسبب فيه جريان العادة أن الناس في مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق، أو لما يدهمهم من شدة الأمر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم، وإذا كان هذا عامًّا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار؟ قلنا: لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم. **وثالثها:** قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ والمراد بالشيعة وهي فِعلة كفِرقة وفِئة: الطائفة التي شاعت، أي تبعت غاويًا من الغواة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] والمراد أنه تعالى يحضرهم أولاً حول جهنم جثيًّا ثم يمَيز البعض من البعض، فمن كان أشدهم تمردًا في كفره خص بعذاب أعظم؛ لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعًا لغيره، وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد، وليس عذاب من يورد الشُّبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] فبيَّن تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتوًّا وأشد تمردًا ليعلم أن عذابه أشد، ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب، فلذلك قال في جميعهم: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ولا يقال (أَوْلى) إلا مع اشتراك القوم في العذاب، واختلفوا في إعراب (أيهم) فعن

الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقديره (لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد) وسيبويه على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لأعْرب وقيل (أيهم هو أشد).

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] ثم قال: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ [مريم: ٦٨] أردفه بقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني جهنم. واختلفوا: فقال بعضهم: المراد: مَن تقدم ذكره من الكفار، فكنى عنهم أولاً كناية الغيبة، ثم خاطب خطاب المشافهة. قالوا: إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار، ويدل عليه أمور: **أحدها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها. **والثاني**: قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها. **وثالثها**: قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال الأكثرون: إنه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلم يخص. وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الأول، ويدل عليه قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي من الواردين من اتقى، ولا يجوز أن يقال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ إلا والكل واردون، والأخبار المروية دالة على هذا القول.

ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود. **فقال بعضهم**: الورود: الدنو من جهنم، وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف: ١٩] ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وأراد به القرب. ويقال: (وردَتِ القافلة البلدة) وإن لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية أن الجن والإنس يحضرون حول جهنم: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي واجبًا مفروغًا منه بحكم الوعيد، ثم ننجي، أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ومما يؤكد هذا القول ما روي أنه ﷺ قال: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**» (١) فقالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وَإِن

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٦/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٧٠٨٧ وابن راهويه في (مسنده) (٤/ ١٩٦) حديث رقم/ ١٩٩٥ جميعًا من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة... فذكره. والبزار في مسنده (٥/ ٣٧) حديث رقم/ ٣٣٤٠ من طريق عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن ابن أبي أوفى، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. قال أورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ١٦٠) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه ا. هـ وعبد الله بن جعفر الرقي قال الحافظ: ثقة لكنه تغير بآخرة فلم يفحش اختلاطه.

﴿مِنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فقال عليه السلام: «فمه ثم ننجي الذين اتقوا» ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازمًا.

القول الثاني: أن الورود هو الدخول، ويدل عليه الآية والخبر: أما الآية فقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريبًا، فهذا إنما يحصل لو كانوا في النار، ثم إنه تعالى يبعدهم عنها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ وهذا يدل على أنهم يبقون في ذلك الموضع الذي وردوه وهم إنما يبقون في النار، فلا بد وأن يكونوا قد دخلوا النار. وأما الخبر فهو أن عبد الله بن رواحة قال: «**أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ الْوُرُودِ وَلَمْ يخبر بالصُّدُورِ**. فقال عليه السلام: **يَا بن رَوَاحَةَ اقْرَأْ مَا بَعْدَهَا: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**» وذلك يدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي ﷺ ما أنكر عليه في ذلك. وعن جابر: أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلاَمًا حَتَّى إِنَّ لِلنَّاسِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهَا**»(١).

والقائلون بهذا القول يقولون: المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر ألبتة بل مع الغبطة والسرور، وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف، ولأنه صحت الرواية عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ تُبَشِّرُ فِي الْقَبْرِ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الثَّوَابِ بِالْجَنَّةِ حَتَّى يَرَى مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ وَيَعْلَمَهُ**»(٢) وكذلك القول في حال المعاينة، فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكُّون في أمرهم، وإنما تؤثر هذه الأحوال في أهل النار لأنهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب.

ثم اختلفوا في أنه كيف يندفع عنهم ضرر النار: **فقال بعضهم:** البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه، ويكون من المواضع التي يسلك فيها إلى دركات جهنم، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم، فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار، والكفار يكونون في وسط النار. **وثانيها:** أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٣٢٨) حديث رقم/ ١٤٥٦٠ والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٣٠) حديث رقم/ ٨٧٤٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٣٣٣) حديث رقم/ ١١٠٦ والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٣٣٦) حديث رقم/ ٣٧٠. جميعًا من طريق غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية عن جابر بن عبد الله... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٣٦٠) وقال: قلت لجابر في الصحيح وهذا رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) لم أجده.

بغيرهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يَرِدُونَهَا كَأَنَّهَا إِهَالَةٌ) وعن جابر بن عبد الله: أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ وَعَدَنَا رَبُّنَا بِأَنْ نَرِدَ النَّارَ فَيُقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ» (١) **وثالثها:** أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية، والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله بردًا وسلامًا عليهم، كما في حق إبراهيم عليه السلام. وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فكان يصير دمًا ويشربه الإسرائيلي فكان يصير ماء عذبًا. واعلم أنه لا بد من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا في النار مع المعاقبين.

فإن قيل: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك الدخول؟ **قلنا فيه وجوه:**

أحدها: أن ذلك مما يزيدهم سرورًا إذا علموا الخلاص منه.

وثانيها: أن فيه مزيد غم على أهل النار، حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها.

وثالثها: أن فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين، بل وعند الأولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون إليه.

ورابعها: أن المؤمنين إذا كانوا معهم في النار يبكتونهم، فزاد ذلك غمًّا للكفار وسرورًا للمؤمنين.

وخامسها: أن المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل، فما كانوا يقبلون تلك الدلائل، فإذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم أنهم كانوا صادقين فيما قالوا، وأن المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين.

وسادسها: أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سببًا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر:

وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ (٢)

فأما الذين تمسكوا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فقد بينا أنه أحد ما يدل على الدخول في جهنم، وأيضًا فالمراد عن عذابها، وكذا قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] **فإن قيل:** هل ثبت بالأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها إلى الجنة؟ **قلنا:** ثبت

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٤٠٧ من طريق سفيان عن رجل عن خالد بن معدان... فذكره. وهناد في (الزهد) (١/ ١٦٥) حديث رقم/ ٢٣١ من طريق سفيان عن ثور عن خالد بن معدان قال... به. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٥/ ٢١٢) من طريق عيسى بن يونس عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان... به.

(٢) هذا شطر البيت الآخر بن قصيدة من البحر الكامل للمتنبي، وقد تقدمت ترجمته.

بالأخبار أن المحاسبة تكون في الأرض أو حيث كانت الأرض، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وجهنم قريبة من الأرض والجنة في السماء، ففي موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم، ثم يرفع الله أهل الجنة وينجيهم ويدفع أهل النار فيها. أما قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فالحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم، كقولهم: خَلْق الله وضَرْب الأسير.

واحتج من أوجب العقاب عقلاً فقال: إن قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والأخبار لأن كلمة (على) للوجوب والذي ثبت بمجرد الأخبار لا يسمى واجبًا.

والجواب: أن وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف إليه جرى مجرى الواجب.

أما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قرئ نُنَجِّي ونُنْجي وينجى على ما لم يسم فاعله. قال القاضي: الآية دالة على قولنا في الوعيد لأن الله تعالى بَيَّن أن الكل يَرِدونها ثم بَيَّن صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيًا، ثم بَيَّن تعالى أن من عدا المتقين يذرهم فيها جثيًّا، فثبت أن الفاسق يبقى في النار أبدًا. قال ابن عباس: المتقي هو الذي اتقى الشرك بقول لا إله إلا الله. واعلم أن الذي قاله ابن عباس هو الحق الذي يشهد الدليل بصحته، وذلك لأن من آمن بالله وبرسله صح أن يقال: إنه متقٍ عن الشرك، ومن صدق عليه أنه متقٍ عن الشرك صدق عليه أنه متقٍ لأن المتقي جزء من المتقي عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد، فثبت أن صاحب الكبيرة متقٍ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فصارت هذه الآية التي توهموها دليلاً من أقوى الدلائل على فساد قولهم.

قال القاضي: وتدل الآية أيضًا على فساد قول من يقول: إن من المكلفين من لا يكون في الجنة ولا في النار. قلنا: هذا ضعيف لأن الآية تدل على أنه تعالى ينجي الذين اتقوا، وليس فيها ما يدل على أنه ينجيهم إلى الجنة، ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على أن المتقين يكونون في الجنة والظالمين يبقون في النار، فيبقى هاهنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذي استوت طاعته ومعصيته، فتسقط كل واحدة منهما بالأخرى فيبقى لا مطيعًا ولا عاصيًا، فهذا القسم إن بطل فإنما يبطل بشيء سوى هذه الآية، فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذي ادعاه. ومن المعتزلة من تمسك في الوعيد بقوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم. والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مرارًا كثيرة في هذا الكتاب، أما قوله: ﴿جِثِيًّا﴾ قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد نجاتهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث، أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا: لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل، لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداءه المعروضين عن خدمته في العز والراحة، ولما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل، دل على أن الحق ليس مع المؤمنين، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

بقي بحثان:

الأول: قوله: ﴿ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أنها مرتلات الألفاظ مبينات المعاني إما محكمات أو متشابهات فقد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً. وثانيها: أنها ظاهرات الإعجاز تحدى بها فما قدروا على معارضتها. وثالثها: المراد بكونها آيات بينات أي دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض، مثل قوله تعالى في إثبات صحة الحشر: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

البحث الثاني: قرأ ابن كثير: (مُقامًا) بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو موضع القيام، والمراد والنديّ: المجلس، يقال: نديّ ونادٍ، والجمع الأندية، ومنه قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]وقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]ويقال: ندوت القوم أندوهم، إذا جمعتهم في المجلس، ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم.

ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ .

وتقرير هذا الجواب أن يقال: إن من كان أعظم نعمة منكم في الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم، فلو دل حصول نعم الدنيا للإنسان على كونه حبيبًا لله تعالى، لوجب في حبيب الله أن لا يوصل إليه غمًّا في الدنيا ووجب عليه أن لا يُهلك أحدًا من المنعمين في دار الدنيا، وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهي أن من وجد الدنيا كان حبيبًا لله تعالى، أو على فساد المقدمة الثانية وهي أن حبيب الله لا يوصل الله إليه غمًّا، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة.

بقي البحث عن تفسير الألفاظ فنقول: أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم و(هم أَحْسَنُ) في محل النصب صفة (لِكَمْ)، ألا ترى أنك لو تركت (هُمْ) لم يكن لك بد من نصب (أحسن) على الوصفية، والأثاث متاع البيت، أما رئيًا فقرئ على خمسة أوجه لأنها إما أن تُقرأ بالراء التي ليس فوقها نقطة، أو بالزاي التي فوقها نقطة: فأما الأول فإما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفى بالياء. أما إذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان: أحدهما: بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة، فِعل بمعنى مفعول من رأيت رئيًا. والثاني: ريئًا على القلب كقولهم راء في رأى، أما إن اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريان من النعيم. والثاني: بالياء على حذف الهمزة رأسًا، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئًا بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وأما بالزاي المنقطة من فوق زيًا فاشتقاقه من الزي وهو الجمع؛ لأن الزي محاسن مجموعة، والمعنى أحسن من هؤلاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن هذا الجواب الثاني عن تلك الشبهة وتقريره: لنفرض أن هذا الضال المتنعم في الدنيا قد مد الله في أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم إلى النعمة العظيمة المدة الطويلة، فلا بد وأن ينتهي إلى عذاب في الدنيا أو عذاب في الآخرة، بعد ذلك سيعلمون أن نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب، فقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مذكور في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣] ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فبيَّن تعالى أنهم وإن ظنوا في الحال أن منزلتهم أفضل من حيث فضَّلهم الله تعالى بالمقام والنديّ فسيعلمون من بعد أن الأمر بالضد من ذلك وأنهم شر مكانًا، فإنه لا مكان شر من النار والمناقشة في الحساب. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ فقد كانوا يظنون وهم في الدنيا أن اجتماعهم ينفع، فإذا رأوا أن لا ناصر لهم في الآخرة عرفوا عند ذلك أنهم كانوا في الدنيا مبطلين فيما ادعوه.

بقي البحث عن الألفاظ وهو من وجوه:

أحدها: (مد له الرحمن) أي أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] وكقولهم: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وثانيها: أن قوله: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لأن قوله: ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ المراد منه يوم القيامة، ثم العذاب الذي يحصل قبل يوم القيامة

يمكن أن يكون هو عذاب القبر، ويمكن أن يكون هو العذاب الذي سيكون عند المعاينة لأنهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون، ويمكن أيضًا أن يكون المراد تغير أحوالهم في الدنيا من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الصحة إلى المرض، ومن الأمن إلى الخوف، ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم، ويمكن أيضًا أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر، وكل هذه الوجوه مذكورة. واعلم أنه تعالى بَيَّن بعد ذلك أنه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى، واعلم أنا نبين إمكان ذلك بحسب العقل، فنقول: إنه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطًا بالبعض، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم، ولا امتناع في كون بعض العلم مشروطًا بالبعض، فمن اهتدى بالهداية التي هي الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطي الهداية التي هي المشروط، فصح قوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ مثاله الإيمان هدى والإخلاص في الإيمان زيادة هدى، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص، هذا إذا أجرينا لفظ الهداية على ظاهره، ومن الناس مَن حمل الزيادة في الهدى على الثواب، أي ويزيد الله الذين اهتدوا ثوابًا على ذلك الاهتداء. ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الإيمان، قال صاحب (الكشاف): (يزيد) معطوف على موضع (فليمدد) لأنه واقع موقع الخبر وتقديره: من كان في الضلالة يمد له الرحمن مدًّا ويزيد، أي يزيد في ضلال الضُّلال بخذلانه بذلك المد، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه.

ثم إنه تعالى بَيَّن أن ما عليه المهتدون هو الذي ينفع في العاقبة فقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ وذلك لأن ما عليه المهتدون ضرر قليل متناهٍ يعقبه نفع عظيم غير متناهٍ، والذي عليه الضالون نفع قليل متناهٍ يعقبه ضرر عظيم غير متناهٍ، وكل أحد يعلم بالضرورة أن الأول أَوْلى، وبهذا الطريق تسقط الشبهة التي عولوا عليها. واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون. إنها الإيمان والأعمال الصالحة، سماها باقية لأن نفعها يدوم ولا يبطل. ومنهم من قال: المراد بها بعض العبادات. ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثوابًا فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح، وروي عن أبي الدرداء قال: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا، فَأَزَالَ الْوَرَقَ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ قَوْلَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ - يَحُطُّ الْخَطَايَا حَطًّا كَمَا يَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ وَلأُكْثِرَنَّ مِنْهُ حَتَّى إِذَا رَآنِي جَاهِلٌ حَسِبَ أَنِّي مَجْنُونٌ». والقول الأول أَوْلى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع، فبعض العبادات وإن كان أنقص ثوابًا من البعض فهي مشتركة في الدوام، فهي بأسرها باقية صالحة نظرًا إلى آثارها التي هي الثواب، ثم

إنه تعالى أخبر أنها: ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ولا يجوز أن يقال: (هذا خير) إلا والمراد أنه خير من غيره، فالمراد إذن أنها خير مما ظنه الكفار بقولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل أولاً على صحة البعث، ثم أورد شبهة المنكرين، وأجاب عنها، أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنًا في القول بالحشر فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (وُلْدًا) وهو جمع وَلَد كأُسْد في أَسَد أو بمعنى الوَلَد كالعُرب في العَرب، وعن يحيى بن يعمر (وِلْدًا) بالكسر، وعن الحسن: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل، قال خباب بن الأرت: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد قلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺلا حيًّا ولا ميتًا ولا حين تُبعث!! فقال: فإني إذا مت بُعثت؟ قلت: نعم. قال: إني إذا بعثت وجئتني فسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك. وقيل: صاغ خباب له حليًّا فاقتضاه فطلب الأجرة فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا، فأنا أقضيك ثَم، فإني أوتى مالاً وولدًا حينئذٍ!! ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ قال صاحب (الكشاف): أطلع الغيب من قولهم (أطلع الجبل) أي ارتقى إلى أعلاه ويقال (مر مطلعًا لذلك الأمر) أي غالبًا له مالكًا له، والاختيار في هذه الكلمة أن تقول: أو قد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى إلى علم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار، والمعنى أن الذي ادعى أن يكون حاصلاً له لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الأمرين: إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إليه؟ وقيل: في العهد. كلمة الشهادة، عن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟

ثم إنه سبحانه بَيَّن من حاله ضد ما ادعاه، فقال: ﴿ كَلَّا﴾ وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ، أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه. فإن قيل: لمَ قال: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟ قلنا: فيه وجهان: أحدهما: سيظهر له ويعلم أنا كتبنا. الثاني: أن المتوعد يقول للجاني سوف أنتقم منك وإن كان في الحال في الانتقام ويكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد، فكذا ههنا. أما قوله تعالى: ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نُطول له من العذاب ما يستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد، ويقال: مده وأمده بمعنى، ويدل عليه قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام (ويُمد له) بالضم، أما قوله ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي يزول عنه ما وعده من مال وولد فلا يعود كما لا يعود الإرث إلى من خلفه، وإذا سلب ذلك في الآخرة يبقى فردًا فلذلك قال: ﴿ وَيَأْتِينَا

فَرْدًا﴾ فلا يصح أن ينفرد في الآخرة بمال وولد: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في مسألة الحشر والنشر، تكلم الآن في الرد على عباد الأصنام، فحكى عنهم أنهم إنما اتخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا لهم عزًّا، حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارًا، ينقذونهم من الهلاك. ثم أجاب الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: (كُلًّا سيكفرون بعبادتهم) أي كلهم سيكفرون بعبادة هذه الأوثان، وفي (محتسب ابن جني) (كَلًّا) بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه كُلَّ هذا الاعتقاد والرأي كَلًّا، قال صاحب الكشاف: إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع قَلَب الواقف عليها ألفها نونًا كما في (قواريرا) واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ يعود إلى المعبود أو إلى العابد: فمنهم من قال: إنه يعود إلى المعبود. ثم قال بعضهم: أراد بذلك الملائكة لأنهم في الآخرة يكفرون بعبادتهم ويتبرءون منهم ويخاصمونهم، وهو المراد من قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقال آخرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عُبادهم ويتبرءوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم. ومن الناس من قال: الضمير يرجع إلى العباد، أي أن هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون أنهم عبدوا الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أما قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فذكر ذلك في مقابلة قوله: ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أن يكونون عليهم ضدًّا لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلًّا لهم لا عزًّا، أو يكونون عليهم عونًا والضد: العون، يقال من أضدادكم، أي من أعوانكم، وكأن العون يسمى ضدًّا لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه، فإن قيل: ولِمَ وحد؟ قلنا: وحد توحيد قوله عليه السلام: «وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ» (١) لاتفاق كلمتهم فإنهم كشيء واحد لفرط انتظامهم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (أيقاد المسلم بالكافر) (٤/ ١٩٤٢) حديث رقم/ ٤٥٣٠ والنسائي في كتاب (القسامة) باب (القود بين الأحرار والمماليك) (٨/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٤٧٤٨ وأحمد في (مسنده) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٩٩٣ جميعًا من طريق يحيى بن سعيد... به.

وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عونًا عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم، ولأنهم عُذبوا بسبب عبادتها.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الأصنام في الآخرة، ذكر بعده حالهم مع الشياطين في الدنيا، فإنهم يسألونهم وينقادون لهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج الأصحاب بهذه الآية على أن الله تعالى مريد لجميع الكائنات، فقالوا: قول القائل: (أرسلت فلانًا على فلان) موضوع في اللغة لإفادة أنه سلطه عليه لإرادة أن يستولي عليه. قال عليه السلام: «سمِّ الله وأرسِل كلبك عليه» إذا ثبت هذا فقوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لإرادة أن يستولوا عليهم، وذلك يفيد المقصود، ثم يتأكد هذا بقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فإن معناه: إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزًّا ويتأكد بقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ [الإسراء: ٦٤]قال القاضي: حقيقة اللفظ توجب أنه تعالى أرسل الشياطين إلى الكفار كما أرسل الأنبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها إليهم، فلا يجوز في تلك الرسالة إلا ما أرسل عليه الشياطين من الإغواء، فكان يجب في الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين. وذلك كفر من قائله، ولأن من العجب تعلّق المجبرة بذلك لأن عندهم أن ضلال الكفار من قِبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر، فلا تأثير لما يكون من الشيطان، وإذا بطل حمل اللفظ في ظاهره، فلا بد من التأويل، فنحمله على أنه تعالى خلى بين الشياطين وبين الكفار وما منعهم من إغوائهم، وهذه التخلية تسمى إرسالاً في سعة اللغة، كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال: أرسل كلبه عليه وإن لم يرد أذى الناس، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم، فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]هذا تمام كلامه، ونقول: لا نسلم أنه لا يمكن حمله على ظاهره فإن قوله: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ لو أرسلهم الله إلى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين، قلنا: الله تعالى ما أرسل الشياطين إلى الكفار بل أرسلها عليهم، والإرسال عليهم هو التسليط لإرادة أن يصير مستوليًا عليه، فأين هذا من الإرسال إليهم؟ قوله: ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأي تأثير للشيطان فيه؟ قلنا: لمَ لا يجوز أن يقال: إن إسماع الشيطان إياه تلك الوسوسة يوجب في قلبه ذلك الضلال، بشرط سلامة فهم السامع لأن كلام الشيطان من خلق الله تعالى، فيكون ذلك الضلال الحاصل في قلب الكافر منتسبًا إلى الشيطان وإلى الله تعالى من هذين الوجهين، قوله: لمَ لا يجوز أن يكون المراد بالإرسال التخلية؟ قلنا: كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم وبين الأنبياء، ثم إنه تعالى خص

الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلا بد من فائدة زائدة هاهنا، ولأن قوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تحركهم تحريكًا شديدًا كالغرض من ذلك الإرسال، فوجب أن يكون الأز مرادًا لله تعالى ويحصل المقصود منه، فهذا ما في هذا الموضع، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تزعجهم في المعاصي إزعاجًا. نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط، قال صاحب الكشاف: الأز والهز والاستفزاز أخوات في معنى التهييج وشدة الإزعاج، أي تغريهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالوساس والتسويلات.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يقال: (عجلت عليه بكذا) إذا استعجلته به، أي لا تعجل عليهم بأن يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥] عن ابن عباس أنه كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد دخول قبرك، آخر العدد فراق أهلك!! وعن ابن السماك رحمه الله أنه كان عند المأمون فقرأها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!! وذكروا في قوله: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ وجهين آخرين: الأول: نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها. والثاني: نعد الأوقات إلى وقت الأجل المعين لكل أحد الذي لا يتطرق إليه الزيادة والنقصان. ثم بيَّن سبحانه ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين وبين المجرمين في كيفية الحشر فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال صاحب الكشاف: نصب يوم بمضمر أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف. أو اذكر يوم نحشر. ويجوز أن ينتصب بلا يملكون، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْمُتَّقِينَ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمُ اسْتُقْبِلُوا بِنُوقٍ بِيضٍ لَهَا أَجْنِحَةٌ عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ» (١) ثم تلا هذه الآية.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: هذه الآية أحد ما يدل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين؛ لأن المتقين من الابتداء يُحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال؟

المسألة الثانية: المشبهة احتجوا بالآية وقالوا: قوله: ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد أن انتهاء حركتهم

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن أبي الدنيا في (صفة الجنة) (١/ ٩/ ٦) من طريق الضحاك بن مزاحم يُحدث عن الحارث عن علي... به. وأورده الألباني في (ضعيف الترغيب) (٢/ ٢٤٢) حديث رقم/ ٢١٨١ وقال: ضعيف جدًّا وفي إسناده الحارث الأعور.

يكون عند الرحمن. وأهل التوحيد يقولون: المعنى: يوم نحشر المتقين إلى محل كرامة الرحمن.

المسألة الثالثة: طعن الملحد فيه فقال قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ هذا إنما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن، أما إذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم. أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين إلى كرامة الرحمن.

أما قوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ فقوله: ﴿وَنَسُوقُ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء، والورد اسم للعطاش؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش. وحقيقة الورود: السير إلى الماء فسمي به الواردون.

أما قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي فليس لهم، والظاهر أن المراد شفاعتهم لغيرهم أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا، وقال بعضهم: لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون. وقال بعضهم: بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم. وهذا الثاني أَوْلى لأن حمل الآية على الأول يجري مجرى إيضاح الواضحات، وإذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنه قال عقيبه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ والتقدير أن هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، إلا إذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهدًا التوحيد والنبوة، فوجب أن يكون داخلاً تحته، ومما يؤكد قولنا: ما روى ابن مسعود أنه عليه السلام قال لأصحابه ذات يوم: «**أَيعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا؟ قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَقُولُ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبْعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنِّي لاَ أَثِقُ إِلاَّ بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عَهْدًا تُوَفِّينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ. فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِطَابَعٍ وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الَّذِينَ لَهُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدٌ؟ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**»(١)، فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة، وظهر وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر. وقال القاضي: الآية دالة على مذهبه، وقد ظهر أن الآية قوية في الدلالة على قولنا، والله أعلم.

---

(١) ذكره الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٢/ ٣٣٩) وقال: قلت غريب مرفوعًا، ولم أجده إلا موقوفًا، رواه الحاكم في مستدركه والطبراني في معجمه وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء وأبو نعيم في الحلية، كلهم من حديث المسعودي عن عون بن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي فاختة عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ فليقم قال: فقلنا: فعلِّمنا يا ابا عبد الرحمن. فقال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض... إلى قوله: إنك لاتخلف الميعاد. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي
الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على عبده الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]وقالت العرب: الملائكة بنات الله. والكل داخلون في هذه الآية، ومنهم من خصها بالعرب الذي أثبتوا أن الملائكة بنات الله، قالوا: لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة، أما الآن فإنه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم في إفساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله.

أما قوله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ فقرئ (إدًّا) بالكسر والفتح. قال ابن خالويه الإد والأد. العجب وقيل: المنكر العظيم والأدة الشدة و(أدّني) الأمر وآدني، أثقلني. قرئ (يتفطرن) بالتاء بعد الياء، أعني المعجمة من تحتها واختلفوا في (يكاد) فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق، والانفطار من فطره، إذا شقه والتفطر من فطره، إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: (يتصدعن) وقوله: ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تهد هدًّا أو مهدودة أو مفعول له أي لأنها تهد، والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض، فإن قيل: من أين يؤثر القول بإثبات الولد لله تعالى في انفطار السماوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن الله سبحانه وتعالى يقول: أفعل هذا بالسماوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا مني على من تفوه بها لولا حلمي وأني لا أعجل بالعقوبة. كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وثانيها: أن يكون استعظامًا للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده. وثالثها: أن السماوات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول. وهذا تأويل أبي مسلم. ورابعها: أن السماوات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب، فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب.

فيها أما قوله: ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون مجرورًا بدلاً من الهاء في (منه) أو منصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل، أي هذا لأن دعوا. أو مرفوعًا بأنه فاعل ﴿ هَدًّا﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن، والحاصل أنه تعالى بيّن أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول.

المسألة الثانية: إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهًا على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده

من قِبل أن أصول النعم وفروعها ليست إلا منه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هو من (دعا) بمعنى (سمى) المتعدي إلى مفعولين، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولدًا، أو من (دعا) بمعنى (نسب) الذي هو مطاوعة (ما) في قوله ﷺ: «من ادعى إلى غير مواليه»(١) قال الشاعر:

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لاَ نَدَّعِي لِأَبٍ(٢)

أي لا ننتسب إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي هو محال، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيهًا بالوالد ولا مشبه لله تعالى، ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به. ثم قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ والمراد أنه ما من معبود لهم في السماوات والأرض من الملائكة والناس، إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدًا منقادًا مطيعًا خاشعًا راجيًا كما يفعل العبيد، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة، والأول أوْلى لأنه لا تخصيص فيه. وقوله: ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته، فهو سبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا، ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على أصناف الكفرة، وبالغ في شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة، ختم

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٤/ ٣٧٧) حديث رقم/ ٢١٢١ من طريق أبي عوانة... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الوصايا) باب (إبطال الوصية للوارث) (٦/ ٥٥٧) حديث رقم/ ٣٦٤٣ من طريق أبي عوانة... به. وابن ماجه في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٢/ ٩٠٥) حديث رقم/ ٢٧١٢ من طريق سعيد بن أبي عروبة... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٦) من طريق سعيد ويزيد هارون... به. والدارمي في كتاب (السير) باب (في الذي ينتمي إلى غير مواليه) (٢/ ١١٢) حديث رقم/ ٢٥٢٩

(٢) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط للشاعر نهشل بن حري، وهو نهشل بن حري بن ضمرة الدارمي. ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، وكان من خير بيوت بني دارم، أسلم ولم ير النبي صى الله عليه وسلم، وصحب عليًا كرم الله وجهه في حروبه، وكان معه في صفين فقُتل فيها أخ له اسمه مالك فرثاه بمراث كثيرة، وبقي إلى أيام معاوية.

السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ وللمفسرين في قوله: ﴿وُدًّا﴾ قولان:

القول الأول: -وهو قول الجمهور- أنه تعالى سيُحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب؛ من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصًا لأوليائه بهذه الكرامة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظامًا لهم وإجلالاً لمكانهم، والسين في (سيجعل) إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة، فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم، عن النبي ﷺ في هذه الآية: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا فَمِثْلُ ذَلِكَ» (١) وعن كعب قال: مكتوب في التوراة والإنجيل: لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض، وتصديق ذلك في القرآن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

القول الثاني: -وهو اختيار أبي مسلم- معنى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء، يقال: آتيت فلانًا محبته، وجعل لهم ما يحبون، وجعلت له وده، ومن كلامهم: يود لو كان كذا، وودت أن لو كان كذا، أي أحببت، ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة.

والقول الأول أولى لأن حمل المحبة على المحبوب مجاز، ولأنا ذكرنا أن الرسول ﷺ قرأ هذه الآية وفسرها بذلك، فكان ذلك أَوْلى، وقال أبو مسلم: بل القول الثاني أَوْلى لوجوه:

أحدها: كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار، وقد يبغضه كثير من المسلمين؟!

وثانيها: أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعامًا في حق المؤمنين؟!

وثالثها: أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم، لا أن الله تعالى فعله، فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى.

والجواب عن الأول أن المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والأنبياء، وروي عنه

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١١٧٥) حديث رقم/ ٣٠٣٧ من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن أبي هريرة. . . به. ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٣٠/ ٢٦٣٧) من طريق سهيل عن أبيه عن أبي هريرة. . . به. كلاهما (نافع، أبو صالح) عن أبي هريرة. . . به.

عليه السلام أنه حكى عن ربه عز وجل أنه قال: «إِذَا ذَكَرَنِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ فِي نَفسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ أَطْيَبَ مِنْهُمْ وَأَفْضَلَ»(١).

وهذا هو الجواب عن الكلام الثاني لأن الكافر والفاسق ليس كذلك. والجواب عن الثالث: أنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه في قلوبهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فِرق المضلين المبطلين، فبَيَّن تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول ﷺ فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وإنذار من خرج منهم فبيِّن، لكنه تعالى لما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى أبلغ، وأبلغهم الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتشدد وهو معنى لدًّا.

ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت - خافوا ذلك وخافوا أيضًا سوء العاقبة في الآخرة، فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب، ثم أكد تعالى في ذلك فقال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لأن الرسول عليه السلام إذا لم يحس منهم برؤية أو إدراك أو وجدان: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وهو الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح، إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز: المال المدفون - دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية، والأقرب في قوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أن المراد به الانقراض بالموت، وإن كان من المفسرين مَن حَمَله على العذاب المعجل في الدنيا، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الجزء الحادي والعشرون، ويليه الجزء الثاني والعشرون، وأوله سورة طه.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد) باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران:٢٨] (٦/ ٢٦٩٤) حديث رقم/ ٦٩٧٠ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٠٦١/ ٢٦٧٥) كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة... به.

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكيةٌ بإجماع، وهي تسعونَ وثمانِ آياتٍ

ولمَّا كانت وقعةُ بدر، وقتلَ الله فيها صناديدَ الكفار، قال كفارُ قريش: إنَّ ثأركم بأرضِ الحبشة، فأهدُوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعلَّه يعطيكم مَنْ عندَه من قريش، فتقتلونهم بمَن قُتِل منكم ببدر، فبعثَ كفارُ قريش عمرَو بنَ العاص وعبدَ الله بنَ أبي ربيعة، فسمعَ رسولُ الله ﷺ ببعثهما، فبعثَ رسولُ الله ﷺ عمرَو بنَ أُمية الضَّمْريَّ، وكتب معه إلى النجاشي، فقَدِمَ على النجاشي، فقرأ كتابَ رسولِ الله ﷺ، ثم دعا جعفرَ بنَ أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمَعهم، ثم أمر جعفرَ أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورةَ مريم «كهيعص»، وقاموا تفيضُ أعينهم من الدَّمع، فهم الذين أنزلَ الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. وقرأ إلى قوله: ﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾. ذكره أبو داود[١]. وفي «السيرة»[٢]: فقال النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن اللهِ شيءٌ؟ قال جعفرُ: نعم، فقال له النجاشي: اقرأه عليَّ. قال: فقرأ «كهيعص» فبكى واللهِ النجاشيُّ حتى أخضَل لحيتَه، وبكت أساقفتُهم حتى أخضَلوا لِحَاهم حين سمعوا ما يُتلى عليهم، فقال النجاشي: هذا والذي جاءَ به موسى[٣] لَيخرجُ من مِشكاةٍ واحدة، انطلقا فوالله لا أُسلمُهم إليكما أبداً، وذكرَ تمامَ الخبر.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٣٤ من طريق أبي داود، وليس هو في سنن أبي داود كما يوهم كلام المصنف، وسلف ٨/ ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٦ ، والنقل من الدرر لابن عبد البر ص١٤٠ - ١٤١ .

(٣) في سيرة ابن هشام: جاء به عيسى.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تقدَّم الكلامُ في أوائل السور[1]. وقال ابنُ عباس في «كهيعص»: إنَّ الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابنُ عُزيز[2] القُشيري عن ابنِ عباس معناه: كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يدُه فوق أيديهم، عالمٌ بهم، صادقٌ في وعدِه[3]؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسُّدِّي، ومجاهد والضحاك. وقال الكلبي أيضاً: الكافُ من كريمٍ وكبيرٍ

(١) ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) في نزهة القلوب ص٥٨، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣.

(٣) الوسيط ٣/ ١٧٥.

وكافٍ، والهاءُ من هادٍ، والياءُ من رحيم، والعينُ من عليم وعظيم، والصادُ من صادق[١]. والمعنى واحد. وعن ابنِ عباس أيضاً: هو اسمٌ من أسماءِ الله تعالى. وعن عليٍّ ﷺ: هو اسمُ اللهِ عزَّ وجلَّ وكان يقول: يا كهيعص، اغفرْ لي[٢]؛ ذكره الغَزنوي. السُّديُّ: هو اسمُ اللهِ الأعظم الذي إذا سُئِل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب. قتادةُ: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ؛ ذكره عبدُ الرزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عنه[٣]. وقيل: هو اسمٌ للسورةِ[٤]، وهو اختيارُ القشيري في أوائلِ الحروف.

وعلى هذا قيل: تمامُ الكلامِ عندَ قوله: «كهيعص» كأنه إعلامٌ باسمِ السورة، كما تقول: كتابُ كذا أو بابُ كذا ثم تَشرعُ في المقصودِ. وقرأ ابنُ جعفر هذه الحروفَ متقطعةً، ووصلَها الباقون، وأمالَ أبو عمروٍ الهاءَ وفتحَ الياء، وابنُ عامر وحمزةُ بالعكس، وأمالهما جميعاً الكسائيُّ وأبو بكر وخلف، وقرأهما بينَ اللفظين أهلُ المدينةِ نافعٌ وغيرُه، وفتحهما الباقون[٥]. وعن خارجةَ أنَّ الحسنَ كان يضمُّ كاف، وحَكَى غيرُه أنه كان يضمُّ ها، وحكى إسماعيل بنُ إسحاق أنه كان يضمُّ يا. قال أبو حاتم: ولا يجوزُ ضمُّ الكافِ والهاءِ والياء؛ قال النَّحاسُ[٦]: قراءةُ أهلِ المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالةُ جائزةٌ في هَا ويَا.

وأمَّا قراءةُ الحسن؛ فأشكلت على جماعةٍ حتى قالوا: لا تجوزُ، منهم أبو حاتم، والقولُ فيها ما بيَّنه هارون القارئ، قال: كان الحسنُ يُشِمُّ الرفعَ، فمعنى هذا أنَّه كان يُومئ، كما حكى سيبويهِ، أنَّ من العرب مَن يقول: الصلاةُ والزكاةُ يُومئ إلى الواو،

(١) نسبه البغوي في التفسير ٣/ ١٨٨ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٥١ - ٤٥٢ ، عن ابن عباس وعلي ﷺ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣ ، وأخرجه الطبري أيضاً ١٥/ ٤٥٢ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣ ، وزاد المسير ٥/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) التيسير ص١٤٧-١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣ - ٤ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣١٧ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣ ، وما قبله منه.

ولهذا كتبها في المصحفِ بالواو(١). وأظهرَ الدالَ من هجاءِ «ص» نافعٌ وابنُ كثير، وعاصمٌ ويعقوب، وهو اختيارُ أبي عُبيد، وأدغمها الباقون(٢).

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ في رفع «ذكر» ثلاثةُ أقوال: قال الفراء(٣): هو مرفوعٌ بـ «كهيعص». قال الزَّجاجُ(٤): هذا محالٌ؛ لأنَّ «كهيعص» ليس هو ممَّا أَنبأنا اللهُ عزَّ وجلَّ به عن زكريا، وقد خَبَّر اللهُ تعالى عنه وعن ما بُشِّر به، وليس «كهيعص» من قصته. وقال الأخفشُ(٥): التقديرُ: فيما نَقُصُّ(٦) عليكم ذكرُ رحمةِ ربك. والقول الثالث: أنَّ المعنى: هذا الذي يتلُوه عليكم ذكرُ رحمةِ ربك(٧). وقيل: «ذكرَ رحمة ربك» رُفِع بإضمارِ مبتدإٍ، أي: هذا ذكرُ رحمةِ ربك(٨). وقرأ الحسنُ: «ذَكَر رحمةَ ربِّكَ» أي: هذا المتلوُّ من القرآنِ ذَكَر رحمةَ ربك. وقُرِئ: «ذَكِّرْ» على الأمرِ(٩). «ورحمة» تكتب ويُوقف عليها بالهاء، وكذلك كلُّ ما كان مثلَها، لا اختلافَ فيها بين النَّحْويين، واعتلُّوا في ذلك أنَّ هذه الهاءَ لتأنيثِ الأسماءِ فرقاً بينها وبينَ الأفعال(١٠).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤ .

(٢) السبعة ص٤٠٦ ، والتيسير ص١٤٨ ، والنشر ٢/ ١٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٦١ .

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣١٨ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤ .

(٦) في (م) و(د): يقص، والمثبت من (ظ) و(ف) ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٢٤ .

(٧) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣١٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤.

(٨) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٦١ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ قال الأخفش[١]: هو منصوبٌ بـ «رحمة». «زكريا» بدلٌ منه[٢]، كما تقول: هذا ذكرُ ضربِ زيدٍ عمراً، فـ «عمراً» منصوبٌ بالضرب، كما أنَّ «عبده» منصوبٌ بالرحمة. وقيل: هو على التقديمِ والتأخير، معناه: ذِكرُ ربِّك عبدَه زكريا برحمة[٣]، فـ «عبده» منصوبٌ بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء[٤]. وقرأ بعضُهم: «عَبْدُهُ زكريا» بالرفع، وهي قراءةُ أبي العالية[٥]. وقرأ يحيى بن يعمر: «ذَكَرَ» بالنصب على معنى هذا القرآنُ ذَكَرَ رحمةَ عبده زكريا[٦]. وتقدَّمت اللغاتُ والقراءةُ في «زكريا» في «آل عمران»[٧].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ مثلُ قولِه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقد تقدّم[٨]. والنداءُ: الدعاءُ والرغبةُ، أي: ناجَى ربَّه بذلك في محرابِه. دليلُه قولُه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] فبيَّن أنه استجابَ له في صلاتِه، كما نادى في الصلاة. واختُلِف في إخفائِه هذا النداء، فقيل: أخفاه من قومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولدِ عند كبرِ السن؛ ولأنه أمرٌ دنيوي، فإنْ أُجيب فيه، نالَ بغيتَه، وإنْ لم يُجبْ، لم يعرفْ بذلك أحدٌ. وقيل: مخلصاً فيه لم يَطَّلع عليه إلا اللهُ تعالى. وقيل: لمَّا كانت الأعمالُ الخفية أفضلَ وأبعدَ من الرياء، أخفاه. وقيل: «خَفِيًّا» سِرًّا من قومه في جوفِ الليل[٩]، والكلُّ محتملٌ والأوّلُ أظهر. والله أعلم. وقد تقدَّم أنَّ المستحبَّ من الدعاء

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٣ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦١ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٣ إلى يحيى بن يعمر.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(٧) ٥/ ١٠٧ .

(٨) ٩/ ٢٤٤ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٤ ، والكشاف ٢/ ٥٠٢ .

الإخفاءُ في سورةِ الأعراف[(١)]، وهذه الآيةُ نصٌّ في ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا. وروى إسماعيل قال: حدَّثنا مسددٌ قال: حدَّثنا يحيى بنُ سعيد، عن أسامةَ بن زيد، عن محمد بنِ عبد الرحمن وهو ابنُ أبي كبشة، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ خيرَ الذكر الخفيُّ، وخيرَ الرزقِ ما يكفي»[(٢)] وهذا عامٌّ. قال يونسُ بنُ عبيد: كان الحسنُ يرى أن يدعوَ الإمامُ في القنوتِ، ويُؤَمِنَ مَن خلفَه من غيرِ رفعِ صوتٍ، وتلا يونسُ: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا». قال ابنُ العربي[(٣)]: وقد أسرَّ مالكٌ القنوتَ وجهرَ به الشافعي، والجهرُ به أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو به جهراً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ **فيه مسألتان**[(٤)]:

الأولى: قولُه تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ» قرئ «وَهَنَ» بالحركاتِ الثلاث، أي: ضَعُف. يقال: وَهَن يَهِن وَهْناً، إذا ضَعُف فهو واهنٌ[(٥)]. وقال أبو زيد: يقال: وَهَن يَهِن ووَهِن يَوْهَن. وإنَّما ذكرَ العظمَ؛ لأنَّه عمودُ البدن، وبه قوامُه، وهو أَصلُ بنائه، فإذا وَهنَ تداعى وتساقَط سائرُ قوته؛ ولأنه أشدُّ ما فيه وأَصلبُه، فإذا وهنَ كان ما وراءَه أَوهنَ منه، ووَحَّده؛ لأنَّ الواحدَ هو الدالُّ على معنى الجنسية، وقصده إلى أنَّ هذا الجنسَ الذي هو العمودُ والقوام، وأشدُّ ما تركَّب منه الجسدُ قد أصابه الوهنُ، ولو جَمَع لكان قَصَد إلى معنًى آخر، وهو أنَّه لم يهنْ منه بعضُ عظامِه ولكن كلُّها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أدغمَ السينَ في الشين أبو عمرو[(٦)]. وهذا من أحسنِ الاستعارة في كلامِ العرب. والاشتعالُ: انتشارُ شعاعِ النار، شبَّه به

---

(١) ٩/ ٢٤٤.

(٢) سلف ٩/ ٢٤٤.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٨.

(٤) كذا في النسخ، وقد ذكر المصنف ثلاث مسائل لا ثنتين.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٤٤٤، ومقاييس اللغة ٦/ ١٤٩ (وهن).

(٦) الكشاف ٢/ ٥٠٢، وما قبله منه.

انتشارَ الشيبِ في الرأس[١]، يقول: شِختُ وضَعُفْت، وأضافَ الاشتعالَ إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأسُ، ولم يُضِف الرأسَ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أنَّه رأسُ زكريا عليه السلام[٢]. «وشيباً» في نصبه وجهان: أحدهما: أنه مصدرٌ؛ لأنَّ معنى اشتعل شاب؛ وهذا قولُ الأخفش[٣]. وقال الزجاج[٤]: وهو منصوبٌ على التمييز. النحاسُ[٥]: قولُ الأخفشِ أولى؛ لأنَّه مشتقٌّ من فعلٍ، فالمصدرُ أولى به. والشيبُ مخالطةُ الشعرِ الأبيضِ الأسودَ.

الثالثة: قال العلماءُ: يُستحبُّ للمرء أن يذكُرَ في دعائه نِعمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأنَّ قولَه تعالى: «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» إظهارٌ للخضوع، وقولَه: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» إظهارٌ لعاداتِ تَفضُّلِه في إجابتِه أدعيتَه[٦]، أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًّا، أي: لم تكنْ تُخيِّب دعائي إذا دَعوتُك، أي: إنك عَوَّدتني الإجابةَ فيما مضى[٧]. يقال: شَقي بكذا، أي: تعبَ فيه ولم يُحَصِّل مقصودَه. وعن بعضِهم أنَّ محتاجاً سأله وقال: أنا الذي أَحسنتَ إليه في وقت كذا، فقال: مرحباً بمن تَوسَّل بنا إلينا، وقضى حاجَته[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ **فيه سبعُ مسائل**:

الأولى: قولُه تعالى: «وإني خِفْتُ المواليَ» قرأ عثمانُ بن عفان، ومحمدُ بن

(١) الوسيط ٣/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٢.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣١٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥.

(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٨٨.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٩، والكشاف ٢/ ٥٠٢.

علي، وعلي بنُ الحسين رضي الله تعالى عنهم، ويحيى بن يعمر: «خَفَّتِ» بفتح الخاءِ وتشديدِ الفاء وكسرِ التاء وسكونِ الياء من «الموالي» لأنه في موضعِ رفعٍ بـ «خَفَّت» ومعناه: انقطعت بالموتِ[١]. وقرأ الباقون: «خِفْتُ» بكسرِ الخاء وسكونِ الفاء وضمِّ التاء ونصبِ الياء من «الْمَوَالِيَ»؛ لأنه في موضعِ نصبٍ بـ «خفت». و«الموالي» هنا الأقاربُ وبنو العم والعصبةُ الذين يلونَه في النسبِ[٢]، والعربُ تُسمي بني العم المواليَ؛ قال الشاعر:

مَهْلاً بَني عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونا[٣]

قال ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادة: خاف أن يَرثوا مالَه، وأن تَرِثه الكلالةُ، فأشفقَ أن يرثه غيرُ الولد[٤]. وقالت طائفة: إنَّما كان مواليه مُهمِلين للدين، فخافَ بموتِه أن يضيع الدين، فطلبَ وليًّا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القولَ الزجاج[٥]، وعليه: فلم يَسَلْ مَن يرثُ ماله؛ لأن الأنبياءَ لا تُورَث. وهذا هو الصحيحُ من القولين في تأويل الآية[٦]، وأنه عليه الصلاةُ والسلام أرادَ وِراثةَ العلم والنبوةِ لا وراثةَ المال؛ لِمَا ثبتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا معشرَ الأنبياء لا نُورَث ما تركنا صدقةٌ»[٧] وفي «كتاب» أبي داود: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثُوا العلم»[٨]. وسيأتي في هذا مزيدُ بيانٍ عند قوله: «يرثني».

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٢ دون ذكر يحيى بن يعمر، وذكر الطبري ١٥/ ٤٥٧ عثمانَ فقط، وذكر قراءة ابن يعمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥.

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٠٧.

(٣) البيت للأخضر اللهبي، وهو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، والبيت في الكامل للمبرد ٣/ ١٤١٠، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٤١، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٧٨.

(٤) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٤٥٥ - ٤٥٧.

(٥) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٠، وقول الزجاج وما قبله في المحرر الوجيز ٤/ ٤-٥.

(٦) زاد المسير ٥/ ٢٠٩.

(٧) أخرجه البخاري (٦٧٢٥) و(٦٧٢٦) و(٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، دون قوله: إنا معشر الأنبياء.

(٨) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وهو عند الترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء ﷺ.

الثانية: هذا الحديثُ يدخلُ في التفسير المسند لقولِه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] وعبارةٌ عن قولِ زكريا: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» وتخصيصٌ للعمومِ في ذلك، وأنَّ سليمان لم يرثْ من داود مالاً خلَّفه داودُ بعده، وإنَّما ورثَ منه الحكمةَ والعلم، وكذلك ورثَ يحيى من آلِ يعقوب، هكذا قال أهلُ العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلَّا ما رُوي عن الحسنِ أنه قال: «يرثني» مالاً، «ويرث من آل يعقوب» النبوَّة والحكمة[١]. وكلُّ قولٍ يخالفُ قولَ النبي ﷺ فهو مدفوعٌ مهجور؛ قاله أبو عمر[٢]. قال ابن عطية: و الأكثر من المفسرين على أنَّ زكريا إنَّما أرادَ وِراثةَ المال، ويحتملُ قولُ النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نُورَث» ألَّا يريدَ به العموم، بل على أنه غالبُ أمرِهم، فتأملْه، والأظهرُ الأليقُ بزكريا عليه السلام أن يريدَ وراثةَ العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارةً، ألا ترى أنَّه لما طلب وليًّا ولم يُخصِّص ولداً بلَّغه الله تعالى أملَه على أكملِ الوجوه. وقال أبو صالح وغيرُه: قوله «من آل يعقوب» يريدُ العلم والنبوة[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ قرأ ابنُ كثير بالمدِّ والهمزِ وفتح الياء[٤]، وعنه أنَّه قرأ أيضاً مقصوراً مفتوح الياء مثل: عصايَ. الباقون بالهمزِ والمدِّ وسكون الياء[٥]. والقُراءُ على قراءةِ «خِفْتُ» مثل: نِمت إلَّا ما ذَكرنا عن عثمان[٦]، وهي قراءةٌ شاذة بعيدة جدًّا، حتى زعمَ بعض العلماءِ أنها لا تجوز. قال: كيف يقول: خَفَّتِ الموالي مِن بعدي، أي: من بعدِ موتي وهو حيٌّ؟!. النحاس[٧]: والتأويلُ لها ألَّا يعني بقوله:

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/٤٥٩ بلفظ: نبوته وعلمه.

(٢) في التمهيد ٨/ ١٧٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٨٨ .

(٥) السبعة ص٤٠٧ ، والكشاف ٢/ ٥٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥ .

(٦) في المسألة الأولى من هذه الآية.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٥ ، وما قبله منه.

«من ورائي» أي: من بعد موتي، ولكن من ورائي في ذلك الوقت، وهذا أيضاً بعيدٌ يحتاج إلى دليلٍ أنَّهم خَفُّوا في ذلك الوقت وقلُّوا، وقد أخبرَ الله تعالى بما يدلُّ على الكثرةِ حين قالوا: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ابن عطية[١]: «من ورائي» من بعدي في الزمن، فهو الوراءُ على ما تقدَّم في «الكهف»[٢].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ امرأتُه هي إشياع بنت فاقود[٣] بن قبيل، وهي أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقود؛ قاله الطبريُّ[٤]، وحَنةُ هي أمُّ[٥] مريم حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[٦]. وقال القتبي: امرأةُ زكريا هي إشياع بنتُ عمران، فعلى هذا القولِ يكونُ يحيى ابنَ خالةِ عيسى عليهما السلام على الحقيقةِ، وعلى القولِ الآخر يكون ابنَ خالة أمِّه، وفي حديثِ الإسراء: قال عليه الصَّلاة والسلام: «فلقيتُ ابنَي الخالةِ يحيى وعيسى»[٧] شاهداً للقولِ الأوّل[٨]. والله أعلم[٩]. والعاقرُ التي لا تلدُ لكبرِ سنِّها، وقد مضى بيانُه في «آل عمران»[١٠]. والعاقرُ من النساءِ أيضاً التي لا تلدُ من غيرِ كبر[١١]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: ٥٠]. وكذلك العاقرُ من الرجالِ، ومنه قولُ عامر بن الطفيل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

(٢) ص٣٤٩ من هذا الجزء.

(٣) في (م): إيشاع بنت فاقوذا، والمثبت من النسخ الخطية ومن التعريف والإعلام ص١١٠ ، وفي (ف): كافودا بدل فاقوذ.

(٤) في التاريخ ١/ ٥٨٥ ، ونقل المصنف عنه بواسطة التعريف والإعلام ص١١٠ .

(٥) في (د) و(ظ): أخت.

(٦) ٥/ ٩٩ .

(٧) أخرجه أحمد (١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٢)، من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

(٨) أي: قول القتبي.

(٩) التعريف والإعلام ص١١٠ .

(١٠) ٥/ ١٢١ .

(١١) المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

لبئسَ الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً جباناً فما عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ[١]

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ سؤالٌ ودعاء، ولم يُصرِّح بولد؛ لِما عَلِم من حالِه وبُعدِه عنه بسببِ المرأة. قال قتادة: جرى له هذا الأمرُ وهو ابنُ بضعٍ وسبعين سنة. مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه؛ فقد كان غَلب على ظنِّه أنه لا يولد له لكبرِه[٢]؛ ولذلك قال: «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبرِ عِتِيًّا». وقالت طائفة: بل طَلبَ الولدَ، ثم طلبَ أن تكون الإجابةُ في أن يعيشَ حتى يرثه، تَحفُّظاً من أن تقعَ الإجابةُ في الولدِ ولكن يُخْتَرمُ، ولا يَتحصَّل منهُ الغرضُ[٣].

السادسة: قال العلماء: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولد إنَّما كان لإظهارِ دينه، وإحياءِ نبوَّته، ومضاعفة لأجره لا للدنيا، وكان ربه قد عَوَّده الإجابة، ولذلك قال: «ولَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»، أي: بدعائي إياك، وهذه وسيلةٌ حسنة أن يَتشفَّع إليه بنعَمِه، يَستدِرُّ فضلَه بفضله، يُروى أنَّ حاتمَ الجودِ لَقِيَهُ رجل فسأله، فقال له حاتم: مَن أنت؟ قال: أنا الذي أحسنتَ إليه عامَ أول، فقال: مرحباً بمَن تَشفَّع إلينا بنا[٤].

فإن قيل: كيف أَقدمَ زكريا على مسألةِ ما يَخرِقُ العادةَ دون إذن؟ فالجواب أنَّ ذلك جائزٌ في زمانِ الأنبياء، وفي القرآنِ ما يكشفُ عن هذا المعنى؛ فإنه تعالى قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فلمَّا رأى خارقَ العادة، استحكم طمعُه في إجابةِ دعوتِه، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ

(١) الديوان ص٩٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥ ـ ٦، دون ذكر مقاتل، وذكر غير ذلك الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣١٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٩، وقد ذكر هذه الحادثة في المسألة الثالثة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآية[١] [آل عمران:٣٨].

السابعة: إن قال قائلٌ: هذه الآيةُ تدل على جوازِ الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذَّرنا من آفاتِ الأموال والأولاد، ونبَّه على المفاسد الناشئةِ من ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤]. فالجوابُ أنَّ الدعاءَ بالولد معلومٌ من الكتاب والسنة حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران» بيانه[٢].

ثم إنَّ زكريا عليه السلام تحرَّز فقال: «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» وقال: «وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»، والولدُ إذا كان بهذه الصفةِ نفعَ أبويه في الدنيا والآخرة، وخَرَج من حدِّ العداوةِ والفتنة إلى حدِّ المسرةِ والنعمة. وقد دعا النبيُّ ﷺ لأنسٍ خادمِه فقال: «اللهمَّ أكثِرْ مالَه وولدَه، وبارِكْ له فيما أعطيته»[٣] فدعا له بالبركةِ تحرزاً ممَّا يؤدِّي إليه الإكثارُ من الهلكة. وهكذا فليتضرعِ العبدُ إلى مولاه في هدايةِ ولدِه، ونجاته في أُولاه وأُخراه اقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام والفضلاءِ؛ وقد تقدَّم في «آل عمران» بيانه[٤].

قولُه تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ **فيه أربعُ مسائل**:

الأولى: قولُه تعالى: «يَرِثُنِي» قرأ أهلُ الحرمين والحسنُ، وعاصم وحمزة: «يَرِثُنِي ويَرِثُ» بالرفع فيهما. وقرأ يحيى بنُ يعمر وأبو عمرو ويحيى بنُ وثَّاب والأعمش والكسائيُّ بالجزمِ فيهما[٥]، وليس هما جوابَ «هب» على مذهب سيبويه، إنَّما تقديرُه: إن تَهبْه يَرِثْني ويرث، والأوَّل أصوبُ في المعنى؛ لأنه طلبَ وارثاً موصوفاً[٦]، أي: هبْ لي من لدنك الوليَّ الذي هذه حالُه وصفتُه؛ لأنَّ الأولياء منهم

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٧٠ .

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) سلف ٥/ ١١١ و ١١٢ .

(٤) ٥/ ١١١ - ١١٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦ . وقراءة أبي عمرو والكسائي في السبعة ص٤٠٧ ، والتيسير ص١٤٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

مَن لا يرث، فقال: هبْ لي الذي يكون وارثي؛ قاله أبو عبيد، وردَّ قراءةَ الجزم، قال: لأنَّ معناه: إن وهبتَ وَرِث، وكيف يخبرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بهذا وهو أعلمُ به منه؟! النحاس[١]: وهذه حجةٌ مستفيضة[٢]؛ لأنَّ جوابَ الأمرِ عند النحويين فيه معنى الشرطِ والمجازاة؛ تقول: أطعِ الله يُدخلْك الجنة، أي: إن تُطعْه يُدخلْك الجنة.

الثانية: قال النحاس[٣]: فأمَّا معنى «يرثني ويرث من آل يعقوب» فللعلماءِ فيه ثلاثةُ أجوبة: قيل: هي وراثةُ نبوَّة. وقيل: هي وراثةُ حكمة. وقيل: هي وراثةُ مال.

فأمَّا قولُهم: وراثةُ نبوَّةٍ فمُحَال؛ لأنَّ النبوَّة لا تُورَث، ولو كانت تورثُ لقالَ قائل: الناسُ ينتسبون إلى نوحٍ عليه السلام وهو نبيٌّ مرسل.

ووراثةُ العلمِ والحكمة مذهبٌ حسن، وفي الحديثِ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء».

وأمَّا وِراثةُ المالِ فلا يمتنع، وإن كان قومٌ قد أنكروه؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «لا نُورَث ما تركنا صدقة»[٤] فهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ الواحدَ يُخبر عن نفسه بأخبار الجمع، وقد يُؤوَّل هذا بمعنى: لا نُورَث، الذي تركنا صدقة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخلِّف شيئاً يُورَث عنه، وإنَّما كان الذي أباحه الله عزَّ وجلَّ إياه في حياتِه بقوله تبارك اسمه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] لأنَّ معنى (لله) لسبيلِ الله، ومِن سبيل الله ما يكونُ في مصلحةِ الرسولِ ﷺ ما دام حيًّا.

فإن قيل: ففي بعضِ الراويات «إنَّا معاشرَ الأنبياءَ لا نُورَث ما تركنا صدقة» ففيه التأويلان[٥] جميعاً، أن يكون «ما» بمعنى الذي. والآخر لا يُورَث مَن كانت هذه حاله[٦].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٦ ـ ٧.

(٢) في (م): متقصاة، وفي إعراب النحاس: مقتصاة، والمثبت من النسخ الخطية.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦ ـ ٧.

(٤) سلف هذا الحديث والذي قبله في المسألة الأولى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): التأويلات، وسقطت من (ف).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦ ـ ٧.

وقال أبو عمر[1]: واختلفَ العلماءُ في تأويلِ قولِه عليه الصلاة والسلام: «لا نُورَث ما تركنا صدقة» على قولين: أحدهما ـ وهو الأكثرُ وعليه الجمهورُ ـ أنَّ النبي ﷺ لا يُورَث وما تركَ صدقةٌ. والآخر: أنَّ نبيَّنا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأنَّ الله تعالى خصَّه بأن جعلَ ماله كلَّه صدقةً زيادةً في فضيلته، كما خُصَّ في النكاح بأشياءَ أباحها له وحرَّمها على غيره، وهذا القولُ قالَه بعضُ أهل البصرةِ منهم ابنُ عُلَية، وسائرُ علماءِ المسلمين على القولِ الأوَّل.

الثالثة: قولُه تعالى: «مِنْ آلِ يَعْقُوب» قيل: هو يعقوبُ إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنتِ عمران، ويرجع نسبُها إلى يعقوب؛ لأنها من ولدِ سليمان بن داود وهو من ولدِ يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولدِ هارون أخي موسى، وهارون وموسى من ولدِ لاوي بن يعقوب، وكانت النبوَّة في سبطِ يعقوب بن إسحاق. وقيل: المعنيُّ بيعقوب هاهنا يعقوبُ بنُ ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم، أخوانِ من نسل سليمان بنِ داود عليهما السلام؛ لأنَّ يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتلٌ وغيره. وقال الكلبي: وكان آلُ يعقوب أخوالَه، وهو يعقوبُ بن ماثان، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى. وروى قتادةُ أنَّ النبي ﷺ قال: «يرحمُ الله تعالى زكريا ما كان عليه من ورثتِه»[2]. ولم يَنصرف يعقوبُ؛ لأنَّه أعجمي[3].

الرابعة: قولُه تعالى: «واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» أي: مرضيًّا في أخلاقِه وأفعالِه. وقيل: راضياً بقضائك وقدرك. وقيل: رجلاً صالحاً ترضَى عنه. وقال أبو صالح: نبيًّا كما جعلتَ أباه نبيًّا[4].

---

(١) في التمهيد ٨/ ١٦٠ - ١٦١ ، والاستذكار ٢٧/ ٣٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٤ - ١٨٥ . والحديث أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣ ، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦ ، دون قوله: رجلاً صالحاً ترضى عنه، ولم ينسب القول الأخير لأبي صالح.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فاستجابَ الله دعاءَه فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾[(١)] فتضمَّنت هذه البشرى ثلاثةَ أشياءَ: أحدُها: إجابةُ دعائِه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولدَ وهو قوةٌ. الثالث: أن يُفرَد بتسميتِه، وقد تقدَّم معنى تسميتِه في «آل عمران»[(٢)]. وقال مقاتل: سمَّاه يحيى؛ لأنَّه حَيِيَ بين أبٍ شيخٍ وأمٍّ عجوز[(٣)]، وهذا فيه نظرٌ؛ لِمَا تقدَّم من أنَّ امرأته كانت عقيماً لا تلد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ أي: لم نسمِّ أحداً قبل يحيى بهذا الاسم؛ قاله ابنُ عباس وقتادة، وابنُ أسلم والسُّدِّي[(٤)]. ومَنَّ عليه تعالى بأنْ لم يَكِل تَسميتَه إلى الأبوين[(٥)]. وقال مجاهدٌ وغيره: «سَمِيًّا» معناه: مِثلاً ونظيراً[(٦)]، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] معناه: مثلاً ونظيراً كأنَّه من المساماةِ والسُّموِّ، وهذا فيه بعدٌ؛ لأنه لا يُفضَّل على إبراهيم وموسى، اللهمَّ إلَّا أن يُفضَّل في خاصٍّ كالسُّؤدد والحصر[(٧)] حسبَ ما تقدَّم بيانُه في «آل عمران»[(٨)]. وقال ابنُ عباسٍ أيضاً: معناه: لم تلدِ العواقرُ مثلَه ولداً[(٩)]. وقيل: إنَّ الله تعالى اشترطَ القَبْلَ؛ لأنَّه أرادَ أن يخلقَ بعدَه أفضلَ منه وهو محمدٌ ﷺ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ وشاهدٌ على أنَّ الأسامي السُّنُعَ[(١٠)] جديرةٌ بالأثرةِ، وإيَّاها

---

(١) البغوي ٣/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ١١٥ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣ عن قتادة وابن أسلم والسدي، وقول ابن عباس ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢١٠ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٧٦ .

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٣٨٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٦٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٦ .

(٨) ٥/ ١١٦ وما بعدها.

(٩) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦١ - ٤٦٢ .

(١٠) والسَّنَعُ: الجَمال. القاموس (سنع).

كانت العربُ تنتحي في التسميةِ؛ لكونها أَنبهَ وأنزَه عن النَّبزِ حتى قال قائل:

سُنُعُ الأسَامِي مُسْبِلي أُزُرٍ حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدبِ

وقال رؤبةُ للنَّسابة البكريِّ وقد سألَه عن نَسبه: أنا ابنُ العَجَّاج، فقال: قَصَّرت وعَرَّفتَ[1].

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ليس على معنى الإنكارِ لِمَا أخبرَ الله تعالى به، بل على سبيلِ التعجب من قدرةِ الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأةٍ عاقر وشيخٍ كبير[2]. وقيل غيرُ هذا ممَّا تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[3]. ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يعني: النهاية في الكبرِ واليبسِ والجفاف، ومثلُه العسِي، قال الأصمعي: عَسَا الشيءُ يَعسُو عُسُوًّا وعَسَاء ممدودٌ، أي: يَبِس وصَلُب، وقد عسا الشيخُ يعسو عُسِيًّا: وَلَّى وكَبِر مثل عَتَا، يقال: عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيًّا وعِتيًّا كبر وولَّى، وعتوتَ يا فلانُ تعتو عُتوًّا وعتيًّا[4]. والأصلُ عُتوٌّ؛ لأنه من ذواتِ الواو، فأَبدلوا من الواو ياء؛ لأنَّها أختُها وهي أخفُّ منها، والآياتُ على الياءات، ومَن قال: «عِتِيًّا» كره الضمةَ مع الكسرةِ والياء[5]، وقال الشاعر:

إنَّما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعـ ـذَرُ مَن كان في الزمان عِتِيًّا[6]

وقرأ ابنُ عباس: «عُسِيًّا» وهو كذلك في مصحفِ أُبيٍّ[7]. وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وحمزةُ، والكسائي وحفص: «عِتِيًّا» بكسر العينِ وكذلك «جِثِيًّا» و«صِلِيًّا» حيثُ كنَّ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٣، والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٧٧، وفيه: شنع.

(٢) الكلام بنحوه عند السمرقندي ٢/ ٣١٩، والرازي ٢١/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٣) ٥/ ١٢٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (عتو) و(عسو).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨.

(٦) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه ص٢٢٦، وفيه: «عاش في الزمان» بدل «كان في الزمان».

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٨، ومعاني الفراء ٢/ ١٦٢.

وضَمَّ حفصٌ «بُكِيًّا» خاصةً، وكذلك الباقون في الجميع، وهما لغتان[١]. وقيل: «عِتيًّا» قَسِيًّا؛ يقالُ: مَلِكٌ عاتٍ إذا كان قاسيَ القلبِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: قال له الملَكُ: «كذلك قال ربك» والكافُ في موضعِ رفعٍ، أي: الأمرُ كذلك[٢]، أي: كما قيل لك: «هو عليَّ هين». قال الفراءُ[٣]: خَلْقُه عليَّ هيِّنٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل يحيى[٤]، وهذه قراءةُ أهلِ المدينة والبصرةِ وعاصم، وقرأ سائرُ الكوفيين: «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنونٍ وألف بالجمع على التعظيم[٥]. والقراءةُ الأولى أشبهُ بالشَّواذ[٦]، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: كما خلقَك الله تعالى بعدَ العدم ولم تكُ شيئاً موجوداً، فهو القادرُ على خلقِ يحيى وإيجادِه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ طلبَ آيةً على حَملِها بعد بشارة الملائكةِ إياه[٧]، وبعدَ قولِه تعالى: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً» زيادةَ طمأنينةٍ، أي: تَمم النعمةَ بأن تجعلَ لي آية، وتكونَ تلك الآيةُ زيادةَ نعمةٍ وكرامة. وقيل: طلب آيةً تدلُّه على أنَّ البشرى منه بيحيى لا من الشيطان؛ لأنَّ إبليسَ أوهمه ذلك. قاله الضحاك[٨] وهو معنى قول السُّدي، وهذا فيه نظرٌ؛ لإخبارِ الله تعالى بأن الملائكة

---

(١) التيسير ص١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٧ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦ ، والبغوي ٣/ ١٨٩ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢١ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٨ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٦٢ .

(٤) البغوي ٣/ ١٨٩ .

(٥) التيسير ص١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٨ ، والكشاف ٢/ ٥٠٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦ ، وزاد المسير ٥/ ٢١٢ .

(٦) في (م): بالسَّواد.

(٧) قال الرازي في التفسير ٢١/ ١٨٩ : وهذا بعيد؛ لأنَّ بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٥٨ .

نادته حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران»(١) . ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ تقدَّم في «آل عمران» بيانُه(٢) فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» أي: أشرفَ عليهم من المصلى، والمحرابُ أرفعُ المواضع، وأشرفُ المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض؛ دليلُه محرابُ داودَ عليه السلام على ما يأتي.

واختلف الناسُ في اشتقاقِه، فقال فرقةٌ: هو مأخوذٌ من الحَرْب كأنَّ ملازِمَه يُحارب الشيطانَ والشهوات. وقالت فرقة: هو مأخوذٌ من الحَرَب بفتحِ الراء كأنَّ ملازمَه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً(٣).

الثانية: هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ ارتفاعَ إمامِهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم في صلاتهم، وقد اختلفَ في هذه المسألة فقهاءُ الأمصار، فأجازَ ذلك الإمامُ أحمد وغيره متمسكاً بقصةِ المنبر، ومنع مالكٌ ذلك في الارتفاعِ الكثير دون اليسير، وعَلَّل أصحابُه المنعَ بخوف الكِبْر على الإمامِ(٤).

قلت: وهذا فيه نظر، وأحسنُ ما فيه ما رواه أبو داود(٥)، عن همام، أنَّ حذيفة أَمَّ الناس بالمدائنِ على دكانٍ، فأخذَ أبو مسعود بقميصِه فَجبذَه، فلما فرغَ من صلاتِه

---

(١) ٥/ ١١٢ .

(٢) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٧ .

(٤) المفهم ٢/ ١٥٣ - ١٥٤ ، والمراد بقصة المنبر ما أخرجه أحمد (٢٢٨٧١)، والبخاري (٤٤٨) و(٢٠٩٤)، ومسلم (٥٤٤)، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ... فعمل المنبر ثلاث درجات، فأرسلَتْ به إلى النبي ﷺ، فوضع في موضعه هذا الذي ترون، فجلس عليه أول يوم وضع، فكبَّر وهو عليه، ثم ركع ثم نزل القهقرى فسجد وسجد الناس معه، ثم عاد حتى فرغ...

(٥) في السنن (٥٩٧).

قال: ألم تعلمْ أنهم كانوا يُنهون عن هذا، أو يُنهَى عن ذلك؟ قال: بلى، قد ذكرتُ حينَ مددتني. ورَوى أيضاً[١] عن عدي بنِ ثابت الأنصاري قال: حدَّثني رجلٌ أنه كان مع عمار بنِ ياسر بالمدائن، فأُقيمتِ الصلاة فتقدَّم عمار بنُ ياسر، وقام على دكان يصلي والناسُ أسفلُ منه، فتقدَّم حذيفةُ فأخذَ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمار من صلاته، قال له حذيفة: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أَمَّ الرجلُ القوم، فلا يقمْ في مكانٍ أرفعَ من مقامِهم» أو نحو ذلك؟ فقال عمَّار: لذلك اتبعتُك حين أخذتَ على يدي.

قلت: فهؤلاء ثلاثةٌ من الصحابةِ قد أَخبروا بالنَّهي عن ذلك، ولم يحتجَّ أحدٌ منهم على صاحبه بحديث المنبرِ، فدل على أنه منسوخٌ. ومما يدلُّ على نسخِه أنَّ فيه عملاً زائداً في الصلاةِ، وهو النزولُ والصعودُ، فنُسِخ كما نُسخ الكلامُ والسلامُ.

وهذا أَولى ممَّا اعتذرَ به أصحابُنا من أنَّ النبيَّ ﷺ كان معصوماً من الكِبْر؛ لأنَّ كثيراً من الأئمةِ يوجد لا كِبْرَ عندهم، ومنهم مَن علَّله بأنَّ ارتفاعَ المنبرِ كان يسيراً. والله أعلم[٢].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال الكلبي وقتادةُ وابنُ منبِّه: أَوحى إليهم: أشار[٣]. القتبي[٤]: أومأ. مجاهد: كتبَ على الأرض[٥]. عكرمة: كتبَ في كتاب. والوحي في كلامِ العرب: الكتابةُ[٦]؛ ومنه قولُ ذي الرُّمَّةِ:

(١) أي أبو داود في السنن (٥٩٨)، وقال المنذري في مختصر السنن ١/ ٣٠٩: في إسناده رجل مجهول.

(٢) المفهم ٢/ ١٥٤.

(٣) ذكر قول الكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٥٩، وذكر قول قتادة وابن منبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧، وأخرج الطبري ١٥/ ٤٧١ - ٤٧٢ قولَ ابن منبه فقط.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٧٢، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٨٤ بلفظ: أشار إليهم.

(٦) الصحاح (وحى).

سوى الأربعِ الدُّهْمِ اللَّواتي كأنَّها بَقِيَّةُ وَحْيٍ في بُطونِ الصَّحائِف[١]

وقال عَنْترة:

كوحي صحائفٍ من عهدِ كسرى فأهداها لأعجم طِمْطِميٍّ[٢]

و«بكرة وعشيًّا» ظرفان، وزعم الفراءُ أنَّ العشيَّ يُؤنث، ويجوزُ تذكيرُه إذا أَبْهَمْتَ؛ قال: وقد يكونُ العشيُّ جمعَ عشيَّة[٣].

الرابعة: قد تقدَّم الحكمُ في الإشارة في «آل عمران»[٤].

واختلف علماؤُنا فيمَن حلف ألَّا يكلم إنساناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً، فقال مالك: إنه يحنث إلا أن ينويَ مشافهتَه، ثم رجع فقال: لا يُنَوَّى في الكتابِ ويحنثُ إلا أن يرتجعَ الكتابَ قبل وصولِه. قال ابنُ القاسم: إذا قرأ كتابَه حنث، وكذلك لو قرأ الحالفُ كتابَ المحلوف عليه. وقال أشهب: لا يحنثُ إذا قرأه الحالف، وهذا بَيِّن؛ لأنه لم يكلِّمْه ولا ابتدأه بكلامٍ، إلا أن يريدَ ألا يعلمَ معنى كلامِه، فإنَّه يحنثُ وعليه يُخرجُ قولُ ابن القاسم، فإنْ حلفَ ليكلمنَّه، لم يَبرَّ إلا بمشافهتِه، وقاله[٥] ابن الماجشون. وإن حلفَ: لَئِن عَلِمَ كذا ليُعلِمنَّه أو ليُخبِرنَّه، فكتبَ إليه أو أرسلَ إليه رسولاً بَرَّ، ولو علماه جميعاً لم يبر، حتى يُعلِمَه؛ لأنَّ علمهما مختلفٌ.

الخامسة: واتفق مالكٌ والشافعيُّ والكوفيون أنَّ الأخرسَ إذا كتبَ الطلاقَ بيده

---

(١) الديوان ٣/ ١٦٢٢، وفيه: أللأربع الدهم.

(٢) الديوان ص٧٨، ورجلٌ طِمطِميٌّ: في لسانه عجمة. القاموس (طمم).

(٣) المذكر والمؤنث للفراء ص٣٠، ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(٤) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.

(٥) في (م): وقال، والمثبت من (ظ) و(د)، وكلام ابن الماجشون وما قبله في النوادر والزيادات ٤/ ١٢٥ - ١٢٧، وكلام مالك في المدونة ٢/ ١٣٠ - ١٣١.

لزمه[١]، قال الكوفيون: إلا أن يكونَ رجل أُصمِت أياماً فكتبَ لم يَجزْ من ذلك شيءٌ. قال الطحاوي[٢]: الخَرسُ مخالفٌ للصمتِ العارض، كما أنَّ العجزَ عن الجماع العارضِ لمرضٍ ونحوه يوماً أو نحوه مخالفٌ للعجزِ المأيوس منه الجماع، نحو الجنون في بابِ خيار المرأةِ في الفرقةِ.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلامِ حذفٌ، المعنى: فوُلِد له ولدٌ، وقال الله تعالى للمولود: «يا يحيى خذ الكتب بقوّة». وهذا اختصار يدلُّ الكلام عليه. و«الكتاب» التوراةُ بلا خلاف[٣]. «بقوّة» أي: بجد واجتهادٍ، قاله مجاهد[٤]. وقيل: العلمُ به، والحفظُ له، والعملُ به، وهو الالتزامُ لأوامرِه، والكفُّ عن نواهيه، قاله زيدُ بن أسلم[٥]، وقد تقدّم في «البقرة»[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قيل: الأحكام والمعرفة بها. وروى معمر أنَّ الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للَّعِب خُلِقت. فأنزلَ الله تعالى: «وآتيناه الحكم صبيًّا»[٧]. وقال قتادةُ: كان ابنَ سنتين أو ثلاثِ سنين. وقال مقاتل: كان ابنَ ثلاث سنين[٨]. و«صبيًّا» نصب على الحال[٩]. وقال ابنُ عباس: مَن قرأ القرآنَ قبل أن يحتلمَ؛ فهو ممَّن أُوتي الحكم صبيًّا[١٠].

---

(١) مالك في المدونة ٣/ ٢٤، والشافعي في الأم ٥/ ٢٢٧، والكوفيون في مختصر اختلاف العلماء للجصَّاص ٢/ ٤٥١.

(٢) في مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٤٥١، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٧.

(٤) في التفسير ١/ ٣٨٤، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٦٠.

(٦) ٢/ ١٦٥.

(٧) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٧٤.

(٨) زاد المسير ٥/ ٢١٣، ونقل قول مقاتل فقط الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٠.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٧، وزاد المسير ٥/ ٢١٣.

ورُوي في تفسيرِ هذه الآية من طريقِ عبدِ الله بن عمرو[١]، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ بني آدمَ يأتي يومَ القيامة وله ذَنْبٌ إلا ما كان من يحيى بنِ زكريا»[٢]. وقال قتادة: إنَّ يحيى عليه السلام لم يعصِ الله قطُّ بصغيرةٍ ولا كبيرةٍ ولا هَمَّ بامرأةٍ[٣]. وقال مجاهد: وكان طعامُ يحيى عليه السلامُ العشبَ، وكان للدمعِ في خدَّيه مجارٍ ثابتةٌ[٤]. وقد مضى الكلامُ في معنى قوله: «وَسَيِّداً وَحَصُوراً» في «آل عمران»[٥].

قولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: «حناناً» عطفٌ على «الحكم»[٦]. ورُوي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: والله ما أدري ما «الحنان»؟. وقال جمهورُ المفسرين: الحنانُ: الشفقةُ والرحمة والمحبة، وهو فعلٌ من أفعالِ النفس[٧]. النحاس: وفي معنى الحنانِ عن ابن عباس قولان: أحدهما: قال: تَعطُّفُ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بالرحمةِ. والقولُ الآخر ما أُعطيهُ من رحمةِ الناس حتى يخلِّصهم من الكفر والشرك[٨]. وأصلُه من حنين الناقةِ على ولدها[٩]. ويقال: حنانك وحنانيك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانيك تثنية الحنان[١٠]. وقال أبو عبيدة: والعرب تقول: حنانَك ياربُّ، وحنانيكَ

---

(١) في النسخ: عمر، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٨، والكلام منه.

(٢) لم نقف عليه من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧٧ - ٣٧٨، والحاكم ٢/ ٣٧٣ و٤/ ٢٤٤، من حديث عمرو بن العاص.
وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧٨، عن سعيد بن المسيب قال: قال ابن العاص ـ إمَّا عبد الله وإمَّا أبوه ـ: ما أحد...، فذكره من قوله، ولم يرفعه.
وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٦، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٨١، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال رسول الله ﷺ: ما من أحد...، فذكره.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٥، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، عن النبي ﷺ قال: ما أذنب يحيى بن زكريا ذنباً، ولا هَمَّ بامرأة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٨، وما قبله منه.

(٥) ٥/ ١١٦ وما بعدها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٧ - ٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(٩) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٠.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٧.

ياربُّ بمعنى واحد[١]، تريد رحمتك. وقال امرؤ القيس[٢]:

وَيَمْنَحُها بَنُو شَمَجَى بنِ جَرْمٍ مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ

وقال طرفة[٣]:

أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنا حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشري[٤]: «حناناً» رحمةً لأبويه وغيرِهما وتعطفاً وشفقة؛ وأنشد سيبويهِ[٥]:

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بكَ هَاهُنَا أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحيِّ عارفُ

قال ابنُ الأعرابي: الحنَّان من صفةِ الله تعالى مشدَّداً: الرحيمُ. والحَنَان مخففٌ: العطفُ والرحمة. والحَنان: الرزقُ والبركة[٦]. ابنُ عطية: والحنانُ في كلام العربِ أيضاً ما عُظِّم من الأمور في ذاتِ الله تعالى، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفَيل في حديثِ بلالٍ: واللهِ لئن قتلتم هذا العبدَ لأتخذنَّ قبرَه حَنَاناً[٧]. وذكرَ هذا الخبرَ الهرويُّ، فقال: وفي حديثِ بلال: ومرَّ عليه ورقةُ بنُ نوفل وهو يُعذَّب فقال: والله لئن قَتلتموه لأتخذنَّه حَنَاناً، أي: لأتمسحنَّ به[٨]. وقال الأزهريُّ: معناه لأتعطفنَّ عليه ولأترحمنَّ عليه؛ لأنَّه من أهلِ الجنة.

قلتُ: فالحنانُ العطفُ، وكذا قال مجاهدٌ. و«حناناً» أي: تَعطُّفاً منَّا عليه، أو منه

---

(١) الكلام بنحوه في الطبري ١٥/ ٤٧٨ .

(٢) في ديوانه ص١٤٣ ، وسلف ٩/ ٧٨ .

(٣) في ديوانه ص٦٦ ، وسلف ٥/ ١٤٨ .

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٠٤ .

(٥) في الكتاب ١/ ٣٢٠ و ٣٤٩ ، وهو للمنذر بن درهم الكلبي كما في خزانة الأدب ٢/ ١١٤ .

(٦) تهذيب اللغة ٣/ ٤٤٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٧ - ٨ .

(٨) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٤٨ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٤٤٠ - ٤٤١ و ٦٣/ ٢٥، وابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٢٦٨ ، من حديث عروة بن الزبير قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال... وأورده الذهبي في السير ١/ ١٢٩ وقال: هذا مرسل. وورقة لو أدرك هذا لعُدَّ من الصحابة، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة كما في الصحيح.

على الخلقِ؛ قال الحطيئةُ[١]:

تَحنَّنْ عليَّ هَدَاكَ المليك فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقالا

عكرمة: محبة[٢]. وحَنَّةُ الرجلِ: امرأتُه[٣]؛ لتوادِّهما؛ قال الشاعر:

فقالتْ حنانٌ ما أَتى بكَ هاهنا أذو نسبٍ أم أنتَ بالحيِّ عارفُ[٤]

قولُه تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ الزكاةُ: التطهيرُ والبركةُ والتنمية في وجوهِ الخير والبر[٥]، أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى: زكَّيناه بحسنِ الثناءِ عليه كما تُزكِّي الشهودُ إنساناً[٦]. وقيل: «زكاة» صدقةً به على أبويه؛ قاله ابنُ قتيبة[٧]. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي: مطيعاً لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئةً ولم يُلمَّ بها[٨].

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ البَرُّ بمعنى البار: وهو الكثيرُ البِرِّ[٩]. و﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً، وهذا وصفٌ ليحيى عليه السلام بلينِ الجانبِ وخفضِ الجناح.

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ قال الطبري[١٠] وغيرُه: معناه: أمانٌ. ابنُ عطية: والأظهرُ عندي أنها التحيةُ المتعارفةُ فهي أشرفُ وأَنبهُ من الأمان؛ لأنَّ الأمان مُتحصَّلٌ له بنفي العصيانِ عنه وهي أقلُّ درجاتِه، وإنَّما الشرفُ في أن سلَّم اللهُ عليه، وحيَّاه في المواطن التي الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ، وقلةِ الحيلة والفقرِ إلى الله تعالى، وعظيمِ الهول[١١].

---

(١) في ديوانه ص٢٢٢.
(٢) أخرجه الطبري ١٥/٤٧٧.
(٣) تهذيب اللغة ٣/٤٤٨.
(٤) سلف آنفاً.
(٥) المحرر الوجيز ٤/٨.
(٦) النكت والعيون ٣/٣٦٠.
(٧) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٣، ونقله عنه المصنف بواسطة النكت والعيون ٣/٣٦١.
(٨) الوسيط ٣/١٧٨.
(٩) الوسيط ٣/١٧٩، والمحرر الوجيز ٤/٨.
(١٠) في التفسير ١٥/٤٨١.
(١١) في (م) و(د): عظيم الحول، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/٨، والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من (ز) و(ف) و(خ).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيانَ بنِ عيينة في سورة سبحان[١] عند قتلِ يحيى.

وذكر الطبريُّ عن الحسن، أنَّ عيسى ويحيى التقيا ـ وهما ابنا الخالة ـ فقال يحيى لعيسى: ادعُ الله لي؛ فأنتَ خيرٌ مني. فقال له عيسى: بل أنت ادعُ الله لي؛ فأنتَ خير مني؛ سلَّم الله عليك وأنا سلَّمت على نفسي[٢]. فانتزعَ بعضُ العلماء من هذه الآية في التسليمِ فضلَ عيسى، بأن قال: إدلالُه[٣] في التسليمِ على نفسِه، ومكانتُه من الله تعالى التي اقتضتْ ذلك حين قُدِّر[٤] وحُكي في محكمِ التنزيلِ أعظمُ في المنزلةِ من أن يُسلَّم عليهِ. قال ابنُ عطية[٥]: ولكلٍّ وجهٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ القصة إلى آخرها. هذا ابتداءُ قصةٍ ليست

---

(١) ص٢٧ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤، والطبري ١٥/ ٤٨٢، ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ٨.

(٣) في (د): إذلاله، وهي كذلك في المحرر الوجيز ٤/ ٨، والكلام منه، ومعنى إدلاله: ثقته، من قولهم: فلانٌ يُدِلُّ بفلان، أي: يثق به، كما في الصحاح (دلل).

(٤) في (م): قرر.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٨، والكلام بنحوه عند الرازي ٢١/ ١٩٤.

من الأُولى، والخطابُ لمحمدٍ ﷺ[١]، أي: عَرِّفهم قصتَها ليعرفوا كمالَ قدرتِنا. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ أي: تَنحَّت وتباعدت. والنبذُ: الطرحُ والرمي، قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿مِنۡ أَهۡلِهَآ﴾ أي: ممَّن كان معها.

و«إذ» بدل من «مريم» بدل اشتمال؛ لأنَّ الأحيان مشتملةٌ على ما فيها، والانتباذُ: الاعتزالُ والانفراد[٢].

واختلف الناسُ لم انتبذت؟ فقال السُّدِّيُّ: انتبذتْ لتَطَّهَّر من حيضٍ[٣]. وقال غيره: لتعبدَ الله، وهذا حسنٌ؛ وذلك أنَّ مريمَ عليها السلامُ كانت وقفاً على سدانةِ المعبدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّت من الناسِ لذلك، ودخلت في المسجدِ إلى جانبِ المحراب في شرقيِّه لتخلو للعبادةِ، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقوله: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي: مكاناً من جانب الشرقِ. والشَّرْقُ بسكون الراء: المكانُ الذي تُشرق فيه الشمسُ. والشَّرَقُ بفتحِ الراء: الشمسُ[٤]. وإنَّما خُصَّ المكان بالشرق؛ لأنهم كانوا يُعظمون جهةَ المشرق، ومن حيثُ تطلع الأنوار، وكانت الجهاتُ الشرقية من كل شيء أفضلَ من سواها، حكاه الطبري[٥]. وحَكى عن ابنِ عباس أنه قال: إني لأعلمُ الناسِ لِمَ اتخذ النَّصارى المشرقَ قبلةً؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: «إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» فاتخذوا ميلادَ عيسى عليه السلام قبلة، وقالوا: لو كان شيءٌ من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريمُ عيسى عليه السلام فيه.

واختلف الناس في نبوَّةِ مريم، فقيل: كانت نبيَّة بهذا الإرسال والمحاورة للملك. وقيل: لم تكن نبيَّة، وإنما كلَّمها مثالُ بشر، ورؤيتها للملك كما رُئِيَ جبريلُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٣) بعدها في (م) و(د): أو نفاس، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٩ والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من بقية النسخ.

(٤) تهذيب اللغة ٨/ ٣١٦.

(٥) في التفسير ١٥/ ٤٨٤ - ٤٨٥، وقول ابن عباس الآتي فيه.

في صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأولُ أظهر[١]. وقد مضى الكلامُ في هذا المعنى مستوفى في «آل عمران»[٢] والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قيل: هو روحُ عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الله تعالى خلق الأرواحَ قبل الأجساد، فركَّب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريلُ، وأُضيف الروحُ إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامةً[٣]. والظاهرُ أنَّه جبريلُ عليه السلام؛ لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: تمثل الملكُ لها ﴿بَشَرًا﴾ تفسير أو حالٌ[٤] ﴿سَوِيًّا﴾ أي: مستوي الخلقة؛ لأنَّها لم تكن لتطيقَ أن[٥] تنظر جبريلَ في صورته. ولمَّا رأتْ رجلاً حسن الصورة في صورةِ البشر قد خرق عليها الحجاب ظنَّت أنه يريدها بسوء، فـ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: ممَّن يتقي الله. البِكَالي: فنكصَ جبريلُ عليه السلام فزعاً من ذكرِ الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبي: كان رجلاً صالحاً فتعوَّذت به تعجباً. وقيل: تقي فعيل بمعنى مفعول، أي: كنت ممَّن يُتَّقى منه. في «البخاري»: قال أبو وائل: علمتْ مريمُ أنَّ التقي ذو نُهْيةٍ حين قالت: «إن كنت تقيًّا»[٦]. وقيل: تقي: اسمُ فاجرٍ معروف في ذلك الوقت، قاله وهب بن منبه، حكاه مكي وغيرُه. ابنُ عطية[٧]: وهو ضعيفٌ ذاهبٌ مع التَّخرُّص. فقال لها جبريلُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ جعلَ الهبةَ من قِبَله لما كان الإعلامُ بها من قِبَله. وقرأ ورش، عن نافع: «لِيَهَبَ لَكِ»[٨] على معنى: أرسلني الله ليهبَ لك. وقيل: معنى: «لأهب» بالهمز

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩.

(٢) ٥/ ١٢٦ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٦٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠.

(٥) في (د) و(م): أو، والمثبت من (ظ)، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز) و(خ).

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٤٧٣٠)، وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٨٧.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٩، وما قبله منه.

(٨) التيسير ص١٤٨، والبغوي ٣/ ١٩١، وزاد المسير ٥/ ٢١٧، والرازي ٢١/ ١٩٨.

محمولٌ على المعنى، أي: قال: أرسلتُه لأهبَ لك. ويحتمل «ليهب» بلا همزٍ أن يكونَ بمعنى المهموزِ ثم خُفِّفتِ الهمزة. فلما سمعت مريمُ ذلك من قولِه، استفهمت عن طريقِه فـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: بنكاح، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: زانيةً، وذكرت هذا تأكيداً؛ لأنَّ قولَها: لم يمسسني بشرٌ، يشملُ الحلالَ والحرام. وقيل: ما استَبعدتْ من قدرةِ الله تعالى شيئاً، ولكن أرادتْ كيفَ يكونُ هذا الولد؟ من قِبَل الزوجِ في المستقبلِ أم يخلقه اللهُ ابتداءً[1]؟ وروي أنَّ جبريل عليه السلام حينَ قال لها هذه المقالةَ نفخَ في جيبِ درعِها وكمها؛ قاله ابن جريج[2]. ابنُ عباس: أخذَ جبريل عليه السلام رُدْنَ قميصِها بإصبعِه فنفخَ فيه، فحملت من ساعتِها بعيسى[3]. قال الطبري[4]: وزعمتِ النَّصارى أنَّ مريم حملت بعيسى ولها ثلاثَ عشرةَ سنة، وأنَّ عيسى عاش إلى أن رُفِع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأنَّ مريمَ بقيت بعد رفعه ستَّ سنين، فكان جميعُ عمرِها نيفاً وخمسين سنة.

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ متعلقٌ بمحذوف، أي: ونخلقه لنجعلَه ﴿ءَايَةً﴾ دلالةً على قدرتِنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمنَ به ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً في اللوحِ مسطوراً[5].

قوله تعالى: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحَّت بالحملِ إلى مكانٍ بعيد، قال ابنُ عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيتِ لحم بينَه وبينَ إيلياء أربعةُ أميال، وإنَّما بَعُدت فراراً من تعييرِ قومِها إياها بالولادةِ من غير زوجٍ[6]. قال ابنُ عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحالِ[7]. وهذا هو الظاهرُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكر الانتباذَ عقبَ الحمل[8]. وقيل غيرُ ذلك على ما يأتي.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩١ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٠ .

(٤) في التاريخ ١/ ٥٨٥ .

(٥) الكشاف ٢/ ٥٠٥ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩٧ .

(٨) زاد المسير ٥/ ٢١٩ .

قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ «أجاءَهَا» اضطرها، وهو تعديةُ جاء بالهمز[١]. يقال: جاء به وأجاءه إلى موضعِ كذا، كما يقال: ذهبَ به وأذهبه[٢]. وقرأ شبيل ورويت عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة. وفي مصحف أُبيٍّ: «فلما أجاءها المخاض». وقال زهير:

وَجَارٍ سَارَ معتمداً إلينَا أَجَاءتْهُ المخافَةُ والرجَّاءُ

وقرأ الجمهورُ: «المَخاضُ» بفتح الميم، وابنُ كثير فيما رُوي عنه بكسرها وهو الطَّلقُ وشدَّة الولادةِ وأوجاعُها[٣]. مَخِضت المرأةُ تَمخَض مَخاضاً ومِخاضاً، وناقةٌ ماخض، أي: دنا وِلادُها[٤]. «إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ» كأنَّها طلبت شيئاً تستندُ إليه وتتعلقُ به، كما تتعلقُ الحامل لشدَّةِ وجعِ الطلق. والجذعُ: ساقُ النخلةِ اليابسة في الصحراءِ الذي لا سعفَ عليه ولا غصنَ، ولهذا لم يقل: إلى النخلةِ[٥].

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تَمنَّت مريمُ عليها السلام الموتَ من جهة الدِّين لوجهين: أحدهما: أنَّها خافت أن يُظَن بها الشرُّ في دينها وتُعيَّر فيفتنها ذلك[٦]. الثاني: لئلا يقع قومٌ بسببها في البهتان والنسبةِ إلى الزنى، وذلك مهلك[٧]. وعلى هذا الحدِّ يكون تمني الموت جائزاً، وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورةِ يوسف[٨] عليه السلام. والحمد لله.

قلت: وقد سمعتُ أنَّ مريمَ عليها السلام سمعت نداءَ من يقول: اخرجْ يا مَن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٢) شرح ديوان زهير ص٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ ، وبيت زهير في شرح ديوانه ص٧٧ .

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٢٢ .

(٥) الكلام بنحوه عند البغوي ٣/ ١٩٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٧) زاد المسير ٥/ ٢٢٠ .

(٨) ٩/ ٢٦٩ وما بعدها.

يُعبَد من دونِ الله، فحزنت لذلك، و﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ النِّسي في كلامِ العرب: الشيءُ الحقير الذي شأنُه أن يُنسى ولا يُتألم لفقده كالوتدِ والحبلِ للمسافر ونحوه[1]. وحُكي عن العربِ أنَّهم إذا أرادوا الرحيلَ عن منزلٍ قالوا: احفظوا أنساءَكم[2]. الأنساء جمع نِسي: وهو الشيءُ الحقيرُ يُغفَل فيُنسى. ومنه قولُ الكميت[3] ﷺ:

أتجعلنا جِسْراً لكلبِ قُضَاعةٌ ولستُ بنِسْي في مَعَدٍّ ولا دَخل

وقال الفراء[4]: النِّسيُ: ما تُلقيه المرأةُ من خِرَقِ اعتلالِها، فقولُ مريم: «نسياً منسيًّا»، أي: حيضة مُلقاة، وقُرِئ «نَسْياً» بفتح النون[5]، وهما لغتان مثل: الحِجْر والحَجْر، والوِتْر والوَتْر.

وقرأ محمدُ بن كعب القرظي بالهمزِ: «نِسْئاً» بكسرِ النون، وقرأ نوفُ البِكَاليُّ: «نَسْئاً» بفتح النون من: نسأ اللهُ تعالى في أجلِه، أي: أخَّره، وحكاها أبو الفتح والدَّاني عن محمد بنِ كعب. وقرأ بكر بنُ حبيب «نَسًّا» بتشديدِ السين وفتحِ النون دونَ همز[6].

وقد حكى الطبريُّ[7] في قصصها أنَّها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضاً أختُها بيحيى، فجاءتها أختُها زائرةً فقالت: يا مريمُ، أشعرتِ أنتِ أني حَملت؟ فقالت لها: و إني أجِد ما في بطني يسجدُ لِما في بطنِك، فذلك أنَّه روى أنَّها أحسَّت بجنينها يخرُّ برأسِه إلى ناحيةِ بطنِ مريم، قال السدي: فذلك قولُه: «مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٦ .

(٣) في ديوانه ص٢٦٢ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٥) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي بكسر النون. وقرأ حمزة وحفص بالفتح، واختلف عن عاصم. السبعة ص٤٠٨ ، والتيسير ص١٤٨ .

(٦) المحتسب ٢/ ٤٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠ - ١١ وفي المحتسب أنَّ قراءة بكر بن حبيب السهمي: نَسْأً بفتح النون مهموزة.

(٧) في التاريخ ١/ ٥٩٩ .

اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ».

وذكر أيضاً[١] من قصصها أنها خرجت فارَّةً مع رجلٍ من بني إسرائيل يقال له يُوسف النجار، كان يخدمُ معها في المسجدِ، وطَوَّل في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف، وكانت سُميت له: إنها حملتْ من الزنى، فالآن يقتلُها الملك، فهربَ بها، فهمَّ في الطريق بقتلها، فأتاه جبريلُ عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس[٢].

قال ابنُ عطية[٣]: وهذا كلُّه ضعيف، وهذه القصةُ تقتضي أنها حملت، واستمرَّت حاملاً على عرفِ النساء، وتظاهرتِ الرواياتُ بأنَّها ولدته لثمانيةِ أشهر. قاله عكرمة؛ ولذلك قيل: لا يعيشُ ابنُ ثمانية أشهرٍ حفظاً لخاصةِ عيسى. وقيل: ولدته لسبعةٍ[٤]. وقيل: لستةٍ. وما ذكرناه عن ابنِ عباس أصحُّ وأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قُرِئَ بفتح الميمِ وكسرها[٥]. قال ابنُ عباس: المرادُ بـ «من» جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومَها؛ وقاله علقمةُ والضَّحاكُ وقتادة، ففي هذا لها آيةٌ وأمارةٌ أنَّ هذا من الأمورِ الخارقة للعادةِ التي لله فيها مرادٌ عظيم[٦]. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسيرُ النداءِ، «وأنْ» مفسِّرة بمعنى أي، المعنى: فلا تحزني بولادتك .﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني عيسى. والسريُّ من الرجالِ العظيمُ الخصالِ السيِّدُ. قال الحسن: كان واللهِ سريًّا من الرجال. ويقال: سَرِي فلانٌ على فلان، أي: تكرم، وفلانٌ سَرِيٌّ من قومٍ سَرَاة. وقال الجمهورُ: أشارَ لها إلى الجدولِ

(١) أي الطبري في التاريخ ١/ ٥٩٥ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٨٦ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٠ - ١١ .

(٤) في (م): لتسعة، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١١ ، وذكر الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٦٢ أربعة أقوال في مدة حملها وهي: تسعة أشهر، وستة أشهر، ويوماً واحداً، وثمانية أشهر.

(٥) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وشعبة بفتح الميم، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٠٨-٤٠٩، والتيسير ص١٤٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١ ، وفي (د) و(ظ): عكرمة بدل علقمة.

الذي كان قريب جذعِ النخلة(١). قال ابنُ عباس: كان ذلك نهراً قد انقطعَ ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم(٢)، والنهرُ يسمَّى سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، قال الشاعر:

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرَا ... إذا يَعُجُّ في السَّرِيِّ هَرْهَرَا(٣)

وقال لبيد:

فَتَوسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وصَدَّعا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلَّامُهَا(٤)

وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزةً وآيةً وتسكيناً لقلبها، والأولُ أظهر(٥). وقرأ ابنُ عباس: «فناداها ملك مِن تحتها» قالوا: وكان جبريلُ عليه السلام في بقعةٍ من الأرض أخفضَ من البقعةِ التي كانت هي عليها.

قولُه تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قولُه تعالى: «وَهُزِّي» أمرَها بهزِّ الجذعِ اليابس لترى آيةً أخرى في إحياء مواتِ الجذع، والباء في قوله: «بجذع» زائدةٌ مؤكِّدةٌ(٦) كما يقال: خذ بالزمامِ، وأعطِ بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: فليمدد سبباً(٧).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١، والنكت والعيون ٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦، وزاد المسير ٥/ ٢٢٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٠٦ - ٥٠٧ بنحوه.

(٣) البيت في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٥، والكامل للمبرد ٣/ ١١٤٥، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٦١ بدون نسبة، وفي (م): «يعبُّ» بدل «يعج»، والمثبت من النسخ الخطية والكامل ومعاني القرآن، وفي الكامل فقط الدالج بدل الدالي، وخطَّأ المبردُ رواية الدالي، وقال: السَّلْم: الدلو الذي له عروة واحدة، وهو دلو السَّقائين، والدالج: الذي يمشي بالدلو بين البئر والحوض.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣٠٧، وقال شارحه: عرض: ناحية، السري: نهر صغير: مسجورة: مملوءة يعني عيناً، القلَّام: نبت، وقيل: هو القصب.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨١، والنكت والعيون ٣/ ٣٦٤، وزاد المسير ٥/ ٢٢١.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١ - ١٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٥، والوسيط ٣/ ١٨١، والكشاف ٢/ ٥٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٢٢.

وقيل: المعنى: وهزي إليك رطباً على جذعِ النخلة. و«تَسَّاقَطْ» أي: تتساقط فأدغمَ التاءَ في السين. وقرأ حمزةُ: «تَسَاقَطْ» مخففاً، فحذفَ التي أدغمها غيرُه. وقرأ عاصم في روايةِ حفص: «تُسَاقِطْ» بضمِّ التاءِ مخففاً وكسر القاف[١]. وقرئ: «تَتَسَاقَطْ» بإظهارِ التاءين و: «يَسَّاقَطْ» بالياء وإدغامِ التاء: و«تُسْقِط» و«يُسْقِط» و«تَسقط» و«يَسقط» بالتاءِ للنخلة وبالياءِ للجذع، فهذه تسعُ قراءات ذكرها الزمخشري[٢] رحمةُ الله تعالى عليه. «رطباً» نُصِب بالهزِّ[٣]، أي: إذا هَززتِ الجِذعَ هززتِ بهزِّه «رطباً جنياً». وعلى الجملةِ ف «رطباً» يختلفُ نصبُه بحسبِ معاني القراءات، فمرةً يستندُ الفعلُ إلى الجذع، ومرةً إلى الهزِّ، ومرةً إلى النخلةِ. «وجنيًّا» معناه: قد طابت وصلحتْ للاجتناء، وهي من جنيتُ الثمرةَ[٤]. ويُروى عن ابنِ مسعود ـ ولا يصحُّ ـ أنَّه قرأ: «تُساقط عليك رطباً جنيًّا بَرْنيًّا»[٥]. وقال مجاهد: «رطباً جنِيًّا» قال: كانت عجوة[٦]. وقال عباس بنُ الفضل: سألت أبا عمرو بنَ العلاء عن قوله: «رطباً جنياً» فقال: لم يَذْوِ[٧]. قال: وتفسيره: لم يجف ولم ييبسْ ولم يبعد عن يدي مُجتنيه، وهذا هو الصحيحُ. قال الفراء[٨]: الجَنيُّ والمَجنيُّ واحدٌ. يذهبُ إلى أنهما بمنزلةِ القتيل والمقتولِ والجريحِ والمجروح. وقال غيرُ الفراء: الجَنيُّ: المقطوعُ من نخلةٍ واحدة[٩]، والمأخوذُ من مكانِ نشأته، وأنشدوا:

---

(١) السبعة ص٤٠٩، والتيسير ص١٤٩.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣. وقال أيضاً ٣/ ١٢، والزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٢٦: إنها منصوبة على التمييز، وقال الزمخشري ٢/ ٥٠٧، والرازي ٢١/ ٢٠٦: رطباً تمييز أو مفعول.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف، والبَرْنيُّ: ضَربٌ من التمر. الصحاح (برن).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٦٧، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥١٢.

(٧) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٣٦٧.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ١٦٦.

(٩) ذكر نحو هذا الطبريُّ ١٥/ ٥١٤ - ٥١٥.

وطـيـبُ ثـمـارٍ فـي ريـاضٍ أريـضـةٍ وأغصانُ أشجارٍ جناها على قُربِ[(١)]

يريدُ بالجَنَى ما يُجنَى منها، أي: يُقطع ويُؤخذ. قال ابنُ عباس: كان جِذعاً نخراً[(٢)]، فلمَّا هَزَّت نظرتْ إلى أعلى الجِذع فإذا السَّعَفُ[(٣)] قد طَلع، ثم نظرتْ إلى الطلعِ قد خرجَ من بينِ السَّعَف، ثم اخضرَّ فصار بلحاً، ثم احمرَّ فصار زَهْواً، ثم رُطباً، كلُّ ذلك في طرفةِ عين، فجعلَ الرطبُ يقعُ بين يديها لا ينشدخُ[(٤)] منه شيءٌ.

الثانية: استدلَّ بعضُ الناسِ من هذه الآية على أنَّ الرزقَ وإن كان محتوماً، فإنَّ الله تعالى قد وَكَل ابنَ آدم إلى سعيٍ ما فيه؛ لأنه أمرَ مريم بهزِّ النخلةِ لترى آيةً، وكانت الآيةُ تكونُ بألَّا تهُزَّ[(٥)].

الثالثة: الأمرُ بتكليفِ الكسب في الرزقِ سنةُ الله تعالى في عبادِه، وإنَّ ذلك لا يقدحُ في التوكل، خلافاً لما تقولُه جُهالُ المُتزهدة، وقد تقدَّم هذا المعنى والخلافُ فيه. وقد كانت قبلَ ذلك يأتيها رزقُها من غير تكسبٍ كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٧]، فلما وَلدتْ أُمِرت بهزِّ الجِذع. قال علماؤنا: لمَّا كان قلبُها فارغاً، فرَّغ اللهُ جارحتَها عن النصبِ، فلمَّا وَلدت عيسى وتعلَّق قلبُها بحبه، واشتغلَ سِرُّها بحديثِه وأمْرِه، وَكَلها إلى كسبِها، وردَّها إلى العادةِ بالتعلقِ بالأسباب في عبادِه[(٦)].

وحكى الطبريُّ عن ابنِ زيدٍ، أنَّ عيسى عليه السلام قالَ لها: لا تحزني، فقالت له: وكيفَ لا أحزنُ وأنتَ معي؟! لا ذات زوجٍ ولا مملوكة! أيُّ شيءٍ عُذري عندَ

---

(١) البيت لبعض الأعراب كما في الأضداد لابن الأنباري ص٢١٩، وهو أيضاً في ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي ص١٢٨، وزهر الآداب للقيرواني ٢/ ٩٩٩.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٥/ ٥١١ بلفظ: كان جذعاً يابساً، فقال لها: هُزِّيه تساقط عليك رطباً جنيًّا.

(٣) السَّعَف: جمع سَعَفَة وهي غصن النخل. الصحاح (سعف).

(٤) الشَّدْخ: كسرُ الشيء الأجوف. الصحاح (شدخ).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٠.

الناس؟! «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا» فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلامَ[(١)].

الرابعة: قال الربيعُ بنُ خُثَيم: ما للنفساءِ عندي خيرٌ من الرُّطبِ[(٢)] لهذهِ الآية، ولو علم اللهُ شيئاً هو أفضلَ من الرطبِ للنفساءِ لأطعمَه مريمَ، ولذلك قالوا: التمرُ عادةٌ للنفساءِ من ذلك الوقت، وكذلك التَّحنيكُ. وقيل: إذا عَسُر وِلادُها لم يكن لها خيرٌ من الرطبِ، ولا للمريضِ خيرٌ من العسلِ؛ ذكره الزمخشري[(٣)].

قال ابنُ وهب: قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ الجَنيُّ من التمرِ ما طابَ من غيرِ نَقْشٍ ولا إفسادٍ. والنَّقْشُ أن يُنقَش من أسفلِ البسرةِ حتى تُرطِبَ، فهذا مكروه. يعني مالكٌ أنَّ هذا تعجيلٌ للشيء قبلَ وقته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يفعله، وإن فَعله فاعلٌ ما كانَ ذلك مُجوِّزاً لبيعه، ولا حُكْماً بطيبِه، وقد مضى هذا القولُ في «الأنعامِ»[(٤)]. والحمد لله.

عن طلحة بن سليمان «جِنِيًّا» بكسر الجيم للإتباع، أي: جمعنا[(٥)] لكِ في السريِّ والرطبِ فائدتين: إحداهما: الأكلُ والشربُ، الثانيةُ: سَلوةُ الصدرِ؛ لكونهما معجزتين، وهو [في معنى] قولِه تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: فكُلي من الجَنيِّ، واشربي من السَّريِّ، وقَرِّي عيناً برؤيةِ الولدِ النبيِّ. وقُرِئ بفتحِ القاف وهي قراءةُ الجمهورِ. وحكى الطبريُّ قراءةَ: «وَقِرِّي» بكسرِ القافِ وهي لغةُ نجد[(٦)]. يقال: قَرَّ عيناً يَقُرُّ ويَقِر بضمِّ القافِ وكسرِها، وأقرَّ اللهُ عينَه فقرَّت. وهو مأخوذٌ من القُرِّ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٠٥ و ٥١٨، ونقل عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٢، والبغوي ٣/ ١٩٣.

(٣) في الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٤) ٨/ ٤٧٦، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤١.

(٥) في (د) و(م): جعلنا، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٥٠٧، والكلام منه، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٦.

والقِرَّة وهما البَرْد. ودمعةُ السرورِ باردةٌ، ودمعةُ الحُزنِ حارةٌ. وضَعَّف فرقةٌ هذا وقالت: الدمعُ كلُّه حارٌّ، فمعنى أقرَّ الله عينَه، أي: سَكَّن الله عينَه بالنظرِ إلى مَن يُحبُّه حتى تقرَّ وتسكن، وفلانٌ قُرةُ عيني، أي: نفسي تسكنُ بقربِه. وقال الشَّيباني: «وقرّي عيناً» معناه: نامي، حضَّها على الأكلِ والشربِ والنوم. قال أبو عمرو: أقرَّ اللهُ عينَه، أي: أنامَ عينَه، وأذهبَ سهره. و«عيناً» نُصِب على التمييزِ؛ كقولك: طب نفساً. والفعلُ في الحقيقةِ إنَّما هو للعين، فنُقل ذلك إلى ذي العين، ويُنصبُ الذي كان فاعلاً في الحقيقةِ على التفسير. ومثلُه: طبتُ نفساً، وتَفقَّأْتُ شحماً، وتَصببتُ عرقاً، ومثلُه كثيرٌ[١].

قولُه تعالى: **﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قولُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصلُ في «تَرِينَّ»: «تَرْأَيِين»، فحُذِفت الهمزةُ كما حُذِفت من «ترى»، ونُقِلت فتحتُها إلى الراء فصارَ «تريين»، ثم قُلِبت الياءُ الأولى ألفاً؛ لتحركِها وانفتاحِ ما قبلها، فاجتمعَ ساكنان الألفُ المنقلبةُ عن الياءِ وياءُ التأنيث، فحُذِفت الألفُ؛ لالتقاءِ الساكنين، فصار «تَرَيْنَ» ثم حُذِفت النونُ علامةً للجزم؛ لأنَّ «إن» حرفُ شرطٍ و«ما» صلةٌ فبقي تَرَيْ، ثم دخله نونُ التوكيدِ وهي مثقلةٌ، فكُسِر ياءُ التأنيثِ؛ لالتقاءِ الساكنين؛ لأنَّ النونَ المثقلة بمنزلةِ نونين الأولى ساكنةٌ، فصار تَرِينَ[٢]. وعلى هذا النحوِ قولُ ابنِ دُريد:

إِمَّـا تَـرَيْ رأسِـيَ حَـاكَـى لـونَـهُ[٣]

وقولُ الأفوهِ: إِمَّا تَرَيْ رأسيَ أَزْرَى به[٤]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٧٦ ، وما بعدها.

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢ - ١٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٤٨٩ ، وما بعدها.

(٣) شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص٣ ، وعجزه: طُرةُ صبحٍ تحت أذيالِ الدُّجى.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٢ ، والمعري في رسالة الملائكة ص١٣ ، وعجزه: مأسُ زمان ذي انتكاس مؤوس.
وقال المعري: مَأَسَ بين القوم إذا أفسدَ بينهم.

وإنَّما دخلتِ النونُ هنا بتوطِئة «ما» كما يوطِّئ لدخولِها أيضاً لامُ القسم، وقرأ طلحةُ وأبو جعفر وشيبةُ: «تَرَيْنَ» بسكونِ الياءِ وفتحِ النون خفيفة، قال أبو الفتح[١]: وهي شاذةٌ.

الثانية: قولُه تعالى: «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ» هذا جوابُ الشرطِ وفيه إضمارٌ، أي: فسألَكِ عن ولدكِ «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً» أي: صَمْتاً[٢]؛ قاله ابنُ عباسٍ وأنسُ بن مالك[٣]. وفي قراءةِ أُبيِّ بنِ كعب: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمنِ صَوْماً صَمْتاً». وروي عن أنس[٤]. وعنه[٥] أيضاً «وصمتاً» بواو، واختلافُ اللفظين يدلُّ على أنَّ الحرفَ ذُكِر تفسيراً لا قرآناً، فإذا أتت معه واوٌ فممكنٌ أن يكونَ غيرَ الصوم، والذي تتابعتْ به الأخبارُ عن أهلِ الحديث ورواةِ اللغةِ[٦] أنَّ الصومَ هو الصَّمتُ؛ لأنَّ الصومَ إمساكٌ، والصمتَ إمساكٌ عن الكلامِ. وقيل: هو الصومُ المعروفُ، وكان يلزمُهم الصمتُ يومَ الصومِ إلَّا بالإشارةِ[٧]، وعلى هذا تُخرجُ قراءةُ أنسٍ: «وصمتاً» بواو، وأن الصمتَ كان عندَهم في الصومِ ملتزماً بالنذرِ، كما أنَّ مَن نذرَ منا المشيَ إلى البيتِ اقتضى ذلك الإحرامَ بالحج أو العمرة. ومعنى هذه الآيةِ أنَّ الله تعالى أمرها على لسانِ جبريلَ عليه السلام ـ أو ابنِها على الخلافِ المتقدم ـ بأن تمسكَ عن مخاطبةِ البشرِ، وتحيلَ على ابنِها في ذلك؛ ليرتفعَ عنها خجلُها، وتتبينَ الآيةُ فيقومَ عذرُها. وظاهرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآية، وهو قولُ الجمهور.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٤٢، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢ - ١٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٣، والوسيط ٣/ ١٨١.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥١٦ - ٥١٧.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٦٧، والكشاف ٢/ ٥٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٢٥.

(٥) أي: عن أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥١٧، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٤.

(٦) كما في الصحاح (صوم)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٧) الكلام بنحوه في الطبري ١٥/ ٥٢٠، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٢.

وقالت فرقة: معنى «قولي» بالإشارةِ لا بالكلامِ[١]. الزمخشريُّ: وفيه أنَّ السكوتَ عن السفيهِ واجب، ومِن أذلِّ الناسِ سفيهٌ لم يجدْ مُسافهاً[٢].

الثالثة: مَنِ التزمَ بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين، فيحتملُ أن يقالَ: إنَّه قُربةٌ فيَلزَمُ بالنذرِ، ويحتمل أن يقالَ: ذلك لا يجوزُ في شرعِنا لما فيه من التضييقِ وتعذيبِ النفس، كنذرِ القيام في الشمس ونحوه. وعلى هذا كان نذرُ الصمتِ في تلكَ الشريعةِ لا في شريعتنا، وقد تقدَّم[٣]. وقد أَمرَ ابنُ مسعود مَن فعل ذلك بالنطقِ بالكلامِ[٤]، وهذا هو الصحيحُ؛ لحديثِ أبي إسرائيل، خرَّجه البخاريُّ[٥] عن ابنِ عباس. وقال ابنُ زيد والسُّديُّ: كانت سنةُ الصيامِ عندهم الإمساكَ عن الأكلِ والكلامِ[٦].

قلتُ: ومِن سنتِنا نحنُ في الصيامِ الإمساكُ عن الكلامِ القبيح، قال عليه الصلاةُ والسلام: «إذا كان أحدُكم صائماً، فلا يَرفُثْ ولا يجهلْ، فإنِ امرؤٌ قاتله أو شاتَمه؛ فليقل: إني صائم»[٧]. وقال عليه الصلاةُ والسلام: «مَن لم يدعْ قولَ الزور والعملَ به؛ فليسَ لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابه»[٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ روي أنَّ مريمَ لمَّا اطمأنَّت بما رأتْ من

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .
(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٧ .
(٣) ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .
(٥) البخاري (٦٧٠٤)، وسلف ٣/ ٢٣٧ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .
(٧) أخرجه أحمد (٧٣٤٠)، ومسلم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة.
(٨) أخرجه البخاري (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة، وسلف ٣/ ١٢٣ .

الآيات، وعلمت أنَّ الله تعالى سَيبينُ عذرَها، أتتْ به تحملُه من المكانِ القصي الذي كانت انتبذتْ فيه[١]. قال ابنُ عباس: خرجتْ من عندِهم حين أشرقتِ الشمس، فجاءتهم عندَ الظهرِ ومعها صبيٌّ تحملُه، فكان الحملُ والولادةُ في ثلاثِ ساعاتٍ من النهار[٢]. وقال الكلبي: ولدت حيثُ لم يشعرْ بها قومُها، ومكثت أربعينَ يوماً للنفاس، ثم أتت قومَها تحمله، فلما رأوها ومعها الصبيُّ حزنوا وكانوا أهلَ بيتٍ صالحين، فقالوا منكِرين: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: جئتِ بأمرٍ عظيم كالآتي بالشيء يفتريه[٣]. قال مجاهد: «فريًّا» عظيماً[٤]. وقال سعيدُ بنُ مسعدة: أي: مختلقاً مفتعلاً، يقال: فَرَيْتَ وأَفريتَ بمعنى واحد[٥]. والولدُ من الزنى كالشيءِ المفترَى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي: بولدٍ بقصدِ إلحاقه بالزوجِ وليس منه. يقال: فلانٌ يفرِي الفَرِيَّ، أي: يعملُ العمل البالغ، وقال أبو عبيدة[٦]: الفَريُّ العجيبُ النادر، وقاله الأخفشُ[٧]. قال: فريًّا عجيباً. والفَرْي: القطعُ، كأنَّه مما يخرقُ العادةَ، أو يقطعُ القول بكونِه عجيباً نادراً[٨]. وقال قطرب: الفري: الجديدُ من الأسقية، أي: جئت بأمرٍ جديد بديعٍ لم تُسبقي إليه. وقرأ أبو حيوة: «شَيْئاً فَرْياً» بسكون الراء[٩]. وقال السُّديُّ ووهبُ بنُ منبه: لمَّا أتتْ به قومَها تحملُه، تسامعَ بذلك بنو إسرائيل، فاجتمعَ رجالُهم ونساؤهم، فمدَّت امرأةٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٧ ، والطبري ١٥/ ٤٩٧ ، بلفظ: ليس إلا أن حملته ثم وضعت.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٢ .

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٨٦ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٥) الذي في الصحاح، ومقاييس اللغة (فرى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٤٢ : أنَّ أَفْرَيت الأديم: قطعته على جهة الإفساد، وفريته: قطعته على جهة الإصلاح.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٧ .

(٧) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٨ .

(٨) الكلام بنحوه في مقاييس اللغة (فري).

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ ، وذكر قول قطرب السابق دون نسبة.

يدَها إليها لتضربَها، فأجفَّ الله شطرَها فَحُمِلت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زَنتْ، فأخرسَه الله تعالى، فتحامَى الناسُ من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمةً تُؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القولَ ويلينون، فقالوا: «يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا»، أي: عظيماً؛ قال الراجز:

قد أطعمتني دَقَلاً حَوْلِيَّا ... مُسوّساً مُدَوَّداً حَجْرِيَّا

قد كنتِ تَفْرِين بِهِ الفَرِيَّا[1]

أي: [تُعظِّمينه][2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذه الأُخوةِ، ومَن هارونُ؟ فقيل: هو هارون أخو موسى؛ والمرادُ: مَن كنَّا نظنُّها مثلَ هارونَ في العبادةِ تأتي بمثل هذا. وقيل: على هذا كانت مريمُ من ولد هارون أخي موسى، فنُسبت إليه بالأُخوة؛ لأنها مِن ولده، كما يقالُ للتميمي: يا أخا تميم، وللعربي: يا أخا العرب[3]. وقيل: كان لها أخٌ من أبيها اسمُه هارون؛ لأنَّ هذا الاسمَ كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسمِ هارون أخي موسى، وكان أمثلَ رجلٍ في بني إسرائيل؛ قاله الكلبي[4]. وقيل: هارونُ هذا رجلٌ صالح في ذلك الزمان تَبع جنازتَه يومَ مات أربعون

---

(١) الرجز لزرارة بن صعب كما في اللسان (دود) (سوس) (فرا)، وهي دون نسبة في الاقتضاب ص٣٨٥ - ٣٨٦ ، وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٣٩٠ الأول والثاني، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٦٧ ، والطبري ١٥/ ٥٢١ ، والأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٤١ الأول والثالث فقط.

وقال ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب ص٣٨٦ : والدقل نوع من التمر رديء، وحجري منسوب إلى حجر وهي قصبة اليمامة، وقوله: قد كنت تفرين به الفريا، أي: قد كنت تكثرين فيه القول وتعظمين أمره.

(٢) في (ظ) و(د): تطعمينه، ولم يرد هذا الموضع في (ف) و(ز)، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٤١ ، والاقتضاب ص٣٨٦ .

(٣) نسبه الطبري ١٥/ ٥٢٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٢٧ إلى السُّدي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٩٤ .

ألفاً كلُّهم اسمُه هارون[١]. وقال قتادة[٢]: كان في ذلك الزمانِ في بني إسرائيل عابدٌ منقطعٌ إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمَّى هارون فنسبوها إلى أُخوتِه من حيثُ كانت على طريقتِه قبلُ؛ إذ كانت موقوفةً على خدمة البِيَع، أي: يا هذه المرأةُ الصالحةُ، ما كُنتِ أهلاً لذلك. وقال كعبُ الأحبار بحضرةِ عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها: إنَّ مريمَ ليست بأختِ هارونَ أخي موسى. فقالت له عائشةُ: كَذبتَ. فقال لها: يا أمَّ المؤمنين، إن كان رسولُ الله ﷺ قالَه؛ فهو أصدقُ وأخبر، وإلَّا فإني أجدُ بينَهما من المدَّةِ ستَّ مئةِ سنةٍ. قال: فَسكتت[٣]. وفي «صحيح» مسلمٍ عن المغيرةِ بنِ شعبة قال: لمَّا قدِمتُ نجرانَ سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: «يا أخت هارون» وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدِمتُ على رسولِ الله ﷺ سألتُه عن ذلك، فقال: «إنَّهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلَهم»[٤]. وقد جاء في بعضِ طرقِه في غيرِ الصحيح، أنَّ النصارى قالوا له: إنَّ صاحبَك يزعمُ أنَّ مريم هي أختُ هارون وبينَهما في المدَّةِ ستُّ مئة سنة؟! قال المغيرةُ: فلم أدرِ ما أقول[٥]، وذكر الحديث. والمعنى: أنَّه اسمٌ وافقَ اسماً[٦]. ويُستفاد من هذا جوازُ التسميةِ بأسماء الأنبياء، والله أعلم.

قلت: فقد دلَّ الحديثُ الصحيح أنه كان بينَ موسى وعيسى وهارون زمانٌ مديد. الزمخشري: كان بينَهما وبينَه ألفُ سنةٍ أو أكثر[٧]. فلا يُتخيَّل أنَّ مريم كانت أختَ موسى وهارون، وإن صحَّ فكما قال السُّدي: لأنها كانت من نسلِه، وهذا كما تقول للرجل من قبيلة: يا أخا فلان. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أخا صُدَاء قد

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٨.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٧ - ٨، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٥٢٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٣ - ٥٢٤، وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية، وقال: وفي هذا التاريخ نظر.

(٤) صحيح مسلم (٢١٣٥)، وهو عند أحمد (١٨٢٠١).

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٤، دون ذكر المدة بينهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٤، عن ابن زيد، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٣.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٠٨.

أذَّن، فمَنْ أذَّنَ فهو يُقيم»[١] وهذا هو القولُ الأوَّل. ابنُ عطية[٢]: وقالت فرقةٌ: بل كان في ذلك الزمان رجلٌ فاجر اسمُه هارون فنسبوها إليه على جهةِ التعيير والتوبيخِ؛ ذكره الطَّبري[٣] ولم يُسمِّ قائلَه.

قلت: ذكره الغَزنويُّ عن سعيد بنِ جبير، أنَّه كان فاسقاً مَثَلاً في الفجورِ، فنُسبت إليه[٤]. والمعنى: ما كان أبوكِ ولا أمكِ أهلاً لهذه الفعلةِ، فكيف جئتِ أنتِ بها؟![٥] وهذا من التعريضِ الذي يقومُ مقامَ التصريح، وذلك يُوجبُ عندنا الحدَّ، وسيأتي في سورةِ النور[٦] القولُ فيه إن شاءَ الله تعالى. وهذا القولُ الأخيرُ يردُّه الحديثُ الصحيح، وهو نصٌّ صريح فلا كلامَ لأحدٍ معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمرُ بنُ لجأ التَّيْمي: «مَا كَانَ أَبَاكِ امْرُؤُ سَوْءٍ»[٧].

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ التزمت مريمُ عليها السلام ما أُمِرت به من تركِ الكلام، ولم يردْ في هذه الآيةِ أنَّها

---

(١) سلف ٨/ ٦٩ ، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٤ .

(٣) في التفسير ١٥/ ٥٢٥ .

(٤) ونسبه ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٥/ ٢٢٧ إلى سعيد بن جبير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤ .

(٦) في تفسير الآية (٤) و(٥) في المسألة الخامسة.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٠٨ ، والقراءات الشاذة ص٨٥ .

نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وإنَّما وردَ بأنها أشارت، فيَقوَى بهذا قولُ مَن قال: إنَّ أمرَها بـ «قولي» إنَّما أُريد به الإشارةُ.

ويُروى أنَّهم لمَّا أشارت إلى الطفلِ قالوا: استخفافُها بنا أشدُّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهةِ التقريرِ: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ و«كان» هنا ليسَ يرادُ بها الماضي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ قد كان في المهدِ صبيًّا، وإنَّما هي في معنى هو[١].

وقال أبو عبيدة: «كان» هنا لغو[٢]، كما قال:

وجِيـرانٍ لـنـا كـانـوا كـرامِ[٣]

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث[٤] كقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠] وقد تقدَّم[٥]. وقال ابنُ الأنباري: لا يجوزُ أن يقالَ: زائدةٌ، وقد نَصبتْ «صبيًّا»، ولا أن يقال: «كان» بمعنى حَدث؛ لأنه لو كانت بمعنى الحدوثِ والوقوعِ؛ لاستغنى فيه عن الخبرِ، تقول: كان الحَرُّ وتكتفي به[٦]. والصحيحُ أنَّ «من» في معنى الجزاء، و«كان» بمعنى يكن، التقديرُ: مَن يكن في المهدِ صبيًّا، فكيفَ نُكلِّمه؟! كما

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤، وبعدها في (م): الآن.

(٢) نقله عنه الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٨، وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٧ - ٨ عدة مواضع لـ «كان».

(٣) عجز بيت للفرزدق في ديوانه ص٢٩٠، وصدره: فكيف إذا رأيت ديار قومٍ، وسلف ٥/ ٢٦٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٨.

(٥) ٤/ ٤١٨.

(٦) كذا هنا، وقال أبو البركات ابن الأنباري في البيان ٢/ ١٢٥: كان فيها ثلاثة أوجه: الأول: أن تكون بمعنى حدث ووقع، فيكون «صبيًّا» منصوباً على الحال من الضمير في «كان». والثاني: أن يكون بمعنى صار، فيكون «صبيًّا» منصوباً؛ لأنه خبر صار. والثالث: أن تكون «كان» زائدة، و«صبيًّا» منصوبٌ على الحال، والعامل فيها على هذا الاستقرار. ولا يجوز أن تكون «كان» ههنا الناقصة؛ لأنه لا اختصاص لعيسى في ذلك؛ لأنه ما من أحد إلا كان صبيًّا في المهد يوماً من الأيام، وإنما تعجبوا من كلام من وُجد وصار في حال الصبي في المهد.

وقال أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٦٢: وقول أبي عبيدة: «كان» زائدة في قوله تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليس بصحيح؛ لأنها لا تُلغى مبتدأةً ناصبة للخبر.

تقول: كيف أُعطي مَن كان لا يقبلُ عطيةً، أي: مَن يكن لا يقبل. والماضي قد يُذكر بمعنى المستقبلِ في الجزاء[١]؛ كقولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفرقان: ١٠] أي: إن يشأْ يجعل. وتقول: مَن كان إليَّ منه إحسانٌ كان إليهِ مني مثلُه، أي: مَن يكن منه إليَّ إحسانٌ يكن إليه مني مثلُه.

و«المهد» قيل: كان سريراً كالمهد. وقيل: «المهد» هاهنا حِجرُ الأم[٢]. وقيل: المعنى: كيف نكلمُ مَن كان سبيلُه أن ينوَّم في المهدِ لصغرِه، فلمَّا سمع عيسى عليه السلام كلامَهم، قالَ لهم من مرقدِه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وهي:

الثانية: فقيل: كان عيسى عليه السلام يرضعُ، فلما سمع كلامَهم تركَ الرضاعةَ وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ»[٣] فكان أوَّلُ ما نطق به الاعترافَ بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردًّا على مَن غلا مِن بعده في شأنه[٤]. والكتابُ: الإنجيلُ[٥]، قيل: آتاه في تلك الحالةِ الكتاب، وفهمَه وعلمَه، وآتاه النبوَّة كما علَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها، وكان يصومُ ويصلي. وهذا في غايةِ الضعفِ على ما نبينُه في المسألةِ بعد هذا. وقيل: أي: حكم لي بإيتاءِ الكتابِ والنبوةِ في الأزلِ، وإن لم يكنِ الكتابُ منزلاً في الحال[٦]، وهذا أصحُّ. ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ أي: ذا بركاتٍ ومنافعَ في الدين والدعاء إليه ومعلِّماً له. التُّسْتَريُّ: وجعلني آمرُ بالمعروف، وأَنهى عن المنكر، وأُرشدُ الضال، وأَنصرُ المظلوم، وأغيثُ الملهوف، ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: لأؤدِّيهما إذا أدركني التكليفُ، وأمكنني

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥، والوسيط ٣/ ١٨٢ - ١٨٣، وزاد المسير ٥/ ٢٢٨.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٦٩ - ٣٧٠، وأخرج القول الثاني الطبري ١٥/ ٥٢٧، عن قتادة.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٠٨، والبغوي ٣/ ١٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤.

(٤) الوسيط ٣/ ١٨٣، والنكت والعيون ٣/ ٣٧٠، وزاد المسير ٥/ ٢٢٨.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٠٨.

(٦) الوسيط ٣/ ١٨٣، والبغوي ٣/ ١٩٤.

أداؤهما[١]، على القولِ الأخيرِ الصحيح، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في موضعِ نصبٍ على الظرف[٢]، أي: دوام حياتي.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ قال ابنُ عباس: لما قال: «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي» ولم يقل: بوالديَّ، عُلِمَ أنه شيءٌ من جهةِ الله تعالى، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متعظماً متكبراً يقتلُ ويضرب على الغضب[٣]. وقيل: الجبارُ الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا قطُّ، ﴿شَقِيًّا﴾ أي: خائباً من الخير. ابن عباس: عاقًّا. وقيل: عاصياً لربه[٤]. وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمرِه فأَشقَى كما شقي إبليسُ لمَّا تركَ أمرَه.

الثالثة: قال مالك بنُ أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدَّها على أهلِ القدر! أخبرَ عيسى عليه السلام بما قُضِي من أمرِه، وبما هو كائنٌ إلى أن يموت. وقد روي في قصصِ هذه الآية عن ابنِ زيدٍ وغيره أنهم لمَّا سمعوا كلامَ عيسى أذعنوا وقالوا: إنَّ هذا الأمر[٥] عظيمٌ. ورُوي أنَّ عيسى عليه السلام إنَّما تكلم في طفولَتِه بهذه الآية، ثم عادَ إلى حالة الأطفالِ، حتى مشى على عادةِ البشر إلى أن بلغَ مبلغ الصبيان، فكان نطقُه إظهارَ براءةِ أمه لا أنَّه كان ممَّن يعقلُ في تلك الحالة، وهو كما يُنطِقُ الله تعالى الجوارحَ يومَ القيامة. ولم يُنقَل أنَّه دامَ نطقُه، ولا أنه كان يصلي وهو ابنُ يومٍ أو شهر، ولو كان يدومُ نطقُه وتسبيحُه، ووعظُه وصلاتُه في صغره من وقت الولادةِ؛ لكان مثلُه ممَّا لا ينكتم، وهذا كلُّه مما يدلُّ على فسادِ القولِ الأول، ويصرحُ بجهالةِ قائله. ويدلُّ أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى. والدليلُ على ذلك إجماعُ الفِرقِ على أنَّها لم تُحَدَّ. وإنَّما صحَّ براءتُها من الزنى بكلامِه في المهد.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٩٥ .

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٢٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٧ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٣٠ .

(٥) في (د) و(م): لأمر، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١٥ ، والكلام منه.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الصلاةَ والزكاةَ وبرَّ الوالدين كان واجباً على الأمم السالفةِ[١]، والقرونِ الخاليةِ الماضية، فهو ممَّا يثبتُ حكمُه، ولم يُنسَخ في شريعة أمرِه. وكان عيسى عليه السلام في غايةِ التواضع؛ يأكلُ الشجر، ويلبسُ الشَّعر، ويجلسُ على التراب، ويأوي حيثُ جَنَّه الليل، لا مسكنَ له، ﷺ[٢].

الرابعة: الإشارةُ بمنزلةِ الكلام، وتُفهِم ما يُفهِم القولُ. كيف لا، وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفَهِم منها القومُ مقصودَها وغَرَضها، فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا في «آل عمران»[٣] مستوفى.

الخامسة: قال الكوفيون: لا يصحُّ قذفُ الأخرس ولا لعانُه[٤]. ورُوي مثلُه عن الشعبي، وبه قال الأوزاعيُّ وأحمدُ وإسحاق[٥]، وإنَّما يصحُّ القذف عندهم بصريحِ الزنى دون معناه، وهذا لا يصحُّ من الأخرسِ ضرورةً، فلم يكن قاذفاً، ولا يتميزُ بالإشارة الزنى[٦] من الوطءِ الحلالِ والشبهةِ. قالوا: واللعانُ عندنا شهاداتٌ، وشهادةُ الأخرسِ لا تقبلُ بالإجماع. قال ابنُ القصار: قولُهم: إنَّ القذفَ لا يصحُّ إلا بالتصريحِ فهو باطلٌ بسائرِ الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارةُ الأخرس. وما ذكروه من الإجماعِ في شهادةِ الأخرسِ فغلطٌ. وقد نصَّ مالك أنَّ شهادتَه مقبولةٌ إذا فُهِمت إشارتُه[٧]، وأنها تقوم مقامَ اللفظِ بالشهادة، وأمَّا مع القدرة باللفظ؛ فلا تقعُ منه إلا باللفظ. قال ابنُ المنذر: والمخالفونَ يُلزِمون الأخرسَ الطلاقَ والبيوع وسائرَ الأحكام، فينبغي أن يكونَ القذفُ مثلَ ذلك. قال المهلبُ: وقد تكونُ الإشارة في كثيرٍ من أبوابِ الفقه أقوى من الكلام، مثلُ قولِه عليه الصلاة والسلام: «بُعِثت أنا والساعة

(١) في (ظ): السابقة.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥ .
(٣) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.
(٤) المبسوط ٧/ ٤٢ ، وبدائع الصنائع ٥/ ٤٦ .
(٥) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢/ ٥٠٨ - ٥٠٩ ، والمغني ١١/ ١٢٧ - ١٢٨ ، والإشراف ٤/ ٢٦٦ .
(٦) في (م): بالزنى.
(٧) المدونة ٣/ ١١٧ .

كهاتين»[١] نعرفُ قربَ ما بينهما بمقدارِ زيادة الوسطى على السَّبابة. وفي إجماع العقولِ على أنَّ العِيان أقوى من الخبرِ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ قد تكون في بعضِ المواضع أقوى من الكلام.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي: السلامة عليَّ من الله تعالى[٢]. قال الزَّجاج[٣]: ذُكِرَ السلامُ قبل هذا بغيرِ ألفٍ ولام، فحَسُنَ في الثانية ذِكرُ الألف واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني: في الدنيا. وقيل: مِن هَمز الشيطان كما تقدَّم في «آل عمران»[٤]. ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني: في القبر، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: في الآخرة؛ لأنَّ له أحوالاً ثلاثةً: في الدنيا حيًّا، وفي القبرِ ميتاً، وفي الآخرةِ مبعوثاً، فسَلَّم في أحوالِه كلها، وهو معنى قولِ الكلبي. ثم انقطعَ كلامُه في المهدِ حتى بلغَ مبلغَ الغِلمان[٥]. وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنَّ عيسى عليه السلام رأته امرأةٌ يُحيي الموتى، ويُبرئُ الأكمَه والأبرص في سائرِ آياته، فقالت: طُوبَى للبطنِ الذي حَملك، والثدي الذي أَرضعك، فقال لها عيسى عليه السلام: طُوبَى لمن تلا كتابَ الله تعالى، واتبعَ ما فيه وعَمِل به[٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرناه عيسى ابنُ مريم،

---

(١) سلف ١٢/ ٢٦٨.

(٢) الوسيط ٣/ ١٨٣.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩.

(٤) ٥/ ١٠٣ - ١٠٤، والكلام في النكت والعيون ٣/ ٣٧١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٧١ - ٣٧٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٣٣.

فكذلك اعتقدوه، لا كما تقولُ اليهود: إنَّه لغير رَشْدَة، وأنه ابنُ يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنَّه الإلهُ أو ابنُ الإله[(١)] ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ قال الكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعتٌ لعيسى[(٢)]، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم [قولُ الحق][(٣)]. وسُمِّي قولَ الحق كما سُمي كلمةَ الله[(٤)]، والحقُّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقال أبو حاتم: المعنى: هو قولُ الحق. وقيل: التقديرُ: هذا الكلامُ قولُ الحق[(٥)]. قال ابنُ عباس: يريدُ هذا كلامُ عيسى ﷺ قولُ الحقِّ ليس بباطلٍ، وأُضيف القولُ إلى الحقِّ كما قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[(٦)] [الأحقاف:١٦] أي: الوعد الصدق. وقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف:١٠٩]، أي: وللدَّارُ[(٧)] الآخرةُ. وقرأ عاصمٌ وعبدُ الله بنُ عامر: «قَوْلَ الْحَقِّ» بالنصب[(٨)] على الحال، أي: أقولُ قولاً حقًّا، والعاملُ معنى الإشارةِ في «ذلك». الزجاج: هو مصدرٌ، أي: أقولُ قولَ الحق؛ لأنَّ ما قبلَه يدلُّ عليه[(٩)]. وقيل: مدح[(١٠)]. وقيل: إغراء.

وقرأ عبدُ الله: «قَالُ الحقِّ»[(١١)]. وقرأ الحسنُ: «قُولُ الحقِّ» بضمِّ القاف، وكذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٧٢ ، والوسيط ٣/ ١٨٣ ، والطبري ١٥/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، وقوله: لغير رَشْدة، أي: لِزَنية، كما في القاموس (رشد).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الطبري ١٥/ ٥٣٥ .

(٤) الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٥ ، والبغوي ٣/ ١٩٥ ، دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في (د) و(م): ولا الدار، والمثبت من (ظ)، وقد سقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٨ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ ، والتيسير ص١٤٩ .

(٩) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩ ، ونقل عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ - ١٧ .

(١٠) الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

(١١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥ ، والقراءات الشاذة ص٨٤ .

في «الأنعام» ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]. والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْبِ[١]، ﴿الَّذِي﴾ من نعتِ عيسى، ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يَشكُّون[٢]، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم الذي فيه يمترون القولَ الحقَّ. وقيل: «يمترون» يختلفون[٣].

ذكر عبدُ الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمعَ بنو إسرائيلَ، فأخرجوا منهم أربعةَ نفر، أَخرج كلُّ قوم عالمهم، فامترَوا في عيسى حينَ رُفع، فقال أحدُهم: هو اللهُ هبَط إلى الأرضِ فأحيا مَن أحيا، وأمات مَن أمات، ثم صَعِد إلى السماءِ. وهم اليعقوبيةُ، فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنانِ منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله. وهم النُّسطُورية، فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحدُ الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالثُ ثلاثة، اللهُ إلهٌ، وهو إله، وأمُّه إلهٌ، وهم الإسرائيليةُ ملوكُ النَّصارى. قال الرابع: كذبت، بل هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه وكلمته. وهم المسلمون، فكان لكلِّ رجلٍ منهم أتباعٌ، على ما قال، فاقتَتلوا فظُهِر على المسلمين، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقال قتادةُ: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]، اختلفوا فيه فَصاروا أحزاباً[٤].

فهذا معنى قولِه: «الذي فيه تمترون» بالتاءِ المعجمةِ من فوق، وهي قراءةُ أبي عبدِ الرحمن السُّلَميِّ وغيرِه[٥]. قال ابنُ عباس: ففرَّ[٦] بمريم ابنُ عمِّها ومعها ابنُها إلى مصرَ، فكانوا فيها اثنتي عشرةَ سنة حتى ماتَ الملكُ الذي كانوا يخافونه؛

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٢) الوسيط ٣/ ١٨٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٧٢.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٨، وأخرجه من طريقه الطبري ١٥/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٥، وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في الكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٦) في (م) و(ظ) و(د): فمرَّ، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٣٧٣.

ذكره الماوردي.

قلت: ووقعَ في «تاريخِ مصرَ» فيما رأيتُ: وجاءَ في الإنجيلِ[١]: الظاهرُ أنَّ السيدَ المسيحَ لمَّا وُلد في بيتِ لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً، وأنَّ الله تعالى أَوحى إلى يوسفَ النجار في الحُلم وقال له: قم فخذِ الصبيَّ وأمَّه، واذهب إلى مصرَ، وكن هناك حتى أقولَ لك، فإنَّ هيرودس مُزمعٌ أن يطلبَ عيسى لِيُهلكَه، فقام من نومه: وامتثل أمرَ ربِّه، وأخذ السيدَ المسيح ومريمَ أمَّه وجاءَ إلى مصر[٢]، وفي حالِ مجيئِه إلى مصر نزلَ ببئرِ البَلَسان[٣] التي بظاهرِ القاهرة، وغَسلتْ ثيابَه على ذلك البئر، فالبَلَسانُ لا يطلعُ ولا ينبت إلا في تلك الأرض، ومنه يخرجُ الدهنُ الذي يخالطُ الزيتَ الذي تُعمِّدُ به النصارى، ولذلك كانت قاروةٌ واحدة في أيامِ المصريين لها مقدارٌ عظيم، وتقع في نفوسِ ملوك النصارى مثل ملكِ القُسْطَنطينيَّة، وملكِ صِقِلِّية[٤]، وملكِ الحبشة، وملك النُّوبة، وملك الفِرَنْجة، وغيرهم من الملوكِ عندما يهاديهم به ملوكُ مصرَ موقعاً جليلاً جدًّا، وتكون أحبَّ إليهم من كل هديةٍ لها قدرٌ، وفي تلك السَّفْرةِ وصل السيدُ المسيح إلى مدينةِ الأُشمونين[٥] وقسقام المعروفة الآن بالمحرقة[٦]، فلذلك يُعظمها النصارى إلى الآن، ويحضرون إليها في عيد الفصح

---

(١) إنجيل متى ص٣٧ - ٣٩ .

(٢) الكلام بنحوه في تاريخ الطبري ١/ ٦٠٥ .

(٣) البَلَسانُ: شجر صغار كشجر الحناء لا ينبت إلا بعين شمس ظاهر القاهرة، يُتنافس في دهنها. القاموس (بلس).

(٤) القُسطنطينية: اصطنبول، وهي دار ملك الروم، وصِقلية، بكسرات مشددة اللام: أكبر جُزر البحر الأبيض المتوسط. معجم البلدان ٤/ ٣٤٧ ، ودائرة معارف البستاني ١٠/ ٧٤٥ .

(٥) الأُشمونين: مدينة قديمة أزلية عامرة آهلة وهي قصبة كورة من كُوَر الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سُميت باسم عامرها، وهو أُشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح. معجم البلدان ١/ ٢٠٠ .

(٦) وهي ديرُ المُحَرَّق في غربي النيل بمصر على رأس جبل من الصعيد الأدنى. معجم البلدان ٢/ ٥٣٢ - ٥٣٣ ، وتعرف اليوم باسم الدير المحرق، وهي تابعة لمركز منفلوط.

من كل مكان؛ لأنها نهايةُ ما وصلَ إليها من أرضِ مصر، ومنها عادَ إلى الشام. والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾، أي: ما ينبغي له ولا يجوز ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ «من» صلةٌ للكلام، أي: أن يتخذَ ولداً[١]. و«أن» في موضعِ رفع اسم «كان»[٢]، أي: ما كان لله أن يتخذَ ولداً، أي: ما كان من صفتِه اتخاذُ الولد، ثم نَزَّه نفسَه تعالى عن مقالتهم فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾[٣] أن يكون له ولدٌ، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تقدم في «البقرة»[٤] مستوفى.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ أهلُ المدينة، وابنُ كثير، وأبو عمرو بفتح «أن»، وأهلُ الكوفة «وإن» بكسر الهمزةِ على أنه مستأنف[٥]، تدلُّ عليه قراءةُ أُبيٍّ: «كُنْ فَيَكُون. إنَّ اللهَ» بغير واوٍ[٦] على العطف على: «قَالَ إنِّي عبدُ اللهِ».

وفي الفتح أقوالٌ: فمذهبُ الخليلِ وسيبويه أنَّ المعنى: ولأنَّ الله ربي وربُّكم، وكذا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] فـ «أن» في موضعِ نصب عندهما. وأجاز الفراءُ أن يكونَ في موضعِ خفضٍ على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضاً في موضعِ خفضٍ بمعنى: وأَوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيًّا، وبأنَّ الله ربي وربكم. وأجازَ الكسائيُّ أن يكون في موضعِ رفعٍ بمعنى: والأمرُ أنَّ الله ربي وربُّكم. وفيها قولٌ خامس حكى أبو عبيد أنَّ أبا عمرو بنَ العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أنَّ الله ربي وربكم[٧]، فهي معطوفةٌ على قوله: «أمراً» من قوله: «إِذَا قَضَى أَمْراً»

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩، والبيان ٢/ ١٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧، والطبري ١٥/ ٥٣٨.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٣.

(٤) ٢/ ٣٣٦ وما بعدها.

(٥) السبعة ص٤١٠، والتيسير ص١٤٩، والطبري ١٥/ ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٦) الطبري ١٥/ ٥٤٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٨، والكشاف ٢/ ٥٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧ - ١٨.

والمعنى: إذا قضى أمراً وقضى أنَّ الله. ولا يبتدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقديرِ الثالث، ويجوز الابتداءُ بها على الأوجه الباقية، ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: دينٌ قويم لا اعوجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ «من» زائدة، أي: اختلفَ الأحزاب بينهم[١]. وقال قتادة: أي: ما بينهم. فاختلفت الفرقُ من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام، فاليهودُ بالقدحِ والسحر. والنَّصارى قالت النُّسطوريةُ منهم: هو ابنُ الله. والملكانيةُ: ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطتِ النصارى وغلَت، وفرَّطتِ اليهودُ وقصَّرت[٢]. وقد تقدَّم هذا في «النساء»[٣]. وقال ابنُ عباس: المرادُ من الأحزابِ الذين تَحزَّبوا على النبي ﷺ وكذَّبوه من المشركين. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من شهودِ يومِ القيامة[٤]، والمشهدُ بمعنى المصدر، والشهودُ الحضورُ، ويجوزُ أن يكونَ الحضور لهم، ويضاف إلى الظرفِ لوقوعِه فيه، كما يقال: ويلٌ لفلانٍ من قتال يومِ كذا، أي: من حضورِه ذلك اليوم. وقيل: المشهد بمعنى الموضع الذي يشهدُه الخلائقُ[٥]، كالمحشر للموضعِ الذي يُحشَر إليه الخلقُ. وقيل: فويلٌ للذين كفروا من حضورِهم المشهدَ العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور، فأَجمعوا على الكفرِ بالله، وقولِهم: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة[٦].

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال أبو العباس: العربُ تقولُ هذا في

---

(١) الوسيط ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٤ ، والكشاف ٢/ ٥٠٩ ، وزاد المسير ٥/ ٢٣٢ - ٢٣٣ . والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. والملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم، واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية. واليعقوبية: أصحاب يعقوب، وهذه الفرق كبار فرق النصارى. الملل والنحل ١/ ٢٢٢ - ٢٢٥ .

(٣) ٧/ ٢٣٠ - ٢٣٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٣٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٧٥ .

(٦) الكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

موضعِ التعجب، فتقول: أسمعْ بزيد وأبصرْ بزيد، أي: ما أَسمعه وأَبصره[١]. قال: فمعناه أنه عَجَّب نبيَّه منهم. قال الكلبي: لا أحدَ أسمعُ منهم يومَ القيامة ولا أبصرُ، حين يقولُ الله تبارك وتعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢] [المائدة:١١٦]. وقيل: «أسمع» بمعنى الطاعة، أي: ما أَطوعهم لله في ذلك اليوم، ﴿لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا[٣] ﴿فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأيُّ ضلالٍ أبينُ من أن يعتقدَ المرءُ في شخصٍ مثلِه حَملته الأرحامُ، وأكلَ وشربَ، وأحدثَ واحتاجَ أنَّه إله؟! ومَن هذا وصفُه، فهو أصمُّ أعمى ولكنه سيبصرُ ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنَّه لا ينفعه ذلك؛ قال معناهُ قتادةُ وغيره[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ رُوي عن عبدِ الله بنِ مسعود أنه قال: ما من أحدٍ يدخل النارَ إلا وله بيتٌ في الجنة فيتحسر عليه. وقيل: تقع الحسرةُ إذا أُعطي كتابَه بشماله[٥]. «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أي: فُرِغ من الحساب، وأُدخِل أهلُ الجنة الجنةَ، وأهلُ النار النار. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنةَ، وأهلُ النارِ النار يُجاء بالموتِ يومَ القيامة كأنه كبشٌ أَمْلَحُ، فيوقفُ بين الجنةِ والنار، فيقال: يا أهلَ الجنة، هل تعرفونَ هذا؟ فَيَشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ثم يقال: يا أهلَ النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيُؤمر به فيذبحُ، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت. ثم قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[٦]

---

(١) ذكر نحو هذا الكلام في المقتضب ٤/ ١٨٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٦ .

(٣) الطبري ١٥/ ٥٤٤ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٤٣ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨ .

(٦) صحيح مسلم (٢٨٤٩): (٤٠) (٤١)، وهو عند أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠). والأملح: =

خرَّجه البخاري بمعناه عن ابنِ عمر[١]، وابنُ ماجه من حديثِ أبي هريرة[٢]، والترمذي[٣] عن أبي سعيدٍ يرفعُه وقال فيه: حديثٌ حسن صحيح. وقد ذكرنا ذلك في كتابِ «التذكرة»[٤] وبيَّنا هناكَ أنَّ الكفار مخلَّدون بهذه الأحاديثِ والآي ردًّا على مَن قال: إنَّ صفةَ الغضب تنقطع، وإنَّ إبليسَ ومَن تبعه من الكفرة كفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأشباهِهم يدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نُميت سكانَها فنرثُها[٥]، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ فنجازي كلًّا بعمله، وقد تقدَّم هذا في «الحجرِ»[٦] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ المعنى: واذكر في

= الذي بياضُه أكثر من سواده، وقيل: هو النقي البياض. النهاية في غريب الحديث (ملح).

(١) صحيح البخاري (٦٥٤٨)، وهو عند أحمد (٥٩٩٣)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٢٧)، وهو عند أحمد (٧٥٤٦).

(٣) في السنن (٢٥٥٨).

(٤) ص٤٣٥ وما بعدها.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨٥.

(٦) ١٢/ ٢٠٠.

الكتاب الذي أُنزِلَ عليك ـ وهو القرآن ـ قصةَ إبراهيم وخبرَه[١]. وقد تقدَّم معنى الصِّدِّيق في «النساء»[٢]، واشتقاق الصدق في «البقرة»[٣] فلا معنى للإعادة. ومعنى الآية: اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمرَ إبراهيم، فقد عرفوا أنَّهم من ولده، فإنَّه كان حنيفاً مسلماً وما كان[٤] يتَّخِذُ الأنداد، فهؤلاء لِمَ يتخذون[٥] الأنداد؟! وهو كما قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد تقدَّم[٦]: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ قد تقدَّم القولُ فيه في «يوسف»[٧] ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ تعبد ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ يريد الأصنام[٨].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت، وأنَّ مَنْ عبدَ غيرَ الله عُذِّب ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ إلى ما أدعوكَ إليه. ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: أُرشِدُكَ إلى دينٍ مستقيمٍ فيه النجاة[٩].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطِعْه فيما يأمرك به من الكفر، ومَن أطاع شيئاً في معصية فقد عبدَه[١٠]. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ «كان» صلة زائدة. وقيل: بمعنى صار[١١]. وقيل: بمعنى الحال[١٢]، أي: هو للرحمن. وعصيًّا وعاصٍ بمعنى

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣١ .
(٢) ٦/ ٤٤٩ .
(٣) ١/ ٣٥١ .
(٤) كلمة «كان» ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).
(٥) في النسخ الخطية: يتخذوا، وفي (م) على الصواب.
(٦) ٨/ ٤٣٣ .
(٧) ١١/ ٢٤٥ .
(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٢ .
(٩) الوسيط ٣/ ١٨٥ .
(١٠) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .
(١١) تقدم هذا المعنى في سورة البقرة ١/ ٤٤٢ - ٤٤٣ .
(١٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٧ .

واحد. قاله الكسائي[١].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إن مِتَّ على ما أنت عليه[٢]. ويكون «أخاف» بمعنى أعلم[٣]. ويجوز أن يكون «أخاف» على بابها، فيكون المعنى: إني أخافُ أن تموت على كفرك فيمسَّكَ العذاب[٤]. ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قريناً في النار[٥].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أترغب عنها إلى غيرها. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال الحسن: يعني بالحجارة. الضحاك: بالقول؛ أي: لأشتمنَّك[٦]. ابن عباس: لأضربنَّك[٧]. وقيل: لأُظهرَنَّ أمرَك. ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾. قال ابن عباس: أي: اعتزِلْني سالمَ العِرْضِ لا يُصِبْكَ مني مَعرَّة[٨]. واختاره الطبري[٩]، فقوله: «مليًّا» على هذا حالٌ من إبراهيم. وقال الحسن ومجاهد: «مليًّا»: دهراً طويلاً؛ ومنه قول المُهلهل:

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجِبالِ لموتِه … وبَكَتْ عليه المُرْمِلاتُ مليّا[١٠]

قال الكسائي: يقال: هجرتُه مليًّا ومَلْوةً ومُلْوةً ومَلاوةً ومُلاوةً[١١]، فهو على هذا القول ظرف[١٢]، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه.

---

(١) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٩ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥١ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥١ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ بمعناه.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٩٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٣٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨ . وأخرج الطبري ١٥/ ٥٥٢ قول الضحاك.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٩٧ .

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٣٣٥ عن الضحاك. وكذلك أخرجه الطبري ٥/ ٥٥٥ .

(٩) في تفسيره ١٥/ ٥٥٥ .

(١٠) النكت والعيون ٣/ ٣٧٤ .

(١١) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٣٣٥ .

(١٢) إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٥٨ ، ومجمع البيان ١٦/ ٤١ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ لم يُعارِضْه إبراهيم عليه السلام بسوء الردِّ؛ لأنَّه لم يؤمَرْ بقتاله على كفره. والجمهور على أنَّ المرادَ بسلامه المسالمةُ التي هي المتاركةُ لا التحية؛ قال الطبري: معناه: أمنةٌ مني لك، وعلى هذا لا يُبدَأ الكافرُ بالسلام. وقال النقَّاش: حليمٌ خاطبَ سفيهاً، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها[1]. قيل لابن عُيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]؛ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[2].

قلت: الأظهرُ من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان؛ روى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهودَ والنصارى بالسلام، فإذا لقيتُم أحدَهم في الطريق فاضطرُّوه إلى أضيقِه» خرَّجه مسلم[3]. وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنَّ النبيَّ ﷺ ركبَ حماراً عليه إكافٌ تحته قطيفةٌ فَدَكيَّةٌ، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرَّ في مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثان واليهودِ، وفيهم عبد الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحة، فلما غشيتِ المجلسَ عجاجةُ الدابَّة، خَمَّرَ عبدُ الله بن أُبيٍّ أنفَه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا. فسلَّم عليهم النبيُّ ﷺ... الحديث[4]. فالأولُ يُفيد ترك السلام عليهم ابتداءً؛ لأنَّ ذلك

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩ .

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٩ إلى الطبري.

(٣) صحيح مسلم (٢١٦٧). ووقع في (د) و(م): خرجه البخاري ومسلم. والحديث أخرجه أحمد (٧٥٦٧).

(٤) صحيح البخاري (٥٦٦٣)، وصحيح مسلم (١٧٩٨). وأخرجه أحمد (٢١٧٦٧). قال السندي في حاشيته على المسند: إكاف: هو للحمار كالسرج للفرس. فدكية: نسبة إلى فدك. عجاجة الدابة: غبارها الذي يثيره مشي الدابة. خمَّر: غطى.

إكرام، والكافرُ ليس أهلَه. والحديث الثاني يُجَوِّزُ ذلك. قال الطبري: ولا يُعارَضُ ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس في أحدهما خلافٌ للآخر؛ وذلك أنَّ حديثَ أبي هريرة مَخرَجُه العموم، وخبر أسامةَ يُبيِّن أنَّ معناه الخصوص. وقال النَّخعَي: إذا كانت لك حاجةٌ عند يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فابدأه بالسلام. فبان بهذا أنَّ حديث أبي هريرة «لا تبدؤوهم بالسلام» إذا كان لغير سببٍ يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام، من قضاء ذِمامٍ أو حاجةٍ تَعرِضُ لكم قِبَلَهم، أو حقِّ صحبةٍ أو جوارٍ أو سفر. قال الطبري: وقد رُوي عن السَّلف أنَّهم كانوا يُسلِّمون على أهل الكتاب. وفعله ابن مسعود بدهقانٍ صحِبَه في طريقه؛ قال علْقَمة: فقلتُ له: يا أبا عبد الرحمن، أليس يُكرَهُ أن يُبدَؤوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حقُّ الصحبة. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمرُّ بمسلمٍ ولا نصرانيٍّ ولا صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا سلَّمَ عليه، فقيل له في ذلك، فقال: أُمِرْنا أن نُفشي السلام. وسُئِلَ الأوزاعيُّ عن مسلمٍ مَرَّ بكافرٍ فسلَّم عليه، فقال: إن سلَّمتَ فقد سلَّمَ الصالحون قبلك، وإن تركت فقد تركَ الصالحون قبلك. ورُوي عن الحسن البصريِّ أنه قال: إذا مررتَ بمجلسٍ فيه مسلمونَ وكفارٌ فسَلِّمْ عليهم.

قلت: وقد احتجَّ أهلُ المقالة الأولى بأنَّ السلام الذي معناه التحية إنَّما خُصَّ به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى أعطى أمتي ثلاثاً لم يُعطِ[١] أحداً قبلهم السلام، وهي تحية أهل الجنة» الحديث[٢]. ذكره الترمذيُّ الحكيم؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده[٣]. وقد مضى الكلام في معنى قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾. وارتفعَ السلامُ بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته؛ لأنه نكرةٌ مُخصَّصةٌ، فقرنتِ المعرفة[٤].

---

(١) في (م): تُعط.

(٢) كلمة الحديث ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).

(٣) نوادر الأصول ٢/ ١٨٥ ، وقد سلف ١/ ٢٠١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩ . وفيه: فقربت من المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾: الحفيُّ: المبالِغُ في البرِّ والإلطاف، يُقال: حَفِيَ به وتَحفَّى إذا بَرَّه[١]. وقال الكسائيُّ: يقال: حَفِي بي حَفاوةً وحِفْوةً[٢]. وقال الفراء[٣]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: عالماً لطيفاً يُجيبني إذا دعوتُه.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ العزلة: المفارقة، وقد تقدَّم في «الكهف» بيانُها[٤]. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهَبَ اللهُ تعالى له أهلاً وولداً يتقوَّى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزالِ عن قومه. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: آنسنا وحشته بولد. عن ابن عباس وغيره[٥]. وقيل: «عسى» يدلُّ على أنَّ العبد لا يُقطَعُ بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل. وقيل: دعا لأبيه بالهداية. فـ«عسى» شكٌّ؛ لأنه كان لا يدري هل يُستجابُ له فيه أم لا؟ والأول أظهر. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي: أثنَيْنا عليهم ثناءً حسناً[٦]؛ لأنَّ جميع المِلل تُحسِنُ الثناءَ عليهم[٧]. واللسان يُذكَّر ويؤنَّث، وقد تقدَّم[٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: واقرأ عليهم من القرآن قصَّة موسى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخلِصاً﴾ في عبادته غيرَ مُراءٍ. وقرأ أهل الكوفة: بفتح اللام[٩]، أي:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٦.
(٢) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٩.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ١٦٩.
(٤) ص٢٢٥ من هذا الجزء.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٩٨ من غير نسبة.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٦، والوسيط ٣/ ١٨٦.
(٧) مجمع البيان ١٦/ ٤٤ بمعناه.
(٨) ٥/ ١٨٤.
(٩) السبعة ص٤١٠، والتيسير ص١٤٩.

أخلصناه فجعلناه مختاراً[١] . ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: كلَّمناه ليلةَ الجمعة .﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: يمين موسى، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبلَ من مَدْين إلى مصر، قاله الطبريُّ[٢] وغيره، فإنَّ الجبالَ لا يمينَ لها ولا شمال[٣].

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ نصب على الحال[٤]، أي: كلَّمناه من غير وحي[٥]. وقيل: أَدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلَّمناه[٦]. وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «وقرَّبناه نجيًّا» أي: أُدنيَ حتى سمعَ صرير الأقلام[٧] .﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وذلك حين سأل فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ اختلف فيه، فقيل: هو إسماعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جِلْدة رأسه، فخيَّره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه، وفوَّض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته. والجمهور أنَّه

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٢) في التفسير ١٥/ ٥٥٩ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢١ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٣ .

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٣ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٧٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم[١]. وقد قيل: إنَّ الذبيحَ إسحاق[٢]، والأول أظهر على ما تقدَّم، ويأتي في «والصافات»[٣] إن شاء الله تعالى. وخصَّه الله تعالى بصِدْق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء؛ تشريفاً له وإكراماً، كالتلقيب بنحو الحليم والأوَّاه والصِّدِّيق؛ ولأنَّه المشهور المتواصف من خصاله[٤].

الثانية: صِدْق الوعد محمود، وهو من خُلُق النبيِّين والمرسلين، وضدُّه ـ وهو الخُلْف ـ مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدَّم بيانه في «براءة»[٥].

وقد أثنى الله تعالى على نبيِّه إسماعيل فوصفَه بصِدْق الوعد، واختلف في ذلك، فقيل: إنَّه وعد من نفسه بالصبر على الذبح، فصبر حتى فدي[٦]. هذا في قول من يرى أنَّه الذبيح. وقيل: وعَد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل وانتظر الرجلَ يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاء فقال له: ما زلت هاهنا في انتظارك منذ أمس[٧]. وقيل: انتظره ثلاثةَ أيَّام[٨]. وقد فعل مثلَه نبيُّنا ﷺ قبل بعثه، ذكره النقَّاش، وخرَّجه الترمذيُّ وغيره[٩] عن عبد الله بن أبي الحَمْساء قال: بايعتُ النبيَّ ﷺ ببيع قبل

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٧٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠ .

(٣) عند الآية (١٠٢).

(٤) الكشاف ٢/ ٥١٣ .

(٥) ١٠/ ٣١٢ .

(٦) الكشاف ٢/ ٥١٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ وعزاه إلى مقاتل.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢١ ، والحديث أخرجه أبو داود (٤٩٩٦)، وابن سعد في الطبقات ٧/ ٥٩ ، وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص٣١ - ٣٢ ، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٢٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٨ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٢٦ وقال: هذا حديث لا يصح. اهـ. ولم نقف عليه عند الترمذي.

أن يُبعَث، وبَقيتْ له بقيَّة، فوعدته أن آتيَه بها في مكانه فنسيتُ، ثم ذكرتُ بعد ثلاثة أيام، فجئتُ فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شَققت عليَّ، أنا هاهنا منذ ثلاثٍ أنتظرك» لفظ أبي داود. وقال يزيد الرقاشيُّ: انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوماً، ذكره الماورديُّ[١]. وفي كتاب ابن سلَّام أنَّه انتظره سنةً[٢]. وذكره الزمخشريُّ[٣] عن ابن عباس أنَّه وعدَ صاحباً له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنةً. وذكره القشيريُّ قال: فلم يبرح من مكانه سنةً حتى أتاه جبريلُ عليه السلام، فقال: إنَّ التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعودَ هو إبليس، فلا تقعد، ولا كرامةَ له. وهذا بعيدٌ ولا يصحُّ. وقد قيل: إنَّ إسماعيل لم يَعِد شيئاً إلا وَفَّى به، وهذا قول صحيح، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية، والله أعلم.

الثالثة: من هذا الباب قوله ﷺ: «العِدَة دَيْن»[٤]. وفي الأثر: «وَأي المؤمن واجب» أي: في أخلاق المؤمنين. وإنَّما قلنا: إنَّ ذلك ليس بواجب فرضاً؛ لإجماع العلماء على ـ ما حكاه أبو عمر[٥] ـ أنَّ من وعَد بمال ما كان ليَضْرِب به مع الغرماء، فلذلك قلنا: إيجاب الوفاء به حسَن مع المروءة، ولا يقضى به. والعرب تمتدح بالوفاء، وتذمُّ بالخُلْف والغَدْر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل:

متى ما يقلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجةٍ نَعَمْ يقضِها والحرُّ لِلوَأي ضامِن[٦]

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٧٦، وأخرجه عنه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦١).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١.

(٣) الكشاف ٢/ ٥١٣.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٣٧) عن ابن مسعود، وبرقم (٣٥٣٨) عن ابن مسعود وعلي، مع زيادة في حديث علي، وأبو نعيم في أخبار أصفهان ٢/ ٢٧٠، والقضاعي في مسند الشهاب ١/ ٤٠، عن علي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٦٦ عن حديث ابن مسعود: وفيه حمزة بن داود، ضعفه الدارقطني. اهـ. وينظر كشف الخفاء ٢/ ٧٣ - ٧٤.

(٥) في التمهيد ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧، وما قبله منه، والأثر أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٢٣) عن زيد بن أسلم، وضعفه ابن حزم في المحلى ٨/ ٢٩. وقال ابن عبد البر: والوأي: العِدَة.

(٦) التمهيد ٣/ ٢٠٧، ونسبه لسابق بن خديم، وما بعده منه.

ولا خلاف أنَّ الوفاءَ يستحقُّ صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخُلْف الذم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفَّى بنذره، وكفى بهذا مدحاً وثناء، وبما خالفه ذمًّا.

الرابعة: قال مالك: إذا سأل الرجلُ الرجلَ أن يهب له الهبة، فيقول له: نعم، ثم يبدو له ألا يفعل، فما أرى يلزمه. قال مالك: ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيَه عنه فقال: نعم، وثَمَّ رجالٌ يشهدون عليه، فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان. وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيُّ والشافعيُّ وسائر الفقهاء: إنَّ العِدَة لا يلزم منها شيء؛ لأنَّها منافع لم يقبضها في العاريَّة؛ لأنَّها طارئة، وفي غير العاريَّة هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض، فلصاحبها الرجوع فيها(١).

وفي البخاري(٢): ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد، وذُكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب. قال البخاريُّ: ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتجُّ بحديث ابنِ أَشْوَع.

الخامسة: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قيل: أُرسل إسماعيلُ إلى جُرْهم(٣). وكلُّ الأنبياء كانوا إذا وعدوا، صَدَقوا، وخصَّ إسماعيل بالذكر؛ تشريفاً له، والله أعلم.

السادسة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ قال الحسن: يعني أُمَّته. وفي حرفِ ابنِ مسعود: «وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة»(٤).

---

(١) التمهيد ٣/ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، قبل حديث (٢٦٨١). قال ابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٣٩٤: وأما ابن أشوع ـ واسمه سعيد بن عمرو بن أشوع ـ فرواه محمد بن خلف وكيع في كتاب «الغرر من الأخبار» له. اهـ. وقال في فتح الباري ٥/ ٢٩٠: وقد وقع بيان روايته [أي: ابن أشوع] كذلك عن سمرة بن جندب في تفسير إسحاق بن راهويه.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١ ، وفيه أن حرف ابن مسعود: وكان يأمر قومه. وكذا جاءت في البحر المحيط ٦/ ١٩٩ .

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا﴾ أي: رضيًّا زاكياً صالحاً[١]. قال الكسائيُّ والفرَّاء[٢]: من قال: مرضيّ، بناه على رَضِيتُ، قالا: وأهل الحجاز يقولون: مرضوّ. وقال الكسائيُّ والفرَّاء: من العرب من يقول: رِضَوان ورِضَيان، فرِضوان على مرضوّ، ورِضَيان على مرضيٍّ، ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضوان وربوان. قال أبو جعفر النحَّاس[٣]: سمعت أبا إسحاق الزجَّاج يقول: يخطئون في الخطِّ فيكتبون رباً بالياء، ثم يخطئون فيما هو أشدُّ من هذا، فيقولون: رِبيان، ولا يجوز إلا رِبوَان ورِضوَان، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ إدريس عليه السلام أوَّل من خطَّ بالقلم، وأوَّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوَّل من نظر في علم النجوم والحساب وسَيْرها. وسُمِّيَ إدريس؛ لكثرة دَرْسه لكتاب الله تعالى[٤]. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثينَ صحيفةً، كما في حديث أبي ذرٍّ[٥].

الزمخشري[٦]: وقيل: سُمِّيَ إدريسُ إدريسَ؛ لكثرة دَرْسه كتاب الله تعالى، وكان اسمه أَخنوخ، وهو غيرُ صحيح؛ لأنَّه لو كان إفعيلاً من الدَّرْس، لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلميَّة وكان منصرفاً، فامتناعه من الصَّرْف دليلٌ على العجمة، وكذلك إبليس أعجميٌّ، وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال، كما زعم ابنُ السكِّيت، ومن لم يحقِّق ولم يتدرَّب بالصناعة؛ كثرت

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٦٩ - ١٧٠ ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠ - ٢١.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠ - ٢١ وما قبله منه.
(٤) عرائس المجالس ص٥٠.
(٥) أخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٦، وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢: كذاب.
(٦) في الكشاف ٢/ ٥١٣.

منه أمثال هذه الهنات، يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقًا من الدرس.

قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما: وهو جدُّ نوح، وهو خطأ، وقد تقدَّم في «الأعراف» بيانه[١]. وكذا وقع في السيرة أنَّ نوحاً عليه السلام بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون، والله تعالى أعلم ـ وكان أوَّلَ من أُعطي النبوَّة من بني آدم، وخطَّ بالقلم ـ ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم ﷺ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال أنس بن مالك[٣] وأبو سعيد الخدريُّ[٤] وغيرهما[٥]: يعني: السماء الرابعة. وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقاله كعب الأحبار[٦]. وقال ابن عباس والضحَّاك: يعني: السماء السادسة[٧]، ذكره المهدوي.

قلت: ووقع في البخاري[٨] عن شرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر قال: سمعت أنس ابنَ مالك يقول: ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، الحديث، وفيه: كلُّ سماء فيها أنبياء ـ قد سمَّاهم ـ منهم إدريس في الثانية. وهو وَهَمٌ، والصحيح أنَّه في السماء الرابعة، كذلك رواه ثابت البُنَانِيُّ عن أنس بنِ مالك عن النبي ﷺ، ذكره مسلم في «الصحيح»[٩]. وروى مالك بن صعصعة قال: قال النبي ﷺ: «لما عُرجَ بي إلى

---

(١) ٩/ ٢٥٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٧٣٩)، والترمذي (٣١٥٧)، وأبو يعلى (٢٩١٤)، والطبري ١٥/ ٥٦٥ عن أنس مرفوعاً. قال الترمذي: وهذا حديث حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥١، والطبري ١٥/ ٥٦٤ عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.

(٥) منهم أبو هريرة وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٦٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢١.

(٧) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥٦٤.

(٨) برقم (٧٥١٧)

(٩) برقم (١٦٢).

السماء أتَيتُ على إدريسَ في السماء الرابعة». خرَّجه مسلم أيضاً[١].

وكان سببُ رَفْعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنَّه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا ربِّ أنا مشيتُ يوماً فكيف بمن يحملها خمس مئة عام في يوم واحد! اللهمَّ خَفِّف عنه من ثقلها. يعني: الملَك الموكَّل بفلك الشمس، يقول إدريس: اللهمَّ خَفِّف عنه من ثقلها، واحمل عنه من حرِّها. فلما أصبح الملَك وجد من خفَّة الشمس والظلِّ ما لا يعرف، فقال: يا ربِّ خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: أما إنَّ عبدي إدريس سألني أن أخفِّف عنك حملها وحرّها، فأَجبتُه، فقال: يا ربِّ اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلَّة. فأذنَ الله له حتى أتى إدريسَ، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أُخبِرت أنَّك أكرمُ الملائكة وأمكنهم عند مَلَك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخِّر أَجَلي، فأزدادَ شكراً وعبادة. فقال الملَك: لا يؤخِّر اللهُ نفساً إذا جاء أجلها، فقال للملَك: قد علمت ذلك ولكنَّه أطيبُ لنفسي. قال: نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملَك الموت: لي صديق من بني آدم تشفَّع بي إليك لتؤخِّر أجله. فقال: ليس ذلك إليَّ ولكن إن أحببت عِلمه أعلمته متى يموت. قال: نعم. ثم نظر في ديوانه، فقال: إنَّك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبداً. قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلا وقد مات، فواللهِ ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملَك فوجده ميتاً[٢].

وقال السدِّيُّ: إنَّه نام ذات يوم، واشتدَّ عليه حرُّ الشمس، فقام وهو منها في كرب، فقال: اللهمَّ خفِّف عن ملَك الشمس حرَّها، وأَعِنْه على ثقلها، فإنَّه يمارس ناراً حامية. فأصبح ملَك الشمس وقد نُصب له كرسيٌّ من نور، عنده سبعون ألف ملَك

(١) في صحيحه برقم (١٦٤).

(٢) عرائس المجالس ص٥٠ - ٥١، وتفسير البغوي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠.

عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولّون أمره وعمله من تحت حكمه، فقال ملَك الشمس: يا ربِّ من أين لي هذا؟. قال: دعا لك رجل من بني آدم يقال له: إدريس. ثم ذكر نحو حديث كعب. قال: فقال له ملَك الشمس: أتريدُ حاجةً؟ قال: نعم، وددت أنّي لو رأيت الجنة. قال: فرفعه على جناحه، ثم طار به، فبينما هو في السماء الرابعة، التقى بملَك الموت ينظر في السماء، ينظر يميناً وشمالاً، فسلَّم عليه ملَك الشمس، وقال: يا إدريس هذا ملَك الموت فسلِّم عليه. فقال ملَك الموت: سبحانَ الله! ولأيِّ معنى رفعته هنا؟ قال: رفعته لأُريه الجنَّة. قال: فإنَّ الله تعالى أمرني أن أقبضَ روح إدريس في السماء الرابعة. قلت: يا ربِّ وأين إدريس من السماء الرابعة، فنزلت فإذا هو معك، فقبض روحَه، فرفعها إلى الجنة، ودفنت الملائكة جثّته في السماء الرابعة، فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علِياً».

قال وهب بن منبِّه: كان يُرفَع لإدريس كلَّ يوم من العبادة مثل ما يُرفَع لأهل الأرض في زمانه، فعجب منه الملائكة، واشتاق إليه ملَك الموت، فاستأذن ربَّه في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة آدميٍّ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل، ففعل به ذلك ثلاثَ ليال، فأنكره إدريس، وقال له: من أنت! قال: أنا ملَك الموت، استأذنتُ ربِّي أن أصحبك فأذن لي، فقال: إنَّ لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أن تقبضَ روحي. فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحَه، فقبضه وردَّه إليه بعد ساعة، وقال له ملَك الموت: ما الفائدة في قبض روحك؟ قال: لأذوقَ كُرَبَ الموت؛ فأكون له أشدَّ استعداداً. ثم قال له إدريس بعد ساعة: إنَّ لي إليك حاجة أُخرى. قال: وما هي؟ قال: أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنَّة والنار، فأذن الله تعالى له في رَفْعه إلى السماوات، فرأى النار فصَعِقَ، فلما أفاق قال: أرني الجنَّة. فأدخله الجنة، ثم قال له ملَك الموت: اخرج لتعودَ إلى مقرِّك. فتعلَّق بشجرة وقال: لا أخرجُ منها. فبعث الله تعالى بينهما ملَكاً حكماً، فقال: مالك لا تخرج؟ قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وأنا ذقتُه، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد

وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فكيف أخرج؟ قال الله تبارك وتعالى لملَك الموت: بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج. فهو حيٌّ هنالك فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علياً»[1].

قال النحَّاس[2]: قول إدريس: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] يجوز أن يكون اللهُ أعْلَمَ هذا إدريسَ، ثم نزل القرآنُ به.

قال وهب بنُ منبِّه: فإدريس تارةً يرتع في الجنة، وتارةً يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء[3].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يريد إدريسَ وحده. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيمَ وحده. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يريد إسماعيلَ وإسحاق ويعقوب. ﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى[4]. فكان لإدريس ونوح شَرَفُ القُرب من آدم، ولإبراهيم شَرَفُ القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شَرَفُ القُرب من إبراهيم[5].

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ بالإيمان. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وقرأ شِبل بن عبّاد المكّي: «يتلى» بالتذكير؛ لأنَّ التأنيث غيرُ حقيقيٍّ مع

---

(١) عرائس المجالس ص٥١ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٣٨ .

(٣) عرائس المجالس ص٥١ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٤٤ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٨٧ .

وجود الفاصل[١].

﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفَهم بالخشوع لله والبكاء. وقد مضى في «سبحان»[٢].

يقال: بكى يبكي بكاءً وبُكًى وبُكيًا، إلا أنَّ الخليلَ قال: إذا قصرتَ البكاء فهو مثل الحزن، أي: ليس معه صوتٌ، كما قال الشاعر:

بكت عيني وحُقَّ لها بكاها … وما يغني البكاءُ ولا العَويلُ

«وسجداً» نصبٌ على الحال، «وبكيًّا» عطف عليه[٣].

الثانية: في هذه الآية دلالة على أنَّ لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب. قال الحسن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ في الصلاة. وقال الأصمُّ: المراد بآيات الرحمن الكُتب المتضمِّنة لتوحيده وحُجَجه، وأنَّهم كانوا يسجدون عند تلاوتها، ويبكون عند ذكرها. والمروي عن ابن عباس أنَّ المرادَ به القرآنُ خاصَّة، وأنَّهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته. قال الكيا[٤]: وفي هذا دلالةٌ من قوله على أنَّ القرآنَ هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصًّا بإنزاله إليه.

الثالثة: احتج أبو بكر الرازيُّ بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمِع والقارئ. قال الكيا[٥]: وهذا بعيدٌ، فإنَّ هذا الوصف شاملٌ لكلِّ آيات الله تعالى، وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالةٌ على وجوب ذلك عند آية مخصوصة.

الرابعة: قال العلماء: ينبغي لمن قرأ سجدةً أن يدعوَ فيها بما يليقُ بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ قال: اللهمَّ اجعلني من الساجدين لوجهك،

(١) الكشاف ٢/ ٥١٤، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٥.
(٢) عند الآية (١٠٧) من سورة الإسراء.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢١، والبيت لكعب بن مالك، يرثي فيه حمزة ﷺ، وهو في ديوانه ص٢٠٠.
(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٧٠، وما قبله منه.
(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٧١، وما قبله منه.

المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بِكَ أن أكون من المستكبرين عن أمْرِك. وإن قرأ سجدة «سبحان» قال: اللهمَّ اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهمَّ اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديِّين الساجدين لكَ، الباكين عند تلاوة آياتك[١].

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: أولاد سوء. قال أبو عبيد: حدَّثنا حجَّاج، عن ابنِ جريج، عن مجاهد قال: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي هذه الأمَّة أمَّة محمَّد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزِقَّة زنًى[٢]. وقد تقدَّم القول في «خَلْفٌ» في «الأعراف»[٣] فلا معنى للإعادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن: «أَضَاعُوا الصَّلَوَات» على الجمع[٤]. وهو ذمٌّ ونصٌّ في أنَّ إضاعةَ الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها، ولا خلافَ في ذلك. وقد قال عمر: ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٧٠ من طريق الحسين، عن حجاج، به، وأخرجه أيضاً الطبري ١٥/ ٥٧٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٢ من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به. وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٨٧ .

(٣) ٩/ ٣٧١ .

(٤) القراءات الشاذة ص٨٥ .

(٥) سلف ١/ ٢٥٣ .

واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية، فقال مجاهد: النصارى خَلَفوا بعد اليهود. وقال محمد بنُ كعب القرظيُّ ومجاهد أيضاً وعطاء: هم قومٌ من أمَّة محمَّد ﷺ في آخِر الزمان، أي: يكون في هذه الأمَّة مَن هذه صفته، لا أنَّهم المراد بهذه الآية[1].

واختلفوا أيضاً في معنى إضاعتها، فقال القرظيُّ: هي إضاعة كُفْر وجَحْد بها. وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعةُ أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها. وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصحُّ ولا تُجزِئ؛ لقوله ﷺ للرجل الذي صلَّى وجاء فسلَّم عليه: «ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّك لم تُصَلِّ» ثلاث مرات، خرَّجه مسلم[2].

وقال حذيفة لرجل يصلِّي فَطفَّفَ[3]: منذ كم تصلِّي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعينَ عاماً. قال: ما صليتَ، ولو مِتَّ وأنت تصلِّي هذه الصلاة لمتَّ على غيرِ فطرة محمَّد ﷺ. ثم قال: إنَّ الرجل ليخفِّف الصلاةَ ويتمُّ ويُحسِن. خرَّجه البخاريُّ، واللفظ للنسائي[4].

وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُجزِئ صلاةٌ لا يُقيم فيها الرجل، يعني: صلبَه في الركوع والسجود» قال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ ومَن بعدهم، يرون أن يقيم الرجلُ صلبَه في الركوع والسجود. قال الشافعيُّ وأحمد وإسحاق: من لم يُقِمْ صلبَه في الركوع والسجود، فصلاته فاسدة[5].

قال ﷺ: «تلك الصلاةُ صلاةُ المنافق يجلس يَرقُب الشمسَ حتى إذا كانت بين

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢ ، والكلام الآتي منه أيضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٥/ ٥٧١ .

(٢) في صحيحه (٣٩٧)، وهو عند البخاري أيضاً (٧٥٧)، وسلف ١/ ١٨٥ .

(٣) من التطفيف، أي: نقص من الركوع والسجود.

(٤) البخاري (٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، وهو عند أحمد (٢٣٢٥٨).

(٥) الترمذي (٢٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٨٥٥)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٨٣ ، وابن ماجه (٨٧٠)، وأحمد (١٧٠٧٣).

قرني الشيطان قام فنَقَرها أربعاً لا يَذكُر الله فيها إلا قليلاً»[١]. وهذا ذمٌّ لمن يفعل ذلك. وقال فروة بنُ خالد بنِ سنان: استبطأ أصحابُ الضَّحَّاك مرَّة أميراً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقرأ الضَّحَّاك هذه الآيَةَ، ثم قال: واللهِ لَأنْ أدعها أحبُّ إليَّ من أن أضيِّعها.

وجملة القول في هذا الباب أنَّ من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يُحافِظ عليها فقد ضيَّعها، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، كما أنَّ من حافظ عليها حفظ اللهُ عليه دينَه، «ولا دينَ لمن لا صلاةَ له»[٢]. وقال الحسن: عطَّلوا المساجدَ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي: اللذَّات والمعاصي.

الثالثة: روى الترمذيُّ وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبيِّ أنَّه أتى المدينةَ، فلقيَ أبا هريرة فقال له: يا فتى ألا أحدِّثك حديثاً لعلَّ اللهَ تعالى أن ينفعكَ به. قلت: بلى. قال: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسَب به الناس يومَ القيامة من أعمالهم الصلاة، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته ـ وهو أعلمُ ـ: انظروا في صلاة عبدي أتَمَّها أم نقصها، فإن كانت تامَّة، كتبت له تامَّة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فإن كان له تطوُّع، قال: أكملوا لعبدي فريضتَه من تطوُّعه، ثم تُؤخذ الأعمال على ذلك». قال يونس: وأحسِبه عن النبيِّ ﷺ، لفظ أبي داود[٣].

وقال: حدَّثنا موسى بنُ إسماعيل، حدَّثنا حماد، حدَّثنا داود بن أبي هند، عن

---

(١) أخرجه مسلم (٦٢٢)، وهو عند أحمد (١١٩٩٩).

(٢) التمهيد ٢٣/ ٣٠٠ ، والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣١٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أبو داود (٨٦٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٩٠٢)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وهو عند الترمذي (٤١٣) من رواية الحسن، عن حريث بن قبيصة، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. اهـ وسيأتي من رواية النسائي قريباً.

قال الدارقطني في العلل ٨/ ٢٤٨ بعد ما ذكر اضطراب الحديث: أشبهها بالصواب قول من قال: عن الحسن عن أنس بن حكيم عن أبي هريرة.

زُرارة بن أوفى، عن تميم الداريِّ، عن النبيِّ ﷺ بهذا المعنى، قال: «ثم الزكاة مثل ذلك، ثم تُؤخَذ الأعمال على حسب ذلك»(١).

وأخرجه النسائيُّ عن همَّام، عن الحسن، عن حُرَيث بن قَبِيصة، عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسَب به العبدُ يومَ القيامة بصلاته، فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت، فقد خابَ وخسر ـ قال همَّام: لا أدري هذا من كلام قتادة، أو من الرواية ـ فإن انتقصَ من فريضتِه شيءٌ، قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع، فيكمل به ما نقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك». خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ أوَّل ما يحاسَب به العبدُ يومَ القيامة صلاته، فإن وُجدت تامَّة، كتبت تامَّة، وإن كان انتقصَ منها شيءٌ، قال: انظروا هل تجدونَ له من تطوُّع يُكمِّل ما ضيَّع من فريضته من تطوُّعه، ثم سائر الأعمال تَجري على حسب ذلك»(٢). قال النسائي: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدَّثنا النضر بن شميل، قال: أنبأنا حماد ابن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن يحيى بن يعمر، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «أوَّلُ ما يحاسب به العبد يومَ القيامة صلاته، فإن كان أكملها، وإلا قال الله عزَّ وجلَّ: انظروا لعبدي من تطوُّعٍ، فإن وجد له تطوُّعٍ، قال: أكملوا به الفريضة»(٣).

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»(٤): أمَّا إكمال الفريضة من التطوُّع فإنَّما يكون ـ والله أعلم ـ فيمَن سها عن فريضة فلم يأتِ بها، أو لم يُحسِن ركوعَها وسجودها ولم يَدْرِ قَدْرَ ذلك، وأمَّا من تركَها، أو نسي ثم ذكرها، فلم يأتِ بها عامداً، واشتغل بالتطوُّع عن أداءِ فرضها وهو ذاكرٌ له، فلا تكمل له فريضة من تطوُّعه، والله أعلم. وقد روي من حديث الشاميين في هذا الباب حديث منكر يرويه

---

(١) أبو داود (٨٦٦)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٤٢٦). من طريق سليمان بن حرب، عن حماد، به، ومن طريق عفان، عن حماد، عن حميد، عن الحسن، عن رجل، عن أبي هريرة به.
(٢) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وفي الكبرى (٣٢٢) مقتصراً على الرواية الأولى.
(٣) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وفي الكبرى (٣٢١).
(٤) ٢٤/ ٨١ .

محمد بنُ حمير، عن عمرو بنِ قيس السَّكُوني، عن عبد الله بن قُرْط، عن النبيِّ ﷺ قال: «من صلَّى صلاةً لم يكمل فيها ركوعه وسجوده، زِيْدَ فيها من تسبيحاته حتى تتمَّ». قال أبو عمر: وهذا لا يحفظ عن النبيِّ ﷺ إلا من هذا الوجه، وليس بالقويِّ، وإن كان صحَّ كان معناه أنَّه خرج من صلاة كان قد أتمَّها عند نفسه، وليست في الحكم بتامَّة.

قلت: فينبغي للإنسان أن يُحسِن فرضَه ونَفْله، حتى يكون له نفل يجده زائداً على فرضه يقرِّبه من ربِّه، كما قال سبحانه وتعالى: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه»[1] الحديث. فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض، فحكمه في المعنى حكم الفرض. ومن لا يُحسِن أن يصلِّي الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفُّل، لا جرم تنفل الناس في أشدِّ ما يكون من النقصان والخلل؛ لخفَّته عندهم، وتهاونهم به، حتى كأنَّه غير معتدٍّ به. ولعَمْرُ اللهِ لقد يشاهد في الوجود من يشار إليه، ويظن به العلم تنفُّله كذلك، بل فرضه إذ ينقره نَقْرَ الديك لعدم معرفته بالحديث، فكيف بالجهَّال الذين لا يعلمون. وقد قال العلماء: ولا يُجزِئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوسٌ بين السجدتين، حتى يعتدل راكعاً وواقفاً وساجداً وجالساً. وهذا هو الصحيح في الأَثَر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر. وهذه رواية ابنِ وهب وأبي مصعب عن مالك. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[2]. وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفُّل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو؟! بل كان ذلك غيرُ صحيح ولا مقبول؛ لأنَّه وقَع على غير المطلوب، والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وعن عليٍّ ﷺ في قوله تعالى: «واتبعوا الشهواتِ» هو من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور.

قلت: الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه. وفي «الصحيح»: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحُفَّت النَّار بالشهوات»[3]. وما ذكر عن عليٍّ ﷺ

---

(١) سلف ٧/ ٤١١ .
(٢) ١/ ٢٦٢ وما بعدها.
(٣) سلف ٥/ ٤٣ .

جزء من هذا.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن زيد: شرًّا أو ضلالاً أو خيبة[١]، قال:

فمن يَلْقَ خيراً يَحمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومن يَغْوَ لا يَعْدمْ على الغَيِّ لائما[٢]

وقال عبد الله بن مسعود: هو وادٍ في جهنم[٣]. والتقدير عند أهل اللغة: فسوف يلقون جزاء الغيِّ، كما قال جلَّ ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]. والأظهر أنَّ الغيَّ اسم للوادي سُمِّيَ به؛ لأنَّ الغاوينَ يصيرون إليه[٤]. قال كعب: يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» أي: هلاكاً وضلالاً في جهنَّم.

وعنه: غيٌّ: وادٍ في جهنَّم أبعدها قعراً، وأشدّها حرًّا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم، فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم. وقال ابن عباس: غيٌّ: وادٍ في جهنم، وإنَّ أودية جهنَّم لتستعيذ من حرِّه، أعدَّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المُصِرِّ على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه[٥].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: من تضييع الصلاة واتِّباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربِّه. ﴿وَءَامَنَ﴾ به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾. قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر: «يُدْخَلُون» بفتح الخاء. وفتح الياء الباقون[٦].

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٧٣ - ٥٧٤ .

(٢) القائل: المرقِّش الأصغر، وسلف ٩/ ١٧١ .

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٢٧٦)، والطبري ١٥/ ٥٧٢ ، والطبراني في الكبير (٩١١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠١ .

(٦) السبعة ص٢٣٧ - ٢٣٨ ، والتيسير ص٩٧ .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنَّهم يكتب لهم بكلٍّ حسنة عشر إلى سبع مئة. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الجنَّة فانتصبت. قال أبو إسحاق الزجَّاج[(١)]: ويجوز «جَنَّاتُ عَدْنٍ» على الابتداء. قال أبو حاتم: ولولا الخطُّ لكان «جَنَّةَ عدنٍ» لأنَّ قبله: «يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ». ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من عَبده وحفظ عهده بالغيب. وقيل: آمنوا بالجنة ولم يَرَوْها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ «مأتياً» مفعول من الإتيان. وكلُّ ما وصل إليك فقد وصلتَ إليه، تقول: أتت عليَّ ستون سنةً، وأتيتُ على ستين سنة. ووصل إليَّ من فلان خير، ووصلتُ منه إلى خير[(٢)]. وقال القتبيُّ[(٣)]: «مأتياً» بمعنى آتٍ، فهو مفعول بمعنى فاعل. و«مأتِياً» مهموز؛ لأنَّه من أتى يأتي. ومن خفَّف الهمزة جعلها ألفاً[(٤)].

وقال الطبريُّ[(٥)]: الوعد هاهنا: الموعود، وهو الجنَّة، أي: يأتيها أولياؤه.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: في الجنَّة. واللغو معناه: الباطل من الكلام والفُحْش منه والفضول وما لا ينتفع به. ومنه الحديث: «إذا قلتَ لصاحبك يومَ الجمعة: أنصِت، والإمام يخطب؛ فقد لغوت»[(٦)] ويروى: «لغيت» وهي لغة أبي هريرة، كما قال الشاعر:

وَرَبِّ أسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ ... عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ[(٧)]

قال ابن عباس: اللَّغو: كلُّ ما لم يكن فيه ذِكْر الله تعالى، أي: كلامهم في الجنَّة حمدُ الله وتسبيحه.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٣٦، ونقله عنه القرطبي بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٢، وما بعده منه.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٦.
(٣) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٤.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢.
(٥) في التفسير ١٥/ ٥٧٥.
(٦) تقدم في ٤/ ١٧.
(٧) القائل: العجاج، والحديث سلف ٤/ ١٧، والبيت سلف ٣/ ١٨٨ و ٤/ ١٧.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً، فهو من الاستثناء المنقطع[١]، يعني: سلام بعضهم على بعض، وسلام الملَك عليهم، قاله مقاتل وغيره[٢]. والسلام: اسمٌ جامع للخير، والمعنى أنَّهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبُّون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرةً وعشيًّا، أي: في قدر هذين الوقتين، إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشيًّا، كقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] أي: قَدْرَ شهر، قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما. وقيل: عرَّفهم اعتدال أحوالِ أهل الجنَّة، وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكينُ من المطعم والمشرب بكرةً وعشيًّا[٤].

قال يحيى بن أبي كثير وقتادة: كانت العرب في زمانها من وجد غداءً وعشاءً معاً، فذلك هو الناعم، فنزلت[٥]. وقيل: أي: رِزْقهم فيها غير منقطع، كما قال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] وهو كما تقول: أنا أصبح وأمسي في ذِكْرك. أي: ذكري لك دائم. ويحتمل أن تكون البُكرة قبل تشاغلهم بلذَّاتهم، والعشي بعد فراغهم من لذَّاتهم؛ لأنه يتخلَّلها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع إلى القول الأوَّل.

وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس، قال: قال مالك بن أنس: طعام المؤمنين في اليوم مرَّتان، وتلا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ثم قال: وعوَّض الله عزَّ وجلَّ المؤمنين في الصيام السحور بدلاً من الغداء ليقووا به على عبادة ربِّهم. وقيل: إنَّما ذكر ذلك؛ لأنَّ صفة الغداء وهيئته غير صفة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨١ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣ عن قتادة بنحوه.

العشاء وهيئته، وهذا لا يعرفه إلا الملوك. وكذلك يكون في الجنة رِزْقُ الغداء غيرَ رزق العشاء، تتلوَّن عليهم النِّعم؛ ليزدادوا تنعُّماً وغبطة.

وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبان عن الحسن وأبي قِلابة قالا: قال رجل: يا رسولَ الله هل في الجنَّة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا». قال: سمعتُ اللهَ تعالى يذكر في الكتاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. وقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليلٌ إنَّما هو ضوء ونور يَردُّ الغدوّ على الرَّواح، والرَّواح على الغدوّ، وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا وتسلِّم عليهم الملائكة» وهذا في غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[1]. وقال العلماء: ليس في الجنَّة ليل ولا نهار، وإنَّما هم في نور أبداً، إنَّما يَعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويَعرفون مقدار النهار برَفْع الحجب وفتح الأبواب. ذكره أبو الفرج الجوزيُّ والمهدويُّ وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ أي: هذه الجنَّة التي وصفنا أحوال أهلها ﴿نُورِثُ﴾ بالتخفيف. وقرأ يعقوب: «نُورِّثُ» بفتح الواو وتشديد الراء[2]. والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [فاطر: ٣٢]. ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ قال ابن عباس: أي: من اتَّقاني وعمل بطاعتي. وقيل: هو على التقديم والتأخير، تقديره: نورث من كان تقيًّا من عبادنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما منعك أن

(١) ص٥٠٤ - ٥٠٥ وما بعده منه.
(٢) رواها عنه رويس كما في النشر ٢/٣١٨ .

تزورنا أكثر ممَّا تزورنا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. قال: هذا حديث حسن غريب. ورواه البخاريُّ: حدَّثنا خلاد بن يحيى، حدَّثنا عمر بن ذرٍّ قال: سمعتُ أبي يحدِّث عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثرَ مما تزورنا» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمَّد ﷺ[(١)].

وقال مجاهد: أبطأ الملَك على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: «ما الذي أبطأك» قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصُّون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبَكم، ولا تستاكون، قال مجاهد: فنزلت الآية في هذا. وقال مجاهد أيضاً وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: احتبس جبريلُ عن النبيِّ ﷺ حين سأله قومه عن قصَّة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يَدْرِ ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريلُ بجواب ما سألوا عنه. قال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوماً. وقال مجاهد: اثنتي عشْرة ليلةً. وقيل: خمسة عشر يوماً. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام، فقال النبيُّ ﷺ: «أبطأت عليَّ حتى ساء ظنِّي واشتقت إليك» فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأنزل ﴿وَالضُّحَىٰ . وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]. ذكره الثعلبيُّ والواحديُّ والقشيريُّ وغيرهم[(٢)].

وقيل: هو إخبار من أهل الجنَّة أنَّهم يقولون عند دخولها: وما نتنزل هذه الجنان

---

(١) الترمذي (٣١٥٨)، والبخاري (٧٤٥٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٤٣).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣١٠ ، وذكره عنهم ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٤ (١٣١٧٢) و(١٣١٧٠)، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤٩ أقوال إبطاء جبريل عن النبي ﷺ، إلا أنه ذكر خمسة وعشرين يوماً، بدل: ثلاثة عشر يوماً. وورد في أسباب النزول: براجمكم، بدل: رواجبكم. قال الجوهري في الصحاح (رجب): والراجبة في الإصبع: واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

إلا بأمر ربك[١]. وعلى هذا تكون الآية متَّصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي: قال الله تعالى: قل يا جبريل: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ». وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: إنَّا إذا أُمرنا نَزَلنا عليك. الثاني: إذا أمرك ربُّك نزَّلنا عليك، فيكون الأمر على الأوَّل متوجِّهاً إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجِّهاً إلى التنزيل[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: علم ما بين أيدينا ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ قال ابن عباس وابن جريج: ما مضى أمامنا من أمْرِ الدنيا، وما يكون بعدَنا من أمرها وأمر الآخرة، «وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ»: من البَرْزخ[٣].

وقال قتادة ومقاتل: «له ما بين أيدينا»: من أمر الآخرة، «وما خلفنا»: ما مضى من الدنيا، «وما بين ذلك»: ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة[٤].

الأخفش[٥]: «ما بين أيدينا»: ما كان قبل أن نخلق، «وما خلفنا»: ما يكون بعد أن نموت، «وما بين ذلك»: ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت.

وقيل: «ما بين أيدينا»: من الثواب والعقاب وأمور الآخرة. «وما خلفنا»: ما مضى من أعمالنا في الدنيا. «وما بين ذلك»: أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة[٦].

---

(١) زاد المسير ٥/ ٢٥٠ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ ونسبه للطبري، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨٣ عن ابن جريج.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ .

ويحتمل خامساً: «ما بين أيدينا»: السماء، «وما خلفنا»: الأرض، «وما بين ذلك»: أي: ما بين السماء والأرض.

وقال ابن عباس في رواية: «له ما بين أيدينا»: يريد الدنيا إلى الأرض، «وما خلفنا»: يريد السماوات ـ وهذا على عكس ما قبله ـ «وما بين ذلك»: يريد الهواء، ذكر الأوّل الماورديُّ[1] والثاني القشيريُّ. الزمخشريُّ[2]: وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبَر منها، والحال التي نحن فيها. ولم يقل: ما بين ذينك؛ لأنَّ المرادَ ما بين ما ذكرنا، كما قال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] أي: بين ما ذكرنا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسياً، إذا شاء أن يُرسِل إليك أرسل. وقيل: المعنى: لم يَنْسَكَ وإن تأخَّر عنك الوحي[3]. وقيل: المعنى أنَّه عالِم بجميع الأشياء متقدِّمها ومتأخِّرها، ولا ينسى شيئاً منها.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ربُّهما وخالقهما وخالقُ ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، فكما إليه تدبير الأزمان، كذلك إليه تدبير الأعيان.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي: وحِّده لذلك. وفي هذا دلالة على أنَّ اكتسابات الخَلْق مفعولةٌ لله تعالى، كما يقوله أهل الحقِّ، وهو القول الحقُّ؛ لأنَّ الربَّ في هذا الموضع لا يُمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك، وإذا ثبت أنَّه مالك ما بين السماء والأرض، دخل في ذلك اكتساب الخَلْق، ووجبت عبادته؛ لما ثبت أنَّه المالك على الإطلاق، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع، ولا يستحقها أحدٌ سوى المالك المعبود.

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: لطاعته، ولا تحزن لتأخير الوحي عنك، بل اشتغل بما أُمرت به. وأصل اصطبر: اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأُبدل

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٢.
(٢) في الكشاف ٢/ ٥١٦.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ بنحوه.

من التاء طاء، كما تقول من الصوم: اصطام[١].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: يريد هل تعلم له ولداً، أي: نظيراً، أو مِثْلاً، أو شبيهاً يستحقُّ مثل اسمه الذي هو الرحمن. وقاله مجاهد. مأخوذ من المساماة[٢].

وروى إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابنِ عباس قال: هل تعلم له أحداً سُمِّي الرحمن. قال النحّاس[٣]: وهذا أجلُّ إسناد علمته روي في هذا الحرف، وهو قول صحيح، لا يقال الرحمن إلا لله. قلت: وقد مضى هذا مبيَّناً في البسملة[٤] والحمد لله، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد «هل تعلم له سمِيًّا» قال: مِثْلاً.

ابن المسيب: عدلاً[٥]. قتادة والكلبي: هل تعلم أحداً يُسمَّى اللهَ تعالى غير الله[٦]، أو يقال له: الله، إلا الله. و«هل» بمعنى «لا»، أي: لا تعلم. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الإنسان هنا أُبيُّ بن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥٨٥ - ٥٨٦ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٤ وما قبله منه.

(٤) ١/ ١٥٩ وما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٣ ونسبه لابن جبير.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ .

خَلَف، وجد عظاماً باليةً ففتَّها بيده، وقال: زعم محمد أنَّا نبعث بعد الموت، قاله الكلبي. ذكره الواحديُّ[١] والثعلبيُّ والقشيريُّ. وقال المهدويُّ: نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأصحابه، وهو قول ابنِ عباس[٢].

واللام في: «لسوف أُخرج حيًّا» للتأكيد.كأنَّه قيل له: إذا ما متَّ لسوف تُبعَث حيًّا فقال: «أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حيًّا»! قال ذلك منكراً؛ فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول، ولو كان مبتدئاً لم تدخل اللام؛ لأنَّها للتأكيد والإيجاب وهو مُنكِر للبعث.

وقرأ ابن ذكوان: «إذا ما مِتُّ» على الخبر، والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز[٣]. وقرأ الحسن وأبو حيوة: «لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا»[٤]، قاله استهزاء؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالبعث، والإنسان هاهنا الكافر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: أَوَلا يذكر هذا القائل ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل سؤاله وقولِه هذا القول ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فالإعادة مثل الابتداء، فلم يناقض.

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً، وأهل مكَّة وأبو عمرو وأبو جعفر: «أَوَلَا يَذَّكَّرُ». وقرأ شيبة ونافع وعاصم: «أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف ـ والاختيار التشديد، وأصله يتذكَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] وأخواتها ـ وفي حرف أبيٍّ: «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير، لأنَّها مخالفة لخطِّ المصحف: ومعنى «يَتَذَكَّرُ»: يتفكَّر، ومعنى «يَذْكُرُ»: يتنبَّه ويَعلم، قاله النحَّاس[٥].

---

(١) في أسباب النزول ص٣١٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٠ .

(٣) التيسير ص١٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣ إلا ما بين معترضتين فمن الطبري ١٥/ ٥٨٧ بنحوه، والقراءة في السبعة ص٤١٠ ، والتيسير ص١٤٩ ، وتحرفت لفظة: شيبة، في مطبوع إعراب القرآن للنحاس إلى: شعبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنَّه يَحشرهم من قبورهم إلى المَعاد كما يحشر المؤمنين. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: ولنحشرنَّ الشياطين قرناءَ لهم. قيل: يُحشر كلُّ كافر مع شيطان في سلسلة[١]، كما قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. الزمخشري[٢]: والواو في: «والشَّيَاطِين» يجوز أن تكون للعطف، وبمعنى «مع»، وهي بمعنى «مع» أوقع. والمعنى أنَّهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرنون كلَّ كافر مع شيطان في سلسلة. فإن قلت: هذا إذا أُريد بالإنسان الكَفَرة خاصة، فإن أُريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرُهم مع الشياطين؟ قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكَفَرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكَفَرة.

فإن قلت: هلَّا عُزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عُزلوا عنهم في الجزاء؟ قلت: لم يفرق بينهم في المحشر، وأُحضروا حيث تجاثوا حول جهنَّم، وأُوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجَّاهم الله منها وخلَّصهم، فيزدادوا لذلك غبطةً، وسروراً إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم، فتزداد مَساءتهم وحسرتهم، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم[٣].

فإن قلت: ما معنى إحضارهم جِثيًّا؟ قلت: أمَّا إذا فُسِّر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنَّهم يعتلون[٤] من المحشر إلى شاطئ جهنَّم عَتْلاً على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على رُكَبِهم غير مشاة على أقدامهم. وذلك أنَّ أهل الموقف وصفوا بالجثوِّ، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] على الحالة

(١) الوسيط ٣/ ١٩٠.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥١٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٥١٩، وما بعده منه.

(٤) في الكشاف ٢/ ٥١٩: يقبلون. قال الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠: وقال الليث: العَتْل: أن تأخذ بتلبيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك وتذهب به إلى حبس أو بليَّة.

المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات[١]، من تجاثي أهلها على الرُّكَب، لما في ذلك من الاستيفاز[٢] والقَلَق، وإطلاق الحُبَى[٣]، وخلاف الطمأنينة، أو لما يَدهمهم من شدَّة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على رُكَبهم جثواً[٤]. وإن فُسِّر بالعموم فالمعنى أنَّهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنَّم. على أنَّ «جِثيًّا» حال مقدَّرة كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنَّه من توابع التواقف للحساب، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب.

ويقال: إنَّ معنى ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: جِثيًّا على رُكَبهم، عن مجاهد وقتادة[٥]، أي: إنَّهم لشدَّة ما هم فيه لا يقدرون على القيام.

و«حول جهنَّم» يجوز أن يكون: داخلها، كما تقول: جلس القوم حول البيت، أي: داخله مطيفين به[٦]. فقوله: «حول جهنَّم» على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول، ويجوز أن يكون قبل الدخول.

و«جِثيًّا» جمع جاثٍ. يقال: جثا على رُكْبتيه يَجْثو ويَجْثِي جُثُوًّا وجُثِيًّا على فُعُول فيهما. وأَجثاه غيرُه. وقوم جُثِيٌّ أيضاً، مثل جلس جلوساً وقوم جلوس، وجِثي أيضاً بكسر الجيم لما بعدها من الكسر[٧].

وقال ابن عباس: «جثيًّا»: جماعات. وقال مقاتل: جمعاً جمعاً، وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوَة وجِثْوة، ثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب

---

(١) في (د) و(ظ): والمثاقلات.

(٢) قال الجوهري في الصحاح (وفز): قعد مستوفزاً: أي: غير مطمئن.

(٣) الحَبْوة: الثوب الذي يحتبى به، والجمع: حِبًى وحُبًى. متن اللغة (حبو).

(٤) في الكشاف: فيحبون على ركبهم حبواً.

(٥) الوسيط ٣/ ١٩٠ عن مجاهد، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦ عن قتادة.

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٠ .

(٧) الصحاح (جثا).

المجموع[١]، فأهل الخمر على حِدَة، وأهل الزنى على حِدَة، وهكذا، قال طرفة[٢]:

تَرَى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضَّحَّاك: جاثية على الركب[٣]. وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدَّم. وذلك لضيق المكان، أي: لا يمكنهم أن يجلسوا جلوساً تامًّا. وقيل: جثيًّا على رُكَبهم للتخاصم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]. وقال الكُميت:

هم تَركُوا سَرَاتَهُمُ جثيًّا وهم دون السَّراةِ مقرَّنينا[٤]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنستخرجنَّ من كلِّ أمَّة وأهل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ النحَّاس[٥]: وهذه آية مُشكِلة في الإعراب؛ لأنَّ القرَّاء كلَّهم يقرؤون: «أيُّهم» بالرفع إلا هارون القارئ الأعور، فإنَّ سيبويه حكى عنه: «ثم لننزِعنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ أَيَّهُمْ» بالنصب أوقع على «أيهم» لننزعنَّ[٦].

قال أبو إسحاق[٧]: في رفع «أيُّهم» ثلاثة أقوال، قال الخليل بن أحمد ـ حكاه عنه سيبويه[٨] ـ: إنَّه مرفوع على الحكاية، والمعنى: ثم لننزعنَّ من كلِّ شيعة الذي يقال من أجل عتوِّه أَيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتيًّا، وأنشد الخليل، فقال[٩]:

---

(١) الوسيط ٣/ ١٩٠.

(٢) في ديوانه ص٣٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٣.

(٤) ديوان الكميت ص٤٥٨ وعجزه فيه هكذا: وما دون السراة مغربلينا

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣ - ٢٤.

(٦) الكتاب ٢/ ٣٩٩، ونسبها هارون إلى الكوفيين، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ إلى معاذ الهراء وطلحة بن مصرف.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٩، ونقله عنه القرطبي بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤.

(٨) في الكتاب ٢/ ٣٩٩.

(٩) القائل هو الأخطل، والبيت في ديوانه ص٨٤.

ولقد أبيتُ من الفتاة بمنزلٍ ... فأبيتُ لا حرِجٌ ولا مَحْرومُ

أي: فأبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حَرِجٌ ولا مَحرومٌ. وقال أبو جعفر النحَّاس[(١)]: ورأيت أبا إسحاق[(٢)] يختار هذا القولَ ويستحسنه، قال: لأنَّه معنى قول أهل التفسير. وزعم أنَّ معنى «ثم لننزعنَّ من كلِّ شيعة»: ثم لننزعنَّ من كلِّ فرقة الأعتى فالأعتى. كأنَّه يبتدأ بالتعذيب بأشدِّهم عتيًّا ثم الذي يليه، وهذا نصُّ كلام أبي إسحاق في معنى الآية. وقال يونس: «لننزعنَّ» بمنزلة الأفعال التي تُلغى، ورفع «أيهم» على الابتداء.

المهدويُّ: والفعل الذي هو «لننزعنَّ» عند يونس معلَّق، قال أبو عليٍّ[(٣)]: معنى ذلك أنَّه يعمل في موضع «أيهم أشدُّ» لا أنَّه ملغًى. ولا يعلَّق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعنَّ»، إنَّما يعلَّق بأفعال الشَّكِّ وشِبْهها ما لم يتحقَّق وقوعه.

وقال سيبويه: «أيُّهم» مبنيٌّ على الضمِّ؛ لأنَّها خالفت أخواتها في الحذف؛ لأنَّك لو قلت: رأيتُ الذي أفضلُ، ومَنْ أفضلُ، كان قبيحاً، حتى تقول: من هو أفضلُ، والحذف في «أيهم» جائز.

قال أبو جعفر[(٤)]: وما علمتُ أحداً من النَّحْويِّين إلا وقد خطَّأ سيبويه في هذا، وسمعت أبا إسحاق يقول: ما يتبيَّن لي أنَّ سيبويه غَلِطَ في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، قال: وقد عَلمنا أنَّ سيبويه أعرب «أيًّا» وهي مفردة؛ لأنَّها تُضاف، فكيف يَبْنيها وهي مضافة؟! ولم يذكر أبو إسحاق فيما علمتُ إلا هذه الثلاثة الأقوال. أبو عليٍّ: إنَّما وجب البناء على مذهب سيبويه؛ لأنَّه حذف منه ما يتعرَّف به وهو الضمير مع افتقار إليه، كما حذف في «مِن قَبْلُ» و«مِن بَعْدُ» ما يتعرَّفان به مع افتقار المضاف

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤ .

(٢) أي: الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٤٠ .

(٣) نقله عنه القرطبي بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤ ، وما قبله منه.

إلى المضاف إليه؛ لأنَّ الصلة تبيِّن الموصولَ وتوضِّحه، كما أنَّ المضاف إليه يبيِّن المضاف ويخصِّصه. قال أبو جعفر: وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحاق، قال الكسائيُّ: «لننزعنَّ» واقعة على المعنى، كما تقول: لبستُ من الثياب، وأكلتُ من الطعام، ولم يقع «لننزعنَّ» على «أيهم» فينصبها.

زاد المهدويُّ: وإنَّما الفعل عنده واقع على موضع «من كلِّ شيعة» وقوله: «أيهم أشدُّ» جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء، ولا يرى سيبويه زيادة «من» في الواجب.

وقال الفرَّاء(١): المعنى: ثم لننزعنَّ بالنداء، ومعنى «لننزعن»: لننادينَّ. المهدوي: و«نادى» فعل يعلَّق إذا كان بعده جملة، كظننت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ. قال أبو جعفر(٢): وحكى أبو بكر بن شقير أنَّ بعضَ الكوفيين يقول في «أيهم» معنى الشرط والمجازاة، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها، والمعنى: ثم لننزعنَّ من كلِّ فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا، كما تقول: ضربت القومَ أيَّهم غَضِبَ، والمعنى: إن غضبوا، أو لم يغضبوا. قال أبو جعفر(٣): فهذه ستَّة أقوال، وسمعت عليَّ بن سليمان يحكي عن محمد بنِ يزيد قال: «أيهم» متعلِّق بـ «شيعة» فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى: ثم لننزعنَّ من الذين تشايعوا أيهم، أي: من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيًّا، وهذا قول حسن. وقد حكى الكسائيُّ أنَّ التشايعَ التعاون. و«عتيًّا» نصب على البيان.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: أحقُّ بدخول النار. يقال: صَلَى يَصْلِي صِليًّا، نحو مضى الشيء يمضي مُضِيًّا: إذا ذهب، وهوى يهوي هُوِيًّا. وقال

(١) نقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ ، وما قبله منه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ ، وتنظر المسألة بتمامها في الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٩٨ - ٤٠٢ ، وإعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٤٥٨ - ٤٦٠ ، والبيان ٢/ ١٣٠ - ١٣٣ ، والإنصاف ٢/ ٧٠٩ - ٧١٦ لابن الأنباري.

الجوهريُّ(١): ويقال: صَلَيْتُ الرجلَ ناراً، إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاءً كأنَّك تريد الإحراقَ قلت: أَصْلَيْتُه، بالألف، وصَلَّيْتُه تصليةً. وقرئ: «ويُصَلَّى سَعِيراً»(٢) [الانشقاق:١٢]. ومن خفَّف فهو من قولهم: صَلِي فلانٌ بالنار ـ بالكسر ـ يَصْلَى صلِيًّا: احترق، قال الله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾. قال العجَّاج(٣):

والله لولا النارُ أن نَصْلاها

ويقال أيضاً: صَلِيَ بالأمر: إذا قاسى حرَّه وشدَّته. قال الطُّهَوِي(٤):

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حينِ

واصطليتُ بالنار وتصلَّيتُ بها. قال أبو زُبَيد:

وقد تَصلَّيتُ حَرَّ حَرْبِهِمُ ... كمَا تَصلَّى المقْرورُ من قَرَسِ(٥)

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره: إذا كان شجاعاً لا يُطاق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ» هذا قسَم، والواو يتضمَّنه(٦). ويفسِّره حديث النبيِّ ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسّه النار إلا تَحِلَّة القسم»

---

(١) في الصحاح (صلا).

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وعامر والكسائي. السبعة ص٦٧٧، والتيسير ص٢٢١.

(٣) الصحاح (صلا)، ولم نقف عليه عند العجَّاج، ونسبه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٤٧٥ لرؤبة، ولم نقف عليه أيضاً، وذكر الصغاني في التكملة والذيل والصلة ٦/ ٣٥٣ أن الجوهريَّ نسبه للعجاج، والأزهريَّ لرؤبة، وكلاهما غلط، وإنما هو للزَّفَيان. اهـ. والزَّفَيان هو عطاء بن أسيد. معجم الشعراء للمرزباني ص١٥٩.

(٤) أمالي القالي ١/ ٢٦٠، وبهجة المجالس ٢/ ٥١٨، والطُّهَوي: ذو الخِرَق، واسمه: ذو الخرق بن قرط من بني طُهَيَّة. المؤتلف والمختلف ص١٧٢.

(٥) طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١١، ودرة الغواص ص٢٤٦، وأبو زبيد هو: حرملة بن المنذر الطائي، والمقرور: الذي أصابه القُرُّ، وهو البَرْد. والقرس: البرد الشديد. القاموس (قرر) و(قرس).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧.

قال الزهريُّ: كأنَّه يريد هذه الآية: «وإن مِنكم إلا وارِدها» ذكره أبو داود الطيالسي[(١)]، فقوله: «إلا تحِلة القسم» يخرج في التفسير المسند؛ لأنَّ القسَم المذكور في هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى: «وإن مِنكم إلا وارِدها»[(٢)]. وقد قيل: إنَّ المراد بالقسَم قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٥] والأوَّل أشهر، والمعنى متقارب.

الثانية: واختلف الناس في الورود، فقيل: الورود: الدخول، روي عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» أسنده أبو عمر في كتاب «التمهيد»[(٣)]. وهو قول ابن عباس[(٤)] وخالد بن معدان[(٥)] وابن جريج[(٦)] وغيرهم. وروي عن يونس أنَّه كان يقرأ: «وإن منكم إلا وارِدها» الورود: الدخول، على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن.

وفي «مسند الدارمي»[(٧)] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كَلَمْح البصر، ثم كالريح، ثم كحُضْر[(٨)] الفرس، ثم كالراكب المجِدّ في رَحْله، ثم كشدِّ الرَّجُلِ في مشيته».

---

(١) في مسنده (٢٤٢٣)، وهو عند أحمد (٧٢٦٥)، والبخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٢) الاستذكار ٨/ ٣٢٦.

(٣) ٦/ ٣٥٥ - ٣٥٦، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٥٢٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ١٥/ ٥٩٠ - ٥٩١.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٠٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦١، وهناد في الزهد (٢٣١)، والطبري ١٥/ ٥٩٢.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٩١، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود ﷺ.

(٧) برقم (٢٨١٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤١٢٨)، والترمذي (٣١٥٩) وقال: هذا حديث حسن. اهـ.

(٨) قال ابن الأثير في النهاية (حضر): الحُضْر بالضم: العَدْو، وأحضر يُحْضِر فهو محضر: إذا عدا.

وروي عن ابن عباس أنَّه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجيِّ: أما أنا وأنت فلابُدَّ أن نردها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنُّه ينجيك؛ لتكذيبك[١]. وقد أشفق[٢] كثيرٌ من العلماء من تحقُّق الورود والجهل بالصَّدَر، وقد بيَّنّاه في «التذكرة»[٣].

وقالت فرقةٌ: الورود: الممرُّ على الصراط. وروي عن ابنِ عباس[٤] وابنِ مسعود[٥] وكعب الأحبار[٦] والسدي[٧]، ورواه السدي عن ابنِ مسعود عن النبيِّ ﷺ[٨]، وقاله الحسن أيضاً، قال: ليس الورود الدخول، إنَّما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها. قال: فالورود أن يمرُّوا على الصراط[٩]. قال أبو بكر الأنباري: وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] قالوا: فلا يَدخل النار من ضمن اللهُ أن يبعده منها. وكان هؤلاء يقرؤون «ثَمَّ» بفتح الثاء[١٠] «نُنجي الَّذينَ اتَّقَوْا». واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأنَّ معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ عن العذاب فيها، والإحراق بها. قالوا: فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحسُّ منها وجعاً ولا ألماً، فهو مبعد عنها في الحقيقة. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ بضمِّ الثاء، فـ«ثم» تدلُّ على نجاء بعد الدخول.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ١٥/ ٥٩٠، ٥٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): اشتق.

(٣) ص٣٣٣ - ٣٣٦.

(٤) التمهيد ٦/ ٣٥٦، والاستذكار ٨/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩٥، والطبراني في الكبير (٩٠٨٤).

(٦) أخرجه أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١.

(٧) التمهيد ٦/ ٣٥٦، والاستذكار ٨/ ٣٢٧.

(٨) تقدم تخريجه قريباً.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤١ بنحوه.

(١٠) قرأ بها ابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص٨٦.

قلت: وفي «صحيح مسلم»(١): «ثم يُضرَبُ الجسر عل جهنَّم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون: اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم» قيل: يا رسول الله وما الجِسرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ فيه خَطَاطيفُ وكَلَاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَة يقال لها: السَّعْدان، فيمرُّ المؤمنون كطَرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوشٌ مُرْسَل، ومَكْدُوس في نار جهنم» الحديث. وبه احتج من قال: إنَّ الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمَّنته هذه الآية لا الدخول فيها.

وقالت فرقة: بل هو ورودُ إشراف واطِّلاع وقُرب. وذلك أنَّهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنَّم، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة. ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يؤمر بهم إلى النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] أي: أشرف عليه لا أنَّه دخله(٢). وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ(٣)

وروت حفصة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ من أهل بدر والحديبية» قالت: فقلت: يا رسولَ الله وأين قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «فَمَه ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾». أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر، قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول عند حفصة. الحديث(٤).

ورجَّح الزجَّاج(٥) هذا القولَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. وقال مجاهد(٦): وُرود المؤمنين النارَ: هو الحمى التي تصيب المؤمن

(١) برقم (١٨٣)، وهو عند البخاري (٧٤٣٩)، وأحمد (١١١٢٧).

(٢) التذكرة ص٣٣٥.

(٣) ديوان زهير ص١٣ - ١٤، قال شارحه: الجمام: ما اجتمع من الماء. وَضَعْنَ عِصِيَّ: أي أَقَمْنَ.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٧٠٤٢)، وهو عند مسلم (٢٤٩٦) بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤١.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩٧، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٥٨.

في دار الدنيا، وهي حظُّ المؤمن من النار فلا يردها.

روى أبو هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ عاد مريضاً من وَعك به، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَبشر فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: هي ناري أُسلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظَّه من النار» أسنده أبو عمر قال: حدَّثنا عبد الوارث بنُ سفيان، قال: حدَّثنا قاسم بنُ أَصبغ، قال: حدَّثنا محمد بن إسماعيل الصائغ، قال: حدَّثنا أبو أسامة، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ يزيد بنِ جابر، عن إسماعيل بنِ عبيد الله [عن أبي صالح] الأشعري، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ عاد مريضاً فذكره(١). وفي الحديث: «الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار»(٢).

وقالت فرقة: الورود: النظر إليها في القبر، فينجَّى منها الفائز، ويَصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى. واحتجوا بحديث ابن عمر: «إذا مات أحدكم عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ» الحديث(٣).

وروى وكيع، عن شعبةَ، عن عبد الله بنِ السائب، عن رجل، عن ابنِ عباس أنَّه قال في قول الله تعالى: «وإِن مِنكم إِلا وارِدها» قال: هذا خطابٌ للكفار. وروي عنه أنَّه كان يقرأ: «وإن مِنهم» ردًّا على الآيات التي قبلها في الكفار: قوله «فَوَرَبِّكَ

---

(١) التمهيد ٦/ ٣٥٩، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٩٦٧٦)، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٤٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ وما بين حاصرتين سقط من التمهيد والنسخ، واستدركناه من مصادر التخريج.

(٢) ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: عائشة وأخرجه عنها البزار (٧٦٥ كشف الأستار) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٦ : وإسناده حسن. اهـ

وأبو أمامة وأخرجه عنه أحمد (٢٢١٦٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢١٦)، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٥٩.

وأنس وأخرجه عنه الطبراني في الأوسط (٧٥٣٦).

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٧ : وكلها ضعيفة.

(٣) التذكرة ص٣٣٤، والحديث أخرجه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (٤٦٥٨).

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا. وَإِنْ مِنْهُمْ» وكذلك قرأ عكرمة وجماعة[١]. وعليها فلا شغب في هذه القراءة.

وقالت فرقة: المراد بـ «منكم» الكفَرة، والمعنى: قل لهم يا محمد[٢]. وهذا التأويل أيضاً سهل التناول، والكاف في «منكم» راجعة إلى الهاء في «لنحشرنهم والشياطين. ثم لنحضرنَّهم حول جهنَّم جثيًّا» فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] معناه: كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء[٣].

وقال الأكثر: المخاطب العالم كلُّه، ولابُدَّ من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف في الورود[٤]. وقد بينَّا أقوالَ العلماء فيه. وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فتمسّه النار»[٥] لأنَّ المسيسَ حقيقته في اللغة المماسَّة، إلا أنَّها تكون بَرْداً وسلاماً على المؤمنين، وينجون منها سالمين. قال خالد بنُ معدان: إذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّةَ قالوا: ألم يقل ربنا: إنَّا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً[٦].

قلت[٧]: وهذا القول يجمع شتات الأقوال، فإنَّ من وردها ولم تُؤذِه بلهبها وحرِّها، فقد أُبعد عنها ونُجِّي منها. نجَّانا الله تعالى منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً، وخرج منها غانماً.

---

(١) التذكرة ص٣٣٥، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٥/ ٥٩٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٦.
(٢) التذكرة ص٣٣٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧.
(٣) الاستذكار ٨/ ٣٢٨ - ٣٢٩ وعزاه إلى ابن الأنباري وغيره.
(٤) التذكرة ص٣٣٥، وما بعده منه.
(٥) سلف ص٤٩١ من هذا الجزء.
(٦) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٩١ - ١٩٢ بنحوه.
(٧) القائل هو القرطبي في التذكرة ص٣٣٥.

فإن قيل: فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا: لا نُطلِق هذا، ولكن نقول: إنَّ الخَلْق جميعاً يردونها كما دلَّ عليه حديث جابر أوَّل الباب، فالعصاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم، فبين الدخولَين بَوْنٌ.

وقال ابن الأنباري محتجًّا لمصحف عثمان وقراءة العامة: جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب، كما قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] فأبدل الكاف من الهاء[١]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»[٢].

الثالثة: الاستثناء في قوله عليه الصلاة والسلام: «إلا تَحِلَّة القَسَم» يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً: لكن تحلَّة القسَم، وهذا معروف في كلام العرب، والمعنى ألا تمسه النار أصلاً، وتمَّ الكلام هنا، ثم ابتدأ: «إلا تحلة القسم» أي: لكن تحلَّة القسَم لابُدَّ منها في قوله تعالى: «وإن مِنكم إلا وارِدها» وهو الجواز على الصراط، أو الرؤية، أو الدخول دخولَ سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يموت لأحدكم ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار» والجُنَّة: الوِقاية والستر، ومن وُقي النارَ وسُتر عنها فلن تمسَّه أصلاً، ولو مسَّته لما كان موقى[٣].

الرابعة: هذا الحديث يفسر الأوَّل؛ لأنَّ فيه ذكر الحِسْبة، ولذلك جعله مالك بإثره مفسِّراً له. ويقيد هذا الحديث الثاني أيضاً ما رواه البخاريُّ[٤] عن أبي هريرة،

---

(١) الاستذكار ٨/ ٣٢٨ - ٣٢٩، والتمهيد ٦/ ٣٥٧.

(٢) ١٠/ ٤٧٤.

(٣) التمهيد ٦/ ٣٦١ - ٣٦٢، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٣٥، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٦٦)، من حديث أبي النضر السلمي. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٨٧: أبو النضر هذا مجهول في الصحابة والتابعين. اهـ وأصل الحديث في الصحيحين كما مرَّ معنا.

(٤) معلَّقاً في صحيحه، قبل حديث (١٣٨١)، وأخرجه مسنداً برقم (١٢٥٠) بنحوه، وهو عند مسلم (٢٦٣٢): (١٥١)، وأحمد (٨٩١٦).

عن النبيِّ ﷺ: «من مات له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْث، كان له حجاباً من النار، أو دخل الجنَّة» فقوله عليه الصلاة والسلام: «لم يبلغوا الحِنْث»: ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم، ولم يبلغوا أنَّ يلزمهم حِنْث دليلٌ على أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، والله أعلم؛ لأنَّ الرحمةَ إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحَموا من أجل [من][1] ليس بمرحوم. وهذا إجماع من العلماء في أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، ولم يخالف في ذلك إلا فرقةٌ شذَّت من الجَبْريَّة فجعلتهم في المشيئة، وهو قول مهجور، مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغَلَط، إلى ما روي عن النبيِّ ﷺ من أخبار الآحاد الثقات العدول، وأنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقيُّ من شقي في بطن أمِّه، والسعيد من سعد في بطن أمِّه، وأنَّ الملَك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه» الحديث مخصوص، وأنَّ من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد في بطن أمِّه ولم يَشْقَ؛ بدليل الأحاديث والإجماع[2].

وكذلك قوله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «يا عائشة إنَّ اللهَ خَلَق الجنَّة وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخَلَق النار وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم» ساقط ضعيف، مردود بالإجماع والآثار، وطلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يُحتَجُّ به، وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرَّج عليه[3].

وقد روى شعبة، عن معاوية بنِ قُرَّة بن إياس المزني، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ أنَّ

---

(١) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، واستدركناه من التمهيد ٦/ ٣٤٨ - ٣٤٩ والكلام منه.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٤٩ - ٣٥٠، والحديث بشطره الأول أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٠٥٧)، والبزار (٢١٥٠ كشف الأستار) عن أبي هريرة مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣: رواه البزار والطبراني في الصغير، ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ. وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٤٠) عن ابن مسعود من قوله، والشطر الثاني عند البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأحمد (٣٦٢٤)، وينظر كشف الخفاء ١/ ٥٤٨.

(٣) التمهيد ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١، والحديث أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأحمد (٢٤١٣٢)، وطلحة بن يحيى مختلف فيه، وقد انتقى له مسلم هذا الحديث. تهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٤.

رجلاً من الأنصار مات له ابن صغير فَوَجد عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «أما يَسرُّك ألا تأتي باباً من أبواب الجنَّة إلا وجدتَه يَستفتح لك» فقالوا: يا رسول الله أله خاصَّة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة» قال أبو عمر[١]: هذا حديث ثابت صحيح، يعني ما ذكرناه مع إجماع الجمهور، وهو يُعارِض حديث [طلحة بن] يحيى ويَدْفعه. قال أبو عمر[٢]: والوجه عندي في هذا الحديث وما أَشبهه من الآثار أنَّها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، وصبر واحتسب في مصيبته، فإنَّ الخطاب لم يتوجَّه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأَغلب من أمرهم ما وصفنا، وهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وذكر النقَّاش عن بعضهم أنَّه قال: نَسَخَ قولَه تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نَسْخٍ[٣]. وقد بينا أنَّه إذا لم تمسَّه النار فقد أبعد عنها. وفي الخبر: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[٤].

الخامسة: قوله تعالى: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» الحَتْم: إيجاب القضاء، أي: كان ذلك حتماً. «مقضيًّا» أي: قضاه الله تعالى عليكم. وقال ابن مسعود: أي: قسماً واجباً[٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي: نخلصهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا مما يدل على أنَّ الورود الدخول؛ لأنَّه لم يقل: وندخل الظالمين. وقد مضى

(١) في التمهيد ٦/٣٤٩ - ٣٥١ ، وما قبله منه، وما بين حاصرتين ليست في النسخ واستدركناه من التمهيد، والحديث أخرجه أحمد (١٥٥٩٥)، والنسائي في المجتبى ٤/٢٢ - ٢٣ بنحوه.

(٢) في التمهيد ٦/ ٣٦٢ .

(٣) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/٢٥٨ (٦٦٨)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٣٢٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وقال: تفرد به سليم بن منصور، وهو منكر.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/٦٠٦ .

هذا المعنى مستوفًى.

والمذهب أنَّ صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنَّه يُعاقَب بقَدْر ذنبه ثم ينجو. وقالت المرجئة: لا يدخل. وقالت الوعيديَّة: يُخلَّد. وقد مضى بيان هذا في غير موضع.

وقرأ عاصم الجحدريُّ ومعاوية بن قرَّة: «ثُمَّ نُنْجِي» مخفَّفة من أنجى. وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي. وثقَّل الباقون. وقرأ ابن أبي ليلى: «ثَمَّهْ» بفتح الثاء، أي: هناك. و«ثَمَّ» ظرف إلا أنَّه مبنيٌّ؛ لأنَّه غيرُ محصَّل فبُنِيَ كما بُنِيَ ذا، والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاءً[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: على الكفار الذين سبق ذِكْرهم في قوله تعالى: «أئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا». وقال فيهم: «ونذر الظالمين فِيها جِثِياً» أي: هؤلاء إذا قُرِئَ عليهم القرآن تَعزَّزوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا ـ إن كنَّا على باطل ـ أكثرَ أموالاً وأعزَّ نفراً. وغَرَضهم إدخال الشُّبْهة على المستضعفين، وإيهامهم أنَّ من كثر ماله دلَّ ذلك على أنَّه المحقُّ في دينه، وكأنَّهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنيًّا، ولم يعلموا أنَّ الله تعالى نَحَّى أولياءَه عن الاغترار بالدنيا، وفَرْطِ الميل إليها.

و«بيناتٍ» معناه: مرتَّلات الألفاظ، ملخَّصة المعاني، مبيَّنات المقاصد، إما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٦، وفيه أن عاصماً الجحدي ومعاوية بن قرة قرأا: بفتح الثاء، وقراءة الكسائي في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣١٨، وقراءة ابن أبي ليلى في القراءات الشاذة ص٨٦، وينظر البحر المحيط ٦/ ٢١٠.

محكمات، أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الإعجاز تُحدِّي بها فلم يُقدَر على معارضتها. أو حججاً وبراهين[١]. والوجه أن تكون حالاً مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] لأنَّ آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججاً.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركي قريش النضرَ بنَ الحارث وأصحابه ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني فقراءَ أصحابِ النبيِّ ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خُشونة، وفي ثيابهم رَثاثة، وكان المشركون يرجِّلون شعورَهم، ويدهنون رؤوسهم، ويلبسون خيرَ ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عبَّاد: «مُقاماً» بضمِّ الميم، وهو موضع الإقامة. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة. الباقون «مَقاماً» بالفتح، أي: منزلاً ومسكناً[٢]. وقيل: المقام: الموضع الذي يُقام فيه بالأمور الجليلة، أي: أيُّ الفريقين أكثر جاهاً وأنصاراً.

«وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» أي: مجلساً، عن ابن عباس[٣]. وعنه أيضاً: المنظر، وهو المجلس في اللغة وهو النادي. ومنه دار الندوة؛ لأنَّ المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم[٤]. وناداه: جالسه في النادي. قال:

أُنادي به آلَ الوليد وجعفراً

والنَّدِيُّ على فعيل: مجلس القوم ومتحدَّثهم، وكذلك النَّدْوة والنَّادي والمُنْتَدى[٥]، فإنْ تفرَّق القوم فليس بنديٍّ، قاله الجوهريُّ.

---

(١) تفسير الرازي ٢١/٢٤٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/٢٠٧، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وينظر حجة القراءات للفارسي ٥/٢٠٥، والبحر المحيط ٦/٢١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/٦٠٨.

(٤) غريب القرآن ص٢٧٥.

(٥) في النسخ: والمتندى، والمثبت من الصحاح (ندي) والكلام منه ونسب البيت فيه إلى المرقش.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمّة وجماعة. ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أي: متاعاً كثيراً، قال:

وفَـرْعٍ يَـزِيـنُ الـمَـتْـنَ أسـودَ فـاحِـمٍ أَثِـيـثٍ كقِنْوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ[١]

والأثاث: متاع البيت. وقيل: هو ما جدَّ من الفَرْش، والخُرْثيُّ: ما لُبس منها، وأنشد الحسن بن عليّ الطوسي فقال:

تـقـادم الـعـهـدُ مـن أمّ الـولـيـد بـنـا دهـراً وصـار أثـاثُ الـبـيـت خُرْثِـيًّـا[٢]

وقال ابن عباس: هيئة. مقاتل: ثياباً[٣].

«وَرِئْياً» أي: منظراً حسناً[٤]. وفيه خمس قراءات: قرأ أهل المدينة: «ورِيًّا» بغير همز. وقرأ أهل الكوفة: «ورِئياً» بالهمز. وحكى يعقوب أنَّ طلحة قرأ: «وَرِياً» بياء واحدة مخفَّفة. وروى سفيان، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: «هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وزِيًّا» بالزاي، فهذه أربع قراءات. قال أبو إسحاق[٥]: ويجوز «هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورِيْئاً» بياء بعدها همزة.

النحّاس[٦]: وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة، وفيها تقديران: أحدهما: أن تكون من رأيت، ثم خفِّفت الهمزة فأُبدل منها ياء، وأُدغمت الياءُ في الياء، وكان هذا حسناً؛ لتتفق رؤوس الآيات؛ لأنَّها غيرُ مهموزات. وعلى هذا قال ابن عباس: الرئي: المنظر، فالمعنى: هم أحسن أثاثاً ولباساً.

---

(١) القائل امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٣٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٦١٢ وعزاه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٦ والكلام منه، وقراءة أهل الكوفة والمدينة في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وقراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٣، وقراءة ابن عباس في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦ - ٢٧.

والوجه الثاني: أنَّ جلودَهم مرتوية من النِّعمة، فلا يجوز الهمز على هذا. وفي رواية ورش عن نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر: «ورئياً» بالهمز تكون على الوجه الأوَّل، وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل. وقراءة طلحة بن مُصَرِّف: «ورِياً» بياء واحدة مخفَّفة، أحسبها غلطاً. وقد زعم بعضُ النحويين أنَّه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزةُ ياء، ثم حُذفت إحدى اليائين. المهدوي: ويجوز أن يكون: «رِيْئاً» فقلبت ياءً، فصارت ريياً، ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت. وقد قرأ بعضهم «ورياً» على القلب، وهي القراءة الخامسة. وحكى سيبويه رَاءَ بمعنى رأى.

الجوهريُّ[1]: من هَمَزه جعله من المنظر من رَأَيْتُ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة. وأنشد أبو عبيدة لمحمَّد بنِ نمير الثقفي فقال:

أشاقَتْك الظعائنُ يوم بانوا بذِي الرِّئي الجميلِ من الأثاث

ومن لم يهمز إمَّا أن يكون على تخفيف الهمز، أو يكون من رَوِيَتْ ألوانهم وجلودهم رِيًّا، أي: امتلأتْ وحسُنت.

وأما قراءة ابن عباس وأبيِّ بنِ كعب وسعيد بنِ جبير والأعسم المكيِّ ويزيد البربري: «وزيًّا» بالزاي، فهو الهيئة والحُسن. ويجوز أن يكون من زَوَيتُ، أي: جمعت، فيكون أصلها زِوْياً، فقلبت الواو ياء[2]. ومنه قول النبيِّ ﷺ: «زُويت لي الأرض» أي: جمعت[3]. أي: فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فليعش هؤلاء ما شاؤوا، فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا، أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

---

(١) في الصحاح (رأى)، والبيت الآتي سلف ١٢/ ٣٩٣ .

(٢) المحتسب ٢/ ٤٤ - ٤٥ دون أن ينسب القراءة لابن عباس، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩ .

(٣) الحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٣٩٥٢)، والطبراني في الأوسط (٨٣٩٢)، وابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ١٩٨ عن ثوبان ﷺ، وهو عند أحمد (٢٢٣٩٥)، ومسلم (١٩٢٠) بلفظ: إن الله زوى لي الأرض... الحديث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: في الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فليدعه في طغيان جَهْله وكفره، فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي: من كان في الضلالة مدَّه الرحمنُ مدًّا حتى يطول اغترارُه فيكون ذلك أشدَّ لعقابه، نظيره: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠][(١)] ومثله كثير، أي: فليعش ما شاء، وليوسِّع لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب[(٢)]. وهذا غاية في التهديد والوعيد. وقيل: هذا دعاء أُمِرَ به النبي ﷺ، تقول: من سرق مالي، فليقطع اللهُ تعالى يدَه، فهو دعاء على السارق. وهو جواب الشرط. وعلى هذا فليس قوله: «فليمدد» خبراً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال: «رأوا» لأنَّ لفظ «من» يصلح للواحد والجمع. و«إذا» مع الماضي بمعنى المستقبل، أي: حتى يروا ما يوعدون. والعذاب هنا إمَّا أن يكون بنَصْر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر، وإمَّا أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار[(٣)]. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: تنكشف حينئذٍ الحقائق. وهذا ردٌّ لقولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً».

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ أي: ويثبِّت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم في النُّصرة، وينزِّل من الآيات ما يكون سببَ زيادة اليقين، مجازاةً لهم. وقيل: يزيدهم هدًى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرُهم، قال معناه الكلبيُّ ومقاتل. ويحتمل ثالثاً: أي: «ويزيد الله الذين اهتدوا» إلى الطاعة «هدًى» إلى الجنَّة[(٤)]. والمعنى متقارب. وقد تقدَّم القول في معنى زيادة الأعمال

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣١ بنحوه.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧ .
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٢٥٩ بنحوه.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٧ .

وزيادة الإيمان والهدى في «آل عمران»[١] وغيرها.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تقدَّم في «الكهف» القول فيها[٢]. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا. و«الْمَرَدّ» مصدر كالرَّدِّ، أي: وخير ردًّا على عاملها بالثواب، يقال: هذا أَرَدُّ عليك، أي: أنفع لك[٣]. وقيل: «خير مردًّا» أي: مرجعاً، فكلُّ أحد يردُّ إلى عمله الذي عمله.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ روى الأئمة ـ واللفظ لمسلم ـ عن خبَّاب قال: كان لي على العاص بنِ وائل دَيْنٌ، فأتيتُه أتقاضاه، فقال لي: لن أَقضيَك حتى تَكْفُر بمحمَّد. قال: فقلت له: لن أكفرَ به حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإنِّي لمبعوثٌ من بعد الموت؟! فسوف أقضيكَ إذا رَجعتُ إلى مال وولد. قال وكيع: كذا قال الأعمش، فنزلت هذه الآية: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً» إلى قوله: «ويأتينا فرداً». في رواية قال: كنت قَيْناً في الجاهلية فعملت للعاص بنِ وائل عملاً فأتيتُه أتقاضاه. خرَّجه البخاريُّ أيضاً[٤].

وقال الكلبيُّ ومقاتل: كان خبَّاب قَيْناً، فصاغ للعاص حَلْياً ثم تقاضاه أجرتَه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أَقضيك. فقال خبَّاب: لست بمفارقك حتى تقضيني، فقال العاص: يا خبَّاب، ما لَكَ؟! ما كنت هكذا، وإن كنت لحسن الطلب. فقال

---

(١) ٥/ ٤٢٣.

(٢) عند الآية (٤٦).

(٣) الوسيط ٣/ ١٩٤.

(٤) البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، والواحدي في أسباب النزول ص٣١١، والقَيْن: الحداد والصائغ. النهاية (قين).

خبَّاب: إنِّي كنت على دينك، فأمَّا اليوم فأنا على دين الإسلام مفارقٌ لدينك. قال: أَوَلستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهباً وفضة وحريراً؟ قال خبَّاب: بلى. قال: فأخِّرني حتى أقضيك في الجنَّة ـ استهزاء ـ فواللهِ لئن كان ما تقول حقًّا إنِّي لأقضيك فيها، فواللهِ لا تكون أنت يا خبَّاب وأصحابك أولى بها مني، فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا» يعني: العاصَ بنَ وائل، الآيات[1].

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ؟!. وقال مجاهد: أَعَلِمَ الغيبَ حتى يعلم أفي الجنَّة هو أم لا؟![2] ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال قتادة والثوريُّ: أي: عملاً صالحاً[3]. وقيل: هو التوحيد. وقيل: هو من الوعد[4]. وقال الكلبيُّ: عاهد الله تعالى أن يدخله الجنَّة[5].

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه، أي: لم يكن ذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتَّخذ عند الرحمن عهداً[6]، وتمَّ الكلام عند قوله: «كَلَّا». وقال الحسن: إنَّ الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة[7]. والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّه مدوَّن في الصِّحاح.

وقرأ حمزة والكسائيُّ «وَوُلْداً» بضمِّ الواو، والباقون بفتحها[8]. واختلف في الضمِّ والفتح على وجهين: أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد، يقال: وَلَد ووُلْد كما يقال: عَدَم وعُدْم. وقال الحارث بن حِلِّزة:

ولقد رأيتُ معاشراً قد ثَمَّرُوا مَالاً ووُلْدَا[9]

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣١٢ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ .
(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢١ عن قتادة.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢ بنحوه.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ .
(٦) الوسيط ٣/ ١٩٤ .
(٧) زاد المسير ٥/ ٢٦٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٤٩ .
(٨) السبعة ص٤١٢ ، والتيسير ص١٥٠ .
(٩) النكت و العيون ٣/ ٣٨٧ ، والبيت ذكره أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٣ ، والطبري ١٥/ ٦٢٠ .

وقال آخر:

فليتَ فلاناً كان في بطن أُمِّه   وليت فلاناً كان وُلْدَ حِمارِ[(١)]

والثاني: أنَّ قيساً تجعل الوُلد بالضمِّ جمعاً، والولَد بالفتح واحداً. قال الماورديُّ[(٢)]: وفي قوله تعالى: «لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً» وجهان: أحدهما: أنَّه أراد في الجنَّة استهزاءً بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته، قاله الكلبيُّ. الثاني: أنَّه أراد في الدنيا، وهو قول الجمهور، وفيه وجهان محتملان: أحدهما: إن أقمتُ على دين آبائي وعبادة آلهتي لأُوتينَّ مالاً وولداً. الثاني: ولو كنت على باطل لَمَا أُوتيت مالاً وولداً.

قلت: قول الكلبيِّ أشبه بظاهر الأحاديث، بل نصُّها يدلُّ على ذلك، قال مسروق: سمعت خبَّاب بن الأرتِّ يقول: جئت العاصيَ بنَ وائل السَّهْميَّ أتقاضاه حقًّا لي عنده. فقال: لا أُعطيك حتى تكفُر بمحمَّد. فقلت: لا حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإنِّي لميِّت ثم مبعوث؟!. فقلت: نعم. فقال: إنَّ لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية، قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[(٣)].

قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» ألفه ألفُ استفهام لمجِيء «أم» بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله: أأطلع، فحذفت الألف الثانية؛ لأنَّها ألف وصل[(٤)]. فإن قيل: فهلَّا أتوا بمَدَّة بعد الألف فقالوا: آطلع كما قالوا: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل:٥٩] ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام:١٤٣] قيل له: كان الأصل في هذا «أألله»، «أالذكرين» فأبدلوا من

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٣، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٦٥، والطبري ١٥/ ٦٢٠ دون نسبة، ونسبه التبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ١/ ٥٨، والعكبري في المشرف المعلم ٢/ ٨٤١ لنافع ابن صفار الأسلمي يهجو الأخطل، وجاء في المحتسب: زياداً، بدل: فلاناً، في الموضعين.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٨، وما قبله منه.

(٣) الترمذي (٣١٦٢)، وسلف تمام تخريجه قريباً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧.

الألف الثانية مدَّة ليفرِّقوا بين الاستفهام والخبر، وذلك أنَّهم لو قالوا: الله خير، بلا مدٍّ، لالتبسَ الاستفهام بالخبر[١]، ولم يحتاجوا إلى هذه المدَّة في قوله: «أطَّلع» لأنَّ ألف الاستفهام مفتوحة، وألف الخبر مكسورة، وذلك أنَّك تقول في الاستفهام: أطَّلع؟ أفترى؟ أصطفى؟ أستغفرت؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر: اِطلع، اِفترى، اِصطفى، اِستغفرت لهم، بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر، ولم يحتاجوا إلى فرق آخر.

قوله تعالى: «كَلَّا» ليس في النصف الأوَّل ذكر «كلّا» وإنَّما جاء ذكره في النصف الثاني[٢]. وهو يكون بمعنيين: أحدهما: بمعنى حقًّا. والثاني: بمعنى «لا». فإذا كانت بمعنى حقًّا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ «كلا» أي: حقًّا. وإذا كانت بمعنى «لا»، كان الوقف على «كلا» جائزاً، كما في هذه الآية؛ لأنَّ المعنى: لا ليس الأمر كذا. ويجوز أن تقف على قوله: «عَهْداً» وتبتدئ «كلا» أي: حقًّا «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ». وكذا قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يجوز الوقف على «كلا» وعلى «تركت». وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ١٤-١٥] الوقف على «كلا» لأنَّ المعنى: لا، وليس الأمر كما تظن ﴿فَٱذْهَبَا﴾. فليس للحقِّ في هذا المعنى موضع[٣].

وقال الفرَّاء[٤]: «كلا» بمنزلة سوف؛ لأنَّها صلة، وهي حرف رَدٍّ، فكأنَّها «نعم» و«لا» في الاكتفاء. قال: وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها، كقولك: كلّا وربِّ الكعبة، لا تقف على كلَّا؛ لأنَّه بمنزلة: إي وربِّ الكعبة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢] فالوقف على «كلّا» قبيح؛ لأنَّه صلة لليمين. وكان أبو جعفر محمد ابن سعدان يقول في «كلا» مثل قولِ الفرَّاء. وقال الأخفش: معنى «كلا» الردع

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٣٤٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٤) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ١٦.

والزجر. وقال أبو بكر بن الأنباري[١]: وسمعت أبا العباس يقول: لا يُوقَف على «كلا» في جميع القرآن؛ لأنَّها جواب، والفائدة تقع فيما بعدها. والقول الأول هو قول أهل التفسير.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: سنزيده عذاباً فوق عذاب[٢]. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد. وقال ابن عباس وغيره: أي: نرثه المالَ والولدَ بعد إهلاكنا إيَّاه. وقيل: نحرمه ما تمنَّاه في الآخرة من مال وولد[٣]، ونجعله لغيره من المسلمين. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: منفرداً لا مالَ له ولا ولد ولا عشيرة تنصره.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعني: مشركي قريش. و«عِزًّا» معناه: أعواناً ومنَعة، يعني: أولاداً. والعِزُّ: المطر الجُودُ[٤] أيضاً، قاله الهرويُّ[٥]. وظاهر الكلام أنَّ «عزًّا» راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله. ووحِّد؛ لأنَّه بمعنى المصدر، أي: لينالوا بها العزَّ ويمتنعون بها من عذاب الله، فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنُّوا وتوهَّموا، بل يكفرون بعبادتهم، أي: ينكرون أنَّهم عبدوا الأصنام، أو تجحد الآلهةُ عبادةَ المشركين لها، كما قال: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]. وذلك أنَّ الأصنامَ جمادات لا تعلم العبادة[٦].

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥.

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٥.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٨، دون قول ابن عباس وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٣، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٦١.

(٤) المطرُ الجود: أي المطر الغزير.

(٥) وينظر الصحاح (عزز).

(٦) زاد المسير ٥/ ٢٦٢.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم. عن مجاهد[١]، والضحَّاك: يكونون لهم أعداء[٢]. ابن زيد: يكونون عليهم بلاء[٣]. فتحشر آلهتهم، وتركَّب لهم عقول فتنطق، وتقول: يا ربِّ عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك.

و«كلا» هنا يحتمل أن تكون بمعنى «لا»، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا، أي: حقًّا «سيكفرون بِعِبادتِهِم». وقرأ أبو نَهِيك: «كَلًّا سيكفرون» بالتنوين[٤]. وروي عنه مع ذلك ضمُّ الكاف وفتحُها[٥].

قال المهدويُّ: «كلا» ردع وزَجْر وتنبيه وردٌّ لكلامٍ متقدِّم، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق:٦] فلا يوقف عليها على هذا، ويوقف عليها في المعنى الأول، فإن صلح فيها المعنَيان جميعاً، جاز الوقف عليها والابتداء بها. فمن نوَّن «كلا» من قوله: «كلًّا سيكفرون بِعِبادتِهِم» مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ، ونصبه بفعل مضمَر، والمعنى: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتقادُ كَلًّا، يعني: اتخاذَهم الآلهةَ «لِيكونوا لهم عِزًّا» فيوقف على هذا على «عِزًّا» وعلى «كَلًّا». وكذلك في قراءة الجماعة؛ لأنَّها تصلح للردِّ لما قبلها، والتحقيق لما بعدها[٦]. ومن روى ضمَّ الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضاً بفعل مضمَر، كأنَّه قال: سيكفرون «كُلًّا سيكفرون بِعِبادتهِم»[٧] يعني: الآلهة.

قلت: فتحصَّل في «كلَّا» أربعة معانٍ: التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقًّا، والنفي، والتنبيه، وصلة للقسَم، ولا يوقف منها إلا على الأوَّل. وقال الكسائيُّ: «لا»

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٠ - ٣٩١، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٤.
(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٥.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٩.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.
(٦) المحتسب ٢/ ٤٥، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ وما بعدها، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٦٧ بنحوه.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

تنفي فحسب، و«كلّا» تنفي شيئاً وتُثبِت شيئاً، فإذا قيل: أكلتَ تمراً، قلت: كلَّا إنِّي أكلتُ عسلاً لا تمراً، ففي هذه الكلمة نفيُ ما قبلها، وتحقُّق ما بعدها. والضِّدُّ يكون واحداً ويكون جمعاً، كالعدوِّ والرسول. وقيل: وقع الضِّدُّ موقع المصدر، أي: ويكونون عليهم عوناً، فلهذا لم يجمع، وهذا في مقابلة قوله: «لِيكونوا لهم عِزاً» والعِزُّ مصدر، فكذلك ما وقع في مقابلته. ثم قيل: الآية في عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل، جرياً على توهُّم الكفرة. وقيل: فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجنَّ أو الشياطين، فالله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعلى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: سلَّطناهم عليهم بالإغواء، وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وقيل: «أرسلنا» أي: خلَّينا، يقال: أرسلت البعير، أي: خلَّيته. أي: خلَّينا الشياطين وإيَّاهم ولم نَعصِمْهم من القبول منهم[١]. الزجَّاج[٢]: قيَّضنا.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية. وعنه تغريهم إغراءً بالشَّرِّ: امْضِ امْضِ في هذا الأمر، حتى تُوقعَهم في النار. حكى الأوَّل الثعلبيُّ، والثاني الماورديُّ[٣]، والمعنى واحد. الضحَّاك: تغويهم إغواء[٤]. مجاهد:

---

(١) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٥ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٩ ، وذكر قول ابن عباس الأول الواحدي في الوسيط ٣/ ١٩٥ ، وأخرج الثاني الطبري ١٥/ ٦٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٧ ، بلفظ: تُغريهم إغراء.

تُشليهم إشلاءً[١].

وأصله الحركة والغَلَيان، ومنه الخبر المرويُّ عن النبيِّ ﷺ قام إلى الصلاة ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاء. وائْتَزَّتِ القِدْر ائْتِزازاً: اشتدَّ غليانها. والأَزُّ: التَّهييج والإغراء، قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» أي: تُغْريهم على المعاصي. والأَزُّ: الاختلاط. وقد أَزَزْتُ الشيءَ أَؤُزُّهُ أَزًّا، أي: ضممتُ بعضه إلى بعض. قاله الجوهريُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تطلب العذابَ لهم. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال الكلبيُّ: آجالهم، يعني الأيَّام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أَجَلِ العذاب[٣]. وقال الضحَّاك: الأنفاس. ابن عباس: أي: نعدُّ أنفاسَهم في الدنيا كما نعدُّ سنيهم[٤]. وقيل: الخطوات. وقيل: اللَّذات. وقيل: اللحظات. وقيل: الساعات. وقال قطرب: نعدُّ أعمالَهم عدًّا[٥]. وقيل: لا تعجل عليهم فإنَّما نؤخِّرهم ليزدادوا إثماً.

روي أنَّ المأمونَ قرأ هذه السورة، فمرَّ بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء، فأشار برأسه إلى ابنِ السماك أن يَعِظَه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد. وقيل في هذا المعنى:

حياتُك أنفاسٌ تُعدُّ فكلَّما ... مَضَى نَفَسٌ منك انتقصت به جُزْءا
يميتك ما يحييك في كلِّ ليلة ... ويَحدُوك حَادٍ ما يُريد به الهُزءا[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٧ ونسبه لابن زيد.

(٢) في الصحاح (أزز)، والحديث أخرجه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٣، وفي الكبرى (٥٤٩) عن عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩، والنكت والعيون ٣/ ٣٨٩ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٨.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٦٣.

(٦) القائل علي بن أبي طالب، والبيتان في ديوانه ص١١، وذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس =

ويقال: إنَّ أنفاسَ ابنِ آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس؛ اثنا عشر ألف نفس في اليوم، واثنا عشر ألفاً في الليلة ـ والله أعلم ـ فهي تعدُّ وتحصى إحصاءً، ولها عدد معلوم، وليس لها مدد، فما أسرع ما تَنفد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ في الكلام حذف، أي: إلى جنَّة الرحمن، ودار كرامته[1]، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وكما في الخبر: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله»[2].

والوفد: اسمٌ للوافدين، كما يقال: صَوْم وفَطْر وزَوْر، فهو جمع الوافد، مثل رَكْب وراكب، وصَحْب وصاحب، وهو من وَفَد يَفِدُ وَفْداً ووفوداً ووِفادة، إذا خرج إلى مَلِكٍ في فتحٍ أو أمر خطير[3]. الجوهريُّ[4]: يقال: وفَد فلانٌ على الأمير، أي: وَرَدَ رسولاً، فهو وافد، والجمع وَفْد، مثل صاحب وصَحْب، وجمع الوَفْد: أوفاد ووفود، والاسم: الوِفادة، وأوفَدْته أنا إلى الأمير، أي: أرسلته.

وفي التفسير: «وفداً» أي: ركباناً على نجائب طاعتهم[5]. وهذا لأنَّ الوافدَ في الغالب يكون راكباً، والوفد: الركبان، ووحِّد؛ لأنَّه مصدر. ابن جريج: وفداً على النجائب[6].

وقال عمرو بنُ قيس الْمُلَائي: إنَّ المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسنِ صورة وأطيبِ رِيْح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنَّ الله قد طيَّب

= ٣/ ٣٣٩ ونسبها إلى محمود الوراق، وابن الجوزي في المدهش ص٤٥٣ ولم ينسبها، وجاءت رواية البيت الثاني في الديوان هكذا:

ويحييك ما يغنيك في كل حالة ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

(١) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٢) سلف ٣/ ٢٧٠ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٤) في الصحاح (وفد).

(٥) لطائف الإشارات ٢/ ١٥١ .

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٠ - ٦٣١ .

رِيْحك وحسَّن صورتك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، طالما ركبتُك في الدنيا، اركبني اليوم، وتلا: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً». وإنَّ الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن رِيْح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنَّ الله قد قبَّح صورتك وأنتنَ رِيْحك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السَّيِّئ، طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك. وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. ولا يصحُّ من قِبل إسناده، قاله ابن العربي في «سراج المريدين»(١)، وذكَر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بنُ عبد الكريم القشيريُّ، عن ابن عباس بلفظه ومعناه.

وقال أيضاً عن ابن عباس: من كان يحبُّ الخيلَ وفَد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تَبول، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزَّبرجد الأخضر، ومن الدُّرِّ الأبيض، وسُروجها من السندس والإستبرق، ومن كان يحبُّ ركوبَ الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول، أزمَّتها من الياقوت والزَّبرجد، ومن كان يحبُّ ركوب السفن، فعلى سفن من ياقوت، قد أَمِنُوا الغرق، وأَمِنُوا الأهوال.

وقال أيضاً عن عليٍّ ﷺ: ولما نزلت الآية قال عليٌّ ﷺ: يا رسولَ الله! إني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أَرَ وفداً إلا ركباناً، فما وَفْد الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّهم لا يُحشَرون على أقدامهم ولا يُساقون سَوقاً، ولكنَّهم يؤتون بنُوق من نوق الجنَّة، لم ينظر الخلائق إلى مِثْلها، رحالها الذَّهب، وزمامها الزَّبرجد، فيركبونها حتى يقرعوا بابَ الجنَّة»(٢). ولفظ الثعلبيِّ في هذا الخبر عن عليٍّ أبينُ.

وقال عليٌّ: لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله! إنِّي رأيت الملوك

(١) التذكرة ص١٨٩ - ١٩٠، والخبر أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٠ مقتصراً على الطرف الأول، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ٤/ ١٢٨١ (٧٢٢٩)، والطبري ٩/ ٢١٧ عن السدي بنحوه.

(٢) التذكرة ص٢٠١، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٩، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٥٣)، والطبري ١٥/ ٦٢٩، والحاكم ٤/ ٥٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وردَّه الذهبي بقوله: لا.

ووفودَهم، فلم أَرَ وفداً إلا ركباناً. قال: «يا عليّ إذا كان المنصرَف من بين يدي الله تعالى تلقَّت الملائكة المؤمنين بنُوق بِيْض رحالها، وأزمَّتها الذهب، على كلٍّ مركب حُلَّة لا تساويها الدنيا، فيلبس كلُّ مؤمن حُلَّة، ثم تسير بهم مراكبهم فتهوي بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنَّة، فتتلقاهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

قلت: وهذا الخبر ينصُّ على أنَّهم لا يَركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأمَّا إذا خرجوا من القبور فمشاةً حُفاةً عُراةً غُرلاً إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنَّكم تُحشَرون إلى الله ـ تعالى ـ حُفَاةً عُراة غُرْلاً» الحديث خرَّجه البخاريُّ ومسلم[1]، وسيأتي بكماله في سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى، وتقدَّم في «آل عمران» من حديث عبد الله بنِ أنيس بمعناه، والحمد لله تعالى[2]. ولا يَبْعُد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابنِ عباس مخصوصاً، والله أعلم.

وقال أبو هريرة: «وفداً»: على الإبل[3]. ابن عباس: ركباناً يؤتون بنوق من الجنَّة، عليها رحائل من الذهب، وسُروجها وأزمَّتها من الزَّبرجد فيحشرون عليها.

وقال عليٌّ: ما يُحشَرون واللهِ على أرجلهم، ولكن على نُوقٍ رحالها من ذهب، ونُجُبٍ سروجها يواقيت، إن هَمُّوا بها سارت، وإن حركوها طارت[4]. وقيل: يَفدُون على ما يحبُّون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدَّم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنَّما قال: «وفداً» لأنَّ من شأن الوفود عند العرب أن يَقدموا بالبِشارات، وينتظرون الجوائز، فالمتَّقون ينتظرون العطاءَ والثواب.

---

(١) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ له.

(٢) لم نقف عليه في سورة المؤمنين، وتقدم في آل عمران ٥/ ٤١٣ مختصراً، وفي المائدة ٨/ ٣٠٤ بتمامه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٩، والطبري ١٥/ ٦٢٩ - ٦٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السَّوق: الحثُّ على السير. و«وِرداً»: عِطاشاً، قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن[1]. والأخفش والفرَّاء[2] وابن الأعرابي: حفاةً مشاةً. وقيل: أفواجاً. وقال الأزهريُّ[3]: أي: مشاةً عِطاشاً، كالإبل تَرِدُ الماء، فيقال: جاء وِرد بني فلان. القشيريُّ: وقوله «وِرداً» يدلُّ على العطش؛ لأنَّ الماءَ إنَّما يورد في الغالب للعطش. وفي «التفسير»: مشاةً عِطاشاً[4]، تتقطَّع أعناقهم من العطش[5]، وإذا كان سَوق المجرمين إلى النار، فحشر المتقين إلى الجنة.

وقيل: «وِرداً» أي: الورود، كقولك: جئتك إكراماً لك، أي: لإكرامك، أي: نسوقهم لورود النار.

قلت: ولا تناقضَ بين هذه الأقوال، فيساقون عِطاشاً حفاةً مشاةً أفواجاً. قال ابنُ عرفة: الوِرد: القوم يَرِدُون الماء، فسُمِّي العطاش ورداً؛ لطلبهم ورود الماء؛ كما تقول: قوم صَوْم، أي: صيام، وقوم زَوْر، أي: زوَّار، فهو اسم على لفظ المصدر، واحدهم وارد.

والوِرد أيضاً: الجماعة التي تَرِدُ الماءَ من طير وإبل. والورد: الماء الذي يوردُ[6]. وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء.

والوِرْد: الجزء. يقال: قرأت وِردي. والوِرد: يوم الحمَّى إذا أخذت صاحبها لوقت ـ فظاهره لفظ مشترك ـ وقال الشاعر يصف قَلِيباً:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٦٣١ -٦٣٢ ، وعلقه عن ابن عباس البخاري في كتاب التفسير، قبل حديث ٤٧٣٠ ، وأخرجه أيضاً عن الحسنِ ابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٧٢ ، وهناد في الزهد (٢٨٦) و(٢٨٧).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٧٢ ، وفيه: مشاة عطاشاً.

(٣) في تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٤ .

(٤) نزهة القلوب ص٤٧١ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .

(٦) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٤ .

يَـطْـمـو إذا الـوِرْدُ عـلـيـه الْـتَـكّـا[١]

أي: الورَّاد الذين يَرِدُونَ الماءَ.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعةَ لأحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه، أي: لكن «منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهداً» يشفع، فـ «مَن» في موضع نصب على هذا. وقيل: هو في موضع رَفْع على البدل من الواو في «يملكون»، أي: لا يملك أحد عند الله الشفاعة «إلا منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهداً» فإنَّه يملك[٢]، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً.

و«المجرمين» في قوله: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً» يعمُّ الكفرةَ والعصاة، ثم أخبر أنَّهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون، فإنَّهم يملكونها بأن يشفع فيهم. قال رسول الله ﷺ: «لا أزالُ أشفع حتى أقول: يا ربِّ شفِّعني فيمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول: يا محمَّد إنَّها ليست لك ولكنها لي»[٣] خرَّجه مسلم بمعناه، وقد تقدَّم[٤].

وتظاهرت الأخبار بأنَّ أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيُشفَّعون[٥]، وعلى القول الأول يكون الكلام متصلاً بقوله: «واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غداً شفاعة عبدة الأصنام لأحد، ولا شفاعة الأصنام لأحد، ولا يملكون شفاعة أحد لهم، أي: لا تنفعهم شفاعة، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقيل: أي: نحشر المتَّقين والمجرمين، ولا يملك أحدٌ شفاعةً «إلا منِ اتخذ عِند

(١) الصحاح (ورد)، وقبله: صبَّحن من وشحا قليباً سُكَّا
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٦ بنحوه.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢ - ٣٣.
(٤) مسلم (١٩٣): (٣٢٦)، وهو بهذا اللفظ عند أبي يعلى في مسنده (٢٧٨١).
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣.

الرحمنِ عهداً» أي: إذا أذن له الله في الشفاعة، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهذا العهد هو الذي قال: «أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً» وهو لفظ جامعٌ للإيمان وجميع الصالحات التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع.

وقال ابن عباس: العهد: لا إله إلا الله. وقال مقاتل وابن عباس أيضاً: لا يَشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله، وتبرَّأ من الحول والقوّة لله، ولا يرجو إلا الله تعالى[(١)].

وقال ابن مسعود: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كلَّ صباح ومساء عند الله عهداً» قيل: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: «يقول عند كلِّ صباح ومساء: اللَّهمَّ فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، إنِّي أَعهد إليك في هذه الحياة بأنِّي أشهد أن لا إله إلا أنتَ، وحدك لا شريك لك، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك، فإنَّك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقرِّبني من الشَّرِّ، وإنِّي لا أَثِقُ إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفِّينيه يوم القيامة، إنَّك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك، طبع الله عليها طابعاً، ووضعها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الله عهدٌ. فيقوم فيدخل الجنة»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهود والنصارى، ومَنْ زعم أنَّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٣ ، والطبراني في الدعاء (١٥٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٠٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٥ ، والثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٠٨ ، وأخرجه أحمد (٣٩١٦) بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٤ : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود. اهـ. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٧٧ - ٣٧٨ عن ابن مسعود من قوله. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الملائكةَ بناتُ الله[١]. وقرأ يحيى والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلف[٢]: «وُلْداً» بضمِّ الواو وإسكان اللام، في أربعة مواضع: من هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وقد تقدَّم[٣]، وقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾. وفي سورة نوح: ﴿مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥ﴾ [الآية: ٢١]. ووافقهم في «نوحٍ» خاصَّةً ابنُ كثير ومجاهدٌ وحميد وأبو عمرو ويعقوب. والباقون في الكُلِّ بالفتح في الواو واللام[٤]، وهما لغتان، مثل: العَرَبُ والعُرْبُ والعَجَمُ والعُجْمُ. قال:

ولقد رأيتُ معاشراً قد ثَمَّرُوا مالاً وَوُلْدا

وقال آخر:

وليتَ فلاناً كان في بطنِ أمِّهِ وليتَ فلاناً كان وُلْدَ حِمارِ

وقال في معنى ذلك النابغة[٥]:

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهمُ وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومِن وَلَدِ

ففتح. وقيسٌ يجعلون الوُلْدَ بالضمِّ جمعاً، والوَلَدَ بالفتح واحداً[٦]. قال الجوهري[٧]: الوَلَدُ قد يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الوُلْدُ بالضمِّ. ومن أمثال بني أسد: وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ.[٨] وقد يكون الوُلْدُ جمعَ الوَلَدِ مثلَ أُسْدٍ وأَسَدٍ: والوِلْدُ

---

(١) الوسيط ٣/ ١٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٩، وزاد المسير ٥/ ٢٦٤.

(٢) قبلها في (د) و(م) زيادة: وعاصم، وهي خطأ.

(٣) ص٥٠٦-٥٠٧ من هذا الجزء.

(٤) قرأ الكسائي وحمزة: «وُلْداً» بضمِّ الراء وسكون اللام في جميع تلك المواضع، ووافقهم في آية نوح: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف. وقرأ الباقون بفتح الواو واللام في جميع المواضع. ينظر الحجة في القراءات ٥/ ٢١١، والسبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٥٠ و ٢١٥، والنشر ٣/ ٢٩١.

(٥) وهو الذبياني في ديوانه ص٣٦.

(٦) من قوله: و هما لغتان إلى هذا الموضع ـ دون بيت النابغة ـ من النكت والعيون ٣/ ٣٨٧، وقد سلف قريباً.

(٧) في الصحاح (ولد).

(٨) أي: من نَفِسْتِ به. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٩.

بالكسر لغةٌ في الوُلْد. النحّاس[١]: وفرَّقَ أبو عبيدٍ بينهما، فزعم أنَّ الوَلَدَ يكون للأهل والوَلَدِ جميعاً. قال أبو جعفر: وهذا قولٌ مردودٌ لا يعرفه أحدٌ من أهل اللغة، ولا يكون الوَلَدُ والوُلْدُ إلا وَلَدَ الرجلِ ووَلَدَ وَلَدِه، إلا أنَّ وَلَداً أكثرُ في كلام العرب؛ كما قال:

مَهْلاً فداءً لَكَ الأقوامُ كلُّهمُ ... وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر: وسمعتُ محمد بن الوليد يقول: يجوز أن يكون وُلْدٌ جمعَ وَلَدٍ، كما يُقال: وَثَنٌ ووُثْنٌ وأَسَدٌ وأُسْدٌ، ويجوز أن يكون وَلَدٌ ووُلْدٌ بمعنًى واحد، كما يُقال: عَجَمٌ وعُجْمٌ، وعَرَبٌ وعُرْبٌ، كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: منكراً عظيماً. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]. قال الجوهري[٣]: الإِدُّ والإِدَّة: الداهِيةُ والأمرُ الفظيع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ وكذلك الآدُّ مثل فاعل. وجَمْعُ الإِدَّةِ إِدَدٌ، وأَدَّتْ فلاناً داهِيةٌ تؤدُّه أدًّا، بالفتح. والأَدُّ أيضاً: القوّة[٤]؛ قال الراجز:

نَضَوْتُ[٥] عَنِّي شِرَّةً[٦] وأَدَّا ... من بَعْدِ ما كنْتُ صُمُلًّا[٧] جَلْدا[٨]

انتهى كلامه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «أَدًّا» بفتح الهمزة[٩]. النحّاس[١٠]: يُقال: أَدَّ يَؤُدُّ أدًّا فهو آدٌّ، والاسم الإِدُّ؛ إذا جاء بشيءٍ عظيمٍ منكر. وقال الراجز:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٩٠ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٥ - ٦٣٦ عنهما وعن قتادة.

(٣) في الصحاح (أدد).

(٤) في (د) و(م): والإِدُّ أيضاً الشدة، والأَدُّ الغلبة والقوة.

(٥) في (د) و(م): نضوْنَ. ونضا: خلع. الصحاح (نضا).

(٦) في (م): شدةً. والشِّرَّة: مصدر الشر. الصحاح (شرر).

(٧) أي: شديد الخُلُق. الصحاح (صمل).

(٨) أي: صلباً. الصحاح (جلد). وفي الصحاح: نهداً، بدل: جلداً، والنَّهْدُ: أقوى القوم. تاج العروس (نهد).

(٩) المحتسب ٢/ ٤٥ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ ونسبها إلى علي ﷺ.

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨ .

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّي نُكرا داهِيةً دهياءَ إِدًّا إِمْرا

عن غير النحاس، الثعلبي: وفيه ثلاث لغات «إِدًّا» بالكسر، وهي قراءة العامة، و«أَدًّا» بالفتح، وهي قراءة السُّلَمي، و«آدّ» مثل مادّ، وهي لغةٌ لبعض العرب[١]، رويت عن ابن عباس وأبي العالية، وكأنها مأخوذةٌ من الثِّقَل، آدَه الحملُ يَؤُوده أَوْداً: أثقله.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة هنا وفي «الشورى» بالتاء، وقراءة نافع ويحيى والكسائي: «يكاد» بالياء[٢]؛ لتقدُّم الفعل[٣]. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشقَّقن[٤]. وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشدِّ الطَّاء من التفطُّرِ هنا وفي «الشورى»، ووافقهم حمزة وابن عامر في «الشورى». وقرأا هنا: «ينفَطِرْنَ» من الانفطار، وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضَّل في السورتين[٥]. وهي اختيار أبي عبيد[٦]؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[٧] [المزمل:١٨]. وقوله: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تتصدَّع. ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس: هدماً[٨]؛ أي: تسقط بصوتٍ شديد.

وفي الحديث: «اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ من الهَدِّ والهَدَّة». قال شَمِر: قال أحمد بن غياث المَرْوَزي: الهدُّ: الهدمُ، والهَدَّةُ: الخسوف. وقال الليث: هو الهدم الشديد، كحائطٍ يهدُّ بمرة؛ يقال: هدَّني الأمرُ وهدَّ ركني، أي: كسرني وبلغَ مني. قاله

(١) قال نحوه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٣٦ - ٦٣٧ ، والرجز سلف ص٣٢٩ من هذا الجزء.

(٢) السبعة ص٤١٣ ، والتيسير ص١٥٠ عن نافع والكسائي.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٢ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٦٣٧ .

(٥) السبعة ص٤١٣ ، والتيسير ص١٥٠ عنهم دون ذكر المفضل.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .

(٨) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٩ .

الهروي[١]. الجوهري[٢]: وهدَّ البناءَ يهُدُّه هَدًّا: كسَرَه وضَعْضَعَه، وهَدَّته المصيبةُ، أي: أوهنَتْ رُكنَه، وانهدَّ الجبلُ: انكسر. الأصمعيُّ: والهَدُّ: الرجل الضعيف؛ يقول الرجلُ للرجلِ إذا أوعدَه: إني لَغيرُ هدٍّ، أيْ: غيرُ ضعيفٍ. وقال ابن الأعرابي: الهَدُّ من الرجال: الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف: فهو الهِدُّ بالكسر، وأنشد:

لَيسُوا بِهِدِّينَ في الحُرُوبِ إذا تُعْقَدُ فوقَ الحراقِفِ النُّطُقُ[٣]

والهَدَّةُ: صوتُ وَقْعِ الحائط ونحوه، وتقول منه: هَدَّ يهِدُّ ـ بالكسر ـ هَدِيداً. والهادُّ: صوتٌ يسمعه أهل الساحل، يأتيهم من قِبَلِ البحر له دويٌّ في الأرض، وربما كانت منه الزَّلزلة، ودويُّه هديدُه.

النحاس[٤]: «هَدًّا» مصدر؛ لأنَّ معنى «تخِرُّ» تُهَدُّ. وقال غيره: حال[٥]، أي: مهدودة[٦]. ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ «أن» في موضع نصبٍ عند الفراء، بمعنى: لأَنْ دَعَوا ومن أن دَعَوا، فموضع «أن» نصبٌ بسقوط الخافض. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الكسائيَ قال: هي في موضع خفض بتقدير الخافض[٧]. وذكر ابن المبارك: حدثنا مِسْعر، عن واصل، عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود: إنَّ الجبل ليقول للجبل: يا فلان، هل مَرَّ بِكَ اليومَ ذاكِرٌ لله؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ الآية، قال: أفتراهُنَّ يسمَعْنَ الزُّورَ ولا يسمَعْنَ الخير؟![٨]. قال:

---

(١) وقاله الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٣٥٣ .

(٢) في الصحاح (هدد).

(٣) الحراقف، جمع حُرْقُفة: وهي رأس الورك. والنُّطُق، جمع نطاق: وهو ما يُشدُّ به الوسط. تهذيب اللغة ٥/ ٣٠٠ ، والصحاح (نطق).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩ .

(٥) إملاء ما من به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٦٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٥٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٢ .

(٨) الزهد لابن المبارك (٣٣٣). عون بن عبد الله لم يسمع من عبد الله بن مسعود. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨ .

وحدَّثني عوف، عن غالب بن عَجْرَد قال: حدَّثني رجلٌ من أهل الشام في مسجد منى، قال: إنَّ اللهَ تعالى لمَّا خلقَ الأرضَ وخلقَ ما فيها من الشجر، لم تَكُ في الأرض شجرةٌ يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً، وكان لهم منها منفعةٌ، فلم تزلِ الأرضُ والشجَرُ كذلك حتى تكلَّم فَجَرةُ بني آدم تلكَ الكلمةَ العظيمة، قولهم: اتَّخذَ الرحمنُ ولداً، فلما قالوها اقشعرَّتِ الأرضُ وشاكَ الشجر[1].

وقال ابن عباس: اقشعرَّتِ الجبالُ وما فيها من الأشجار، والبحارُ وما فيها من الحيتان، فصار من ذلك الشوكُ في الحيتان، وفي الأشجار الشوك.

وقال ابن عباس أيضاً وكعب: فزعتِ السماواتُ والأرضُ والجبال وجميع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبتِ الملائكةُ فاستعَرَتْ جهنَّم، وشاكَ الشجر، واكفهرَّتِ الأرضُ وجَدَبَتْ[2] حين قالوا: اتخذ اللهُ ولداً. وقال محمد بن كعب: لقد كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ قال ابن العربي[3]: وصدق، فإنه قولٌ عظيمٌ سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضَعُه كُفْرُ الكافر، ولا يرفعُه إيمانُ المؤمن، ولا يزيدُ هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيءٌ من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يُبالَ بعد ذلك بما يقوله المبطلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفى عن نفسه سبحانه

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٧). غالب بن عجرد فيه جهالة، روى عنه اثنان فيما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٠٠ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧/ ٤٧ . وذكره ابن حبان في الثقات ٥/ ٢٩٠ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠ دون قوله: وشاك الشجر، واكفهرت الأرض وجدبت.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٤١ .

وتعالى الولد؛ لأنَّ الولد يقتضي الجنسيةَ والحدوثَ على ما بيَّناه في «البقرة»[(١)] أي: لا يليق به ذلك ولا يوصَفُ به ولا يجوز في حقه[(٢)]؛ لأنه لا يكون ولدٌ إلا من والدٍ، يكون له والدٌ وأصل، والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويَتقدَّس. قال:

في رأسِ خَلْقَاءَ من عَنْقَاءَ مُشْرِفةٍ ... ما ينبغي دونها سَهْلٌ ولا جَبَلُ[(٣)]

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ «إن» نافية بمعنى ما[(٤)]، أي: ما كلُّ من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مُقِرًّا له بالعبودية، خاضعاً ذليلاً كما قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] أي: صاغرين أذِلَّاء، أي: الخلق كلُّهم عبيده، فكيف يكون واحدٌ منهم ولداً له عزَّ وجلَّ، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً.

و«آتى» بالياء في الخطِّ، والأصل التنوين، فحُذِفَ استخفافاً وأُضيف[(٥)].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنه لا يجوز أن يكون الولدُ مملوكاً للوالد، خلافاً لمن قال: إنه يشتريه فيملِكُه ولا يَعتِقُ عليه إلا إذا أعتقه. وقد أبانَ اللهُ تعالى المنافاة بين الأولاد والملك[(٦)]، فإذا ملَكَ الوالدُ ولدَه بنوعٍ من التصرفات عَتَقَ عليه. ووجه الدليل عليه من هذه الآية أنَّ الله تعالى جعل الولدية والعبدية في طرَفَي تقابل، فنفى أحدَهما وأثبتَ الآخر، ولوِ اجتمعا لَما كان لهذا القول فائدةٌ يقع الاحتجاجُ بها. وفي الحديث الصحيح: «لا يَجْزي ولدٌ والداً إلا أن يجِدَه مملوكاً فيشتريَه فيَعتِقَه» خرَّجه مسلم[(٧)]. فإذا لم يملِكِ الأبُ ابنَه مع مرتبته عليه، فالابنُ بعدم مِلْكِ الأبِ أولى؛

---

(١) ٢/ ٣٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠.

(٣) قائله عمرو بن أحمر، وهو في كتاب الحيوان ٢/ ٣٠٤. والخلقاء: الصخرة الملساء. والعنقاء: أكمة في جبلٍ مشرف. تهذيب اللغة ٧/ ٢٩ و ١/ ٢٥٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩.

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٧١.

(٧) برقم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٣).

لقصوره عنه[١].

الثالثة: ذهب إسحاق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «من أعتقَ شِرْكاً له في عبد»[٢] أنَّ المرادَ به ذكورُ العبيد دونَ إناثِهم، فلا يُكَمَّلُ على من أعتق شِرْكاً في أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومَنْ بعدَهم، فإنَّهم لم يفرِّقوا بين الذكر والأنثى؛ لأنَّ لفظ العبد يُراد به الجنس، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعاً. وتمسَّكَ إسحاق بأنه قد حُكيَ عبدةٌ في المؤنث[٣].

الرابعة: روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله تبارك وتعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمني ولم يكُنْ له ذلك، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقوله: ليس يُعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته، وأما شَتْمُه إيَّايَ فقوله: اتَّخذَ اللهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم يلِدْ ولم يولَدْ، ولم يكُنْ لي كفواً أحد»[٤] وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] وغيرها، وإعادتُه في مثل هذا الموضع حسنٌ جِدًّا.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: علِمَ عددَهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد، أي: فلا يخفى عليه أحدٌ منهم[٦].

قلت: ووقع لنا في أسمائه سبحانه المحصِي؛ أعني في السُّنَّة من حديث أبي هريرة. خرَّجه الترمذي[٧]، واشتقاق هذا الفعل يدلُّ عليه. وقال الأستاذ أبو إسحاق

---

(١) من قوله: ووجه الدليل إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤١ - ١٢٤٢ .

(٢) سلف ٦/ ٢٤١ .

(٣) المفهم ٤/ ٣١١ .

(٤) صحيح البخاري (٤٤٨٢).

(٥) ٢/ ٣٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٧ .

(٧) برقم (٣٥٠٧)، وقد سلف الكلام عليه ٩/ ٣٩١ .

الإسفراييني: ومنها المُحصِي، ويختصُّ بأنه لا تشغله الكثرةُ عن العلم، مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاءَ الحركات في كلِّ ورقة، فكيف لا يعلم، وهو الذي يخلق، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] [الملك: ١٤]. ووقع في تفسير ابن عباس أنَّ معنى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يريد أقرُّوا له بالعبودية، وشهدوا له بالربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: واحداً لا ناصرَ له ولا مالَ معه ينفعه[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] فلا ينفعه إلا ما قدَّم من عمل، وقال: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾ على لفظ كلٍّ، وعلى المعنى: آتوه. قال القُشيري: وفيه إشارةٌ إلى أنَّكم لا ترضَون لأنفسكم باستعبادِ أولادكم والكلُّ عبيدُه، فكيفَ رضيتُم له ما لا ترضَون لأنفسكم؟! وقد ردَّ عليهم في مثل هذا، في أنهم لا يرضَون لأنفسهم بالبنات، ويقولون: الملائكةُ بناتُ الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وقولهم: الأصنامُ بناتُ الله. وقال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي: حُبًّا في قلوب عباده[3]. كما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة[4]، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جِبريلَ إني قد أحببتُ فلاناً فأحِبَّه ـ قال ـ فيُنادي في السماء، ثم تنزل له المحبةُ في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغضَ اللهُ عبداً نادى

(١) وقد ذكر المصنف هذا الكلام في كتابه الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص٢٦٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٧ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٦ .

(٤) في (د) و(م): سعد وأبي هريرة.

جِبريلَ إني أبغضتُ فلاناً، فيُنادي في السماء، ثم تنزل له البغضاءُ في الأرض» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(١)]. وخرَّجه البخاري ومسلم بمعناه، ومالك في الموطأ[(٢)]. وفي «نوادر الأصول»: وحدَّثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال: حدَّثنا أبو مالك الْجَنْبي، عن جُوَيبر، عن الضحَّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أعطى المؤمنَ المِقةَ[(٣)] والمَلاحةَ والمحبةَ في صدور الصالحين والملائكة المقرَّبين» ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[(٤)]. واختُلِفَ فيمن نزلت؛ فقيل: في عليٍّ ﷺ؛ روى البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالب: «قُلْ يا علي: اللهمَّ اجعَلْ لي عندكَ عهداً، واجعَلْ لي في قلوب المؤمنين مودَّة» فنزلت الآية. ذكره الثعلبي[(٥)]. وقال ابن عباس: نزلت في عبد الرحمن بن عوف؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودَّة، لا يلقاه مؤمنٌ إلَّا وقَّره، ولا مشركٌ ولا منافقٌ إلَّا عظَّمه. وكان هَرِمُ بنُ حيَّانَ يقول: ما أقبلَ أحدٌ بقلبه على الله تعالى إلَّا أقبلَ اللهُ تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقَه مودَّتهم ورحمتَهم[(٦)]. وقيل: يجعل الله تعالى لهم مودَّةً في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة[(٧)].

قلتُ: إذا كان محبوباً في الدنيا فهو كذلك في الآخرة؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ إلَّا مؤمناً تقيًّا، ولا يرضى إلا خالصاً نقيًّا، جعلنا اللهُ تعالى منهم بِمَنِّه وكرمِه. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى إذا أحَبَّ عبداً دعا جبريلَ عليه السلام فقال: إني أُحِبُّ فلاناً فأحِبَّه، فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء

(١) سنن الترمذي (٣١٦١).

(٢) صحيح البخاري (٧٤٨٥)، وصحيح مسلم (٢٦٣٧)، والموطأ ٢/ ٩٥٣ . وأخرجه أحمد (٧٦٢٥).

(٣) في (د) و(م): الألفة. والمِقَةُ: المحبة. الصحاح (ومق).

(٤) نوادر الأصول ص٣٧٣ ، وضعَّفه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٧ .

(٥) وذكره الديلمي في الفردوس (١٩٣٢) من غير ذكر سبب النزول.

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٠ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٤ .

فيقول: إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهل السماء ـ قال ـ ثم يوضَعُ له القبول في الأرض، وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ عليه السلام وقال: إني أُبغِضُ فلاناً فأبغِضْه، فيُبغِضُه جبريلُ، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ اللهُ يُبغِضُ فلاناً فأبغضوه ـ قال ـ فيُبغِضونه، ثم توضَعُ له البغضاءُ في الأرض»[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: القرآن، يعني: بيَّنّاه بلسانك العربي، وجعلناه سهلاً على من تدبَّره وتأمَّله. وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهُلَ عليهم فهمه.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ اللُّد جمع الألد: وهو الشديدُ الخصومة[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقال الشاعر:

أبيتُ نجِيًّا للهمومِ كأنَّني ... أُخاصِمُ أقواماً ذَوِي جَدلٍ لُدَّا

وقال أبو عبيدة[3]: الألَدُّ: الذي لا يقبل الحقَّ ويدَّعي الباطل. الحسن: اللُّدُّ: الصُّمُّ عن الحق[4]. قال الربيع: صُمُّ آذان القلوب. مجاهد: فُجَّاراً[5]. الضحَّاك: مجادلين في الباطل[6]. ابن عباس: شداداً في الخصومة[7]. وقيل: الظالم الذي لا يستقيم[8]. والمعنى واحد، وخُصُّوا بالإنذار؛ لأنَّ الذي لا عِنادَ عنده يسهلُ انقيادُه.

---

(١) مسلم (٢٦٣٧) (١٣٧). وقد ساقه المصنف آنفاً بلفظ الترمذي.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٧ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٩١ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩١ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٩٨ عن قتادة.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢١٠ من غير نسبة.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي: من أمةٍ وجماعةٍ من الناس؛ يخوِّف أهلَ مكة. ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ في موضع نصب[1]، أي: هل ترى منهم أحداً أو تجدُ. ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي: صوتاً. عن ابن عباس وغيره[2]، أي: قد ماتوا وحصلوا على أعمالهم[3]. وقيل: حِسًّا. قاله ابن زيد. وقيل: الرِّكزُ: ما لا يُفهَمُ من صوتٍ أو حركة. قاله اليزيدي[4] وأبو عبيدة؛ كركز الكتيبة، وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد:

وتَوَجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيسِ فَرَاعَها ... عن ظَهْرِ غَيبٍ والأنيسُ سَقَامُها[5]

وقيل: الصوت الخفي، ومنه ركَزَ الرُّمح إذا غَيَّبَ طرَفَه في الأرض[6]. وقال طرفة:

وَصادِقَتا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرَى ... لِرِكْزٍ خَفِيٍّ أو لِصَوْتٍ مُنَدَّدِ[7]

وقال ذو الرُّمة يصف ثوراً تسمَّع إلى صوت صائد وكلاب:

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ ... بنبأةِ الصوت ما في سمعه كَذِبُ[8]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٤، والنكت والعيون ٣/ ٣٩١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠.

(٤) فيما نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩١.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٤، والبيت في ديوان لبيد ص١٧٣، ووقع فيه: «رزّ» بدل «ركز». التوجُّس: التسمع إلى الصوت الخفي. الصحاح (سقم).

(٦) الكشاف ٢/ ٥٢٧، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٥٦.

(٧) ديوان طرفة ص٢٧. السُّرى: سير الليل. والمندد: الصوت المبالغ في النداء. اللسان (سرى) و(ندد).

(٨) الديوان ١/ ٨٩.

أي: ما في استماعه كذب؛ أي: هو صادق الاستماع. والنَّدِس: الحاذق؛ يقال: نَدِسٌ ونَدُس، كما يقال: حَذِرٌ وحَذُر، ويَقِظٌ ويَقُظ. والنبأة: الصوت الخفيُّ، وكذلك الرِّكز، والرِّكاز: المال المدفون. والله تعالى أعلم بالصواب.

تم الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الرابع عشر، ويبدأ بسورة طه

سُورَةُ مَرْيَمَ

مَكِّيَّةٌ إلا آيةَ السَّجدةِ[1]، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعونَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أمالَ أبو عمرٍو الهاءَ لأنَّ أَلِفاتِ أسماءِ التَّهجِّي ياءاتٌ، وابنُ عامرٍ وحمزةُ الياءَ، والكِسائيُّ وأبو بكرٍ كِلَيهما، ونافعٌ بينَ بينَ[2].

ونافعٌ وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ يُظهرون دالَ الهجاءِ عند الذال، والباقون يدغمونها[3].

(٢) ـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ ما قبلَه إنْ أُوِّلَ بالسُّورةِ أو القرآنِ فإنَّه مُشتَمِلٌ عليه، أو خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هذا المتلوُّ ذِكرُ رَحمةِ ربِّكَ، أو مُبتدأٌ حُذِفَ خبرُهُ؛ أي: فيما يُتلى عليكَ ذكرُها.

---

(١) وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٢/ ٦١٩)، وذكره الحافظ في «فتح الباري» (٩/ ٤١).

وقال بمكيتها دون استثناء: يحيى بن آدم في «تفسيره» (١/ ٢١٣)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٢٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٤٣)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢١٨)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٣٠٧)، وأبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٢١)، ومكي في «الهداية» (٧/ ٤٤٨٧)، والداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٨١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٧٤)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢١٥). وغيرهم كثير من أئمة التفسير.

(٢) وقرأ ابن كثير وحفص بفتح الهاء والياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٧).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨).

وقرئ: (ذَكَّرَ رحمةَ ربِّك) على الماضي[١]، و: (ذَكِّرْ) على الأمرِ[٢].

﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولُ الرَّحمةِ، أو الذِّكرِ على أنَّ الرَّحمةَ فاعلُهُ على الاتِّساعِ كقولك: ذَكَرَني جُودُ زَيدٍ ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلٌ منهُ، أو عطفُ بيانٍ له.

(٣) ـ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأنَّ الإخفاءَ والجهرَ عندَ اللهِ سِيَّانِ، والإخفاءُ أَشَدُّ إخباتًا وأكثَرُ إخلاصًا، أو لئلَّا يُلامَ على طلبِ الولدِ في إبَّانِ الكبرِ، أو لئلَّا يطَّلِعَ عليه مَوالِيْهِ الذين خافَهُم، أو لأنَّ ضعفَ الهرمِ أَخْفَى صوتَهُ.

واختُلفَ في سنِّهِ حينئذٍ؛ فقيل: سِتُّونَ، وقيل: سبعونَ، وخمسٌ وسبعونَ، وخمسٌ وثمانون.

(٤) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسيرٌ للنِّداءِ، والوهنُ: الضَّعفُ. وتخصيصُ العَظْمِ لأنَّه دِعامَةُ البدنِ وأصلُ بنائِهِ، ولأنَّه أصلَبُ ما فيهِ، فإذا وَهَنَ كان ما وراءَهُ أوهنَ، وتوحيدُه لأنَّ المرادَ به الجنسُ.

وقُرِئَ (وَهُنَ) بالضمِّ والكسرِ[٣]، ونظيرُه (كمل) في الحركاتِ الثَّلاثِ.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبَّهَ الشَّيبُ في بياضِهِ وإنارَتِه بشُوَاظِ النَّارِ، وانتشارُهُ وفشوُّهُ في الشَّعرِ باشتِعالِها، ثمَّ أُخرِجَ مُخرجَ الاستعارةِ، وأُسندَ الاشتعالُ إلى الرَّأسِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) عن يحيى بن يعمر، و«المحتسب» (٢/ ٣٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٣٢)، عن الحسن. والمعنى كما في «الكشاف»: هذا المتلوُّ من القرآن ذكر رَحمَةَ رَبِّك.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٧) عن يحيى بن يعمر.

(٣) كلاهما في «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٦) عن بعضهم، ونسب أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٣٩١) الكسر للأعمش.

الذي هو مكانُ محلِّ الشَّيبِ مُبالغةً، وجَعَلَهُ مميِّزًا إيضاحًا للمَقصودِ، واكتَفى باللامِ عَنِ الإضافةِ للدَّلالةِ على أنَّ علمَ المُخاطبِ بتعيُّنِ المرادِ يُغني عن التَّقييدِ.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلَّما دعوتُكَ استجَبْتَ لي، وهو توسُّلٌ بما سلفَ معَهُ من الاستجابةِ، وتنبيهٌ على أنَّ المدعوَّ له وإن لم يَكُن مُعتادًا فإجابَتُه مُعتادةٌ، وأنَّه تَعالى عوَّدَه بالإجابةِ وأطمعَهُ فيها، ومن حقِّ الكَريمِ أن لا يُخيِّبَ مَن أطمعَهُ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ يعني: بني عمِّه، وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخافَ أن لا يُحسِنُوا خلافتَهُ على أمَّتِه ويبدِّلُوا عليهِمْ دينَهُم.

﴿مِن وَرَآءِى﴾: بعدَ مَوْتي. وعَن ابن كثيرٍ المدُّ والقصرُ بفتحِ الياءِ[1]، وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ أو بمَعنى الولايةِ في الموالي؛ أي: خِفتُ فِعلَ الموالي مِن ورائي، أو الذين يَلُونَ الأَمرَ مِن وَرائي.

وقُرِئَ: (خَفَّتِ الموالي مِن وَرائي)[2]؛ أي: قَلُّوا وعَجَزُوا عن إقامةِ الدِّينِ بَعدِي، أو: خَفُّوا ودَرَجُوا[3] قُدَّامِي، فعلى هذا كانَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بـ(خَفَّت).

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تَلِدُ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ فإنَّ مِثلَهُ لا يُرجَى إلا

---

(١) ذكر ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٠٧)، والأزهري في «معاني القراءات» (٢/ ١٢٩)، وابن خالويه في «إعراب القرآن» (ص: ٢٤٦ ـ ٢٤٧) روايتين عن ابن كثير: الأولى عن قنبل مهموزةً ممدودةً مفتوحة الياء، والثانية عن شبل بغير همز وبفتح الياء مثل عصاي. والأولى في «التيسير» (ص: ٢٧٠) و(ص: ٤٢٨)، وهي المعتمدة عن ابن كثير. والثانية عُدَّت من الشواذ. انظر: «المختصر في شواذ القرءات» (ص: ٨٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٧).

(٢) نسبت لعثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ٣٧).

(٣) أي: مضوا وذهبوا.

مِن فَضلِكَ وكمالِ قُدرَتِكَ فإنِّي وامرأَتي لا نصلُحُ للوِلادةِ ﴿وَلِيًّا﴾ مِن صُلْبي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صِفَتانِ له، وجَزَمَهُما أبو عمرٍو والكِسائيُّ[١] على أنَّهما جوابُ الدُّعاءِ، والمرادُ: وراثةُ الشَّرعِ والعلمِ؛ فإنَّ الأنبياءَ لا يورِّثونَ المالَ.

وقيل: ﴿يَرِثُنِي﴾ الحُبُورةَ[٢] فإنَّه كانَ حَبْرًا ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ الملكَ، وهو يعقوبُ بن إسحاقَ عليهِما السَّلامُ.

وقيل: كان يعقوبُ أخا زكريَّا، أو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نَسلِ سُليمانَ[٣].

وقرئ (يَرِثُني وارثَ آلِ يَعقوبَ)[٤] على الحالِ مِن أحدِ الضَّميرينِ.

و: (أُوَيْرِثَ) بالتَّصغيرِ لِصِغَرِه[٥].

و(وارثٌ مِن آلِ يَعقوبَ)[٦] على أنَّه فاعلُ ﴿يَرِثُنِي﴾ وهذا يُسمَّى: (التَّجريدَ) في علمِ البَيانِ؛ لأنَّه جرِّدَ عن المذكورِ أوَّلًا مع أنَّه المرادُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٢) قال الزمخشري: كأنَّها مصدرُ حَبُرَ الرَّجلُ كقَضُوَ: إذا تُعجِّبَ مِن قضائِه، وإلاَّ الحُبورُ هو السُّرورُ. «فتوح الغيب» (٩/ ٥٧٢). وانظر: «الكشاف» (٥/ ٢٣٦).

(٣) يعني: يعقوبُ هذا وعِمرانُ أبو مريم أَخَوان من نسل سُليمان بن داوُد عليهم السلام. انظر: «الكشاف» (٥/ ٢٣٥).

(٤) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٢٣٥) إلى ابن عباس والجحدري.

(٥) ضبط (أويرثَ) في النسخ الخطية لـ«الكشاف» بالنصب كما بيَّنَّا في تحقيقه، فهو حال كما في القراءة السابقة، لكن من ضمير الفاعل فقط؛ لعدم ملاءمة التصغير لضمير المفعول المختص بزكريا عليه السلام. وضبط في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) بالرفع واقتصر فيه على لفظ (أويرث)، ويؤيد الرفع أن القراءة عند أبي حيان في «البحر المحيط» (١٤/ ٣٩٥) بلفظ: (أويرثٌ من آل يعقوب). وقال ابن خالويه: كأنه أراد (وُوَيْرِثٌ) فقلبت الواو همزة لانضمامها واجتماعها مع الأخرى.

(٦) نسبت لابن عباس رضي الله عنه والجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٣٨)، لعلي رضي الله عنه وابن يعمر والحسن والجحدري وقتادة وغيرهم.

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: تَرضاه قَوْلًا وعَملًا.

(٧) ـ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ جوابٌ لِندائهِ ووعدٌ بإجابةِ دُعائِه، وإنَّما تولَّى تسميتَهُ تشريفًا له.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: لم يُسمَّ أحدٌ بـ(يحيى) قبلَه، وهو شاهدٌ بأنَّ التَّسمِيَةَ بالأسامي الغريبةِ تنويهٌ للمُسمَّى.

وقيل: ﴿سَمِيًّا﴾: شَبيهًا؛ كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] لأنَّ المُتماثلَينِ يَتشاركانِ في الاسمِ.

والأظهرُ أنَّه اسمٌ أعجَمِيٌّ، وإن كانَ عربيًّا فمنقولٌ مِن فِعْلٍ كـ(يعيشَ) و(يعمرَ) قيل: سُمِّيَ بِهِ لأنَّه حَيِيَ به رَحِمُ أمِّهِ، أو لأنَّ دينَ اللهِ حَيِيَ بدَعوَتِه.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جَسَاوَةً[١] وقحولاً[٢] في المفاصل، وأصلُه: عتوٌّ[٣] كـ: قُعودٍ، فاستَثْقَلوا توالِيَ الضمَّتينِ والواوينِ، فكسروا التاءَ فانقلبتِ الواوُ الأولى ياءً، ثم قُلبت الثانيةُ وأُدغمتْ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿عِتِيًّا﴾ بالكسر[٤].

وإنما استَعْجَبَ الولدَ من شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ اعترافًا بأنَّ المؤثِّر فيه كمالُ قدرتِه، وأن الوسائطَ عند التحقيقِ مُلغاةٌ، ولذلك ﴿قَالَ﴾؛ أي: اللهُ، أو الملَكُ المبلِّغُ

---

(١) جسا: ضد لطف، وجسا الشيخ جسواً: بلغ غاية السن، وجسيت اليد وغيرها جسواً: يبست. انظر: «الصحاح» (مادة: جسا).

(٢) أي: يَبَساً

(٣) في نسخة الخيالي: «عتوو» وفي نسخة في الهامش كالمثبت، وكلاهما صواب.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

للبِشارةِ تَصديقًا له: ﴿كَذَلِكَ﴾: الأمرُ كذلك، ويجوزُ أَنْ تكونَ الكافُ مَنصوبةً بـ(قال) في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ و(ذلك) إشارةٌ إلى مُبهَمٍ يفسِّرُه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قراءةُ مَن قرأَ: (وهو عليَّ هيِّنٌ)[1]؛ أي: الأمرُ كمَا قلتَ أو كما وُعدتَ وهو على ذلك يَهونُ عليَّ، أو كما وعدتُ وهو عليَّ هَيِّنٌ لا أحتاجُ فيما أريدُ أَنْ أفعلَهُ إلى الأسبابِ، ومفعولُ ﴿قَالَ﴾ الثَّاني محذوفٌ.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ مَعدومًا صِرْفًا، وفيه دليلٌ على أنَّ المعدومَ ليسَ بشيءٍ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَقَدْ خَلَقْناكَ﴾[2].

(١٠) - ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً﴾: علامةً أعلمُ بها وقوعَ ما بشَّرْتَني به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خَرَسٍ ولا بَكَم.

وإنَّما ذكرَ اللياليَ هاهنا والأيامَ في (آلِ عمرانِ)[3] للدَّلالةِ على أنَّه استمرَّ عليه المنعُ مِن كلامِ النَّاسِ والتَّجرُّدُ للذِّكرِ والشُّكرِ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ.

(١١) - ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾: مِن المُصلَّى، أو: من الغرفةِ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾: فأومأَ إليهم؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وقيل: كتبَ لَهُم على الأرضِ.

﴿أَن سَبِّحُوا﴾: صَلُّوا، أو: نزِّهوا ربَّكُم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرَفَي النَّهارِ، ولعلَّهُ كانَ مأمورًا بأن يسبِّحَ ويأمرَ قومَهُ بأَنْ يُوافِقوهُ، و﴿أَن﴾ تَحتمِلَ أَنْ تكونَ مصدريةً وأن تكونَ مفسِّرةً.

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦). وهي تؤيد الوجه الأول لأن الواو لا يناسبُها أن يكونَ ما بعدَها مقولاً لما قبلَها، بخلاف تركها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

(١٢) ـ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ على تقديرِ القولِ ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: التَّوراةَ ﴿بِقُوَّةٖ﴾: بجدٍّ واستظهارٍ بالتَّوفيقِ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ يعني: الحكمةَ وفهمَ التَّوراةِ.

وقيل: النبوَّةَ، أحكمَ اللهُ عقلَهُ في صِباهُ واستنبأَهُ.

(١٣) ـ ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾: ورحمةً مِنَّا عليه، أو: رحمةً وتعطُّفًا في قلبِهِ على أبويهِ وغيرهما، عطفٌ على ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾.

﴿وَزَكَوٰةٗ﴾: وطهارةً مِن الذُّنوبِ، أو: صدقةً؛ أي: تصدَّقَ اللهُ به على أبويهِ، أو مكَّنه ووفَّقَه للتَّصدُّقِ على النَّاسِ.

﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾: مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصِي.

(١٤) ـ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾: وبارًّا بهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾: عاقًّا أو عاصيَ ربِّه.

(١٥) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ مِن اللهِ ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ مِن أَنْ ينالَه الشَّيطانُ بما ينالُ به بني آدمَ ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذابِ القبرِ ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ مِن عذابِ النَّارِ وهولِ القيامةِ.

(١٦) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: في القُرآنِ ﴿مَرۡيَمَ﴾ يعني: قصَّتَها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾: اعتزلَتْ، بدلٌ مِن ﴿مَرۡيَمَ﴾ بدلَ الاشتمالِ لأنَّ الأحيانَ مُشتمِلةٌ على ما فيها، أو: بدلَ الكلِّ لأنَّ المرادَ بمريمَ قصَّتها وبالظَّرفِ الأمرَ الواقعَ فيه وهما واحدٌ، أو: ظرفٌ لِمُضافٍ مُقدَّرٍ[1].

وقيل: ﴿إِذِ﴾ بمعنى (أنْ) المصدريَّةِ كقولِك: لا أكرمتُكَ إذ لم تُكرِمْني، فتكونُ بَدلًا لا مَحالةَ[2].

---

(١) قوله: «أو ظرف لمضافٍ مقدَّرٍ» تقديره: خبرَ مريمَ، وهو أَولى من كونه بدلًا؛ لأن حذف مفردٍ أَولى من حذفِ جملةٍ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٠٩).

(٢) قوله: «وقيل: ﴿إِذِ﴾ بمعنى (أنْ) المصدريَّةِ...» كون (إذ) مصدرية ذكره أبو البقاء، وهو قول ضعيف =

﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شرقيَّ بيتِ المَقدسِ، أو شرقيَّ دارِها، ولذلك اتَّخذَ النَّصارَى المشرقَ قِبلةً. و﴿مَكَانًا﴾ ظرفٌ، أو مفعولٌ لـ﴿انتَبَذَتْ﴾ مُتضمِّنةً معنى: أتَتْ.

(١٧) ـ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: سِترًا ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل: قَعَدَتْ في مَشْرُقَةٍ[1] للاغتسالِ مِن الحيضِ محتجِبةً بشَيءٍ يَستُرُها، وكانَتْ تتحوَّلُ مِن المَسجدِ إلى بيتِ خالتِها إذا حاضَت وتعودُ إليه إذا طهرَتْ، فبينَما هي في مُغتَسَلِها أتاها جِبريلُ مُتمثِّلًا بصورةِ شابٍّ أمردَ سويِّ الخلقِ[2]؛ لتستأنسَ بكَلامِه.

ولعلَّهُ ليهيِّجَ شهوتَها فتنحدرَ نُطفتُها إلى رَحِمِها[3].

(١٨) ـ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ مِن غايةِ عفافِها ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تَتَّقي اللهَ وتحتفِلُ[4] بالاستعاذةِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه؛ أي: فإنِّي عائذةٌ منكَ، أو: فتَتَّعظُ بتعويذِي، أو: فلا تتعرَّضْ لي.

= للنحاة، وقوله: «لا أكرمتك إذ لم تكرمني»؛ أي: لعدم إكرامك لي، والظاهر أنها ظرفية أو تعليلية إن قلنا به، وقوله: «فتكون»؛ أي: ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ على هذا القول وهو بدل اشتمال أيضاً. انظر: «حاشية الشهاب».

(١) المَشرقةُ ـ مثلثة الراء ـ: محل شروق الشمس والقعود فيه شتاء. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٠) عن عكرمة.

(٣) قال السيوطي في «حاشيته» (٨/ ٥٣٠): كانَ المُصنِّفُ في غُنيَةٍ عن هذا الكَلامِ الفاسدِ. وقال أبو السعود في «تفسيره» (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١): وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتِها فتنحدر نطفتُها إلى رحمها فمع مخالفته لمقام بيانِ آثارِ القدرة الخارقةِ للعادة يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ فإنه شاهدُ عدْلٍ بأنه لم يخطُر ببالها شائبةُ ميل ما إليه، فضلاً عما ذُكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتبِ الميل والشهوة، نعم كان تمثلُه على ذلك الحسنِ الفائقِ والجمالِ الرائقِ ابتلائها وسبْر عِفّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعَفافِ ما لا غايةَ وراءَه.

(٤) أي: تُبالي.

ويجوزُ أن يكونَ للمُبالغَةِ؛ أي: إن كنتَ تَقِيًّا مُتورِّعًا فإنِّي أَعوذُ مِنكَ فكيفَ إذا لم تكُن كذلك؟

(١٩) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾: لأكونَ سَببًا في هِبَتِه بالنَّفخِ في الدِّرعِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ حِكايةً لقَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ، ويُؤيِّدُه قراءةُ أبي عمرٍو، والأكثرِ عَن نافعٍ، ويعقوبَ بالياءِ[1].

﴿زَكِيًّا﴾: طاهرًا مِن الذُّنوبِ، أو: ناميًا على الخيرِ؛ أي: مترقِّياً مِن سنٍّ إلى سنٍّ على الخيرِ والصلاح.

(٢٠) ـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾: ولم يُباشِرْني رَجلٌ بالحَلالِ؛ فإنَّ هذه الكناياتِ إنَّما تُطلَقُ فيه، أمَّا الزِّنا فإنَّما يقالُ فيه: (خَبُثَ بها) و(فَجَرَ) ونحوَ ذلك، ويعضُدُهُ عَطفُ قولِه: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فَعُولٌ مِن البغيِ قُلِبَت واوُه ياءً وأُدغِمَت، ثمَّ كُسِرَت الغينُ إِتْباعًا ولذلك لم تلحَقْهُ التَّاءُ، أو: فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ولم تَلْحَقْه التاءُ لأنَّه للمُبالغةِ، أو للنَّسبِ كطالقٍ.

(٢١) ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾؛ أي: ونفعلُ ذلك لنجعلَهُ آيةً، أو: لنبيِّنَ به قُدرتَنا ولنجعلَهُ، وقيل: عطفٌ على ﴿لِيَهَبَ﴾ على طريقةِ الالتفاتِ.

﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: علامةً لَهُم وبرهانًا على كمالِ قُدرتِنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العبادِ يَهتَدونَ بإرشادِه ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾؛ أي: تعلَّقَ به قضاءُ اللهِ في الأَزَلِ، أو: قُدِّرَ وسُطِّرَ في اللوحِ، أو: كانَ أمرًا حقيقًا بأن يُقضَى ويُفعلَ لكونِه آيةً ورحمةً.

---

(١) أي: ﴿لِيَهَبَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٧).

(٢٢) ـ ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بـأنْ نفـخَ في دِرْعِهـا فدَخلت النَّفخَةُ فـي جوفِها، وكانَتْ مُـدَّةُ حملِهـا سـبعةَ أشـهُرٍ، وقيـل: سـتَّةً، وقيـل: ثمانيَـةً. ولـم يَعِـش مولـودٌ وُضِعَ لثمانيةٍ غيـرُهُ[١].

وقيل: ساعةً كما حَمَلَتْه نبذَتْهُ[٢].

وسِنُّها ثلاثَ عشرَة سنةً[٣]. وقيل: عشرَ سِنينَ وقد حاضَتْ حَيْضَتَينِ[٤].

﴿فَأَنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾: فاعتزلَتْ وهو في بَطنِها؛ كقولِه:

تَـدُوسُ بِنَـا الجَمَاجِـمَ والتَّرِيبَـا[٥]

والجارُّ والمَجرورُ في مَوضعِ الحالِ.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: بَعيدًا مِن أَهلِهَا وراءَ الجَبلِ، وقيل: أقصى الدَّارِ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٥٥)، قال الألوسي في «روح المعاني» بعد ذكره لهذه الأقوال: وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليه السّلام إن صح. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٦٢٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٦)، وقاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٦٢٤).

(٥) عجز بيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (١/ ٢٦٥)، وقبله:

كأن خيولنـا كانـت قـديمـاً تُسقى فـي قحوفهـم الحليبـا

فمـرت غيـرَ نافـرةٍ علـيـهم تدوس بنـا الجماجـم والتريبـا

التريب: جمع التريبة وهي عظام الصدر. والعرب تسقي اللبن كرام خيولهم، يقول: إن خيلنا كانت تُسقى اللبن في أقحاف رؤوس الأعداء وأَلِفَت بها، فلذلك وطئت رؤوسهم وصدورهم ونحن عليها ولم تنفر.

(٢٣) - ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾: فألْجَأَهَا، وهو في الأَصْلِ مَنقولٌ مِن (جاء) لكنَّهُ خصَّ بهِ في الاستعمالِ كـ(آتى) في (أَعْطَى).

وقُرِئَ: (المِخاض) بالكسرِ[1]، وهما مصدرُ مَخِضَتِ المرأةُ: إذا تحرَّكَ الوَلدُ في بَطنِهَا للخُروجِ.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتِرَ به وتَعتَمِدَ عليهِ عندَ الوِلادَةِ، وهو ما بينَ العِرقِ والغصنِ، وكانَتْ نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خضرَةَ، وكان الوقتُ شِتاءً.

والتَّعريفُ إمَّا للجنسِ، أو للعَهدِ إذ لم يَكُن ثمَّةَ غيرُهَا، وكانَتْ كالمُتعالَم عند الناسِ، ولعلَّه تعالى ألهمَها ذلك ليُريَها مِن آياتِها ما يسكِّنُ رَوْعَتَها، ويُطعمَها الرُّطَبَ الذي هو خُرسةُ النُّفَساءِ[2] الموافقةُ لَهَا.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ استحياءً من الناس ومخافةَ لومِهم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وأبو عمرٍو وابنُ عامر: ﴿مُتُّ﴾ مِن ماتَ يَموت[3].

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما مِن شأنه أن يُنسى ولا يُطلب، ونظيرُهُ: الذِّبح، لِمَا يذبحُ.

وقرأ حمزَةُ وحفصٌ بالفتحِ[4]، وهو لغةٌ فيه، أو مصدرٌ سُمِّيَ به، وقُرِئَ به وبالهمزِ[5]، وهو الحليبُ المَخلوطُ بالماءِ يَنسؤهُ أهلُهُ[6] لقِلَّتِه.

---

(١) رواية عن ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، وكذا نسبت لأبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٨).

(٢) أي: طعامُ الوِلادةِ.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٨)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٥) أي: (نَسْئاً)، نسبت لمحمد بن كعب القرظي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«المحتسب» (٢/ ٤٠).

(٦) أي يخلطوه بالماء.

﴿مَنسِيًّا﴾: منسيَّ الذِّكرِ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهم، وقُرِئَ بكسرِ الميمِ على الإتباعِ(١).

(٢٤) ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مَن تَحْتَهَا﴾: عيسى، وقيل: جبريلُ عليهِمَا السَّلامُ، كان يَقْبُلُ الولدَ(٢)، وقيل: ﴿تحتَها﴾: أسفلَ مِن مكانِها.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ بالكَسرِ والجرِّ(٣)، على أنَّ في (نادى) ضميرَ أَحَدِهما، وقيل: الضَّميرُ في ﴿تَحْتِهَآ﴾ للنَّخلةِ.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾: أي لا تحزَني، أو: بأنْ لا تَحزَني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: جَدْوَلًا، هَكذا رُوِيَ مَرفوعًا(٤). وقيل: سَيِّدًا من السَّروِ، وهو عِيسَى.

(٢٥) ـ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: وأَمِيليهِ إليكِ، والباءُ مَزيدَةٌ للتَّأكيدِ، أو: افعَلِي الهَزَّ والإمالةَ به، أو: هُزِّي الثَّمرةَ بهزِّه، والهَزُّ: التَّحريكُ بجَذبٍ ودَفعٍ.

---

(١) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

(٢) أي: كان يَقْبُله كالقابلة، كما في «الكشاف» (٥/ ٢٥٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨ ـ ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨). ومن قرأ بكسر الميم كسَر التاء من ﴿تَحْتِهَآ﴾، ومن فتح الميم فتح التاء.

(٤) رواه الطبراني في «الصغير» (٦٨٥) من طريق بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيى الصدفي، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: في قوله عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: «النهر». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤): فيه معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

وذكرَه البُخاريُّ قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقًا موقوفًا على البراء، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) عن البراء موقوفاً، وصححه.

﴿تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ﴾: تتساقطْ، فأُدغِمَت التاءُ الثانية في السين، وحذَفَها حمزة، وقرأ يعقوبُ بالياء[1]، وحفصٌ: ﴿تُسَقِطْ﴾[2] مـن ساقطَتْ بمعنى: أَسْقَطتْ.

وقرئ: (تَتَسَاقَطْ) و: (تُسْقِطْ) و: (يُسْقِطْ)[3]، فالتاءُ للنَّخلةِ والياءُ للجِذع.

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تمييزٌ، أو مَفعولٌ.

رُوِيَ: أنَّها كانَتْ نخلةً يابِسَةً لا رأسَ لها ولا ثمرَ، وكانَ الوقتُ شِتاءً، فهَزَّتْه فجعلَ اللهُ تَعالى له رأسًا وخَوْصًا ورُطَبًا، وتَسْلِيَتُها بذلك: لِمَا فيه مِن المُعجزاتِ الدَّالَّةِ على براءةِ ساحَتِها، فإنَّ مِثلَها لا يُتصوَّرُ لِمَن يَرتَكِبُ الفَواحِشَ، والمنبِّهةِ[4] لِمَن رآها عليه على أنَّ مَن قدرَ أن يُثمِّرَ النَّخلةَ اليابسةَ في الشِّتاءِ قدرَ أن يُحبِلَها مِن غيرِ فَحلٍ، وأنَّه ليسَ ببِدْعٍ مِن شَأنِها مَع ما فيه مِن الشَّرابِ والطَّعامِ، ولذلك رَتَّبَ عليه الأمرينِ فقال:

(٢٦) - ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾؛ أي: مِن الرُّطَبِ وماءِ السَّرِيِّ، أو مِن الرُّطَبِ وعَصيرِه ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: وطَيِّبي نَفسَكِ وارفُضِي عَنْها ما أحزنَكِ.

وقُرِئَ: (وقِرِّي) بالكسرِ[5] وهو لغةُ نَجْدٍ، واشتقاقُهُ مِن القرارِ، فإنَّ العينَ إذا

---

(١) بالياء على التذكير مع فَتْحِها وتشديدِ السين وفتح القاف.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٣) (تَتَسَاقَطْ) نسبت لأبي السمال، و(تُسْقَطْ) و(يُسْقَطْ) نسبتا لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٩)، وذكر فيها ابن خالويه تسعة وجوه، وأوصلها الكرماني إلى خمسة عشر وجهاً، وذكر عن أبي حيوة ست قراءات لهذه الكلمة.

(٤) عطف على «الدالة».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٥١٦)، و«الكشاف» (٥/ ٢٥٧)، و«التفسير الكبير» للرازي (٢١/ ٥٢٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٣).

رَأَتْ ما يَسُرُّ النَّفسَ سكنَتْ إليهِ مِن النَّظَرِ إلى غيرِهِ، أو: من القَرِّ فإنَّ دمعةَ السُّرورِ باردَةٌ ودمعةَ الحُزنِ حارَّةٌ، ولذلك يقال: (قُرَّةُ العَينِ) و(سُخْنَتُها) للمَحبوبِ والمكروهِ.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾: فإنْ تَرَي آدمِيًّا. وقُرِئَ: (ترئنَّ)[1] على لغةِ مَن يقولُ: (لَبَّأْتُ بالحجِّ)[2] لتآخٍ بينَ الهمزةِ وحرفِ اللِّينِ.

﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: (صَمْتًا)، وقَدْ قُرِئَ به[3]، أو: صِيامًا، وكانوا لا يَتكلَّمونَ في صيامِهِم.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعدَ أَنْ أَخبَرْتُكُم بنَذرِي، وإنَّما أُكَلِّمُ الملائكةَ وأُناجي ربِّي.

وقيل: أخبَرَتْهُم بنَذرِها بالإشارةِ، وأمرَهَا بذلك لكَراهةِ المُجادلةِ والاكتفاءِ بكَلامِ عِيسَى عليهِ السَّلامُ فإنَّه قاطِعٌ في قَطعِ الطَّاعنِ.

(٢٧-٢٨) - ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾: مع وَلَدِها ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعةً إليهِمْ بعد ما طهرَتْ مِن النِّفاسِ ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾: حامِلَةً إيَّاه ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: بديعًا منكَرًا، مِن فَرَى الجلدَ: إذا قطَعه ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنُونَ: هارونَ النبيَّ، وكانَتْ مِن أعقابِ مَن كان معه في طبقةِ الأخوةِ.

---

(١) رواية غير مشهورة عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«المحتسب» (٢/ ٤١)، و«جامع البيان في القراءات» (٣/ ١٣٤٢).

(٢) قال الطِّيبِيُّ: أصله: لَبَّيْتُ تَلبيةً، ثم أُبدلَ التَّضعيفَ بالياءِ، ثم أُبدلَ الياءُ بالهمزَةِ. «فتوح الغيب» (١٠/ ١١).

(٣) نسبت لعبد الله وأنس رضي الله عنهما في «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٦٦). وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥١٧) عن أنس أنه قرأ: (صوماً وصمتاً)، وكذا ذكرها عنه ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

وقيل: كانَتْ مِن نَسلِهِ وكان بَينَهُما ألفُ سنةٍ.

وقيل: هو رَجلٌ صالحٌ ـ أو طالِحٌ ـ كانَ في زَمانِهِم شَبَّهُوهَا به[1]؛ تَهَكُّمًا، أو لِمَا رَأَوا قبلُ مِن صَلاحِها، أو شَتَموها به.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأنَّ ما جاءَتْ به فريٌّ، وتنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ مِن أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ.

(٢٩) ـ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: إلى عيسى؛ أي: كلِّموهُ ليُجيبَكُم ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَدْ صبيًّا في المهدِ كلَّمَه عاقلٌ.

و﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، والظَّرفُ صلةُ ﴿مَن﴾، و﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ مِن المستكنِّ فيه، أو تامةٌ، أو دائمَةٌ كقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، أو بمعنى: صارَ.

(٣٠ ـ ٣٢) ـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقَهُ اللهُ به أوَّلًا لأنَّه أوَّلُ المقاماتِ، وللردِّ على مَن يزعمُ رُبوبِيَّتَه ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإنجيلَ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾: نفَّاعًا معلِّمًا للخيرِ.

والتَّعبيرُ بلفظِ المُضِيِّ إمَّا باعتبارِ ما سبقَ في قضائِه، أو بجعلِ المحقَّقِ وقوعُه كالواقعِ.

وقيل: أكملَ اللهُ عقلَهُ واستَنْبأَهُ طِفلًا.

﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: حيثُ كنتُ ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾: وأمرَنِي ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: زكاةِ

---

(١) رواه في التشبيه بالرجل الصالح عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٢٣)، عن قتادة قال: كان رجلاً صالحًا في بني إسرائيل يسمى هارون، فشبَّهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح.

وفي التشبيه بالطالح ذكره الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٢٥) دون سند ولا نسبة.

المالِ إن ملَكْتُهُ، أو تطهيرِ النَّفسِ عن الرَّذائلِ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾: وبارًّا بها، عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾.

وقُرِئَ بالكسرِ[1] على أنَّه مَصدرٌ وُصِفَ به، أو منصوبٌ بفعلٍ دلَّ عليه (أَوْصاني)؛ أي: وكلَّفني بِرًّا، ويؤيِّدُه القراءةُ بالكَسرِ والجرِّ عطفًا على (الصَّلاةِ)[2].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عندَ اللهِ من فَرْطِ تكبُّرِه[3].

(٣٣) ـ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى، والتَّعريفُ للعَهدِ، والأظهَرُ أنَّه للجنسِ والتَّعريضِ باللَّعنِ على أعدائِه، فإنَّه لَمَّا جعلَ جنسَ السَّلامِ على نفسِهِ عرَّضَ بأنَّ ضدَّهُ عليهم؛ كقولِه تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧] فإنَّه تَعريضٌ بأنَّ العَذابَ على مَن كذَّبَ وتَوَلَّى.

(٣٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: الذي تقدَّمَ نَعتُه هو عيسى ابنُ مريمَ لا ما تَصِفُه النَّصارى، وهو تكذيبٌ لَهُم فيما يَصِفونَه على الوجهِ الأبلغِ والطَّريقِ البرهانيِّ حيثُ جعلَهُ الموصوفَ[4] بأضدادِ ما يَصِفونَه ثمَّ عكسَ الحُكم[5].

﴿قولُ الْحَقِّ﴾ خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هو قولُ الحَقِّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافَةُ للبَيانِ، والضَّميرُ للكلامِ السَّابقِ أو لتمامِ القصَّةِ.

وقيل: صفةُ ﴿عِيسَى﴾، أو بدلُه، أو خبرٌ ثانٍ، ومعناه: كلمةُ اللهِ.

---

(١) أي: بكسر الباء، نسبت لأبي نهيك وأبي مجلز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«المحتسب» (٢/ ٤٢).

(٢) أي: (وبِرٍّ) بكسر الباء وجر الراء. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٥)، و«البحر» (١٤/ ٤٢٩).

(٣) قوله: «من فرط تكبره» بيان لـ «جبَّار».

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «موصوفاً».

(٥) في هامش نسخة الفاروقي: «بقوله: ذلك عيسى ابن مريم».

وقرأ عاصِمٌ وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿قَوْلَ﴾ بالنَّصبِ[١] على أنَّه مصدرٌ مُؤكِّدٌ. وقُرِئَ: (قالُ الحقِّ) وهو بمَعنى القولِ[٢].

﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: في أمرِه يَشُكُّونَ، أو: يَتنازعونَ، فقالَت اليَهودُ: ساحِرٌ، وقالت النَّصارى: ابنُ اللهِ. وقُرِئَ بالتَّاءِ على الخطابِ[٣].

(٣٥) - ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ تكذيبٌ للنَّصارَى وتَنزيهٌ للهِ عمَّا بَهَتُوه.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ لهم بأَنَّ مَن إذا أرادَ شيئًا أوجدَهُ بـ(كن) كان مُنزَّهًا من شَبَهِ الخلقِ والحاجةِ في اتِّخاذِ الولدِ بإحبالِ الإناثِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فيكونَ﴾ بالنَّصبِ على الجوابِ[٤].

(٣٦) - ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سبقَ تفسيرُه في (سورةِ آلِ عِمرانَ).

وقرأ الحِجازِيَّانِ والبَصرِيَّانِ: ﴿وأَنَّ﴾ بالفتحِ[٥] على: ولِأَنَّ، وقيل إنَّه مَعطوفٌ على (الصَّلاةِ).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٢) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٦٢) وفيه: (قالُ الحقِّ وقالُ الله).

(٣) نسبت لعلي رضي الله عنه وأبي عبد الرحمن السلمي وداود بن أبي هند ونافع في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٩). وتحرفت في مطبوع «الشواذ» إلى: «يمترون» على لفظ المشهورة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«النشر» (٢/ ٢٢٠).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٣٧) - ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾: من اليَهودِ والنَّصارَى، أو فرقِ النَّصارَى: نَسْطُورِيَّةٌ قالوا: إنَّه ابنُ اللهِ، ويَعْقُوبِيَّةٌ قالوا: هو اللهُ هبطَ إلى الأرضِ ثمَّ صعدَ إلى السَّماءِ، ومَلْكَانيَّةٌ[1] قالوا: هو عبدُ اللهِ ونبيُّهُ.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾: مِن شُهودِ يومٍ عَظيمٍ هولُهُ وحِسابُهُ وجَزاؤُهُ وهو يومُ القِيامَةِ، أو: مِن وقتِ الشُّهودِ، أو مِن مَكانِهِ فيهِ، أو: مِن شَهادةِ ذلك اليومِ عَلَيهِم، وهو أَنْ تشهدَ عليهم الملائكةُ والأَنبياءُ وأَلسِنَتُهُم وآرابُهُم بالكُفرِ والفُسوقِ، أو: مِن وَقتِ الشَّهادةِ، أو مِن مَكانِها.

وقيل: هو ما شَهِدُوا به في عيسى وأُمِّه.

(٣٨) - ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجُّبٌ مَعناه: أنَّ استِماعَهُم وإبصارَهُم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ - أي: يومَ القيامةِ - جديرٌ بأَنْ يُتعَجَّبَ مِنْهُما بعدما كانوا صُمًّا عُمْيًا في الدُّنيا، أو: التَّهديدُ[2] بما سَيَسْمَعُونَ ويبصرونَ يومَئذٍ.

وقيل: أَمرٌ بأَنْ يُسْمِعَهم ويُبَصِّرَهُم مواعيدَ ذلك اليومِ وما يَحيقُ بهم فيه.

والجارُّ والمَجرورُ على الأَوَّلِ في مَوضعِ الرَّفعِ، وعلى الثَّاني في محلِّ النَّصبِ.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أوقعَ (الظَّالمينَ) موقِعَ الضَّميرِ إشعارًا بأَنَّهم ظلَمُوا أنفسَهُم حيثُ أغفلُوا الاستماعَ والنَّظرَ حينَ يَنفعُهُم، وسجَّلَ على إغفالِهِم بأَنَّهُ ضَلالٌ مُبينٌ.

(٣٩) - ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾: يومَ يَتحسَّرُ النَّاسُ: المُسيءُ على إساءَتِه، والمُحسِنُ على قِلَّةِ إحسانِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وملكائية».

(٢) قوله: «أو التهديد» عطف على «أنَّ استماعَهم». وفي نسخة الخيالي: «أو تهديد».

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: فرُغَ مِن الحسابِ وتصادرَ الفَريقانِ إلى الجنَّةِ والنَّارِ، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ مِن اليومِ أو ظرفٌ لـ﴿ٱلْحَسْرَةِ﴾.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ مُتعلِّقَةٌ بقولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما بينَهُما اعتِراضٌ، أو بـ(أَنذِرْهُم)؛ أي: أَنذِرْهُم غافِلينَ غيرَ مُؤمنينَ، فتكونُ حالًا مُتضمِّنَةً للتَّعليلِ.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يَبْقَى لأَحدٍ غيرِنا عليها وعليهم مِلكٌ ولا مُلكٌ، أو: نتوفَّى الأرضَ[1] ومَن عَلَيها بالإفناءِ والإهلاكِ تَوَفِّيَ الوارثِ لإرثِهِ ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يُرَدُّونَ للجزاءِ.

(٤١) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾: مُلازِمًا للصِّدقِ كثيرَ التَّصديقِ؛ لكثرةِ ما صدَّقَ به مِن غُيوبِ اللهِ وآياتِه وكُتبِهِ ورُسلِه.

﴿نَّبِيًّا﴾: استَنْبأَهُ الله.

(٤٢ ـ ٤٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ التَّاءُ مُعوَّضَةٌ مِن ياءِ الإضافةِ، ولذلك لا يُقال: يا أبتي[2]، ويقال: (يا أَبتَا)، وإنَّما تُذكَرُ للاستعطافِ ولذلك كرَّرَها.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيعرفَ[3] حالكَ ويسمعَ ذكرَكَ ويَرى خضوعَكَ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جلبِ نَفعٍ ودفعِ ضُرٍّ؟!

(١) أي: نأخذها ونقبضها.

(٢) قال في «الكشاف» (٥/ ٢٦٧): لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه.

(٣) بالنَّصبِ في جوابِ النَّفي.

دعاهُ إلى الهُدَى وبيَّن ضلالَهُ، واحتجَّ عليه أبلغَ احتجاجٍ وأرشقَهُ[١] برفقٍ وحسنِ أدبٍ، حيثُ لم يُصرِّح بضلالِهِ بل طلبَ العِلَّةَ التي تَدعُوه إلى عبادةِ ما يَستخِفُّ به العَقلُ الصَّريحُ ويأبى الرُّكونَ إليه، فضلًا عَن عبادتِه التي هي غايةُ التَّعظيمِ، ولا تحقُّ إلَّا لِمَن له الاستغناءُ التَّامُّ والإنعامُ العامُّ، وهو الخالقُ الرازقُ المُحيي المُميتُ المُعاقبُ المُثيبُ، ونبَّه على أنَّ العاقلَ ينبغي أَنْ يفعلَ ما يفعلُ لغرضٍ صَحيحٍ، والشَّيءُ لو كانَ حيًّا مميِّزًا سميعًا بصيرًا مُقتدِرًا على النَّفعِ والضرِّ ولكنْ ممكنًا لاستنكفَ العقلُ القويمُ عَن عبادَتِه وإن كانَ أشرفَ الخلقِ كالمَلائكةِ والنَّبيِّينَ؛ لِمَا يراهُ مثلَهُ في الحاجةِ والانقيادِ للقُدرةِ الواجبةِ، فكيفَ إذا كانَ جمادًا لا يَسمعُ ولا يبصرُ؟

ثمَّ دعاه إلى أن يَتَّبعَهُ ليَهْديَهُ الحقَّ القويمَ والصِّراطَ المُستقيمَ لمَّا لم يَكُن مَحظوظًا مِن العلمِ الإلهيِّ مُستقلًّا بالنَّظرِ السَّويِّ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ولم يَسِمْ أباه[٢] بالجهلِ المفرطِ ولا نفسَه بالعلمِ الفائقِ، بل جعلَ نفسَه كرفيقٍ له في مَسيرٍ يكونُ أعرفَ بالطَّريقِ.

ثمَّ ثبَّطَه عمَّا كانَ عليه بأنَّه مع خلوِّهِ عَن النَّفعِ مُستلزِمٌ للضرِّ، فإنَّه في الحَقيقَةِ عبادةُ الشَّيطانِ مِن حيثُ إنَّه الآمرُ به فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾.

واستَهْجنَ ذلك، وبيَّنَ وجهَ الضرِّ فيهِ بأنَّ الشَّيطانَ مُستَعْصٍ على ربِّكَ المُوْلي للنِّعمِ كُلِّها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ ومَعلومٌ أنَّ المطاوعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاصٍ حَقيقٌ بأَنْ تُستَرَدَّ مِنه النِّعَمُ ويُنتقَم منه، ولذلك عقَّبَه بتخويفِه سوءَ عاقِبَتِه وما يجرُّه إليه فقال:

---

(١) في نسخة الخيالي: «وأوثقه»، وفي نسخة التفتازاني: «وأرشده». ومعنى «أرشقَه»؛ أي: أحسنَه، من قولهم: رجلٌ رشيقٌ؛ أي: حسنُ القَدِّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢١ ـ ٦٢٢).

(٢) أي: لم يصفه.

(٤٥) ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾: قـرينًا في اللعنِ أو العذابِ تليه ويَلِيكَ، أو: ثابتًا في مُوالاتِه فإنَّه أكبرُ مِن العَذابِ كمَا أنَّ رضوانَ اللهِ أكبرُ مِن الثَّوابِ.

وذكرُ الخَوفِ والمسِّ وتَنكيرُ العَذابِ: إمَّا للمُجاملةِ، أو لخفاءِ العاقِبَةِ.

ولعلَّ اقتِصارَهُ على عِصيانِ الشَّيطانِ مِن جناياتِه لارتقاءِ هِمَّتِه في الرَّبَّانيَّةِ، أو لأنَّه مِلاكُها، أو لأنَّه مِن حيثُ إنَّه نتيجةُ مُعاداتِه لآدمَ وذرِّيَّتِه فنبَّه عليها[1].

(٤٦) ـ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ قابلَ استعطافَهُ ولُطفَهُ في الإرشادِ بالفَظاظةِ وغلظةِ العنادِ، فناداه باسمِهِ ولم يقابِل ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بـ: يا بنيَّ، وأخَّرَه وقدَّمَ الخبرَ على المبتدأِ وصَدَّرَه بالهمزةِ لإنكارِ نفسِ الرَّغبةِ على ضربٍ مِن التَّعجُّبِ كأنَّها ممَّا لا يَرغَبُ عنها عاقلٌ، ثمَّ هدَّدَه فقال:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالكَ فيها أو الرَّغبةِ عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلِساني، يعني: الشَّتمَ والذَّمَّ، أو بالحجارةِ حتَّى تَمُوتَ أو تبعدَ مِنِّي.

﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ عطفٌ على ما دلَّ عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ أي: فاحـذَرْني واهجُرْني ﴿مَلِيًّا﴾: زمانًا طَويلًا، مِن الملاوةِ، أو: مَلِيًّا بالذَّهابِ عني.

(٤٧) ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾: تَوديعٌ ومُتاركَةٌ، ومقابلَةٌ للسَّيِّئَةِ بالحَسنةِ؛ أي: لا أُصيبُكَ بمَكروهٍ ولا أقولُ لك بعدُ ما يؤذيكَ، ولكنْ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لعلَّه

---

(١) قوله: «لارتقاء همته»؛ أي: همةِ إبراهيم عليه السلام «في الرَّبانية»؛ أي: فلم يذكُرْ من جنايات الشيطان إلا ما يختصُّ بربِّ العزَّة من معاداته بعصيانه له ـ دونَ معاداته لآدمَ وذرِّيَّته ـ لأن ذلك أعظمُ ما ارتكبَه «أو لأنه»؛ أي: العصيانَ «ملاكها»؛ أي: الجناياتِ، وملاكُ الشيءِ: ما يقومُ به؛ كما يقال: القلبُ مِلاكُ الجسدِ، «فنبه عليها»؛ أي: على نتيجة معاداته. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢١ ـ ٦٢٢).
ووقع في نسخة الفاروقي: «مُنبِّهٌ»، وفي نسخة التفتازاني: «مبنية».

يوفِّقُكَ للتَّوبةِ والإيمانِ، فإنَّ حقيقةَ الاستغفارِ للكافرِ استدعاءُ التَّوفيقِ لِمَا يُوجِبُ مَغفِرتَهُ، وقد مرَّ تَقريرُهُ في (سُورةِ التَّوبةِ).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: بليغًا في البرِّ والإلطافِ.

(٤٨) ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمُهاجرةِ بدِيني ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾: وأعبدُهُ وحدَه ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾: خائبًا ضائعَ السَّعيِ مِثلَكُم في دُعاءِ آلِهَتِهِم.

وفي تَصديرِ الكلامِ بـ(عسى): التَّواضُعُ، وهضمُ النَّفسِ، والتَّنبيهُ على أنَّ الإجابةَ والإثابةَ تفضُّلٌ غيرُ واجبٍ، وأنَّ مِلاكَ الأمرِ خاتِمَتُه وهو غَيبٌ.

(٤٩) ـ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرةِ إلى الشَّامِ ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقَهُم مِن الكفَرةِ.

قيل: إنَّه لَمَّا قصدَ الشَّامَ أتى أوَّلًا حَرَّانَ وتَزوَّجَ بسارةَ وولدَتْ له إسحاقَ ووُلِدَ منه يعقوبُ.

ولعلَّ تَخصيصَهُما بالذِّكرِ لأنَّهما شَجَرتا الأَنبياءِ، أو لأنَّه أرادَ أن يذكرَ إسماعيلَ بفضلِه على الانفرادِ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾: وكُلًّا مِنْهُما أو مِنْهُم.

(٥٠) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوَّةَ والأموالَ والأولادَ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يَفتخرُ بهم النَّاسُ ويُثنونَ عليهم استجابةً لدَعوَتِه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، والمرادُ باللسانِ: ما يوجَدُ به، ولسانُ العَرَبِ: لُغَتُهُم، وإضافَتُه إلى الصِّدقِ وتَوصيفُهُ بالعُلُوِّ للدَّلالةِ على أنَّهُم أَحِقَّاءُ بما يُثنونَ عليهِم، وأنَّ مَحامِدَهُم لا تَخفَى على تَباعُدِ الأَعصارِ وتحوُّلِ الدُّوَلِ وتَبدُّلِ المِلَلِ.

(٥١) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلِصٗا﴾: مُوَحِّدًا، أخلصَ عِبادَتَهُ عَن الشِّركِ والرِّياءِ، أو أسلمَ وجهَهُ للهِ، وأخلَصَ نفسَهُ عمَّا سِواه.

وقرأ الكُوفِيُّونَ بالفتحِ[1] على أنَّ اللهَ أخلَصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ أرسلَهُ اللهُ إلى الخلقِ فأنبأَهُم عنه، ولذلك قَدَّمَ ﴿رَسُولٗا﴾ مع أنَّه أخصُّ وأعلى.

(٥٢) ـ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: مِن ناحِيَتِه اليُمنَى، مِن اليَمينِ وهي التي تَلِي يمينَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ، أو: مِن جانبِهِ المَيمونِ، مِن اليُمن بأَنْ تمثَّلَ له الكَلامُ مِن تلكَ الجِهَةِ.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ تقريبَ تَشريفٍ، شَبَّهَهُ بمَن قَرَّبَهُ الملِكُ لِمُناجاتِه.

﴿نَجِيّٗا﴾ مُنَاجِيًا، حالٌ مِن أَحدِ الضَّمِيرينِ.

وقيل: مُرتَفِعًا، مِن النَّجوَةِ وهو الارتفاعُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه رُفِعَ فوقَ السَّماواتِ حتى سَمِعَ صَريرَ القلمِ[2].

(٥٣) ـ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ﴾: مِن أَجلِ رَحْمَتِنا، أو بعضَ رَحْمَتِنا ﴿أَخَاهُ﴾: مُعاضدةَ أخيهِ ومُوازرَتِه إجابةً لدَعوَتِه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ [طه: ٢٩] فإنَّه كانَ أَسَنَّ مِن موسى، وهو مفعولٌ أو بدلٌ.

﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له ﴿نَبِيّٗا﴾ حالٌ مِنه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» ـ تكملة التفسير (١٣٩٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٨٦) عن سعيد بن جبير، ورواه هناد بن السري في «الزهد» (١٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٤) عن ميسرة، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٥) عن مجاهد.

(٥٤) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ ذكرَهُ بذلك لأنَّه المَشهورُ به، والمَوصوفُ بأشياءَ في هذا البابِ لم تُعهَدْ مِن غيرِه، وناهيكَ أنَّه وَعَدَ الصَّبرَ على الذبحِ فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فوَفَّى.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ يَدُلُّ على أنَّ الرَّسُولَ لا يلزَمُ أَنْ يكونَ صاحِبَ شَريعَةٍ، فإنَّ أولادَ إبراهيمَ كانُوا على شَريعَتِه.

(٥٥) ـ ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأهَمِّ، وهو أَنْ يُقبِلَ الرَّجلُ على نفسِه ومَن هو أقرَبُ النَّاسِ إليه بالتَّكميلِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

وقيل: أهلُهُ: أمَّتُه، فإنَّ الأَنبياءَ آباءُ الأُمَمِ.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامَةِ أَقوالِهِ وأَفعالِه.

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ﴾ هو سِبطُ شِيث وجَدُّ أبي نُوحٍ، واسمُهُ أَخنُوخُ، واشتِقاقُ إدريسَ مِن الدرسِ يردُّهُ مَنْعُ صَرفِه، نَعَمْ لا يَبعدُ أَنْ يكونَ معناه في تلك اللغَةِ قَريبًا مِن ذلك فلُقِّبَ به لكثرةِ دَرسِهِ، إذ رُوِيَ أنَّه تَعالَى أنزلَ عليهِ ثَلاثينَ صَحيفَةً، وأنَّه أوَّلُ مَن خطَّ بالقَلَمِ ونَظَرَ في علمِ النُّجومِ والحِسابِ[1].

---

(١) روى ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه من حديث طويل، وفيه: «أخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم»، ثم قال: «وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة»، وقال ابن كثير في «تفسيره»: روى هذا الحديث بطوله الحافظ ابن حبان في كتابه ووسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث.

أما قوله: (إنه أول من نظر في النجوم) فذكره الكرماني في «لباب التفسير» عند تفسير هذه الآية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني: شرفَ النُّبوَّةِ والزُّلفى عندَ الله، وقيل: الجنَّةُ.

وقيل: السَّماءُ السَّادسَةُ[1] أو الرَّابعَةُ[2].

(٥٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ في السُّورةِ مِن زكريَّا إلى إدريسَ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواعِ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للمَوصولِ ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدلٌ مِنه بإعادةِ الجارِّ، ويَجوزُ أَنْ تكونَ (مِن) فيه للتَّبعيضِ لأنَّ المُنعَمَ عليهم أعَمُّ مِن الأنبياءِ وأَخصُّ مِن الذُّرِّيَّةِ.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حملنَا خُصوصًا، وهُم مَن عدا إدريسَ فإنَّ إبراهيمَ كانَ مِن ذُرِّيَّةِ سامِ بنِ نوحٍ.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الباقونَ ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: ومِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ وكان مِنْهُم مُوسى وهارونُ وزَكريَّا ويحيَى وعِيسى، وفيه دَليلٌ على أنَّ أولادَ البَناتِ من الذُّرِّيَّةِ.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾: ومن جُملةِ مَن هَدَيْنا إلى الحقِّ ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ للنُّبوَّةِ والكَرامَةِ.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إنْ جَعلْتَ الموصولَ صِفتَهُ، واستئنافٌ إن جعلتَهُ خبرَهُ لبيانِ خَشيَتِهِم مِن اللهِ وإخباتِهِم لَهُ مع ما لَهُم مِن عُلُوِّ الطَّبَقَةِ في شَرفِ النَّسبِ وكَمالِ النَّفسِ والزُّلفى مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وعَن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «اتلُوا القرآنَ وابْكُوا، فإنْ لم تَبْكُوا فتَباكَوا»[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦٤) عن ابن عباس والضحاك، وخبر ابن عباس إسناده ضعيف.

(٢) ورد هذا في حديث الإسراء الطويل عن أنس في «صحيح مسلم» (١٦٢).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٣٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٨٩)، مِن حَديثِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وفي إسنادهما: أبو رافع، واسمه إسماعيل بن رافع بن عويمر الأنصاري، قال عنه الحافظ في «الكافي =

والبُكِيُّ: جمعُ باكٍ؛ كالسُّجُودِ في جمعِ ساجدٍ.

وقُرِئَ: (يتلى)[١] بالياءِ؛ لأنَّ التَّأنيثَ غيرُ حَقيقيٍّ.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿بِكِيًّا﴾ بكسر الباء[٢].

(٥٩) - ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾: فعقبَهُم وجاءَ بَعدَهُم عَقِبُ سوءٍ؛ يقال: (خَلَفُ صدقٍ) بالفتحِ، و: (خَلْفُ سوءٍ) بالسُّكونِ.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: تركوها، أو أَخَّروها عَن وَقتِها.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كشُربِ[٣] الخمرِ، واستحلالِ نكاحِ الأُختِ مِن الأَبِ، والانهماكِ في المعاصي.

وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مَن بَنى الشَّديدَ، وركبَ المنظورَ، ولبسَ المَشهورَ[٤].

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾: شَرًّا؛ كقولِه:

= الشاف» (ص: ١٠٦): (لين). لكن جوَّد إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٢٦).

(١) نسبت لشبل بن عباد المكي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) في نسخة الخيالي والفاروقي: «بشرب».

(٤) رواه سعيد بن منصور في «سننه» تكملة التفسير (١٣٩٥)، وذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٨) بلفظ: (هذا إذا بُني المشيد...).

وروي مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: (من أشراط الساعة أن يركب المنظور، ويلبس المشهور، ويبني المشذور، ويصبح الناس إخوان العلانية، أعداء السريرة). رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٧) من طريق سعيد بن سنان الحمصي، وقال: لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به. وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٨٩) وقال: فيه كذابان.

فمَن يَلْقَ خيْراً يَحْمَدِ النـاسُ أمْـرَهُ   ومَـن يَغْوِ لَا يَعْدَمْ عَلى الغَيِّ لائِما[1]

أو: جزاءَ غَيٍّ؛ كقولِه: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، أو: غَيًّا عَن طريقِ الجنَّةِ.

وقيل: هو وادٍ في جَهنَّمَ تَستعيذُ منه أَودِيَتُها.

(٦٠) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَـدُلُّ على أنَّ الآيَـةَ في الكَفَرَةِ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقـرأ ابـنُ كثيـرٍ وأبو عمرٍو وأبـو بكرٍ ويَعقـوبُ على البنـاءِ للمَفعولِ مِن أدخلَ[2].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: ولا يُنْقَصونَ شيئًا مِن جزاءِ أعمَالِهم، ويَجوزُ أَنْ يَنتَصِبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ على المصدَرِ، وفيه تَنبيهٌ بأَنَّ كُفرَهُم السَّابقَ لا يَضرُّهُم ولا ينقصُ أُجورَهُم.

(٦١) ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بَـدَلٌ مِـن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بَـدَلَ البَعـضِ لاشـتِمالِها علَيْها، أو مَنصـوبٌ علـى المدحِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[3] على أنَّه خبرُ مبتدأ مَحذوفٍ.

و﴿عَدْنٍ﴾ علَمٌ لأنَّه المضافُ إليه في العَلَم، أو عَلَمٌ للعَدْنِ بمَعْنَى الإقامةِ كبَرَّةَ، ولذلك صَحَّ وصفُ ما أُضيفَ إليه بقولِه: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[4]؛ أي:

---

(١) البيت من قصيدة للمرقش الأصغر. انظر: «المفضليات» (ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٧)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٥١)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (٢٣٧)، و«التيسير» (ص: ٩٧)، و«النشر» (٢/ ٢٥٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨) عن الحسن البصري.

(٤) قوله: «و﴿عَدْنٍ﴾ عَلَم»؛ أي: علمُ شخصٍ لأرضٍ في الجنة «لأنه المضاف إليه في العلَم»؛ أي: في بابـه «أو علم»؛ أي: عَلَمُ جنسٍ «للعَدْن»؛ أي: لمعنى العَدْن المفسَّرِ بقوله: «بمعنى الإقامة»؛ أي: في الجنةِ «كبَرَّة»؛ أي: فإنها علمُ جنسٍ للمَبرَّة بمعنى البرِّ «ولذلك»؛ أي: ولكون ﴿عَدْنٍ﴾ علم جنسٍ «صح وصف ما أضيف إليه» وهو ﴿جَنَّٰتِ﴾ «بقوله: ﴿ٱلَّتِى﴾..»؛ لدلالته على عموم المعنى =

وَعدَها إيَّاهُم وهي غائبةٌ عَنْهُم، أو هم غائبونَ عنها، أو: وعدَهُم بإيمانِهِم بالغيبِ.

﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ اللهَ ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الـذي هـو الجنَّةُ ﴿مَأْتِيًّا﴾ يَأتيهـا أهلُها الموعودُ لهم لا مَحالةَ.

وقيل: هو مِن أَتَى إليه إحسانًا؛ أي: مَفعولًا مُنجزًا.

(٦٢) ـ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: فُضولَ الكَلامِ ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾: ولكنْ يَسمَعُونَ قَوْلًا يسلَمونَ فيه من العَيبِ والنَّقيصَةِ، أو: إلا تَسليمَ المَلائكةِ عليهِمْ وتَسليمَ بَعضِهِم على بَعضٍ، على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، أو على مَعنى: أنَّ التَّسليمَ إن كانَ لغوًا فلا يسمعونَ لَغْوًا سِواهُ كقولِه:

وَلَا عَيْـبَ فِيهِـمْ غَيْـرَ أَنَّ سُيُوفَـهُـمْ ... بِـهِنَّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكَتَائِـبِ[1]

أَوْ: عَلَى أَنَّ مَعنـاهُ: الدُّعـاءُ بالسَّـلامةِ، وأهلُهـا أغنياءُ عنه، فهو مِن بـابِ اللَّغوِ ظاهِـرًا وإنَّمـا فائِدَتُه الإكرامُ.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ علـى عـادةِ المُتنعِّمِيـنَ، والتَّوسُّـطِ بيـنَ الزَّهـادَةِ والرَّغابَةِ.

وقيل: المرادُ: دوامُ الرِّزقِ ودُرُورُه.

(٦٣) ـ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: نُبقِيها عَلَيهِمْ مِـن ثَـمرةِ تَقْواهُم كما نُبْقِي على الوَارثِ مالَ مُورِّثِه، والوراثةُ أَقْوَى لَفظٍ يُستَعمَلُ في التَّمليكِ والاستحقاقِ مِن حيثُ إنَّها لا تُعْقَبُ بفسخٍ ولا استرجاعٍ، ولا تَبْطُلُ بردٍّ ولا إسقاطٍ.

= المعروف في عَلَم الجنسِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢٩).

(١) البيت للنَّابغَةِ الذُّبيانِيِّ يمدَحُ بها النُّعْمَانَ بنَ الحارثِ. انظر: «ديوانه» (ص: ١٣ ـ ١٥)، ط دار المعرفة، بيروت.

وقيل: يُورِّثُ المتقونَ من الجنَّةِ المَساكنَ التي كانَتْ لأَهلِ النَّارِ لَوْ أطاعُوا؛ زيادةً في كَرَامَتِهم.

وعَن يَعقوبَ: ﴿نُورِّثُ﴾ بالتَّشديدِ[1].

(٦٤) - ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قولِ جِبريلَ عليهِ السَّلامُ حينَ استَبْطَأَه رَسولُ اللهِ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَن قصَّةِ أَصحابِ الكَهفِ وذي القَرْنَينِ والرُّوحِ ولَمْ يَدْرِ ما يُجيبُ، ورَجَا أَنْ يُوحَى إليه فيه، فأبطأَ عليهِ خمسَةَ عشَرَ يومًا - وقيلَ: أربعينَ - حتَّى قال المُشركونَ: وَدَّعَهُ رَبُّهُ وقَلاهُ، ثمَّ نزلَ ببيانِ ذلك[2].

والتَّنَزُّلُ: النُّزولُ على مهلٍ لأنَّه مُطاوِعُ نزلَ، وقد يُطلَقُ بمَعنى النُّزولِ مُطلقًا كما يُطلَقُ نَزَلَ بمَعنى أَنْزَلَ، والمَعْنَى: وما ننزلُ وقتًا غِبَّ وَقتٍ إلَّا بأمرِ اللهِ على ما تَقتضيهِ حِكمَتُه.

وقُرِئَ: (وما يَتَنَزَّلُ) بالياءِ[3] والضَّميرُ للوَحيِ.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحنُ فيه مِن الأماكنِ والأحايينِ، لا ننتقِلُ مِن مَكانٍ إلى مكانٍ، ولا ننزلُ في زَمانٍ دونَ زَمانٍ، إلَّا بأَمرِهِ ومَشيئَتِه.

---

(١) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣١٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١)، عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي.

ورواه بنحوه دون ذكر الآية ابن إسحاق في «السيرة» (٢٥٧) - ومن طريقه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠) - قال: حَدَّثني رجلٌ من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه رجل مبهم.

وروى البخاري (٣٢١٨) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ لجبريل: «ألا تَزورُنا أكثرَ ممَّا تَزورُنا؟»، قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآيَةَ.

(٣) نسبت للأعرج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: تاركًا لكَ؛ أي: ما كان عَدمُ النُّزولِ إلا لعدمِ الأَمرِ بهِ، ولم يَكُن ذلك عن تَركِ اللهِ لكَ وتوديعِهِ إيَّاكَ كما زَعمتِ الكَفَرَةُ، وإنَّما كان لحكمةٍ رآها فيه.

وقيل: أوَّلُ الآيةِ حكايةُ قولِ المُتَّقينَ حينَ يَدخلونَ الجنَّةَ، والمَعنى: وما ننزلُ الجنَّةَ إلا بأمرِ اللهِ ولطفِه، وهو مالكُ الأُمورِ كلِّها السَّالِفَة والمترقَّبَةِ والحاضرةِ، فما وَجدناهُ وما نَجدُه مِن لطفِه وفضلِه، وقولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقريرٌ مِن اللهِ لقَولِهم؛ أي: وما كان ناسِيًا لأعمالِ العاملينَ وما وَعَدَ لَهُم مِن الثَّوابِ علَيْها.

وقوله: (٦٥) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ لامتناعِ النِّسيانِ عليهِ وهو خبرُ مَحذوفٍ، أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطابٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ مُرَتَّبٌ عليه؛ أي: لمَّا عرفتَ ربَّكَ بأنَّه لا ينبغي لَهُ أن ينساكَ، أو أعمالَ العُمَّالِ، فأقبِلْ على عبادتِه واصطَبِر علَيْها ولا تتشَوَّش بإبطاءِ الوَحيِ وهزءِ الكَفرةِ، وإنَّما عُدِّيَ باللامِ لتَضمُّنِه مَعنى الثَّباتِ للعبادةِ فيما يُورَدُ عليه مِن الشَّدائدِ والمشاقِّ؛ كقولِكَ للمُحارِبِ: اصطَبِر لقَرنِكَ.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: مِثْلًا يَستَحِقُّ أَنْ يُسمَّى إلهًا، أو: أحدًا يُسمَّى اللهَ، فإنَّ المُشركينَ وإنْ سَمَّوا الصَّنَمَ إلهًا لم يُسَمُّوهُ اللهَ قَطُّ، وذلك لظهورِ أَحَدِيَّتِه وتَعالي ذاتِه عَن المُماثَلَةِ بحيثُ لم يَقبل اللبسَ والمُكابرةَ، وهو تَقريرٌ للأمرِ؛ أي: إذا صَحَّ أَنْ لا أحدَ مِثلُه، ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ غيرُه، لم يَكُن بُدٌّ مِن التَّسليمِ لأَمرِهِ والاشتغالِ بعِبادَتِه والاصطبارِ على مَشاقِّهَا.

(٦٦) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المرادُ بِهِ: الجنسُ بأَسرِهِ، فإنَّ المَقولَ مقولٌ فيمَا بينَهُم وإنْ لَمْ يَقُلْ كُلُّهم، كقولِكَ: (بنو فلانٍ قَتلوا فُلانًا) والقاتِلُ واحِدٌ مِنْهُم.

أو: بَعضُهم المعهودُ وهم الكفرةُ.

أو: أُبيُّ بنُ خلَفٍ فإنَّه أخذَ عِظامًا باليَةً ففتَّها وقال: يَزعُمُ مُحمَّدٌ أنَّا نُبْعَثُ بعدَما نموتُ[١].

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ مِن الأرضِ، أو مِن حالِ الموتِ، وتَقديمُ الظَّرفِ وإيلاؤُه حرفَ الإنكارِ لأنَّ المنكرَ كونُ ما بعدَ الموتِ وقتَ الحياةِ، وانتصابُهُ بفعلٍ دَلَّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا بهِ؛ فإنَّ ما بعدَ اللامِ لا يعملُ فيما قبلَها، وهي هاهنا مُخلَصةٌ للتَّوكيدِ مُجرَّدَةٌ عَن مَعنى الحالِ كما خلصتْ الهمزةُ واللامُ في (يا ألله) للتَّعويضِ فساغَ اقترانُها بحرفِ الاستقبالِ.

ورُوي عن ابن ذَكْوان: ﴿إذا ما مِتُّ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ على الخبر[٢].

(٦٧) ـ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ عطفٌ على (يقول)، وتَوسيطُ همزةِ الإنكارِ بينَهُ وبينَ العاطفِ ـ مع أنَّ الأصلَ أن تَتقدَّمَهُما ـ للدَّلالةِ على أنَّ المنكرَ بالذَّاتِ هو المعطوفُ، وأنَّ المعطوفَ عليه إنَّما نَشأَ مِنه؛ فإنَّه لو تذكَّرَ وتأمَّلَ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ـ بَلْ كانَ عَدَمًا صِرْفًا ـ لم يَقُل ذلك، فإنَّه أعجَبُ مِن جمعِ الموادِّ بعد التَّفريقِ وإيجادِ مثلِ ما كانَ فيها مِن الأعراضِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وقالونُ عَن يعقوبَ: ﴿يَذْكُرُ﴾[٣] مِن الذِّكرِ الذي يُرادُ به التَّفكُّرُ. وقُرِئَ: (يَتَذَكَّر) على الأصلِ[٤].

---

(١) ذكره في سبب نزول هذه الآية: الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١) عن الكلبي، ومقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٢/ ٦٣٤)، ويحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢٣٤). وسيأتي في نهاية سورة (يس).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨)، ولم أقف عليها من طريق قالون عن يعقوب.

(٤) نسبت لأبي. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٦٨) ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إقسامٌ باسمِهِ مُضافًا إلى نبيِّهِ تَحقيقًا للأمرِ وتَفخِيمًا لشَأنِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ[١]، أو مَفعولٌ مَعَهُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ الكَفَرَةَ يُحشَرُونَ مع قُرنائِهِم مِن الشَّياطينِ الذينَ أَغْوَوْهُم كلٌّ مَع شَيطانِه في سِلسِلَةٍ[٢].

وهذا وإن كانَ مَخصوصًا بِهِم ساغَ نِسبَتُه إلَى الجنسِ بأَسْرِه[٣]، فإنَّهُم إذا حُشِرُوا وفِيهِم الكَفَرَةُ مَقرونينَ بالشَّياطينَ فقَدْ حُشِرُوا جَميعًا مَعَهُم.

﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ﴾ لِيرَى السُّعَداءُ ما نَجَّاهُم اللهُ مِنْه فيزدادوا غبطةً وسُرورًا، وينالَ الأشقياءُ ما ادَّخَرُوا لِمَعادِهِم عُدَّةً، ويَزدادُوا غَيْظًا مِن رُجوعِ السُّعداءِ عَنْهُم إلى دارِ الثَّوابِ وشَمَاتَتِهِم عليهِم.

﴿جِثِيًّا﴾ على رُكَبِهِم لِمَا يدهَمُهُم مِن هَوْلِ المَطلَعِ، أو لأنَّهُ مِن تَوابعِ التَّواقُفِ للحِسابِ قبلَ التَّواصُلِ إلى الثَّوابِ والعِقابِ، وأهلُ الموقفِ جاثونَ؛ لقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٨] على المعتادِ في مَواقِفِ التَّقَاوُلِ.

وَإِنْ كانَ المُرادُ بالإنسانِ الكَفَرَةَ فلَعَلَّهُم يُساقُونَ جُثَاةً مِن المَوْقِفِ إلى شَاطئِ جَهنَّمَ إهانةً بِهِم، أو لعَجزِهِم عَن القِيامِ لِمَا عَرَاهُم مِن الشِّدَّةِ، وإنْ فسِّر الإنسانُ بالعمومِ فالمعنى: أنهم يتجاثَوْن عند موافاةِ شاطئِ جهنَّمَ على أنَّ ﴿جِثِيًّا﴾ حالٌ مقدَّرة[٤].

---

(١) قوله: «﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف»؛ أي: على ضمير ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾.

(٢) ذكر بلا نسبة في «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٤٢١)، و«البسيط» للواحدي (١٤/ ٢٨٦)، وذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٦٠٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢].

(٣) قوله: «وهذا»؛ أي: حشرُ الكفرة مقرونينَ معَ الشياطينِ «وإن كان مخصوصاً بهم»؛ أي: بالكفرةِ «ساغ نسبته»؛ أي: الحشرِ «إلى الجنس بأسره»؛ أي: جنسِ الإنسانِ.

(٤) قوله: «وإن فسر الإنسان بالعموم...» إلى هنا من نسخة الخيالي فقط.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿جِثِيًّا﴾ بكسرِ الجيم[1].

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: مِن كلِّ أُمَّةٍ شاعَتْ دينًا ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾: مَن كانَ أَعْصَى وأَعْتَى مِنْهُم فنَطْرَحُهم فيها.

وفي ذِكْرِ الأَشَدِّ تَنْبِيهٌ على أَنَّهُ تَعالَى يَعْفُو كَثِيرًا[2] مِن أَهْلِ العِصْيَانِ، وَلَوْ خُصَّ ذلكَ بالكَفَرَةِ فالمُرَادُ أَنَّهُ يميزُ طوائِفَهُم: أَعتاهُمْ فَأَعْتاهُمْ، وَيَطْرَحُهُم في النَّار على التَّرتيبِ، أو يُدخلُ كُلًّا طَبَقَتَها التي تَلِيقُ بِهِم.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مَبْنِيٌّ على الضَّمِّ عندَ سِيبويهِ؛ لأَنَّ حَقَّه أن يُبْنَى كسائرِ الموصولاتِ، لكنَّه أُعرِبَ حَمْلًا على (كلٍّ) و(بعضٍ) للُزُومِ الإضافةِ، فإذا حُذِفَ صدرُ صِلَتِه زادَ نَقصُهُ فعادَ إلى حَقِّهِ مَنصوبَ المحلِّ بـ(ننزعنَّ)[3]، ولذلكَ قُرِئَ مَنصوبًا[4].

ومَرفوعٌ عندَ غيرِه: إمَّا بالابتداءِ على أنَّه استِفهامِيٌّ وخبرُهُ ﴿أَشَدُّ﴾ والجملَةُ مَحكِيَّةٌ، وتقديرُ الكَلامِ: لنَنزِعَنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ الذينَ يُقالُ فيهِم: أَيُّهُم أَشَدُّ[5]؟ أو

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٢) قوله: «كثيراً» منصوب بنزع الخافض، وهو (عن). انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) وملخص هذا الكلام الذي هو مذهب سيبويه: أنَّه مبنيٌّ على الضَّم لسقوط صدرِ الجملة التي هي صلتُه، حتى لو جيءَ به لأُعرِبَ وقيل: أَيُّهُم هو أَشَدُّ، هذه عبارة الزمخشري، قال ابن الحاجب: فهي على هذا موصولة بمعنى الذي في موضع نصب مفعولاً لـ(ننزعن). انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٩٩ـ ٤٠٠)، و«الكشاف» (٥/ ٢٩٥)، و«أمالي ابن الحاجب» (١/ ١٤٨).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٨ـ٨٩)، عن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء، وطلحة بن مصرف.

(٥) وهذا مذهب الخليل، ولكونها استفهامية قدَّر القول ليصح وقوع الاستفهام بعده كما ذكر ابن الحاجب. انظر: «أمالي ابن الحاجب» (١/ ١٤٧). وقول الخليل في «الكتاب» (٢/ ٣٩٩ـ ٤٠٠)، و«الكشاف» (٥/ ٢٩٥).

مُعلَّقٌ عنها[١] ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتَضَمُّنِه مَعنى التَّمييزِ اللازمِ للعلمِ، أو مُستأنفَةٌ والفعلُ واقِعٌ على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾ على زيادةِ ﴿مِن﴾، أو على مَعنى: لنَنزِعَنَّ بعضَ كلِّ شيعةٍ.

وإمَّا بـ﴿شِيعَةٍ﴾[٢] لأنَّها بمَعنى: تَشيعُ.

و﴿عَلَى﴾ للبيانِ أو مُتعلِّقٌ بـ(أفعل)[٣] وكذا الباءُ في قولِه:

(٧٠) ـ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾؛ أي: لنَحنُ أعلَمُ بالذين هُمْ أَوْلَى بالصُّليِّ ـ أو: صُلِيُّهُم أَوْلَى ـ بالنَّارِ، وهُمْ المُنتَزَعُونَ.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِم وبِأشدِّهِم عِتيًّا رؤساءُ الشِّيَعِ، فإنَّ عَذابَهُم مُضاعَفٌ لضَلالِهِم وإضلالِهِم.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿صِلِيًّا﴾ بكسرِ الصاد[٤].

(٧١) ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾: وما مِنكُم، التِفاتٌ إلى الإنسانِ، ويُؤيِّدُه أنَّهُ قُرِئَ: (وإنْ منهم)[٥].

﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾: إلا واصِلُها وحاضِرٌ[٦] دونَها، يَمُرُّ بها المُؤمِنونَ وهيَ خامِدَةٌ وتَنهارُ بغَيْرِهِم.

وعَن جابرٍ: أنَّه عليهِ السَّلامُ سُئِلَ عنه فقال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ قالَ بعضُهُم لبَعضٍ: أليسَ قَد وعدَنَا ربُّنا أَنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فيقالُ لهم: قَدْ وَرَدْتُموهَا وهِيَ خامِدَةٌ»[٧].

---

(١) قوله: «أو معلق عنها» عطف على «محكيَّةٌ».

(٢) قوله: «وإما بـ﴿شِيعَةٍ﴾» عطف على «إما بالابتداء».

(٣) قوله: «أو متعلق بأفعل»؛ أي: وهو ﴿أَشَدُّ﴾.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧).

(٥) نسبت لابن عباس وعكرمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٦) في نسخة التفتازاني: «وجائز».

(٧) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٠٧ ـ زوائد نعيم)، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٥/ ٣٨٢)، وابن =

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فالمرادُ: عَن عذابِها.

وقيل: (وُرودُهَا): الجَوازُ على الصِّراطِ فإنَّه مَمدودٌ عَلَيها.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾: كانَ وُرودُهُم واجِبًا أوجبَهُ اللهُ على نَفسِهِ وقَضَى بأَنْ وَعَدَ به وعدًا لا يمكنُ خُلفُهُ. وقيل: أَقسَمَ عليه.

(٧٢) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فيُساقونَ إلى الجنَّةِ. وقرَأَ الكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿نُنْجِي﴾ بالتَّخفيفِ[1].

وقُرِئَ: (ثَمَّ) بفَتحِ الثَّاءِ[2]؛ أي: هُناكَ.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾: مُنهارةً بهم كما كانُوا، وهـو دَليلٌ على أنَّ المُرادَ بالوُرودِ الجُثُوُّ حَوالَيْهَا، وأنَّ المُؤمنينَ يُفارِقُونَ الفَجَرَةَ إلى الجنَّةِ بعدَ تَجَاثِيهِم، وتَبْقَى الفَجَرَةُ فيها مُنْهارًا بِهِم على هَيْئَاتِهِم.

(٧٣) ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾: مُرَتَّلاتِ الألْفاظِ مُبَيَّناتِ المَعاني بنَفسِها أو ببيانِ الرَّسولِ، أو: واضحاتِ الإعجازِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: لأجلِهِم أو مَعَهُم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾: المؤمنينَ والكافِرينَ ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾: مَوضِعَ قِيامٍ، أو: مَكانًا.

= أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٢٩)، وهناد في «الزهد» (٢٣١)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٧٥)، جميعهم من قول خالد بن معدان التابعي. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٣٢).

ووقع في بعض المصادر: «جامدة» بالجيم، وهو من اختلاف الرواة كما أفاد أبو عبيد والطبري في روايتيهما.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٢٥٩).

(٢) نسبت لابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

وقرأ ابنُ كَثيرٍ بالضمِّ[1]؛ أي: مَوضِعَ إِقَامَةٍ ومَنزِلٍ.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: مَجلِسًا ومُجتمَعًا، والمَعنى: أَنَّهُم لَمَّا سَمِعُوا الآياتِ الواضِحاتِ، وعَجَزُوا عَن مُعارَضَتِها والدَّخَلِ عليها، أَخذُوا في الافتخارِ بما لهم مِن حُظوظِ الدُّنيَا، والاستدلالِ بزيادَةِ حَظِّهِم فيها على فَضلِهِم وحسنِ حالِهِم عندَ اللهِ تَعالى؛ لقُصورِ نَظَرِهِم على الحالِ، وعِلْمِهِم بظاهرِ مِن الحياةِ الدُّنيَا، فردَّ عَلَيهِم ذلك أيضًا مع التَّهديدِ نقضًا بقولِه:

(٧٤) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ (كم) مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ بيانُه، وإنَّما سُمِّيَ أَهلُ كُلِّ عصرٍ قَرْنًا لأنَّه يَتقدَّمُ مَن بَعدَهُم، و﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ صِفةٌ لِـ(كم)، و﴿أَثَٰثًا﴾ تَمييزٌ عَن النِّسبَةِ، وهو مَتاعُ البَيتِ، وقيل: هو ما جدَّ مِنْهُ، والخُرْثِيُّ ما رَثَّ.

والرِّئْيُ: المنظَرُ، فِعْلٌ مِن الرُّؤيَةِ لِمَا يُرَى كالطِّحْنِ[2] والخِبْزِ[3].

وقرأ نافِعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿ورِيًّا﴾[4] على قلبِ الهمزةِ وإدغامِها، أو على أنَّه مِن الرِّيِّ الذي هو النِّعمَةُ.

وأبو بكرٍ: (ورِيئاً) على القلبِ[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) الحبّ المطحون.

(٣) كذا وقعت في النسخ التي عندنا وسقطت من نسخة الفاروقي، وضبطها الخفاجي في «حاشيته» براء مهملة في آخرها؛ أي: (الخِبْر) من خبر الأرض: إذا زرعها.

(٤) هي رواية قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩). في نسخة الخيالي: «قرأ قالون وابن ذكوان».

(٥) ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٢٠٩) فقال: وذكر غير أحمد بن موسى (وهو ابن مجاهد صاحب كتاب «السبعة» أن الأعشى روى عن أبي بكر عن عاصم: (وريئاً) مثل: وريعاً.

وقُرِئَ: (ورِيًا) بحذفِ الهَمزَةِ[1].

و: (زِيًّا) مِن الزِّيِّ[2] وهو الجمعُ، فإنَّه محاسنُ مَجموعةٌ.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ تَمتيعَهُم استدراجٌ وليسَ بإكرامٍ ـ وإنَّما العيارُ على الفضلِ والنَّقصِ ما يكونُ في الآخرةِ ـ بقولِه:

(٧٥) ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: فيُمِدُّهُ ويُمهِلُهُ بطولِ العمرِ والتَّمتُّعِ به، وإنَّما أخرجَهُ على لفظِ الأمرِ إيذانًا بأنَّ إمهالَهُ ممَّا يَنبَغِي أن يفعلَهُ استِدراجًا وقطعًا لِمَعاذيرِه؛ كقولِه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وكقولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غايةُ المدِّ، وقيل: غايةُ قولِ الذينَ كَفَروا للَّذينَ آمَنُوا: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ... حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾.

﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ تفصيلٌ للمَوعودِ فإنَّه: إمَّا العذابُ في الدُّنيا وهو غَلَبَةُ المُسلمينَ علَيْهم وتَعذيبُهُم إيَّاهُم قتلًا وأَسْرًا، وإمَّا يومَ القيامةِ وما ينالُهُم فيه مِن الخزيِ والنَّكالِ.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفَريقينِ بأَنْ عايَنُوا الأمرَ على عكسِ ما قدَّروهُ، وعادَ ما مُتِّعُوا به خذلانًا ووبالًا عليهِمْ، وهو جوابُ الشَّرطِ، والجملةُ مَحكِيَّةٌ بعدَ (حتى).

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾؛ أي: فئةً وأَنصارًا، قابلَ به ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مِن حيثُ إنَّ حُسنَ النَّادي باجتماعِ وُجوهِ القَومِ وأَعيانِهم وظُهورِ شَوكَتِهم واستِظهارِهِم.

---

(١) بالقصر والتخفيف عن طلحة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٢) نسبت لسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٧٦) ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ عَطفٌ على الشَّرطيَّةِ المَحكيَّةِ بعدَ القولِ؛ كأنَّه لَمَّا بيَّنَ أنَّ إمهالَ الكافرِ وتمتيعَهُ بالحياةِ الدُّنيا ليسَ لفَضلِه، أرادَ أنْ يُبيِّنَ أنَّ قُصورَ حَظِّ المُؤمنِ مِنْها ليسَ لنَقصِه، بَلْ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرادَ بِهِ ما هو خيرٌ وعوَّضَهُ مِنه.

وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ لأنَّه في مَعنى الخبرِ؛ كأنَّه قيل: مَن كانَ في الضَّلالةِ يزيدُ اللهُ في ضَلالِه ويزيدُ المقابلَ لَهُ هِدايةً.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الطَّاعاتُ التي تبقى عائدَتُها أبدَ الآبادِ، ويدخُلُ فيها ما قيلَ مِن الصَّلواتِ الخَمسِ، وقولِ: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ ولَا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ[١].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾: عائدةً ممَّا مُتِّعَ بهِ الكَفرةُ مِن النِّعَمِ المخدَجةِ[٢] الفانيةِ التي يَفتخرونَ بها، سِيَّما ومآلُها[٣] النَّعيمُ المُقيمُ ومآلُ هذه الحسرَةُ والعَذابُ الدَّائمُ كما أشارَ إليه بقولِه:

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ والخيرُ هاهنا: إمَّا لِمُجرَّدِ الزِّيادَةِ، أو على طَريقَةِ قَولِهِم: (الصَّيفُ أَحَرُّ مِن الشِّتاءِ)؛ أي: أبلَغُ في حَرِّهِ مِنه في بَردِه.

(٧٧) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلَتْ في العاصِ بنِ وائلٍ، كانَ لخَبَّابِ بنِ الأرتِّ عليهِ مالٌ فتَقاضاهُ، فقالَ له: لا، حتَّى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ، قال: لا واللهِ لا أكفرُ بمُحمَّدٍ حَيًّا ولا ميتًا ولا حينَ تُبعَثُ، قال: فإني إذا متُّ بُعِثْتُ؟ قال: نعم، قال: فإذا بُعِثْت جِئتَني فيكونُ لي ثَمَّ مالٌ ووَلَدٌ فأُعطيكَ[٤].

---

(١) تقدم الكلام على الباقيات الصالحات في (سورة الكهف).

(٢) أي: النَّاقصة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «ومآلهما» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٤) رواه البخاري (٢٤٢٥)، ومسلم (٢٧٩٥)، من حديث خباب رضي الله عنه.

ولَمَّا كانَتِ الرُّؤيَةُ أقوى سَندِ الإخبارِ استعملَ (أرأيت) بمعنى الإخبارِ، والفاءُ على أصلِها، والمعنى: أَخبِرْ بقِصَّةِ هذا الكافرِ عقيبَ حَديثِ أُولئك.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿وُلْدًا﴾[1] وهو جمعُ وَلدٍ كأُسْدٍ في أَسَدٍ، أو لغةٌ فيه كالعُرْبِ والعَرَبِ.

(٧٨) ـ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾: أَقَدْ بلغَ من عِظَمِ شَأنِه إلى أَنِ ارتقى إلى علمِ الغَيبِ الذي توحَّدَ به الواحدُ القَهَّارُ حتَّى ادَّعى أَنْ يؤتَى في الآخرةِ مالًا وولدًا وتَألَّى عليه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أَو اتَّخذَ مِن عالِمِ الغُيوبِ عهدًا بذلك، فإنَّه لا يتوصَّلُ إلى العلمِ به إلا بأحدِ هذينِ الطَّريقينِ.

وقيل: العَهدُ كلمَةُ الشَّهادةِ والعملُ الصَّالحِ، فإنَّ وعْدَ اللهِ بالثَّوابِ عليهِمَا كالعَهدِ عليه.

(٧٩) ـ ﴿كَلَّا﴾: رَدعٌ وتَنبيهٌ على أَنَّه مُخطِئٌ فيما تَصوَّرَه لنَفسِه ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: سنُظهِرُ له أنَّا كَتَبْنَا قولَه، على طريقَةِ قولِه:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ[2]

أي: تبيَّنَ أَنِّي لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) أورده الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٦١)، والطبري في «التفسير» (٢/ ٥٧)، ولم ينسباه، ونسبه البغدادي في «شرح أبيات المغني» (١/ ١٢٥) لزائد بن صعصعة الفقعسي، وعجزه:

ولم تَجِدي من أن تُقِرِّي به بدّا

«لم تلدني» جواب «إذا»، وهو ليس في معنى الاستقبال؛ لأن الولادة كانت قبلُ. يقول: إذا انتسبتُ علمتِ يا فلانةُ أني لست بابن لئيمة، وظهر لك ما تضطرين به إلى الإقرار بذلك. قال: «لم تلدني لئيمةٌ»؛ لأن الأم إذا كانت من الكرام فالأب أولى. قاله الطيبي.

أو: سَنَنْتَقِمُ مِنه انتقامَ مَن كتبَ جريمةَ العَدُوِّ وحَفِظَها عليه، فإنَّ نفسَ الكِتْبَةِ[١] لا تتأخَّرُ عَن القَولِ لقولِه تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾: ونطوِّلُ لَه مِن العَذابِ ما يَستأهِلُه، أو نزيدُ عَذابَه ونُضاعَفُ له لكُفرِهِ وافتِرائِه واستهزائِه على اللهِ، ولذلك أكَّدَه بالمَصدَرِ دلالةً على فَرْطِ غَضبِه عليه.

(٨٠) ـ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموتِه ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني: المالَ والولدَ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يومَ القِيامةِ ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحَبُه مالٌ ولا ولدٌ كانَ له في الدُّنيا فَضْلًا أَنْ يُؤتَى ثَمَّ زائدًا.

وقيل: ﴿فَرْدًا﴾: رافِضًا لهذا القولِ مُنفرِدًا عنه.

(٨١) ـ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾: ليَتعزَّزُوا بهم حيثُ يَكونُونَ لَهُم وُصلَةً إلى اللهِ تعالى وشُفعاءَ عِندَه.

(٨٢) ـ ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ وإنكارٌ لتعزُّزِهم بها ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: ستجحدُ الآلهةُ عِبادَتَهم ويَقولون: ما عَبَدْتُمونا، كقولِه تَعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] أو سَيُنْكِرُ الكفرةُ لسوءِ العاقبَةِ أنَّهُم عبَدُوها كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يُؤَيِّدُ الأوَّلَ إذا فُسِّرَ[٢] الضِّدُّ بضِدِّ العزِّ؛ أي: ويَكونونَ

---

(١) بكسرِ الكاف: الكتابة.

(٢) في نسخة الفاروقي: «إلا إذا فسر»، وعليها شرح الشهاب في «الحاشية»، وينظر كلامه ثمة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأقرب، وعليه شرح ابن التمجيد في «الحاشية» (١٢/ ٢٩٠) فقال: قوله: «يُؤَيِّدُ الأوَّلَ إذا فُسِّرَ الضِّدُّ بضِدِّ العزِّ» فيكون المعنى: وتكون الآلهة ذلًّا لعابديها، وجه التأييد: أن هذا المعنى لا يناسب الثاني؛ لأنه لا معنى لأن يقال: ويكون الكفرة ذلًّا لآلهتهم؛ لأن الذل بمعنى إيصال الهوان وإلحاق العار لا يتصور في الجماد. =

عليهِم ذلًّا، أو بضِدِّهِم على مَعنى: أنَّها تكونُ معونةً في عَذابِهم بأَنْ تُوقدَ بها نيرانُهُم، أو جُعلَ الواوُ للكفرةِ؛ أي: يكونونَ كافرينَ بِهِم بعدَ أَنْ كانُوا يَعبدونَها، وتَوحيدُه لوحدةِ المعنى الذي بِهِ مُضادَّتُهم، فإنَّهُم بذلك كالشَّيءِ الواحدِ، ونَظيرُهُ قولُه عليهِ السَّلامُ: «وهُمْ يَدٌ على مَن سِواهُم»[1].

وقُرِئَ: (كَلًّا) بالتَّنوينِ[2] على قلبِ الأَلِفِ نونًا في الوقفِ قلبَ ألفِ الإطلاقِ في قولِه:

أَقِلِّـي اللَّـومَ عَـاذِلُ وَالعِتَابَـنْ[3]

= قلت: ويؤيد هذا كلام الآلوسي في تفسير الآية: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ على الأول ـ على ما قيل ـ: تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزًّا ضدًّا للعز؛ أي: ذلا وهوانا.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٧٩٧)، وأبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، بلفظ: «المسلمون تَتكافأ دِمَاؤُهُم: يَسعَى بذمَّتهم أدناهم، ويُجيرُ عليهم أقْصاهُم، وهم يَدٌ...».

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٥٩)، وأبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٤٧٣٥)، ولفظه: «المؤمِنونَ تتكافأُ دِماؤُهُم، وهم يد...». والنسائي (٤٧٣٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٩٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه أيضاً ابن ماجه (٢٦٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(٢٦٨٤) من حديث معقل بن يسار.

(٢) نسبت لأبي نهيك. انظر: «المحتسب» (٢/ ٤٥)، ويوهم صنيع المؤلف أنها بضم الكاف، حيث أتبعها المشهورة التي بضم الكاف ولم يضبط الكاف فيها. والصواب أنها بفتح الكاف لما سيأتي في تفسيرها من قوله: «أو على مَعنى: كَلَّ هذا الرَّأيُ كَلًّا»، وبه صرح في «الكشاف» (٥/ ٣١١) فقال: وفي «مُحْتَسَب» ابن جِنِّي: (كَلًّا) بفتح الكافِ والتنوين، وزعم أنَّ مَعناه: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتِقادُ كَلًّا.

(٣) صدر بيت لجرير من قصيدة يهجو فيها الراعي النميري، وهو في «ديوانه» (٢/ ٨١٣)، و«الكتاب» (٤/ ٢٠٥)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٣٨٧)، و«المقتضب» (١/ ٢٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٨)، وعجزه:

وقولـي إن أصبـت لقـد أصابـا

أو على مَعنى: كَلَّ هذا الرَّأيُ كَلَّا.

و: (كُلًّا)[1] على إضمارِ فعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ؛ أي: سيَجحدونَ كُلًّا سيكفرونَ بعِبادَتِهم.

(٨٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بأَنْ سَلَّطْناهُم عَلَيهِم، أو قَيَّضْنا لَهُم قُرَناءَ ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: تَهُزُّهم وتُغْريهم على المعاصي بالتَّسويلاتِ وتَحبيبِ الشَّهواتِ، والمرادُ: تَعجيبُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِن أَقاويلِ الكفرةِ وتمادِيهم في الغَيِّ وتَصميمِهم على الكفرِ بعدَ وُضوحِ الحقِّ على ما نطقَتْ به الآياتُ المُتقدِّمَةُ.

(٨٤) ـ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأَنْ يَهْلِكُوا حتى تستريحَ أنتَ والمؤمنونَ مِن شُرورِهِمْ، وتطهرَ الأرضُ مِن فَسادِهِم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيامَ آجالِهِم ﴿عَدًّا﴾ والمعنى: لا تَعجَلْ بهَلاكِهِم فإنَّه لم يبقَ لَهُم إلا أيامٌ مَحصورةٌ وأَنفاسٌ مَعدودةٌ.

(٨٥) ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: نَجمَعُهُم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: إلى رَبِّهِم الذي غَمَرَهُم برَحمَتِه.

ولاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ، ولعلَّهُ لأنَّ مَساقَ الكلامِ فيها لتعدادِ نِعَمِه الجسامِ وشرحِ حالِ الشَّاكرينَ لها والكافرينَ بها.

﴿وَفْدًا﴾: وافدينَ عليهِ كما يَفِدُ[2] الوُفَّادُ على الملوكِ مُنتظرينَ لكَرامَتِهم وإنعامِهِم.

(٨٦) ـ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساقُ البَهائِمُ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾: عِطاشًا، فإنَّ مَن يَرِدُ الماءَ لا يَرِدُه إلا لِعَطَشٍ، أو كالدَّوابِّ التي تَرِدُ الماءَ.

---

(١) نسبت لأبي نهيك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩)، و«الكشاف» (٥/ ٣١١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يقدم».

(٨٧) ـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾ الضَّميرُ فيه للعبادِ المدلولِ عليه بذكرِ القِسمينِ وهو النَّاصبُ لليومِ.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾: إلَّا مَن تَحلَّى بما يَستَعِدُّ به ويَستأهِلُ أنَّ يشفعَ للعُصاةِ مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ على ما وعدَ اللهُ.

أو: إلَّا مَن اتَّخذَ مِن اللهِ إذنًا فيها؛ كقولِه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [طه: ١٠٩] مِن قَولِهِم: عَهِدَ الأَميرُ إلى فُلانٍ بكَذا: إذَا أَمَرَهُ بِهِ.

وَمَحلُّهُ الرَّفعُ على البَدلِ مِن الضَّميرِ، أو النَّصبُ على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: إلا شَفاعةَ مَن اتَّخذَ، أو على الاستثناءِ.

وقيل: الضَّميرُ للمُجرمينَ، والمعنى: لا يَملِكُونَ الشَّفاعةَ فيهِم إلَّا مَن اتَّخذَ عندَ الرَّحمنِ عَهْدًا يَستَعِدُّ بِهِ أن يشفعَ له بالإسلامِ.

(٨٨) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ الضَّميرُ يَحتَمِلُ الوَجهينِ؛ لأنَّ هذا لَمَّا كانَ مَقُولًا فيما بينَ النَّاسِ جازَ أَنْ يُنسبَ إليهِم.

(٨٩) ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ على الالتفاتِ للمُبالغَةِ في الذَّمِّ، والتَّسجيلِ عَلَيهِم بالجَراءةِ عَلى اللهِ، والإِدُّ بالفَتحِ والكَسرِ: العَظيمُ المُنكَرُ، والإِدَّةُ: الشِّدَّةُ، وأَدَّنِي الأَمرُ وآدَنِي: أثقَلَنِي وعَظُمَ عَلَيَّ.

(٩٠) ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ وقرأَ نافِعٌ والكِسائيُّ بالياءِ[1] ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: يَتشقَّقْنَ مَرَّةً بعدَ أُخرى.

وقرأَ أبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ وحمزَةُ وأبو بكرٍ ويَعقوبُ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[2]، والأَوَّلُ أبلَغُ لأنَّ التَّفعُّلَ مُطاوِعُ فَعَّلَ والانفِعالَ مُطاوِعُ فَعَلَ، ولأنَّ أصلَ التَّفعُّلَ للتَّكلُّفِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾: تُهَدُّ هَدًّا، أو: مَهدودةً، أو: لأنَّها تُهَدُّ[1]؛ أي: تُكسَرُ، وهو تقريرٌ لكونِه إدًّا.

والمعنى: أنَّ هولَ هذه الكلمةِ وعِظَمَها بحيثُ لو تُصوِّرَ بصُورَةٍ مَحسوسَةٍ لم تَتحمَّلْهَا هذه الأجرامُ العِظامُ وتَفتَّتَتْ مِن شِدَّتِها، أو أنَّ فَظاعَتَها مُجلِبَةٌ لغَضبِ اللهِ بحيثُ لولا حِلمُهُ لخَرَّبَ العالمَ وبدَّدَ قوائِمَهُ غضبًا على مَن تَفوَّهَ بها.

(٩١) - ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا﴾ يحتمِلُ النَّصبَ على العِلَّةِ لـ﴿تَكَادُ﴾ أو لـ﴿هَدًّا﴾ على حَذفِ اللامِ وإفضاءِ الفعلِ إليه، والجَرَّ بإضمارِ اللامِ أو بالإبدالِ مِن الهاءِ في ﴿مِنۡهُ﴾، والرَّفعَ على أنَّه خبرُ مَحذوفٍ تقديرُهُ: الموجبُ لذلك أَنْ دَعَوْا، أو فاعلُ ﴿هَدًّا﴾؛ أي: هَدَّها دعاءُ الوَلدِ للرَّحمنِ.

وهو مِن (دعا) بمعنى سمَّى المُتعدِّي إلى مَفعُولَيْنِ، وإنَّما اقتصرَ على المفعولِ الثَّاني ليُحيطَ بكلِّ ما دُعِي له وَلدًا، أو مِن (دعا) بمعنى: نَسَبَ، الذي مُطاوعُه: ادَّعَى إلى فلانٍ: إذا انتسبَ إليه.

(٩٢ - ٩٣) - ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: ولا يليقُ به اتِّخاذُ الولدِ، ولا يَنطلِبُ[2] له لو طُلبَ مثلًا لأنَّه مُستحيلٌ، ولعلَّ تَرتيبَ الحكمِ بصِفَةِ الرَّحمانيَّةِ للإشعارِ بأنَّ كلَّ ما عداه نِعمَةٌ ومُنعَمٌ عليهِ، فلا يجانسُ مَن هو مبدأُ النِّعَمِ كُلِّها ومُوْلي أُصولِها وفُروعِهَا، فكيفَ يُمكِنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلدًا؟

ثمَّ صَرَّحَ به في قولِه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ما مِنهُم ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾: إلَّا وهُوَ مملوكٌ له يَأوِي إليه بالعُبوديَّةِ والانقيادِ.

---

(١) قوله: «أو لأنها تهد»؛ أي: على أن ﴿هَدًّا﴾ مفعولٌ له.

(٢) انفعال من الطَّلب؛ أي: لا يحصل.

وقُرِئَ: (آتِ الرَّحمنَ) على الأصلِ[1].

(٩٤) ـ ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾: حَصَرَهُم وأحاطَ بهـم بحيثُ لا يخرجونَ عَن حَوْزَةِ علمِهِ وقَبضَةِ قُدرَتِه.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾: عَدَّ أشخاصَهُم وأنفاسَهُم وأفعالَهُم فإنَّ كلَّ شيءٍ عنده بمِقدارٍ.

(٩٥) ـ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾: مُنفرِدًا عـن الأتـباعِ والأنصارِ، فلا يُجانِسُه شيءٌ مِن ذلك ليتَّخِذَه ولدًا ولا يناسبهُ ليشركَ به.

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِثُ لَهُـم في القُلـوبِ مَوَدَّةً مِـن غَيرِ تَعرُّضٍ مِنْهُم لأَسـبابِها، وعـن النبيِّ ﷺ: «إذا أحـبَّ اللهُ عَبْـدًا يقولُ لجبريـلَ: أحبَبْـتُ فُلانًا فَأَحِبَّـهُ، فيُحِبُّهُ جِبريلُ، ثـمَّ يُنادِي فـي أهـلِ السَّـماءِ: إنَّ اللهَ قَـدْ أَحَـبَّ فُلانًـا فَأَحِبُّـوهُ، فيُحِبُّهُ أَهلُ السَّـماءِ، ثـمَّ تُوضَعُ لـه المَحبَّةُ فـي الأرضِ»[2].

والسِّينُ إما لأنَّ السُّورةَ مَكِّيَّةٌ وكانوا مَمقوتينَ حينئذٍ بينَ الكفرَةِ فوعَدَه ذلك إذا دجا[3] الإِسلامُ، أو لأنَّ الموعودَ في القيامَةِ حينَ تُعْرَضُ حَسناتُهُم على رُؤوسِ الأَشهادِ فيُنزَعُ ما في صُدورِهِم مِن الغلِّ.

(٩٧) ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: بأَنْ أَنْزلناهُ بلُغَتِكَ، والباءُ بمَعنى (على)، أو على أَصلِهِ لتَضمُّنِ (يَسَّرْنَا) مَعنى (أنزلنا)؛ أي: أنزلناهُ بلُغَتِك.

---

(١) نسبت لابن مسعود ويعقوب وأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أي: عمَّ وكثر.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الصَّائرينَ[١] إلى[٢] التَّقوى ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾: أشدَّاءَ الخُصومةِ آخذينَ في كُلِّ لَديدٍ؛ أي: كلِّ شقٍّ مِن المراءِ والجدالِ لِفرطِ لَجاجِهِم، فبَشِّرْ بهِ وأَنْذِرْ.

(٩٨) - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تَخويفٌ للكَفَرَةِ وتَجسيرٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ على إنذارِهِم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: هل تشعرُ بأَحدٍ مِنْهُم وتَراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقُرِئَ: (تُسْمَعُ)[٣] مِن أُسْمِعْتَ.

والرِّكزُ: الصَّوتُ الخَفِيُّ، وأَصلُ التَّركيبِ هو الخفاءُ، ومِنهُ: رَكَزَ الرُّمْحَ: إذا غَيَّبَ طَرْفَهُ في الأرضِ، والرِّكَازُ: المالُ المَدفونُ.

عَن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ مَريمَ أُعطِيَ عشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن كذَّبَ زَكريَّا وصَدَّقَ بهِ ويحيى ومَريمَ وعِيسى وسائرَ الأنبياءِ المذكورينَ فيها، وبعَدَدِ مَن دعَا اللهَ في الدُّنيا ومَن لَمْ يَدْعُ اللهَ»[٤].

***

---

(١) أي: الراجعين.

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «الصابرين على».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن حنظلة.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥) من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٨٢٠)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ
ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وزكريا يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري، أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة، وقوله ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: إن الله يعلم القلب التقيّ، ويسمع الصوت الخفيّ، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب يا رب يا رب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾أي ضعفت وخارت القوى﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبارُ عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك، وقوله: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾، قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه

دونهم هذا وجه. (**الثاني**) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. (**الثالث**) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: « لا نورث، ما تركناه صدقة ». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: « نحن معشر الأنبياء لا نورث ». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ ويرث من آل يعقوب﴾ كقوله: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة . إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة »، قال مجاهد: كان وراثته علماً وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وعن أبي صالح في قوله﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿ واجعله رب رضياً﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾، كما قال تعالى: ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾، وقوله: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً﴾. قال قتادة: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم[1] ، وقال مجاهد: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي شبيهاً، أخذه من معنى قوله: ﴿ هل تعلم له سمياً﴾ ؟ أي شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، ولهذا قال: ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها[2] ، ومع أنه

---

(١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله .

(٢) ذكر السهيلي: أن امرأته اسمها (إيشاع بنت فاقوذ) ، وهي أخت حنة بنت فاقوذ، قاله الطبري، وحنة هي أم مريم . وقال العتبي : امرأة زكريا هي (إيشاع بنت عمران)، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى على الحقيقة، وعلى القول=

قد كبر وعتا، أي عسا عظمه، ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا، وقال مجاهد: ﴿ عتياً ﴾ يعني قحول العظم، وقال ابن عباس وغيره، عتياً يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر، ﴿ قال ﴾ أي المَلَك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو عليَّ هين ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ۚ قال أو لم تؤمن ؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾، ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ أي أن يُحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي، من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبّح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ أي متتابعات[1] وقال مالك، عن زيد ابن أسلم: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿ إلا رمزاً ﴾ أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار، إشارة خفية سريعة ﴿ أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار[2] . وقال مجاهد: أي كتب لهم في الأرض .

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو (التوراة) التي كانوا يتدارسونها بينهم، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم

= الأول يكون ابن خالة أمه، وفي حديث الإسراء قال عليه السلام: « فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى »، وهذا شاهد للقول الأول .

(١) القول الأول عن ابن عباس وعن الجمهور أصح كما في آل عمران ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ .

(٢) وهذا القول أرجح، وبه قال وهب وقتادة .

به عليه وعلى والديه، فقال ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للّعب خلقنا. وقوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ قال ابن عباس: يقول ورحمة من عندنا. وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وحناناً من لدنا﴾ وتعطفاً من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من السياق أن قوله ﴿وحناناً﴾ معطوف على قوله ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً، وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، وفي المسند للإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان». وقد يثنى كما قال طرفة:

أبا منذر أفنيتَ فاستبق بعضَنا حنانيك بعضُ الشر أهون من بعض

وقوله تعالى ﴿وزكاة﴾ معطوف على ﴿وحنانا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة الزكاة: العمل الصالح، وقال الضحّاك: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس ﴿وزكاة﴾ قال: بركة ﴿وكان تقياً﴾ طاهراً فلم يذنب، وقوله﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة، وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[1]، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمتُ على نفسي وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً، مباركاً،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: وفي إسناده ضعف.

عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك[1] ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبيّ بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعتزلتهم، وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس، عن ابن عباس، قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس[2]. وعنه قال: إني لأعلم خلق الله لأيّ شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿مكاناً شرقياً﴾ شاسعاً متنحياً، وقوله ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحاك ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾: يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا هو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، قال أبو وائل: قد علمت أن التقي ذو نهية، حين قالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها، لست مما تظنين، ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾، ﴿قالت أنى يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف

(١) ذكر السهيلي: أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا (مريم ابنة عمران) فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، وذكر أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ ولا يبتذلون أسماءهن، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال، ولم يصونوا أسماء الإماء عن الذكر، فصرح الله باسم مريم لما قالت النصارى في مريم تأكيداً لعبوديتها، وإجراء الكلام على عادة العرب من ذكر إمائها، وتكرر ذكر عيسى منسوباً إلى أمه لتشعر القلوب بنفي أبوة الله وبنزاهة أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذه هي العلة في توجه النصارى جهة المشرق.

يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً﴾ والبغي هي الزانية، ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هيّن﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت، إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ﴿ورحمة منا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال، قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس، سبّح في بطني وكبّر، وقوله: ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾، وقال: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾، قال محمد بن إسحاق ﴿وكان أمراً مقضياً﴾: أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

* فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم، انها لما قال لها جبريل ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد، بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم بـه، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قـد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى، وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص[1]. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج، عن ابن عباس، وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قال ابن كثير: هذا القول عن ابن عباس غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فحملته فانتبذت به مكان قصياً﴾ =

والمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرَّض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليَّ، قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حبّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها، وسلم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها. قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم، وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبها يوسف، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله تعالى: ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فاضطرها وألجأها إلى جذع النخلة، في المكان الذي تنحت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب ابن منبه: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية يقال لها بيت لحم، وهذا هو المشهور، الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت ﴿يا ليتني متُّ قبل هذا﴾ أي قبل هذا الحمل ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس، وقال قتادة ﴿وكنت نسياً منسياً﴾: أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري الناس من أنا. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

= فأجاءها المخاض﴾ فالفاء للتعقيب ولكن تعقيب كل شيء بحسبه.

اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿ فناداها من تحتها ﴾ جبريل[١]، ولم يتكلم عيسى حتى أتت بـه قومها، أي ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال: عيسى بن مريم، وقال الحسن: هو ابنها[٢]. قال: أو لم تسمع الله يقول ﴿ فأشارت إليه ﴾، وقوله ﴿ أن لا تحزني ﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾، عن البراء بن عازب، وعن ابن عباس: السري النهر، وقال الضحّاك: هو النهر الصغير بالسريانية، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير، وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام[٣]. والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة قاله ابن عباس، وقيل: مثمرة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه: ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً • فكلي واشربي وقري عيناً ﴾ أي طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ أي مهما رأيت من أحد، ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد بـه القول اللفظي، لئلا ينافي ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾، قال أنس بن مالك في قوله ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحّاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام. روى ابن إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها، أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت[٤]. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم ﴿ لا تحزني ﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ ﴿ يا ليتني مت قبل هـذا وكنت نسياً منسياً ﴾.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

---

(١) وهو قول الضحاك والسدي وقتادة وسعيد بن جبير

(٢) وهو رواية سعيد بن جبير واختاره ابن جرير.

(٣) وبه قال الحسن والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد، وهو ضعيف والقول الأول أظهر كما قال ابن كثير.

(٤) رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وأن لا تكلم أحـداً من البشر، فإنها ستكفى أمرها ويقـام بحجتها، فسلمت لأمر الله عزّ وجلّ واستسلمت لقضائه؛ فأخذت ولدهـا فأتت بـه قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرهـا واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي أمراً عظيماً، ﴿يا أخت هرون﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال السدي: قيل لها ﴿يا أخت هرون﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون[١]، فكانت تقاس بـه في الزهادة والعبادة. وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم. كما قال الإمام أحمد، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿يا أخت هرون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[٢].

وقال ابن جرير، عن قتادة قوله ﴿يا أخت هرون﴾ الآية قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن النـاس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون بـه، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي أنهم لمـا استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لهـا ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها هذا صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بهـا ظانين أنهـا تزدري بهم وتلعب بهم ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾؟ قال السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هـذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حـال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿قال: إني عبد الله﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وقوله: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئـة لأمّه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً - إلى قوله - ما دمت حياً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾، قال مجاهد: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عنه: نفاعاً، وقوله: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾. وقوله: ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾، وقوله: ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾

---

(١) قال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، ليس بهارون أخي موسى بن عمران، فإن بينهما من الدهر الطويل والقرون الماضية والأمم الخالية ما قد عرفه الناس.

(٢) وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك، قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾. وقوله: ﴿ والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ إثبات منه لعبوديته لله عزّ وجلّ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة، فقال: ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصير كما يشاء كما قال: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، وقوله: ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدي ومن خالفه ضل وغوى، وقوله: ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن ابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم. أن (قسطنطين) جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً جداً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فمال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ تهديد

ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجّلهم حلماً فإنه الذي لا يعجّل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» وقد قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، ولهذا قال ههنا ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يوم يأتوننا﴾ يعني يوم القيامة، ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أي في الدنيا ﴿في ضلال مبين﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إذ قضي الأمر﴾: أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وهم﴾ أي اليوم ﴿في غفلة﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي: لا يصدقون به. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال، فيشرئبون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال، فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال، فيؤمر به فيذبح، قال، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾، وأشار بيده ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»[1].

وقال السُّدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أتي بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق

---

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك.

أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾: يقول إذا ذبح الموت[1]. وقال ابن عباس: ﴿يوم الحسرة﴾ من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذره عباده، وقال عبدالرحمن بن زيد، في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ قال يوم القيامة، وقرأ: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾، وقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، خبر إبراهيم خليل الرحمن، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً، ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾، وقوله ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾: أي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾.

* قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه إنه قال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾؟ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لأرجمنك﴾، قاله ابن عباس[1]، وقوله: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد: يعني دهراً، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: أبداً. وقال ابن عباس ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة[2]، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾، ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾، ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إنه كان بي حفياً﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته. وقال قتادة ومجاهد ﴿إنه كان بي حفياً﴾ قالا: عوده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به، ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم﴾، وقوله: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكلا جعلنا

(١) وقاله أيضاً السدي وابن جريج والضحّاك وغيرهم.

(٢) وكذا قال الضحّاك وقتادة وأبو مالك، واختاره ابن جرير.

نبياً﴾ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف. فإنه نبي أيضاً. وقوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾، قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿علياً﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة، وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وقوله: ﴿وناديناه من جانب الطور﴾ أي الجانب ﴿الأيمن﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غربيه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه. روى ابن جرير، عن ابن عباس ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدني حتى سمع صريف القلم. وقال السدي ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وروى ابن أبي حاتم، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً، وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له[1]

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها. وقال ابن جرير، عن سهل بن عقيل، إن (إسماعيل) النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه،

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فجاء ونسي الرجل فظل بـه إسماعيل، وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا ؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿ كان صادق الوعد﴾ ، وقد روى أبو داود في سننه، عن عبدالله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له عليَّ بقية، فوعدته أن آتيه بهـا في مكانه ذلك، قـال فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: « يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك »، وقال بعضهم: إنمـا قيل له ﴿ صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق في ذلك، فصدقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافـق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان »(١)، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحـداً شيئاً إلا وفى له بـه، وقـد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: « حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي »

وقوله تعالى: ﴿ وكان رسولاً نبياً﴾ في هـذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنمـا وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقـد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه، وقوله: ﴿ وكان يأمر أهلـه بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾، هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عزّ وجلّ، آمراً بهـا لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قـام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء »(٢). وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »(٣)

۞ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه، بأنه كان صدِّيقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقـد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرَّ بـه في ليله الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وقال مجاهد في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن مجاهد ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة، وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: الجنة.

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ له.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۩

يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية. قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عنى بـه من ذرية آدم (إدريس)، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم)، والذي عنى بـه من ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب وإسماعيل) ، والذي عنى بـه من ذرية إسرائيل (موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم)، قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح، (**قلت**) : هـذا هو الأظهر ، أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام، وفي صحيح البخاري عن مجاهد: « أنه سأل ابن عباس أفي ﴿ ص﴾ سجدة ؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قـال وهو منهم يعني داود . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم . قال سفيان الثوري قرأ عمر بن الخطاب رضي عنه سورة مريم فسجد « وقال هذا السجود، فأين البكي ؟ يريـد البكاء »(١)

* فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه ﴿ خلف من بعدهم خلف﴾ أي قرون أخر ، ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بهـا ، فهؤلاء سيلقون غياً ، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي واختاره ابن جرير ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمـام أحمد، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة »(٢) ، والحديث الآخر : « العهد الذي

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

(٢) الحديث : أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بلفظ « بين الرجل وبين الشرك والكفر ... » .

بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »، وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقيل لابن مسعود: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، و ﴿ على صلاتهم دائمون﴾، و ﴿ على صلاتهم يحافظون﴾، فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة ؛ وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن، وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة. وقال ابن جرير، عن مجاهد ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض. وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عزّ وجلّ: شرَّابين للقهوات، ترَّاكين للصلوات، لعَّابين بالكعبات، رقَّادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾، وقال الحسن البصري: عطَّلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي، وقوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾، قال ابن عباس: أي خسراناً، وقال قتادة شراً، وقال عبدالله بن مسعود ﴿ فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله ﴿ فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم. وقوله ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ ذلك لأنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها. وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

۞ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿ جنات عدن﴾ أي إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده﴾ بظهر الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿ إنه كان

(١) أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري .

وعده مأتياً﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا ﴿مأتياً﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿مأتياً﴾ بمعنى آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليَّ خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد، وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وقوله ﴿إلا سلاماً﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾، وقوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبّحون الله بكرة وعشياً»[1]. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[2]. وقال الضحّاك عن ابن عباس ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير، عن الوليد بن أسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار، برفع الحجب وبفتح الأبواب. وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقوله: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عزّ وجلّ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال، فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾[3]. وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبرائيل وقال: يا محمد ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ الآية. وقوله: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾، قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي، وقيل ﴿ما بين أيدينا﴾: ما يستقبل من أمر الآخرة، ﴿وما خلفنا﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ورواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجه البخاري في باب التفسير ورواه الإمام أحمد.

أي ما مضى من الدنيا، ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، واختاره ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وما كان ربك نسياً﴾، قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيك ربك، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾، وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما كان ربك نسياً﴾[١]. وقوله: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً[٢]. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

* وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾، وقال ههنا: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا • أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾، يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده؟ وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[٣]، وقوله: ﴿فوربك لنحشرهم والشياطين﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا بدّ أن يحشرهم جميعاً، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾، قال ابن عباس: يعني قعوداً كقوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ وقال السدي في قوله ﴿جثياً﴾ يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ يعني من كل أمة قاله مجاهد، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال الثوري عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾، وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى، ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) وهو قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

ربنا هولاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾، وقوله: ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾، المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة: ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

روى الإمام أحمد، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً ». وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك ؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال إني ذكرت قول الله عزّ وجلّ ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا ، وكان مريضاً[1] .وقال ابن جرير عن ابي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها، وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك، قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال عبد الرزاق خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، أنتم لها واردون ﴾ وردوا أم لا ؟ وقال: ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ أوردهم أم لا ؟ أمّا أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع. وقال: عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق. فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم »[2]. وقد رواه أسباط عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجُل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة، عليه حسك كحسك القتاد، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[3] ، وقال ابن جرير، عن عبد الله قوله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق .

(٢) رواه أحمد والترمذي .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما. عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية »، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود. وقال قتادة قوله: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم » وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: حتماً، قال قضاء، وقوله ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار، والعصاة، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾، وقال قوم نوح، ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقال تعالى: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ؟ ولهذا قال تعالى، راداً عليهم شبهتهم: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾: أي وكم من أمة وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم ﴿ هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً. قال ابن عباس ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، وهو كما قال الله تعالى ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾ فالمقام المسكن والنعيم، والندي: المجلس، والمجمع، الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم

قشافة، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، ومنهم من قال في الأثاث هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري يعني الصوَر، وكذا قال مالك ﴿أثاثاً ورئياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً، والكل متقارب صحيح.

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ أي فليمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿إما العذاب﴾ يصيبه، ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه، ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

۞ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ الآيتين. وقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير مرداً﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها. عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون[1]

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

روى الإمام أحمد، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على (العاص بن وائل) دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم

(١) رواه عبد الرزاق وظاهره أنه مرسل ولكن وقع في سنن ابن ماجة عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكره وهو حديث مرفوع.

تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثمَّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾(١)، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه، فذكر الحديث وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: موثقاً.

وروى عبدالرزاق، عن مسروق قال، قال خباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضاها، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات. وقال ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون (العاص بن وائل) بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾، وقوله: ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾، قرأ بعضهم بفتح الواو من ﴿ولداً﴾ وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ماله في الآخرة، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقوله ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد، قال مجاهد ﴿ونرثه ما يقول﴾: ماله وولده، وقال قتادة ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾ ﴿ويأتينا فرداً﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم، أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا، فقال ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد عن خباب بن الأرت.

يوم القيامة ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال السدي ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي بعبادة الأوثان، وقوله ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم. وقال ابن عباس ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعواناً، قال مجاهد: عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم، وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض، وقال الضحاك ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعداء. وقوله: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تشليهم إشلاء، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله: ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إنما نعد لهم عدا﴾ أي إنما نؤخرهم لأجل معدود ومضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، كما قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾، ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾، ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾، وقال السدي: ﴿إنما نعد لهم عدا﴾ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: ﴿إنما نعد لهم عدا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ورداً﴾ عطاشاً[1]، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن مرزوق ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا، فهلم اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾[2]. قال ابن عباس: ركباناً. وقال أبو هريرة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: على الإبل. وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: إلى الجنة، عن ابن النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية ﴿يوم

(١) قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة[1]

وقوله تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ أي عطاشاً، ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، وقوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها. قال ابن عباس: العهد (شهادة إن لا إله إلا الله)، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عزّ وجلّ. وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن يزيد، قال: قرأ عبدالله بن مسعود هذه الآية ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا، قال قولوا: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. قال المسعودي: وكان يلحق بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم﴾ أي في قولكم، هذا ﴿شيئاً إداً﴾، قال ابن عباس: أي عظيماً، وقوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن ادعو للرحمن ولداً﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجَرَة بني آدم إعظاماً للرب و إجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو، قال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ٭ أن دعوا للرحمن ولداً﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة»، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: «تلك أوجب وأوجب»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن»[2]، وقال

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: عليها رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد.

(٢) هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم.

الضحاك ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقـاً من عظمة الله. وقال عبدالرحمن بن زيد ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عزّ وجلّ، ﴿ وتخر الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس: هدماً، وقال سعيد بن جبير هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات. عن عون بن عبدالله: قال إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله عزّ وجلّ؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والبـاطل، إذا قيل ولا يسمعن غيره؟ ثم قرأ ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾[1] الآية وعن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويُجعل له ولد، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم»، أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم». وقوله: ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق بـه لجلاله وعظمته، لأنه لا كفئ له من خلقه، لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾ أي قد علم عددهم، منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم، ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بمـا يشاء، هو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحداً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى: أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه – قال – فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فابغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال، فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع لـه البغضـاء في الأرض»[2] وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله عزّ وجلّ، فلا يزال كذلك، فيقول الله عزّ وجلّ لجبريل إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريـل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم يهبط إلى الأرض[3] وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبـة في أهل الأرض، فذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد، واللفظ لأحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾(١) ، وقال ابن عباس: ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: حباً، وقال مجاهد عنه ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: محبة في النـاس في الدنيا. وقال سعيد بن جبير: يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين، وقال العوفي، عن ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق، وقال قتادة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ إي والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنـا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم، وقـال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عزّ وجلّ رداء عمله .

وقوله تعالى: ﴿ فإنما يسرناه﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك﴾: أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿ لتبشر بـه المتقين﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿ وتنذر بـه قوماً لداً﴾: أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل، وقـال مجاهد ﴿ قوماً لداً﴾ لا يستقيمون، وقال الثوري، عن أبي صالح ﴿ وتنذر به قوماً لداً﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحّاك: الألد الخصم، وقال القرظي: الألد الكذّاب، وقال الحسن البصري ﴿ قوماً لداً﴾ صمـاً، وقـال غيره: صم آذان القلوب، وقال ابن عباس ﴿ قوماً لداً﴾: فجاراً، وكذا روي عن مجاهد، وقـال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ وهو ألد الخصام﴾، وقوله: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾: أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾: أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

[آخر تفسير سورة مريم . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) ورواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح .

تفسير سورة مريم [عليها السلام][١]

وهى مكية.

وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه [٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أى: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا.

وقرأ يحيى بن يعمر «ذَكَّرَ رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا».

[و][٣] ﴿زَكَرِيَّا﴾: يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل. وفى صحيح البخارى: أنه كان نجارًا، أى: كان يأكل من عمل يديه فى النجارة.

وقوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاه الماوردى.

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: إن الله يعلم القلب التقى[٤]، ويسمع الصوت الخفى.

وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يارب، يارب، يارب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى: ضعفت[٥] وخارت القوى، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أى:

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة (٥/ ٢٩٠) ومن حديث ابن مسعود (١/ ٤٦١).

(٣) زيادة من ت، ف. (٤) فى ت: «النقى». (٥) فى ت، ف: «ضعف».

اضطرم المشيب فى السواد، كما قال ابن دُرَيد فى مقصورته [(١)]:

إمَّا[(٢)] تَرَىْ رأسِى حَاكىَ لونُهُ   طُرَّةَ صُبْـحٍ تَحـتَ أذْيَـال الدُّجـى
واشْتَعَلَ المُبْيَـضَ فـى مُسْوَدّه   مِثْلَ اشتِعَال النَّارِ فى جَمر[(٣)] الغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة[(٤)] فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿الْمَوَالِى﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائى أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأنَّ أيْديهنّ فى القَاعِ الفَرِقْ   أيدى جَوَارٍ يَتَعَاطَينَ الوَرِقْ[(٥)]

وقال الآخر:

فَتًى لو يُبَارى الشَّمسَ ألْقَتْ قِنَاعَها   أو القَمَرَ السَّارى لألْقَى المَقَالدَا

ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى:

تَغَايَر الشِّعْرُ فيه[(٦)] إذ سَـهِـرت لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَـوافيه سَتَقتتلُ[(٧)]

وقال مجاهد، وقتادة، والسدى: أراد بالموالى العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة.

وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى اللّه عنه، أنه كان يقرؤها: «وإنى خَفَّت الموالى من ورائى» بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصباتى[(٨)] من بعدى.

وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا [من][(٩)] بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل اللّه ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلي ما هذا حده[(١٠)] أن يأنف[(١١)] من وراثة عصباته[(١٢)] له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز[(١٣)] ميراثه دونه دونهم. **هذا وجه.**

الثانى: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب[(١٤)] يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شىء فى الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه: أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا نُورَث ، ما

(١) انظر: شرح مقصورة ابن دريد (ص ٢) . ا. هـ. مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.
(٢) فى أ: «ما».   (٣) فى ت، ف، أ: «جزل».   (٤) فى أ: «إجابة».
(٥) الرجز فى اللسان مادة (فرق) غير منسوب.
(٦) فى ت: «منه».
(٧) البيت فى ديوان أبى تمام (٢٢٧) أ. هـ. مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(٨) فى أ: «عصابتى».   (٩) زيادة من ت، ف.   (١٠) فى أ: « حسده».
(١١) فى أ: «يأتنف».   (١٢) فى أ : «عصابته».   (١٣) فى ف، أ: «ليجوز».
(١٤) فى أ: «من عمل».

تركنا فهو صدقة»[١]. وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»[٢]. وعلى[٣] هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة ؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته[٤] ما صح فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة».

قال مجاهد فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [قال][٥]: كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب .

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: [قد][٦] يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه.

وقال السُّدِّى: يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم.

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: يرث مالى، ويرث من آل يعقوب النبوة.

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا[٧] معمر، عن قتادة: أن رسول الله[٨] ﷺ قال: «يرحم اللَّه زكريا، وما كان عليه من ورثة، ويرحم اللَّه لوطاً، إن كان ليأوى إلى ركن شديد»[٩].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك ـ هو[١٠] ابن فضالة ـ عن الحسن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رحم اللَّه أخى زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾»[١١].

---

(١) جاء من حديث عائشة، وأبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام أما حديث عائشة فرواه البخارى: (٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨). وأما حديث أبو بكر فرواه البخارى برقم (٣٧/١) ومسلم برقم (١٧٥٩). وأما حديث عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة والزبير، فرواه البخارى برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).

(٢) لم أجده فى سنن الترمذى المطبوع بهذا اللفظ. وانظر كلام الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية والوجوه التى تحمل عليها فى الفتح (٨/١٢).

(٣) فى ف: «فعلى». (٤) فى أ: «ونبينه». (٥) زيادة من ف.

(٦) زيادة من ف، أ. (٧) فى ت: «حدثنا». (٨) فى ف، أ: «أن النبى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٥) وقد وصل طرفه الثانى: «يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد».
الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٠) من طريق الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(١٠) فى ف: «وهو».

(١١) تفسير الطبرى (٣٧/١٦).

وهذه مرسلات لاتعارض الصحاح، والله أعلم .

وقوله: ﴿ واجْعَلْهُ ربِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل[له][1] : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمرن: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أى: شبيهاً.

أخذه من معنى قوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أى: شبيهاً.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى لم تلد العواقر قبله مثله.

وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما[2] لا لعقرهما[3] ؛ ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله[4]، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ .

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته [كانت][5] عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل[6] ولم يبق فيه لقاح ولاجماع.

تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتَا يَعْتو عِتيا وعُتُوا، وعَسا يَعْسو عُسوا وعِسيا».

---

(١) زيادة من ف،أ. (٢) فى أ: «لكبرهما». (٣) فى أ: «لا لعقرها».
(٤) فى ت، أ: «أنه قد كان ولد له قبل»، وفى ف: «أنه كان ولد له قبل». (٥) زيادة من ف،أ. (٦) فى أ: «وقحل».

وقال مجاهد: ﴿عِتِيًّا﴾ بمعنى: نحول [١] العظم.

وقال ابن عباس وغيره. ﴿عِتِيًّا﴾ يعنى: الكبر.

والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن عِكْرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنى لا أدرى أكان رسول اللّه ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو ﴿عسياً﴾.

ورواه الإمام أحمد عن سُرَيْج[٢] بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم، به.

﴿قَالَ﴾ أى الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها﴿هَيِّنٌ﴾ أى: يسير سهل على اللّه.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس[٤] لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة[٥].

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ووهب[بن منبه][٦]، والسدى وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح[٧]، كما قال تعالى فى [أول][٨] آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ

---

(١) فى أ: «يعنى قحول».

(٢) فى ف، أ: «شريح».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/٣٩)، والمسند (١/٢٤٩) وسنن أبى دوذ برقم (٨٠٩).

(٤) فى ف: «تحتبس». (٥) فى أ: «وعلامة». (٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) فى ف، أ: «واضح». (٨) زيادة من أ.

اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس فى هذه الليالى الثلاث وأيامها ﴿إِلاَّ رَمْزًا ﴾ أى: إشارة؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أى: الذى بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى: موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً للّه على ما أولاه.

قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أشار. وبه قال وهب، وقتادة.

وقال مجاهد فى رواية عنه: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: كتب لهم فى الأرض. كذا قال السدى.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾.

وهذا أيضاً تضمن(١) محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن اللّه علمه الكتاب، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث [السن](٢).

قال عبد اللّه بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت(٣)، قال: فلهذا أنزل اللّه: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لايقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِم بها زكريا.

وقال مجاهد: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: وتعطفاً من ربه عليه.

وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبى رباح: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾](٤)، قال: تعظيماً من لدنا(٥).

---

(١) فى أ: «يضمن». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ف،أ: «خلقنا».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «الدنيا».

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا والله ما أدرى[١] ما حناناً.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها عباس، فلم يحر[٢] فيها شيئاً.

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا [مِّن لَّدُنَّا][٣] ﴾معطوف على قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها، وحنت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحَنَّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر[٤]:

تَحَنَّنْ[٥] عَلَى هَدَاكَ المليكُ فإنَّ لِكُل مَقَام مَقَالا

وفى المسند للإمام أحمد، عن أنس، رضى الله عنه، أن[٦] رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل فى النار ينادى ألف سنة: ياحنان يامنان»[٧].

وقد يُثنّى[٨]، ومنهم من يجعل ما ورد من[٩] ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أَبَا مُنْذر أفنيتَ فاستْبق بَعْضَنَا حَنَانَيكَ بَعْض الشَّر أهْونُ مِنْ بَعْض[١٠]

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على﴿وَحَنَانًا ﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب.

وقال قتادة: الزكاة[١١] العمل الصالح.

وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكى.

وقال العوفيين ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ [قال: بركة][١٢] ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنب.

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته[١٣] عقوقهما، قولاً وفعلاً [وأمراً][١٤] ونهياً؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى: له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه فى محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ

(١) فى ت، أ: «لا أدرى». (٢) فى ف، أ: «يخبر». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) هو الحطيئة، والبيت فى اللسان، مادة «حنن». (٥) فى أ: «تعطف». (٦) فى ت، ف، أ: «عن».
(٧) المسند (٣/ ٢٣٠).
(٨) فى أ: «يعنى». (٩) فى أ: «فى».
(١٠) البيت فى ديوانه (ص ٢٠٨) أ.هـ مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(١١) فى ت: «والزكاة».
(١٢) زيادة من ف،أ. (١٣) فى ف: «ومجانبة». (١٤) زيادة من أ.

يُبْعَثُ حَيًّا ﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزى عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معْمر، عن قتادة، فى قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبى ﷺ: « ما من أحد يلقى اللَّه يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا ». قال قتادة ما أذنب ولا همّ بامرأة، مرسل[١].

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال[٢]: « كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»[٣] ابن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فاللَّه أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مهْران، عن ابن عباس، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو همّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[٤].

وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأن على بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، واللَّه أعلم.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لى، أنت خير منى. فقال له الآخر: استغفر لى فأنت[٥] خير منى. فقال له عيسى: أنت خير منى، سَلّمتُ على نفسى، وسلم اللَّه عليك، فَعرُف واللَّه فضلهما.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾.

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، فى حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً ـ عطف بذكر قصة مريم فى إيجاده ولدها عيسى، عليهما[٦] السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة[٧]؛ ولهذا ذكرهما فى آل عمران وههنا وفى سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧).

(٢) فى ت: «أنه قال».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٣) من طريق محمد بن إسحاق به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، ورجح أبو حاتم وقفه، وقال لابنه: «لا يرفعون هذا الحديث».

(٤) المسند (١/ ٢٥٤).

(٥) فى أ: «أنت». (٦) فى ف، أ: «عليه». (٧) فى أ: «ومتشابهة».

قادر[١] ، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهى مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر اللّه تعالى قصة ولادة أمّها لها فى« آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أى: تخدم[٢] مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت[٣] إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة[٤] والتبتل والدؤوب، وكانت فى كفالة زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبى بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذى يرجعون إليه فى دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر[٥] الشتاء فى الصيف وثمر[٦] الصيف فى الشتاء، كما تقدم بيانه فى« آل عمران». فلما أراد اللّه تعالى ـ وله الحكمة والحجة البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام، ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

قال السدى: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْنَة، عن قابوس بن أبي ظَبْيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد اللّه، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إنى لأعلم خلق اللّه لأى شىء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقول اللّه تعالى[٧]: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا[٨] ميلاد عيسى قبلة[٩].

وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنحياً.

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقى [من][١٠] الماء.

وقال نَوْف البِكَالِّى: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فاللّه[١١] أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى: استترت منهم وتوارت، فأرسل اللّه تعالى إليها جبريل، عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيْج[١٢]، ووهب بن مُنَبِّه، والسُّدِّى فى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام.

---

(١) فى ت، أ: «قدير». (٢) فى أ: «لخدمة». (٣) فى ت: «وكانت».
(٤) فى ت: «والعظمة». (٥ ، ٦) فى أ: «ثمرة».
(٧) فى ت: «لقول الله عز وجل»، وفى ف: «لقوله». (٨) فى أ: «فاتخذوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٥).
(١٠) زيادة من ت، ف، أ. (١١) فى ت: «والله». (١٢) فى ت: «وابن جرير».

وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وقال أبو جعفر الرازى[١]، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم، وهو الذى تمثل لها بشراً سوياً، أى: روح عيسى، فحملت الذى خاطبها وحل فى فيها.

وهذا فى غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلى.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: لما تَبَدى لها الملك فى صورة بشر، وهى[٢] فى مكان منفرد وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كنت تخاف الله. تذكير[٣] له بالله، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، عز وجل.

قال ابن جرير: حدثنى أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل ـ وذكر قصة مريم ـ فقال: قد علمت أن التقى ذو نُهْيَة حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما[٤] حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا[٥] وعاد إلى هيئته وقال: «إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكيا».

[هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهورى القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾][٦] وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم[٧] الأخرى.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولايتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغى: هى الزانية؛ ولهذا جاء فى الحديث نهى عن مهر البغى. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد[٨] منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر[٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع[١٠] فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى ونجعل[١١] هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة

---

(١) فى أ: «وقال أبو جعفر الرازى عن أبيه». (٢) فى ت، ف، أ: «وهو». (٣) فى أ: «تذكر».
(٤) فى أ: «لما». (٥) فى ف، أ: «فزعًا». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يستلزم». (٨) فى ت، ف، أ: «ولا يوجد». (٩) فى أ: «قدير».
(١٠) فى ت، ف، أ: «تنوع». (١١) فى ت، ف، أ: «ويجعل».

اللّه تعالى وتوحيده، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أى: يدعو إلى عبادة الله ربه فى مهده[1] وكهولته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم ـ دُحَيْمُ ـ حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفى، عن مجاهد قال: قالت مريم، عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى، وإذا كنت مع الناس سبح فى بطنى وكبر .

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم اللّه تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر اللّه تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى: أن اللّه قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره، ولم يحك غيره، واللّه أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن اللّه تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء اللّه تعالى[2]. فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك ـ وهو جبريل عليه السلام ـ عند ذلك نفخ فى جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بالولد بإذن اللّه تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعاً به[3]، ولم تدر ماذا تقول[4] للناس، فإنها تعلم أن الناس لايصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل اللّه الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يامريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أنى حبلى؟ وذكرت لها شأنها وماكان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت[5] مريم تجد الذى فى جوفها[6] يسجد للذى فى بطن مريم، أى: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر اللّه الملائكة أن تسجد[7] لآدم، عليه السلام، ولكن حرم فى ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك، رحمه اللّه: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن

---

(١) فى ت، أ: «المهد». (٢) فى ت: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «بهما».
(٤) فى ت: «يقول». (٥) فى أ: «وجهت». (٦) فى ف: «بطنها». (٧) فى ف، أ: «يسجدوا».

زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن اللَّه جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر ـ قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرنى المغيرة بن عثمان[١] بن عبد اللَّه الثقفى، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت[٢].

وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب[٣] كل شىء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا** ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت فى الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً[٤]. وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً** ﴾ [الحج: ٦٣] . فالمشهور الظاهر ـ واللَّه على كل شىء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما[٥] يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمّل ما هى فيه، فجعل أمرها يجوس فى فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول، فقال: يا مريم، إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى علىّ . قالت: وما هو ؟ قال: هل يكون قط شجر[٦] من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم ـ فهمت[٧] ما أشار إليه ـ أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن اللَّه قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر «وهل خلق يكون من غير أب؟»[٨] ، فإن اللَّه قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها[٩] ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فَطَرَ لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث فى بنى إسرائيل، فقالوا: « إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها فى الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا[١٠] يراها أحد ولا

(١) فى أ: «ابن عتبة». (٢) فى ت، أ: «وضعت». (٣) فى أ: «تعقب».
(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وسيأتى عند تفسير الآية: ٥ من سورة الحج.
(٥) فى ف : «لما». (٦) فى ف: «شجر قط». (٧) فى أ: «وفهمت».
(٨) فى أ :« وهل يكون ولد من غير أب». (٩) فى أ: « قلبها». (١٠) فى ف، أ: «فلم».

تراه.

وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [أى: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة](١). وهى نخلة فى المكان التى تنحت إليه.

وقد اختلفوا فيه، فقال السدى: كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس.

وقال وهب بن مُنَبِّه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق.

وفى رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، فى قرية هناك يقال لها: «بيت لحم».

قلت: وقد تقدم فى حديث(٢) الإسراء، من رواية النسائى عن أنس، رضى الله عنه، والبيهقى عن شَدَّاد بن أوس، رضى الله عنه: أن ذلك ببيت لحم. فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس. وقد ورد به الحديث إن صح .

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها فى خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ،فقالت :﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أى: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: لم أخلق ولم أك شيئاً. قاله ابن عباس.

وقال السدى: قالت وهى تطلق من الحبل ـ استحياء من الناس: يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه، والحزن بولادتى المولود من غير بَعْل ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ نُسىَ فتُرِك طلبه، كخِرَق الحيض التى إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شىء نُسِى وترك فهو نَسِىّ.

وقال قتادة :﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولايدرى من أنا.

وقال الربيع بن أنس: ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: وهو(٣) السقط.

وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط.

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾.

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف: «أحاديث». (٣) فى ف، أ: «أى».

قرأ بعضهم: ﴿ مَن تَحْتِهَا﴾ بمعنى[1] : الذى تحتها. وقرأ آخرون. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر.

واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو؟ فقال العوفى وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدى، وقتادة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى: ناداها من أسفل الوادى .

وقال مجاهد: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى[2] الروايتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها، قال: أو لم[3] تسمع اللَّه يقول: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾؟ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير فى تفسيره[4].

وقوله: ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ أى: ناداها قائلاً: لا تحزنى، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثورى وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قال: الجدول. وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: السرىّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه.

وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية .

وقال سعيد بن جُبَيْر: السرى: النهر الصغير بالنبطية.

وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية .

وقال إبراهيم النَّخَعِى: هو النهر الصغير.

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وقال وهب بن مُنَبِّه: السرى: هو ربيع الماء.

وقال السدى: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع، فقال الطبرانى:

حدثنا أبو شعيب الحَرَّانى: حدثنا يحيى بن عبد اللَّه البَابلُتِّى[5]، حدثنا أيوب بن نَهِيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن السرى الذى قال اللَّه لمريم : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه اللَّه لتشرب منه»[6]. وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى[7]، قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف . وقال أبو زُرْعَة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدى: متروك الحديث.

---

(١) فى أ: «أى». (٢) فى ت: «أحد». (٣) فى ت، أ: «ولم».

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٢).

(٥) فى أ: «يحيى بن عبد النابلتى».

(٦) المعجم الكبير (١٢/ ٣٤٦).

(٧) فى، أ : «الحلبى».

وقال آخرون: المراد بالسرى: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد ابن عَبَّاد بن جعفر. وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: وخذى إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثورى، عن أبى داود[١] نُفَيْع الأعمى: كانت صَرَفَانة[٢].

والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن فى إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أى: طيبى نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا شَيْبَان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى[٣]، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، عن عُرْوة بن رُوَيْم، عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شىء[٤] يُلَقَّح غيرها ». وقال رسول اللَّه ﷺ: « أطعموا نساءكم الولْدَ الرطَبَ، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على اللَّه من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران».

هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به[٥].

وقرأ بعضهم قوله: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهِيك: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، وروى أبو إسحاق عن البـراء: أنه قرأها: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾[٦] أى: الجذع. والكل متقارب .

وقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن[٧] المراد به القول اللفظى، لئلا ينافى: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

قال أنس بن مالك فى قوله: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى: صمتاً[٨]. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفى رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا فى شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدى،

---

(١) فى ت: «عن أبى الأسود». (٢) فى ف، أ: « صوفانة». (٣) فى ت: «التيمى».
(٤) فى ف: «وليس شىء من الشجر».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٣٥٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٣) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٣١) من طريق مسرور بن سعد التميمى به، وقد ذكر له ابن عدى ثلاث علل:
١ ـ تفرد به مسرور عن الأوزاعى فهو منكر.
٢ ـ أنه منقطع بين عروة بن رويم وعلى بن أبى طالب.
٣ ـ أن مسور بن سعيد غير معروف. قلت: وضعفه ابن حبان والعقيلى.
(٦) فى أ: «يساقط». (٧) فى ت: «لأن». (٨) فى أ: «صوتًا».

وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد اللّه بن مسعود: كَلِّم الناس وسلم عليهم، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج. يعنى بذلك مريم، عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، رحمهما اللّه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معى؟! لا ذاتُ زوج ولا مملوكة، أى شيء عذرى عند الناس؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها[1] ستكفى أمرها ويقام بحجتها[2]، فسلمت لأمر اللّه، عز وجل، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدى، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد اللّه بن أبى زياد، حدثنا سَيَّار[3]، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نوف البِكَالىّ قال: وخرج قومها فى طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا[4] منها شيئاً، فرأوا[5] راعى بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها[6] سُجَّداً نحو هذ الوادى . قال عبد اللّه بن أبى زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أمراً عظيماً. ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: يا شبيهة هارون فى العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أى: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح

---

(١) فى ف، أ: «فإنه». (٢) فى ف: «وتقام حجتها». (٣) فى ت: «سفيان»، وفى أ: «شيبان».
(٤) فى ت: «يحسبوا». (٥) فى أ: «فَلَقوا». (٦) فى ف، أ: «رأيتها الليلة».

والعبادة والزهادة[١] ، فكيف صدر هذا منك؟

قال على بن أبى طلحة[٢]، والسدى: قيل لها: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: أخى موسى، وكانت من نسله[٣]، كما يقال للتميمى: يا أخا تميم، وللمضرى: يا أخا مضر.

وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس[٤] به فى العبادة، والزهادة.

وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم. يقال له: هارون. ورواه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبى حاتم.

حدثنا على بن الحسين الهِسِنْجَانى[٥] ،حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا المفضل بن فَضَالة، حدثنا أبو صخر، عن القُرَظى فى قول اللَّه عز وجل: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾، قال: هى أخت هارون لأبيه وأمه، وهى أخت موسى أخى هارون التى قَصَّت أثر موسى، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

وهذا القول خطأ محض؛ فإن اللَّه تعالى قد ذكر فى كتابه أنه قفَّى بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً وليس بعده إلا محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه[٦]؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عند البخارى، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى[٧] ﷺ أنه قال: « أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه[٨] ليس بينى وبينه نبى» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظى، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. ولكان قبل سليمان و[٩] داود؛ فإن اللَّه قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، والذى جرأ القرظى على هذه المقالة ما فى التوراة بعد خروج موسى وبنى إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن اللَّه ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل. فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى. وهى[١٠] هفوة وغلطة شديدة، بل هى باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء[١١] أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد اللَّه بن إدريس، سمعت أبي يذكره[١٢] عن سمَاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة ابن شعبة قال: بعثنى رسول اللَّه ﷺ إلى نجران ،فقالوا: أرأيت ماتقرؤون: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾،

(١) فى ت: «والزهاد». (٢) فى أ: «طالب». (٣) فى ت: «قبيلتة».
(٤) فى ت، ف: «تقاسى» . (٥) فى : «الححستانى». (٦) فى ف: «عليه وسلامه».
(٧) فى ف، أ: «عن رسول الله ». (٨) فى أ: «إن أولى الناس بابن مريم لأنَا إن». (٩) فى أ: «بن».
(١٠) فى ف، أ: «وهذه». (١١) فى ف، أ : «باسم». (١٢) فى أ: «يذكر».

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمَّوْن[١] بالأنبياء والصالحين قبلهم؟ » .

انفرد بإخراجه مسلم، والترمذى، والنسائى، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك، به[٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبى صدقة، عن محمد بن سيرين قال نُبِّئت أن كعباً قال: إن قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾: ليس بهارون أخى موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال[٣]: يا أم المؤمنين، إن كان النبى ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت[٤]. وفى هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولايعرفون بالفساد، [ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد][٥] ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، فى عشيرته، وليس بهارون أخى[٦] موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بنى إسرائيل .

وقوله: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: إنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها[٧]، وقالو لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامتة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؟

قال ميمون بن مِهْران: ﴿ فَأَشَارَتْ [إِلَيْهِ][٨] ﴾، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان فى المهد صبيا! .

وقال السدى: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُها[٩] بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، أول شىء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى[١٠]، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

---

(١) فى ف، أ: «يسمون».

(٢) المسند (٤/ ٢٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣١٥).

(٣) فى ف، أ: «فقال».

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨).

(٥) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٦) فى أ: «وليس أخى بهارون».

(٧) فى ف، أ: «قصتها».

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) فى أ: « لسخرتها».

(١٠) فى ف، أ: «عز وجل».

قال نوف البكَالى: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدى من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البنُانى: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية .

وقال عكرمة: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أى: قضى أنه[1] يؤتينى الكتاب فيما قضى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد[2]، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه[3] فى بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

يحيى بن سعيد العطار الحمصى: متروك.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثورى: وجعلنى معلماً للخير. وفى رواية عن مجاهد: نفَّاعاً .

وقال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد[4] بن خُنَيْس المخزومى، سمعت وُهَيْب بن الورد مولى بنى مخزوم قال: لقى عالم عالماً هو فوقه فى العلم، فقال له: يرحمك اللَّه، ما الذى أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإنه دين اللَّه الذى بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول اللَّه : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس فى قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت[5]، ما أثبتها لأهل القدر .

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى: وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن اللَّه تعالى كثيراً ما يقرن[6] بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثورى: الجبار الشقى: الذى يقبل[7] على الغضب.

---

(١) فى ف، أ: «أن». (٢) فى أ: «يحيى بن سعيد العطار». (٣) فى أ: «واحكمها».
(٤) فى أ: «زيد». (٥) فى أ: «أمره حتى يموت». (٦) فى أ: «قرن كثيرًا».
(٧) فى ف: «يقتل».

وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال: ولاتجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، فى آيات سلطه اللَّه عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذى حملك والثدى الذى أرضعت به، فقال نبى اللَّه عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام[(١)] اللَّه، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته للّه عز وجل، وأنه مخلوق من خلق اللَّه يحيا[(٢)]، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد، [صلوات اللَّه وسلامه عليه][(٣)].

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: عليه ذلك الذى قصصنا[(٤)] عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: «قول الحق» برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد اللَّه بن عامر: ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ﴾.

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «ذلك عيسى ابن مريم قَالُ الحق»، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمرن: ٦٠].

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصير[(٥)] كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: ومما[(٦)] أمر عيسى به[(٧)] قومه وهو فى مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن اللَّه ربهم وربه[(٨)]، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا

(١) فى أ: «كتاب».
(٢) فى أ: «يحيى ويميت».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «قصصناه».
(٥) فى ت: «فتصير».
(٦) فى ت: «ربما».
(٧) فى ت، ف، أ: «به عيسى».
(٨) فى ت، ف: «ربه وربهم».

صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى.

وقوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى: اختلفت[1] أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده[2] ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصَمَّمت طائفة ـ وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زِنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم[3] الله. وقال آخرون: هو ابن اللَّه. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذى أرشد الله إليه[4] المؤمنين. وقد روى [نحو هذا][5] عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا[6] مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا[7] فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء ـ وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل[8] أنت فيه. قال: هو ابن الله ـ وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله ـ وهم الإسرائيلية ملوك[9] النصارى، عليهم لعائن اللَّه. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فَظُهِرَ على المسلمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال[10] قتادة: وهم الذين قال اللَّه: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً[11].

وقد روى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة[12] منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا فى عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافاً متبايناً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولا[13]، وسبعون تقول[14] فيه قولاً آخر، وخمسون تقول[15] فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّمُوا عليه[16]، ومال[17] إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هى الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء[18]،

---

(١) فى أ: «اختلف».
(٢) فى ت: «عبد الله».
(٣) فى ف، أ: «يكلم».
(٤) فى ت: «فيه».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «حدثنا».
(٧) فى أ: «فامتتروا».
(٨) فى أ: «قلت».
(٩) فى ت: «ملك».
(١٠) فى ت، ف، أ: «قال».
(١١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩).
(١٢) فى ت: «الأساومة».
(١٣) فى أ: «شيئا».
(١٤، ١٥) فى ف، أ: «يقولون».
(١٦) فى ت: «عليهم».
(١٧) فى ف، أ: «فمال».
(١٨) فى أ: «شيئًا».

وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرَّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم[١] الكنائس الكبار فى مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنتى عشرة[٢] ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذى صلب فيه المصلوب[٣] الذى تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا بل، رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عصاه، كما جاء فى الصحيحين: « إن الله ليملى[٤] للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذىً سمعه[٥] من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم:٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله [ورسوله][٧] ،وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٨].

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار [يوم القيامة][٩] أنهم أسْمَعُ شىء وأبْصَرُه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] أى: يقولون ذلك حين لاينفعهم ولا يجدى[١٠] عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ[١١] وَأَبْصِرْ ﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

(٢) فى ت، ف، أ: «فابتنى لهم حينئذ». (٢) فى أ: «اثنى عشر»، وهو خطأ والصواب ما بالأصل.
(٣) فى ت: «المصلون». (٤) فى ت: «إنه ليملى». (٥) فى ت: «يسمعه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى ومسلم.
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩).
(٩) زيادة من ف، أ. (١٠) فى ت: «يجزى». (١١) فى أ: «به».

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ،﴿ وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ أى :لايُصَدقون به .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد [الخدرى][(١)] قال: قال رسول الله ﷺ:« إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال:«فيشرئبون [فينظرون][(٢)] ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به[(٣)] فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت » قال: ثم قرأ رسول اللّهﷺ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وأشار بيده[(٤)]. قال: « أهل الدنيا فى غفلة الدنيا».

هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، من حديث الأعمش، به[(٥)] .ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثنى أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعاً، مثله. وفى سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، بنحوه[(٦)]. وهو فى الصحيحين عن ابن عمر[(٧)].ورواه ابن جُرَيْج قال : قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه[(٨)]. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون[(٩)] . وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فى قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار، وهو يوم الحسرة.[فيرى أهل النار البيت الذى كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحا، كان لكم هذا الذى ترونه فى الجنة. فتأخذهم الحسرة][(١٠)]. قال: ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار، فيقال: لولا أن مَنَّ الله عليكم. . .[(١١)] .

وقال السدى، عن زياد، عن زرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت فى صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادى مناد: ياأهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُميتُ الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى : يا أهل

(١) زيادة من ف. (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فيؤتى بهم».
(٤) المسند(٣/ ٩).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٨) وصحيح مسلم برقم(٢٨٥٠).
(٨) أخرجه الطبرى فى تفسيره(١٦/ ٦٦).
(٩) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٦٧).
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٦٦).

النار، هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا فذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ . يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يَدّعى مُلْكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقى بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

قال ابن أبى حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسى: حدثنا حزم بن أبى حزم القُطَعى قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ[1]: واذكر فى الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين[2] هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو[3] كان صديقاً نبياً ـ مع أبيه ـ كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

(١) فى ف: «صلوات الله وسلامه عليه». (٢) فى ت، ف: «الذى». (٣) فى ف: «وقد».

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى: لا تطعه[1] فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ[2] لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعنى: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبى إبراهيم [لولده إبراهيم][3] فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: [إن كنت لا][4] تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتك، وهو[5] قوله: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدى، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم .

وقوله: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعنى دهراً .

وقال الحسن البصرى: زماناً طويلاً .

وقال السدى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: أبداً .

وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة وعطية الجدلى و[أبو][6] مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

(١) فى أ: «لا تطيعه» وهو خطأ، والصواب ما بالأصل. (٢) فى ت: «فيكون». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من ف، أ، وفى هـ : «أما». (٥) فى أ: «وهى». (٦) زيادة من ف، أ.

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ يعنى: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ،﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أى: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما :﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال[1]: [و][2]عوَّدَه الإجابة.

وقال السدى: «الحفي»: الذى يَهْتَم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، فى قوله: ﴿ رَبَّنَا[3] اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١].

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [الممتحنة: ٤] ، يعنى إلا فى هذا القول، فلا[4] تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال[5] تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها [من دون الله][6] ،﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: وأعبد ربى وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾.

يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق ،كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء:٧٢]، وقال: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن فى سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أى: جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء، أقر الله بهم

---

(١) فى أ: «قالوا». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، ف، أ: «رب».
(٤) فى ت: «ولا». (٥) فى ت: «وقال». (٦) زيادة من ف، أ.

عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نُبئَ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله»[1] . وفى اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[2].

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى الثناء الحسن. وكذا قال السدى، ومالك بن أنس.

وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿ عَلِيًّا ﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عَطَف بذكر الكليم، فقال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص فى العبادة.

قال الثورى[3]، عن عبد العزيز بن رُفَيع[4]، عن أبى لبابة[5] قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذى يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس.

وقرأ الآخرون[6] بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾[الأعراف: ١٤٤].

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾، جُمِع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى[7] العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أى: الجبل ﴿الأَيْمَنِ ﴾ أى: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها فى جانب الطور الأيمن منه[8]، عند شاطئ الوادى. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه وناجاه[9]. قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[10]، حدثنا يحيى ـ هو القطان ـ حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب[11]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: أدنى حتى سمع[12] صريف القلم.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٨).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).
(٣) فى أ: «قال العوفى». (٤) فى ت: «نفيع». (٥) فى ت: «تمامة».
(٦) فى أ: «قرأ آخرون». (٧) فى ت: «وأولى». (٨) فى ت، ف، أ: «منه غربية».
(٩) فى ت: «ناداه أو قربه فناجاه». (١٠) فى ت: «ابن يسار».
(١١) فى ت: «ابن يسارى»، وفى أ: «ابن يسار». (١٢) فى ت: «يسمع».

وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة.

وقال السدى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾قال: أدخل فى السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن معْمَر، عن قتادة: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: نجا بصدقه[١].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحرانى، عن أبى الوصل، عن شهر بن حَوْشَب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أى: وأجبنا سؤاله وشفاعته فى أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال[٢] : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ ، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وقد ذكره ابن أبى حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقى، به .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ .

هذا[٣] ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ .

قال[٤] ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدة إلا أنجزها، يعنى: ما التزم قط عبادة[٥] بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبى، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسى الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا ؟ قال: لا. قال: إنى نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتينى. فلذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

---

(١) فى ت: «لصدقه». (٢) فى ت، ف: «إلى أن قال». (٣) فى أ: «وهذا».
(٤) فى ت: «قالت». (٥) فى ف، أ: «عبادة قط».

وقال سفيان الثورى: بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه.

وقال ابن[١] شَوْذَب: بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً .

وقد روى أبو داود فى سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد الله [٢]بن مَيْسَرة، عن عبد الكريم ـ يعنى: ابن عبد الله بن شَقيق ـ عن أبيه، عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علىّ بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت[٣] يومى والغد، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك، فقال لى: «يا فتى، لقد شققت[٤] علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» لفظ الخرائطى[٥]، وساق آثاراً حسنة فى ذلك.

ورواه ابن مَنْده أبو عبد الله فى كتاب «معرفة الصحابة»، بإسناده[٦] عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن بُدَيْل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به [٧].

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق فى ذلك.

فَصدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٨].

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفّى له به، وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى»[٩]. ولما توفى النبى ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عدةٌ أو دَيْن فليأتنى أنجز له، فجاءه[١٠] جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعنى: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بِعَدِّه، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها[١١].

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾: فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما

---

(١) فى ت: «أبو». (٢) فى سنن أبى داود: «بديل». (٣) فى ت: «نسيت».

(٤) فى ت: «لو أشفقت».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٩٩٦) ومكارم الأخلاق برقم (١٧٧).

(٦) فى ت، أ: «إنه بإسناده».

(٧) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٣/ ١١٣) بإسناده إلى إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة مثله.

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٢٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه.

(١٠) فى أ: «فجاء».

(١١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٤).

وصف[(١)] بالنبوّة فقط، وإسماعيل وصف[(٢)] بالنبوّة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم[(٣)] أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. . . . » وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة[(٤)]، حيث كان مثابراً على طاعة ربه آمراً بها لأهله[(٥)]، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ الآية [التحريم: ٦] أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت[(٦)] في وجهه الماء » أخرجه أبو داود، وابن ماجه[(٧)].

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له[(٨)].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾.

وهذا[(٩)] ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه[(١٠)] كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شَمِر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله ـ عز وجل ـ لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً[(١١)]، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا، فكلم لي[(١٢)] ملك الموت، فَلْيُؤخرني حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم مَلَك الموت منحدراً، فكلم ملكَ الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس

(١، ٢) في ف: «وصفه».
(٣) لفظه عند مسلم في صحيحه برقم (٢٢٧٦): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشًا»، والله أعلم.
(٤) في ت: «الشديدة». (٥) في ف: «أهله». (٦) في ت: «فنضحت».
(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٦).
(٨) سنن أبي داود برقم (١٤٥١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥).
(٩) في ت: «وهكذا». (١٠) في أ: «فإنه». (١١) في ف، أ: «تزداد علمًا».
(١٢) في ت: «له».

فى السماء الرابعة». فجعلت أقول: كيف[(١)] أقبض روحه فى السماء الرابعة، وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك[(٢)] قول الله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[(٣)].

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه[(٤)] ابن أبى حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحو ماتقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله ـ يعنى: ملك الموت ـ كم بقي من أجلى لكى أزداد من العمل وذكر باقيه[(٥)]، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال[(٦)]: لا أدرى حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألنى[(٧)] عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك[(٨)] تحت جناحه إلى إدريس، فإذا[(٩)] هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به.

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان[(١٠)] لا يغرز إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسى حين يمسى[(١١)]، وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذى قبله، أو نحوه.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: [رفع إلى][(١٢)] السماء الرابعة.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم.

وقال الحسن، وغيره، فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: الجنة.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون ـ وليس المراد [هؤلاء][(١٣)] المذكورين فى هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ـ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ الآية.

---

(١) فى ف: «فكيف».
(٢) فى ف: «فهذا».
(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٢).
(٤) فى أ: «وقد روى».
(٥) فى أ: «وذكر ما فيه».
(٦) فى ف، أ: «فقال».
(٧) فى ف، أ: «لتسألنى».
(٨) فى أ: «ملك الموت».
(٩) فى ت: «قال».
(١٠) فى ف: «وكان».
(١١) فى أ: «وكان يمشى حين يمشى».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) زيادة من ف، أ.

قال السدى وابن جرير، رحمه الله: [فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم][١]، والذى عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذى عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم.

قال ابن جرير: ولذلك[٢] فرّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس فى عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذا من حديث الإسراء، حيث قال فى سلامه على النبى ﷺ: «مرحباً بالنبى الصالح، والأخ الصالح»، ولم يَقُل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وابراهيم[٣]، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الله بن محمد[٤] أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا[٥] ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل.

[ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ][٦] إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٨٣ـ ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ[٧]﴾[غافر: ٧٨]. وفى صحيح البخارى، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفى «ص» سجدة؟ قال[٨]: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، فنبيكم ممن أُمرَ أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعنى داود[٩].

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة.

«والبُكِىّ»: جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم[١٠].

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمَر قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضى

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «وكذلك». (٣) فى ت: «إبراهيم وآدم».
(٤) فى ف، أ: «ابن عمر» (٥) فى ف، أ: «ويعملون» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى ت، ف، أ: «عليك وكلم الله موسى تكليما». (٨) فى ف، أ: «فقال».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ف، أ: «لمواليهم».

الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، وسَقَط من روايته ذكر «أبى معمر» فيما رأيت[1]، ولله[2] أعلم.

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾.

لما ذكر تعالى حزْبَ السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره ـ ذكر أنه ﴿ خَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى: قرون أخر، ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾ ـ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد ـ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أى: خَسَاراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكلية، قاله محمد بن كعب القُرَظى، وابن زيد بن أسلم، والسدى، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث[3]: « بين العبد وبين الشرك تَرْكُ الصلاة»[4]، والحديث الآخر: « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر »[5]. وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال الأوزاعى، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيمرة فى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً.

وقال وكيع، عن المسعودى، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك[6] الكفر.

[و][7] قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن.

وقال الأوزاعى، عن إبراهيم بن يزيد[8]: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ثم قال: لم تكن[9] إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٣).

(٢) فى ف، أ: «فالله». (٣) فى أ: «الحديث».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨٢) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٢١) والنسائى فى السنن (١/ ٢٣١) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٦) فى ت، ف، أ: «ذلك». (٧) زيادة من ت، ف. (٨) فى أ:« زيد». (٩) فى ت، ف،أ: «يكن».

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة، وكذا روى ابن جُرَيج، عن مجاهد، مثله [١].

وروى جابر الجُعْفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون فى آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾، قال: هم فى هذه، الأمة [٢]، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق، لا يخافون الله فى السماء، ولا يستحيون الناس فى الأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطى، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير [٣]: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به. والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به.

وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن، المقرئ [٤]، به [٥].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب [٦]، عن مالك، عن [٧] أبى الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشىء صدقة لأهل الصفَّة، وتقول: لا تعطوا منه بربريا ولا بربرية، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾». هذا حديث غريب [٨].

وقال أيضاً: حدثنى أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيز [٩]، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع محمد بن كعب القُرَظِي يقول فى قوله [١٠]: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب [١١]، يملكون وهم شر من ملك.

---

(١) فى ت: «منكم». (٢) فى ت، ف: «الآية». (٣) فى ف، أ: «بشر».
(٤) فى ف، أ: «المقبرى».
(٥) المسند (٣/ ٣٨).
(٦) فى ف، أ: «ابن وهب». (٧) فى ف: «ابن».
(٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٤٤) من طريق الحسن بن على عن إبراهيم بن موسى به.
وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبى بقوله: «عبيد الله مختلف فى توثيقه، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع».
(٩) فى ت، ف، أ: «ابن جرير». (١٠) فى ف: «قول الله عز وجل». (١١) فى ت: «القرى»، وفى أ: «المغرب».

وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات تراكين[(١)] للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجمعات[(٢)] قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

وقال أبو الأشهب العُطَارِدي: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى داود: يا داود، حَذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته على[(٣)] أن أحرمه طاعتى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو [السمح][(٤)] التميمى، عن أبي قبيل[(٥)]، أنه سمع عقبة[(٦)] بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أخاف على أمتى اثنتين: القرآن [واللبن، أما اللبن][(٧)] فيتبعون الرّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»[(٨)].

ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن[(٩)] لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعاً بنحوه تفرد به[(١٠)].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أى: خسرانا. وقال قتادة: شراً.

وقال سفيان الثورى، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبى إسحاق السَّبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: واد فى جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم.

وقال الأعمش، عن زياد، عن أبى عياض فى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبى طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زبان، حدثنا شرقى بن قطامى، عن لقمان بن عامر الخزاعى قال: جئت أبا أمامة صُدَىّ بن[(١١)] عَجْلان الباهلى فقلت: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر[(١٢)] أواق قذف بها من شفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً،

---

(١) فى أ: «تاركين». (٢) فى أ: «للجماعات». (٣) فى أ: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند. (٥) فى أ: «عن ابن قنبل». (٦) فى ت: «عبد الله».
(٧) فى هـ، ت، ف، أ: «الكنى، أما الكنى» والمثبت فى المسند.
(٨) المسند (٤/١٥٦) والمراد باللبن كما قال الحربى: «أظنه أراد يتباعدون عن الأمصار وعن صلاة الجماعة، ويطلبون مواضع اللبن فى المراعى والبوادى».
(٩) فى ت: «أبى».
(١٠) المسند (٤/١٤٦).
(١١) فى ت: «حدثنى». (١٢) فى ف: «عشر عشر»، وفى أ: «عشر عشراوات».

ثم تنتهي إلى غي وآثام ». قال: قلت: وما غي وآثام؟ قال: « بئران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان[1] ذكر الله في كتابه: ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾» وقوله في الفرقان: ﴿ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[2].

هذ حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾، أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجُبُّ ما قبلها. وفي الحديث الآخر: « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[3]؛ ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص[4] لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هَدَراً وترك نسيا، وذهب مَجَّانا، من كرم الكريم، وحلم الحليم.

وهذ الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾.

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها[5] التائبون من ذنوبهم، هي﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿و كَانَ[6]وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: ١٨] أي: كائنا لا محالة.

وقوله ههنا: ﴿ مَأْتِيًّا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه.

ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى[واحد][7].

---

(١) في ف: «اللذان».

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٧٥).

(٣) جاء من حديث أنس بن مالك، وابن مسعود، وأبو سعيد الأنصاري، وابن عباس، رضي الله عنهم، وأجودها حديث ابن مسعود. أخرجه ابن ماجه في السنن برقم (٤٢٥٠) لكنه فيه انقطاع.

(٤) في ف: «فنقص».

(٥) في ت: «يدخل إليها».

(٦) في ت: «إنه كان» وهو خطأ، وفي أ: «كان وعده مفعولاً» وهو الصواب.

(٧) زيادة من ف، أ.

وقوله: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أى: هذه[(١)] الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله: ﴿ إِلاَّ سَلامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا [(٢)]. إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: فى مثل وقت البُكُرات ووقت العَشيّات، لا أن[(٣)] هناك ليلا أو نهارًا [(٤)]، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معْمَر ، عن هَمَّام، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « أول زُمْرَة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لايبصُقون فيها، ولا يتمخطون[(٥)] فيها، ولا يتَغَوّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم [(٦)] الألوّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخّ ساقيهما[(٧)] من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث معمر، به[(٨)] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن[(٩)] ابن إسحاق، حدثنى الحارث بن[(١٠)] فضيل الأنصارى، عن محمود بن لبيد الأنصارى، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ:«الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[(١١)] . تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير :حدثنا على بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى :﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال : ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وبفتح [(١٢)]الأبواب .

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيْد، عن الحسن البصرى، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب[(١٣)] يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتُهمْهِم [(١٤)] انفتحى انغلقى، فتفعل.

---

(١) فى ت، ف: «أى: فى هذه» . (٢) فى ت: «تأثيم». (٣) فى ت: «إلا أن» .
(٤) فى ف: «ونهاراً» . (٥) فى ف: «يمتخطون». (٦) فى أ: « ومجامرهم من».
(٧) فى ف: «ساقها» .
(٨) المسند (٢/٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .
(٩) فى ت: «عن موسى بن إسحاق». (١٠) فى ت: «ثم» .
(١١) المسند (١/٢٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٩٤): «إسناد رجاله ثقات» .
(١٢) فى ت، ف : «فتح» . (١٣) فى ت: «أبواب الجنة». (١٤) فى ت: «فيفهمهم»، وفى ف، أ:«فتفهم» .

وقال قتادة فى قوله : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعشى: ليس ثم[1] ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور .

وقال مجاهد ليس [فيها] [2] بكرة ولا عشى، ولكن يُؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: كانت العرب، الأنْعَم فيهم، من يتغدّى ويتعشى، ونزل[3] القرآن على ما فى أنفسهم[4] من النعيم ،فقال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وقال ابن مهدى، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن :﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد على العشى، والعشى يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سليم[5] بن منصور بن عمار، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن زياد قاضى أهل شَمْشَاط[6] عن عبد الله بن جرير[7] ،عن أبى سلمة بن عبدالرحمن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التى خلقت من الزعفران»[8].

قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

[وقوله تعالى][9]: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أى: هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون للّه ـ عز وجل ـ فى السراء والضراء، والكاظمون[10] الغيظ والعافون[11] عن الناس، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ١١] .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلى ووَكيع قالا: حدثنا عمر بن ذَرّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَيْر،عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال: فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية .

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبى نعيم، عن عمر بن ذَرّ، به. ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر، به[12] .وعندهما زيادة فى آخر الحديث، فكان

(١) فى أ: «ثمت». (٢) زيادة من ف، أ . (٣) فى أ: «فنزل» .
(٤) فى ف : «نفوسهم» . (٥) فى جميع النسخ: «سليمان» والمثبت من الجرح والتعديل ٤/ ١/ ١٧٦ .
(٦) فى أ: «شمياط» . (٧) فى ت ،ف، أ : «جدير » .
(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق سليم بن منصور بن عمار به وقال: «ولايعرف هذا إلا لمنصور بهذا الإسناد»، ومنصور بن عمار ضعفه العقيلى وقال أبو حاتم: ليس بالقوى .
(٩) زيادة من ت، وفى أ: «وقوله» . (١٠) فى ت، ف: «والكاظمين» . (١١) فى ت، ف: «والعافين».
(١٢) المسند (١/ ٢٣١)، (١/ ٢٣٣) وصحيح البخارى برقم (٤٧٣١) وتفسير الطبرى (١٦/ ٧٨) .

ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

وقال العوفى، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتى عشرة ليلة، ويقولون [قُلِيَ](١) ، فلما جاءه قال: ياجبريل، لقد رِثْتَ عليّ ،حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ [لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ](٢) وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال: وهذه الآية كالتى فى الضحى.

وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحم، وقتادة، والسدى، وغير واحد: إنها نزلت فى احتباس جبريل.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النـزول على رسول الله ﷺ أربعين يومًا، ثم نزل، فقال له النبى ﷺ :«ما نزلت حتى اشتقت إليك ». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكنى مأمور، فأوحِيَ إلى جبريل أن قل له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية. رواه ابن أبى حاتم، رحمه الله، وهو غريب .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسلُ على النبى ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال لـه: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنْقُون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ :﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو عامر النحوى، حدثنا محمد بن إبراهيم الصورى، حدثنا سليمان ابن عبد الرحمن [الدمشقى](٣) حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرنى ثعلبة بن مسلم، عن أبى كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ؛ أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له ، فقال: وكيف وأنتم لاتَسْتَنّون، ولا تُقَلّمُون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تُنْقُون رواجبكم .

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه(٤) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب ـ [ختن](٥) مالك بن دينار ـ حدثنى شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «أصلحى لنا المجلس ، فإنه ينزل(٦) ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط»(٧) .

وقوله :﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبى العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن

---

(١) زيادة من ت، ف، أ .   (٢) فى ت، ف ، أ: «إلى قوله» .   (٣) زيادة من ت، ف، أ .
(٤) المعجم الكبير (١١/ ٤٣١) والمسند (١/ ٢٤٣) وفى إسناده أبو كعب مولى ابن عباس، قال أبو زرعة: «لايسمى ولا يعرف إلا فى هذا الحديث» .
(٥) فى هـ، ت، ف: «عن»، والمثبت من أ، والمسند .   (٦) فى ف، أ :«يتنزل» .
(٧) المسند (٦/ ٢٩٦) .

جبير. وقتادة ،فى رواية عنهما، والسدى، والربيع بن أنس .

وقيل :﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة ،﴿وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أى :ما مضى من الدنيا، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أى: ما بين الدنيا والآخرة . يروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثورى. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: قال مجاهد [والسُدِّى][١] : معناه: ما نسيك ربك .

وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله :﴿وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ـ٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقى، حدثنا محمد بن عثمان[٢]ـ يعنى أبا الجماهر[٣] ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبى الدرداء يرفعه قال: « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت [عنه][٤] فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى[٥] شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [٦] .

وقوله :﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [أى: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه، ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ] [٧]هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبها.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

وقال عكرمة ،عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾.

يُخْبِر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ

---

(١) زيادة من ت ،ف . (٢) فى ت: «ابن عباس» . (٣) فى أ: «أبا الجماهير» .

(٤) زيادة من ت، ف، أ . (٥) فى أ: «لينسنا» .

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٢٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش به وقال: «إسناده صالح» .

ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٥) ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٢) عن طريق أبى نعيم الفضل بن دكين عن عاصم بن رجاء عن أبيه به وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

وله شاهد من حديث سلمان رضى الله عنه .

(٧) زيادة من ت، ف ، أ .

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئذا كُنَّا تُرَابًا أئنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الإنسانُ أئذا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلا يَذْكُرُ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعنى أنه، تعالى [قد][1] خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، وفى الصحيح: « يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله: إن لى ولداً ، وأنا الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد[2] ،ولم يكن له[3] كفواً أحد »[4] .

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس : يعنى: قعوداً ،كقوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقال السدى فى قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾: يعنى: قياماً ، وروى عن مرة، عن ابن مسعود [مثله] [5] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يعنى: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

قال الثورى، عن [على بن الأقمر][6]، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة[7]، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرما ،وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ قال: ثم لننزعن من أهل كل[8] دين قادتهم [ورؤساءهم][9] فى الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾: «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلّد فيها، وبمن[10] يستحق تضعيف

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: «ألد ولم أولد» . (٣) فى ف، أ: «لى» .
(٤) صحيح البخاى برقم (٤٩٧٥) .
(٥) زيادة من ف، أ . (٦) زيادة من ت، ف، أ، وفى هـ: «أبى»والمثبت من الطبرى.
(٧) فى ت: «المغيرة». (٨) فى ت، ف: «من كل أهل» . (٩) زيادة من ت، ف، أ .
(١٠) فى ت، ف، أ: «ومن» .

العذاب، كما قال فى الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسانى، عن أبى سُمَيَّة قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعاً ـ وقال سليمان مرَّةً[(١)] يدخلونها جميعاً ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن[(٢)] برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً»[(٣)]. غريب ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن[(٤)] أبى مروان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهى خامدة.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال: كان عبد الله بن رَوَاحة واضعاً رأسه فى حِجْر امرأته، فبكى، فبكت امرأته فقال[(٥)]: ما يبكيك؟ فقالت:[(٦)] رأيتك تبكى فبكيت. قال: إنى ذكرت قول الله عز وجل: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ**[(٧)] **إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾، فلا أدرى أنجو منها أم لا؟[(٨)]، وفى رواية: وكان مريضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِغْول، عن أبى إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمى لم تلدنى ثم يبكى، فقيل: مايبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها، ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها[(٩)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصرى قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ [قال فما رُئى ضاحكاً حتى لحق بالله][(١٠)].

---

(١) فى أ: «سليمان بن مرة». (٢) فى ف: «المؤمنين».
(٣) المسند (٣/٣٢٨) وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٣٠٦): «رجاله ثقات».
(٤) فى ف: «عن». (٥) فى ف: «قال». (٦) فى أ: «قالت».
(٧) فى ت: «وما منكم».
(٨) تفسير عبد الرزاق (٢/١١).
(٩) تفسير الطبرى (١٦/٨٢).
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرنى من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود[١] :الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُون ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وردوا أم لا؟ وقال: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]: أوردٌ هو[٢] أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع[٣] .

وروى ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُورى ـ وهو نافع بن الأزرق ـ: ﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك: أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[هود: ٩٨]، ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم: ٨٦]، ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجنى من النار سالماً ، وأدخلنى الجنة غانماً[٤] .

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبيد المحاربى، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا[٥] .

وقال أبو داود الطيالسى: قال شعبة، أخبرنى عبد الله بن السائب، عمن سمع ابن عباس يقرؤها [كذلك][٦]: «وإن منهم إلا واردها» يعنى: الكفار [٧] .

وهكذا روى عمرو بن الوليد الشَّنِّى[٨] ، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: «وإن منهم إلا واردها»، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير.

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يعنى: البر والفاجر ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾، فسمى الورود فى النار دخولاً، وليس بصادر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾: قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس [النار][٩] كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم » .

---

(١) فى ت: «المورود» .
(٢) فى ت: «أوردهم»، وفى أ: «أوردوها » .
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١) .
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٢) .
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٤) .
(٦) زيادة من ت، ف، أ .
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٣) .
(٨) فى أ: «السنى».
(٩) زيادة من ت، ف،أ، والمسند.

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدى به[١] . ورواه من طريق شعبة، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفا[٢] [٣] .

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدى، عن مُرّة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق[٤] ، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضعى[٥] إبهامى قدميه، يمر يتكفأ[٦] به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلّة، عليه حَسَك كَحَسك القَتَاد، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه[٧] ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبى الأحوص[٨] عن عبد الله: قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلّم سَلّم .

ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم[٩] .

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة عن الجُرَيرى، عن [أبى السليل][١٠] ، عن غُنَيْم ابن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس[١١] كأنها مَتْن[١٢] إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن امسكى أصحابك، ودعى أصحابى. قال: فتخسف بكل ولى لها، ولهى أعلم بهم[١٣] من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبى الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين[١٤] ، يدفع به الدفع فيصرع به فى النار سبعمائة ألف[١٥] .

---

(١) المسند (١/ ٤٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٩) وقال: «حديث حسن، ورواه شعبة عن السدى فلم يرفعه» .
(٢) فى ت، ف: «مرفوعا».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٦٠) .
(٤) فى ف، أ: «البرق الخاطف». (٥) فى أ: «موضع». (٦) فى أ: «فيمر فيكفأ» .
(٧) فى ت، ف : «ورواه» . (٨) فى ت: «مولى الأحوص» .
(٩) أما حديث أنس فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٦٧) وضعَّف إسناده .
وأما حديث أبى هريرة فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) .
وأما حدث أبى سعيد فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣).
(١٠) فى هـ: «ابن أبى ليلى» والمثبت من ت، ف، أ، والطبرى .
(١١) فى ف، أ: «الناس» . (١٢) فى أ: «بين» . (١٣) فى أ: «فتخسف بكل وليها وهى أعلم بهم» .
(١٤) فى ت، ف، أ : «عمود وشعبتين» .
(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٢) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن أم مُبَشِّر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو ألا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ أحد شهد بدراً والحديبية » قالت[١]: فقلت: أليس الله يقول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ قالت[٢]: فسمعته يقول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [٣].

وقال [الإمام][٤] أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان[٥]، عن جابر، عن أم مبشر ـ امرأة زيد بن حارثة ـ قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيت حفصة، فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ [٦].

وفى الصحيحين، من حديث الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تَحِلَّة القسم » [٧].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعنى الورود [٨].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا زَمْعَة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، تمسه النار إلا تحلة القسم ». قال الزهرى: كأنه يريد هذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [٩].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعى[١٠]، حدثنا أبو المغيرة[١١]، حدثنا عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعكًا، وأنا معه، ثم قال: « إن الله تعالى يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن؛ لتكون حظه من النار فى الآخرة » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه [١٢].

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر

---

(١) فى ت: «قال». (٢) فى أ: «قال».
(٣) المسند (٦/ ٢٨٥).
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «شقيق».
(٦) المسند (٦/ ٣٦٢).
(٧) صحيح البخارى برقم(٦٦٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٢).
(٨) تفسير عبد الرزاق(٢/ ١١).
(٩) مسند الطيالسى برقم (٢٣٠٤).
(١٠) فى ت: «الخلاعى». (١١) فى ت: «أبو شعبة».
(١٢) تفسير الطبرى (٦/ ٨٣١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٣٨٢) من طريق محمد بن يحيى عن أبى المغيرة به.

مرات، بنى الله له قصراً فى الجنة ». فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله [ﷺ]: «الله[(١)] أكثر وأطيب»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله، كُتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعاً لا بأجرة[(٣)] سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر فى سبيل [الله][(٤)] يُضْعَفُ فوق النفقة بسبعمائة ضعف». وفى رواية: «بسبعمائة ألف ضعف»[(٥)].

وروى أبو داود، عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب [وسعيد بن أبى أيوب][(٦)] كلاهما عن زبان[(٧)]، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: « إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف »[(٨)].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: هو المر عليها[(٩)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النبى ﷺ: « الزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطان من الملائكة، دعاؤهم: يا ألله سلم سلم »[(١٠)].

وقال السدى، عن مرة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً.

وقال مجاهد: [حتماً][(١١)]، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج[(١٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون[(١٣)]، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم ـ وهى مواضع السجود ـ وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، [ثم الذى يليه][(١٤)] حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار

---

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٢) المسند(٣/ ٤٣٧).
(٣) فى ت، ف: «بأجر».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) رواه أحمد فى مسنده(٣/ ٤٣٧) من حديث معاذ بن أنس رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «ريان».
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٤٩٨).
(٩) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١).
(١٠) تفسير الطبرى(١٦/ ٨٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ت: «ابن جرير».
(١٣) فى ت: «فيشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين».
(١٤)زيادة من ف، أ.

من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله»[١] وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤)﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى[٢] عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً][٣]، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك [الذين هم][٤] مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من[٥] الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالا.

[و][٦] قال الأعمش، عن أبى ظَبْيَان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال: المقام: المنزل، والندى: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئى: المنظر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين[٧] أهلكهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ[٨] وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال [الله][٩] فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط[١٠]: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ فى عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تَعَرّض[١١] أهل الشرك بما تسمعون[١٢]: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك.

ومنهم من قال فى الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئى: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد.

---

(١) فى ف: «من قال: لا إله إلا الله يوما من االدهر». (٢) فى ف: «يتلى». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت: «فى». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «حتى».
(٨) فى ت، ف، أ: «وكنوز». (٩) زيادة من: ت، ف. (١٠) فى أ: «لوط إذ قال».
(١١) فى ت: «وفيهم». (١٢) فى ت، ف، أ: «يسمعون».

وقال الحسن البصرى: يعنى الصور. وكذا قال مالك: ﴿أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أى: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أى: فأمهله الرحمن[(١)] فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضى[(٢)] أجله، ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [أى][(٣)]: فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى.

قال مجاهد فى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه[(٤)]، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت[(٥)] إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين[(٦)] صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال[(٧)] بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾.

لما ذكر [الله][(٨)] تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هُدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

---

(١) فى ت، ف، أ: «الله». (٢) فى أ: «ويقضى». (٣) زيادة من أ.

(٤) فى أ: «وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون على هدى قيامهم».

(٥) فى ف: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا ومنكم». وفى أ: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم».

(٦) فى أ: «حتى». (٧) فى ت: «وقال». (٨) زيادة من ت.

وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها فى سورة «الكهف».

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أى: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أى: عاقبة ومراداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فَحَطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح[١]، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن[٢] من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأُهللنّ الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون[٣].

وهذا ظاهره[٤] أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبى سلمة، عن أبى الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع فى سنن ابن ماجه، من حديث أبى معاوية، عن عُمر[٥] بن راشد، عن يحيى، عن أبى سلمة، عن أبى الدرداء، فذكر نحوه[٦].

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد[٧] [فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ][٨] حتى تموت ثم تبعث. قال: فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به[٩]، وفى لفظ البخارى: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق قال: قال خَبَّاب

---

(١) فى أ: «كما يحط ورق هذا الشجر الريح». (٢) فى أ: «وهو».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢).
(٤) فى أ: «وهذا ظاهر». (٥) فى ت: «عمرو».
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٨١٣) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ١٩٤): «هذا إسناد ضعيف».
(٧) فى ت: «محمد». (٨) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٩) المسند (٤/ ١١١) وصحيح البخارى برقم (٢٠٩١)، (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٥).

ابن الأرت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لى عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه[١]، فقال لى: لا أقضيك[٢] حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٣].

وقال العَوْفِىّ عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم[٤] الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به. فضرب الله مثله فى القرآن فقال[٥]: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت فى العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رُؤْبَة:

الحمْدُ للهِ العــــزيز فَرْداً ... لَمْ يتخــذ مِنْ وُلْد شىءُ وُلْدا[٦]

وقال الحارث بن حلزة:

وَلَقَد رأيتُ معَـــاشراً ... قد ثمــــــرُوا مالاً وَوُلْدا[٧]

وقال الشاعر:

فَلَيت فُلاناً كانَ فى بَطْن أمه ... وَليتَ فُلاناً كان وُلْد حِمَار[٨]

وقيل: إن «الوُلْد» بالضم جمع، «والوَلَد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تألى[٩] وحلف على ذلك، ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها[١٠]. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ[١١] عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

---

(١) فى ف، أ: «أتقاضاه». (٢) فى أ: «فقال لى أقضيك».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٣).
(٤) فى ت: «قال فموعدكم». (٥) فى ت: «فقالوا».
(٦) الرجز فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢) واللسان مادة «ولد» غير منسوب.
(٩) فى أ: «حتى مالا». (١٠) فى أ: «فيرجونها».
(١١) فى ف: «أم اتخذ»، وفى هـ: «إلا من اتخذ»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿كَلاَّ﴾: هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: منْ طَلَبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره [بالله][1] في الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتى في الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسلَب منَ الذي كان له في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، [قال: نرثه][2].

وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده».

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له، ولا ولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، فقال: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[3]﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقرأ أبو نَهِيك: «كلٌّ سيكفرون بعبادتهم».

وقال السدي [4]: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما رَجَوا منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعواناً.

قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخاصِمهم وتُكذّبهم.

(١، ٢) زيادة من ف.
(٣) في ت: «كافرون»، وهو خطأ.
(٤) في ت: «السندي».

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء .

وقال قتادة: قرناء فى النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض.

وقال السدى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء فى الخصومة .

وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء.

وقال ابن زيد: الضد: البلاء .

وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواء.

وقال العوفى عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه.

وقال مجاهد: تُشليهم إشلاء[1] .

وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصى الله .

وقال سفيان الثورى: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا.

وقال السدى: تطغيهم طغيانا .

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦] .

وقوله: ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: لا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم ، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] ،﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨] ،﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[لقمان: ٢٤] ،﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] .

قال السدى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين، والشهور، والأيام، والساعات .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم فى الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)﴾ .

---

(١) فى ف : «تمليهم إملاء».

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه فى الدار الدنيا[١]، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه[٢] يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه. والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار، ﴿وِرْدًا﴾: عطاشاً، قاله [عطاء][٣]، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد[٤]، عن عمرو بن قيس الملائى، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفنى؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت فى الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك فى الدنيا، فهلم اركبنى. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: ركباناً.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن المثنى، حدثنا ابن مهدى، عن شعبة[٥]، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبى هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: على الإبل.

وقال ابن جُريج: على النجائب.

وقال الثورى: على الإبل النوق.

وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: إلى الجنة.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا سُوَيْد بن سعيد، أخبرنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علىّ، رضى الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير[٦] الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة[٧].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدنى، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقى مثله.

وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثا غريباً جداً مرفوعاً، عن على، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدى، حدثنا مسلمة بن جعفر البَجَلى،

---

(١) فى ف: «الآخرة».
(٢) فى أ: «أن».
(٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ف: «أبو خالد».
(٥) فى أ: «سعيد».
(٦) فى ف، أ: «لم تر».
(٧) زوائد المسند (١/ ١٥٥) وتفسير الطبرى (١٦/ ٩٦).

سمعت أبا معاذ البصرى قال: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب[١] يا رسول الله. فقال رسول الله[٢] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون ـ أو: يؤتون ـ بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شُرُك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهو أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٣] فيسمع[٤] لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له - قال مسلمة[٥]: أراه قال: ساجداً - فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلةُ فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت ـ حبّى، وأنا حبّك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن. فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفى البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تطرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف لا كَدَر فيه[٦] ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها[٧] الرجال بأقدامهم[٨]، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلى[٩] الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهى الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر[١٠]، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء[١١] وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد فى نور»[١٢].

هكذا وقع فى هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه فى المقدمات من كلام على، رضى الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أى: عطاشا، ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن

---

(١) فى أ: «الركوب». (٢) فى أ: «النبى». (٣) فى ف: «الصفحة».
(٤) فى أ: «فلو تسمع». (٥) فى ف، أ: «سلمة». (٦) فى ف: «فيها».
(٧) فى ف، أ: «يعصرها». (٨) فى أ: «باقدامها». (٩) فى ف، أ: «فيستميل».
(١٠) فى ف، أ: «خضر». (١١) فى ف: «الحور العين، وفى، أ: « من شعر الحور ».
(١٢) ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٧) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن الحارث، عن على أنه سأل النبى ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فذكر نحوه.

شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[الشعراء: ١٠٠، ١٠١] .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، عز وجل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطى، حدثنا محمد بن الحسن الواسطى، عن المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فاختَةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ هذه الآية: ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعلمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عمل تقربنى من الشر وتباعدنى[1] من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل[2] لى عندك عهداً تُؤدّيه إلىّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

قال المسعودى: فحدثنى زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن :خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك[3] .

ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودى ،بنحوه .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(٩١)وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا(٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ .

لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ـ فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أى :فى قولكم هذا ،﴿شَيْئًا إِدًّا ﴾[4] قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أى عظيماً .

ويقال: ﴿إِدًّا﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدّها أيضاً ،ثلاث لغات، أشهرها الأولى .

---

(١) فى ف، أ :«ويباعدونى» . (٢) فى أ: «فاجعله» .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٧) من طريق عبد الرحمن بن سعد عن المسعودى عن عون عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود بنحوه، ولم يذكر أبا فاختة، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

(٤) فى ف: « ﴿شيئا إدًّا﴾ أى: فى قولكم هذا» .

وقوله : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى: يكاد يكون ذلك عند سماعهن[١] هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ،ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وفى كُل شَىءٍ له آيَــةٌ   تَدُل على أنه واحِدُ

قال ابن جرير: حدثنى على، حدثنا عبد الله، حدثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، فى قوله : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قال: إن الشرك[٢] فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها فى صحته ؟ قال: «تلك أوجب وأوجب». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لو جىء بالسموات والأرضين[٣] وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن فى كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، لرجحت بهن»[٤] .

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم .

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أى: يتشققن فَرَقاً [٥] من عظمة الله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ أى: غضباً لله، عز وجل .

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس: هدماً .

وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًّا ﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْد المقبرى، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مِسْعَر، عن عون بن[٦] عبد الله قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله عز وجل [٧]؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهى[٨] للخير أسمع، أفيسمعن[٩] الزور والباطل إذا قيل ولايسمعن[١٠] غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[١١] .

---

(١) فى ف، أ: «سماعهم» . (٢) فى أ: «الشريك» . (٣) فى أ: «والأرض» .

(٤) تفسير الطبرى (١٦/٩٨) .

(٥) فى ف: «فرعًا»، وفى أ: «أى ينشق فزعًا» . (٦) فى ف: «ابن» .

(٧) فى ف، أ: «ذاكر الله تعالى» . (٨) فى أ: «فهى» . (٩) فى ف، أ: «أفيستمعن» .

(١٠) فى ف، أ: «يستمعن» .

(١١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١١٧٦) من طريق ابن أبى عمر، عن سفيان، عن مسعر به، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٧/٩) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر ، عن عون، عن ابن مسعود، بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع (٧٩/١٠): «رجاله رجال الصحيح» .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان،حدثنا هَوْذَة ،حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَد، حدثنى رجل من أهل الشام فى مسجد مِنًى قال: بلغنى أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة ـ ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكاك الشجر.

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار[1]،حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبى عبدالرحمن السلمى ، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد[2] أصبر على أذى يسمعه[3] من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً،وهو يعافيهم ويدفع عنهم، ويرزقهم».

أخرجاه فى الصحيحين[4]. وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزُقُهم ويعافيهم» .

وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه[5]؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا .لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أى: قد علم عدَدَهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذَكَرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذَرّة، ولا يظلم أحداً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عزوجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لابد منه، ولا محيد[6] عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوَانة، حدثنا سُهَيْل، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يُوضَع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أبغضُ فلاناً

(١) فى ف، أ: «وأسعرت جهنم» . (٢) فى ف: «لا أحد» . (٣) فى ف، أ: «سمعه» .
(٤) المسند (٤/٥/٤) وصحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) .
(٥) فى ف، أ: «الخلق» . (٦) فى أ: «فلا محيد» .

فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيُبْغضُه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم من حديث سُهَيْل[١]. ورواه أحمد والبخارى، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى ابن عتبة[٢]، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بنحوه[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٤]، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال:[٥] «إن العبد ليلتمس مرضات[٦] الله، فلا يزال كذلك[٧] فيقول الله، عز وجل، لجبريل: إن فلاناً عبدى يلتمس أن يرضينى؛ ألا وإن رحمتى عليه، فيقول جبريل: «رحمة الله على فلان»، ويقولها[٨] حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»[٩].

غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن محمد بن سعد الواسطى، عن أبى ظَبْيَة، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقة من الله ـ قال شريك: هى المحبة ـ والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إنى أحب فلاناً، فينادى جبريل: إن ربكم يمق[١٠] ـ يعنى: يحب ـ فلاناً، فأحبوه ـ وأرى شريكاً قد قال: فتنزل له المحبة فى الأرض ـ وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إنى أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادى جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال: فيجرى له البغضُ فى الأرض»[١١].

غريب ولم يخرجوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو داود الحَفَرِىّ، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن محمد، وهو الدّرَاوَرْدى ـ عن سهيل بن[١٢] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾».

---

(١) المسند (٢/ ٤١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٧).
(٢) فى ف، أ: «ابن عيينة».
(٣) المسند (٢/ ٤/ ٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٤٠).
(٤) فى ف، أ: «ابن بكير».
(٥) فى ف، أ: «أنه قال».
(٦) فى أ: «فرحات».
(٧) فى أ: «بذلك».
(٨) فى ت: «ويقول».
(٩) المسند (٥/ ٢٧٩).
(١٠) فى أ: «يمقه».
(١١) المسند (٥/ ٢٦٣).
(١٢) فى ف: «عن».

رواه مسلم والترمذى كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردى، به[١] . وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال :حباً .

وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا.

وقال سعيد بن جبير، عنه: يحبهم ويُحببهم، يعنى: إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم .

وقال العوفى، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق .

وقال قتادة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: إى والله، فى قلوب أهل الإيمان، ذكر[٢] لنا أن هَرِم بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضى الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، عز وجل، رداء عمله .

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، عن الربيع بن صَبِيح، عن الحسن البصرى، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى فى حين صلاة إلا قائماً يصلى، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرائى»، فأقبل على نفسه فقال: لا أرانى أذكر إلا بِشَرّ، لأجعلن عملى كله لله، عز وجل، فلم يزد على أن[٣] قلب نيته، ولم يزد على العمل الذى كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها[٤] مكية لم ينزل منها شىء بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن ، ﴿بِلِسَانِكَ ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل .

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ قَوْمًا لُّدًّا﴾: لا يستقيمون.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) وسنن الترمذى برقم (٣١٦١) .

(٢) فى أ: «وذكر» . (٣) فى أ: «أنه». (٤) فى أ: «بكمالها» .

وقال الثورى، عن إسماعيل ـ وهو السُّدِّى ـ عن أبى صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾: عوجاً عن الحق .

[وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظى: الألد: الكذاب][(1)] .

وقال الحسن البصرى : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: صماً.

وقال غيره صم آذان القلوب[(2)] .

وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: يعنى قريشاً .

وقال العوفى، عن ابن عباس : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: فجاراً .وكذا روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد.

وقال ابن زيد: الألد: الظلوم ،وقرأ قول الله : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤] .

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً.

قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصرى، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً .

وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً.

والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى، قال الشاعر[(3)]:

فَتَوجست[(4)] رِكْز الأنيس فَرَاعَهَا   عَنْ ظَهْر غيب والأنيسُ سَقَامُها

آخر تفسير «سورة مريم» ولله الحمد والمنة. ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير «سورة طه» والحمد لله

---

(١) زيادة من أ .   (٢) فى أ: «وقال غيرهم آذان القلوب» .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢) غير منسوب، وهو للبيد بن ربيعة من معلقته فى ديوانه (ص٣١١) ا.هـ. مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب .

(٤) فى ف: «فتوحشت» .

/ سورة مريم [١ظ]

ثمانٍ وتسعون آيةً، كلُّها مكيّة إلّا آيةَ السجدة.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بإمالة الهاء والياء[٢] وإظهار الدال.[٣] وقُرئ بفتح الهاء وإمالةِ الياء،[٤] وبتفخيمهما،[٥] وبإخفاء النون قبل الصادِ لتقارُبهما.[٦] وقد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مُفرَدةً ولا مُوازِنةً لمُفرَد فطريقُ التلفُّظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواءٌ جُعلت أسماءً للسوَر أو مَسرودةً على نمط التعديد، وإن لَزِمها التقاء الساكنين لكونه مُغتفرًا في باب الوقف قطعًا،[٧] فحقُّ هذه الفاتحة الكريمة أن يُوقَف عليها جريًا على الأصل. وقُرئ بإدغام الدال فيما بعدها لتقارُبهما في المَخرَج.[٨]

فإن جُعلت اسمًا للسورة على ما[٩] عليه إطباقُ الأكثر فمحلّه الرفع، إمّا على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، أي: مُسمًّى به. وإنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم جرَيان ذِكْره؛ لأنّه باعتبار كونه على جناح الذِّكر صار في حُكم الحاضر المُشاهَد، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان"؛ أو على أنّه مبتدأ،

---

١ س: سورة مريم عليها السلام، وهي تسعون وثمان آيات.

٢ قرأ بها الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٦٧-٦٨.

٣ قرأ بإظهار الدال التي في لفظ "صاد" نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/١٧.

٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٦-٢٩٧.

٦ قرأ بها العشرة إلّا أبا جعفر. المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ١١٩١.

٧ سلف في الكلام على الآية الأولى من سورة البقرة.

٨ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/١٧.

٩ س + هي.

خبرُه ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: المُسمّى به ذِكْر رحمة... إلخ، فإنّ ذِكْرها لمّا كان مَطلَعَ السورة الكريمة ومُعظمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنّها نفسُ ذِكْرها. والأوّل هو الأولى؛ لأنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المُخاطَب، وإذ لا عِلمَ بالتسمية مِن قَبلُ فحقُّها الإخبار بها كما في الوجه الأوّل.

وإن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد حسبما جنَح إليه أهل التحقيق فـ﴿ذِكۡرُ﴾... إلخ خبرٌ لمبتدأ محذوف هو ما يُنبئ عنه تعديد الحروف، كأنّه قيل: المُؤلَّف مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة مُرادًا به السورةُ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ﴾... إلخ؛ أو اسمُ إشارة أُشير به إليه تنزيلًا لحضور المادّة مَنزِلة المُؤلَّف منها، أي: هذا ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ﴾... إلخ. وقيل: هو مبتدأ قد حُذف خبره، أي: فيما يتلى عليك ذِكْرها.[1] وقُرئ "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ"[2] على صيغة الماضي مِن التذكير، أي: هذا المَتلوُّ ذكَّرها. وقُرئ "ذَكِّرْ"[3] على صيغة الأمر.

والتعرُّض لوصف الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ تنزيل السورة عليه عليه السلام تكميل له عليه لسلام.

وقوله تعالى: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ مفعول لـ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ على أنّها مفعول لِما أُضيف إليها.[4] وقيل: لـ"الذِّكر" على أنّه مصدر أُضيف إلى فاعله على الاتِّساع.[5] ومعنى ذِكْر الرحمة بلوغُها وإصابتُها، كما يقال: ذكَرني معروفُ فلان، أي: بلغني.[6] وقوله عزّ وعلا: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه، أو عطف بيانٍ له.

[٢و] ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ ظرف لـ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾. وقيل: / لـ﴿ذِكۡرُ﴾[7] على أنّه مضاف إلى فاعله اتِّساعًا لا على الوجه الأوّل[8] لفساد المعنى.[9] وقيل:

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

[4] انظر هذا الوجه في معاني القرآن للأخفش، ٤٣٧/٢.

[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.

[6] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.

[7] القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٦/١٣.

[8] م: وهو كون الذِّكر مضافًا إلى مفعوله. «منه».

[9] م: لأنّ الذِّكر ليس في وقت النِّداء. «منه».

هو بدل اشتمال مِن ﴿زَكَرِيَّا﴾ كما في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ [مريم، ١٩/١٦].[١]

ولقد راعى عليه السلام حُسن الأدب في إخفاء دُعائِه، فإنّه مع كونه بالنسبة إليه عزّ وجلّ كالجهر أَدخَلُ في الإخلاص وأَبعَدُ مِن الرِّياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طَلَب الولد، لتوقُّفه على مبادٍ[٢] لا يَليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة، وعن غائلة مَواليه الذين كان يخافهم. وقيل: كان ذلك منه عليه السلام لضَعف الهرَم. قالوا: كان سِنُّه حينئذ ستّين، وقيل: خمسًا وستّين، وقيل: سبعين، وقيل: خمسًا وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: أكثرَ منها،[٣] كما مرّ في تفسير سورة آل عِمران.[٤]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤﴾

﴿قَالَ﴾ جملة مُفسِّرة لـ﴿نَادَىٰ﴾[٥] لا محلَّ لها مِن الإعراب. ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ إسناد الوهن إلى العَظْم لِما أنّه عماد البدن ودِعام الجَسد، فإذا أصابه الضَّعف والرخاوة أصاب كُلَّه، أو لأنّه أشدُّ أجزائه صلابة وقِوامًا وأقلُّها تأثُّرًا مِن العِلَل، فإذا وهَن كان ما وراءه أوهَنَ. وإفراده للقصد إلى الجنس المُنبئ عن شمول الوَهْن لكلّ فردٍ مِن أفراده. و﴿مِنِّي﴾ مُتعلّق بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾. وقُرئ "وَهِنَ" بكسر الهاء وبضمّها أيضًا.[٦] وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها.

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ شبّه عليه السلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار، وانتشارَه في الشعر وفُشوِّه[٧] فيه وأخذَه منه كلَّ مأخَذ باشتعالها، ثمّ أخرجه

---

١ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٦.

٢ ط س: مبادئ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٠.

٤ في الكلام على الآية الأربعين منها.

٥ في الآية السابقة.

٦ قراءتان شاذّتان، غير منسوبتين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٧ كذا ضُبطت في نسخة المؤلّف.

مُخرجَ الاستعارة، ثم أَسند الاشتعالَ إلى مَحلّ الشَّعر ومَنبته، وأخرجه مُخرج
[٢ظ] التمييز، وأطلَق الرأسَ اكتفاءً / بما قيّد به العَظْم. وفيه مِن فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: "اشتعل شيبُ رأسي" فأسنَد الاشتعال إلى الرأس -كما ذُكر- لإفادة شمولِه لكلِّها، فإنّ وِزانه بالنسبة إلى الأصل وِزان "اشتعل بيته نارًا" بالنسبة إلى "اشتعل النار في بيته"، ولزيادة تقريره بالإجمال أوّلًا والتفصيل ثانيًا ولمَزيد تفخيمه بالتنكير. وقُرئ بإدغام السين في الشين.[١]

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: لم أكن بدعائي إيّاك خائبًا في وقت مِن أوقات هذا العمر الطويل؛ بل كلّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملة معطوفة على ما قبلها، أو حال مِن ضمير المُتكلِّم، إذِ المعنى واشتعل رأسي شيبًا. وهذا توسُّل منه عليه السلام بما سلف منه مِن الاستجابة عند كلّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمة ويَستجلِب الرأفة من كِبَر السنّ وضَعف الحال، فإنّه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يُخيِّبه أبدًا لاسيّما عند اضطراره وشدّة افتقاره.

والتعرّض في الموضوعَين لوَصْف الربوبيّة المُنبِئة عن إضافة ما فيه صلاح
[٤٨ظ] المَربوب، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، / لاسيّما توسيطه بين "كان" وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمُبالغة في التضرُّع. ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دُعاؤه فليَدعُ الله تعالى بما يُناسبه مِن أسمائه وصفاتِه.

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾[٢] مُترتِّب مضمونه على مضمونه، فإنّ ضَعف القُوى وكِبَر السنّ مِن مَبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته. ومَواليه: بنو عمّه وكانوا شِرارَ بني إسرائيلَ فخاف ألّا
[٣و] يُحسِنوا / خلافتَه في أُمّته ويُبدِّلوا عليهم دينهم.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ١/٢٩٢.
[٢] في الآية السابقة.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعد موتي، مُتعلِّق بمَحذوف يَنساق إليه الذِّهن، أي: فِعلَ المَوالي مِن بعدي، أو جَور المَوالي، وقد قُرئ كذلك.[١] أو بما في المَوالي مِن معنى الوِلاية، أي: خِفتُ الذين يَلُون الأمر مِن ورائي لا بـ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى. وقُرئ "وَرَايَ" بالقصر وفتح الياء،[٢] وقُرئ "خَفَّتِ المَوَالي مِن وَرَائِي"،[٣] أي: قلُّوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدِّين بعدي، أو خفَّت المَوالي القادرون على إقامة مَراسم المِلّة ومَصالح الأمّة مِن خفَّ القوم، أي: ارتحلوا مُسرعين، أي: درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم مَن به تَقوٍّ واعتضادٌ.[٤] فالظرف حينئذ مُتعلِّق بـ"خفَّتْ". ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلِد مِن حين شبابها.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين مُتعلِّق بـ﴿هَبْ﴾ لاختلاف معنييهما، فاللام صلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مَجازًا. وتقديم الأوّل لكون مدلوله أهمَّ عنده، ويجوز تعلُّق الثاني بمحذوف وقع حالًا[٥] مِن المفعول. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّل غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرِهما مِن الذوات، وقد مرّ تفصيله في أوائل سورة آل عمران، أي: أعطِني مِن مَحْض فضلِك الواسع وقدرتِك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العاديّة.

﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا مِن صُلبي. وتأخيره عن الجارّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهِبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه مِن التشويق إلى المُؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِر تبقى النفسُ مُستشرِفة له فعند وروده لها يتمكَّن عندها فَضْل تمكُّن، ولأنّ فيه نوعَ طُول بما بعده مِن الوصف، فتأخيرهما عن الكلّ أو توسيطهما بين الموصوف والصفة ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٦؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٨.

٢ قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ٤٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وسعيد بن جبير ومحمد بن عليّ وعليّ بن الحسَن وزيد بن ثابت والوليد بن مُسلم وابن مِقسَم والجُعفي والأهوازي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٣.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٦.

٥ وفي هامش م: إذ لو تأخّر صار صفةً له. «منه».

[٣ظ] والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ ما / ذكَره عليه السلام مِن كِبَر السنّ وضَعف القُوى وعُقر المَرأة مُوجِب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسّط الأسباب العاديّة واستيهابه على الوجه الخارق للعادة، ولا يَقدَح في ذلك أن يكون هناك[١] داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ مِن مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حقّ مريمَ، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية، [آل عمران، ٣٨/٣]. وعدمُ ذِكره ههنا للتعويل على ذِكره هناك، كما أنّ عدم ذِكر مُقدِّمة الدعاء هناك للاكتفاء بذِكره ههنا، فإنّ الاكتفاء بما ذُكر في مَوطِن عمّا تُرك في مَوطَن آخرَ مِن النُّكت التنزيليّة.

وقوله تعالى: ﴿يَرِثُنِى﴾ صفة لـ﴿وَلِيًّا﴾. وقُرئ هو وما عُطف عليه بالجزم[٢] جوابًا للدعاء، أي: يرثني مِن حيث العِلمُ والدِّين والنبوّة، فإنّ الأنبياء عليهم والسلام لا يُورِّثون المالَ، قال عليه السلام: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث، ما تركنا صدقة».[٣] وقيل: يَرِثني الحُبورة وكان عليه السلام حَبْرًا.[٤]

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يقال: ورِثه وورِث منه لغتان.[٥] وآلُ الرجل: خاصَّته الذين يَئول إليه أمرهم للقَرابة أو الصُّحبة أو المُوافَقة في الدِّين. وكانت زوجة زكريَّا أختَ أمّ مريمَ، أي: ويَرِث منهم المُلكَ.

قيل: هو يعقوبُ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام. وقال الكلبيُّ ومُقاتل: هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نسل سليمانَ عليه السلام، وكان آلُ يعقوبَ أخوال يحيى بن زكريَّا، قال الكلبيّ: كان بنو ماثانَ رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم، وكان زكريَّا رئيسَ الأحبار يومئذ، فأراد أن يَرِثه ولدُه حُبورتَه ويَرِثَ من بني ماثانَ مُلكَهم.[٦]

---

١ س: هنا.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨٨/١ (٩)؛ وصحيح البخاري، ٧٩/٤ (٣٠٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١٣٧٧/٣ (١٧٥٧).

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٦ هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ١٤/١٣.

وقُرئ "ويَرِثُ وارثَ آلِ يَعقُوبَ"[١] / على أنّه حال مِن المُستكِنّ في ﴿يَرِثُ﴾، [٤و]
وقُرئ: "أُوَيْرِثَ آلِ يَعقُوبَ"[٢] بالتصغير، ففيه إيماء إلى وِراثته عليه السلام، لِما يَرِثه في حالة صِغَره. وقُرئ: "وَارِثٌ مِن آلِ يَعقُوبَ"[٣] على أنّه فاعلُ ﴿يَرِثُنِى﴾ على طريقة التجريد، أي: يَرِثُني به وارث. وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ.[٤]

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مَرضيًا عندك قولًا وفعلًا. وتوسيطُ ﴿رَبِّ﴾ بين مفعولَي الجَعْل للمُبالغة في الاعتناء بشأن ما يَستدعيه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يُخاطِبه عليه السلام بذلك بالذات؛ بل بواسطة المَلَك، على أن يَحكيَ له[٥] عليه السلام هذه العبارة عنه عزّ وجلّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، [الزمر، ٥٣/٣٩]. وقد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٦]

وهذا جواب لندائه عليه السلام ووعدٌ بإجابة دعائه، لكن لا كُلًّا كما هو المُتبادر مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ إلخ، [الأنبياء، ٩٠/٢١]؛ بل بعضًا حسبما تقتضيه المَشيئة الإلهيّة المَبنيّة على الحِكَم البالغة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مُستجابي الدعوةِ لكنّهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات. ألا يُرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه السلام في حقّ أبيه، وإلى دعوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: «وسألتُه ألّا يُذيق بعضهم بأس بعض فمَنعنيها».[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجَحدري. الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٣ مع جزم الفعل. قراءة شاذّة، مرويّة عن علي وابن عبّاس ويحيى بن يعمر والحسن وقتادة والجَحدري وجعفر بن محمّد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١١٩٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ م: أي: المَلَك. «منه».

٦ في الكلام على الآية التاسعة والثلاثين منها.

٧ مسند أحمد، ٤٤٩/٣٦ (٢٢١٣٦)؛ سنن الترمذي، ٤٧١/٤ (٢١٧٥)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٨٠/٢ (٢١٧١).

وقد كان مِن قضائه عزّ وعلا أن يَهَبه يحيى نبيًّا مَرضيًّا ولا يَرِثه، فاستُجيب دعاؤُه في الأوّل دون الثاني حيث قُتل قبل موت أبيه عليهما السلام على ما هو المشهورُ. وقيل: بقي بعده بُرهةً فلا إشكالَ حينئذ.[١]

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام. وفي تخصيصه به حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شريكًا له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحد قبله بيحيى، مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له[٢] عليه السلام، فإنّ التسمية بالأسامي البديعة المُمتازة عن أسماء / سائر الناس تنويه بالمُسمّى لا محالةَ. [٤ظ] وقيل: سَميًّا شبيهًا في الفضل والكمال كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم، ٦٥/١٩]، فإنّ المُتشارِكين في الوصف بمنزلة المُتشارِكين في الاسم.[٣]

قالوا: لم يكن له عليه السلام مِثْل في أنّه لم يعصِ الله تعالى، ولم يَهُمَّ بمعصية قطّ، وأنّه وُلِد مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وأنّه كان حَصورًا. فيكون هذا إجمالًا لِما نزَل بعده مِن قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران، ٣٩/٣]. والأظهر أنه اسم أعجمي، وإن كان عربيًّا فهو مَنقول عن الفعل كـ"يَعمَرَ" و"يَعيشَ".[٤] قيل: سُمّي به لأنّه حيِيَ به رحِمُ أمّه، أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته.[٥]

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذ؟ فقيل: ﴿قال﴾: ﴿رَبِّ﴾. ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسُّط المَلَك، للمبالغة في التضرُّع والمناجاة، والجِدِّ في التبتُّل إليه تعالى، والاحترازِ عمّا عسى يُوهِم خطابُه للمَلَك مِن توهُّم أنّ عِلمه تعالى بما يَصدُر عنه مُتوقِّف على توسُّطه، كما أنّ عِلم البشر بما يصدُر عنه سبحانه مُتوقِّف على ذلك في عامّة الأوقات.

---

١ ما وجدتُه فيما وقفتُ عليه من المصادر.
٢ السياق: وفي تخصيصه به... مَزيد تشريف...
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٥ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/٢.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى "كيف" أو "مِن أين". و"كان" إمّا تامّة و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام مُتعلِّقتان بها. وتقديم الجارّ على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِر، أي: كيف أو مِن أين يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن تتعلّق اللام بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٌ﴾، إذ لو تأخّر لكان صفةً له، أي: أنّى يحدُث كائنًا لي غلام؛ أو ناقصة[1] اسمُها ظاهر، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿لِي﴾ مُتعلِّق بمحذوف، كما مرّ؛ أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ نَصْب على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال مِن ضمير المُتكلِّم بتقدير "قد"، وكذا / قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حال منه مُؤكِّدة للاستبعاد إثْرَ [٥و] تأكيد، أي: كانت امرأتي عاقرًا لم تلِد في شبابها وشبابي، فكيف؟ وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا مِن أجل كِبَر السنّ جَساوة وقُحولًا[2] في المَفاصل والعِظام؛ أو بلغتُ مِن مَدارج الكِبَر ومراتبه ما يُسمَّى عِتِيًّا مِن عتا يعتو، وأصله: "عُتُووٌ" كـ"قُعود"، فاستُثقل توالي الضمّتين والواوين فكُسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ قُلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء وسَبْقِ إحداهما بالسكون، وكُسرت العين إتباعًا لها لِما بعدها. وقُرئ بضمِّها.[3]

ولعلّ البدايةَ ههنا بذِكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمرانَ لِما أنّه قد ذُكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنّما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكِبَر تتمّة لِما ذُكر قبلُ، وأمّا هنالك فلم يَسبِق في الدُّعاء ذِكر حاله، فلذلك قدّمه على ذِكر حال امرأته لِما أنّ المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب، وإنّما قاله عليه السلام مع سَبْق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقُدرة الله عزّ وجلّ -لاسيّما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران- استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبًا مِنها واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنّه مِن مَحض لُطف الله عزّ وجلّ وفضله، مع كونه في نفسه مِن الأمور المُستحيلة عادة لا استبعادًا له.

---

١ السياق: و"كان" إمّا تامّة... أو ناقصة...

٢ جسا الرجُل جَسْوًا وجُسُوًّا: صلُب. ويد جاسية: يابسة العظام قليلة اللحم. وجسا الشيخ جُسُوًّا: بلغ غاية السِّنّ. والقُحول: اليُبس. لسان العرب لابن منظور، «جسا»، «قحل».

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.

وقيل: إنّما قاله ليُجابَ بما أُجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويَرتدع المُبطلون.[١] وقيل: كان ذلك منه عليه السلام استفهامًا عن كيفيّة حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً، وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد.[٢]

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

[٥ظ] / ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مَبنيّ على سؤال نشأ ممّا سلف. والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ مُقحمَة كما في: "مِثلُك لا يَبخل"، مَحلُّها:

إمّا النصب على أنّه مَصدر تشبيهيّ[٣] لـ﴿قَالَ﴾ الثاني، و"ذلك" إشارة إلى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابقِ لا إلى قولٍ آخرَ شُبّه هذا به، وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢].

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة مُقرّرة للوعد المذكور دالّة على إنجازه داخلة في حيّز ﴿قَالَ﴾ الأوّل. كأنّه قيل: قال الله عزّ وجلّ: مِثلَ ذلك القول البديع قلتُ، أي: مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ، هو عليّ خاصّةً هيّن وإن كان في العادة مُستحيلًا. وقُرِئ "وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ"،[٤] فالجملة حينئذ حال مِن ﴿رَبُّكَ﴾، والياء عبارة عن ضميره -كما ستعرِفه- أو اعتراض، وعلى كلّ حال فهي مُؤكِّدة ومُقرِّرة لِما قبلها.

ثمّ أُخرِج القول الثاني مُخرَج الالتفات جريًا على سَنن الكبرياء لتربية المَهابة وإدخال الروعة، كقول الخلفاء: "أميرُ المؤمنين يرسم لك" مكانَ "أنا أرسم"،[٥] ثمّ أُسند إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفًا له وإشعارًا بعِلّة الحُكم. فإنّ تذكير جرَيان أحكام ربوبيّته تعالى عليه عليه السلام مِن إيجاده مِن العدم وتصريفِه في أطوار الخلق مِن حال إلى حال شيئًا فشيئًا

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.
٢ ما وجدته فيما وقفت عليه من المصادر.
٣ م: أي: نعتٌ لمصدر مؤكِّد له، أي: حالَ قولًا كائنًا مثل ذلك القول. «منه».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به ممّا يَقلَع أساسَ استبعاده عليه السلام لحصول الموعود ويُورثه عليه السلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالةَ.

ثمّ التُفت مِن ضمير الغائب العائد إلى الربّ إلى ياء العظمةِ إيذانًا بأنّ مَدار كونه هيّنًا عليه سبحانه هو القدرة الذاتيّة لا ربوبيّتُه تعالى له عليه السلام خاصّة وتمهيدًا لِما يَعقُبه. وقيل: ذلك إشارة إلى مُبهَم يُفسِّره قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. ولا يَخرُج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنّها لا تدخُل بين المُفسِّر والمُفسَّر.

/ وإمّا الرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، و"ذلك" إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن وعده تعالى، أي: قال عزّ وعلا: الأمر كما وعدتُ، وهو واقع لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مُقرِّر لمضمونه. والجملة المَحكيّة على القراءة الثانية[2] معطوفة على المَحكيّة الأولى، أو حال مِن المُستكِنّ في الجارّ والمجرور. [٩٦و]

وأيًّا ما كان فتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينهما مُشعِر بمَزيد الاعتناء بكلّ منهما. والكلام في إسناد القول إلى الربّ ثمّ الالتفاتِ إلى التكلُّم كالذي مرّ آنفًا. وقيل: "ذلك" إشارة إلى ما قاله زكريًّا عليه السلام،[3] أي: قال تعالى: الأمرُ كما قلتَ تصديقًا له فيما حكاه مِن الحالة المُباينة للولادة في نفسه وفي امرأته. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مَسوق لإزالة استبعاده بعد تقريره، أي قال تعالى: هو مع بُعده في نفسه عليّ هيّن. والقراءة الثانية[4] أَدخَل في إفادة هذا المعنى، على أنّ الواو للعطف، وأمّا جَعْلها للحال فمُخِلّ بسداد المعنى؛ لأنّ مآله تقريرُ صعوبته حالَ سهولته عليه تعالى، مع أنّ المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه.

---

[1] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إمّا النّصب". «منه».

[2] وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/١.

[4] وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جملة مستأنفة مُقرِّرة لِما قبلها، والمراد به ابتداء خَلْقِ البشر، إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المَحضِ، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، وإنّما لم يُنسَب ذلك إلى آدمَ عليه السلام، وهو المخلوق مِن العدم حقيقةً بأن يقال:[١] وقد خلقتُ أباك أو آدمَ مِن قبل ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس، حيث نبّه على أنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر / له حظٌّ مِن إنشائه عليه السلام مِن العدم، إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أنموذجًا مُنطويًا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواءً إجماليًا مُستتبعًا لجريان آثارِها على الكلّ، فكان إبداعُه عليه السلام على ذلك الوجه إبداعًا لكلّ أحد مِن فروعه كذلك. [٦٦ظ]

ولمّا كان خَلْقه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذرّيّته أبدعَ مِن أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه، كما هو المفهوم مِن نسبة الخلق المذكور إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه، وكان عدم زكريًا حينئذٍ أظهرَ عنده وأجلى، وكان حاله أَولى بأن يكون مِعيارًا لحال ما بُشِّر به، نُسِب الخَلْق المذكور إليه،[٢] كما نُسب الخَلْق والتصوير إلى المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧] توفيةً لمَقام الامتنانِ حقَّه، فكأنّه قيل: وقد خلقتُك مِن قبلُ في تضاعيف خَلْق آدمَ ولم تكن إذ ذاك شيئًا أصلًا؛ بل عدمًا بحتًا ونفيًا صِرفًا.

هذا، وأمّا حَمْل الشيء على المُعتدّ به، أي: ولم تكن شيئًا مُعتدًّا به،[٣] فيأباه المقام ويَردّه نظم الكلام. وقُرئ "خَلَقْنَاكَ".[٤]

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيًّا ١٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقّق المَسئول ووقوع الحبَل. ولم يكن هذا السؤال منه عليه السلام لتأكيد البِشارة وتحقيقها كما قيل.[٥]

---

١ السياق: وإنّما نُسِب... بأن يُقال...

٢ السياق: ولمّا كان خلقه... نُسِب الخلق...

٣ أجاز حَمْله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٧/٣.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٥ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٢٢/١٣.

فإنّ ذلك ممّا لا يَليق بمَنصِب الرسالة، وإنّما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق، حيث كانت البِشارة مُطلَقة عن تعيينه، وهو أمر خفيّ لا يُوقَف عليه، فأراد أن يُطلعَه الله عليه ليَتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر مِن حين حُدوثها، ولا يُؤخّرَه إلى أن تظهَر ظهورًا مُعتادًا.

وقد مرَّت الإشارة في تفسير سورة آل عمران[1] إلى أنّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البِشارة بُرهةٌ مِن الزمان، لِما يروى أنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستّة أشهر أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنّ دعاء زكريًا عليه السلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران، ٣٨/٣]، وهي إنّما وَلدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشرِ سنينَ أو بنت ثلاثَ عشرةَ سنةً.[2]

/ والجَعْل إبداعي، واللام مُتعلّقة به. وتقديمُها على المفعول به لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمُقدَّم والتشويق إلى المُؤخَّر، أو بمَحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخر لكان صفةً لها. وقيل: بمعنى التصيير المُستدعي لمفعولين، أوّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظرفُ. وتقديمُه لأنّه لا مُسوّغ لكون ﴿ءَايَةً﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سِوى تقديمِ الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورودِ الناسخ.[3] [٧و]

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ألّا تَقدِر على أن تُكلِّمهم بكلام الناس مع القدرة على الذِّكر والتسبيح. ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيّامهنّ للتصريح بها في سورة آل عمران.[4] ﴿سَوِيًّا﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيد لكون انتفاءِ التكلُّم بطريق الاضطرار دون الاختيار، أي: تُمنَع الكلامَ فلا تُطيق به حالَ كونك سويَّ الخلق سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: مِن المُصلّى أو مِن الغرفة، وكانوا مِن وراء المِحراب ينتظرونه أن يَفتح لهم الباب فيدخلوه ويُصلّوا إذ خرج عليهم

---

[1] في الكلام على الآية الحادية والأربعين منها.

[2] سيأتي هذا وتخريجه في الكلام على مريم، ٢٢/١٩.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٥ (آل عمران، ٤١/٣).

[4] في آل عمران، ٤١/٣.

مُتغيّرًا لونُه فأنكروه وقالوا: ما لك؟ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: أومأ إليهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران، ٤١/٣]. وقيل: كتب على الأرض.[١] و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾: إمّا مُفسِّرة لـ"أوحى"، أو مصدريّة. والمعنى: أن صلُّوا، أو بأن صلُّوا ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبي العالية: أنّ المراد بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر.[٢] أو نزِّهوا ربّكم طرفَي النهار. ولعلّه كان مأمورًا بأن يُسبّح شكرًا ويأمرَ قومه بذلك.[٣]

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾

﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ استئناف طُويَ قبله جُمل كثيرة مُسارَعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: قلنا: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي: بجِدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ / قال ابن عبّاس رضي الله [٧ظ]
عنهما: الحُكم: النبوّة، استنبأه وهو ابن ثلاثِ سنينَ.[٤] وقيل: الحُكم: الحِكمة وفَهم التوراة والفقه في الدِّين.[٥] رُوي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعب خُلِقنا.[٦]

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على الحُكم. وتنوينه للتفخيم، وهو التحنُّن والاشتياق، ومِن مُتعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مُؤكِّدةً لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفَخامة الإضافيّة، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنةً مِن جنابنا أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما. ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ أي: طهارة مِن الذُّنوب أو صدَقة تصدَّقنا به على أبويه أو وفَّقناه للتصدّق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصي.

---

[١] مَرويٌّ عن مجاهد وابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

[٢] لم أجده فيما وقفت عليه من المصادر.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٢/٢.

[٤] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عطف على ﴿تَقِيّٗا﴾ أي: بارًا بهما لطيفًا بهما مُحسِنًا إليهما. ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ مُتكبِرًا عاقًا لهما أو عاصيًا لربه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ مِن أن يَناله الشيطانُ بما يَنال به بني آدمَ. ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذاب القبر. ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ مِن هول القيامة وعذاب النار.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنَف خُوطِب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمر بذِكر قصّة مريمَ إثْرَ قصّةِ زكريّا لِما بينهما مِن كمال الاشتباك. والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ السورة الكريمة لا القرآن، إذ هي التي صُدِّرت بقصّة زكريّا المستتبعة لذِكر قصّتها وقَصص الأنبياء المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها[1] ﴿مَرۡيَمَ﴾ أي: نبأها، فإنّ الذِكر لا يتعلّق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ ظرف لذلك المُضاف، لكن لا على أن يكون المأمور به ذِكرَ نبئها عند انتباذِها فقط؛ بل كلُّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيّز الظرف مُتمِّم للنبأ. وقيل: بدلُ اشتمالٍ مِن مريمَ، على أنّ المراد بها نبؤها، فإنّ الظروف مُشتمِلة على ما فيها.[2] وقيل: بدلُ الكلّ، على أنّ المراد بالظرف ما وقَع فيه. وقيل: ﴿إِذ﴾ بمعنى "أنْ" المصدريّة كما في قولك: "أكرمتُك إذ لم تُكرمني"، أي: لأنْ لم تُكرمني، / فهو بدلُ اشتمالٍ لا محالةَ.[3] [٩٨و]

---

١ ط س - فيها.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٨.
٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٢.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ مُتعلِّق بـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ مفعول له[1] باعتبار ما في ضمنه مِن معنى الإتيانِ المُترتِّب وجودًا واعتبارًا على أصل معناه[2] العامل في الجارّ والمجرور، وهو السرّ في تأخيره[3] عنه، أي: اعتزلتْ وانفردتْ منهم وأتتْ مكانًا شرقيًّا مِن بيت المَقدِس أو مِن دارها لتتخلّى هنالك للعبادة.

وقيل: قعدتْ في مَشْرَقة[4] لِتغتسلَ مِن الحيض مُحتجبةً بحائط أو بشيء يَسترُها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾. وكان مَوضِعها المَسجِد فإذا حاضتْ تحوّلتْ إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المَسجِد، فبينا هي في مُغتسَلها أتاها المَلَك عليه السلام في صورة آدميّ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جَعْدِ الشَّعر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام،[5] عُبِّر عنه بذلك توفيةً للمَقام حقَّه. وقُرئ بفتح الراء[6] لكونه سببًا لِما فيه رَوحُ العباد الذي هو عُدّة المُقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٨٨-٨٩].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سويَّ الخلق كاملَ البنية لم يَفقِد مِن حِسان نعوت الآدميّة شيئًا. وقيل: تمثّل في صورة تِرْب لها اسمه يوسفُ مِن خدَم بيت المَقدِس،[7] وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يُلقى إليها مِن كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة المَلَكيّة لنفرتْ منه ولم تستطع مُفاوضته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لتهيج شهوتُها فتنحدر نطفتُها إلى رَحِمها،[8] فمع مخالفته لمَقام بيان آثار القُدرة الخارقة للعادة يُكذِّبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾؛ فإنّه شاهد عَدْل بأنّه لم يَخطُر ببالها شائبة مَيْل ما إليه فضلًا

---

[1] وفي هامش م: أي:لـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. «منه».

[2] وفي هامش م: وهو الانفراد؛ لأنّ الإشارة إنّما تحصل بعده. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: تأخير ﴿مَكَانًا﴾ من الجارّ والمجرور. «منه».

[4] س: شُرفة.

[5] القول بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦-٨٧.

[7] القول في الكشّاف للزمخشري، ٩/٣.

[8] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.

عمّا ذُكر مِن الحالة المُترتِّبة على أقصى مراتب المَيْل والشهوة. نعم كان تمثيله على ذلك الحُسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسَبر عِفَّتها، ولقد ظهَر منها مِن الورع والعَفاف ما لا غايةَ وراءه. وذِكرُه تعالى بعنوان الرحمانيّة للمُبالغة في العِياذ به تعالى واستجلابِ آثار الرحمة الخاصّة التي هي العِصمةُ ممّا دَهِمها.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتَّقي الله تعالى وتُبالي بالاستعاذة به. / وجواب الشرط مَحذوف ثقةً بدلالة السياق عليه، أي: فإنّي عائذة به، أو فتَعوَّذ بتعوُّذي، أو فلا تتعرَّض لي. [٨ظ]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أنّي لست ممّن يُتوقَّع منه ما توهَّمتِ مِن الشرّ، وإنّما أنا رسول ربّك الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي: لأكون سببًا في هِبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوز أن يكون ذلك حكايةً لقوله تعالى، ويُؤيِّده القراءة بالياء.[١] والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فإنّ هِبة الغلام لها مِن أحكام تربيتها. وفي بعض المَصاحف "أَمَرني أنْ أَهَبَ لكِ غُلامًا".[٢] ﴿زَكِيًّا﴾ طاهرًا مِن الذُّنوب، أو ناميًا على الخير، أي: مُترقِّيًا مِن سنّ إلى سنّ على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ كما وصفتَ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنّه لم يُباشرني بالنكاح رجل. وإنّما قيل: ﴿بَشَرٌ﴾ مُبالغةً في بيان تنزُّهها مِن مَبادي الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عطف على ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى﴾ داخل معه في حُكم الحاليّة مُفصِح عن كون المِساس عبارةً عن المباشَرة بالنكاح، أي: ولم أكن فاجرة

---

[١] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

تبغي الرجالَ. وهي فَعول بمعنى الفاعل أصلها "بَغُويٌ" فأُدِغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكُسرت الغين للياء. وقيل: هي فعيل بمعنى الفاعل، وإلّا لقيل: "بَغُوٌّ" كما يقال: "فلانٌ[1] نَهُوٌّ عن المُنكَر".[2] وإنما لم تَلحَقه التاء لأنّها مِن باب النسب كـ"طالق"،[3] أو بمعنى المفعول، أي: يَبغيها الرجال للفجور بها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: المَلَك تقريرًا لمَقالته وتحقيقًا لها. ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلتُ لكِ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾... إلخ استئناف مُقرِّر له، أي: قال ربّك الذي أرسلني إليك: ﴿هُوَ﴾ أي: / ما ذكرتُ لكِ مِن هِبة الغلام مِن غير أن يَمسَّك [٩و]
بشرٌ أصلًا ﴿عَلَيَّ﴾ خاصّة ﴿هَيِّنٌ﴾ وإن كان مُستحيلًا عادةً لِما أنّي لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: إمّا عِلّة لمُعلَّل محذوف، أي: ولِنجعلَ وَهب الغلام آيةً لهم وبرهانًا يَستدلّون به على كمال قدرتِنا نفعلُ ذلك؛ أو معطوفٌ على عِلّة أخرى مُضمَرة، أي: لنُبيِّن به عِظَم قدرتنا ولنجعله آية... إلخ. والواو على الأوّل اعتراضيّة. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يَهتدون بهدايته ويَسترشدون بإرشاده.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مُحكَمًا قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لا بدّ مِن جريانه عليك البتّةَ، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يُقضى ويُفعلَ لتضمُّنه حِكَمًا بالغة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ جبريلُ عليه السلام في دِرعها فدخلتِ النفخة في جوفها.[4]

---

[1] س - فلان.
[2] نقل هذا القول الزمخشري في الكشّاف، ٩/٣ عن كتاب التمام لابن جنّي. ولم أجِده في مطبوعه.
[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.
[4] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٤/٢.

قيل: إنّه عليه السلام رفَع دِرعَها فنفخ في جيبه[1] فحمَلت.[2] وقيل: نفَخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال. وقيل: إنّ النفخة كانت في فيها.[3] وكانت مدّةُ حملها سبعةَ أشهر. وقيل: ثمانيةً، ولم يعِش مولود وُضع لثمانية أشهر غيره. وقيل: تسعةَ أشهُر. وقيل: ثلاثَ ساعات.[4] وقيل: ساعةً كما حملتْ وضعَته.[5] وسِنُّها حينئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.[6] وقيل: عشرَ سنينَ، وقد حاضت حيضتَين.[7]

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، كما في قوله:

تـــدوسُ بـنـا الـجَـمـاجـمَ والـتَّـريـبـا[8]

فالجارّ والمجرور في حيّز النصب على الحاليّة، أي: فانتبذتْ مُلتبِسةً به ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ بعيدًا مِن أهلها وراء الجبل. وقيل: / أقصى الدار.[9] وهو الأنسبُ [٩ظ]
بقِصر مُدّة الحَمْل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها، وهو في الأصل منقول مِن "جاء"، لكنّه لم يُستعمَل في غير كـ"آتى" في "أعطى".[10] وقُرئ "المِخَاضُ" بكسر الميم.[11] وكلاهما مصدر "مَخِضتِ المرأةُ" إذا تحرّك الولدُ في بطنها للخروج.[12]

---

١ س: جيبها.
٢ مَرويّ عن السدّي بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٩٠-٤٩١. وهو بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤. وعن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤.
٤ الأقوال السابقة بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤-٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
٧ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
٨ عجز بيت لأبي الطيّب المتنبي، وصدره:
فـمـرّت غـيـر نـافـرة عـلـيـهـم
والبيت في شرح الواحدي لديون المتنبّي، ٢/٨٤٦. ومثّل الزمخشري بعجزه على ما نحن فيه في الكشّاف، ٣/١٠. يصف المتنبي خيلًا ذكرها في البيت قبله. وقال الواحدي في معنى هذا البيت: «أي: وطِئت رءوسهم وصدورَهم، فنحن عليها، ولم تنفِر عنهم».
٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.
١٠ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.
١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأفطس عن ابن كثير وابن جُبير عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٨.
١٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمِد عليه عند الوِلادة، وهو ما بين العِزق والغُصن. وكانت نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ وكان[1] الوقت شتاءً. والتعريف إمّا للجنس أو للعهد؛ إذ لم يكن ثمّة غيرُها وكانت كالمُتعالَم عند الناس. ولعلّه تعالى ألهمها ذلك ليُريَها مِن آياتها ما يُسكِّن رَوْعتها ويُطعِمها الرُّطَب الذي هو خُرْسة النُّفَساء المُوافقة لها.

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم مِن مات يَماتُ، كـ"خِفتُ". وقُرئ بضمّها[2] مِن مات يموتُ. ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الوقت الذي لقِيتُ فيه ما لقِيتُ. وإنّما قالته -مع أنّها كانت تعلَم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام مِن الوعد الكريم- استحياءً مِن الناس وخوفًا مِن لائمتهم، أو حِذارًا مِن وقوع الناس في المعصية بما تكلّموا فيها، أو جريًا على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم، كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أنّه أخذ تِبْنة مِن الأرض فقال: «يا ليتني هذه التِّبنة ولم أكن شيئًا»،[3] وعن بلال أنّه قال: «ليت بلالًا لم تلِده أمُّه».[4]

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي: شيئًا تافهًا شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به أصلًا. وقُرئ بالكسر.[5] قيل: هما لغتان في ذلك كـ"الوَتر" و"الوِتر".[6] وقيل: هو بالكسر اسم لِما يُنسى كـ"النِّقْض" اسم لما يُنقض، وبالفتح مصدر سُمِّي به المفعول مبالغة.[7] وقُرئ بهما مهموزًا،[8] مِن "نسأتُ اللَّبن" إذا صببتَ عليه الماء فصار مُستهلَكًا فيه. / وقُرئ "نَسًا"[9] كـ"عصًا". [١٠و]

---

١ ط س: كانت.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

٣ شرح السنّة للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤١.

٤ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١/٢٠١ (٢٣٠٧)؛ شرح السنّة للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤١.

٥ قرأ بها العشرة إلّا حمزة وعاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٦ ذكر ذلك الفرّاء في معاني القرآن، ٢/١٦٤، ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٣/١١.

٧ نقله عن ابن الأنباري ابنُ عادل في اللباب، ١٣/٤١.

٨ قراءتان شاذّتان: بفتح النون مع الهمز مرويّة عن محمّد بن كعب القُرظي وبكر بن حبيب، وبكسر النون مع الهمز مرويّة عن نوفل. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٩٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٥٨٢؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤٢.

﴿مَنسِيًّا﴾ لا يَخطُر ببال أحد مِن الناس، وهو نعتٌ للمبالغة. وقُرئ بكسر الميم[١] إتباعًا له بالسين.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريلُ عليه السلام ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾. قيل: إنّه كان يَقبَل الولد.[٢] وقيل: مِن تحتها، أي: مِن مكان أسفلَ منها تحت الأَكَمَة.[٣] وقيل: مِن تحت النخلة.[٤] وقيل: ناداها عيسى عليه السلام.[٥] وقُرئ "فَخَاطَبَهَا مَنْ تَحْتَهَا"[٦] بفتح الميم. ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي: لا تَحزَني، على أنّ "أنْ" مُفسِّرة؛ أو بألّا تَحزني، على أنّها مصدريّة قد حُذف عنها الجارّ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ أي: بمكان أسفل منك. وقيل: تحت أمركِ إنْ أمرْتِ بالجَري جرى، وإن أمرتِ بالإمساك أَمسَك.

﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا صغيرًا حسبما رُوي مَرفوعًا، قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عَذْب فجرى جَدْولًا.[٧] وقيل: فعَله عيسى عليه السلام.[٨] وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله عزّ وجلّ فيه الماءَ حينئذ كما فعَل مِثلَه بالنخلة، فإنّها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلًا عن الثمر، وكان الوقت شتاءً، فجعَل الله تعالى[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩.

٢ أي: يَقبَله كالقابلة. والقول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٤ مَرويٌّ عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٥ مَرويٌّ عن مجاهد والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥. وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زِرّ بن حُبيش وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٩.

٧ وهو مَرويٌّ أيضًا عن الضحّاك وقتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠١/١٥-٥٠٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥.

٨ مَرويٌّ عن سعيد بن جُبير والحسن ومجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٣/١٥-٥٠٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٩ س – تعالى.

لها إذ ذاك رأسًا وخُوصًا[١] وثمرًا.[٢] وقيل: كان هناك ماءٌ جارٍ.[٣] والأوّل هو المُوافِق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر مِن النظم الكريم.

وقيل: ﴿سَرِيًّا﴾، أي: سيِّدًا نبيًّا رفيعَ الشأن جليلًا وهو عيسى عليه السلام.[٤] فالتنوين للتفخيم، والجملة تعليل لانتفاء الحُزْن المفهوم مِن النهي عنه، والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُزِّىٓ﴾ هزُّ الشيء: تحريكُه إلى الجهات المُتقابلة تحريكًا عنيفًا مُتدارِكًا. [١٠ظ] والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجَذْب والدفع،[٥] / لقوله تعالى: ﴿إِلَيْكِ﴾ أي: إلى جهتكِ. والباء في قوله عزّ وعلا: ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: صلة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾... إلخ [البقرة، ١٩٥/٢]. قال الفرّاء: «تقول العرب: هَزّه وهزّ به وأخذ الخِطامَ وأخذ بالخِطام»؛[٦] أو لإلصاق الفعل بمدخولها، أي: افعلي الهزَّ بجِذعها، أو هُزِّي الثمرة بهزِّه. وقيل: هي مُتعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول الهَزّ، أي: هُزِّي إليك الرُّطَب كائنًا بجِذعها.[٧] ﴿تُسَٰقِطْ﴾ أي: تُسقِط النخلة ﴿عَلَيْكِ﴾ إسقاطًا مُتواترًا حسَب تواتُر الهزّ.

وقُرئ "تُسْقِطْ"[٨] و"يُسْقِطْ"[٩] مِن الإسقاط بالتاء والياء، و"تَتَسَاقَطْ"[١٠] بإظهار التاءين،

---

١ الخوص: ورق النخل. لسان العرب لابن منظور، «خوص».

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٤٥/١٣.

٤ مَرويٌّ عن الحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٩/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٦ معاني القرآن للفرّاء، ١٦٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٦/١٣.

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦/١٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

و"تَسَاقَطْ"[١] بطرح الثانية، و"تَسَّاقَطْ"[٢] بإدغامها في السين، و"يَسَّاقَطْ"[٣] بالياء كذلك، و"تَسقُطْ"[٤] و"يَسقُطْ"[٥] مِن السُّقوط. على أنّ التاء في الكلّ للنخلة والياءَ للجِذع.

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ على القراءات الثلاث الأُوَل مفعول، وعلى الستّ البواقي تمييز. وقوله تعالى: ﴿جَنِيًّا﴾ صفة له. وهو ما قُطع قبل يُبسه، فعيل بمعنى مفعول، أي: رُطَبًا مَجنيًا، أي: صالحًا للاجتناء. وقيل: بمعنى فاعل، أي: طريًّا طيّبًا.[٦] وقُرئ "جِنِيًّا"[٧] بكسر الجيم للإتباع.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: ذلك الرُّطبَ وماءَ السَّريّ، أو مِن الرُّطَب وعصيره، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطِيبي نفسًا وارفُضي عنها ما أحزَنك وأهمّك، فإنّه تعالى قد نزّه ساحتَك عمّا اختلج في صدور المُتقيّدين بالأحكام العاديّة، بأن أظهرَ لهم مِن البسائط العنصريّة والمُركّبات النباتيّة ما يَخرِق العاداتِ التكوينيّة ويُرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك.

وقُرئ: "وقِرِّي"[٨] / بكسر القاف، وهي لغة نجد.[٩] واشتقاقه مِن القَرار، فإنّ العين إذا رأت ما يَسرّ النفسَ سكنتْ إليه مِن النظر إلى غيره، أو مِن القُرّ فإنّ دَمعة السُّرور باردة ودَمعة الحُزن حارّة. ولذلك يقال: قُرّة العين وسُخْنة العين للمحبوب والمكروه.[١٠] [١١و]

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٣ قرأ بها يعقوب وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٠.

٦ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩/١٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان ويحيى بن وثّاب والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٠.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

١٠ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: آدميًا كائنًا مَن كان، وقُرئ "تَرَئِنَّ"[١] على لغة مَن يقول: "لَبَأْتُ بالحَجّ"،[٢] لِما بين الهمزة والياءِ مِن التآخي. ﴿فَقُولِي﴾ له إن استَنطقكِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا، وقد قُرئ كذلك؛[٣] أو صيامًا، وكان صيامُهم بالسكوت.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: بعد أن أَخبرتُكم بنَذري، وإنّما أُكلِّم الملائكة وأناجي ربّي. وقيل: أُمِرتْ بأن تُخبرَ بنَذرها بالإشارة.[٤] وهو الأظهرُ. قال الفرّاء: العرب تُسمِّي كلَّ ما وصل إلى الإنسان "كلامًا" بأيّ طريق وصَل ما لم يُؤكَّد بالمصدر، فإذا أُكِّد لم يكن إلّا حقيقةَ الكلام.[٥] وإنّما أُمرتْ بذلك لكراهة مُجادلة السفهاء ومُناقلتهم والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه السلام، فإنّه نصّ قاطع في قَطْع الطَّعْن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ أي: جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهُرت مِن نَفاسها. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: حاملةً له. ﴿قَالُوا۟﴾ مُؤنِّبةً لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلتِ ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، مِن فرَى الجلدَ، أي: قطَعه؛[٦] أو جئتِ مَجيئًا عجيبًا عُبِّر عنه بـ"الشيء" تحقيقًا للاستغراب.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأُخوّة. وقيل:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس واللؤلئي عن أبي عمرو والحلواني عن الدُّوري عن اليزيدي عنه. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنَّوزاواري، ص ١٢٠١.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن الزُّبير وعمرو بن ميمون. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٠؛ المغني في القراءات للنَّوزاواري، ص ١٢٠٢.

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

[٥] نقله عن الفرّاء البغويُّ في معالم التنزيل، ٢١١/٢ (النساء، ١٦٤/٤).

[٦] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

كانت مِن نسله وكان بينهما ألفُ سنة. / وقيل: هو رجلٌ صالح أو طالح كان [١١ظ]
في زمانهم شبَّهوها به، أي: كنتِ عندنا مِثلَه في الصلاح، أو شتموها به.[١] ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فَرِيًّا مُنكَرًا، وتنبيه على أنّ ارتكابَ الفواحش مِن أولاد الصالحين أفحشُ.[٢]

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. والظاهر أنّها بيَّنت حينئذ نَذْرَها وأنّها بمَعزِل مِن مُحاورة[٣] الإنس حسبما أُمرت. ففيه دلالة على أنّ المأمور به بيانُ نَذْرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما ممّا لا عهدَ به.

﴿قَالُواْ﴾ مُنكِرين لجوابها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَد فيما سلف صبيًّا يُكلِّمه عاقل. وقيل: ﴿كَانَ﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مُبهَمٍ صالح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصّة بدليل أنّه مَسُوق للتعجّب. وقيل: هي زائدة والظرف صلة ﴿مَن﴾. و﴿صَبِيًّا﴾ حال مِن المُستكِنّ فيه، أو هي تامّة أو دائمة،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ٤/١٧].

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على سؤال نشأ مِن سياق النظم الكريم، / كأنه قيل: [٥١ظ]
فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. أنطَقه الله عزّ وجلّ بذلك آثرَ ذي أثير[٥] تحقيقًا للحقّ وردًّا على مَن يزعُم ربوبيّتَه. قيل: كان المُستنطِق لعيسى زكريا عليهما السلام.[٦] وعن السدّي رضي الله عنه:

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٦.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٦.
٣ ط س: مجاورة.
٤ الأقوال وتفصيل الكلام على "كان" ههنا بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٣/٥٤-٥٥. والكلام على زيادتها في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٢/٧-٨.
٥ آثر ذي أثير: أوّل كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «أثر».
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣.

لمّا أشارت إليه غضِبوا وقالوا: لَسُخرِيَتُها بنا أشدُّ علينا ممّا فعلتِ.[١] ورُوي أنّه عليه السلام كان يَرضَع فلمّا سمِع ذلك ترَك الرَّضاع وأقبَل عليهم بوجهه واتّكأ على يساره وأشار بسبّابته فقال ما قال... إلخ.[٢] وقيل: كلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مَبلغًا يتكلّم فيه الصبيان.[٣]

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا مُعلِّمًا للخير. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إمّا باعتبار ما سبَق في القضاء المحتوم، أو بجَعْل ما في شرَف [١٢و] الوقوع لا محالةَ واقعًا. / وقيل: أكمَله الله عقلًا واستنبأه طفلًا.[٤] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: حيثما كنتُ ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أمرني بها أمرًا مُؤكَّدًا، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن مَلكتُه، أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾،[٥] أي: جعلني بارًّا بها، وقُرئ بالكسر على أنّه مصدرٌ وُصف به مبالغةً، أو منصوبٌ بمُضمَر دلّ عليه ﴿أَوْصَٰنِي﴾،[٦] أي: وكلّفني بِرًّا، ويُؤيّده القراءةُ بالكسر والجرّ عطفًا على الصلاة والزكاة، والتنكيرُ للتفخيم. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عنيدًا[٧] لله تعالى لفَرْط تكبّره.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى. على أنّ التعريف للعهد، والأظهرُ أنّه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه، فإنّ إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضدّه لأضداده، كما في قوله تعالى:

---

١ لم أجِده في مظانّه. وهو مَرويٌّ عنه في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٥٥.

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٤.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٥٥.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ ط س: عند.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه، ٤٧/٢٠]، فإنّه تعريض بأنّ العذاب على مَن كذّب وتولّى.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن فُصّلت نعوته الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عُلوّ رتبته وبُعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلةَ المشاهَد المحسوس، ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يزعُمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعَله موصوفًا بأضداد ما يصفونه.

﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنصب على أنّه مصدر مؤكِّد لـ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾... إلى آخره،[١] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، وقرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو قول الحقّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصّة. وقيل: صفة عيسى أو بدله أو خبر ثانٍ، ومعناه / كلمةُ الله.[٣] وقرئ: "قالُ الحقِّ"[٤] و"قَوْلُ الحَقِّ"،[٥] فإنّ "القَول" و"القُول" و"القال" في معنى واحد. [١٢ظ]

﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي: يشكّون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر، والنصارى: ابن الله سبحانه. وقرئ بتاء الخطاب.[٦]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحّ وما استقام له تعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عمّا بهتوه، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا

---

١ مريم، ٣٠/١٩.
٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش ويحيى وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي وداود بن هند والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم ببيان أنّ شأنه تعالى إذا قضى أمرًا مِن الأمور أن[1] يعلِّق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير، فمَن هذا شأنه كيف يُتوهَّم أن يكون له ولد. وقرئ: "فَيَكُوْنَ"[2] بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ مِن تمام كلام عيسى عليه السلام. قيل: هو عطفٌ على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[3] داخلٌ تحت القول.[4] وقد قُرئ بغير واو، وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام،[5] أي: ولأنّه تعالى ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن، ١٨/٧٢]. وقيل: معطوف على ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾.[6] ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكرتُه مِن التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضِلّ سالكُه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجَعْلهم ما يوجب الاتّفاق منشأً للاختلاف، فإنّ ما حُكي مِن مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، أو فِرَق النصارى، فقالت النَّسطوريّة: هو ابن الله، وقالت اليعقوبيّة: هو الله هبَط إلى الأرض ثمّ صعِد إلى السماء -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- وقالت المَلكائيّة: هو عبدُ الله ونبيُّه.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المختلِفون، عبّر عنهم بالموصول إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلّة الحُكم. ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن شهود يوم

---

[1] وفي هامش م: خبر "أنّ".

[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٢٠/٢.

[3] مريم، ٣٠/١٩.

[4] القول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

[5] قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

[6] مريم، ٣١/١٩. والقول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

عظيم الهَول والحِساب والجزاء وهو يوم القيامة، أو مِن وقت شُهوده، / أو مِن مكان الشهود فيه، أو مِن شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق، أو مِن وقت الشهادة أو مِن مكانها. وقيل: هو ما شهِدوا به في حقّ عيسى وأمّه.[١] [١٣و]

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٨﴾

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجّبٌ مِن حِدّة سَمْعهم وأبصارهم يومئذ، ومعناه أنّ أسماعهم وأبصارهم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة جدير بأن يُتعجَّب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ. وقيل: أمرٌ بأن يُسمِعهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه.[٢] والجارُّ والمجرور على الأوّل في موقع الرفع وعلى الثاني في حيّز النصب.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لا تُدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلّيّة، ووَضْع الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٩﴾

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ أي: يوم يتحسّر الناس قاطبةً، أمّا المسيء فعلى إساءته وأمّا المحسِن فعلى قلّة إحسانه. ﴿إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: فُرغ مِن الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار. ورُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن ذلك، فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كبش أملحَ فيُذبح والفريقان ينظرون، فينادي المنادي يا أهلَ الجنّة خلود فلا موتَ ويا أهل النار / خلود فلا موتَ، فيزداد أهل الجنّة فرحًا إلى فرح وأهل النار غمًّا إلى غمّ».[٣] و﴿إِذۡ﴾ بدل [١٣ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٦/٣.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.
٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٢/٥.

مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، أو ظرف لـ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، فإنّ المصدر المعرّف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف؟

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ أي: عمّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهما جملتان حاليّتان مِن الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾،[١] أي: مستقِرّون في ذلك وهم في تَينك الحالتين، وما بينهما اعتراض، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرۡهُمۡ﴾، أي: أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالًا متضمّنةً لمعنى التعليل.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلك ولا مِلك، أو نتوفّى الأرض ومَن عليها بالإفناء والإهلاك توفّيَ الوارثِ لإرثه ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ أي: يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ عطفٌ على ﴿أَنذِرۡهُمۡ﴾[٢] ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في السورة أو في القرآن ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصّته وبلِّغها إيّاهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٩]، فإنّهم ينتمّون إليه عليه السلام، فعساهم باستماع قصّته يُقلِعون عمّا هم فيه مِن القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ ملازمًا للصدق في كلّ ما يأتي ويذَر، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به مِن غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. والجملة استئناف مَسُوق لتعليل موجَب الأمر، فإنّ وصفه عليه السلام بذلك مِن دواعي ذِكره. ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مقيّد للأوّل مخصِّص له كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء، ٤/٦٩]، أي: كان جامعًا بين الصدِّيقيّة والنبوّة، ولعلّ / هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهّم تخصيص الصدِّيقيّة بالنبوّة [١٤و]
فإنّ كلّ نبيّ صدِّيق.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] مريم، ١٩/٣٩.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلُ اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾[١] وما بينهما اعتراض مقرِّر لِما قبله أو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿نَبِيًّا﴾.[٢] وتعليقُ الذِّكر بالأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيها مِن الحوادث قد مرّ سِرُّه مرارًا، أي: كان جامعًا بين الأثرَتَين حين قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزرَ متلطِّفًا في الدعوة مستمِيلًا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنّ "التاء" عِوض مِن "ياء" الإضافة ولذلك لا تجتمعان، وقد قلّ: "يا أبتا" لكون "الألف" بدلًا مِن "الياء". ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له[٣] وجُؤارك إليه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر شيئًا مِن المسموعات والمُبصَرات، فيدخُل في ذلك ما ذُكر دخولًا أوّليًا، ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ أي: لا يقدر على أن يغنيَ ﴿عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ.

ولقد سلَك عليه السلام في دعوته أحسنَ مِنهاج وأقومَ سبيل، واحتجّ عليه أبدع احتجاجٍ بحُسن أدب وخُلق جميل لئلّا يركَب متن المكابرة والعِناد ولا ينكبَ[٤] بالكلّيّة عن مَحَجّة الرشاد، حيث طلَب منه عِلّة عبادته لِما يستخِفّ به عَقْل كلّ عاقل مِن عالم وجاهل، ويأبى الركون إليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية القاصية مِن التعظيم، مع أنّها لا تحِقّ إلّا لمَن له الاستغناء التامّ والإنعام العامّ الخالقِ الرازقِ المحيي المُميت المثيب المعاقب، ونبّه على أنّ العاقل يجب أن يفعل كلّ ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح.

والشيء لو كان حيًّا مميِّزًا سميعًا بصيرًا قادرًا على النفع والضرّ مُطيقًا بإيصال الخير والشرّ / لكن كان ممكنًا، لَاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان [١٤ظ] أشرفَ الخلائق، لِما يراه مِثلَه في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع مِن حجَر أو شجر ليس له مِن أوصاف الإحياءِ عين ولا أثر؟

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] ط س – له.

[٤] وفي هامش م: نكب عنه: عدَل، كـ"نصَر" و"فرِح". قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نكب».

ثمّ دعاه إلى أن يتّبعه ليهديَه إلى الحقّ المبين، لِما أنّه لم يكن محظوظًا مِن العِلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السوي مصدِّرًا لدعوته بما مرّ مِن الاستمالة والاستعطاف حيث قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعِلم الفائق وإن كان كذلك؛ بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرفَ بأحوال ما سلكاه مِن الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا موصِلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عمّا كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلّ عاقل ببيان أنّه مع عرائه عن النفع بالمرّة مستجلِبٌ لضَرر عظيم، فإنّه في الحقيقة عبادة الشيطان لِما أنّه الآمر به، فقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ فإنّ عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذي يُسوِّلها لك ويغريك عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ تعليل لموجَب النهي وتأكيد له ببيان أنّه مستعصٍ على ربّك الذي أنعَم عليك بفنون النِّعم، ولا ريبَ في أنّ المطيع للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيق بأن يُستردّ منه النعم ويُنتقَم منه. والإظهار في موقع[١] الإضمار لزيادة التقرير، والاقتصار على ذِكر عصيانه مِن بين سائر جناياته، لأنّه مِلاكها، أو لأنّه نتيجة مُعاداته لآدمَ عليه السلام وذرّيّته، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لإظهار كمال شناعة عصيانه.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ تحذير مِن سوء [١٥و] عاقبة ما كان عليه مِن عبادة الشيطان، وهو ابتلاؤه / بما ابتُليَ به معبوده مِن العذاب الفظيع. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ متعلِّقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ للإشعار

١ س: موضع.

بأنّ وَصْف الرحمانيّة لا يدفَع حلول العذابِ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢].

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قرينًا له في اللعن المخلّد. وذِكرُ "الخوف" للمجاملة وإبراز الاعتناء بأمره.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبة القبولِ؟ فقيل: قال مُصرًّا على عِناده: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أمُعرِض ومُنصرِف أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب مِن التعجيب؟ كأنّ الرغبة عنها ممّا لا يصدُر عن العاقل فضلًا عن ترغيب الغير عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديد وتحذير عمّا كان عليه مِن العِظة والتذكير، أي: والله لئن لم تنتهِ عمّا كنت عليه مِن النهي عن عبادتها لأرجُمّنك بالحجارة. وقيل: باللسان.[1] ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ أي: فاحذَرني واترُكني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمانًا طويلًا، أو مليًا بالذهاب مطيقًا به.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلَف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومُتارَكة على طريقة مقابلةِ السيّئة بالحسنة، أي: لا أصيبُك بمكروهٍ بعدُ ولا أشافِهك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفِّقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوّح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء، ٨٦/٢٦].

والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيّنِ أنّه يموت على الكفر ممّا لا ريبَ في جوازه، وإنّما المحظور استدعاء المغفرة له / مع بقائه على الكفر، [١٥ظ]

[1] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

فإنّه ممّا لا مساغَ له عقلًا ولا نقلًا. وأمّا الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا يأباه قضيّة العقل، وإنّما الذي يمنعه السمعُ؛ ألا يُرى إلى أنّه عليه السلام قال لعمّه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنهَ عنه»،[1] فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية [التوبة، ١١٣/٩].

ولا اشتباهَ في أنّ هذا الوعد مِن إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ وما ترتّب عليهما مِن قوله تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ الآية، إنّما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبيُّن أمره، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة، ١١٤/٩]، كما مرّ في تفسير سورة التوبة.

واستثناؤه عمّا يؤتَسى به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٤/٦٠] لا يقدَح في جوازه، لكن لا لأنّ ذلك كان قبل ورود النهي أو لمَوعِدة وعَدها إيّاه كما قيل، لِما أنّ النهيَ إنّما ورد في شأن الاستغفار بعد تبيّن الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبيّن فلم يتناوله النهيُ أصلًا، وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظرَه؛ بل لأنّ المراد بما يؤتَسى به ما يجب الائتساء به حتمًا لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الممتحنة، ٦/٦٠]، فاستثناؤه عن ذلك إنّما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المَرجوّ إيمانه لاسيّما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء، وذلك ممّا لا يتردّد فيه أحد مِن العقلاء.

وأمّا عدم جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا. وتوجيه الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ الآية؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه. وتخصيص تلك العِدَة بالذِّكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج / التأكيد القسَمي، وأمّا جَعْل الاستغفار دائرًا [١٦و]
عليها وترتيبُ التبرُّؤ على تبيّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في تفسير سورة التوبة.

---

[1] صحيح البخاري، ٩٥/٢ (١٣٦٠)؛ صحيح مسلم، ٥٤/١ (٣٩)؛ جامع البيان للطبري، ٢٠/١٢ (التوبة، ١١٣/٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٤ (التوبة، ١١٣/٩).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: بليغًا في البِرّ والإلطاف، تعليلٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم يؤثّر فيكم نصائحي. ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ أعبده وحدَه. وقد جُوّز أن يراد به دعاؤه المذكور في سورة الشعراء،[١] ولا يبعُد[٢] أن يُراد به استدعاء الولد أيضًا بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧] حسبما يساعده السِّباق والسِّياق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا ضائعَ السعي، وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم. وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰ﴾ مِن إظهار التواضُع ومراعاة حُسن الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقّ مِن أنّ الإجابة والإثابة بطريق التفضّل منه عزّ وجلّ لا بطريق الوجوب وأنّ العِبرة بالخاتمة وذلك مِن الغيوب المختصّة بالعليم الخبير، ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقهم مِن أقربائه الكفَرة، لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإنّ المشهور أنّ الموهوب حينئذ إسماعيلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧] إثرَ دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]. ولعلّ ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عِظَم النِّعم التي أعطاها الله تعالى إيّاه بمقابلة مَن اعتزلهم مِن الأهل والأقرباء، فإنّهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير.

---

[١] وفي هامش م: هو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء، ٨٣/٢٦]. «منه».

[٢] س: أن يبعد.

هذا وقد رُوي أنه عليه السلام لمّا قصد الشام أتى أوّلًا حَرّان،[١] وتزوّج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ.[٢] والأوّلُ هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحد منهما أو منهم،[٣] وهو مفعول أوّلُ لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، / قُدِّم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى مَن عداهم؛ بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلّ واحد منهم جعلنا نبيًّا، لا بعضَهم دون بعض. [١٦ظ]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوّة، وذِكرها بعد ذِكر جَعْلهم نبيًّا للإيذان بأنّها مِن باب الرحمة. وقيل: هي المال والأولاد وما بُسط لهم مِن سَعة الرزق. وقيل: هو الكتاب.[٤] والأظهرُ أنّها عامّة لكلّ خير دِيني ودُنيوي أُوتوه ممّا لم يُؤتَ أحد مِن العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويُثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء، ٨٤/٢٦]. والمراد باللسان ما يوجد به مِن الكلام، ولسان العرب: لغتهم، وإضافتُه إلى الصدق ووصفُه بالعُلوّ للدلالة على أنّهم أحِقّاءُ بما يُثنون عليهم، وأنّ مَحامِدهم لا تخفى على تباعُد الأعصار وتبدّلِ الدول وتحوّل المِلَل والنِحَل.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ قُدّم ذِكره على ذِكر إسماعيلَ عليهما السلام لئلّا ينفصِل عن ذِكر[٥] يعقوبَ عليهم السلام. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾[٦] موحِّدًا أخلصَ عبادته

[١] حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة، مِن جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر. وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٥/٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

[٣] وفي هامش م: وهو الأنسب بما بعده مِن ضميرَي الجمع. «منه».

[٤] القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٦/٥.

[٥] س - ذِكر.

[٦] ضُبطت في م بكسر "اللام"، وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢. وأثبتُّ قراءة حفص ههنا.

عن الشِّرك والرِّياء، أو أسلَم وجهه لله وأخلَص نفسَه عمّا سواه، وقرئ: "مُخْلَصًا"[1] على أنّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدّم ﴿رَسُولًا﴾ مع كونه أخصّ وأعلى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ ﴿ٱلطُّورِ﴾: جبل بين مصرَ ومَدْيَنَ، و﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ صفة لـ"الجانب"، أي: ناديناه مِن ناحيته اليُمنى مِن اليمين، وهيَ التي تَلي يمينَ موسى عليه السلام، أو مِن جانبه الميمون مِن" اليُمن"، ومعنى ندائه منه أنه تمثّل له الكلام مِن تلك الجهة.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريبَ تشريف، مُثّل حاله عليه السلام بحال مَن قرّبه المَلِك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. و﴿نَجِيًّا﴾، أي: مناجيًا حال مِن أحد الضميرين في ﴿نَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أو ﴿قَرَّبۡنَٰهُ﴾. وقيل: مرتفعًا، لِما رُوي أنّه رُفع فوق السماوات حتّى سمع / صَريف القلم.[2] [١٧و]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي: مِن أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضَدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠] لا نفسَه، لأنّه كان أكبرَ منه عليهما السلام، وهو على الأوّل مفعول لـ﴿وَهَبۡنَا﴾ وعلى الثاني بدل، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذِكره عن ذِكر أبيه وأخيه لإبراز كمال

---

١ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٠.

الاعتناء بأمره بإيراده مستقلًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليل لموجَب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به، وناهيك أنّه وعَد الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[1] [الكهف، ٦٩/١٨] فوفّى.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دلالة على أنّ الرسول لا يجب أن يكون صاحبَ شريعة، فإنّ أولاد إبراهيمَ عليهم السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأهمّ وهو أن يُقبِل الرجل بالتكميل على نفسه ومَن هو أقربُ الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم، ٦/٦٦]، وقصدًا[2] إلى تكميل الكلّ بتكميلهم لأنّهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أمّته فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباء الأمَم.[3]

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاتّصافه بالنعوت الجليلة التي مِن جملتها ما ذُكر مِن خصاله الحميدة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سِبط شيث وجدُّ أبي نوحٍ فإنّه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام، واشتقاقُه مِن الدَّرس[4] يردّه مَنْع صرفه. نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريبًا مِن ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته.[5] رُوي أنّه تعالى / أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنّه أوّلُ مَن خطّ بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب.[6] [١٧ظ]

---

١ كذا في م ط س، والآية المذكورة قالها موسى عليه السلام للخَضِر، وأمّا وعد إسماعيل بالصبر على الذّبح فهو في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات، ١٠٢/٣٧].

٢ السياق: اشتغالًا... وقصدًا...

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٩/٣.

٤ ذكَر ذلك البغوي في معالم التنزيل، ٢٣٧/٥.

٥ الردّ مع التوجيه المذكور ذكرهما الزمخشري في الكشّاف، ٢٠/٣.

٦ الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٧/٥-٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في جميع أحوالِه ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مخصِّص للأول، إذ ليس كلُّ صدِّيق نبيًّا.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرَف النبوّة والزُّلفى عند الله عزّ وجلّ. وقيل: علوُّ الرتبة بالذِّكر الجميل في الدنيا،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح، ٤/٩٤]. وقيل: الجنّة.[2] وقيل: السماء السادسة،[3] أو الرابعة.[4]

رُوي عن كعب وغيره في سبب رَفْع إدريسَ عليه السلام أنّه سُئل ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: «يا ربّ إنّي قد مشَيتُ فيها يومًا وقد أصابني منها ما أصابني، فكيف مَن يحمِلها مسيرةَ خمسمائة عامٍ في يوم واحد؟ اللّهمّ خفِّف عنه مِن ثِقَلها وحرِّها،» فلمّا أصبح المَلَك وجد مِن خفّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال: «يا ربّ ما الذي قضيتَ فيه؟» قال: «إنّ عبدي إدريسَ سألني أن أخفِّف عنك حَمْلها وحرَّها فأجبتُه»، قال: «ربّ اجعل بيني وبينه خُلّةً،» فأذِن الله تعالى له فرفَعه إلى السماء.[5]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه مِن معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفتُه، أي: أنعم عليهم بفنون النِّعَم الدينيّة والدنيويّة حسبما أشيرَ إليه مجمَلًا، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول.

وقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجارّ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿مِنْ﴾ فيه للتبعيض لأنّ المنعَم عليهم أعمُّ مِن الأنبياء وأخصُّ مِن الذرّيّة.

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.

٢ مَرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٣ مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٤ مَرويّ عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخُدري وأبي هريرة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥-٥٦٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذرّيّة مَن حملنا معه خصوصًا، وهم مَن[1] عدا إدريسَ عليه السلام، فإنّ إبراهيم كان مِن ذرّيّة سام بن نوح. / ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [١٨و]
وهم الباقون ﴿وَإِسْرَآءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: ومِن ذرّيّة إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دليل على أنّ أولاد البنات مِن الذرّيّة. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي: ومِن جملة مَن هديناهم إلى الحقّ واجتبيناهم للنبوّة والكرامة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافًا مَسوقًا لبيان خشيتهم مِن الله تعالى وإخباتهم له، مع ما لهم مِن عُلوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرَف النسَب وكمالِ النفس والزُّلفى مِن الله عزّ سلطانه. و﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حالان مِن ضمير ﴿خَرُّواْ﴾، أي: ساجدين باكين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اتلُوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا».[2] و"البُكِيُّ" جمع "باكٍ" كـ"السُّجود" جمع "ساجد"، وأصله "بُكُويٌ" فاجتمعت "الواو" و"الياء" وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت "الياء" في "الياء"، وحُرِّكت "الكاف" بالكسر المجانس لـ"الباء". وقرئ: "يُتْلَى"[3] بـ"الياء" التحتانيّة لأنّ التأنيث غير حقيقي، وقرئ: "بِكِيًّا"[4] بكسر "الباء" للإتباع.

قالوا: ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآيها، فهنا يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن عبادك المنعَم عليهم المهديّين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك. وفي آية الإسراء يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الباكين إليك الخاشعين لك. وفي آية تنزيل السجدة يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك مِن أن أكون مِن المستكبرين عن أمرك.[5]

---

١ ط س: ما.

٢ بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٢ (١٣٣٧)؛ ومسند أبي يعلى، ٤٩/٢ (٦٨٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤١٠/٣ (١٨٩١)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن جُندب وأبي حَيْوَة وابن عامر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٠٦.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٥ القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ يقال لعَقِب الخير: "خَلَف" بفتح اللام، ولعقِب الشرّ: "خَلْف" بالسكون، أي: فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِب سوء، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقُرئ "الصَّلَوَاتِ"،[1] أي: تركوها،[2] أو أخّروها[3] عن وقتها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن شُرب الخمر واستحلال نكاح الأخت مِن الأب / والانهماكِ في فنون المعاصي. وعن عليّ رضي الله عنه: «هم مَن بنى الشديد وركِب المنظور ولبِس المشهور».[4] [١٨ظ]

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: شرًّا، فإنّ كلّ شرّ عند العرب غيّ وكلّ خير رشادٌ، كقوله:

فمَن يلقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ ومَن يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغيّ لائما[5]

وعن الضحّاك: جزاءَ غيّ،[6] كقوله تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان، ٦٨/٢٥] أي: جزاءَ أثامٍ، أو غيًا عن طريق الجنّة. وقيل: "غَيّ" وادٍ في جهنّم يستعيذ منه أوديتها.[7]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ يدلّ على أنّ الآية في حقّ الكفَرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا، أي: فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمان

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والضحّاك وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٨؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

[2] وفي هامش م: كما هو الظاهر.

[3] وفي هامش م: كما قاله بعضهم.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٠٨/١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٢/٢.

[5] البيت للمُرقّش الأصغر في المفضّليّات للضّبّي، ص ٢٤٧؛ وإصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ١٥١؛ والصحاح للجوهري، «غوى»؛ والكشّاف للزمخشري، ٢١/٣. وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٥٧٣/١٥.

[6] عن الزجّاج في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣؛ وهو في معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٣٥/٣؛ وعن الضحّاك: غيًا وخسرانًا. معالم التنزيل للبغوي، ٢٤١/٥.

[7] مرويّ بمعناه عن عبد الله بن عمرو وابن عبّاس وعطاء وغيرهم في جامع البيان للطبري، ٥٧٢/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٤١/٥؛ وبلفظه ههنا بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣.

والعمل الصالح ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بموجَب الوعد المحتوم. وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[١] على البناء للمفعول.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يُنقَصون مِن جزاء أعمالِهم شيئًا، أو لا ينقُصون شيئًا مِن "النقص". وفيه تنبيهٌ على أنّ كفرهم السابق لا يضرّهم ولا ينقُص أجورَهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۝٦١﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح، وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي أو تلك جنّات... إلخ. أو مبتدأ خبرُه ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾... إلخ. وقُرئ: "جَنَّة عَدْنٍ" نصبًا[٣] ورفعًا.[٤]

و"عَدْن" عَلَم لمعنى العَدْن وهو الإقامة، كما أنّ "فَيْنَةَ" و"سَحَرَ" و"أمسَ" فيمَن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني "الفَينة" وهي الساعة التي أنت فيها و"السَّحَر" و"الأمس"، فجرى لذلك مَجرى العَدْن، أو هو عَلَم لأرض الجنّة خاصّة، ولولا ذلك لَما ساغ إبدال ما أضيفَ إليه / مِن الجنّة بلا وصف عند غير البصريّين [١٩و] ولا وصفه[٥] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾، وجَعْلُه بدلًا منه خلاف الظاهر، فإنّ الموصول في حُكم المشتقّ وقد نصّوا على أنّ البدَل بالمشتقّ ضعيف. والتعرّض لعنوان الرحمة للإيذان بأنّ وعدها وإنجازه لكمال سَعة رحمته تعالى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلِّقة بمضمر هو حال مِن المضمر العائد إلى "الجنّات" أو مِن ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: وعَدها إيّاهم ملتبِسةً أو ملتبِسين بالغيب،

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والمُناذري عن نافع والقُورُسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والأعمش والزُهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإسحاق والأزرق عن نافع وقتادة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٥ وفي هامش م: أي: وَصْفُ ما أضيفَ إليه. «منه».

أي: غائبة عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَونها، وإنّما آمنوا بها بمجرّد الإخبار، أو بمضمر هو سبب للوعد، أي: وعدها إيّاهم بسبب إيمانهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعده كائنًا ما كان فيدخل فيه الجنّات الموعودة دخولًا أوّليًا، ولمّا كانت هي مَثابة يُرجَع إليها قيل: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: يأتيه مَن وُعِد له لا محالةَ بغير خُلْف. وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل. وقيل: مأتيًا، أي: مفعولًا مُنجَزًا مِن "أتى إليه إحسانًا"، أي: فعَلَه.[١]

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: فضولَ كلام لا طائلَ تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أنّ اللغوَ ممّا ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدار ما أمكن. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطِع، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو متّصلٌ بطريق التعليق بالمُحال، أي: لا يسمعون لغوًا ما إلّا سلامًا فحيث استحال كون السلام لغوًا استحال سماعُهم له بالكلّيّة، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفهم بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[٢]

أو على أنّ معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياءُ عنه، فهو مِن باب اللغو ظاهرًا، وإنّما فائدته الإكرام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ / فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم، ٦٢/١٩] وارد على عادة المتنعِّمين في هذه الدار. وقيل: المراد دوام رزقِهم ودُرورُه، وإلّا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيّ.[٣] [١٩ظ]

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر جيء به لتعظيم شأن الجنّة وتعيين أهلها، فإنّ ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها وعلوّ رتبتها ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

٢ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٦٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٣٢٦/٢؛ والإيضاح للقزويني، ص ٥٢٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٣/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

أي: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نُبقيها عليهم بتقواهم ونُمتِّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مورثه ونمتِّعه به.

والوِراثة أقوى ما يُستعمَل في التملّك والاستحقاق مِن الألفاظ مِن حيث إنّها لا يعقَّب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال. وقيل: يُورَث المتَّقون مِن الجنّة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة في كرامتهم.[1] وقرئ: "نُوَرِّثُ"[2] بالتشديد.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبرائيلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما السلام لمّا سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يُوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يومًا أو خمسةَ عشرَ فشقّ ذلك عليه مشقّة شديدة، وقال المشركون: وَدَّعه ربُّه وقلاه، ثمّ نزل ببيان ذلك، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وسورة الضحى.[3] والتنزّل النزول على مَهل لأنّه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلَق التنزيل على الإنزال، والمعنى وما نتنزّل وقتًا غِبَّ وقت إلّا بأمر الله تعالى على ما يقتضيه حكمتُه. وقرئ: "وَمَا يَتَنَزَّلُ"[4] بالياء والضمير للوحي.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه مِن الأماكن والأزمنة، ولا ننتقل مِن مكان إلى مكان ولا ننزل في / زمان دون زمان إلّا بأمره ومشيئته. [٢٠و]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: تاركًا لك يعني أنّ عدم النزول لم يكن إلّا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه، ولم يكن لتَرْكه تعالى لك وتوديعه إيّاك كما زعمَتِ الكفرة.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والحسن وقتادة وابن مِقسَم ومحبوب عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

[3] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣-٢٣. ومضى بتخريجه في تفسير الآية الثالثة والعشرين مِن سورة الكهف، والآية الثالثة والثمانين منها.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

وفى إعادة اسم الربّ المُعرِب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والإشعار بعلّة الحُكم ما لا يخفى.

وقيل: أوّل الآية حكاية قول المتّقين حين يدخُلون الجنّة مخاطِبًا بعضُهم بعضًا بطريق التبجّح والابتهاج، والمعنى وما نتنزّل الجنّةَ إلّا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلّها سالِفها ومُترقِّبها وحاضرِها، فما وجدناه وما نجده مِن لطفه وفضلِه، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير لقولهم مِن جهة الله تعالى، أي: وما كان ناسيًا لأعمال العاملين وما وعدهم مِن الثواب عليها.[١]

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإنّ مَن بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحة سبحانِه الغفلةُ والنسيانُ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوف أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.[٢]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدها مِن موجَب الأمرين على ما قبلها مِن كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: مِن كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر مِن الربوبيّة الكاملة فاعبده... إلخ، فإنّ إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته ممّا لا ريبَ فيه، أو حين عرفتَ أنّه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنًا مَن كان فأقبِلْ على عبادته، واصطبرْ على مشاقّها، ولا تحزن بإبطال الوحي وهُزْؤ الكفرة، فإنّه يُراقبك ويُراعيك ويلطُف بك في الدنيا والآخرة.[٣]

وتعدية الاصطبار بـ"اللام" لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: / ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] لتضمّنه معنى الثبات للعبادة فيما تُورِد عليه [٣٠ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٣/٣.
٢ في الآية السابقة.
٣ القول بإيجاز في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٤/٢.

مِن الشدائد والمشاقّ، كقولك للمبارز: "اصطبِر لقِرنك"، أي: اثبُت له فيما يُورد عليك مِن شَدّاته.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ السمِيُّ هو[1] الشريك في الاسم، والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاصّ قد عُبِّر[2] عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السماوات والأرض وما بينهما. والمراد بإنكار العِلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكَده، فالجملة تقرير لِما أفاده "الفاء" مِن عِلّيّة ربوبيّته العامّة لوجوب عبادته؛ بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عزّ وجلّ بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلّيّة حقًّا أو باطلًا.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنّ المشركين مع غلوّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلًا. وقيل: هو الشريك في اسم الإله، والمرادُ بالتسمية التسمية على الحقّ، فالمعنى هل تعلم شيئًا يسمّى بالاستحقاق إلهًا؟ وأمّا التسمية على الباطل فهي كلا تسميةٍ،[3] فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين مِن الإشعار باستحقاق العبادة، فتدبّر.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المراد به إمّا الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكلّ لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقلْه الجميع، كما يقال: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، وإمّا البعضُ المعهود منهم وهم الكفرة أو أُبيُّ بن خَلَف، فإنّه أخذ عظامًا باليةً ففتّها فقال: يزعُم محمّد أنّا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال،[4] أي: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ أي: أُبعث مِن الأرض، أو مِن حال الموت.

وتقديم الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لِما أنّ المنكَر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دلّ عليه ﴿أُخۡرَجُ﴾ لا به، فإنّ ما بعد "اللام" لا يعمَل

---

[1] س – هو.
[2] هكذا ضبطها المصنّف.
[3] القولان بمعناهما في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤.
[4] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٤.

فيما قبلها، وهي ههنا مخلَصة للتوكيد مجرّدة عن معنى الحال، كما خلَصت "الهمزة" و"اللام" للتعويض في "يا الله" فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وقرئ: "إِذَا مَا مِتُّ"[١] بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مِن الذِّكر الذي يراد به التفكّر. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأنّ الإنسانيّة مِن دواعي التفكّر فيما جرى عليه مِن شئون التكوين المُنجِية بالقلع على القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان. والهمزة للإنكار التوبيخي، و"الواو" لعطف الجملة المنفيّة على مقدَّر يدلُّ عليه ﴿يَقُولُ﴾،[٢] أي: أيقول ذلك ولا يذكُر.

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: والحال أنّه لم يكن حينئذ شيئًا أصلًا، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخَلْق بالكلّيّة / مع كونه أبعدَ مِن الوقوع فلأن نَبعثَه بجمع الموادّ المتفرِّقة وإيجادِ مِثل ما كان فيها مِن الأعراض أَولى وأظهرُ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه مِن النكير؟ وقرئ: "يَذَّكَّرُ"[٣] و"يَتَذَكَّرُ"[٤] على الأصل. [٢١و]

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه عزّت أسماؤه مضافًا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالإشعار بعلّيّته وتفخيم شأنه عليه السلام ورَفْع منزلته. ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعَنّ القائلين بالسَّوق إلى المَحشَر بعد ما أخرجناهم مِن الأرض أحياء، ففيه إثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكَده، كأنّه أَمر واضح غنيّ عن التصريح به، وإنّما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك مِن الأهوال. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه.

---

١ قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/١.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

رُوي أنّ الكفرة يُحشرون مع قرنائهم مِن الشياطين التي كانت تُغويهم، كلٌّ منهم معَ شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مختصًّا بهم، لكن ساغ نسبته إلى الجنس[١] باعتبار أنّهم لمّا حُشروا وفيهم الكفَرة مقرونين بالشياطين فقد حُشروا معهم جميعًا كما ساغ نسبة القول المحكي إليه مع كون القائل بعضَ أفراده.[٢]

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ليرى السعداء ما نجّاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسرورًا، وينالَ الأشقياء ما ادخَروا لمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظًا مِن رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم. و"الجِثيّ" جمع "جاثٍ" مِن "جثا" إذا قعَد على ركبته، وأصلُه "جُثُوْوٌ" بواوين فاستُثقل اجتماعهما بعد ضمّتين فكُسرت "الثاء" للتخفيف فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعَت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواو ياءً، وأُدغمت فيها "الياء" الأولى وكُسرت "الجيم" إتباعًا لها[٣] لِما بعدها. وقرئ / بضمّها.[٤] [٢١ظ]

ونصبُه على الحاليّة مِن الضمير البارز، أي: لنُحضرنّهم حول جهنّم جاثين على رُكَبهم لِما يدهَمُهم مِن هول المطلَع، أو لأنّه مِن توابع التواقُف للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب، فإنّ أهل الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية، ٤٥/٢٨] على ما هو المعتاد في مواقف التقاوُل، وإن كان المراد بالإنسان الكفَرة فلعلّهم يُساقون مِن الموقف إلى شاطئ جهنّم جُثاة إهانة بهم أو لعَجْزهم عن القيام لِما اعتراهم مِن الشدّة.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: مِن كلّ أمّة شاعت دينًا مِن الأديان ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: مَن كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها. وفي ذِكر "الأشدّ"

---

١ وفي هامش م: هو على تقدير كون المراد بـ"الإنسان" الجنس.

٢ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/٣؛ وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٥/٥.

٣ س – لها.

٤ قرأ بها نافع ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

تنبيه على أنّه تعالى يعفو عن بعض مِن أهل العصيان. وعلى تقدير تفسير ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾[١] بالكفَرة فالمعنى: إنّا نميّز مِن كلّ طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلًّا منهم طبقتها اللائقة به.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيّ على الضمّ عند سيبويه،[٢] لأنّ حقّه أن يُبنى كسائر الموصولات لكنّه أعرِبَ حَمْلًا على "كلّ" و"بعض" للزوم الإضافة، وإذا حُذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقّه، ومنصوبُ[٣] المحلّ بـ﴿نَنزِعَنَّ﴾، ولذلك قرئ منصوبًا،[٤] ومرفوعٌ[٥] عند غيره[٦] بالابتداء على أنّه استفهامي وخبره ﴿أَشَدُّ﴾، والجملةُ مَحكيّة، والتقدير: لننزعَنّ مِن كلّ شيعة الذين يقال لهم: أيُّهم أشدّ، أو مُعلّقٌ عنها ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعِلم، أو مستأنَفةٌ والفعل واقع على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾، / على زيادة ﴿مِن﴾ أو على معنى لننزعنّ بعض كلّ شيعة، كقوله تعالى: [٢٢و] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم، ٥٣/١٩].

و﴿عَلَى﴾ للبيان فيتعلّق بمحذوف، كأنّ سائلًا قال: على مَن عتَوا؟ فقيل: على الرحمن، أو متعلِّقٌ بـ"أفعل".[٧] وكذا "الباء" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: هم أَولى بصليّها أو صليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون. ويجوز أن يراد بهم وبأشدِّهم عِتيًا رؤساءُ الشِّيَع، فإنّ عذابهم مُضاعَف لضلالهم وإضلالهم.[٨] و"الصِّليُّ" كـ"العِتيّ" صيغةً وإعلالًا، وقرئ بضمّ الصاد.[٩]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام. وقيل: هو خطاب للناس مِن غير التفات إلى المذكور.[١٠] ويؤيّد الأوّل أنّه قرئ:

---

١ مريم، ٦٧/١٩.
٢ انظر: كتاب سيبويه، ٤٠٠/٢.
٣ س: وهو منصوب.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٠.
٥ السياق: مبنيّ على الضمّ... أو مرفوع...
٦ أي: غير سيبويه.
٧ هذه الوجوه في إعرابها مذكورة بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٥/٢.
٨ الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/٣.
٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.
١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٧/٣.

"وَإِنْ مِنْهُمْ"،[١] أي: ما منكم أيها الإنسان. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واصلها وحاضر دونها، يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنّه عليه السلام سُئل عنه فقال: «إذا دخَل أهل الجنّة الجنّة قال بعضُهم لبعض: "أليس قد وعَدنا ربّنا أن نرِد النار؟" فيُقال لهم: "قد وردتُموها وهي خامدة"».[٢] وأمّا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١]، فالمراد به[٣] الإبعاد عن عذابها. وقيل: ورودها: الجواز على الصراط الممدود عليها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودُهم إيّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أمرًا محتومًا أوجبه الله عزّ وجلّ على ذاته وقضى أنّه لا بدّ مِن وقوعه البتّةَ. وقيل: أقسم عليه.[٤]

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾

[٢٢ظ] ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الكفر والمعاصيَ / ممّا كانوا عليه مِن حال الجُثُوّ على الرُّكب على الوجه الذي سلَف، فيُساقون إلى الجنّة. وقرئ: "نُنْجِيْ"[٥] بالتخفيف، و"يُنَجِّى"[٦] و"يُنجَى"[٧] على البناء للمفعول، وقرئ: "ثَمَّةَ نُنَجِّيْ"[٨] بفتح "الثاء"، أي: هناك نُنجّيهم.

﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهارًا بهم كما كانوا. قيل: فيه دليل على أنّ المراد بالورود الجثُوّ حواليها وأنّ المؤمنين يفارقون الفجَرة بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرة فيها على هيئاتهم.[٩]

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٥/٢. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٣٢/٢.
٣ س - به.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٢.
٥ قرأ بها الكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.
٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.
٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية إلى آخرها، حكاية لِما قالوا عند سماع الآياتِ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بحُسن حال المؤمنين وسوءِ حال الكفرة. وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: مرتّلاتِ الألفاظ مبيَّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو بيّناتِ الإعجاز، حالٌ مؤكِّدة مِن ﴿ءَايَٰتُنَا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قالوا، ووَضْع الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له، أو قال الذين مرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النَّضْر بن الحارث وأتباعه الفجَرة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتبليغ، كما في مِثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ [البقرة، ٢٤٧/٢]. وقيل: لام الأجل،[١] كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦] أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ قَولهم ليس في حقّ المؤمنين فقط كما ينطِق به / قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنّهم قالوا: أيّنا ﴿خَيْرٌ﴾ [٢٣و]
نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكانًا. وقرئ بضمّ "الميم"،[٢] أي: موضِعَ إقامة ومنزل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلِسًا ومجتمَعًا.

يُروى أنّهم كانوا يرجّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيّبون ويتزيّنون بالزّيَن الفاخرة ثمّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أنّ خيريّتهم حالًا وأحسنيّتهم مآلًا ممّا لا يقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلفاهم عنده؛ إذ هو العِيار على الفضل والنقصان والرفعة والضَّعة، وأنّ مِن ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجل، وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلّا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا، وذلك مبلغُهم مِن العلم.

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢-٣١٩.

فرُدَّ عليهم ذلك مِن جهته تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كثيرًا مِن القرون التي كانوا أفضل منهم فيما يفتخرون به مِن الحظوظ الدنيويّة كعاد وثمودَ وأضرابهم مِن الأمَم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لِكرامتهم علينا لَما فعلنا بهم ما فعلنا. وفيه مِن التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنّه قيل: فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك. فـ﴿كَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن قَرْنٍ﴾ بيان لإبهامها، وأهلُ كلّ عصر قَرنٌ لمَن بعدهم لأنّهم يتقدّمونهم، مأخوذ مِن "قَرْن الدابّة" وهو مقدَّمها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ في حيّز النصب على أنّه صفة لـ﴿كَمْ﴾، و﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز النسبة وهو متاع البيت. وقيل: هو ما جدّ منه، والجُرْثيُّ[1] ما لُبِس منه ورَثّ.[2] والرِّئْيُ: المنظرُ، / "فِعْلٌ" مِن الرؤية لِما يُرَى، كـ"الطِّحْن" لِما يُطحَن، [٢٣ظ]
وقرئ: "رِيًّا"[3] على قلب الهمزة ياءً وإدغامها، أو على أنّه مِن الرِّيّ وهو النعمةُ والترفُّه، وقرئ: "رِيئًا"[4] على القلب، و"رِيَا"[5] بحذف "الهمزة"، و"زِيًّا"[6] بـ"الزاء" المعجَمة مِن الزَّيّ وهو الجمع، فإنّه عبارة عن المحاسن المجموعة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لمّا بيّن عاقبة أمر الأمَم المهلَكة مع ما كان لهم مِن التمتّع بفنون الحظوظ العاجلة أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم مِن الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين، إمّا على وجه كلّي متناول لهم ولغيرهم مِن المنهمِكين في اللذة الفانية

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ صوابه "الخُرْثِيّ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرث».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.
٣ قرأ بها ابن ذكوان وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٤/١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ويزيد البربري والحُلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٢.

المبتهِجين بها على أنّ ﴿مَن﴾ على عمومها، وإمّا على وجه خاصّ بهم على أنّها عبارة عنهم ووَصْفهم بالتمكّن لذمّهم والإشعار بعلّة الحُكم، أي: مَن كان مستقرًّا في الضلالة مغمورًا بالجهل والغَفلة عن عواقب الأمور فليمدُد له الرحمن، أي: يمُدّ له ويُمهِله بطول العُمر وإعطاءِ المال والتمكين مِن التصرّفات.

وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُفعَل بموجَب الحِكمة لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، أو للاستدراج كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران، ١٧٨/٣]. وقيل: المراد به الدعاء بالمدّ والتنفيس.[1] واعتبارُ الاستقرار في الضلالة لِما أنّ المدّ لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبّ ضالّ يهديه الله عزّ وجلّ. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ المدّ مِن أحكام الرحمة الدنيويّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدّ الممتدّ لا لقول المفتخِرين كما قيل،[2] / إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات، وهو ظاهر، ولا استمرارٌ بحسب التكرار لوقوعه في حيّز جواب ﴿إِذَا﴾.[3] وجَمْعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضميرين الأوّلين باعتبار لفظها. [٢٤و]

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل، فإنّه إمّا العذاب الدنيوي بغلَبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إيّاهم قتلًا وأسرًا، وإمّا يوم القيامة وما نالهم فيه مِن الخزي والنَّكال على طريقة مَنْع الخلوّ دون مَنْع الجمع، فإنّ العذاب الأخروي لا ينفكّ عنهم بحال.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة محكيّة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾، أي: حتّى إذا عاينوا ما يوعَدون مِن العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط، فسيعلمون حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفريقين بأن يشاهِدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرونه، فيعلمون أنّهم شرٌّ مكانًا لا خيرٌ مقامًا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي:

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.

[3] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية. «منه».

فئة وأنصارًا لا أحسنُ نديًا كما كانوا يدّعونه، وليس المراد أنّ له ثمّة جندًا ضعفاء، كلّا، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف، ٤٣/١٨]، وإنّما ذُكر ذلك ردًا لِما كانوا يزعمون أنّ لهم أعوانًا مِن الأعيان وأنصارًا مِن الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ٧٦﴾

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيان حال الضالّين. وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لأنّه في معنى الخبر حسبما عرفتَه، كأنّه قيل: مَن كان في الضلالة يمُدّه الله، ويزيد المهتدين هداية،[1] كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وقيل: عطفٌ على الشرطيّة المحكيّة بعد القول، كأنّه لمّا بيّن أنّ إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله، عُقّب / ذلك ببيان أنّ قصور حظّ المؤمن منها ليس لنقصه؛ بل لأنّه تعالى أراد به ما هو خير مِن ذلك.[2] [٢٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ على تقديرَي الاستئناف والعطف كلامٌ مستأنَف وارد مِن جهته تعالى لبيان فَضل أعمال المهتدين غيرُ داخل في حيّز الكلام الملقّن[3] لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومِن جملتها ما قيل مِن الصلوات الخمس، وما قيل مِن قول: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر" خير عند الله تعالى.[4] والتعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿ثَوَابًا﴾ أي: عائدةً ممّا يتمتّع به الكفَرة مِن النِّعم المُخدَجة الفانية التي يفتخرون بها، لاسيّما ومآلُها النعيم المقيم، ومآلُ هذه الحسرةُ السرمديّة والعذابُ الأليم، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجعًا وعاقبةً. وتكرير "الخير" لمزيد الاعتناء ببيان الخيريّة وتأكيدٌ لها، وفي التفضيل مع أنّ ما للكفرة بمَعزِل مِن أن يكون له خيريّة في العاقبة تهكّمٌ بهم.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.
٣ س - الملقّن.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي مِن جملتها آيات البعث. نزلت في العاص بن وائل كان لخبّاب بن الأرتّ عليه مال فاقتضاه، فقال: «لا، حتّى تكفر بمحمّد»، قال: «لا والله لا أكفر به حيًا ولا ميتًا ولا حين بُعِثتُ»، قال: «فإذا بُعثتَ جئني فيكونُ لي ثمّة مال وولد فأعطيَك». وفي رواية قال: «لا أكفر به حتّى يُميتَك ثم تُبعثَ»، فقال: «إنّي لميّت ثمّ مبعوث؟» قال: «نعم»، قال: «دعني حتّى أموت وأُبعثَ فسأُوتى مالًا وولدًا فأقضيَك»، فنزلت.[١] فـ"الهمزة" للتعجيب مِن حاله والإيذان بأنّها مِن الغرابة والشناعة بحيث يجب أن تُرى ويُقضى منها العجب.

/ ومَن فرّق[٢] بين "ألم ترَ" و"أرأيتَ" بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب بأنّ الأوّل يعلّق بنفس المتعجَّب منه، فيقال: "ألم ترَ إلى الذي صنع كذا" بمعنى انظرْ إليه فتعجّبْ مِن حاله، والثاني يعلّق بمثل المتعجَّب منه، فيقال: "أرأيتَ مِثلَ الذي صنع كذا" بمعنى أنّه مِن الغرابة بحيث لا يُرى له مِثلٌ،[٣] فقد حفِظ[٤] شيئًا وغابت عنه أشياءُ، وكأنّه ذهب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون، ١/١٠٧]. [٢٥و]

و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أنظرْتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ مَن يشاهدها.

﴿وَقَالَ﴾ مستهزئًا بها مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: انظرُ إليه فتعجّبْ مِن حالته البديعة وجُرأته الشنيعة. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، وقد قيل: إنّ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى "أخبِر" و"الفاء" على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصّة هذا الكافر عقيبَ حديث أولئك الذين قالوا:

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٠/٣ (٢٠٩١)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٣/٤ (٢٧٩٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣-٣١.

٢ وفي هامش م: هو الفاضل التفتازاني، ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة، ٢٥٩/٢]. «منه».

٣ انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف ١٨٨و.

٤ السياق: ومَن فرّق... فقد حفظ...

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ الآية،[١] وأنت خبير بأنّ المشهور استعمال "أرأيت" في معنى "أخبرني" بطريق الاستفهام جاريًا على أصله أو مُخرَجًا إلى ما يناسبه مِن المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره.

وقرئ: "وُلْدًا"[٢] على أنّه جَمْع "وَلَد" كـ"أُسْد" جَمْع "أَسَد" أو على أنّه لغة فيه كـ"العُرْب" و"العَرَب".

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردّ لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثرَ ما أشيرَ إليه بالتعجيب منها، أي: قد بلغ مِن عظَمة الشأن إلى أن ارتقى إلى عِلم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير حتّى ادّعى أن يؤتى في الآخرة مالًا وولدًا وأقسم عليه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك فإنّه لا يُتوصَّل إلى العِلم به إلّا بأحد هذين الطريقين. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بعلّيّة الرحمة / لإيتاء ما يدّعيه. [٢٥ظ]
وقيل: العهد: كلمة الشهادة.[٣] وقيل: العمل الصالح،[٤] فإنّ وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد، وهذا مُجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أنّ كلامه مع خبّاب كان كذلك.

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن التفوّه بتلك العظيمة وتنبيهٌ على خطائه.
﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهر أنّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا ما انتسبْنا لم تلِدني لئيمةٌ[٥]

أي: يتبيّن أنّي لم تلِدني لئيمة.

---

[١] مريم، ٧٣/١٩.
[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.
[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.
[٤] مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٦٢١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.
[٥] صدر بيت لزائد بن صعصعة الفقعسي، وتمامه:
ولم تجدي مِن أن تُقِرّي بها بُدّا
وهو له في شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٤/١؛ وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ٦١/١ (البقرة، ٩١/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٥٧/٣ (البقرة، ٩١/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

. أو سننتقم منه انتقام مَن كتب جريمة الجاني وحفِظها عليه، فإنّ نفس الكَتَبة لا تكاد تتأخّر عن القول، لقوله عزّ وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق، ١٨/٥٠]، فمبنى الأوّل تنزيل إظهار الشيء الخفيّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم بجامع أنّ كلًّا منهما إخراج مِن الكُمون إلى البُروز فيكون استعارة تبعيّة مبنيّة على تشبيه إظهار الكتابة على رءوس الأشهاد بإحداثها، ومدارُ الثاني تسمية الشيء باسم سببه فإنّ كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعًا.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ مكان ما يدّعيه لنفسه مِن الإمداد بالمال والولد، أي: نُطوّل له مِن العذاب ما يستحقّه أو نزيد عذابه ونُضاعف له لكُفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العِظام، ولذلك أُكّد بالمصدر دلالة على فَرْط الغضب.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: مسمًّى ما يقول ومِصداقه وهو ما أوتيه في الدنيا مِن المال والولد، وفيه إيذان بأنّه ليس لِما يقول مِصداق موجود سوى ما ذُكر، أي: ننزِع عنه ما آتيناه. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلًا أن يؤتى ثمّة زائدًا. وقيل: نزوي عنه ما زعَم أنّه يناله في الآخرة ونعطيه مَن يستحقّه.[1] ويأباه معنى الإرث.

وقيل: المراد بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ نفس القول المذكور لا مسمّاه، والمعنى إنّما يقول هذا القول ما دام حيًّا فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه.[2] وأنت خبير بأنّ ذلك مبنيّ على / أنّ صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد [٢٦و]
وأنّه مستمرّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريبَ في أنّ ذلك مستحيل ممّن كفر بالبعث، وإنّما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دَينه بالمُحال.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ حكاية لجناية عامّة للكلّ مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها،

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٨/٢.

أي: اتّخذوا الأصنام آلهةً متجاوزين الله تعالى. ﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليُعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وُصلةً إليه عزّ وجلّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم مِن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة. ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ أي: ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن يُنطِقها الله تعالى وتقولَ: ما عبدتمونا، أو سيُنكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ على الأوّل تكون الآلهة التي كانوا يرجُون أن تكون لهم عِزًّا ضدًّا للعزّ، أي: ذلًّا وهَوانًا، أو تكون عونًا عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقود النار وحصَب جهنّم، أو حيث كانت عبادتهم لها سببًا لعذابهم. وإطلاق الضدّ على العَون لِما أنّ عَون الرجل يُضادّ عدوّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفَرة ضدًّا وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبُّونها كحبّ الله ويعبدونها. وتوحيدُ الضدّ لوَحدة المعنى الذي عليه يدور مُضادّتهم، فإنّهم بذلك كشيء واحد، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «وهم يد على مَن سواهم»،[1] وقرئ: "كَلًّا"[2] بفتح "الكاف" والتنوينِ على قلب "الألف" نونًا / في الوقف قلْبَ ألِفِ الإطلاق في قوله: [٢٦ظ]

أقِـلّـي الـلـومَ عـاذِلَ والـعِـتـابَـنْ   وقُـولـي إن أصبـتُ لقد أصـابَـنْ[3]

أو على معنى كَلَّ هذا الرأي كلًّا، وقرئ: "كُلًّا"[4] على إضمار فعل يفسّره ما بعده، أي: سيجحدون كلًّا سيكفرون... إلخ.

---

[1] مسند أحمد، ٢٦٧/٢ (٩٥٩)؛ سنن أبي داود، ٣٧٩/٤ (٢٧٥١)؛ شعب الإيمان ٤٠/٣ (١٣٧٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.

[3] البيت لجرير في ديوانه ٨١٣؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٢٠٥/٤؛ وسِرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ١٣٦/٢؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٠/٣ (الأحزاب، ١٠/٣٣).

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا نطَقت به الآيات الكريمة السالفة وحكَته عن هؤلاء الكفَرة الغُواة والمَرَدة العُتاة مِن فنون القبائح مِن الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيّ، والانهماكِ في الضلال، والإفراط في العِناد، والتصميمِ على الكفر مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطف يَثنيهم، والإجماعِ على مدافَعة الحقّ بعد اتّضاحه وانتفاءِ الشكّ عنه بالكلّيّة؛ وتنبيهٌ على أنّ جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم؛ لا لأنّ له مسوِّغًا ما في الجملة.

ومعنى إرسال الشياطين عليهم إمّا تسليطهم عليهم وتمكينهم مِن إضلالهم وإمّا تقييضهم لهم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام مِن إرسالهم عليهم،[1] كما يُوهِمه تعليق الرؤية به، بل ممّا ذُكر مِن أحوال الكفَرة مِن حيث كونها مِن آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فإنّه إمّا حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئناف وقَع جوابًا عمّا نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ؟ فقيل: تؤزّهم، أي: تُغريهم وتُهيّجهم على المعاصي تهييجًا شديدًا بأنواع الوساوس والتسويلات، فإنّ الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات معناها شِدّةُ الإزعاج.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بأن يَهلكوا حسبما يقتضيه جناياتهم ويَبيدوا عن آخرهم وتطهُر الأرض مِن فساداتهم. و"الفاء" للإشعار / بكون ما قبلها مَظِنّة [٢٧و] لوقوع المنهيّ عنه مُحوِجةً إلى النهي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه، ١١٧/٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليل لموجَب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، أي: لا تستعجِل بهلاكهم، فإنّه لم يبقَ لهم إلّا أيّام وأنفاس نعُدّها عدًّا.

---

[1] كما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف، ٣٢/٣.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ منصوب على الظرفيّة بفعل مؤخَّر قد حُذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحِه لكمال فظاعة ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والدواهي العامّة، كأنّه قيل: يوم نحشر المتّقين، أي: نجمعهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى ربّهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَفِدُ الوفود على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عِطاشًا فإنّ مَن يرد الماء لا يُورِده إلّا العطشُ، أو كالدوابّ التي ترِد الماء، نفعل بالفريقين مِن الأفعال ما لا يفي ببيانه نِطاق المقال.

وقيل: منصوب على المفعوليّة بمضمر مقدَّم خُوطب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر... إلخ. وقيل: على الظرفيّة لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.[١] والذي يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأوّلَين، ويكون هذا استئنافًا مبيّنًا لبعض ما فيه مِن الأمور الدالّة على هَوله، وضميره عائد إلى العباد المدلول عليهم بذِكر الفريقين لانحصارهم فيهما.

[٣٧ظ] وقيل: إلى المتّقين / خاصّة. وقيل: إلى المجرمين مِن الكفرة وأهل الإسلام.[٢] والشفاعة على الأوّلَين مصدر مِن المبنيّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أن يكون مصدرًا مِن المبنيّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ومحلّ المستثنى إمّا الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلّا مَن استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو مَن أُمر بذلك، مِن قولهم: "عَهِد الأمير إلى فلان بكذا" إذا أمرَه به، فيكون ترغيبًا للناس في تحصّل الإيمان والتقوى المؤدّي إلى نَيل هذه الرتبة.

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣.
[٢] القولان في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٣٣.

وعلى الثاني استثناء مِن ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على حذف المضافِ، والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء، أي: لا يملك المتّقون الشفاعة إلّا شفاعةَ مَن اتّخذ العَهْد بالإسلام فيكون ترغيبًا في الإسلام.

وعلى الثالث استثناء مِن ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾ أيضًا، والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الأصل، والمعنى لا يملك المجرمون أن يُشفَع لهم إلّا مَن كان منهم مسلمًا.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومَن يزعُم مِن العرب أنّ الملائكة بنات الله -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- إثرَ حكاية جناية عبَدة الأصنام بطريق عطف القصّة على القصّة.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المُفصِح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة. و"الإدّ" / بالكسر والفتح: العظيم المنكَر، والإدّة: الشِّدّة، و"أدّني الأمر وآدّني": أثقلني [٢٨و] وعظُم عليّ، أي: فعلتُم أمرًا منكَرًا شديدًا لا يقادَر قَدْره، فإنّ "جاء" و"أتى" يستعملان في معنى فعَل فيُعدَّيان تعدِيتَه.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾... إلخ، صفة لـ﴿إِدّٗا﴾،[١] أو استئناف لبيان عِظَم شأنه في الشدّة والهَول. وقرئ: "يَكَادُ"[٢] بالتذكير. ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ يتشقّقن مرّة بعد أخرى مِن عِظَم ذلك الأمر. وقرئ: "يَنْفَطِرْنَ"،[٣] والأوّل أبلغ؛ لأن "تفعّل" مُطاوِع "فعّل" و"انفعَل" مُطاوِع "فعَل"، ولأنّ أصل التفعّل التكلّف.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

[٣] قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: وتكاد تنشقّ الأرض ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: تسقُط وتتهدّم، وقوله تعالى: ﴿هَدًّا﴾ مصدر مؤكِّد لمحذوف هو حال مِن الجبال، أي: تُهدّ هدًّا أو مصدر مِن المبنيّ للمفعول مؤكِّد لـ﴿تَخِرُّ﴾ على غير الصدر؛ لأنّه حينئذ بمعنى التهدّم والخُرور، كأنّه قيل: وتخِرّ الجبال خرورًا، أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحاليّة، أي: مهدودة، أو مفعول له، أي: لأنّها تُهَدّ. وهذا تقرير لكونه إدًّا، والمعنى أنّ هَول تلك الكلمة الشنعاء وعِظَمها بحيث لو تَصوَّرَت بصورة محسوسة لم تُطِق بها هاتيك الأجرام العِظَام وتفتَّتت مِن شدَّتها، أو أنّ فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حِلمه تعالى لخُرِّب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على مَن تفوّه بها.

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ منصوب على حَذْف "اللام" المتعلّقة بـ﴿تَكَادُ﴾[1] أو مجرور بإضمارها، أي: تكاد السماوات يتفطّرن والأرض تنشقّ والجبال تخِرّ لأن دعَوا له سبحانه ولدًا. وقيل: "اللام" متعلِقة بـ﴿هَدًّا﴾.[2] وقيل: الجملة بدل مِن الضمير المجرور في ﴿مِنۡهُ﴾،[3] كما في قوله:

على جُوده لضَنّ بالماء حاتِمُ[4]

[٢٨ظ] / وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الموجِبُ لذلك أن دعَوا... إلخ.[5] وقيل: فاعل ﴿هَدًّا﴾،[6] أي: هدّها دُعاء الولد.[7] والأَولى هو الأوّل. و﴿دَعَوۡاْ﴾ مِن "دعا" بمعنى "سمَّى" المتعدّي إلى مفعولين، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كلّ ما دُعيَ له ولدًا، أو مِن "دعا" بمعنى "نسَب" الذي مُطاوِعه "ادّعى إلى فلان"، أي: انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُواْ﴾ أو ﴿دَعَوۡاْ﴾ مقرِّرة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقُّق مضمونها، أي: قالوا: اتّخذ الرحمن ولدًا،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة. والقولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٥/٣.
[4] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ١١٧/٢.
[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٠/٢.
[6] في الآية السابقة.
[7] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥/٣.

أو أن دعَوا للرحمن ولدًا والحالُ أنّه ما يليق به تعالى اتّخاذُ الولد ولا يتطلّب له لو طُلب مثلًا لاستحالته في نفسه. ووَضْعُ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير للإشعار بعلّة الحُكم بالتنبيه على أنّ كلّ ما سواه تعالى إمّا نعمة أو مُنعَم عليه، فكيف يتسنّى أن يجانس مَن هو مَبدأ النِّعم ومُولي أصولها وفروعها حتّى يُتوهَّم أن يتّخذه ولدًا؟

وقد صرّح به قوله عزّ قائلًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحد مِن الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلّا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبوديّة والانقياد. وقرئ: "آتٍ الرَّحْمَنَ"[1] على الأصل.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: حصَرهم أو أحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد مِن حِيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، وكلُّ شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم آتٍ إيّاه تعالى منفردًا / مِن الأتباع والأنصار. وفي صيغة الفاعل مِن الدلالة على إتيانهم كذلك البتّة [٢٩و] ما ليس في صيغة المضارع لو قيل: يأتيه، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذُكر فأنّى يُتوهَّم احتمال أن يتّخذ شيئًا منهم ولدًا؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لمّا فُصّلت قبائح أحوال الكفرة عُقِّب ذلك بذِكر محاسن أحوال المؤمنين. ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: سيُحدث لهم في القلوب مودّة مِن غير تعرّض منهم لأسبابها سوى ما لهم مِن الإيمان والعمل الصالح. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ الموعود مِن آثارها. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أحبّ الله عبدًا يقول لجبريلَ عليه السلام: أُحِبُّ فلانًا فأحِبَّه،

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وطلحة والكَفَرتُوثي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٧.

فيُحِبّه جبريلُ، ثمّ ينادي في أهل السماء: إنّ الله أحبّ فلانًا فأحِبُوه، فيُحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له المحبّةُ في الأرض».[1]

و"السين" لأنّ السورة مَكيّة وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثمّ أنجزه حين دجا الإسلام، أو لأنّ الموعود في القيامة حين تُعرَض حسناتهم على رءوس الأشهاد فيُنزع ما في صدورهم مِن الغِلّ الذي كان في الدنيا، ولعلّ إفرادَ هذا بالوعد مِن بين ما سيُؤتَون يوم القيامة مِن الكرامات السنيّة لِما أنّ الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضادّ وتقاطُع وتلاعُن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ٩٧﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، و"الباء" بمعنى "على". وقيل: ضُمّن التيسير معنى الإنزال، أي: يسرنا القرآن منزِلين له بلغتك.[2]

[٢٩ظ] / و"الفاء" لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة: بلِّغ هذا المنزلَ أو بشِّر به وأنذِر فإنّما يسَّرناه بلسانك العربي المبين.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه مِن الأمر والنهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يؤمنون به لجَاجًا وعِنادًا. و"اللُّدّ" جمع "الألَدّ"، وهو الشديد الخصومة اللَّجوج المعانِد.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ٩٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ضمن وعيد الكفَرة بالإهلاك، وحثٌّ له عليه السلام على الإنذار، أي: قَرنًا كثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: هل تشعُر بأحد منهم وترى؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًا، وأصلُ التركيب

---

[1] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١١١/٤ (٣٢٠٩)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٣٠/٤ (٢٦٣٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٧/٥؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٣.

[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨١/٢.

هو الخفاء، ومنه "رَكَز الرُّمحَ" إذا غَيَّب طرَفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المَخفيّ. والمعنى أهلكناهم بالكلّيّة واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحد ولا يُسمَع منهم صوت خفيّ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة مريمَ أُعطي عشرَ حسنات بعدد مَن كذّب زكريّا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها، وبعدد مَن دعا الله تعالى في الدنيا ومَن لم يدْعُ الله تعالى».[١]

---

[١] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/١٧ (مريم، ١/١٩)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٧/٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٤٢/٢-٣٤٣. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أوائل جُمادى الأولى، سنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا ومصلّيًا ومسلِّمًا.

١٩

سورة مريم

مكية أو إلّا سجدتَها فمدنية، أو إلاّ «فخلف من بعدهم خلف» الآيتين فمدنيتان، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿كهيعص﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ هذا ﴿ذِكرُ رَحْمةِ رَبِّكَ عَبدَهُ﴾: مفعولُ «رحمة» ﴿زَكَرِيَّا﴾: بيانٌ له، ٣ ـ ﴿إذ﴾: مُتعلّق بـ «رحمة»

سورة مريم

قولُه: (اللهُ أعلَمُ) قيلَ: معناهُ: كافٍ لخلقِهِ، هادٍ لعبادِهِ، يدُهُ فوقَ أيديهِم، عالمٌ ببريَّتِهِ، صادقٌ في وعدِهِ، ولكونِهِ مَوصوفاً بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ قالَ السُّدِّيُّ: إنَّه الاسمُ الأعظمُ[١]. وفي دعاءِ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه: «يا كهيعص»[٢].

قولُه: (هَذَا) مبتدأٌ مُقدَّرٌ.

قولُه: (بَيَانٌ) أو بدلٌ.

قولُه: (مُتَعَلِّقٌ) أي: ظرفٌ لها.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٨) (١٦٦٦٢) عن شعبة، قال: سألت السدي، عن قوله: ﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿طسم﴾ فقال: قال ابن عباس: هو اسم الله الأعظم.

وروى البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٦٩) عن السدي قال: فواتح السور من أسماء الله عز وجل.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٤١).

﴿نادَى رَبَّهُ نِداءً﴾ مُشتملاً على دعاء ﴿خَفِيًّا﴾: سِرًّا جوفَ الليل لأنه أسرعُ للإجابة، ٤ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إنِّي وَهَنَ﴾: ضعُفَ ﴿العَظمُ﴾ جميعُه ﴿مِنِّي، واشتَعَلَ الرّأسُ﴾ منّي ﴿شَيبًا﴾: تمييزٌ محوَّل من الفاعل، أي: انتشر الشيب في شعري كما ينتشر شُعاع النار في الحطب، وإني أريد أن أدعوَك، ﴿ولَم أكُنْ بِدُعائكَ﴾ أي: بدعائي إيّاك ـ ﴿رَبِّ ـ شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا فيما مضى. فلا تُخيِّبْني فيما يأتي.

٥ ـ ﴿وإنِّي خِفتُ المَوالِيَ﴾ أي: الذين يلونني في النسب كبني العمّ، ﴿مِن وَرائِي﴾ أي: بعدِ موتي، على الدِّين أن يُضيِّعوه كما شاهدتُه في بني إسرائيلَ من تبديل الدِّين، ﴿وكانَتِ امرأتِي عاقِرًا﴾: لا تلدُ. ﴿فهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ﴾: من عِندِك ﴿وَلِيًّا﴾: ابنًا، ٦ ـ ﴿يَرِثْني﴾ ـ بالجزم:.........

قولُه: (سِرًّا) كما هو المأمورُ به بقولِهِ تعَالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهو أبعدُ عن الرِّياءِ، وأقربُ إلى الصَّفاءِ.

قولُه: (جَوْفَ اللَّيلِ) غيرُ مَفهومٍ من الكلامِ، فيَحتاجُ إلى نقلٍ.

قولُه: (لأنَّهُ) علَّةٌ لهما، أو للأخيرِ.

قولُه: (ضَعُفَ) بضمِّ العينِ.

قولُه: (جَمِيعُهُ) الأظهَرُ: جنسُه، وخُصَّ لأنَّه عَمودُ البدنِ وأشدُّ ما فيه.

قولُه: (مِنِّي) ففيه إجمالٌ وتَفصيلٌ، أو: رأسي، وهو الأظهرُ، والمرادُ: شعرُهُ، وأُسنِدَ إلى منبَتِه مجازاً لإفادَةِ الشُّمولِ.

قولُه: (شَعرِهِ) أي: الرَّأسِ.

قولُه: (بِدُعَائِي) فهو مصدرٌ مُضافٌ إلى المفعولِ.

قولُه: (بَعْدَ مَوتِي) وقولُ صاحِبِ «المدارِكِ»[1]: وبالقصرِ وفتحِ الياءِ كـ﴿هُدايَ﴾ مكِّيٌّ. القصرُ غيرُ ثابتٍ[2].

قولُه: (لا تَلِدُ) وهي أختُ مريمَ بنت عِمرانَ[3].

قولُه: (بالجَزمِ) بَصريٌّ وكسائيٌّ[4].

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٢) كذا قال، وقد ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٠٧) رواية عن ابن كثير، ولم يذكرها الداني، وأوردها أيضا ابن خالويه في «المختصر في شواذ القرءات» (ص: ٨٦). فلعل قول المؤلف: «غير ثابت» يعني: في المتواتر.

(٣) وانظر: «فتوح الغيب» (٤/ ٨٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٨).

جوابُ الأمر، وبالرفع: صفةُ «وليًا» ـ ﴿وَيَرِثُ﴾، بالوجهين، ﴿مِن آلِ يَعقُوبَ﴾ جَدّي العلمَ والنبوّةَ، ﴿واجعَلْهُ ـ رَبِّ ـ رَضِيًّا﴾ أي: مَرْضيًا عِندك.

قال تعالى في إجابة طلبه الابنَ الحاصلَ به رحمتُه: ٧ ـ ﴿يا زَكَرِيّاءُ، إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾ يَرِثُ كما سألتَ، ﴿اسمُهُ يَحيَى، لَم نَجعَلْ لَهُ مِن قَبلُ سَمِيًّا﴾ أي: مُسمًّى يحيى. ٨ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، أَنّى﴾: كيفَ ﴿يَكُونُ لِي غُلامٌ، وكانَتِ امرأتِي عاقِرًا، وقَد بَلَغتُ مِنَ الكِبَرِ عُتِيًّا﴾؟ من عتا: يَبِسَ، أي: نهايةَ السنّ مِائةً وعشرين سنة، وقد بلغَتِ امرأتُه ثمانيَ وتسعين سنة. وأصل عُتِيّ «عُتُوْوٌ» كُسرَتِ التاء تخفيفًا، وقُلبَتِ الواوُ الأُولى ياء لمُناسبة الكسرة، والثانيةُ ياء لتُدغم فيها الياء. ٩ ـ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكَ﴾ من خلق غلام منكما. ﴿قالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: بأن أردَّ عليك قُوّة الجِماع وأفتقَ رَحِم امرأتك للعُلوق. ﴿وقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ، ولَم تَكُ شَيئًا﴾..

قولُه: (الأَمرِ) أي: الدُّعاءِ.

قولُه: (العِلْمَ والنُّبُوَّةَ) لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ على ما صرَّحَ به في «المداركِ»، قالَ: ومعنَى الوراثةِ: أنّه يصلُحُ لأَن يوحَى إليه، ولم يُرِد أنَّ نفسَ النُّبوَّةِ تورَثُ(١).

قولُه: (مَرْضِيًّا) أو راضِياً عنك وبحُكمِك.

قولُه: (كَيفَ) وليسَ هذا باستِبعادٍ، بل هو استِكشافُ أنّه بأيِّ طريقٍ يكونُ: أيوهَبُ لهُ وهو وامرأتُه بتلكَ الحالِ، أم يُحوَّلانِ شابَّينِ؟

قولُه: (عُتُوٌّ) وأصلُه: عُتُوْوٌ؛ كجُلُوس.

قولُه: (تَخفِيفاً) لاستِثقالِ تَوالي الضَّمَّتَينِ والواوَينِ، وقرأَ حفصٌ وحمزَةُ والكسائيُّ بكسرِ الفاءِ، وكذا ﴿صِلِيًّا﴾ و﴿جِثِيًّا﴾ و(بِكِيًّا) إلّا حفصاً في الأخيرِ(٢).

قالَ تعالى: (﴿قَالَ رَبُّكَ﴾) يدلُّ على أنَّ المبشِّرَ هو الملَكُ، ويؤيِّدُه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قولُه: (أَفْتُقَ) أي: أشقَّ.

قولُه: (للعَلُوقِ) كصَبُورٍ؛ أي: المنيِّ(٣).

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٢٧).

(٢) أي: قرأ: ﴿بُكيا﴾ بضم الباء، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٩).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٢٦/ ١٩٩).

قبلَ خلقك. ولإظهار الله هذه القُدرةَ العظيمة ألهمه السؤال، ليُجاب بما يدلّ عليها.

ولمّا تاقت نفسه إلى سُرعة المُبشَّر به ١٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، اجعَلْ لِيَ آيةً﴾ أي: علامةً على حمل امرأتي. ﴿قالَ: آيَتُكَ﴾ عليه ﴿ألاّ تُكَلِّمَ النّاسَ﴾ أي: تمتنعَ من كلامهم بخِلاف ذكر الله ـ تعالى ـ ﴿ثَلاثَ لَيالٍ﴾ أي: بأيامها كما في آل عمران «ثلاثةَ أيّامٍ» ﴿سَوِيًّا﴾: حالٌ من فاعل «تُكلّم» أي: بِلا عِلّة. ١١ ـ ﴿فخَرَجَ على قَومِهِ مِنَ المِحرابِ﴾ أي: المسجد، وكانوا ينتظرون فتحه ليُصلّوا فيه بأمره على العادة، ﴿فأوحَى﴾: أشار ﴿إلَيهِم: أن سَبِّحُوا﴾: صلُّوا ﴿بُكْرَةً وعَشِيًّا﴾: أوائلَ النهار وأواخرَه على العادة. فعَلم بمنعه من كلامهم حَملَها بيحيى.

وبعد ولادته بسنتين قال تعالى له: ١٢ ـ ﴿يا يَحيَى، خُذِ الكِتابَ﴾ أي: التوراةَ ﴿بِقُوّةٍ﴾: بجِدّ. ﴿وآتيناهُ الحُكمَ﴾: النبوّة ﴿صَبِيًّا﴾:.......................................

قولُه: (قَبْلَ خَلْقِكَ) لأنَّ المعدومَ ليسَ بشيءٍ، وحمزةُ والكِسائيُّ: (خَلَقْنَاكَ)[1].

قولُه: (تَاقَتْ) واشتاقَتْ.

قولُه: (حَالٌ) أي: حالَ كونِكَ سويَّ الأعضاءِ واللِّسانِ.

قولُه: (أي: المَسجِدِ) أي: مَوضِعِ صلاتِهِ.

قولُه: (أَشَارَ) بإصبعِهِ.

قولُه: (صَلُّوا) و﴿أنْ﴾ مفسِّرةٌ.

قولُه: (وَأَوَاخِرَهُ) صلاةَ الفَجرِ والعَصرِ[2].

قولُه: (بِسَنَتَينِ) وفي نسخةٍ: «بِسِنينَ» وهو غيرُ صَحيحٍ لجَهالتِهِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: المرادُ به أقلُّ ما يُطلَقُ عليه لفظُ السِّنين، وهو ثلاثُ سنينَ؛ لما سيأتِي في كلامِهِ[3]، ويؤيِّدُ الأوَّلَ ما قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: وقُلنا: بعد ولادتِهِ وأوانَ الخطَابِ[4].

قولُه: (بجِدٍّ) واستظهَارٍ بالتَّوفيقِ، حالٌ.

قولُه: (النُّبوَّةَ) أو: فَهْمَ التَّوراة، والفقهَ في الدِّينِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٩).

(٢) رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨٤) عن قتادة.

(٣) وهو قوله: ابن ثلاث سنين.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٨).

ابن ثلاث سنين، ١٣ ـ ﴿وَحَنَانًا﴾: رحمة للناس ﴿مِن لَّدُنَّا﴾: من عِندِنا ﴿وَزَكَاةً﴾: صدقة عليهم، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ـ رُوي أنه لم يعمل خطيئة ولم يهمّ بها ـ ١٤ ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: مُحسنًا إليهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾: مُتكبرًا ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيًا لربّه. ١٥ ـ ﴿وَسَلَامٌ﴾ منّا ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ، وَيَوْمَ يَمُوتُ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: في هذه الأيام المخوفة التي يرى فيها ما لم يره قبلها، فهو آمِنٌ فيها.

١٦ ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾: القُرآنِ ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: خَبرَها، ﴿إِذِ﴾: حينَ ....

قولُه: (ابنَ ثَلاثٍ) حالٌ، قيل: دعاهُ الصِّبيانُ إلى اللَّعبِ وهو صبيٌّ، فقال: ما للَّعبِ خُلِقْنا[1].

قولُه: (للنَّاسِ) أي: لأبوَيهِ وغيرِهما، عطفاً على ﴿الْحُكْمَ﴾.

قولُه: (صَدَقَةً عَلَيْهِم) قالَ الكلبيُّ: صَدقةً تصدَّقَ اللهُ بها على أبوَيهِ[2].

والأظهرُ ما قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: طَهارةً وصَلاحاً، فلم يعمَل بذَنبٍ[3].

قولُه: (مُحسِناً) لا يعصِيهِما، مبَالغَةُ بارٍّ.

قولُه: (مِنَّا) أو أمانٌ مِن اللهِ له.

قولُه: (الأيَّامِ المَخُوفَةِ) يومَ وُلِدَ من أن ينَالَه الشَّيطانُ، ويومَ يموتُ من فتَّاني القَبرِ، ويومَ البَعثِ[4] من الفزَعِ الأكبرِ. قالَ ابنُ عُيينةَ: إنَّها أوحَشُ المواطنِ[5].

قولُه: (أَيْ: خَبَرَهَا) أي: اقرَأْ عليهِم قصَّتَها ليقفُوا عليها، ويَعلَموا ما جَرى عليها.

قولُه: (حِيْنَ) يعني: ﴿إِذِ﴾ بدلٌ من ﴿مَرْيَمَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ، إذِ الأحيانُ مشتَمِلةٌ على ما فيها، وفيهِ: أنَّ المقصِدَ[6] بذكرِ مريمَ ذِكرُ وَقتِها هذا لوُقوعِ هذه القصَّةِ العَجِيبةِ فيه، ولا يُتوهَّمُ أنَّه ظرفُ ﴿اذْكُرْ﴾، فإنَّه يُخِلُّ بالمعنى.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٩٦)، وأحمد في «الزهد» (٤٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٥٥) عن معمر قوله.

ورواه الحاكم في «تاريخه» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٣٤٤)، والواحدي في «التفسير البسيط» (١٤/ ٢٠٩).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٩).

(٤) في (ص): «يبعث».

(٥) رواه الخطابي في «شأن الدعاء» (١/ ٤٢) (٢١)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٥٩٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ١٧٤) (١٣٠٩٠) بأتم مما هنا.

(٦) في (ص): «المقصود».

﴿انتبَذَتْ مِن أهلِها مَكانًا شَرقِيًّا﴾ أي: اعتزلتْ في مكانٍ نحو الشرق من الدار، ١٧ ـ ﴿فاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجابًا﴾: أرسلتْ سِترًا تَستتر به لِتَفلِيَ رأسها أو ثيابها أو تغتسلَ من حيضها، ﴿فأرسَلْنا إلَيها رُوحَنا﴾ جِبريلَ، ﴿فتَمَثَّلَ لَها﴾ بعد لُبسها ثيابَها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾: تامَّ الخَلق. ١٨ ـ ﴿قالَتْ: إنِّي أعُوذُ بالرَّحمنِ مِنكَ، إن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فتنتهي عنّي بتعوّذي. ١٩ ـ ﴿قالَ: إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ، لِيَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ بالنبوّة.

٢٠ ـ ﴿قالَتْ: أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ، ولَم يَمسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بتزوّج، ﴿ولَم أكُ بَغِيًّا﴾: زانية؟ ٢١ ـ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكِ﴾ من خلق غُلام منكِ من غير أب. ﴿قالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: بأن ينفخ بأمري جِبريلُ فيكِ فتحملي به. ولكونِ ما ذُكر في معنى العِلّة عُطف عليه: ....

قولُه: (اعْتَزَلَتْ) أي: تخلَّت للعِبادةِ.

قولُه: (مِنَ الدَّارِ) أي: دارِها، أو من بيتِ المقدِسِ.

قولُه: (جِبرِيلَ) والإضافَةُ للتَّشريفِ، وسُمِّي رُوحاً؛ لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوَحيِهِ.

قولُه: (تَامَّ الخَلْقِ) وإنَّما مُثِّلَ لها في صُورةِ الإنسانِ لتستأنِسَ بكلامِهِ ولا تنفِرَ منه، ولو بدا لها في الصُّورةِ الملَكيَّةِ لنفرَت ولم تقدِرْ على استِماعِ كلامِهِ.

قالَ تعالى: (﴿لِيَهَبَ﴾) أي: اللهُ، قرأ به نافعٌ وأبو عَمرٍو بخلافٍ عن قالونَ، والباقونَ بالهمزِ[1]؛ أي: بإذنِ اللهِ، أو: لأكونَ سبباً في هِبَةِ الغُلامِ بالنَّفخِ في القَميصِ.

قولُه: (بالنُّبُوَّةِ) أو: طاهِراً من الذُّنوبِ، أو: نامياً على الخيرِ والبركَةِ.

قولُه: (زانيةً) تَبغِي الرِّجالَ؛ أي: تطلُبُ الشَّهوةَ من أيِّ رجلٍ كانَ، ولا يكونُ الولدُ عادةً إلَّا مِن أحدِ هذَين[2]، وهو فعولٌ أو فَعيلٌ بمعنَى: مَفعولٍ، ولذا لم تلحَقْه التَّاءُ.

قولُه: (مِن خَلْقِ) أو: الأمرُ كما قُلتِ، لم يمسَّكِ رجلٌ نِكاحاً أو سِفاحاً.

قولُه: (﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾) أي: إعطاءُ الولدِ بلا أبٍ عليَّ سَهلٌ.

قولُه: (ولِكَونِ ما ذُكِرَ) يعني: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أو هو معطوفٌ على تعليلٍ مُضمَرٍ؛ أي: لنُبيِّنَ به قدرتَنا، أو معلَّله محذوفٍ؛ وهو: فعَلْنا ذلك.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨).

(٢) أي: الزواج أو الزنا.

﴿ولِنَجعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ على قُدرتنا ﴿ورَحْمةً مِنّا﴾ لمَن آمن به. ﴿وكانَ﴾ خلقه ﴿أمرًا مَقضِيًّا﴾ به في عِلمي.

فنفخ جِبريلُ في جيب دِرعها، فأحسّت بالحمل في بطنها مُصوّرًا، ٢٢ ـ ﴿فحَمَلَتْهُ، فانتبَذَتْ﴾: تَنَحَّت ﴿بِهِ مَكانًا قَصِيًّا﴾: بعيدًا من أهلها، ٢٣ ـ ﴿فأجاءَها﴾: جاءَ بها ﴿المَخاضُ﴾: وجعُ الوِلادة ﴿إلَى جِذعِ النَّخْلةِ﴾ لتعتمد عليه، فولدتْ والحملُ والتصوير والولادة في ساعة. ﴿قالَتْ: يا﴾ للتنبيه ﴿لَيتَني مُتُّ قَبلَ هذا﴾ الأمرِ، ﴿وكُنتُ نِسْيًا مَنسِيًّا﴾: شيئًا متروكًا لا يُعرف ولا يُذكر.

٢٤ ـ ﴿فناداها مَن تَحتَها﴾ أي: جِبريلُ، ....

قولُه: (فِي عِلمِي) أو في اللَّوحِ.

قولُه: (فَنَفَخَ) أي: فلمَّا اطمأنَّتْ إلى قولِه دَنا منها فنفَخَ.

قالَ تعَالى: (﴿فَحَمَلَتْهُ﴾) أي: الموهوبَ، وكانَ سِنُّها ثلاثَ عشرَةَ سنةً، أو عشراً، أو عشرينَ.

قولُه: (تَنَحَّتْ) واعتزلَتْ، وهو في بَطنِها، فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ؛ أي: ملتَبِسةً به.

قولُه: (بَعِيداً) وراءَ الجبلِ، وذلك لأنَّها لمَّا أحسَّت بالحَملِ هربَتْ مِن قَومِها مخافَةَ اللَّائمةِ.

قولُه: (عَليهِ) أي: الجِذعِ، وهو الأصْلُ.

قولُه: (في سَاعَةٍ) قيلَ: حملَتْه في ساعَةٍ، وصُوِّرَ في ساعةٍ، ووضعَتْهُ في ساعةٍ.

وقيل: كانت مُدَّةُ الحملِ ستَّةَ أشهرٍ، وقيل: سبعةً، وقيل: ثمانيةً، ولم يَعِشْ مولودٌ وُضِعَ لثمانيةٍ إلَّا عيسَى[1].

قولُه: (الأَمْرِ) أو اليَومِ؛ جزَعاً ممَّا أصابَها.

قولُه: (ولا يُذَكَّرُ) وفتحَ النُّونَ حفصٌ وحمزةُ[2]، ومَعناهُما واحدٌ؛ وهو الشَّيءُ الذي حقُّه أن يُطرَحَ ويُنسَى لحقَارتِهِ[3].

قولُه: (أي: جِبرِيلُ) فـ﴿مَن﴾ موصُولةٌ.

---

(١) روى أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (٧٤٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٠/ ٩٢) عن ابن عباس قال: وضعت مريم لثمانية أشهر ولذلك لا يولد مولود لثمانية أشهر إلا مات لئلا تسب مريم بعيسى عليهما السلام.

وفي «البحر المحيط» لأبي حيان (٧/ ٢٥٠): وهذه أقوال مضطربة متناقضة كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً إلا أن المفسرين ذكروها في كتبهم وسودوا بها الورق.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤١).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٤٠/ ٨٠).

وكان أسفل منها: ﴿أَنْ لا تَحزَنِي ـ قَد جَعَلَ رَبُّكِ تَحتَكِ سَرِيًّا﴾: نهرَ ماءٍ كان انقطع ـ ٢٥ ـ ﴿وهُزِّي إِلَيكِ بِجِذعِ النَّخلةِ﴾ كانت يابسة والباء: زائدة، ﴿تَسَاقَطْ﴾ أصله بتاءين قُلبت الثانية سِينًا وأُدغمت في السين وفي قراءةٍ تركُها، ﴿عَلَيكِ رُطَبًا﴾:........................

قولُه: (مِنهَا) أي: من مَكانِها، أو عيسى؛ لأنَّه خاطَبَها من تحتِ ذَيلِها، و: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ مدنيٌّ وكوفيٌّ سِوى شُعبةَ[١]، على أنَّ في ﴿نادى﴾ ضميرُ أحدِهمَا.

قالَ تعالى: (﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾) مفسِّرةٌ أو مصدريَّةٌ؛ أي: لا تهتمِّي بالوحدةِ وعدمِ الطَّعامِ والشَّرابِ ومقالةِ النَّاسِ.

قولُه: (نَهرَ مَاءٍ) أو نهراً صغيراً، وهو قولُ الجُمهورِ[٢]، وسُئلَ النَّبيُّ ﷺ عن السَّريِّ فقالَ: «هو الجَدوَلُ»[٣].

قولُه: (كَانَ انْقَطَعَ) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ضربَ عيسى أو جبريلُ بعَقبِهِ الأرضَ، فظهرَت عينُ ماءٍ عَذبٍ، فجرَى النَّهرُ اليابِسُ، واخضرَّتِ النَّخلةُ، وكانت نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ، وكانَ الوقتُ شِتاءً، والنَّخلةُ أقلُّ شجرٍ صبراً على البردِ، وأثمرَت ونضجَتْ ثمرتُها[٤].

قولُه: (والبَاءُ زائِدَةٌ) قالَ البَيضاويُّ: أو: افعَلي الهزَّ به، أو: هُزِّي الثَّمرةَ بهذهِ، والهزُّ: التَّحريكُ بجَذبٍ ودفعٍ[٥].

وفي «القاموسِ»: هزَّهُ وهزَّ به؛ أي: حرَّكَه[٦]. فيدلُّ على أنَّه مُتعدٍّ بنفسِهِ وبالحرفِ.

وفي «المداركِ»: قال أبو عليٍّ: الباءُ زائدةٌ[٧]. ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا قولُهُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ[٨].

قولُه: (بِتَركِهَا) أي: إحدَى التَّاءَينِ، وحفصٌ: ﴿تُسَاقِطْ﴾[٩] من ساقطَتْ بمعنى: أسقطَتْ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ١٧٥ ـ ١٧٧).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٦٨٥)، وابن عدي في «الكامل» (٨/ ١٤١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤): فيه معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٥٨)، وابن الجعد في «مسنده» (٢١١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) وصححه، عن البراء بن عازب موقوفاً. وكذا علقه البخاري في «الصحيح» قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقاً مجزوماً به من قول البراء أيضاً.

(٤) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٢٢٦)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٠).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩).

(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٢٩).

(٧) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٣٢).

(٨) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٢).

(٩) انظر المصدرين السابقين.

تمييزٌ ﴿جَنِيًّا﴾: صفته. ٢٦ ـ ﴿فكُلِي﴾ من الرُّطب، ﴿واشرَبِي﴾ من السريّ، ﴿وقَرِّي عَينًا﴾ بالولد: تمييزٌ مُحوّل من الفاعل، أي: لِتقرَّ عينُك به أي: تسكنْ، فلا تطمحْ إلى غيره. ﴿فإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة ـ ﴿ترَيِنَّ﴾، حُذفت منه لامُ الفعل وعينُه وأُلقيتْ حركتها على الراء وكُسرتْ ياء الضمير لِالتقاء الساكنين، ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فيسألْكِ عن ولدِكِ، ﴿فقُولِي: إِنِّي نَذَرتُ لِلرَّحمنِ صَومًا﴾ أي: إمساكًا عن الكلام في شأنه وغيره مع الأناسيّ، بدليل: ﴿فلَن أُكَلِّمَ اليَومَ إنسِيًّا﴾ أي: بعد ذلك.

قولُه: (تَمْيِيزٌ) أو مفعُولٌ به على حسَبِ القِراءةِ.

قولُه: (مِن الرُّطَبِ) الَّذي هو طُعْمةٌ للنُّفَساءِ[١].

قولُه: (بالوَلَدِ) أو: طِيبي نفساً وارفُضِي عنكِ ما أحزَنَكِ.

قولُه: (لامُ الفِعْلِ) أي: بالجَزمِ.

قولُه: (وَعَيْنُهُ) للتَّخفيفِ.

قولُه: (وأُلقِيَتْ) بعدَما أُلقِيَتْ[٢]، والواوُ للجَمعِ.

قولُه: (السَّاكنَينِ) الياءِ والنُّونِ الأولى.

قولُه: (أي: إِمْسَاكاً) يعني: صمتاً، وقُرِئَ به[٣]، فالصَّومُ بمعناهُ اللُّغويِّ، أو: صِياماً، وكانوا لا يتكلَّمونَ في صيامِهِم[٤].

قولُه: (مَعَ الأَنَاسِيِّ) وإنَّما أكلِّمُ الملائكَةَ وأناجي ربِّي.

قولُه: (أي: بَعْدَ ذلِكَ) أي: بعدَ أن أخبرتُكُم بنَذْري.

---

(١) روى أبو نعيم في «الطب النبوي» (٤٥٧) عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الرطب فإنه لو علم الله خيراً منه لأطعمه مريم...» الحديث.

قال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ١٤٣): إسناده على شرط مسلم.

(٢) «ألقيت» الأولى بمعنى: نقلت، والثانية بمعنى: حذفت؛ أي: نقلت حركتها إلى ما قبلها بعدما حذفت.

(٣) أي: (نذرت للرحمن صوماً وصمتاً) ونسبت لأبي بن كعب وابن عامر وابن الزبير وأنس بن مالك. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٠٠).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٨٣) عن الضحاك قال في قوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام، إلا مِن ذكر الله.

٢٧ ـ ﴿فأَتَتْ بِهِ قَومَها تَحمِلُهُ﴾: حالٌ، فرأوه. ﴿قالُوا: يا مَريَمُ، لَقَد جِئتِ شَيئًا فَرِيًّا﴾: عظيمًا، حيثُ أتيتِ بولد من غير أب. ٢٨ ـ ﴿يا أُختَ هارُونَ﴾ ـ هو رجل صالح ـ أي: يا شَبيهتَه في العِفَّة، ﴿ما كانَ أبوكِ امرَأَ سَوءٍ﴾ أي: زانيًا، ﴿وما كانَت أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: زانية. فمِن أين لكِ هذا الولدُ؟ ٢٩ ـ ﴿فأشارَتْ﴾ لهم ﴿إلَيهِ﴾: أن كلّموه. ﴿قالُوا: كَيفَ نُكَلِّمُ مَن كانَ﴾ أي: وُجد ﴿في المَهدِ صَبِيًّا﴾؟

٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿قالَ: إنِّي عَبدُ اللهِ، آتانِيَ الكِتابَ﴾ أي: الإنجيلَ، ﴿وجَعَلَنِي نَبِيًّا، وجَعَلَنِي مُبارَكًا أينَما كُنتُ﴾ أي: نفّاعًا للناس ـ إخبارٌ بما كُتب له ـ ﴿وأوصانِي بِالصَّلاةِ والزَّكاةِ﴾: أمرني بهما ﴿ما دُمتُ حَيًّا، وبَرًّا بِوالِدَتِي﴾: منصوبٌ بـ «جعلني» مُقدّرًا، ﴿ولَم يَجعَلْنِي جَبّارًا﴾: مُتعاظمًا ﴿شَقِيًّا﴾: عاصيًا لربّه، ....

قالَ تعالى: (﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾) أي: معَ ولَدِها.

قولُه: (حَالٌ) أي: حامِلةً إيَّاهُ.

قولُه: (عَظِيماً) أي: بديعاً مُنكَراً.

قولُه: (صَالِحٌ) شبَّهُوها به تهكُّماً، أو لِمَا رَأَوا قبلُ من صلاحِهَا، أو طالح شَتمُوها به، أو يعنونَ: هارونَ النَّبيَّ، وكانت مِن أعقابِ مَن كانَ معهُ في طبقَةِ الأُخُوَّةِ.

وقيل: كانت مِن نسلِهِ، وكانَ بينهما ألفُ سَنةٍ.

قولُه: (زَانِيَةٌ) تنبيهٌ على أنَّ الفَواحِشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ، وإشارَةٌ إلى أنَّ الولدَ سِرُّ أبوَيهِ.

قولُه: (أي: وُجِدَ) يعني: ﴿كَانَ﴾ تامَّةٌ، فـ﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ من المستكِنِّ.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، والظَّرفُ صِلةُ ﴿مَنْ﴾ و﴿صَبِيًّا﴾ على حالِه.

قولُه: (إِخْبَارٌ) يعني: التَّعبيرُ بلفظِ الماضِي في ﴿آتَانِيَ﴾ و﴿جَعَلَنِي﴾ باعتِبارِ ما سبقَ في قضائِهِ، أو بجعلِ المحقَّقِ وقوعُهُ كالواقعِ، وقيل: أكملَ اللهُ عقلَهُ واستنبأَهُ طِفلاً.

قولُه: (أَمَرَنِي) أي: بالصَّلاةِ وزكاةِ المالِ إن ملكتُه، أو تَطهيرِ النَّفسِ عن[1] الرَّذائلِ، قالَ ابنُ عطاءٍ: أمرَني بمواصلتِهِ وطهارَةِ السِّرِّ عمَّا دونَه[2].

قولُه: (مُقَدَّراً) الظَّاهرُ أنَّه عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾.

قولُه: (مُتَعَاظِماً) متكبِّراً.

---

(١) في (ص): «من».

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (١/ ٤٢٦).

٣٣ ـ ﴿والسَّلامُ﴾ من الله ﴿عَلَيَّ يومَ وُلِدتُ، ويَومَ أَمُوتُ، ويَومَ أُبعَثُ حَيًّا﴾. يقال فيه ما تقدّم في السيّد يحيى.

٣٤ ـ قال تعالى: ﴿ذلِكَ عِيسَى بنُ مَريَمَ، قَولُ الحَقِّ﴾ ـ بالرفع: خبرُ مبتدأ مُقدّر أي: قولُ ابنِ مريم، وبالنصب بتقدير: قلتُ ـ والمعنى: القولَ ـ الحقّ ﴿الَّذي فِيهِ يَمتَرُونَ﴾ من المِرية، أي: يشكّون. وهم النصارى، قالوا: إنّ عيسى ابنُ الله. كذبوا. ٣٥ ـ ﴿ما كانَ للهِ أن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ. سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن ذلك! ﴿إذا قَضَى أمرًا﴾ أي: أراد أن يُحدثه ﴿فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ﴾، بالرفع بتقدير: هو، وبالنصب بتقدير: أنْ. ومن ذلك خلقُ عيسى من غير أب.

٣٦ ـ ﴿وأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكُم، فاعبُدُوهُ﴾ ـ بفتح «أنّ» بتقدير: اذكرْ، وبكسرها بتقدير: قلْ، بدليل «ما قُلتُ لَهُم إلاّ ما أمَرتَنِي بِهِ أنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُم» ـ ﴿هذا﴾ المذكور ﴿صِراطٌ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٌ﴾: مُؤدٍّ إلى الجنّة.

قولُه: (فِيْهِ مَا تَقَدَّمَ) والأظهرُ أنَّ التَّعريفَ للجنسِ، والتَّعريض باللَّعنِ على أعدائِهِ، فإنَّه لمَّا جعلَ جنسَ السَّلامِ على نفسِهِ عرَّضَ بأنَّ ضدَّه عليهم، كقولِهِ تعالَى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧]، فإنَّه يعرِّضُ بأنَّ العَذابَ على من كذَّبَ وتولَّى.

قولُه تعالَى: (﴿ذَلِكَ﴾) أي: الَّذي تقدَّمَ نعتُهُ هو عيسى ابنُ مريمَ، لا ما يصِفُه النَّصارى واليهودُ.

قولُه: (وبالنَّصْبِ) شاميٌّ وعاصمٌ[1] على أنَّه مصدَرٌ مؤكِّدٌ.

قولُه: (القَولَ الحَقَّ) أي: من بابِ إضافَةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ.

قولُه: (يَشُكُّونَ) في أمرِهِ، أو يتنازَعونَ، فقالت اليهودُ: ساحِرٌ، وقالت النَّصارى: ابنُ اللهِ.

قولُه: (كَذَبُوا) أي: النَّصارَى.

قولُه: (عن ذَلِكَ) أي: عمَّا بهتوا.

قولُه: (وبِالنَّصْبِ) شاميٌّ[2]، على الجوابِ.

قولُه: (بِفَتْحِ ﴿أَنَّ﴾) الحِرْميَّانِ والبَصريُّ[3].

قولُه: (بِتَقْدِيرِ: اذكُرْ) أو اللَّامِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق: (ص: ٤١٠).

٣٧ ـ ﴿فاختَلَفَ الأحزابُ مِن بَينِهِم﴾ أي: النصارى في عيسى: أهو ابنُ الله، أو إلـٰـهٌ معه، أو ثالثُ ثلاثة؟ ﴿فوَيلٌ﴾: فشِدّةُ عذاب ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما ذُكر أو غيره ﴿مِن مَشهَدِ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ أي: حُضورِ يوم القيامة وأهواله. ٣٨ ـ ﴿أسمِعْ بِهِم! وأبصِرْ﴾ بهم! صِيغتا تعجّب بمعنى: ما أسمَعَهم! وما أبصَرَهم ﴿يَومَ يأْتُونَنا﴾ في الآخرة! ﴿لكِنِ الظّالِمُونَ﴾ ـ من إقامة الظاهر مَقام المُضمَر ـ ﴿اليَومَ﴾ أي: في الدنيا ﴿في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي: بيّنٍ، به صَمُّوا عن سماع الحقّ وعَمُوا عن إبصاره، أي: اعجَبْ منهم ـ يا مُخاطب ـ في سمعهم وإبصارهم في الآخرة بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا.

٣٩ ـ ﴿وأنذِرْهُم﴾: خوِّفْ ـ يا مُحمّد ـ كُفّارَ مكّة ﴿يَومَ الحَسْرةِ﴾ هو يوم القيامة، يتحسّر فيه المُسيء على ترك الإحسان في الدنيا، ....

قولُه: (أي: النَّصَارَى) أو: هم واليهودُ. أو فِرَقُ النَّصارى: نَسْطوريَّةٌ[١] قالُوا: إنَّه ابنُ اللهِ، ويعقُوبيَّةٌ[٢] قالُوا: هو اللهُ هبطَ إلى الأرضِ ثمَّ صعَدَ إلى السَّماءِ، وملكانيَّةٌ[٣] قالوا: هو عبدُ اللهِ ونبيُّهُ[٤].

قولُه: (أي: حُضُورِ) فالمشهَدُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الشُّهودِ؛ أي: الحضُورِ.

قولُه: (وأهوَالِهِ) أو: يومِ عظيمٍ هولُه وحسابُه وجزاؤُه.

قولُه: (مِن إقَامَةِ الظَّاهِرِ) ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾ للخَلقِ.

قولُه: (أي: اعجَبْ) قدَّرَه لإيضاحِ معنَى التَّعجُّبِ وليعطِفَ عليه قولَه: ﴿وَأَنْذِرْهُم﴾.

قولُه: (كُفَّارَ مكَّةَ) الظَّاهرُ الأعمُّ.

قولُه: (عَلَى تَركِ الإحسَانِ) وعلى إساءتِه، والمحسِنُ على قلَّةِ إحسانِه، وفي الحديثِ: «ليسَ يتحَسَّرُ أهلُ الجنَّةِ يومَ القِيامةِ إلَّا على ساعَةٍ مرَّت بهم ولم يَذْكُروا اللهَ فيها»[٥].

---

(١) وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٩).

(٢) وهم أصحاب يعقوب. انظر المصدر السابق: (٢/ ٣٠).

(٣) وهم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٤٨)، و«الملل والنحل» (٢/ ٢٧).

(٤) وروى أقوال الفرق: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٢٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٧٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٢٣٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أنه نسب القول الثالث للمسلمين.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٣) (١٨٢)، وابن السني في «عمل السوم والليلة» (ص: ٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٩) من حديث معاذ رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤): رواه الطبراني، ورجاله ثقات، وفي شيخ الطبراني: محمد بن إبراهيم الصوري خلاف.

﴿إذ قُضِيَ الأمرُ﴾ لهم فيه بالعذاب، ﴿وهُم﴾ في الدنيا ﴿في غَفْلَةٍ﴾ عنه، ﴿وهُم لا يُؤمِنُونَ﴾ به.
٤٠ ـ ﴿إنّا نحنُ﴾: تأكيدٌ ﴿نَرِثُ الأرضَ ومَن علَيها﴾ من العُقلاء وغيرهم بإهلاكهم، ﴿وإلَينا يُرجَعُونَ﴾ فيه للجزاء.

٤١ ـ ﴿واذكُرْ﴾ لهم ﴿في الكِتابِ إبراهِيمَ﴾ أي: خَبَره ـ ﴿إنَّهُ كانَ صِدِّيقًا﴾: مُبالِغًا في الصدق ﴿نَبِيًّا﴾ ـ ويبدل مِن «خبره»: ٤٢ ـ ﴿إذ قالَ لِأبِيهِ﴾ آزرَ: ﴿يا أبَتِ﴾ ـ التاء عوض عن ياء الإضافة، ولا يُجمع بينهما. وكان يعبد الأصنام ـ ﴿لِمَ تَعبُدُ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ، ولا يُغني عَنكَ﴾: لا يكفيك ﴿شَيئًا﴾ من نفع أو ضُرّ؟ ٤٣ ـ ﴿يا أبَتِ، إنِّي قَد جاءَني مِنَ العِلمِ ما لَم يأتِكَ. فاتَّبِعْني، أهدِكَ صِراطًا﴾: طريقًا ﴿سَوِيًّا﴾: مستقيمًا. ٤٤ ـ ﴿يا أبَتِ، لا تَعبُدِ الشَّيطانَ﴾ بطاعتك إيّاه في عبادة الأصنام. ﴿إنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلرَّحمنِ عَصِيًّا﴾: كثير العِصيان. ٤٥ ـ ﴿يا أبَتِ، إنِّي أخافُ أن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمنِ﴾، إن لم تتب، ﴿فتكُونَ لِلشَّيطانِ وَلِيًّا﴾: ناصرًا وقرينًا في النار.

٤٦ ـ ﴿قالَ: أراغِبٌ أنتَ عَن آلِهَتِي، يا إبراهِيمُ﴾ فتعيبَها؟.........

قولُه: (بالعَذَابِ) و﴿إذْ﴾ بدلٌ من الـ﴿يوم﴾، أو ظرفٌ لـ﴿الحسرة﴾.

قولُه: (تَأكِيدٌ) أو مبتَدأٌ.

قولُه: (وغَيرِهِم) ففيهِ تغليبٌ؛ أي: لا يَبقى لأحَدٍ غيرِنا عليها وعليهم مِلْكٌ ولا مُلْكٌ، أو: نتوفَّى الأرضَ ومَن عليها بالإفناءِ والإهلاكِ توفِّي الوارِثِ لإرثِهِ.

قولُه: (مِن «خَبَرِه») أو منهُ، وما بينَهُما اعتراضٌ، أو: معمُولٌ لـ(اذْكُرْ) مُقدَّراً.

قولُه: (ولا يُجمَعُ بَينَهُما) ولا يُقالُ: يا أبَتي، ويقالُ: يا أبَتَا، وقرأَ ابنُ عامرٍ: (يَا أَبَتَ) بفتحِ التَّاءِ[1]، وإنَّما يُذكَرُ للاستِعطافِ، ولذلك كُرِّرَ.

قولُه تعالَى: (﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾) فيَعرِفَ حالَكَ، ويسمَعَ ذكرَكَ، ويرَى خضوعَكَ، ومفعولُهُما منسيٌّ غيرُ مَنويٍّ، أو مُقدَّرٌ؛ أي: شيئاً.

قولُه: (كَثِيرَ العِصْيَانِ) والمطاوِعُ للعاصِي عاصٍ.

قولُه: (فِي النَّارِ) أو اللَّعنِ تَليهِ ويَليكَ.

قولُه: (فتَعِيبَها) بالنَّصبِ على جوابِ الاستفهامِ.

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٤).

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن التعرّض لها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحِجارة أو بالكلام القبيح. فاحذرني، ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾: دهرًا طويلاً. ٤٧ ـ ﴿قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ منّي، أي: لا أُصيبك بمكروه. ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ - إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، مِن: حَفِيَ، أي: بارًّا فيُجيب دُعائي. وقد وفى بوعده بقوله المذكور في الشعراء: «واغفِرْ لِأبِيَ». وهذا قبل أن يتبيّنَ له أنه عدوّ لله كما ذُكر في «براءة» ـ ٤٨ ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ، وَأَدْعُو﴾: أعبدُ ﴿رَبِّي. عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾: بعِبادته ﴿شَقِيًّا﴾ كما شقيتم بعِبادة الأصنام.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ بأن ذهب إلى الأرض المُقدّسة ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ ابنَينِ يأنسُ بهما ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُم﴾: للثلاثة ﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾ المالَ والولد، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: رفيعًا،.........................

قولُه: (عَنِ التَّعرُّضِ) بمقالِكَ فيها، أو: عن الرَّغبةِ عنها.

قولُه: (فَاحذَرْنِي) أي: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عَطفٌ على ما دلَّ عليهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾.

قولُه: (دَهْراً) أي: زماناً، من الملاوَةِ ـ مثلَّثةُ الميمِ ـ بمعنى: الحينِ[1]، ظرفٌ.

قولُه: (لا أُصِيبُكَ بِمَكرُوهٍ) ولا أقولُ لك بعدُ ما يؤذِيكَ، وهو سلامُ توديعٍ ومتارَكةٍ، ومقابَلةٍ للسَّيئةِ بالحسَنةِ.

قولُه: (دُعَائِي) فلعلَّهُ يوفِّقُك للتَّوبةِ والإيمانِ، فإنَّ حقيقةَ الاستغفارِ للكافرينَ: استدعاءُ التَّوفيقِ لِمَا يوجِبُ مغفرتَهُ.

قولُه تعَالى: (﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾) بالمهاجَرةِ بديني.

قولُه: (كَمَا شَقِيْتُم) وفي تصديرِ الكلامِ بـ﴿عسى﴾ للتَّواضُعِ والتَّنبيهِ على أنَّ الإجابةَ والإثابةَ غيرُ واجبٍ، وأنَّ مِلاكَ الأمرِ خاتمتُهُ، وهو غيبٌ.

قولُه: (ابنَيْنِ) بدلَ مَن فارقَهُم من الكفَرةِ، قيل: إنَّه لمَّا قصدَ الشَّامَ أتى أوَّلاً حرَّانَ، وتزوَّجَ بسارةَ، وولدَت له إسحاقَ، ووُلِدَ منه يعقوبُ، ولعلَّ تخصيصَهُما بالذِّكرِ لأنَّهما شجَرةُ الأنبياءِ، أو لأنَّه أرادَ أن يذكُرَ إسماعيلَ مُنفرداً لفضلِهِ بكونِه جدَّ نبيِّنا عليهم السَّلامُ.

قولُه: (مِنهُما) أو منهُم، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

قولُه: (المَالَ والوَلَدَ) والنُّبوَّةَ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢٩١).

هو الثناء الحسن في جميع أهل الأديان.

٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ مُوسَى. إنَّهُ كانَ مُخلِصًا﴾ ـ بكسر اللام وفتحها من: أخلص في عبادته، وأخلصَه اللهُ من الدنَس ـ ﴿وكانَ رَسُولاً نَبِيًّا، ونادَيناهُ﴾ بقول: «يا مُوسَى إنِّي أنا اللهُ»، ﴿مِن جانِبِ الطُّورِ﴾ اسمُ جبلٍ ﴿الأيمَنِ﴾ أي: الذي يلي يمين مُوسَى حين أقبل من مَدْيَنَ، ﴿وقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾: مناجِيًا بأن أسمعه الله ـ تعالى ـ كلامه، ٥٣ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ مِن رَحْمتِنا﴾: نعمتِنا ﴿أخاهُ هارُونَ﴾: بدلٌ أو عطفُ بيان، ﴿نَبِيًّا﴾: حال. هي المقصودة بالهِبة إجابةً لسُؤاله أن يُرسِل أخاه معه. وكان أسنَّ منه.

قولُه: (وهُوَ) أي: اللِّسانُ الصِّدقُ. قالَ ابنُ عطاءٍ: ألسنةُ الصِّدقِ هي المعبِّرةُ عن الحقِّ والصَّوابِ، المذكِّرةُ لنَعمائهِ على الدَّوامِ[١].

قولُه: (وفَتْحِهَا) الكوفيُّ[٢].

قولُه: (مَنْ أَخْلَصَ) لفٌّ ونشرٌ.

قولُه: (فِي عِبَادَتِهِ) من الشِّركِ والرِّياءِ، أو: أسلمَ وجهَه للهِ وأخلَصَ نفسَه عمَّا سواهُ.

قولُه: (مِنَ الدَّنَسِ) وغيرِه.

قولُه: (يَمِينَ مُوسَى) أو: جانبِه الميمُون، من اليُمنِ، بأن يُمثَّلَ له الكلامُ من تلك الجهَةِ.

قولُه: (أَقْبَلَ) يريدُ مِصرَ.

قولُه: (مُنَاجِياً) أو: ناجياً من الأعداءِ، أو: مُناجياً مع ربِّ السَّماءِ، فهو حالٌ من المفعولِ. وقيل: حالٌ من الفاعلِ. والتَّقريبُ قربُ تشريفٍ ومكانَةٍ؛ لعدمِ إمكانِ المكانِ.

قولُه: (نِعْمَتِنَا) أي: إنعامِنا، و﴿مِنْ﴾ تعليليَّةٌ أو تبعيضيَّةٌ.

قولُه: (بَدَلٌ) و(﴿أَخَاهُ﴾) مفعولٌ أو بدلٌ[٣]؛ أي: معاضدَةَ أخيهِ ومؤازرتَهُ إجابةً لدعوتِهِ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩].

---

(١) وانظر: «حقائق التفسير» (١/ ٤٢٨).

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٤).

(٣) أي: ﴿أخاه﴾ مفعول لـ(وهبنا) إن كانت ﴿مِن﴾ تعليلية، أو بدلُ بعضٍ من كلٍّ، أو كلٍّ من كلٍّ، أو اشتمال، وهذا إذا كانت تبعيضية بمعنى: بعض، وهي مفعول (وهبنا) ولا يخفى ما فيه؛ لأن كون (مِن) اسماً لكونها بمعنى (بعض) خلاف الظاهر، وإبدال الاسم من الحرف لا نظير له، ولذا قال في «البحر»: الظاهر أن ﴿أخاه﴾ مفعول (وهبنا) ولا يرادف (مِن) بعضاً حتى يُبدل منها. انظر: «حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي» (٦/ ١٦٤).

٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ إسماعِيلَ. إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ﴾: لم يَعِد شيئًا إلاّ وفى به، وانتظر مَن وعده ثلاثة أيام أو حولاً حتّى رجَع إليه في مكانه، ﴿وكانَ رَسُولاً﴾ إلى جُرهُمَ ﴿نَبِيًّا، وكانَ يأمُرُ أهلَهُ﴾ أي: قومه ﴿بِالصَّلاةِ والزَّكاةِ، وكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾. أصله «مَرْضُوْوٌ»، قُلبَتِ الواوان ياءين والضمّةُ كسرة.

٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ إدرِيسَ﴾ هو جدُّ أبي نُوحٍ. ﴿إنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، ورَفَعْناهُ مَكانًا عَلِيًّا﴾، هو حيّ في السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة أو في الجنّة، أُدخلَها بعد أن أُذيق الموتَ وأُحيِيَ، ولم يخرج منها.

٥٨ ـ ﴿أُولئِكَ﴾: مبتدأٌ ﴿الَّذِينَ أنعَمَ اللهُ علَيهِم﴾: صِفةٌ له ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾: بيانٌ لهم ـ وهو في معنى الصفة، وما بعده إلى جملة الشرط صفة لـ «النبيّين» ـ فقوله ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أي: إدريسُ،..........

قولُه: (لم يَعِدْ شَيئاً) ذكرَهُ بذلك؛ لأنَّه المشهورُ بهِ، والموصوفُ بأشياء في هذا البابِ لم تُعهَد من غيرِهِ.

قولُه: (جُرهُمَ) قبيلَةٌ من اليَمنِ، وهم أصهارُ إسماعيلَ.

قولُه: (قَومَهُ) أي: عشيرتَهُ، وقيل: أهلَ ملَّتِهِ.

قولُه: (يَاءَينِ) الأُولَى بعد الثَّانيةِ.

قولُه: (كَسْرَةً) محافظَةً للياءِ.

قولُه: (هُو جَدٌّ) وسِبطُ شيثَ، وهو أوَّلُ من خطَّ بالقَلمِ[1].

قولُه: (الرَّابعَةِ) كما في «الصَّحيحِ»[2]، كذا في «المُبهاتِ»[3]، أو المرادُ: شرَفُ النُّبوَّةِ والزُّلفى عندَ اللهِ.

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) إشارَةٌ إلى ما ذُكِرَ من زكريَّا إلى إدريسَ.

قولُه: (صِفَةٌ لَهُ) أي: للمبتَدأِ، وقيلَ: خبرٌ و﴿إِذَا تُتْلَى﴾ استئنافٌ؛ يعني: بأنواعِ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

قولُه: (لَهُ) أي: للمَوصولِ.

قولُه: (صِفَةٌ) يعني: مَعنًى.

قولُه: (أَي: إِدْرِيسُ) بدلٌ ممَّا قبلَهُ بإعادَةِ الجارِّ[4].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) جاء ذلك في حديث الإسراء والمعراج الذي رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٧١).

(٤) أي: ﴿من ذرية آدم﴾ بدلٌ مِن ﴿من النبيين﴾ بإعادةِ الجارِّ الذي هو ﴿مِن﴾.

﴿وممَّن حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة أي: إبراهيمُ ابنُ ابنِه سام، ﴿ومِن ذُرِّيَةِ إبراهِيمَ﴾ أي: إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ، ﴿و﴾ مِن ذُرِّيَة ﴿إسرائيلَ﴾ ـ وهو يعقوب ـ أي: موسى وهارونُ وزكرياءُ ويحيى وعيسى، ﴿وممَّن هَدَينا واجتَبَينا﴾ أي: من جُملتهم، وخبر «أولئك»: ﴿إذا تُتلَى علَيهِم آياتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا﴾: جمع ساجدٍ وباكٍ. أي: فكونوا مِثلهم. وأصل بُكِيّ «بُكُوْيٌ» قُلبت الواو ياء والضمة كسرة.

٥٩ ـ ﴿فخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلْفٌ، أضاعُوا الصَّلاةَ﴾ بتركها كاليهود والنصارى، ﴿واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ من المعاصي، ﴿فسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا﴾ ـ هو وادٍ في جهنّم ـ ....

قولُه: (فِي السَّفِينَةِ) أي: من ذرِّيةِ من حَملنا خُصوصاً، وهم مَن عدا إدريسَ.

قولُه: (ابنُ ابنِهِ) بوسائطَ.

قولُه: (أي: إسمَاعِيلُ) يعني: الباقِينَ مِن الأنبياءِ بوَسطٍ أو غيرِهِ.

قولُه: (مِن ذُرِّيَّةِ) يعني: ﴿إِسْرَائِيْلَ﴾ عطفٌ على: ﴿إِبْرَاهِيْمَ﴾.

قولُه: (وبَاكٍ) كرُكَّعٍ وقُعودٍ، جمعُ: راكعٍ وقاعِدٍ.

قولُه تعَالى: (﴿فَخَلَفَ﴾) أي: فعَقَبَهُم وجاءَ بعدَهُم عَقِبُ سوءٍ، يقالُ: «خلَفُ صدقٍ» بالفتحِ، و«خَلْفُ سُوءٍ» بالسُّكونِ[١]، وهو جمعُ خالفٍ، كصَحْبٍ جمعُ صاحِبٍ.

قولُه: (مِن المَعَاصِي) وعن عليٍّ: ﴿اتَّبَعُوا الشَّهواتِ﴾ من بَنى الشَّديدَ، ورَكِبَ المنظورَ، ولبسَ المشهورَ[٢].

قولُه: (هُو وَادٍ) هو المشهورُ عن السَّلفِ[٣]، وإن ذكرَهُ القاضي بـ«قيلَ»[٤].

قولُه: (فِي جَهنَّمَ) تستعيذُ منه أوديَتُها[٥].

---

(١) منهم من قال: بأنه بالتحريك والتسكين سواء، ومنهم من قال: بأنه بالسكون للأشرار خاصة وبالتحريك ضده. انظر: «تاج العروس» (٢٣/ ٢٤٥).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «السنن» (١٣٩٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٠٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه لبيهقي في «البعث والنشور» (٤٦٩) عن البراء رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢١٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٤٠٩).

أي: يقعون فيه، ٦٠ ـ ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَن تابَ وآمَنَ، وعَمِلَ صالِحًا. فأُولئِكَ يُدخَلُونَ الجَنَّةَ، ولا يُظلَمُونَ﴾: يُنقصون ﴿شَيئًا﴾ من ثوابهم، ٦١ ـ ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾: إقامةٍ، بدلٌ من «الجنّةَ» ﴿الَّتي وَعَدَ الرَّحمنُ عِبادَهُ بِالغَيبِ﴾: حالٌ، أي: غائبين عنها ـ ﴿إنَّهُ كانَ وَعدُهُ﴾ أي: موعوده، ﴿مَأتِيًّا﴾ بمعنى: آتيًا، وأصله «مَأتُوِي»، أو موعودُه هنا الجنّةُ يأتيه أهله ـ ٦٢ ـ ﴿لا يَسمَعُونَ فِيها لَغوًا﴾ من الكلام، ﴿إلاّ﴾ لكن يسمعون ﴿سَلامًا﴾ من الملائكة عليهم أو من بعضهم على بعض، ﴿ولَهُم رِزقُهُم فِيها بُكرَةً وعَشِيًّا﴾ أي: على قدرهما في الدنيا. وليس في الجنّة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبدًا..........

قولُه: (لكِن) قالَ الزَّجّاجُ: مُنقطِعٌ، وظاهرُه الاتِّصالُ، كذا في «الإعرَابِ»[1].

قولُه: (﴿يَدْخُلُونَ﴾) ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وشعبةُ على بناءِ المفعولِ[2].

قولُه: (مِن ثَوَابِهم) أي: جَزاءِ أعمالِهِم.

قولُه: (بَدَلٌ) بدلُ البَعضِ لاشتِمالِها عليها، كذا قالَ القاضِي[3]، وقالَ الفاضِلُ: لأنَّ اسمَ الجِنسِ في حُكمِ الجَمعِ، وقيل: منصوبٌ بتقديرِ: أعني.

قولُه: (أي: غَائبِينَ) أو: غائبَةً عنهُم.

قولُه تعالى: (﴿إنَّهُ﴾) أي: الرَّحمنَ، أو الشَّأنَ.

قولُه: (بِمَعنَى: آتِياً) يعني: على خلافِ القياسِ، وقالَ الرَّضيُّ: الأولَى أنَّه بمَعنى المفعولِ، من أَتَيتُ الأمرَ: فعلتُه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨][4].

قولُه: (أَهْلُهُ) أي: أهلُها الموعودُ لهم لا محالَةَ.

قولُه: (مِنَ الكَلامِ) وهو الفضُولُ[5].

قولُه: (مِنَ المَلائِكَةِ) أو قولاً يسلمونَ فيه من العَيبِ، أو الاستِثناءُ متَّصلٌ على معنى: أنَّ التَّسليمَ إن كانَ لغواً فلا يسمَعونَ لغواً سِواهُ، فيكونُ من بابِ تأكيدِ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ مُبالغةً.

قولُه: (عَلَى قَدْرِهِمَا) على عادَةِ المتنعِّمينَ والمتوسِّطينَ بينَ الزَّهادَةِ والرَّغابَةِ، أو: نوعٌ من الطَّعامِ يؤكَلُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٣٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٧/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص. ٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤).

(٤) انظر: «شرح الرضي على الكافية» (٣/ ٤١٥).

(٥) في (ص): «المفضول».

٦٣ ـ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾: نُعطِي ونُنزِل ﴿مِن عِبادِنا مَن كانَ تَقِيًّا﴾ بطاعته.

ونزل لمّا تأخّر الوحي أيامًا، وقال النبيّ لجبريل: «ما يَمنَعُكَ أن تَزُورَنا أكثَرَ مِمّا تَزُورُنا»؟: ٦٤ ـ ﴿وما نَتَنَزَّلُ إلاّ بِأمرِ رَبِّكَ، لَهُ ما بَينَ أيدِينا﴾ أي: أمامَنا من أُمور الآخرة ﴿وما خَلفَنا﴾ من أُمور الدنيا، ﴿وما بَينَ ذلِكَ﴾ أي: ما يكون في هذا الوقت إلى قيام الساعة، أي: له علم ذلك جميعِه، ﴿وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ بمعنى: ناسيًا، أي: تاركًا لك بتأخير الوحي عنك. ٦٥ ـ هو ﴿رَبُّ﴾: مالكُ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، وما بَينَهُما. فاعبُدْهُ واصطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ أي: اصبر عليها. ﴿هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: مُسمًّى بذلك؟ لا.

٦٦ ـ ﴿ويَقُولُ الإنسانُ﴾ المُنكِر للبعث، هو أُبيُّ بن خلف.......................

فيهما، أو المرادُ: دوامُ الرِّزقِ[1].

قولُه: (نُعْطِي) عطاءً لا يُعقَبُ بنَسخٍ ولا استِرجاعٍ، ولا يبطُلُ بردٍّ وإسقاطٍ، أو نجعَلُها ميراثَ أعمالِهِم؛ يعني: ثمرَتَها وعاقِبتَها.

قولُه: (أيَّاماً) قيل: خمسةَ عشَرَ يوماً، وقيل: أربعينَ، حتَّى قالَ المشركونَ: ودَّعَه ربُّه وقَلاهُ[2].

قولُه تعالى: (﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾) حكايَةُ قولِ جبريلَ، وقيل: بتقديرِ: قُل يا جبريلُ[3].

قولُه: (أي: مَا يَكُونُ... إلخ)، أو: ما نحنُ فيه من الأماكِنِ أو الأحايينِ؛ لا ننتَقِلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، ولا نَنزِلُ في زمانٍ دونَ زمانٍ، إلَّا بأمرِهِ ومشيئَتِهِ.

قولُه: (تَارِكاً لَكَ) أي: ما كانَ عَدمُ نزولِ الوَحيِ إلَّا لحكمَةٍ رآها فيه.

قولُه: (هُوَ) يعني: ﴿رَبُّ﴾ خبرُ محذوفٍ، وقيل: بدلٌ من ﴿رَبُّكَ﴾.

قولُه: (أي: اصْبِرْ) أي: بالِغْ في الصَّبرِ.

قولُه: (مُسَمًّى) أحداً يُسمِّي: «الله»، فإنَّ المشركينَ وإن سمَّوا الصَّنمَ إلهاً لم يُسمُّوهُ اللهَ قطُّ. أو: شبيهاً ومثلاً.

---

(١) روى أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٢١) عن قتادة في قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال: لهم رزقهم فيها كل ساعة.

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٦).

(٣) روى البخاري (٣٢١٨)، والترمذي (٣١٥٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟»، قال: فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ [مريم: ٦٤] الآية.

أو الوليدُ بن المُغيرة النازلُ فيه الآيةُ: ﴿أإذا﴾ ـ بتحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها، وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأُخرى ـ ﴿ما مُتُّ لَسَوفَ أُخرَجُ حَيًّا﴾ من القبر كما يقول محمد؟ فالاستفهام بمعنى النفي أي: لا أحيا بعد الموت. وما: زائدة للتأكيد، وكذا اللام. ورُدّ عليه بقوله تعالى: ٦٧ ـ ﴿أوَلا يَذَّكَّرُ الإنسانُ﴾ ـ أصله «يَتَذَكَّرُ» أُبدلت التاء ذالاً وأُدغمت في الذال. وفي قراءةٍ تركُها وسكونُ الذال وضمُّ الكاف ـ ﴿أنّا خَلَقْناهُ مِن قَبلُ، ولَم يَكُ شَيئًا﴾، فيستدلَّ بالابتداء على الإعادة؟

٦٨ ـ ﴿فوَرَبِّكَ لَنَحشُرَنَّهُم﴾ أي: المُنكرينَ للبعث ﴿والشَّياطِينَ﴾ أي: نجمعُ كُلًّا منهم وشيطانَه في سِلسلة، ﴿ثُمَّ لَنُحضِرَنَّهُم حَولَ جَهَنَّمَ﴾..........

قولُه: (أَو الوَلِيدُ) وقيلَ: أميَّةُ بنُ خلَفٍ[1].

قولُه: (النَّازِلُ فِيهِ الآيَةُ) لكنَّ العبرَةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، فالمرادُ به الجِنسُ بأسرِهِ، فإنَّ القولَ مَقولٌ فيما بينَهم وإن لم يقُلْ كلُّهُم، كقولِكَ: بنو فلانٍ قتَلوا فلاناً، والقاتلُ واحدٌ منهم. أو: بعضُهم المعهودُ؛ وهم الكفرَةُ، أو: أُبيُّ بنُ خلَفٍ ونحوُه ممَّن أنكرَ البعثَ وتفوَّهَ بمثلِ هذه المقالةِ.

قولُه: (بتَحقِيقِ... إلخ)، تقدَّمَ التَّحقيقُ في روايةٍ لابنِ ذكوانَ بالإخبارِ[2].

قولُه: (مِنَ القَبرِ) أو من حالِ الموتِ.

قولُه: (والاستِفهَامُ) أي: المذكورُ، أو المقدَّرُ.

قولُه: (وَكَذَا اللَّامُ) لأنَّ لامَ الابتِداءِ الدَّاخلةَ على المضارعِ تُعطي معنَى الحالِ، نحو: ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ [يوسف: ١٣] وتؤكِّدُ مضمونَ الجملةِ، فلمَّا جامعَتْ حرفَ الاستقبالِ خلُصَت للتَّوكيدِ واضمحَلَّ معنى الحالِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وعاصِمٍ[3].

قولُه: (بتَرْكِهَا)؛ أي: التَّاءِ، من الذِّكرِ الَّذي يُرادُ به التَّفكُّر.

قولُه: (أَي: المُنكِرِينَ) ﴿والشَّياطينَ﴾ عطفٌ أو مفعولٌ معه، وهذا وإن كانَ مخصُوصاً بمُنكِري البَعثِ ساغَ نِسبتُه إلى الجنسِ بأسرِهِ، فإنَّهم إذا حُشِروا وفيهِمُ الكفرَةُ مقرُونينَ بالشَّياطينِ فقد حُشِروا جميعاً معهم.

---

(١) ذكر الثلاثة السيوطي في «الإتقان» (٤/ ١٠٣). وانظر: «زاد المسير» (٣/ ١٤١).

(٢) أي: ﴿إذا ما مت﴾ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩)، وانظر ما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إئذا كنا....﴾ [الرعد: ٥].

انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٤٢١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢).

من خارجها ﴿جِثِيًّا﴾ على الرُّكَب جمعُ جاثٍ ـ وأصله «جُثُوٌّ» أو «جُثُويٌ»، من: جَثا يَجثُو ويَجثِي، لغتانِ ـ ٦٩ ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: فِرقةٍ منهم ﴿أَيُّهُم أَشَدُّ عَلَى الرَّحمنِ عُتِيًّا﴾: جراءةً، ـ ٧٠ ـ ﴿ثُمَّ لَنَحنُ أَعلَمُ بِالَّذِينَ هُم أَولَى بِهَا﴾: أحقُّ بجهنَّم، الأشدِّ وغيرِه منهم، ﴿صِلِيًّا﴾: دخولاً واحتراقًا، فنبدأ بهم ـ وأصله «صُلُوْيٌ» من: صَلي، بكسر اللام وفتحها ـ ٧١ ـ ﴿وَإِن﴾ أي: ما ﴿مِنكُم﴾ أحدٌ ﴿إِلاَّ وارِدُها﴾ أي: داخلُ جهنَّمَ ـ..........

قولُه: (مِن خَارِجِهَا) ليرى السُّعداءُ ما نجَّاهُم اللهُ منه فيَزدادوا غِبطةً وسُروراً، وينالَ الأشقِياءُ ما ادَّخَروا لمعادِهِم عُدَّةً ويزدادوا غَيظاً من رجُوعِ السُّعداءِ عنهُم إلى دارِ الثَّوابِ وشماتتِهِم عليهِم.

قولُه: (عَلَى الرُّكَبِ) وهو حالٌ؛ أي: باركينَ لما يدهَمُهم من هَولِ المطلَعِ.

قولُه: (فِرقَةٍ) شاعَتْ وتبعَتْ دُنيا.

قولُه: (جَرَاءَةً) أي: مَن كانَ أعتى وأعصَى منهم، فنطرَحُهم فيها، وفي ذِكرِ الأشدِّ تنبيهٌ على أنَّه تعالى يعفو كثيراً من أهلِ العِصيانِ، ولو خُصَّ ذلك بالكفَرةِ فالمرادُ: أنَّه يُميِّزُ طوائفَهُم أعتاهُم فأعتاهُم، يطرحُهُم في النَّارِ على التَّرتيبِ.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيٌّ على الضمِّ عندَ سيبَويه، منصوبُ المحلِّ بـ﴿نَنْزِعَنَّ﴾ ولذلك قُرئ منصوباً[1].

قولُه: (أَحَدٌ) التِفاتٌ إلى الإنسانِ، ويؤيِّده أنَّه قُرئَ: (وَإِنْ مِنْهُم)[2].

وقيل: من الكفَّارِ.

قولُه: (أي: دَاخِلُ) وهو قولُ عليٍّ[3] وابن عبَّاسٍ[4]، وعليهِ جمهورُ أهلِ السُّنَّةِ، كذا في «المدارك»[5] و«المعالمِ»[6]؛ أي: واصِلُها، أو: حاضرٌ دونَها، يمرُّ بها المؤمنونَ وهي خامِدةٌ وتنهارُ بغيرِهِم، أو: مارٌّ عليها؛ أي: على جِسْرِها.

وقيل: من ورودِها الحُمَّى في الدُّنيا للمُؤمنِ، وفي الحديثِ: «مَنْ صبرَ على حرِّ مكَّةَ ساعةً تباعَدَ من نارِ جهنَّمَ مائتَي سَنةٍ»[7].

---

(١) أي: (أيَّهم) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٨) ونسبت لمعاذ بن مسلم، وطلحة بن مصرف.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٩) ونسبت لابن عباس وعكرمة.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٠).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٤٧).

(٦) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٤٣).

(٧) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٥٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ودون قوله: «مائتي سنة».

﴿كانَ علَى رَبِّكَ حَتمًا مَقضِيًّا﴾: حتَمَه وقضَى به لا يتركه ـ ٧٢ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾، مُشدّدًا ومُخفّفًا، ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّرك والكُفر منها، ﴿ونَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالشِّرك والكُفر ﴿فِيها جُثِيًّا﴾ على الرُّكَب.

٧٣ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم﴾ أي: المؤمنين والكافرين ﴿آياتُنا﴾ من القُرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ حالٌ ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: أيُّ الفَرِيقَينِ﴾ ....

قولُه: (وقَضَى بِهِ) على نفسِهِ، بأن وعَدَ به وعداً لا يمكِنُ خُلفُه، وقيل: أقسَمَ عليه، وقيل: القسَمُ فيه مضمَرٌ؛ أي: واللهِ ما منكُم، ويؤيِّدُه ما في حديثِ: «لا يدخُلُ النَّارَ إلَّا تحِلَّةَ القسَمِ»(١).

قولُه: (ومُخَفَّفاً) كِسائيٌّ(٢).

قولُه: (عَلَى الرُّكَبِ) كما كانوا، وهو دليلٌ على أنَّ المرادَ بالوُرودِ الجُثُوُّ حَوالَيها، كذا قالَهُ القاضي(٣)، وهو غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ المرادَ بتَركِ الظَّالمينَ هنا: في النَّارِ، لا في حَوالَيها، بل هو دليلٌ على أنَّ المرادَ بالوُرودِ الدُّخولُ، ولذا قالَ بعضُ الصَّحابةِ لآخَرَ: أيقنتَ بالورودِ؟ قالَ: نعم، فقالَ: أيقَنْتَ بالصَّدَرِ؟ قال: لا، قال: ففيمَ الضَّحكُ، وفيمَ التَّثاقلُ(٤)؟

قولُه: (واضِحَاتٍ) حالٌ مؤكِّدةٌ؛ إذ آياتُ اللهِ لا تكونُ إلَّا واضِحاتٍ؛ أي: واضِحاتِ الإعجازِ، أو مبيِّناتِ المعاني بنَفسِها، أو ببَيانِ الرَّسولِ، والمتشابِهُ يتبيَّنُ بالمحكَمِ.

قولُه تعالى: (﴿لِلَّذِيْنَ آمَنُوا﴾) أي: لأجلِهِم، أو معهُم.

= ورواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وآخره: «باعد الله جهنم منه سبعين خريفاً» وقال: هذا حديث باطل لا أصل له.

(١) رواه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢)، والترمذي (١٠٦٠)، والنسائي (١٨٧٥)، وابن ماجه (١٦٠٣)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٢٣٥) (٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٢١٠) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه عند أحمد: «من قدم ثلاثة من صلبه لم يدخل النار إلا تحلة القسم».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٠، ٢٣٣) عن عمرو، قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود: الدخول، وقال نافع: لا فقرأ ابن عباس: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أورود هو أم لا؟ وقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع.

وعن مجاهد، قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟.

نحن وأنتم ﴿خَيرٌ مَقامًا﴾: منزلاً ومسكنًا، بالفتح مِن: قامَ، وبالضم مِن: أقامَ، ﴿وأحسَنُ نَدِيًّا﴾ بمعنى النادي؟ وهو مُجتمع القوم يتحدّثون فيه. يعنون: نحن، فنكون خيرًا منكم. ٧٤ ـ قال تعالى: ﴿وكَم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلَكْنا قبلَهُم مِن قَرنٍ﴾ أي: أُمّة من الأُمم الماضية، ﴿هُم أحسَنُ أثاثًا﴾: مالاً ومتاعًا ﴿ورِئيًا﴾ مَنظرًا! من الرؤية. فكما أهلكناهم لكُفرهم نُهلِكُ هؤلاء.

٧٥ ـ ﴿قُلْ: مَن كانَ في الضَّلالةِ﴾: شرطٌ جوابه: ﴿فليَمدُدْ﴾ بمعنى الخبر، أي: يَمُدَّ ﴿لَهُ الرَّحمنُ مَدًّا﴾ في الدنيا يستدرجُه ـ ﴿حتَّى إذا رأَوا ما يُوعَدُونَ، إمّا العَذابَ﴾........................

قولُه: (وَأَنتُم) أو هُم.

قولُه: (مَنزِلاً) أي: مَكاناً، أو: مَوضِعَ قيامٍ.

قولُه: (وبالضَّمِّ) مكّيٌّ[1]؛ أي: مَوضِعَ الإقامَةِ.

قولُه: (بِمَعنَى النَّادِي) النَّدِيُّ: مَكانُ القومِ، ويُرادُ به القومُ أيضاً، وهو الظَّاهرُ في[2] الآيةِ، لمقابلتِهِ فيما يأتي ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥] ويمكِنُ تقديرُ: أهل.

قولُه: (مِنَ الرُّؤيَةِ) أي: فِعْلٌ منها بمعنى: مفعولٍ، وقولُ البَيضاويِّ: وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ـ أي: بروايةِ قالون وابنِ ذكوانَ[3] ـ على قلبِ الهمزةِ وإدغامِها[4]، وأمَّا قولُه: وأبو بكرٍ: (وريْئاً) على القلبِ[5]؛ فلعلَّه روايةٌ شاذَّةٌ.

قولُه: (أي: يمدُّ) أي: يمدُّهُ ويُمهِلُه بطولِ العمرِ والتَّمتُّعِ به، وإنَّما أخرجَهُ على لفظِ الأمرِ إيذاناً بأنَّ إمهالَهُ ممَّا ينبَغِي أن يفعلَهُ استِدراجاً وقطعاً لمعاذيرِهِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وكقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقولُه تعالى: (﴿حَتَّى﴾) غايَةٌ للمدِّ.

وقولُه: (﴿إِمَّا العَذَابَ﴾... إلخ) تفصيلٌ للمَوعودِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٦).

(٢) في (ص): «من».

(٣) يعني: برواية قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧).

(٥) انظر المصدر السابق، وهذه القراءة ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ٢٠٩) فقال: وذكر غير أحمد بن موسى (وهو ابن مجاهد صاحب كتاب «السبعة») أن الأعشى روى عن أبي بكر عن عاصم: (وريئاً) مثل: وريعاً. وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٩١).

كالقتل والأسر ﴿وإمّا السّاعة﴾ المُشتملة على جهنّم فيدخلونها، ﴿فسَيَعلَمُونَ: مَن هُوَ شَرٌّ مَكانًا وأضعَفُ جُندًا﴾: أعوانًا هم أم المؤمنون؟ وجُندهم الشياطينُ وجُند المؤمنين عليهم الملائكةُ ـ ٧٦ـ ﴿ويَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهتَدَوا﴾ بالإيمان ﴿هُدًى﴾ بما يُنزّل عليهم من الآيات. ﴿والباقِياتُ الصّالِحاتُ﴾ هي الطاعة تبقى لصاحبها، ﴿خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوابًا، وخَيرٌ مَرَدًّا﴾ أي: ما يُرَدّ إليه ويُرجَع بخلاف أعمال الكُفّار. والخيريّة هنا في مُقابلة قولهم: «أيُّ الفَرِيقَينِ خَيرٌ مَقامًا»؟

٧٧ـ ﴿أفرَأَيتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا﴾ القائلَ ـ هو العاصِ بنُ وائل ـ ﴿وقالَ﴾ لخبّابِ بنِ الأرتّ القائلِ له: «تُبعَثُ بَعدَ المَوتِ» والمُطالبِ له بمال: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ على تقدير البعث ﴿مالاً ووَلَدًا﴾ فأقضِيَنَّكَ؟ قال تعالى: ٧٨ ـ ﴿أَطَّلَعَ الغَيبَ﴾ أي: أعلِمَه وأن يُؤتى ما قاله ـ واستُغنِي بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل فحُذفتْ ـ ﴿أمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهدًا﴾...

قولُه: (تَبقَى) عائِدتُها ومنفَعتُها أبدَ الآبادِ، ويدخلُ فيها ما قيلَ من الصَّلواتِ الخمسِ، وقولِ: «سُبحانَ اللهِ»... إلخ[1].

قولُه: (والخَيرِيَّةُ هُنَا) يعني: للمُشاكَلةِ، وإلّا فالمرادُ بها مجرَّدُ الزِّيادةِ، أو على طريقةِ قولِهم: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ؛ أي: أبلَغُ في حرِّهِ منه في بردِهِ، وكذلك: العسَلُ أحلَى من الخلِّ.

قولُه: (ابنَ وَائلٍ) السَّهميَّ، كما أخرجَهُ البخاريُّ[2].

قولُه: (لِخَبّابٍ) وكانَ له عليه مالٌ، فتقاضَاهُ، فقالَ: لا، حتّى تكفُرَ بمحمَّدٍ، قالَ: لا واللهِ لا أكفُرُ بمحمَّدٍ حيًّا ولا ميِّتاً، ولا حينَ تُبعَثُ، فقالَ: فإذا بُعِثتَ جئتني فيكونُ لي ثَمَّ مالٌ وولَدٌ فأُعطيكَ، ولمَّا كانَ الرُّؤيةُ أقوَى سَندِ الأخبارِ استعملَ: أرأيتَ، بمعنى الإخبارِ، والفاءُ للتَّعقيبِ، والمعنَى: أخبِر بقصَّةِ هذا الكافرِ عقِبَ حديثِ أولئكَ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿وُلْداً﴾ بضمِّ الواو وسكونِ اللّامِ[3].

قولُه: (وأنْ) عَطفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ.

قولُه: (فحُذِفَتْ) فيه: أنَّ حقَّ همزةِ الوصلِ أن تُحذَفَ في الوصلِ، ولا دخلَ للاستغناءِ، اللَّهمَّ إلّا أن يقالَ: فحُذِفَت في الكتابَةِ، أو ما أُبدِلَت كما في ﴿الآنَ﴾ لِدلالَةِ همزةِ الاستِفهامِ هنا بلا لَبْسٍ، بخلافِهِ هناك.

---

(١) انظر: الآية (٤٦) من سورة الكهف.

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٢)، ومسلم (٢٧٩٥) من حديث خباب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٧).

بأن يُؤتى ما قاله؟ ٧٩ ـ ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يُؤتى ذلك، ﴿سَنكتُبُ﴾: نأمر بكتب ﴿ما يَقُولُ، ونَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذابِ مَدًّا﴾: نزيده بذلك عذابًا فوق عذاب كُفره، ٨٠ ـ ﴿ونَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ من المال والولد، ﴿ويأتِينا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا مال له ولا ولد.

٨١ ـ ﴿واتَّخَذُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الأوثانَ ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونهم، ﴿لِيَكُونُوا لَهُم عِزًّا﴾: شُفعاءَ عِند الله بألاّ يُعذَّبوا. ٨٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ أي: لا مانعَ من عذابهم، ....

قولُه: (بِأَنْ يُؤتَى) وقيل: العَهدُ: كلمةُ الشَّهادةِ والعملُ الصَّالحُ، فإنَّ وعدَ اللهِ بالثَّوابِ عليهما كالعهدِ عليه، وفي الحديثِ عن ابنِ مسعودٍ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيعجزُ أحدُكُم أن يتَّخِذَ كُلَّ صباحٍ ومَساءٍ عِندَ اللهِ عهداً؟» قالُوا: كيف ذلك؟ قال: «يقولُ: اللَّهمَّ فاطِرَ السَّماواتِ والأَرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، إنِّي أعهَدُ إليك بأنِّي أشهَدُ أن لا إلهَ إلَّا أنتَ وحدَكَ لا شَرِيكَ لكَ، وأنَّ محمَّداً عبدُكَ ورسُولُك، وإنَّكَ إنْ تَكِلْنِي إلى نفسِي تُقرِّبْنِي من الشَّرِّ، وتُبَاعِدْني منَ الخَيرِ، وإنِّي لا أثِقُ إلَّا برَحمَتِكَ، فاجعَلْ لي عندَكَ عَهْداً تُوفِّينِيهِ يومَ القِيامةِ، إنَّكَ لا تُخلِفُ الميعَادَ»(١) كذا في تفسيرِ الفاضلِ.

قولُه: (نَأمُرُ) الظَّاهرُ: سنُظهِرُ له أنَّا كتَبْنا قولَهُ، أو: سننتَقِمُ منه انتِقامَ من كتبَ جريمَةَ العدوِّ، فإنَّ نفسَ الكِتبَةِ لا تتأخَّرُ عن القولِ، لقولِه تعَالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قولُه: (مِنَ المَالِ والوَلَدِ) بموتِهِ.

قولُه: (وَلا وَلَدَ) كذا في نُسخةٍ، وهو الصَّوابُ؛ أي: لا يصحَبُه مالٌ ولا ولدٌ كانَ له في الدُّنيا، فضلاً أن يُؤتى ثَمَّ زائداً.

قولُه: (الأَوْثَانَ) مفعولٌ أوَّلُ.

قولُه: (شُفَعَاءَ) أي: ليتَعزَّزوا بهم، حيثُ يكونُون لهم شُفعاءَ.

قولُه: (بِأَنْ لا يُعَذَّبُوا) أي: الكفَّارُ.

قولُه: (أي: لَا مَانِعَ) يعني: رَدعٌ وإنكارٌ لتعزُّزِهم بها.

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٣٩): غريب مرفوعاً، ولم أجده إلا موقوفاً.

قلت: رواه أحمد في «مسنده» (٣٩١٦) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، إلا أنه لم يذكر أوله، بل اقتصر فيه على الدعاء. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود.

وأما الموقوف فرواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٥٢٦)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨٦) (٨٩١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٢٦) وصححه، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧١) موقوفاً على ابن مسعود.

﴿سَيَكفُرُونَ﴾ أي: الآلهةُ ﴿بِعِبادَتِهِم﴾ أي: ينفونها كما في آية أُخرى: «ما كانُوا إيّانا يَعبُدُونَ»، ﴿ويَكُونُونَ عليهِم ضِدًّا﴾: أعوانًا أو أعداء. ٨٣ ـ ٨٤ ـ ﴿ألَم تَرَ أنّا أرسَلْنا الشَّياطِينَ﴾: سَلّطْناهم ﴿علَى الكافِرِينَ، تَؤُزُّهُم﴾: تُهيّجهم إلى المعاصي ﴿أزًّا؟ فلا تَعجَلْ علَيهِم﴾ بطلب العذاب. ﴿إنَّما نَعُدُّ لَهُم﴾ الأيّام والليالي أو الأنفاس ﴿عَدًّا﴾، إلى وقت عذابهم.

٨٥ ـ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُ المُتَّقِينَ﴾ بإيمانهم ﴿إلَى الرَّحمنِ وَفدًا﴾: جمع وافد، بمعنى: راكب، ٨٦ ـ ﴿ونَسُوقُ المُجرِمِينَ﴾ بكُفرهم ﴿إلَى جَهَنَّمَ وِردًا﴾: جمع وارد، بمعنى: ماش عطشان، ٨٧ ـ ﴿لا يَملِكُونَ﴾ أي: الناسُ ﴿الشَّفاعةَ، إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهدًا﴾ أي: شهادةَ أنْ لا إلٰهَ إلاّ اللهُ، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلاّ باللهِ.

٨٨ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: اليهودُ والنصارى ومَن زعم أنّ الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا﴾. قال تعالى لهم: ٨٩ ـ ﴿لَقَد جِئتُم شَيئًا إدًّا﴾ أي: مُنكرًا عظيمًا،.......................

قولُه: (أَعْوَانًا) أي: معونةً في عذابِهم بأن توقَدَ بها نيرانُهُم، أو المرادُ بالضِّدِّ: ضدُّ العزِّ؛ أي: يكونونَ عليهِم ذُلًّا.

قولُه: (تُهَيِّجُهُم) وتهزُّهُم وتُغريهم عليها بالتَّسويلاتِ وتحبيبِ الشَّهواتِ.

قولُه: (الأَيَّامَ) أو: أيَّامَ آجالِهِم.

قولُه: (بإِيْمَانِهِم)[1] والحشرُ: الجَمعُ.

وقولُه تعَالى: (﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾) إلى ربِّهِم الذي عمَّهُم برحمتِهِ، ولاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ مع ابتدائِها بذِكرِ الرَّحمَةِ.

قولُه: (جَمْعُ وَافِدٍ) أي: وافِدينَ، كما تَفِدُ الوُفَّادُ على السُّلطانِ، منتَظِرينَ لكرامتِهِ وإنعامِهِ.

قولُه: (بكُفْرِهِم) كما تُساقُ البهائمُ.

قولُه: (عَطْشَانَ) فإنَّ مَن يَرِدُ الماءَ لا يرِدُه إلَّا لعطَشٍ، أو كالدَّوابِّ التي تَرِدُ الماءَ.

قولُه: (أي: النَّاسُ) الضَّميرُ فيه للعبادِ المدلولِ عليه بذكرِ القِسمَينِ، وهو النَّاصبُ لليومِ.

قولُه: (أي: شَهَادَة) أي: إلَّا مَن أذِنَ له الرَّحمنُ.

قولُه: (أي: مُنكَراً) والالتِفاتُ للمُبالغَةِ في الذَّمِّ والتَّسجيلِ عليهم بالجُرأةِ على اللهِ.

(١) في (د): «بالإيمان».

٩٠ ـ ﴿تَكادُ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿السَّماواتُ يَنفَطِرْنَ﴾ ـ بالنون. وفي قراءة بالتاء وتشديد الطاء ـ بالانشقاق ﴿مِنهُ، وتَنشَقُّ الأرضُ، وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا﴾ أي: تنطبق عليهم من أجل ٩١ ـ ﴿أن دَعَوا لِلرَّحمنِ وَلَدًا﴾.

٩٢ ـ قال تعالى: ﴿وما يَنبَغِي لِلرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: ما يليق به ذلك. ٩٣ ـ ﴿إن﴾ أي: ما ﴿كُلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرَّحمنِ عَبدًا﴾: ذليلاً خاضعًا يوم القيامة، منهم عُزَيرٌ وعِيسَى. ٩٤ ـ ﴿لَقَد أحصاهُم وعَدَّهُم عَدًّا﴾، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم ولا واحد منهم، ٩٥ ـ ﴿وكُلُّهُم آتِيهِ يَومَ القِيامةِ فَردًا﴾: بلا مال ولا نصير يمنعه. ٩٦ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا﴾ فيما بينهم، يتوادّون ويتحابّون، ويُحبّهم الله تعالى.

قولُه: (والياءِ) التَّذكيرُ: نافعٌ والكِسائيُّ[1].

قولُه: (بالنُّونِ) بَصريٌّ وشاميٌّ وشعبةُ وحمزةُ[2].

وقولُه تعَالى: (﴿هَدًّا﴾) أي: تُهدُّ هداً، أو: مهدودةً؛ لأنَّها تُهَدُّ؛ أي: تُكسَرُ.

قولُه: (أي: تَنطَبِقُ) وتسقُطُ.

قولُه: (مِن أَجْلِ) إشارةٌ إلى أنَّ محلَّ ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ جرٌّ بإضمارِ لامِ العِلَّةِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: اتِّخاذُ الوَلدِ.

قولُه: (ولا وَاحِد) وعدَّ[3] أشخاصَهُم وأنفاسَهُم وأموالَهُم، فإنَّ كلَّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ.

قولُه: (فِيمَا بَينَهُم) أي: سيُحدِثُ لهم في القُلُوبِ مودَّةً من غيرِ تعرُّضٍ منهم لأسبابِها.

قولُه: (ويُحِبُّهُم) لعلَّهُ بمعنى: أو، أخرجَ الشَّيخان عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً يقُولُ لجبريلَ: أحبَبْتُ فُلاناً فأحِبَّهُ، فيُحِبُّه جبريلُ، ثمَّ يُنادِي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ تعالى قد أحَبَّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ تُوضَعُ المحبَّةُ في الأرضِ»[4].

والسِّين[5]؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وكانوا مَبغوضينَ حينئذٍ بين الكفَرةِ، فوعدَهُ ذلك إذا قَوِيَ الإسلامُ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) هذا تفسير قوله تعالى: ﴿وعدهم عدا﴾.

(٤) رواه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أي في قوله تعالى: ﴿سيجعل﴾.

٩٧ ـ ﴿فإنَّما يسَّرْناهُ﴾ أي: القرآن ﴿بِلِسانِكَ﴾ العربيّ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ﴾ النار بالإيمان، ﴿وتُنذِرَ﴾: تخوِّف ﴿بِهِ قومًا لُدًّا﴾: جمعُ ألدَّ، أي: جدلٍ بالباطل، وهم كُفّار مكّة. ٩٨ ـ ﴿وكَم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلكْنا قبلهُم مِن قرنٍ﴾ أي: أمّةٍ من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل! ﴿هل تُحِسُّ﴾: تجدُ ﴿مِنهُم مِن أحدٍ، أو تسمعُ لهُم رِكزًا﴾: صوتًا خفيًّا؟ لا. فكما أهلكنا أولئك نُهلك هؤلاء.

قوله: (بالإيمان) أي: الصّادين إلى التقوى.

قوله: (جدل) أي: شديد الخصومة.

قوله: (بتكذيبهم) تخويفٌ للكفرة، وتشجيعٌ للرّسول على إنذارهم.

قوله: (تجدُ) أي: هل تشعرُ منهم وترى؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

سورة مريم

المشهورُ تسميتها بذلك، ورويت عن رسول الله ﷺ؛ فقد أخرجَ الطبرانيُّ وأبو نعيم والديلميُّ من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسانيّ عن أبيه عن جدِّه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: ولدتْ لي الليلةَ جاريةٌ، فقال: «والليلة أنزلت عليَّ سورةُ مريم...»(١).

وجاء فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما تسميتُها بسورة «كهيعص»(٢).

وهي مكيَّةٌ كما روي عن عائشة وابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم.

وقال مقاتل: هي كذلك إلَّا آية السجدة(٣)، فإنَّها مدنيةٌ نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة(٤). وفي «الإتقان»(٥) استثناءُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [الآية: ٧١] أيضاً.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، و«المعجم الكبير» ٢٢/ (٨٣٤)، و«مسند الشاميين» (١٤٧٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٥٤: وفيه سليمان بن سلمة الخبائري، وهو متروك.
قلت: وأبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني ضعيف. انظر «تقريب التهذيب»، و«تهذيب التهذيب».

(٢) قال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» ١٦/ ٥٧: وكذلك وقعت تسميتها في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحِّها، ولم يعدها جلال الدين في «الإتقان» في عداد السور المسماة باسمين، ولعله لم يَرَ الثاني اسماً.

(٣) الآية: ٥٨.

(٤) وتعقب الطاهر بن عاشور هذا القول في «التحرير والتنوير» ١٦/ ٥٧، فقال: ولا يستقيم هذا القول؛ لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها، إلا أن تكون ألحقت بها في النزول، وهو بعيد.

(٥) ١/ ٤٧.

وهي عند العراقيين والشاميين ثمانٌ وتسعون آيةً، وعند المكيين تسعٌ وتسعون، وللمدنيين قولان، ووجهُ مناسبتها لسورةِ الكهف اشتمالُها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب، كقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام، ولهذا ذُكرت بعدها، وقيل: إنَّ أصحاب الكهف يبعثونَ قبل الساعة، ويحجُّون مع عيسى عليه السلام حين ينزل، ففي ذكر هذه السورة بعد تلك مع ذلك إنْ ثبت ما لا يخفى من المناسبة، ويقوِّي ذلك ما قيل إنَّهم من قومه عليه السلام. وقيل غير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ أخرج ابن مردويه عن الكلبيِّ أنه سُئل عن ذلك، فحدَّث عن أبي صالح، عن أم هانئ، عن رسول الله ﷺ قال: «كاف هاد عالم صادق»(١).

واختلفت الروايات عن ابن عباس. ففي رواية أنَّه قال: كاف من كريم، وها من هاد، ويا من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق.

وفي رواية أنَّه قال: كبيرٌ، هادٍ، أمين، عزيز، صادق.

وفي أخرى أنَّه قال: هو قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسماء الله تعالى.

وفي أخرى أنَّه كان يقول: «كهيعص»، و«حم»، و«يس»، وأشباه هذا؛ هو اسمُ الله تعالى الأعظم.

ويستأنسُ له بما أخرجه عثمانُ بن سعيد الدارمي وابنُ ماجه وابن جرير عن فاطمة بنت عليّ قالت: كان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه يقول: يا «كهيعص» اغفر لي(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة أنَّهم قالوا: «كهيعص» هو الهجاء المقطَّع؛ الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصوِّر.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وأخرجه ابن ماجه في تفسيره - كما في تهذيب الكمال ٢٩/ ٢٨٤ - والطبري في تفسيره ١٥/ ٤٥١.

وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب نحو ذلك إلَّا أنَّه لم يذكر الياء، وقال: الصاد من الصمد.

وأخرج أيضاً عن الربيع بن أنس أنَّه قال في ذلك: يا من يجيرُ ولا يُجَارُ عليه[1].

وأخرج عبدُ الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن[2].

وقيل: إنَّه اسمٌ للسورة، وعليه جماعة.

وقيل: حروف مسرودةٌ على نمط التعديد. ونُسِبَ إلى جمعٍ من أهل التحقيق.

وفوَّض البعضُ علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب.

وقد تقدَّم تمام الكلام في ذلك وأمثاله في أول سورة البقرة، فتذكَّر.

وقرأ الجمهور: «كاف» بإسكان الفاء، ورُوي عن الحسن ضمُّها[3]. وأمال نافعٌ «ها» و«يا» بين اللفظين[4]، وأظهر دال «صاد» ولم يدغمها في الذال بعد، وعليه الأكثرون[5].

وقرأ الحسن بضم الهاء[6]، وعنه أيضاً ضمُّ الياء وكسر الهاء[7]، وعن عاصم ضمُّ الياء، وعنه أيضاً كسرهما[8]، وعن حمزة فتح الهاء وكسر الياء[9].

وقال أبو الفضل عبدُ الرحمن بن أحمد بن الحسن المقرئ الرازي في كتاب

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وهي في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٩٦ (١٣٠٢٤) و(١٣٠٢٦) و(١٣٠٢٧).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٠٥.

(٤) النشر ٢/ ٧١، والتيسير ص١٤٨.

(٥) وقرأ أيضاً بعدم الإدغام ابن كثير وعاصم وأبو جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ١٧.

(٦) القراءات الشاذة ص٨٣.

(٧) البحر المحيط ٦/ ١٧٢.

(٨) البحر المحيط ٦/ ١٧٢. والمتواتر عنه كقراءة الجمهور.

(٩) التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/ ٧١.

«اللوامح»: إنَّ الضمَّ في هذه الأحرف ليس على حقيقته، وإلَّا لوجب قلبُ ما بعدهنَّ من الألفات واوات، بل المرادُ أن يُنحى هذه الألفات نحو الواو على لغة أهل الحجاز، وهي التي تسمَّى ألفَ التفخيم ضدّ الإمالة، وهذه الترجمة كما ترجموا عن الفتحة الممالة المقرَّبة من الكسر بالكسر؛ لتقريب الألف بعدها من الياء. انتهى.

ووجه الإمالة والتفخيم أنَّ هذه الألفات لمَّا لم يكن لها أصلٌ حملوها على المنقلبة عن الواو تارة، وعن الياء أخرى، فجوِّزَ الأمران دفعاً للتحكُّم.

وقرأ أبو جعفر بتقطيع هذه الحروف وتخليص بعضها من بعض[1]، واقتضى ذلك إسكانَ آخرهنّ، والتقاءُ الساكنين مغتفرٌ في باب الوقف.

وأدغم أبو عمرو دالَ «صاد» في الذال بعد[2]. وقرأ حفص عن عاصم وفرقةٌ بإظهار النون من «عين»، والجمهور على إخفائها.

واختلف في إعرابه، فقيل على القول بأنَّ كلَّ حرفٍ من اسم من أسمائه تعالى لا محلَّ لشيءٍ من ذلك ولا للمجموع من الإعراب. وقيل: إنَّ كلَّ حرفٍ على نية الإتمام خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو كافٍ، هو هاد، وهكذا، أو الأولُ على نيَّة الإتمام كذلك، والبواقي خبرٌ بعدَ خبر.

وعلى ما روي عن الربيع قيل: هو منادى، وهو اسمٌ من أسمائه تعالى معناه الذي يجيرُ ولا يُجار عليه. وقيل: لا محلَّ له من الإعراب أيضاً، وهو كلمةٌ تقال في موضع نداء الله تعالى بذلك العنوان، مثل ما يقال: مهيم، في مقام الاستفسار عن الحال، وهو كما ترى.

وعلى القول بأنَّه حروفٌ مسرودةٌ على نمط التعديد قالوا: لا محلَّ له من الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ على هذه الأقوال خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هذا المتلو «ذكر» إلخ.

---

(١) البحرالمحيط ٦/ ١٧٢.
(٢) النشر ١/ ٤٢٤.
(٣) تقدم ذكر من قرأ بعدم الإدغام قريباً، والباقون يدغمونها.

ويقال على الأخير[1]: المؤلفُ من جنس هذه الحروف المبسوطة مراداً به السورة «ذكرُ» إلخ.

وقيل: مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليك «ذكر» إلخ.

وعلى القول بأنَّه اسمٌ للسورة قيل: محلُّه الرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا «كهيعص»، أي: مسمًّى به. وإنما صحَّت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد، كما قيل في قولهم: هذا ما اشترى فلان. وفي «ذكر» وجهان؛ كونه خبراً لمبتدأ محذوف، وكونُه مبتدأ خبره محذوف.

وقيل: محلُّه الرفع على أنَّه مبتدأ، و«ذكر» إلخ خبره، أي: المسمَّى به ذكر إلخ، فإنَّ ذكر ذلك لمَّا كان مطلعَ السورة الكريمة ومعظمَ ما انطوت هي عليه، جعلت كأنها نفس ذكره، أو الإسنادُ باعتبار الاشتمال، أو هو بتقدير مضافٍ، أي: ذو ذكر إلخ، أو بتأويل: مذكورٌ فيه رحمةُ ربك.

وعلى القول بأنه اسمٌ للقرآن، قيل: المراد بالقرآن ما يصدقُ على البعض ويراد به السورة، والإعراب هو الإعراب، وحينئذٍ لا تقابل بين القولين.

وقيل: المراد ما هو الظاهر، وهو مبتدأ خبره «ذكر» إلخ، والإسناد باعتبار الاشتمال، أو التقدير، أو التأويل.

وقوله تعالى: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ مفعولٌ لـ «رحمة ربك» على أنَّها مفعولٌ لما أضيف إليه، وهي مصدرٌ مضافٌ لفاعله، موضوعٌ هكذا بالتاء، لا أنَّها للوحدة حتى تمنع من العمل؛ لأنَّ صيغة الوحدة ليست الصيغة التي اشتقَّ منها الفعل، ولا الفعل دالٌّ على الوحدة، فلا يعمل المصدرُ لذلك عملَ الفعل إلَّا شذوذاً، كما نصَّ عليه النحاة.

وقيل: مفعولٌ للذكر، على أنَّه مصدرٌ أضيفَ إلى فاعله على الاتِّساع، ومعنى ذكر الرحمة بلوغُها وإصابتها، كما يقال: ذَكَرني معروفُك، أي: بلغني.

---

(١) أي على أنها حروف مسرودة على نمط التعديد. انظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٢.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿زَكَرِيَّآ ۝﴾ بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو عطفُ بيان له، أو نُصب بإضمار: أعني.

وقوله تعالى شأنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ظرفٌ لـ «رحمة ربك». وقيل: لـ «ذكر» على أنَّه مضافٌ لفاعله، لا على الوجه الأول؛ لفساد المعنى. وقيل: هو بدل اشتمال من «زكريا» كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا﴾ [مريم: ١٦].

وقرأ الحسن وابن يعمر ـ كما حكاه أبو الفتح[(١)] ـ: «ذكَّر» فعلاً ماضياً مشدَّداً، و«رحمةَ» بالنصب على أنَّه ـ كما في «البحر» ـ مفعولٌ ثانٍ لـ «ذكَّر»، والمفعولُ الأول محذوف، و«عبدَه» مفعولٌ لـ «رحمة»، وفاعل «ذكر» ضميرُ القرآن المعلوم من السياق، أي: ذكَّر القرآنُ الناسَ أنْ رحم سبحانه عبدَه[(٢)].

ويجوز أنْ يكون فاعل «ذكَّر» ضمير «كهيعص» بناءً على أنَّ المرادَ منه القرآن، ويكونُ مبتدأ، والجملة خبره، وأنْ يكون الفاعلُ ضميره عزَّ وجلَّ، أي: ذكَّر الله تعالى الناسَ ذلك.

وجُوِّزَ أن يكون «رحمة ربك» مفعولاً ثانياً، والمفعول الأول هو «عبده» والفاعل ضميره سبحانه، أي: ذَكَّر الله تعالى عبدَه رحمتَه، أي: جعل العبدَ يذكرُ رحمتَه، وإعراب «زكريا» كما مرَّ.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً لـ «رحمة»، والمراد بـ «عبده» الجنس، كأنَّه قيل: ذَكَّر عباده رحمتَه زكريا. وهو كما ترى. ويجوزُ على هذا أن يكون الفاعلُ ضمير القرآن.

وقيل: يجوزُ أنْ يكون الفاعل ضميره تعالى، والرحمة مفعولاً أولاً، و«عبده» مفعولاً ثانياً، ويرتكب المجاز، أي: جعل الله تعالى الرحمةَ ذاكرةً عبدَه.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٣٧ عن الحسن، دون ذكر ابن يعمر. وأوردها عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٣.
قال ابن حيان في البحر ٦/ ١٧٢: وذكر صاحب «اللوامح» أن ذكَّر بالتشديد ماضياً عن الحسن باختلاف، وهو صحيح عن ابن يعمر. اهـ.

(٢) انظر البحر ٦/ ١٧٢.

وقيل: «رحمة» نصب بنزع الخافض، أي: ذكر برحمة، وذكر الداني عن ابن يعمر[١] أنَّه قرأ: «ذكِّر» على الأمر والتشديد، و«رحمةَ» بالنصب، أي: ذكر الناسَ رحمةً، أو برحمةِ ربك عبدَه زكريا.

وقرأ الكلبيّ: «ذَكَرَ» فعلاً ماضياً خفيفاً، و: «رحمةَ ربك» بالنصب على المفعولية لـ «ذكر»، و: «عبدُه» بالرفع على الفاعلية له[٢].

وزكريا عليه السلام من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود أنَّه آخرُ أنبياء بني إسرائيل[٣]، وهو ابن آزر بن مسلم، من ذرية يعقوب، وأخرج إسحاق بن بشر وابنُ عساكر عن ابن عباس أنَّه ابن دان، وكان من أبناءِ الأنبياء الذين يكتبون الوحي في بيت المقدس[٤]. وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحَّحه وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنه عليه السلام كان نجاراً»[٥].

وجاءَ في اسمه خمس لغات؛ أولها: المد، وثانيها: القصر، وقُرئ بهما في السبع[٦]. وثالثها: زكريّ، بتشديد الياء. ورابعها: زكري، بتخفيفها. وخامسها: زَكَرْ، كقلم. وهو اسمٌ أعجميّ[٧].

والنداءُ في الأصل رفعُ الصوت وظهورُه، وقد يقال لمجرد الصوت، بل لكلِّ ما يدلُّ على شيءٍ وإن لم يكن صوتاً، على ما حققه الراغب[٨]. والمرادُ هنا: إذ

(١) في الأصل و(م): أبي يعمر. والمثبت من القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٢، والدر المصون ٧/ ٥٦٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٢.
(٣) المستدرك ٢/ ٥٨٩-٥٩٠.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٥٩، وهو عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٤٨-٤٩.
(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وهو عند أحمد (٧٩٤٧)، وأبي يعلى (٦٤٢٦)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٥٩٠. وأخرجه أيضاً الإمام مسلم في صحيحه (٢٣٧٩).
(٦) قرأ بالمدِّ من السبعة حفص وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالهمز. التيسير ص٨٧.
(٧) والقول الأخير ضعفه الزبيدي في «تاج العروس» (زكر) قال: وشذَّ بعض المفسرين فزاد لغة خامسة: زكر، كجبل. اهـ. وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٤٧٤ - طبعة دار الفيحاء).
(٨) في المفردات (ندا).

دعا ربه ﴿نِدَآءً﴾ أي: دعاء ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ مستوراً عن الناس لم يسمعه أحدٌ منهم، حيثُ لم يكونوا حاضريه. وكان ذلك ـ على ما قيل ـ في جوف الليل.

وإنَّما أَخفَى دعاءَه عليه السلام؛ لأنَّه أدخلُ في الإخلاص، وأبعدُ عن الرياء، وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد؛ لتوقُّفه على مباديَ لا يليقُ به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة، وعن غائلة مواليه.

وعلى ما ذكرنا لا منافاةَ بين النداء، وكونه خفيًّا، بل لا منافاة بينهما أيضاً إذا فُسِّر النداءُ برفع الصوت؛ لأنَّ الخفاءَ غيرُ الخفوت، ومن رفعَ صوتَه في مكانٍ ليس بمرأى ولا مسمعٍ من الناس فقد أخفاه. وقيل: هو مجازٌ عن عدم الرياء، أي: الإخلاص، ولم ينافه النداءُ بمعنى رفعِ الصوت لهذا.

وفي «الكشف» أنَّ الأشبهَ أنَّه كنايةٌ مع إرادة الحقيقة؛ لأنَّ الخفاءَ في نفسه مطلوبٌ أيضاً، لكنَّ المقصودَ بالذات الإخلاص. وقيل: مستوراً عن الناس بالمخافتة، ولا منافاة بناءً على ارتكاب المجاز، أو بناءً على أن النداءَ لا يلزمهُ رفعُ الصوت. ولذا قيل:

يا من ينادَى بالضمير فيَسمع[1]

وكان نداؤه عليه السلام كذلك؛ لما مرَّ آنفاً، أو لضعفِ صوته بسبب كبره، كما قيل: الشيخ صوتُه خُفات وسمعه تارات.

قيل: كان سنُّه حينئذٍ ستين سنة، وقيل: خمساً وستين، وقيل: سبعين، وقيل: خمساً وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: خمساً وثمانين، وقيل: اثنتين وتسعين، وقيل: تسعاً وتسعين، وقيل: مئةً وعشرين. وهو أوفق بالتعليل المذكور.

وزعم بعضهم أنَّه أشير إلى كون النداء خفيًّا ليس فيه رفعٌ بحذفِ حرفه في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، والجملةُ تفسيرٌ للنداء، وبيانٌ لكيفيَّته، فلا محلَّ لها من الإعراب.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/١٤٣، والمشهور:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع   أنت المعدّ لكل ما يتوقع

وهو في التدوين في أخبار قزوين للرافعي ٣/١٤ مع أبيات أخر، ونسبها لعبد الرحمن بن أبي الحسين الخثعمي، وذكرها أيضاً الأبشيهي في المستطرف ٢/٥٤٢ وغيرهما.

﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعُف، وإسنادُ ذلك إلى العَظم لما أنَّه عمادُ البدن ودِعام الجسد، فإذا أصابه الضعفُ والرخاوة تداعى ما وراءه، وتساقطت قوَّته؛ ففي الكلام كنايةٌ مبنيَّةٌ على تشبيه مضمرٍ في النفس، أو لأنَّه أشدُّ أجزائه صلابةً وقواماً، وأقلُّها تأثُّراً من العلل، فإذا وَهَن كان ما وراءه أوهن؛ ففي الكلام كنايةٌ بلا تشبيه. وأُفرِد - على ما قاله العلامة الزمخشريّ[1] وارتضاه كثيرٌ من المحققين - لأنَّ المفردَ هو الدالُّ على معنى الجنسيَّة، والقصد إلى أنَّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشدُّ ما تركب من الجسد قد أصابه الوهن، ولو جُمِع لكان القصدُ إلى معنًى آخر، وهو أنَّه لم يهن منه بعضُ عظامه، ولكن كلُّها، حتى كأنَّه وقعَ من سامعٍ شكٌّ في الشمول والإحاطة؛ لأنَّ القيد في الكلام ناظرٌ إلى نفي ما يقابلُه، وهذا غيرُ مناسبٍ للمقام. وقال السكاكيُّ[2]: إنَّه تركَ جمع «العظم» إلى الإفراد؛ لطلب شمولِ الوهن العظام فرداً فرداً، ولو جمع لم يتعيَّن ذلك؛ لصحَّة: وهَنت العظامُ، عند حصولِ الوهن لبعضٍ منها دون كلِّ فرد، وهو مسلكٌ آخرُ مرجوحٌ عند الكثير. وتحقيقُ ذلك في موضعه.

وعن قتادة أنَّه عليه السلام اشتكى سقوطَ الأضراس. ولا يخفى أنَّ هذا يحتاجُ إلى خبرٍ يدلُّ عليه، فإنَّ انفهامه من الآية ممَّا لا يكادُ يسلَّم.

و«منِّي» متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من العَظْم، ولم يقل: عظمي، مع أنَّه أخصر؛ لما في ذلك من التفصيل بعد الإجمال، ولأنَّه أصرحُ في الدلالة على الجنسيَّة المقصودة هنا، وتأكيدُ الجملة لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها.

وقرأ الأعمش: «وَهِن» بكسر الهاء، وقُرِئ بضمِّها أيضاً[3].

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ شبَّه الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظِ النار، وانتشارَه في الشعر وفشوَّه فيه وأخذه منه كلَّ مأخذ باشتعالها، ثمَّ أخرجَه مخرج الاستعارة، ففي الكلام استعارتان، تصريحية تبعيَّة في «اشتعل»، ومكنيَّة في الشيب؛

(١) في الكشاف ٢/ ٥٠٢.
(٢) في مفتاح العلوم ص٢٦.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٣.

وانفكاكها[1] عن التخييلية ممَّا عليه المحققون من أهل المعاني، على أنه يمكن ـ على بُعدٍ ـ القولُ بوجود التخييليَّة هنا أيضاً. وتكلَّف بعضُهم لزعمه عدمَ جواز الانفكاك، وعدمَ ظهور وجود التخييلية: إخراجَ ما في الآية مخرجَ الاستعارة التمثيلية، وليس بذاك.

وأُسندَ الاشتعال إلى محلِّ الشعر ومنبته، وأُخرج مخرج التميز؛ للمبالغة وإفادة الشمول، فإنَّ إسناد معنًى إلى ظرفِ ما اتَّصف به زمانيًا أو مكانيًا يفيدُ عمومَ معناه لكلِّ ما فيه في عرف التخاطب، فقولُك: اشتعل بيتُه ناراً، يفيد احتراق جميع ما فيه، دون: اشتعلَ نار بيته.

وزعم بعضُهم أنَّ «شَيباً» نصب على المصدرية؛ لأنَّ معنى «اشتعل الرأس» شاب. وقيل: هو حال، أي: شائباً، وكلا القولين لا يرتضيهما كاملٌ كما لا يخفى.

واكتفي باللام عن الإضافة؛ لأنَّ تعريفَ العهد المقصود هنا يفيدُ ما تفيده، ولما كان تعريفُ «العظم» السابق للجنس كما علمت؛ لم يُكتَفَ به، وزاد قوله «منِّي». وبالجملة ما أفصَح هذه الجملة وأبلغها، ومنها أخذَ ابنُ دريد قوله:

واشتعل المُبيَضُّ في مُسودِّه مثل اشتعال النَّار في جزل الغضا[2]

وعن أبي عمرو أنه أدغم السين في الشين[3].

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ أي: لم أكن بدعائي إيَّاك خائباً في وقتٍ من أوقات هذا العُمر الطويل، بل كلَّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وقيل: حالٌ من ياء المتكلم، إذ المعنى: واشتعل رأسي. وهو غريب.

وهذا توسُّلٌ منه عليه السلام بما سلفَ منه تعالى من الاستجابة عند كلِّ دعوةٍ إثرَ تمهيد ما يستدعي الرحمةَ من كبر السِّنِّ وضعف الحال، فإنَّه تعالى بعد ما عَوَّد عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكادُ يخيبه أبداً، لا سيما عند اضطراره وشدَّة افتقاره، وفي هذا التوسُّل من الإشارة إلى عظم كرم الله عزَّ وجلَّ ما فيه.

---

(١) أي: انفكاك الاستعارة المكنية. وانظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٤٤.
(٢) شرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي ص٣.
(٣) التيسير ص٢٤، والنشر ١/ ٢٩٢.

وقد حُكي أنَّ حاتماً الطائيّ ـ وقيل: معن بن زائدة ـ أتاه محتاجٌ، فسأله وقال: أنا الذي أحسنتَ إليه وقتَ كذا، فقال: مرحباً بمن توسَّل بنا إلينا. وقضى حاجتَه.

وقيل: المعنى: ولم أكن بدعائك إيايَّ إلى الطاعة شقيًّا، بل كنت ممن أطاعَك وعبدَك مخلصاً، فالكافُ على هذا فاعل، والأوَّل أظهرُ وأولى، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والتعرُّض في الموضعين لوصفِ الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاحُ المربوب مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، لا سيما توسيطه بين «كان» وخبرها، لتحريك سلسلةِ الإجابة بالمبالغة في التضرُّع.

وقد جاء في بعض الآثار: أنَّ العبدَ إذا قال في دعائه: يا ربِّ، قال الله تعالى له: لبيك عبدي.

وروي أنَّ موسى عليه السلام قال يوماً في دعائه: يا رب. فقال الله سبحانه وتعالى له: لبيك يا موسى. فقال موسى: أهذا لي خاصَّة؟ فقال الله تبارك تعالى: لا، ولكن لكلٍّ من يدعوني بالربوبية.

وقيل: إذا أرادَ العبدُ أن يُستجاب له دعاؤه، فليدعُ الله تعالى بما يناسبُه من أسمائه وصفاته عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ هم عَصَبة الرجل على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

وعن الأصمِّ أنَّهم بنو العمِّ، وهم الذين يلونه في النسب.

وقيل: من يلي أمره من ذوي قرابته مطلقاً.

وكانوا على سائر الأقوال شرارَ بني إسرائيل، فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافتَه في أمَّته.

والجملة عطفٌ على قوله: «إنِّي وهن العظمُ مني» مترتِّبٌ مضمونُها على مضمونه؛ فإنَّ ضعفَ القوى وكبر السِّنِّ من مبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته، حسبما يدلُّ عليه قوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ فإنَّ المرادَ منه بإجماعِ من عَلمنا

من المفسِّرين: من بعد موتي، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ ينساق إليه الذهن، أي: خفتُ فعلَ الموالي من ورائي، أو جور الموالي؛ وقد قرئ ـ كما في «إرشاد العقل السليم» ـ كذلك[١].

وجوِّز تعلُّقه بالموالي، ويكفي في ذلك وجودُ معنى الفعل فيه في الجملة؛ فقد قالوا: يكفي في تعلُّق الظرف رائحةُ الفعل، ولا يشترط فيه أنْ يكون دالًّا على الحدوث، كاسم الفاعل والمفعول حتى يُتكلَّف له. ويقال: إنَّ اللام في «الموالي» على هذا موصولٌ، والظرفُ متعلِّقٌ بصلته، وإنَّ مولى مخفف مُولًّى، كما قيل في مُعنى أنه مخفف مُعنًّى، فإنَّه تعسُّفٌ لا حاجة إليه، نعم قالوا في حاصل المعنى على هذا: خفتُ الذين يَلُونَ الأمرَ من ورائي.

ولم يجوِّز الزمخشريُّ تعلُّقه بـ «خفت» لفساد المعنى[٢]، وبيَّن ذلك في «الكشف» بأنَّ الجارَّ ليس صلةَ الفعل؛ لتعدِّيه إلى المحذور بلا واسطة، فتعيَّن أن يكون للظرفية على نحو: خفتُ الأسدَ قبلك، أو من قبلك، وحينئذٍ يلزمُ أن يكون الخوفُ ثابتاً بعد موته. وفسادُه ظاهر.

وبعضُهم رأى جواز التعلُّق بناءً على أنَّ كون المفعول في ظرف مصحِّحٌ لتعلُّق ذلك الظرف بفعله، كقولك: رميتُ الصيد في الحرم، إذا كان الصيدُ فيه دون رميك. والظاهرُ عدم الجواز فافهم.

وقال ابن جنِّي: هو حالٌ مقدَّرة من «الموالي»[٣].

وعن ابن كثير أنَّه قرأ: «ومن ورايَ» بالقصر وفتح الياء، كعصاي[٤].

وقرأ الزهريُّ: «الموالي» بسكون الياء[٥].

وقرأ عثمان بن عفَّان وابنُ عباس وزيد بن ثابت وعليُّ بن الحسين وولداه

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٢.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.
(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤، والدر المصون ٧/ ٥٦٦.

محمدٌ وزيد[١] وسعيد بن العاص وابنُ جبير وابن يعمر[٢] وشبيلُ بن عَزْرَة والوليد بن مسلم لابن عامر: «خَفَّتِ» بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر تاء التأنيث، «الموالي» بسكون الياء[٣]، على أنَّ «خَفَّت» من الخفَّة ضدّ الثقل، ومعنى «من ورائي» كما تقدَّم؛ والمراد: وإنِّي قلَّ الموالي وعَجَزوا عن القيام بأمور الدين من بعدي. أو: من الخفوف بمعنى السير السريع، ومعنى «من ورائي» من قُدَّامي وقبلي، والمراد: وإني ماتَ الموالي القادرون على إقامة مراسم الملَّة ومصالح الأمَّة وذهبوا قُدَّامي، ولم يَبْقَ منهم من به تقوٍّ واعتضاد، فيكونُ محتاجاً إلى العقب؛ لعجز مواليه عن القيام بعدَه بما هو قائم به، أو لأنَّهم ماتُوا قبلَه فبقيَ محتاجاً إلى من يعتضدُ به. وتعلُّق الجارِّ والمجرور على الوجه الثاني بالفعل ظاهر، وأمَّا على الوجه الأوَّل فإنْ لُوحظ أنَّ عجزَهم وقلَّتهم سيقعُ بعدَه لا أنَّه واقعٌ وقتَ دعائه: صحَّ تعلُّقه بالفعل أيضاً، وإن لم يكن كذلك تعلَّق بغير ذلك.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلد من حين شبابها إلى شَيبها، فالعقر بالفتح والضمِّ: العقم، ويقال: عاقر، للذكر والأنثى.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارَّين متعلِّق بـ «هب»، واللام صلةٌ له، و«من» لابتداء الغاية مجازاً، وتقديم الأول لكون مدلوله أهمَّ عنده، وجُوِّز تعلُّق الثاني بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول الآتي. وتقدَّم الكلام في «لدن». والمراد: أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية. وقيل: المراد: أعطني من فضلك كيف شئت ﴿وَلِيًّا ۝٥﴾ أي: ولداً من صُلْبي، وهو الظاهر. ويؤيِّده قوله تعالى في سورة آل عمران حكايةً عنه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [الآية: ٣٨].

وقيل: إنَّه عليه السلام طلبَ من يقومُ مقامَه ويرثه؛ ولداً كان أو غيره.

---

(١) في البحر المحيط: وولده محمد وزيد.

(٢) في الأصل و(م): وأبو يعمر. والتصويب من المحتسب، والبحر المحيط.

(٣) انظر القراءات الشاذة ص٨٣، والمحتسب ٢/ ٣٧، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.

وقيل: إنَّه عليه السلام أيسَ أن يولدَ له من امرأته، فطلبَ من يرثه ويقومُ مقامَه من سائر الناس. وكلا القولين لا يعوَّل عليه.

وزعم الزمخشريُّ أنَّ «من لدنك» تأكيدٌ لكونه وليًّا مرضيًّا[1]. ولا يخفى ما فيه.

وتأخيرُ المفعول عن الجارَّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ فيه نوعَ طول بما بعده من الوصف، فتأخيرُهما عن الكلِّ وتوسيطهما بين الموصوف والصفة ممَّا لا يليقُ بجزالة النظم الكريم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلَها، فإنَّ ما ذكره عليه السلام من كبر السِّنِّ، وضعف القوى، وعقر المرأة؛ موجبٌ لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسُّط الأسباب العاديَّة، واستيهابه على الوجه الخارق للعادة.

وقيل: لأنَّ ذلك موجبٌ لانقطاع رجائه عن حصول الولد منها وهي في تلك الحال، واستيهابه على الوجه الذي يشاؤه الله تعالى، وهو مبنيٌّ على القول الثاني في المراد من «هب لي من لدنك وليًّا»، والأول أولى.

ولا يقدح فيما ذكر أنْ يكون هناك داعٍ آخر إلى الإقبال على الدعاء من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرةِ في حقِّ مريم، كما يعربُ عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية [آل عمران: ٣٨]. وعدم ذكره ها هنا للتعويل على ما ذُكر هنالك، كما أنَّ عدمَ ذكر مقدمة الدعاء هنالك؛ للاكتفاء بذكرها هاهنا، والاكتفاءُ بما ذكر في موطنٍ عما ترك في موطنٍ آخر من السنن التنزيليّة.

وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صفةٌ لـ «وليًّا» كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات، ويقال: ورثَه، وورث منه، لغتان كما قيل، وقيل: «من» للتبعيض، لا للتعدية، وآل الرجل خاصَّته الذين يؤول إليه أمرُهم؛ للقرابة، أو الصحبة، أو الموافقة في الدين.

ويعقوب ـ على ما رويَ عن السُّدِّيّ ـ هو يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم، فإنَّ زكريا من ولد هارون، وهو من ولد لاوي بن يعقوب، وكان متزوِّجاً بأخت مريم

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٢.

بنت عمران، وهي من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب أيضاً. وقال الكلبيُّ ومقاتل: هو يعقوب بن ماثان[1]، وأخوه عمران بن ماثان، أبو مريم. وقيل: هو أخو زكريا عليه السلام.

والمراد من الوراثة في الموضعين العلمُ، على ما قيل.

وقال الكلبيُّ: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكَهم، وكان زكريا عليه السلام رئيسَ الأحبار يومئذٍ، فأرادَ أن يرثه ولدُه الحبورةَ، ويرثَ من بني ماثان ملكَهم، فتكون الوراثةُ مختلفةً في الموضعين. وأُيِّد ذلك بعدم اختيار العطف على الضمير المنصوب والاكتفاء بـ «يرث» الأول.

وقيل: الوراثة الأولى وراثة النبوَّة، والثانية وراثةُ الملك، فتكون مختلفةً أيضاً، إلَّا أنَّ قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ أي: مرضيًّا عندك قولاً وفعلاً، وقيل: راضياً، والأول أنسب = يكونُ على هذا تأكيداً؛ لأنَّ النبيَّ شأنُه أن يكون كذلك، وعلى ما قلنا يكونُ دعاءً بتوفيقه للعمل، كما أنَّ الأوَّل متضمِّنٌ للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنَّه طلبَ أنْ يكون ولده عالماً عاملاً.

وقيل: المرادُ: اجعله مرضيًّا بين عبادك، أي: متَّبعاً، فلا يكون هناك تأكيدٌ مطلقاً.

وتوسيط «ربّ» بين مفعولَي الجعل على سائر الأوجه للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه.

واختار السكاكيُّ[2] أنَّ الجملتين مستأنفتان استئنافاً بيانيًّا؛ لأنَّه يردُ أنَّه يلزمُ على الوصفيَّة أنْ لا يكونَ قد وُهِب لزكريا عليه السلام من وُصِف؛ لهلاك يحيى عليه السلام قبل هلاكِه؛ لقتل يحيى عليه السلام قبل قتله.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» بأنَّه مدفوعٌ بأنَّ الروايات متعارضة، والأكثرُ على هلاك زكريا قبله عليهما السلام، ثم قال: وأمَّا الجواب بأنَّه لا غضاضةَ في أن يُستجابَ للنبيِّ بعضُ ما سأل دون بعض، ألا ترى إلى دعوةِ نبينا ﷺ في حقِّ أمته،

(١) وضعفه السيوطي رحمه الله في الإتقان ٢/ ١٠٦٥.
(٢) مفتاح العلوم ص٣٢١.

حيث قال عليه الصلاة والسلام: «وسألتُه أنْ لا يذيقَ بعضَهم بأس بعض، فمنعنيها»[١]، وإلى دعوة إبراهيم عليه السلام في حقِّ أبيه = فإنَّما يتمُّ لو كان المحذورُ ذلك، وإنَّما المحذورُ لزومُ الخلف في خبره تعالى، فقد قال سبحانه وتعالى في «الأنبياء»: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الآية: ٩٠] وهو يدلُّ على أنَّه عليه السلام أُعطي ما سَأل، من غير تفرقةٍ بين بعض وبعض، وكذلك سياقُ الآيات الأُخَر. ولك أنْ تستدلَّ بظاهر هذه الآية على ضعف روايةٍ من زعم أنَّ يحيى هَلك قبل أبيه عليهما السلام.

وأمَّا الإيرادُ بأنَّ ما اختير من الحمل على الاستئناف لا يدفعُ المحذور؛ لأنَّه وصل معنويّ = فليس بشيء؛ لأنَّ الوصلَ ثابتٌ، ولكنه غيرُ داخلٍ في المسؤول؛ لأنَّه بيانُ العلة الباعثة على السؤال، ولا يلزمُ أنْ يكونَ علَّة السؤال مسؤولة. انتهى.

وأجاب بعضُهم بأنَّه حيث كان المراد من الوراثة هنا وراثةَ العلم لا يضرُّ هلاكُه قبل أبيه عليهما السلام؛ لحصول الغرض، وهو أخذ ذلك وإفاضتُه على الغير، بحيثُ تبقى آثاره بعد زكريا عليه السلام زماناً طويلاً، ولا يخفى أنَّ المعروف بقاءُ ذات الوارث بعدَ الموروث عنه.

وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ والزهريُّ والأعمش وطلحة واليزيديُّ وابنُ عيسى الأصفهاني وابن محيصن وقتادة بجزم الفعلين[٢]؛ على أنَّهما جوابُ الدعاء، والمعنى: إن تهبْ لي ذلك يرثني إلخ. والمراد أنه كذلك في ظنِّي ورجائي.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَه وابنُ عباس وجعفر بن محمد ﷺ والحسنُ وابن يعمر والجحدريّ وأبو حرب بن أبي الأسود وأبو نهيك: «يرثُني» بالرفع «وأرث» فعلاً مضارعاً من ورث[٣]، وخُرِّجَ ذلك على أنَّ المعنى يرثني العلم، وأرثُ أنا به الملكَ من آل يعقوب، وذلك بجعل وراثة الوليِّ الملكَ وراثةً لزكريا عليه السلام؛ لأنَّ رفعةَ الولد رفعةٌ للوالد. والواو لمطلق الجمع، وقال بعضهم: والواو للحال، والجملة حالٌ من أحد الضميرين، وقال صاحب «اللوامح»: فيه تقديم، ومعناه:

---

(١) سلف بتمامه في سورة الأنعام، عند تفسير الآية ٦٥.

(٢) قراءة أبي عمرو والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧، وانظر قراءة الباقين في البحر المحيط ٦/ ١٧٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٤.

فهب لي وليًّا من آل يعقوب يرثني النبوَّة إن متُّ قبلَه، وأرثُه مالَه إنْ ماتَ قبلي. وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً.

ونُقل عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وجماعة أنَّهم قرؤوا: «يرثني وارثٌ» برفع وارث بزنة فاعل، على أنَّه فاعل يرثني على طريقة التجريد، كما قال أبو الفتح[(١)] وغيره، أي: يرثني وليٌّ من ذلك الوليِّ أو به، فقد جرَّد من الوليِّ وليًّا، كما تقول: رأيتُ منه أو به أسداً.

وعن الجحدري أنه قرأ: «وارث» بإمالة الواو[(٢)].

وقرأ مجاهد: «أُوَيْرِث» تصغير وارث[(٣)]. وأصله: وويرث، بواوين؛ الأولى فاءُ الكلمة الأصلية، والثانية بدلُ ألف فاعل؛ لأنَّها تقلبُ واواً في التصغير، كضويرب، ولما وقعت الواو مضمومةً قبل أخرى في أوله قلبت همزةً، كما تقرّر في التصريف، ونُقِل عنه[(٤)] أنه قال: التصغير لصغره، فإنَّه عليه السلام لمَّا طلبه في كبره عَلم ولو حَدْساً أنَّه يرثه في صغر سِنِّه، وقيل: للمدحِ. وليس بذاك.

هذا واستدلَّ الشيعةُ بالآية على أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام تُورَث عنهم أموالُهم؛ لأن الوراثةَ حقيقةٌ في وراثة المال، ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، وقد ذكر الجلال السيوطيّ في «الدر المنثور» عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي صالح أنَّهم قالوا في الآية: يرثني مالي[(٥)].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن، أنه ﷺ قال في الآية: «يرحمُ الله تعالى أخي زكريا، ما كان عليه من ورثه»؟[(٦)] وفي رواية: «ما كان عليه ممن يرثُ مالَه»؟.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٣٨.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٠٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤. وزاد الزمخشري نسبتها إلى الجحدري. والذي سينقله المصنف قريباً في تفسير هذه القراءة من كلامه. انظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٤٦.

(٤) أي: عن الجحدري، كما سلف في التعليق السابق.

(٥) في الدر المنثور ٤/ ٢٥٩ عن ابن عباس فقط.

(٦) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٩٧ (١٣٠٣٧).

وقال بعضهم: إنَّ الوراثةَ ظاهرةٌ في ذلك، ولا يجوز هاهنا حملُها على وراثة النبوة؛ لئلَّا يلغو قوله: «واجعله ربِّ رضيًّا»، ولا على وراثة العلم؛ لأنَّه كسبيٌّ، والموروثُ حاصلٌ بلا كسب.

ومذهب أهل السنة أنَّ الأنبياءَ عليه السلام لا يرثون مالاً ولا يورِّثون؛ لما صحَّ عندهم من الأخبار(١). وقد جاء ذلك أيضاً من طريق الشيعة، فقد روى الكليني في «الكافي» عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ العلماءَ ورثة الأنبياء، وذلك أنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنَّما ورَّثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيءٍ منها فقد أخذ بحظٍّ وافر.

وكلمة «إنَّما» مفيدةٌ للحصر قطعاً باعتراف الشيعة، والوراثة في الآية محمولةٌ على ما سمعت، ولا نسلِّم كونَها حقيقةً لغويَّة في وراثة المال، بل هي حقيقةٌ فيما يعمُّ وراثةَ العلم والمنصب والمال، وإنَّما صارت لغلبة الاستعمال في عرف الفقهاء مختصَّةً بالمال، كالمنقولات العرفيَّة، ولو سلَّمنا أنَّها مجاز في ذلك، فهو مجازٌ متعارفٌ مشهورٌ، خصوصاً في استعمال القرآن المجيد، بحيث يساوي الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف:١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠]. قولهم(٢): لا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، قلنا: الداعي متحقِّقٌ، وهي صيانةُ قول المعصوم عن الكذب، ودون تأويله خرط القتاد، والآثار الدالَّة على أنَّهم يورِّثون المال لا يعوَّل عليها عند النقاد.

وزعم البعضُ أنَّه لا يجوزُ حملُ الوراثة هنا على وراثة النبوَّة؛ لئلَّا يلغو قوله: «واجعله رب رضيًّا» قد قدَّمنا ما يُعلم منه ما فيه.

وَزْعمُ أنَّ كسبيةَ الشيء تمنعُ من كونه موروثاً، ليسَ بشيءٍ، فقد تعلَّقت الوراثةُ

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٦٧٢٥) و(٦٧٢٦) و(٦٧٢٧) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة».

(٢) أي: قول الشيعة، وسلف قريباً في الصفحة السابقة.

بما ليس بكسبيٍّ في كلام الصادق، ومن ذلك أيضاً ما رواه الكليني في «الكافي» عن أبي عبد الله ﷺ قال: إن سليمانَ ورثَ داود، وإنَّ محمداً ﷺ ورث سليمان.

فإنَّ وراثة النبيِّ ﷺ سليمانَ عليه السلام لا يتصوَّر أنْ تكونَ وراثةَ غيرِ العلم والنبوَّة ونحوهما. ومما يؤيِّد حملَ الوراثة هنا على وراثة العلم ونحوه دون المال؛ أنَّه ليس في الأنظار العالية والهمم العلياء للنفوس القدسية التي انقطعت من تعلُّقات هذا العالم المتغير الفاني، واتصلت بالعالم الباقي ميلٌ للمتاع الدنيويِّ قدرَ جناح بعوضة، لا سيَّما جنابُ زكريا عليه السلام، فإنَّه كان مشهوراً بكمال الانقطاع والتجرُّد، فيستحيلُ عادةً أن يخاف من وراثة المال والمتاع الذي ليس له في نظره العالي أدنى قدرٍ، أو يُظهِر من أجله الكَلَفَ والحزنَ والخوفَ، ويستدعي من حضرة الحق سبحانه وتعالى ذلك النحو من الاستدعاء، وهو يدلُّ على كمال المحبة وتعلُّق القلب بالدنيا.

وقالت الشيعة: إنَّه عليه السلام خاف أن يَصرف بنو عمِّه مالَه بعد موته فيما لا ينبغي، فطلب له الوارث المرضيَّ لذلك.

وفيه أنَّ ذلك مما لا يخافُ منه؛ إذ الرجل إذا مات وانتقلَ مالُه بالوراثة إلى آخر صارَ المال مال ذلك الآخر، فصرفُه على ذمَّته؛ صواباً أو خطأً، ولا مؤاخذةَ على الميت من ذلك الصرف، بل لا عتاب أيضاً، مع أنَّ دفع هذا الخوف كان ميسَّراً له عليه السلام بأنْ يصرفه قبل موته، ويتصدَّق به كلِّه في سبيل الله تعالى، ويتركَ بني عمِّه الأشرار خائبين؛ لسوء أحوالهم وقبح أفعالهم، وللأنبياء عليهم السلام عند الشيعة خبرٌ بزمن موتهم وتخييرٌ فيه، فما كان له خوفُ موت الفجأة أيضاً؛ فليس قصدُه عليه السلام من مسألة الولد سوى إجراء أحكام الله تعالى، وترويج الشريعة، وبقاء النبوَّة في أولاده، فإنَّ ذلك موجبٌ لتضاعف الأجر إلى حيث شاء الله تعالى من الدهر، ومَنْ أنصفَ لم يتوقَّف في قبول ذلك، والله تعالى الهادي إلى أقوم المسالك.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قيل له، أو قال الله تعالى: يا زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يخاطبه سبحانه وتعالى بذلك بالذات، بل

بواسطة المَلَك كما يدلُّ عليه آيةٌ أخرى(١) على أن يحكي عليه السلام العبارةَ عنه عزَّ وجلَّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وهذا جوابٌ لندائه عليه السلام، ووعدٌ بإجابة دعائه، كما يفهمه التعبيرُ بالبشارة دون الإعطاء أو نحوه.

وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ الآية [٩٠ من سورة الأنبياء]؛ لأنَّه تعقيبٌ عرفيٌّ، كما في: تزوَّج فولد له ولد(٢)، ولأن المراد بالاستجابة الوعدُ أيضاً؛ لأنَّ وعدَ الكريم نقدٌ.

والمشهور أنَّ هذا القولَ كان إثر الدعاء، ولم يكن بين البشارة والولادة إلا أشهر. وقيل: إنَّه رُزِق الولد بعد أربعين سنةً من دعائه. وقيل: بعد ستين.

والغلام: الولد الذكر، وقد يقال للأنثى: غلامة، كما قال:

تُهان لها الغلامة والغلام(٣)

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيدٌ للوعد، وتشريفٌ له عليه السلام، وفي تخصيصه به حسبما يعربُ عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ أي: شريكاً له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحدٌ قبلَه بيحيى، على ما روي عن ابن عباس وقتادة والسُّدِّي وابن أسلم = مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له عليه السلام، وهذا ـ كما قال الزمخشريُّ ـ شاهدٌ على أنَّ الأسماءَ النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جديرةٌ بالأثرة، وإيَّاها كانت العرب تنحى في التسمية، لكونها أنبهَ وأنوهَ وأنزه عن النبز، حتى قال القائل في مدح قوم:

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٣٩].

(٢) لفظة: ولد، ليست في (م).

(٣) هو عجز بيت صدره: ومُركضةٍ صريحيٌّ أبوها.
وهو لأوس بن غلفاء الهجيمي كما في جمهرة اللغة لابن دريد ٣/١٤٩، واللسان (ركض)، وأورده الجاحظ في كتاب الحيوان ١/٣٢٩، والنحاس في معاني القرآن ١/٢٢٣ دون نسبة.

شُنعِ(١) الأسامي مُسْبِلي أُزُرٍ حُمْرٍ تمسُّ الأرضَ بالهُدُبِ

وقيل للصلت بن عطاء: كيف تقدَّمت عند البرامكة، وعندهم من هو آدبُ منك؟ فقال: كنتُ غريب الدار، غريبَ الاسم، خفيف الجرم، شحيحاً بالأشلاء. فذكر مما قدَّمه كونه غريب الاسم.

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد، أنَّ «سميًّا» بمعنى شبيهاً(٢). ورُوي عن عطاء وابن جبير مثله، أي: لم نجعل له شبيهاً، حيث إنَّه لم يَعْصِ ولم يهمَّ بمعصية؛ فقد أخرج أحمد والحكيم الترمذيّ في «نوادر الأصول» والحاكم وابنُ مردويه عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدم إلَّا وقد أخطأ، أو همَّ بخطيئةٍ، إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام لم يهمَّ بخطيئة ولم يعملها»(٣).

والأخبار في ذلك متضافرة، وقيل: لم يكن له شبيه لذلك، ولأنه ولد بين شيخٍ فانٍ وعجوز عاقر.

وقيل: لأنه كان كما وصف الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] فيكون هذا إجمالاً لذلك، وإنما قيل للشبيه سَميّ؛ لأنَّ المتشابهَين يتشاركان في الاسم. ومن هذا الإطلاق قولُه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، لأنَّه الذي يقتضيه التفريع.

والأظهرُ أنَّه اسمٌ أعجميّ؛ لأنَّه لم تكن عادتهم التسمية بالألفاظ العربية، فيكون مَنعَهُ الصرفَ على القول المشهور في مثله العلميَّةُ والعجمة.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وديوان أبي نواس ص٧٧ ـ والبيت له ـ والبحر المحيط ٦/ ١٧٥: شُنع بالشين المعجمة. يقال: اسم شنيع، و: قوم شُنُع الأسامي، من القبح. كما في «أساس البلاغة» (شنع).
ووقع عند الزمخشري في «الكشاف» ٢/ ٥٠٣، والقرطبي في «تفسيره»١٣/ ٤١٨ نقلاً عنه: سُنُع، بالسين المهملة. وهو جمع سَنِع؛ والسَّنَعُ: الجَمال. كما في «القاموس» (سنع).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٦٢، ومسند أحمد (٢٢٩٤)، ونوادر الأصول ص١٨٥، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٩١.

وقيل: إنَّه عربيٌّ، ولتلك العادة مدخلٌ في غرابته، وعلى هذا فهو منقولٌ من الفعل، كـ : يعمر ويعيش، وقد سمَّوا بـ : يموت، وهو يموت بن المزرّع بن أخت الجاحظ[1].

ووجهُ تسميته بذلك على القول بعربيته، قيل: الإشارة بأنَّه يعمَّر، وهذا في معنى التفاؤل بطول حياته، وكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّه عليه السلام يرثُ حسبما سأل زكريا عليه السلام. وقيل: سُمِّي بذلك لأنه حيي به رحم أمِّه. وقيل: لأنَّه حيي بين شيخ فانٍ وعجوز عاقر. وقيل: لأنَّه يحيا بالحكمة والعفة. وقيل: لأنَّه يحيا بإرشاد الخلق وهدايتهم، وقيل: لأنه يستشهد والشهداء أحياء، وقيل غير ذلك.

ثم لا يخفى أنَّه على العربية والعجمة يختلف الوزن والتصغير كما بُيِّن في محلِّه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بواسطة الملك؛ للمبالغة في التضرُّع والمناجاة والجدِّ في التبتُّل إليه عزَّ وجل. وقيل لذلك: والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملَك من توهُّم أنَّ علمه تعالى بما يصدرُ عنه متوقِّفٌ على توسُّطه، كما أنَّ علم البشر بما يصدرُ عنه تعالى متوقِّفٌ على ذلك في عامَّة الأوقات؛ ولا يخفى أنَّ الاقتصار على الأوَّل أولى.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ كلمةُ «أنَّى» بمعنى كيف، أو: من أين.

و«كان» إمَّا تامَّةٌ، و«أنى» واللام متعلقان بها، وتقديمُ الجارِّ على الفاعل؛ لما مرَّ غير مرَّة، أي: كيف، أو: من أين يحدثُ لي غلام؟ ويجوزُ أن يتعلَّق اللام بمحذوف وقع حالاً[2] من «غلام» أي: أنَّى يحدثُ كائناً لي غلام.

أو ناقصةٌ، واسمُها ظاهر، وخبرها إمَّا «أنَّى»، و«لي» متعلِّق بمحذوف، كما مرَّ. أو هو الخبر و«أنَّى» نصب على الظرفية.

---

(١) العلامة الأخباري، أبو بكر العبدي البصري الأديب، له تآليف، مات سنة أربع وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) قوله: حالاً. ليس في الأصل. وانظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٦. والكلام منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حالٌ من ضمير المتكلم، بتقدير «قد»، وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ حالٌ منه مؤكِّدةٌ للاستبعاد إثرَ تأكيد، و«من» للابتداء العِلّيّ، والعِتِيّ من عتا يعتو: اليبسُ والقُحُول[١] في المفاصل والعظام.

وقال الراغب[٢]: هو حالةٌ لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، وقيل: إلى رياضتها، وهي الحالة المشارُ إليها بقول الشاعر:

ومن العَناءِ رياضة الهَرَمِ[٣]

وأصله: عُتُوْوٌ كقعود، فاستثقل توالي الضمتين والواوين، فكُسِرت التاء فانقلبت الأولى ياءً لسكونها وانكسارِ ما قبلها، ثمَّ انقلبت الثانيةُ أيضاً؛ لاجتماع الواو والياء، وسبقِ إحداهما بالسكون، وكسرتِ العين إتباعاً لما بعدَها، أي: كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي، فكيف وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا من أجل كبر السنِّ يبساً وقحولاً، أو حالةً لا سبيل إلى إصلاحها. وقد تقدَّم لك الأقوال في مقدار عمره عليه السلام إذ ذاك.

وأمَّا عمرُ امرأته، فقد قيل: إنَّه كان ثمانٍ وتسعين.

وجُوِّز أنْ تكون «من» للتبعيض، أي: «بَلَغتُ» من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى «عتيًّا». وجعلها بعضُهم بيانيَّةً تجريديَّةً، وفيه بحث.

والجارُّ والمجرور إمَّا متعلِّق بما عنده، أو بمحذوف وقع حالاً من «عتيًّا»، وهو نصب على المفعولية، وأصل المعنى متَّحدٌ مع قوله تعالى في «آل عمران» حكايةً عنه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الآية: ٤٠] والتفاوت في المسند إليه لا يضرُّ، فإن ما بلغَكَ من المعاني فقد بلغتَه. نعم بين الكلامين اختلافٌ من حيثيَّةٍ أخرى لا تخفى،

---

(١) القحول: يبس الجلد على العظم. انظر القاموس (قحل).

(٢) المفردات (عتا).

(٣) هو عجز بيت، صدره:

وتَروضُ عِرسَكَ بعدما هَرِمَتْ

ذكره الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٢٠، وفي الحيوان ١/ ٤١ دون نسبة.

فيحتاجُ اختيار كلٍّ منهما في مقام إلى نكتة، فتدبَّر ذاك. وكذا وجهُ البداءة ها هنا بذكر حال امرأته عليه السلام، على عكس ما في تلك السورة.

وفي «إرشاد العقل السليم»(١): لعلَّ ذلك لما أنَّه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنَّما المذكور ها هنا بلوغُه أقصى مراتب الكبر تتمَّةً لما ذكر قبل، وأما هنالك فلم يَسبق في الدعاء ذكرُ حاله، فلذلك قدَّمه على ذكر حال امرأته؛ لما أنَّ المسارعةَ إلى بيان قصور شأنه أنسب. اهـ.

وقال بعضُهم: يحتملُ تكرُّر الدعاء والمحاورة، واختلاف الأسلوب للتفنُّن، مع تضمُّن كلٍّ ما لم يتضمَّنه الآخر، فتأمل والله تعالى الموفِّق.

والظاهر أنَّه عليه السلام كان يعرف من نفسه أنَّه لم يكن عاقراً، ولذلك ذكر الكبر، ولم يذكر العقر.

وإنَّما قال عليه السلام ما ذُكر مع سبق دعائه بذلك، وقوَّة يقينه بقدرة الله تعالى، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة «آل عمران»؛ استعظاماً لقدرة الله تعالى، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنَّه من محض فضل الله تعالى ولطفه مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادةً، ولم يكن ذلك استبعاداً، كذا قيل.

وقيل: هو استبعادٌ، لكنَّه ليس راجعاً إلى المتكلِّم، بل هو بالنسبة إلى المبطلين، وإنَّما طلب عليه السلام ما يزيل شوكةَ استبعادهم، ويجلبُ ارتداعهم من سيِّئ عادتهم، وذلك ممَّا لا بأس به من النبيِّ، خلافاً لابن المنير. نعم أورد على ذلك أن الدعاء كان خفيًّا عن المبطلين.

وأجيبَ بأنَّه يَحتمل أنَّه جهر به بعد ذلك إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه وطلباً لما ذكر، فتذكر.

وقيل: هو استبعادٌ راجعٌ إلى المتكلم حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة، وكان قد نسي عليه السلام دعاءَه. وهو بعيدٌ جدًّا.

---

(١) ٥/٢٥٦.

وقال في «الانتصاف»(١): الظاهرُ ـ والله تعالى أعلم ـ أنَّ زكريا عليه السلام طلب ولداً على الجملة، وليس في الآية ما يدلُّ أنَّه يوجدُ منه وهو هرم، ولا أنَّه من زوجته وهي عاقر، ولا أنَّه يعادُ عليهما قوَّتُهما وشبابهما، كما فعل بغيرهما، أو يكون الولد من غير زوجته العاقر، فاستبعدَ الولدَ منهما، وهما بحالهما، فاستخبر: أيكون وهما كذلك؟ فقيل له: «كذلك»، أي: يكون الولد وأنتما كذلك.

وتُعقِّب بأنَّ قوله: «فهب لي من لَدُنْكَ» ظاهرٌ في أنَّه طلب الولد وهما على حالةٍ يستحيلُ عادةً منهما الولد.

والظاهر عندي كونه استبعاداً من حيث العادة، أو هو بالنسبة إلى المبطلين، وهو ـ كما في «الكشف» ـ أولى.

وقرأ أكثر السبعة: «عُتيًّا» بضمِّ العين(٢). وقرأ ابن مسعود بفتحها، وكذا بفتح صاد «صليًّا»(٣) [مريم: ٩٠]، وأصلُ ذلك ـ كما قال ابن جنِّيّ ردًّا على قول ابن مجاهد: لا أعرف لهما في العربية أصلاً ـ: ما جاء من المصادر على فعيل، نحو الحويل(٤) والزويل(٥).

وعن ابن مسعود أيضاً ومجاهد أنهما قرأا: «عُسِيًّا» بضمِّ العين وبالسين مكسورة(٦)، وحكى ذلك الدانيّ عن ابن عباس(٧). والزمخشريُّ عن أُبيٍّ ومجاهد(٨). وهو من عسا العودُ يعسو، إذا يبس.

---

(١) ٢/ ٥٠٣.
(٢) وقرأ بكسر العين: حمزة والكسائي وحفص. التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.
(٣) القراءات الشاذة ص٨٣، والمحتسب ٢/ ٣٩، والكلام الآتي منه.
(٤) هو الشاهد، وموضع، والكفيل. القاموس (حول).
(٥) يقال: زال يزول زوالاً وزويلاً وزؤولاً وزَوَلاً وزولاناً، من الذهاب والاستحالة. انظر القاموس المحيط، ولسان العرب (زول).
(٦) القراءات الشاذة ص٨٣.
(٧) البحر المحيط ٦/ ١٧٥.
(٨) الكشاف ٢/ ٥٠٣.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قرأ الحسن: «وهو عليَّ هيِّن» بالواو، وعنه أنَّه كسر ياء المتكلم[1]، كما في قول النابغة:

عليَّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالدِه ليست بذات عقارب[2]

ونحو ذلك قراءة حمزة: «وما أنتم بمصرخيِّ» [إبراهيم: ٢٢] بكسر الياء[3].

والكاف إمَّا رفع على الخبريَّة لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، وضمير «قال» للربِّ عزَّ وجلَّ، لا للملك المبشِّر؛ لئلَّا يُفَكَّ النظم، و«ذلك» إشارةٌ إلى قول زكريا عليه السلام، والخطاب في «قال ربك» له عليه السلام، لا لنبينا ﷺ، بدليل السابق واللاحق، وجملة «هو عليَّ هيِّن» مفعول «قال» الثاني، وجملةُ الأمر كذلك مع جملة «قال ربك» إلخ؛ مفعول «قال» الأول، وإنْ لم يتخلَّل بين الجملتين عاطفٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ الآية [٨٢-٨٣ من سورة المؤمنون]، وكم وكم، وجيء بالجملة الأولى تصديقاً منه تعالى لزكريا عليه السلام، وبالثانية جواباً لما عسى يُتوهَّم من أنَّه إذا كان ذلك في الاستبعاد بتلك المنزلة وقد صَدَّقْتَ فيه، فأنى يتسنى، فهي في نفسها استئنافيةٌ لذلك، ولا يحسنُ تخلُّل العاطف في مثل هاتين الجملتين إذا كان المحكيُّ عنه قد تَكلَّم بهما معاً من غير عاطف؛ ليدلَّ على الصورة الأولى للقول بعينها، وكذلك لا يحسنُ إضمارُ قولٍ آخر؛ لأنه يكون استئنافاً جواباً للمحكيِّ له، فلا يدلُّ على أنَّه استئنافٌ أيضاً في الأول إلَّا بمنفصل، أمَّا لو تكلَّم بهما في زمانين، أو بدون ذلك الترتيب، فالظاهر العطف أو الاستئناف بإضمار القول.

ثم لو كان الاقتصار في جواب زكريا عليه السلام على «هو عليَّ هيِّن» من دون إقحام «قال ربك»، لكان مستقيماً، لكن إنَّما عدل إليه للدلالة على تحقيق الوعد وإزالة الاستبعاد بالكليَّة، على منوال ما إذا وعد مَلِكٌ بعض خواصِّه ما لا يجدُ نفسَه تستأهل ذلك، فأخذ يتعجَّب مستبعداً أن يكون من المَلِك بتلك المنزلة، فحاول أنْ

(١) انظر القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٥.

(٢) ديوان النابغة ص٩.

(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

يحقق مرادَه ويزيلَ استبعادَه، فإمَّا أنْ يقول: لا تستبعد، إنَّه أهونُ شيء عليَّ، على الكلام الظاهر، وإمَّا أن يقول: لا تستبعد، قد قلت: إنه أهونُ شيءٍ عليَّ، إشارةً منه إلى أنَّه وعدٌ سبقَ القول به وتحتَّم، وأنَّه من جلالة القدر بحيث لا يرى في إنجازه لباغيه كائناً من كان وقعاً، فكيف لمن استحقَّ منه لصدق قدمه في عبوديته إجلالاً ورفعاً، وهذا قولٌ بلسان الإشارة يصدق، وإنْ لم يكن قد سبقَ منه نطقٌ به؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ علوَّ المكانة، وسَعة القدرة، وكمال الجود، يقضي بذلك قَبلَ[1] أوَّلاً أوْ لا. ثم إذا أراد ترشيحَ هذا المعنى عدلَ عن الحكاية قائلاً: قد قال من أنت غرسُ نعمائه: إنَّه أهونُ شيءٍ عليّ، ثم إذا حكى الملكُ القصَّة مع بعض خلصائه كان له أن يقول: قلتُ: لعبدي فلان كيتَ وكيت، قال: أنَّى وليت! قلت: قال: من أنت إلخ، وأن يقول بدلَه: قال سيِّد فلانٍ له، ويسرد الحديث، فهذا وِزانُ الآية فيما جَرى لزكريا عليه السلام وحُكيَ لنبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام.

وقد لاح من هذا التقرير أنَّ فواتَ نكتة الإقحام مانعٌ من أن يجعل المرفوع من صلة «قال» الثاني، والمجموعُ صلةَ الأول. والظاهر في توجيه قراءة الحسن على هذا أنَّ جملة «هو عليَّ هيِّن» عطف على محذوفٍ من نحو: أفعل وأنا فاعل، ويجوز أن يقال ـ وربما أشعرَ كلام الزمخشريِّ[2] بإيثاره ـ إنَّه عطف على الجملة السابقة نظراً إلى الأصل؛ لما مرَّ من أن «قال» مقحمٌ لنكتة، فكأنه قيل: الأمرُ كذلك، وهو على ذلك يهون عليّ.

وإما نصب بـ «قال» الثاني[3]، وهي الكاف التي تستعمل مقحمةً في الأمر العجيب الغريب؛ لتثبيته، و«ذلك» إشارةٌ إلى مبهم يفسِّر ما بعدَه، أعني «هو عليَّ هين»، وضمير «قال» للربِّ ـ كما تقدَّم ـ والخطابُ لنبيِّنا ﷺ أيضاً، أي: قال ربُّ زكريا له: قال ربُّك: مثلُ ذلك القول العجيب الغريب هو عليَّ هينٌ، على أنَّ «قال» الثاني مع ما في صلته مقولُ القول الأوَّل، وإقحامُ القول الثاني لما سلف، ولا ينصب الكافُ بـ «قال» الأول، وإلَّا لكان «قال» ثانياً تأكيداً لفظيًّا؛ لئلَّا يقعَ

---

(١) في الأصل و(م): قيل. ولعلَّ المثبت هو الصواب.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٠٤.

(٣) هذا عطفٌ على قوله السالف: والكاف إمَّا رفع على الخبرية...

الفصل بين المفسِّر والمفسَّر بأجنبيٍّ، وهو ممتنع، إذ لا ينتظمُ أنْ يقال: قال ربُّ زكريا: قال ربُّكَ. ويكونُ الخطاب لزكريا عليه السلام والمخاطَبُ غيره، كيف وهذا النوع من الكلام يقعُ فيه التشبيه مقدَّماً لا سيما في التنزيل الجليل من نحو ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٠] إلى غير ذلك، وهذا الوجه لا يتمشَّى في قراءة الحسن؛ لأنَّ المفسَّر لا يدخله الواو، ولا يجوزُ حذفه حتى يجعل عطفاً عليه؛ لأنَّ الحذفَ والتفسير متنافيان.

وجوَّزَ على احتمال النصب أنْ تكون الإشارةُ إلى ما تقدَّم من وعد الله تعالى إيَّاه عليه السلام بقوله: «إنَّا نبشرك» إلخ، أي: قال ربُّه سبحانه له: قال ربُّك مثل ذلك، أي: مثل ذلك القول العجيب الذي وُعِدتَه وعرفته، وهو: «إنَّا نبشرك» إلخ، وأداةُ التشبيه مقحمةٌ كما مرَّ، فيكونُ المعنى: وَعد ذلك وحقَّقه وفرغ منه، فكن فارغَ البال من تحصيله على أوثق بال، ثم قال: «هو عليَّ هيِّن» أي: قال ربُّك: هو عليَّ هيِّن، فيضمر القول ليتطابقا في البلاغة، ولأنَّ قولَه مثل ذلك مفردٌ فلا يحسن أن تقرنَ الجملة به، وينسحبُ عليه ذلك القول بعينه، بل إنَّما يضمر مثله استئنافاً إيفاءً بحقِّ التناسب. وإن شئت لم تنوِ ليكونَ محكيًّا منتظماً في سلك: «قال ربك» منسحباً عليه القول الأول، أي: قال ربُّ زكريا له: هو عليَّ هين. لأنَّ الله تعالى هو المخاطِب لزكريا عليه السلام، فلا منعَ من جعله مقولَ القول الأول من غير إضمار؛ لأنَّ القولين ـ أعني: قال ربُّك: مثل ذلك هو عليَّ هيِّن ـ صادران معاً محكيَّان على حالهما.

ولو قُدِّرا أنَّ المخاطِبَ غيرُه تعالى ـ أعني الملك ـ تعيَّن إضمارُ القول؛ لامتناع أنْ يكون «هو علي هيِّن» من مقولِه، فلا ينسحبُ عليه الأول.

وأمَّا على قراءة الحسن، فإنْ جعل عطفاً على «قال ربك» لم يحتج إلى إضمار؛ لصحَّة الانسحاب، وإن أريدَ تأكيدُه أيضاً قُدِّرَ القول؛ لئلَّا تفوتَ البلاغة ويكون التناسبُ حاصلاً. وجعلُه عطفاً على ما بعد «قال» الثاني من دون التقدير يفوتُ به رعايةُ التناسب لفظاً، فإنَّ ما بعدَه مفردٌ، والملائمة معنًى لما عرفت أنْ لا قولَ على الحقيقة، والمعنى: قال ربُّه: قد حُقِّق الموعودُ، وفُرِغ عنه، فلا بدَّ من تقديره على: «هو عليَّ هين»؛ ليفيد تحقيقه أيضاً.

ولو قدر أنَّ المخاطِب غيره تعالى تعيَّن الإضمار؛ لعدم الانسحاب دونَه. فافهم.

وهذا ما حقَّقه صاحب «الكشف» وقرَّر به عبارةَ «الكشاف» بأدنى اختصار، ثمَّ ذكر أنَّ خلاصةَ ما وجده من قول الأفاضل أنَّ التقديرَ على احتمال أنْ تكون الإشارةُ إلى ما تقدَّم من الوعد: قال ربُّ زكريا له، قال ربُّك قولاً مثلَ قوله سبحانه السابق عِدَةً في الغرابة والعجب، فاتَّجه له عليه السلام أنْ يَسأل: ماذا قلت يا رب، وهو مثله؟ فيقول: «هو عليَّ هين» أي: قلت، أو قال ربك. والأصل على هذا التقدير: قلتُ قولاً مثلَ الوعد في الغرابة، فعدل إلى الالتفات أو التجريد ـ أيًّا شئتَ تسمِّيه ـ لفائدته المعلومة. وليس في الإتيان بأصل القول خروجٌ عن مقتضى الظاهر، إذ لا بدَّ منه لينتظم الكلام، وذلك لأنَّ المعنى على هذا التقدير: ولا تعجب من ذلك القول، وانظر إلى مثله واعجب، فقد قلناه. وكذلك يتَّجه لنبينا ﷺ السؤال، فيجاب بأنَّه قال له ربه: «هو عليَّ هين»، وصحَّةُ وقوعه جواباً عن سؤال نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو الأظهر على هذا الوجه؛ لأنَّ الكلام معه.

وإذ قد صحَّ أن يُجعلَ جواباً له جازَ إضمارُ القول، لأنَّه جوابٌ له ﷺ بما يدلُّ على أنه خوطِب به زكريا عليه السلام أيضاً، وجاز أنْ لا يضمر؛ لأنَّ المخاطِب لهما واحدٌ، والخطابُ مع نبينا ﷺ، وعُلِم من ضرورة المماثلة أنَّه قيل لزكريا أيضاً هذه المقالة، ولو كان الحاكي والقائل الأول مختلفين في هذه الصورة لم يكن بدٌّ من إضماره؛ لأنَّه إذا قال عمرو لبكر: ماذا قال زيدٌ لخالد مما يماثل مقالتَه السابقة له؟ فيقول: إنَّك محبَّبٌ مرضيٌّ، وجب أن يكون التقدير: قال زيد لخالد هذه المقالة لا محالة، ولا بعد في تنزيل كلام الزمخشريِّ عليه، وهذا ما لوَّح إليه صاحب «التقريب» وآثره الإمام الطيبيّ، وفيه فوات النكتة المذكورة في «قال ربك» ثمَّ إنَّه إن لم يكن سبق القول كان كذباً من حيث الظاهر، إذ ليس من القول بلسان الإشارة إلَّا أن يُؤوَّلَ بأنَّه مستقبلٌ معنًى، هذا والكلام مسوقٌ لما يزيل الاستبعاد ويحقِّق الموعود المرتاد، وفي ذلك التقدير خروجٌ عنه إلى معنًى آخر ربما يستلزمُ هذا المعنى تبعاً، وما سيق له الكلام ينبغي أنْ يجعل الأصل. انتهى.

وهو كلام تحقيقٍ وتدقيق لا يرشدُ إليه إلَّا توفيق. وفي الآية وجهٌ آخر هو ما أشار إليه صاحب «الانتصاف».

و«هين» فَيعِل، من هان الشيء يهون إذا لم يصعب، والمراد: إنِّي كاملُ القدرةِ على ذلك إذا أردتُه كان.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ تقريرٌ لما قبل، والشيء هنا بمعنى الموجود، أي: ولم تَكُ موجوداً، بل كنتَ معدوماً، والظاهر أنَّ هذا إشارةٌ إلى خلقه بطريق التولُّد[1] والانتقال في الأطوار، كما يُخلق سائر أفراد الإنسان.

وقال بعض المحققين: المراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، فكأنَّه قيل: وقد خلقتُك من قبلُ في تضاعيف خلق آدم، ولم تكُ إذ ذاك شيئاً أصلاً، بل كنت عدماً بحتاً، وإنَّما لم يقل: وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يكُ شيئاً، مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام؛ لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، من حيث نبَّه على أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه السلام من العدم؛ لأنَّه عليه السلام أُبدِع أنموذجاً منطوياً على سائر آحاد الجنس، فكان إبداعُه على ذلك الوجه إبداعاً لكلِّ أحدٍ من فروعه كذلك.

ولما كان خلقُه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع ذريَّته أبدعَ من أن يكون مقصوراً على نفسه ـ كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ـ وأدلَّ على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته، وكان عدم زكريا حينئذٍ أظهر عنده، وكان حاله أولى بأن يكون معياراً لحال ما بُشِّر به = نُسِب الخلقُ المذكور إليه، كما نُسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] توفيةً لمقام الامتنان حقَّه. انتهى.

ولا يخلو عن تكلُّف.

وجُوِّز أن يكون الشيءُ بمعنى المعتدِّ به، وهو مجازٌ شائع، ومنه قول المتنبي:

---

(١) في (م): التوالد.

وضاقت الأرضُ حتى كان هاربهم إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنَّه رجلا[١]

وقولهم: عجبت من لا شيء. وليس بشيء، إذ يأباه المقام، ويردُّه نظم الكلام.

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وحمزة والكسائي: «خلقناك»[٢].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقُّق المسؤول ووقوع الخبر، وكأن هذا السؤال ـ كما قال الزَّجَّاج ـ لتعريف وقت العلوق، حيث كانت البشارة مطلقةً عن تعيينه، وهو أمرٌ خفيٌّ لا يوقف عليه، لا سيما إذا كانت زوجته ممن انقطعَ حيضها لكبرها، وأراد أن يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها، ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهوراً معتاداً. وقيل: طلب ذلك ليزداد يقيناً وطمأنينةً، كما طلب إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى لذلك، والأول أولى.

وبالجملة لم يطلبه لتوقُّفٍ منه في صدق الوعد، ولا لتوهُّم أنَّ ذلك من عند غير الله تعالى.

ورواية هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا تصحُّ؛ لعصمة الأنبياء عليهم السلام عن مثل ذلك.

وذُكِر أنَّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهةٌ من الزمان؛ لما روي أنَّ يحيى كان أكبر من عيسى عليهما السلام بستة أشهر، أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنَّ دعاءه عليه السلام كان في صغر مريم؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] وهي إنَّما ولدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشر سنين، أو بنتُ ثلاث عشرة سنة.

والجعل إبداعيٌّ، واللام متعلِّقة به، والتقديم على «آية» الذي هو المفعول؛ لما تقدَّم مراراً. أو بمحذوف وقع حالاً من «آية».

---

(١) ديوان المتنبي ٣/ ٢٨٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٥، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.

وقيل: بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين؛ أوَّلهما: «آية»، وثانيهما: الظرف وتقديمه؛ لأنَّه لا مسوغ لكون «آية» مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورود الناسخ.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ لا تقدرَ على تكليمهم بكلامهم المعروف في محاوراتهم.

روي عن ابن زيد[1] أنَّه لما حملت زوجتُه عليه السلام أصبحَ لا يستطيعُ أن يكلِّم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، فإذا أراد مناداة أحدٍ لم يطقها.

﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيامهنَّ؛ للتصريح بالأيام في سورة «آل عمران»، والقصَّة واحدة. والعربُ تتجوَّزُ أو تكتفي بأحدهما عن الآخر كما ذكره السيرافيّ، والنكتة في الاكتفاء بالليالي هنا وبالأيَّام ثمَّة ـ على ما قيل ـ أنَّ هذه السورة مكيَّةٌ سابقةُ النزول، وتلك مدنيَّةٌ، والليالي عندهم سابقةٌ على الأيام؛ لأنَّ شهورَهم وسنيَّهم قمريَّة، إنَّما تُعرف بالأهلة، ولذلك اعتبروها في التاريخ كما ذكره النحاة، فأعطي السابق للسابق.

و «الليالي» جمع: ليل، على غير قياس، كأهل وأهال، أو جمع: ليلاة، ويجمع أيضاً على: ليايل.

﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ حالٌ من فاعل «تكلم» مفيدٌ لكون انتفاء التكلُّم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض، أي: يتعذَّر عليك تكليمهم، ولا تطيقُه حال كونك سويَّ الخَلق، سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بكمٍ ولا خرس، وهذا ما عليه الجمهور.

وعن ابن عباس أنَّ «سويًّا» عائدٌ على الليالي، أي: كاملات مستويات، فيكون صفةً لـ «ثلاث».

وقرأ ابن أبي عبلة وزيدُ بن علي رضي الله عنهما: «أن لا تكلمُ»[2] بالرفع، على أنَّ «أن»المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: أنه لا تكلَّمُ.

---

(١) في الأصل و(م): أبي زيد. والتصويب من المصادر.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: من المصلَّى، كما روي عن ابن زيد، أو من الغرفة، كما قيل.

وأصل المحراب ـ كما قال الطبرسيُّ ـ مجلسُ الأشراف الذي يُحارَب دونه ذبًّا عن أهله(١).

ويسمَّى محلُّ العبادة محراباً؛ لما أن العابد كالمحارب للشيطان فيه. وإطلاق المحراب على المعروف اليوم في المساجد لذلك، وهو محدثٌ لم يكن على عهد رسول الله ﷺ. وقد ألَّف الجلال السيوطي في ذلك رسالةً صغيرةً سمَّاها: «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب».

رُوي أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلُّوا، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيِّراً لونُه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أومأ إليهم وأشار، كما روي عن قتادة وابن منبه والكلبيِّ والقرطبيّ(٢)، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد. ويشهدُ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

وروي عن ابن عباس: كتب لهم على الأرض: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ وهو الروايةُ الأخرى عن مجاهد، لكن بلفظ: على التراب، بدل على الأرض.

وقال عكرمة: كتب على ورقة. وجاء إطلاقُ الوحي على الكتابة في كلام العرب، ومنه قول عنترة:

كوحي صحائفٍ من عهد كسرى فأهداها لأعجم طِمْطِمِي(٣)

وقول ذي الرمة:

سوى الأربع الدُّهم اللواتي كأنَّها بقيَّة وحي في بطون الصحائف(٤)

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ١٧.
(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٤٢١.
(٣) ديوان عنترة ص٢٦٨ ـ طبعة المكتب الإسلامي.
قال شارحه: شبَّه ما بقي من آثار الدار بكتاب في صحائف... لأعجم طمطمي: وهو الذي لا يكاد يفصح.
(٤) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٦٢٢. وفيه: ألَلأربع، بدل: سوى الأربع.

و«أن» إمَّا مفسِّرة، أو مصدريَّة فتقدر قبلها الباء الجارَّة. والمراد بالتسبيح الصلاة مجازاً، بعلاقة الاشتمال، وهو المرويُّ عن ابن عباس وقتادة وجماعة. و«بكرةً وعشيًّا» ظرفا زمان له. والمراد بذلك ـ كما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية ـ: صلاة الفجر وصلاة العصر(١).

وقال بعض: التسبيحُ على ظاهره، وهو التنزيه، أي: نزِّهوا ربَّكم طرفي النهار، ولعله عليه السلام كان مأموراً بأنْ يسبِّح شكراً ويأمرَ قومه.

وقال صاحب «التحرير والتحبير»(٢): عندي في هذا معنًى لطيفٌ، وهو أنَّه إنَّما خَصَّ التسبيحَ بالذكر؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ أنَّ كلَّ من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديعَ صنعة أو غريب حكمة. يقول: سبحان الله تعالى، سبحان الخالق، جلَّ جلاله، فلمَّا رأى حصولَ الولد من شيخٍ وعاقر عجب من ذلك، فسبَّح وأمر بالتسبيح(٣). اهـ.

فأمرُهم بالتسبيح إشارةٌ إلى حصول أمر عجيب.

وقيل: إنَّه عليه السلام كان قد أخبر قومَه بما بُشِّر به قبل جعل العلَامة، فلما تعذَّر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بُشِّر به من الأمر العجيب، فسرُّوا بذلك.

وقرأ طلحة: «أن سبحوه» بهاء الضمير عائدةً إلى الله تعالى، وروى ابن غزوان عن طلحة: «أن سبحنَّ» بنون مشددة(٤).

﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ على تقدير القول وكلام آخر حُذف مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: فلمَّا ولد وبلغ سنًّا يؤمَرُ مثله فيه قلنا: «يا يحيى» ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠. وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٠ (١٣٠٥٩).

(٢) هو التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير للشيخ العلامة جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان، المعروف بابن النقيب المقدسي الحنفي، المتوفى سنة ثمان وتسعين وست مئة. وهو كبير في نيف وخمسين مجلداً. كشف الظنون ١/ ٣٥٨ ويكثر أبو حيان رحمه الله في «البحر» النقل عن «التحرير والتحبير». انظر مقدمة البحر المحيط١/ ١١ و«التفسير والمفسرون» ١/ ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

أي: التوراة، وادَّعى ابن عطيَّة الإجماع على ذلك[١]؛ بناءً على أن «أل» للعهد ولا معهود إذ ذاك سواها، فإنَّ الإنجيل لم يكن موجوداً حينئذٍ، وليس كما قال، بل قيل: له عليه السلام كتابٌ خُصَّ به كما خُصَّ كثيرٌ من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك. وقيل: المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام. وقيل: المراد الجنس، أي: كتب الله تعالى.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واستظهار وعملٍ بما فيه. وقائلُ ذلك هو الله تعالى على لسان الملَك، كما هو الغالب في القول للأنبياء عليهم السلام.

وأبعدَ التبريزيُّ فقدَّر: قال له أبوه حين ترعرع ونشأ: «يا يحيى» إلخ. ويزيدُه بعداً قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلميُّ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال في ذلك: «أعطي الفهمَ والعبادة وهو ابنُ سبع سنين»[٢].

وجاء في روايةٍ أخرى عنه مرفوعاً أيضاً: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب. فقال: أَلِلَّعب خُلِقْنا، اذهبوا نصلِّي[٣]، فهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾»[٤].

والظاهر أنَّ الحكم على هذا بمعنى الحكمة.

وقيل: هي بمعنى العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسة الصادقة. وقيل: النبوَّة، وعليه كثير. قالوا: أوتيَها وهو ابنُ سبع سنين، أو ابن ثلاث، أو ابن سنتين. ولم ينبَّأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين.

والجملة عطفٌ على قلنا المقدَّر. ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطفٌ على «الحكم»، وتنوينه للتفخيم، وهو في الأصل من: حَنَّ، إذا ارتاح واشتاق، ثمَّ استعمل في الرحمة والعطف، ومنه الحنان لله تعالى، خلافاً لمن منع إطلاقه عليه عزَّ وجلَّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧. وعبارته ثمة: و«الكتاب»: التوراة بلا اختلاف...

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠، والفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٠٢.

(٣) في الأصل: فصلى.

(٤) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ٢٦١. وعزاه للحاكم في «تاريخه».

وإلى تفسيره بالرحمة هنا ذهب الحسن وقتادة والضحاك وعكرمة والفرَّاء وأبو عبيدة، وهو روايةٌ عن ابن عباس[١]، ويروى أنَّه أنشدَ في ذلك لابن الأزرق قول طرفة:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض[٢]

وأنشد سيبويه قولَ المنذر بن درهم الكلبيِّ:

وأحدثُ عهدٍ من أمينة نظرةٌ على جانب العلياء إذ أنا واقفُ

تقول: حنانٌ ما أتى بك هاهنا أذو نسبٍ أم أنت بالحيِّ عارفُ[٣]

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً مؤكِّدةً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي: وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه كائنةً من جنابنا، وهذا أبلغُ من: ورحمناه. وروي هذا التفسير عن مجاهد.

وقيل: المراد: وآتيناه رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرهما، وفائدةُ الوصف على هذا الإشارةُ إلى أنَّ ذلك كان مرضيًّا لله عزَّ وجلَّ، فإنَّ من الرحمة والشفقة ما هو غير مقبولٍ، كالذي يؤدِّي إلى ترك شيءٍ من حقوق الله سبحانه، كالحدود مثلاً. أو الإشارةُ إلى أنَّ تلك الرحمة زائدةٌ على ما في جبلَّة غيره عليه السلام؛ لأنَّ ما يهبه العظيمُ عظيمٌ. وأورد على هذا أنَّ الإفراطَ مذمومٌ كالتفريط، وخيرُ الأمور أوسطها. ورُدَّ بأنَّ مقامَ المدح يقتضي ذلك، ورُبَّ إفراطٍ يحمدُ من شخصٍ ويذمُّ من آخر، فإنَّ السلطان يهبُ الألوفَ، ولو وهبها غيره كان إسرافاً مذموماً.

وعن ابن زيد أنَّ الحنان هنا المحبة، وهو روايةٌ عن عكرمة، أي: وآتيناه محبَّةً من لدنَّا، والمراد ـ على ما قيل ـ جعلناه محبَّباً عند الناس، فكلُّ من رآه أحبَّه، نظير

---

(١) البحر المحيط٦/ ١٧٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢.

(٢) إجابة ابن عباس لنافع الأزرق أوردها السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ٢٦١، وعزاها للطستي. وبيت طرفة في ديوانه ص١٧٢، طبعة مجمع اللغة العربية.

(٣) ذكر سيبويه في «الكتاب» ١/ ٣٢٠ البيت الثاني دون نسبة. ولفظه عنده: فقالت حنان. . .
وهما منسوبين في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/ ٢٣٥، وخزانة الأدب ٢/ ١١٢-١١٤.
ووقع في الكتاب، والخزانة: أمية، بدل: أمينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩] وجوَّز بعضُهم أن يكون المعنى نحو ما تقدم على القول السابق.

وقيل: هو منصوبٌ على المصدريَّة، فيكون من باب: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت:١٢].

وجوَّزَ أن يجعل مفعولاً لأجله، وأن يُجعل عطفاً على «صبيًّا»، وذلك ظاهرٌ على تقدير أن يكون المعنى: رحمةً لأبويه وغيرهما، وعلى تقدير أن يكون: وحناناً من الله تعالى عليه، لا يجيءُ الحال، وباقي الأوجه بحاله. ولا يخفى على المتأمِّل الحالُ، على ما روي عن ابن زيد.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: بركةً، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس(١). وهو عطفٌ على المفعول، ومعنى إيتائه البركة ـ على ما قيل ـ جعلُه مباركاً نفَّاعاً معلِّماً للخير.

وقيل: الزكاة: الصدقة، والمراد ما يتصدَّقُ به. والعطف على حاله، أي: آتيناه ما يَتصدَّق به على الناس. وهو كما ترى.

وقيل: هي بمعنى الصدقة، والعطف على الحال، والمراد: آتيناه الحكم حال كونه متصدِّقاً به على أبويه، وروي هذا عن الكلبيِّ وابن السائب. وجُوِّزَ عليه العطف على «حناناً» بتقدير العلِّيَّة. وقيل: العطفُ على المفعول. ومعنى إيتائه الصدقة عليهما كونُه عليه السلام صدقةً عليهما.

وعن الزجَّاج: هي الطهارة من الذنوب(٢).

ولا يضرُّ في مقام المدح الإتيانُ بألفاظٍ ربَّما يُستغنى ببعضها عن بعض.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ مطيعاً متجنِّباً عن المعاصي. وقد جاء في غير ما حديثٍ أنَّه عليه السلام ما عمل معصيةً ولا همَّ بها.

وأخرج مالك وأحمد في «الزهد» وابنُ المبارك وأبو نعيم عن مجاهد قال: كان طعامُ يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب، وإنَّه كان ليبكي من خشية الله تعالى،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦١، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠١ (١٣٠٦٤).
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٢.

حتى لو كان القار على عينه لخرقه[١]، وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه[٢].

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ كثير البرِّ بهما والإحسان إليهما؛ والظاهر أنَّه عطف على خبر «كان». وقيل: هو من باب:

علفتُها تبنًا وماءً باردا[٣]

والمراد: وجعلناه برًّا. وهو يناسبُ نظيره حكايةً عن عيسى عليه السلام.

وقرأ الحسن وأبو جعفر في رواية وابن نهيك وأبو مجلز: «وَبِرًّا» في الموضعين بكسر الباء، أي: وذا برٍّ[٤].

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبِّراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له، أو متطاولاً على الخَلْق. وقيل: الجبَّار هو الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا.

وعن ابن عباس أنَّه الذي يقتلُ ويضرب على الغضب.

وقال الراغب: هو في صفة الإنسان يقال لمن يَجبرُ نقيصَته بادِّعاء منزلة من التعالي لا يستحقُّها[٥].

﴿عَصِيًّا ۝١٤﴾ مخالفاً أمرَ مولاه عزَّ وجلَّ. وقيل: عاقًّا لأبويه، وهو فعول، وقيل: فعيل. والمراد المبالغةُ في النفي، لا نفي المبالغة.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ قال الطبريُّ: أمانٌ من الله تعالى عليه[٦] ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من وحشة فراق الدنيا، وهول المطلع،

---

(١) في مطبوع «حلية الأولياء»، وتاريخ دمشق ٦٤/ ١٩٨-٢٠١: لحرقه. وفي الدر المنثور ٤/ ٢٦٣: لأحرقه.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٧٧- زوائد نعيم)، والزهد لأحمد ص١١٤، وحلية الأولياء ٣/ ٢٩٠ من طريق مالك عن حميد الأعرج عن مجاهد.
ولم يعزه السيوطي في الدر المنثور لمالك، ولم نقف عليه في الموطأ.

(٣) سلف ٥/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٧٧.

(٥) المفردات (جبر).

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١.

وعذاب القبر. وفيه دليلٌ على أنَّه يقال للمقتول: ميت؛ بناءً على أنَّه عليه السلام قُتل لبغيٍّ من بغايا بني إسرائيل.

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ من هول القيامة وعذاب النار. وجيء بالحال للتأكيد. وقيل: للإشارة إلى أنَّ البعث جسمانيٌّ لا روحانيّ، وقيل: للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء.

وقال ابنُ عطية[1]: الأظهرُ أنَّ المراد بالسلام التحية المتعارفة، والتشريفُ بها لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة، وقلة الحيلة، والفقر إلى الله عزَّ وجلَّ.

وجاء في خبر رواه أحمد في «الزهد» وغيره عن الحسن: أنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام التقيا ـ وهما أبناء الخالة ـ فقال يحيى لعيسى: ادعُ الله تعالى لي فأنت خيرٌ مني، فقال له عيسى: بل أنت ادعُ لي فأنت خيرٌ مني، سلَّم الله تعالى عليك، وإنَّما سلَّمتُ على نفسي[2].

وهذه الجملة ـ كما قال الطيبيّ ـ عطفٌ من حيث المعنى على «آتيناه الحكم» كأنه قيل: وآتيناه الحكم صبيًّا وكذا وكذا، وسلَّمناه أو سلمنا عليه في تلك المواطن. فعدل إلى الجملة الاسميَّة؛ لإرادة الدوام والثبوت، وهي كالخاتمة للكلام السابق.

ومن ثم شرع في قصَّة أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ فهو كلامٌ مستأنفٌ خوطب به النبيُّ ﷺ، وأُمر عليه الصلاة والسلام بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا عليه السلام؛ لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة.

والمراد بالكتاب عند بعض المحققين[3] السورة الكريمة، لا القرآن كما عليه الكثير؛ إذ هي التي صُدِّرت بقصَّة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصصِ الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: نبأها، فإنَّ الذكر لا يتعلَّق بالأعيان.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٨.

(٢) الدر المنثور ٩/ ٢٦٢، وأخرجه أحمد في الزهد ص٩٦.

(٣) هو أبو السعود، كما في تفسيره ٥/ ٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ ظرفٌ لذلك المضاف، لكن لا على أن يكون المأمورُ به ذكرَ نبئها عند انتباذها فقط، بل كلٌّ ما عطف عليه وحكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيِّز الظرف، متمِّمٌ للبناء.

وجعله أبو حيَّان ظرفاً لفعل محذوف، أي: واذكر مريم وما جرى لها إذ انتبذَت(١). وما ذكرناه أولى.

وقيل: هو ظرفٌ لمحذوف وقع حالاً من ذلك المضاف. وقيل: بدل اشتمال من «مريم»؛ لأنَّ الأحيان مشتملةٌ على ما فيها، وفيه تفخيمٌ لقصتها العجيبة(٢).

وتعقَّبه أبو البقاء بأنَّ الزمانَ إذا لم يقع حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفة لها لم يكن بدلاً منها(٣).

وردَّ بأنه لا يلزم من عدم صحة ما ذُكر عدمُ صحة البدلية، ألا ترى: سُلِبَ زيدٌ ثوبُه، كيف صحَّ فيه البدلية، مع عدم صحة ما ذكر في البدل، وكون ذلك حال الزمان فقط غيرُ بيِّن ولا مبيَّن.

وقيل: بدل كلٍّ من كلّ، على أنَّ المراد بـ «مريم» قصَّتها، وبالظرف الواقع فيه. وفيه بعد.

وقيل: «إذ» بمعنى «أن» المصدريَّة، كما في قوله: لا أكرمتكَ إذ لم تكرمني، أي: لأنْ لم تكرمني، أي: لعدم إكرامك لي. وهذا قولٌ ضعيفٌ للنحاة.

والظاهر أنها ظرفيَّة أو تعليلية إن قلنا به، ويتعيَّن على ذلك بدلُ الاشتمال.

والانتباذ: الاعتزال والانفراد، وقال الراغب: يقال: انتبذَ فلانٌ: اعتزلَ اعتزالَ من تقلُّ(٤) مبالاتُه بنفسه فيما بين الناس. والنبذُ: إلقاءُ الشيء وطرحه لقلَّة الاعتداد به.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٧.

(٢) هو قول الزمخشري. انظر الكشاف ٢/ ٥٠٤-٥٠٥.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١١ (مصورة دار الكتب العلمية).

(٤) في مطبوع المفردات (نبذ): من لا يقل.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «انتبذت»، وقوله سبحانه: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ قيل: نصب على الظرف، وقيل: مفعولٌ به لـ «انتبذت» باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان المترتِّب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل في الجارِّ والمجرور، وهو السرُّ في تأخيره عنه. واختاره بعضُ المحقِّقين(١).

أي: اعتزلت وانفردَت من أهلها، وأتت مكاناً شرقيًّا من بيت المقدس، أو من دارها؛ لتتخلَّى هناك للعبادة.

وقيل: قعدت في مشرقة؛ لتغتسلَ من الحيض، محتجبةً بحائطٍ، أو بجبلٍ على ما رُوي عن ابن عباس. أو بثوب على ما قيل، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ وكونه شرقيًّا كان أمراً اتفاقيًّا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنَّ أهل الكتاب كُتب عليهم الصلاة إلى البيت، والحجُّ إليه، وما صرفهم عنه إلا قِيلُ ربِّك: «فانتبذتْ من أهلها مكاناً شرقيًّا» فلذلك صلَّوا قِبَل مطلع الشمس.

وفي روايةٍ: إنَّما اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً؛ لأنَّ مريم انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًّا(٢). وقد قدَّمنا عن بعضٍ أنَّهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام يستقبلون بيتَ المقدس، وأنهم ما استقبلوا الشرقَ إلَّا بعد رفعه عليه السلام؛ زاعمين أنَّه ظهر لبعض كبارهم، فأمرَه بذلك.

وجُوِّزَ أن يكون اختاره الله تعالى لها؛ لأنَّه مطلع الأنوار، وقد علم سبحانه أنَّه حان ظهور النور العيسويّ منها، فناسب أنْ يكون ظهورُ النور المعنوي في جهة ظهور النور الحسيّ. وهو كما ترى.

وروي أنَّه كان موضعها في المسجد، فإذا حاضت تحوَّلت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها المَلَكُ عليه السلام في صورة شابٍّ أمرد، وضيءِ الوجه، جعد الشعر، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٩. وعنه نقل المصنف.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٤-٢٦٥، والأثر في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٢ (١٣٠٧٣)، (١٣٠٧٢).

﴿إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبرائيل عليه السلام، كما قاله الأكثر. وعبَّر عنه بذلك؛ لأنَّ الدين يحيا به وبوحيه. فهو مجاز. والإضافةُ للتشريف، كبيت الله تعالى.

وجُوِّز أن يكون ذلك كما تقول لحبيبك: أنت روحي؛ محبةً له وتقريباً. فهو مجازٌ أيضاً، إلَّا أنَّه مخالفٌ للأول في الوجه، والتشريف عليه في جعله روحاً.

وقال أبو مسلم: المراد من الروح عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وضمير «تمثَّل» الآتي للمَلَك. وليس بشيء.

وقرأ أبو حيوة وسهل: «رَوحنا» بفتح الراء[١]. والمراد به جبريلُ عليه السلام أيضاً؛ لأنه سببٌ لما فيه روح العباد، وإصابة الروح عند الله تعالى الذي هو عِدة المقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩]، أو لأنه عليه السلام من المقرَّبين وهم الموعودون بالروح، أي: مقرَّبنا أو ذا روحنا.

وذكر النقاش أنه قُرئ: «روحنَّا» بتشديد النون، اسم مَلَك من الملائكة عليهم السلام[٢].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ مشتق من المثال، وأصلُه: أن يتكلَّف أنْ يكون مثالَ الشيءِ، والمراد: فتصوَّر لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ سويَّ الخلق كامل البنية لم يفقد من حِسان نعوت الآدميَّة شيئاً.

وقيل: تمثَّل في صورة تِرْبٍ[٣] لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس، وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماته، إذ لو بدا لها على الصورة الملكيَّة لنفرت منه ولم تستطع مفاوضتَه، وما قيل من أنَّ ذلك لتهييج شهوتها فتنحدرَ نطفتُها إلى رحمها، فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزَّه مريمُ عنها يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ فإنّه شاهد عدل بأنَّه لم يخطر ببالها شائبةُ ميلٍ ما إليه، فضلاً عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٠، وذكرها في الكشاف ٢/ ٥٠٥ ونسبها لأبي حيوة فقط.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٠.

(٣) في الأصل و(م): قريب. والمثبت من الكشاف ٢/ ٥٠٥، وتفسير الرازي ٢١/ ١٩٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٠، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٠. والتِّرْب: اللِّدَة والسِّنُّ، ومن وُلدَ معك، وهي تربي. القاموس (ترب).

نعم كان تمثُّله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق؛ لأنَّ عادة الملَك إذا تمثَّل أن يتمثَّل بصورة بشرٍ جميل، كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية رضي الله عنه[(١)].

أو لابتلائها وسبر عفَّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غايةَ وراءه. وإرادةُ القائل أنَّه وقع كذلك ليكون مظنَّةً لما ذُكر فيظهر خلافُه فيكون أقوى في نزاهتها = بعيدٌ جدًّا عن كلامه.

وقال بعضُ المتأخرين: إنَّ استعاذتها بالله تعالى تنبئُ عن تهييج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعيًّا، على ما قال تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣]، فقد قيل: المرادُ بالصبوة فيه: الميلُ بمقتضى الطبيعة وحكم القوة الشهوية، ثمَّ إنَّه لا ينافي عفَّتها بل يحقِّقها؛ لكونه طبيعيًّا اضطراريًّا غير داخلٍ تحت التكليف، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤]، ومع هذا قد استعاذ يوسفُ عليه السلام بما حَكى الله تعالى عنه من قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:٢٣] فدعوى أنَّ الاستعاذةَ تكذب التهييجَ والميلَ الطبيعيَّ كذبٌ، والقول بأنَّه يأبى ذلك مقامُ بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ليس بشيء؛ لأنَّ خلق الإنسان من ماءٍ واحد أثرٌ من آثار القدرة الخارقة للعادة أيضاً. والأسبابُ في هذا المقام ليست بمرفوضةٍ بالكليَّة كما يرشد إلى ذلك قصةُ يحيى عليه السلام، على أنه قد يُدَّعَى أنَّ خلق شيءٍ لا من شيءٍ أصلاً محالٌ، فلا يكون من مراتب القدرة ومادة الجعل الإبداعيِّ الأعيانُ الثابتة، وهي قديمةٌ. اهـ.

ولا يخلو عن بحث، وما ذكرناه في التعليل أسلمُ من القال والقيل، فتدبَّر.

ونصب «بشراً» على الحالية المقدَّرة أو التمييز، وقيل: على المفعولية بتضمين «تَمثَّلَ» معنى اتخذ.

---

(١) رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على صورة دحية أخرجها مسلم (١٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه. وفيه: «ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية»، وأخرج البخاري (٤٩٨٠) ومسلم (٢٤٥١) خبر رؤية أم سلمة لجبريل عن رسول الله فحسبته دحية. وانظر ما ذكره ابن حجر في «الإصابة» ٣/ ١٩١ عند ترجمة دحية من الأخبار الدالة على ذلك.

واستُشكِل أمرُ هذا التمثُّل بأنَّ جبريلَ عليه السلام شخصٌ عظيم الجثَّة حسبما نطقت به الأخبار[١]، فمتى صار في مقدار جثَّة الإنسان يلزمُ أنْ لا يبقى جبريل إن تساقطت الأجزاءُ الزائدةُ على جثَّة الإنسان، وأن تتداخلَ الأجزاء، إنْ لم يذهب شيءٌ. وهو محال. وأيضاً لو جاز التمثُّل ارتفعَ الوثوق، وامتنع القطعُ بأن هذا الشخصَ الذي يُرى الآن هو زيد الذي رُئي أمس؛ لاحتمال التمثُّل.

وأيضاً لو جاز التمثُّل بصورة الإنسان، فلم لا يجوزُ تمثُّله بصورة أخرى غيرِ صورة الإنسان، ومن ذلك البعوضُ ونحوه، ومعلومٌ أنَّ كلَّ مذهبٍ يَجرُّ إلى ذلك فهو باطل.

وأيضاً لو جاز ذلك ارتفعَ الوثوقُ بالخبر المتواتر، كخبر مقاتلة النبيِّ عليه الصلاة والسلام يومَ بدر؛ لجواز أنْ يكون المقاتلُ المتمثلَ به.

وأجيب عن الأول بأنَّه لا يمتنعُ أنْ يكون لجبريل عليه السلام أجزاءٌ أصليَّةٌ قليلةٌ، وأجزاءٌ فاضلةٌ، فبالأجزاءِ الأصلية يكونُ متمكِّناً من التمثُّل بشراً، هذا عند القائلين بأنَّه جسم. وأمَّا عند القائلين بأنَّه روحانيٌّ فلا استبعادَ في أن يتدرَّع تارةً بالهيكل العظيم، وأخرى بالهيكل الصغير.

وعن الثاني: بأنَّه مشتركُ الإلزام بين الكل، فإنَّ من اعترف بالصانع القادر يلزمه ذلك أيضاً؛ إذ يجوز أن يخلقَ سبحانه مثلَ زيدٍ مثلاً، ومع هذا الجواز يرتفعُ الوثوق، ويمتنع القطع على طرز ما تقدَّم. وكذا من لم يعترف، وأسندَ الحوادث إلى الاتصالات والتشكُّلات الفلكيَّة يلزمُه ذلك؛ لجواز حدوث اتِّصالٍ يقتضي حدوثَ مثل ذلك، وحينئذٍ يمتنعُ القطع أيضاً.

ولعله لمَّا كان مثلُ ذلك نادراً، لم يلزم منه قدحٌ في العلوم العادية المستندة إلى الإحساس، فلا يلزم الشكُّ في أنَّ زيداً الذي نشاهده الآن هو الذي شاهدناه بالأمس.

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤): (٢٨٠) من حديث أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زِرَّ بن حبيش عن قول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨] قال: حدثنا ابن مسعود أنه - يعني النبي ﷺ - رأى جبريل له ستُّ مئة جناح.

وأجيب عن الثالث بأن أصل التجويز قائمٌ في العقل، وإنَّما عُرِف فسادُه بدلائل السمع. وهو الجواب عن الرابع. كذا قال الإمام الرازيُّ[(١)].

وعندي أن مسألة التمثُّل على القول بالجسميَّة ممَّا ينبغي تفويضُ الأمر فيها إلى علَّام الغيوب، ولا سبيل للعقل إلى الجزم فيها بشيءٍ تنشرحُ له القلوب.

وإنَّما ذَكَرَتْهُ تعالى بعنوان الرحمانيَّة؛ تذكيراً لمن رأته بالرحمة، ليرحمَ ضعفَها وعجزها عن دفعه، أو مبالغةً للعياذة به تعالى، واستجلاباً لآثار الرحمة الخاصَّة التي هي العصمةُ ممَّا دهمها.

وما قيل من أنَّ ذلك تذكير[(٢)] لمن رأت بالجزاء لينزجر، فإنَّه يقال: يا رحمن الآخرة = ليس بشيءٍ؛ لأنَّه ورد: «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»[(٣)].

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ شرطٌ جوابه محذوف ثقةً بدلالة السباق[(٤)] عليه، أي: إن كان يُرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحتفل بالاستعاذة به، فإني عائذٌ[(٥)] به منك، كذا قدَّره الزمخشريُّ.

وفي «الكشف» أنَّه أشار إلى أنَّ وجهَ هذا الشرط مع أنَّ الاستعاذة بالرحمن إن لم يكن تقيًّا أولى = أنَّ أثر الاستجارة بالله تعالى ـ أعني: مكافَّتَهُ وأمنَها منه ـ إنَّما يتمُّ ويظهرُ بالنسبة إلى المتَّقي، وفيه دلالةٌ على أنَّ التقوى ممّا تقتضي للمستعيذ بالله تعالى حقَّ الذمام والمحافظة، وعلى عظم مكان التقوى، حيثُ جُعِلت شرطاً للاستعاذة لا تتمُّ دونها، وقال: إن كان يرجى؛ إظهاراً لمعنى «إن» وأنَّها إنما أوثرت دلالةً على أنَّ رجاء التقوى كان فضلاً عن العلم بها.

والحاصلُ أنَّ التقوى لم تُجعل شرط الاستعاذة، بل شرط مكافَّته وأمنِها منه، وكَنَّت عن ذلك بالاستعاذة بالله تعالى؛ حثًّا له على المكافَّة بألطف وجهٍ وأبلغه، وإنَّ من تعرَّض للمستعيذِ به، فقد تعرَّض لعظيمِ سخطِه. انتهى.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٩٧.
(٢) في الأصل: تذكيراً.
(٣) سلف تخريجه ١/ ٢٣٣.
(٤) كذا في الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٠. ووقع في (م): السياق.
(٥) في (م) والكشاف ٢/ ٥٠٥: عائذة.

وقدَّر الزجَّاج[1]: إن كنت تقيًّا فتتعظ بتعويذي. والأولى عليه: تتعظُ، بإسقاط الفاء؛ لأنَّ المضارعَ الواقعَ جواباً لا يقترن بالفاء، فيحتاجُ إلى جعله مرفوعاً بتقدير مبتدأ.

وقدَّر بعضهم: فاذهب عني، وبعضُهم: فلا تتعرض بي. وقيل: إنَّها أرادت: إنْ كنت تقيًّا متورِّعاً فإنِّي أعوذُ منك، فكيف إذا لم تكن كذلك. وكأنَّه أراد أنها استعاذت بهذا الشرط ليُعلَم استعاذتُها بما يقابله من باب أولى.

وقال الشهاب: الظاهر أن «إن» على هذا القول وصليَّة، وفي مجيئها بدون الواو كلام. وذكر أنَّ الجملة على هذا حاليَّة، والمقصود بها الالتجاءُ إلى الله تعالى من شرِّه، لاحثُّه على الانزجار[2].

وقيل: نافية، والجملة استئنافٌ في موضع التعليل، أي: ما كنتَ تقيًّا متورِّعاً بحضورك عندي وانفرادك بي، وهو خلافُ الظاهر. وأيًّا ما كان فالتُّقى وصفٌ من التقوى، وقول من قال: إنَّه اسم رجل صالح أو طالح، ليس بسديد.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ المالك لأمرك، والناظرِ في مصلحتك، الذي استعذتِ به، ولستُ ممن يتَوقَّع منه ما توهَّمت من الشر.

روي عن ابن عباس أنَّها لما قالت: «إني أعوذ» إلخ، تبسَّم جبريلُ عليه السلام وقال: «إنَّما أنا رسول ربك» ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي: لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوزُ أن يكون حكايةً لقوله تعالى بتقدير القول، أي: ربك الذي قال: أرسلتُ هذا الملك لأهبَ لك، ويؤيِّده قراءةُ شيبة وأبي الحسن وأبي بحرية والزهريّ وابن مناذر ويعقوب واليزيديّ وأبي عمرو ونافع في رواية: «ليهب» بالياء[3]، فإنَّ فاعله ضميرُ الربِّ تعالى. وما قيل من أنَّ أصل «ليهب» لأهب، فقلبت الهمزةُ ياءً لانكسار ما قبلها = تعسُّفٌ من غير داعٍ له.

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٢٣.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٨٠. وقراءة أبي عمرو وورش عن نافع، والحلواني عن قالون عن نافع، ويعقوب في النشر ٢/ ٣١٧. وانظر التيسير ص١٤٨.

وفي بعض المصاحف: أمرني أن أهب لك غلاماً[1] ﴿زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ طاهراً من الذنوب. وقيل: نبيًّا. وقيل: نامياً على الخير، أي: مترقِّياً من سنٍّ إلى سن على الخير والصلاح، فالزكاء شاملٌ للزيادة المعنوية والحسية.

واستدلَّ بعضُهم برسالة المَلَك إليها على نبوَّتها.

وأجيب: بأنَّ الرسالةَ لمثل ذلك لا تستدعي النبوَّة.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنَّه لم يباشرني بالحلال رجلٌ، وإنما قيل: «بشر» مبالغةً في تنزُّهها من مبادئ الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: ولم أكن زانيةً، والجملة عطفٌ على «لم يمسسني»، داخلٌ معه في حكم الحاليَّة، مفصحٌ عن كون المساس عبارةً عن المباشرة بالحلال، وهو كنايةٌ عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٧]، «أو لمستم[2] النساء» [النساء:٤٣] ونحوه، كما قيل: دخلتم بهنَّ، وبنى عليها.

وأمَّا الزنى فليس بقمِن أنْ يكنى عنه، لأنَّ مقامه؛ إما تطهيرُ اللسان، فلا كناية ولا تصريح، وإمَّا التقريعُ، فحينئذٍ يستحقُّ الزيادة على التصريح. والألفاظ التي يُظَنُّ أنَّها كناية فيه قد شاعت حتى صارت حقيقةً صريحةً فيه، ومنها ما في النظم الكريم. ولا يردُ على ذلك ما في سورة «آل عمران» من قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [الآية:٤٧] مقتصرةً عليه، فإنَّ غاية ما قيل فيه: إنَّه كنايةٌ عن النكاح والزنى على سبيل التغليب، ولم يجعل كنايةً عن الزنى وحدَه.

ولقائلٍ أن يقول: إنَّه ثمَّ كنايةٌ عن النكاح فقط كما هنا.

واستَوعبَت الأقسام ها هنا، لأنَّه مقامُ البسط، واقتصَرت على نفي النكاح ثمَّ، لعدم التهمة، ولعلمها أنَّهم ملائكة ينادون، لا يتخيَّلون فيها التهمة، بخلاف هذه الحالة، فإنَّ جبريل عليه السلام كان قد أتاها في صورة شابٍّ أمرد، ولهذا تعوَّذت منه، ولم يكن قد سكن رَوعُها بالكليَّة إلى أن قال: «إنَّما أنا رسول ربك».

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر ٦/ ١٨٠.

(٢) في (م): لامستم. وهي قراءة الجمهور. والمثبت من الأصل، وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر التيسير ص٩٦.

على أنه قيل: إنَّ ما في «آل عمران» من الاكتفاء، وترك الاكتفاء في هذه؛ لأنَّه تقدَّم نزولُها، فهي محلُّ التفصيل، بخلاف تلك؛ لسبق العلم.

وقيل: المَساس هنا كنايةٌ عن الأمرين على سبيل التغليب، كما في تلك السورة، «ولم أك بغيًّا» تخصيصٌ بعد التعميم؛ لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، ولذا آثرت «كان» في النفي الثاني، فإنَّ في ذلك إيذاناً بأنَّ انتفاءَ الفجور لازمٌ لها.

وكأنَّها عليها السلام من فرط تعجُّبها وغايةِ استبعادها لم تلتفت إلى الوصف في قول الملك عليه السلام: «لأهبَ لك غلاماً زكيًّا» النافي كلَّ ريبةٍ وتهمةٍ، ونبذته وراءَ ظهرها، وأتت بالموصوف وحده، وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه، أي: ما أبعد وجودَ هذا الموصوف مع هذه الموانع بَلْهَ الوصف، وهذا قريبٌ من الأسلوب الحكيم.

و«بغيّ» فعول عند المبرِّد، وأصلُه «بغويّ»، فلمَّا اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، قُلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم تلحقه هاءُ التأنيث؛ لأن فعولاً يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، وإن كان بمعنى فاعل كصبور. واعترضَه ابنُ جنِّي في كتاب «التمام»[1] بأنَّه لو كان فعولاً لقيل: بغوٌّ، كما قيل: نهوٌّ عن المنكر. ورُدَّ بأنه لا يقاس على الشاذِّ، وقد نصُّوا على شذوذ: نهو؛ لمخالفته قاعدةَ اجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون. وأختارُ أنَّه فعيل، وهو على ما قال أبو البقاء[2] بمعنى فاعل. وكان القياسُ أنْ تلحقَه هاءُ التأنيث؛ لأنَّه حينئذٍ ليس مما يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، كفعول. ووجهُ عدم اللحوق بأنَّه للمبالغة التي فيه حُمِل على فعول؛ فلم تلحقه الهاء.

وقال بعضهم: هو من باب النسب، كطالق، ومثله يستوي فيه المذكَّر والمؤنث.

وقيل: ترك تأنيثه لاختصاصه في الاستعمال بالمؤنَّث، ويقال للرجل: باغ.

(١) لم أقف عليه في كتاب التمام، ونقله عنه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٥.
(٢) في الإملاء ٢/ ١١.

وقيل: فعيل بمعنى مفعول، كـ: عين كحيل، وعلى هذا معنى بغيّ: يبغيها الرجالُ للفجور بها. وعلى القول بأنه بمعنى فاعل: فاجرة تبغي الرجال.

وأيًا ما كان فهو للشيوع في الزانية صار حقيقةً صريحةً فيه، فلا يَرِدُ أنَّ اعتبارَ المبالغة فيه لا يناسبُ المقام؛ لأنَّ نفيَ الأبلغ لا يستلزمُ نفي أصل الفعل، ولا يحتاجُ إلى الجواب بالتزام أنَّ ذلك من باب النسب، أو بأنَّ المرادَ نفيُ القيد والمقيَّد معاً، أو المبالغة في النفي لا نفي المبالغة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أطلقوا الكلام في أنه نظيرُ ما تقدَّم في قصة زكريا عليه السلام. وفي «الكشف» أنه لا يجري فيه تمامُ الأوجه التي ذكرها الزمخشريّ هناك؛ لأنَّ «قال» أولاً فيه ضميرُ الرسول إليها، فـ «كذلك» إن عُلِّق بالثاني يكون المعنى: قال الرسول: قال ربك كذلك. ثمَّ فسَّره بقوله: «هو عليَّ هيِّن».

أو المعنى: مثلُ ذلك القول العجيب الذي سمعته ووعدتك قال ربك، على إقحام الكاف، ثمَّ استأنف: «هو عليَّ هيِّن» ولا بدَّ من إضمار القول، لأنَّ المخاطِبَ لها جبريلُ عليه السلام.

وقوله: «هو عليَّ هيِّن» كلامُ الحقِّ تعالى شأنه حكاه لها.

وإن عُلِّق بالأول يكون المعنى: الأمرُ كذلك تصديقاً لها. أو: كما وعدتُ تحقيقاً له. ثم استأنف: «قال ربك هو عليَّ هين» لإزالة الاستبعاد، أو لتقرير التحقيق. ولا يبعدُ أن يجعل «قال ربك» على هذا تفسيراً، و«كذلك» مبهماً. انتهى. ولا أرى ما نُقل عن ابن المنيِّر هناك وجهاً هنا.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ تعليلٌ لمعلَّلٍ محذوف، أي: لنجعل وهب الغلام «آية» وبرهاناً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جميعِهم، أو المؤمنين ـ على ما روي عن ابن عباس ـ يستدلُّون به على كمال قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمةً كائنةً ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده = فعلنا ذلك.

وجُوِّزَ أنْ يكون معطوفاً على علَّةٍ أخرى مضمرةٍ، أي: لنبيِّن به عظمَ قدرتنا «ولنجعله آيةً» إلخ.

قال في «الكشف»: إنَّ مِثل هذا يطَّرد فيه الوجهان، ويرجَّح كلُّ واحدٍ بحسب المقام، وحذفُ المعلَّل هنا أرجح؛ إذ لو فُرِض علَّةٌ أخرى لم يكن بدٌّ من معلَّل محذوفٍ أيضاً، فليس قبلُ ما يصلح، فهو تطويلٌ للمسافة.

وهذه الجملة ـ أعني العلَّة مع معلَّلها ـ معطوفةٌ على قوله: «هو عليَّ هيِّن». وفي إيثار الأولى اسميَّةً دالَّة على لزوم الهُوْن، مزيلةً للاستبعاد، والثانية فعليةً دالَّةً على أنَّه تعالى أنشأه لكونه آيةً ورحمةً خاصةً، لا لأمرٍ آخر ينافيه، مراداً بها التجدُّد؛ لتجدُّد الوجود؛ لينتقل من الاستبعاد إلى الاستحماد = مالا يَخفى من الفخامة. انتهى.

ولا يَرِدُ أنَّه إذا قُدِّر علَّة، نحو: لنبين، جاز أن يكون ذلك متعلِّقاً بما يدلُّ عليه «هو عليَّ هين» من غير حذف شيءٍ، فلا يصحُّ قولُه: لم يكن بدٌّ من مُعَلَّلٍ محذوفٍ. لظهور ما فيه.

وما ذكره من العطف خالف فيه بعضُهم فجعلَ الواو على الأول اعتراضية.

ومن الناس من قال: إن «لنجعلَه» على قراءة: «ليهب» عطفٌ عليه على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم.

وجوز أيضاً العطفُ على «لأهب» على قراءةِ أكثر السبعة. ولا يخفى بُعد هذا العطف على القراءتين.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ محكماً قد تعلَّق به قضاؤنا الأزليُّ، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لابدَّ لك منه، أو كان أمراً حقيقاً بمقتضى الحكمة والتفضُّل أنْ يُفعل؛ لتضمُّنه حِكماً بالغةً؛ وهذه الجملة تذييلٌ إما لمجموع الكلام أو للأخير.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ الفاء فصيحة، أي: فاطمأنَّت إلى قوله، فدنا منها فنفخَ في جيبها، فدخلت النفخةُ في جوفها فحملته. وروي هذا عن ابن عباس.

وقيل: لم يَدْنُ عليه السلام، بل نفخَ عن بُعْدٍ، فوصل الريح إليها فحملت.

وقيل: إنَّ النفخةَ كانت في كمِّها، وروي ذلك عن ابن جريج.

وقيل: كانت في ذيلها. وقيل: كانت في فمها.

واختلفوا في سنِّها إذ ذاك، فقيل: ثلاث عشرة سنة. (١وعن وهب ومجاهد: خمس عشرة سنة١). وقيل: أربع عشرة سنة. وقيل: اثنتا عشرة سنة. وقيل: عشر سنين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وحكى محمد بن الهيصم(٢) رئيس الهيصميَّة من الكرَّاميَّة أنها لم تكن حاضت بعد. وقيل: إنَّها عليها السلام لم تكن تحيضُ أصلاً، بل كانت مطهَّرة من الحيض.

وكذا اختلفوا في مدَّة حملها، ففي روايةٍ عن ابن عباس أنَّها تسعة أشهر كما في سائر النساء، وهو المرويُّ عن الباقر ﷺ؛ لأنها لو كانت مخالفةً لهنَّ في هذه العادة لناسب ذكرها في أثناء هذه القصة الغريبة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّها كانت ساعةً واحدة، كما حملته نبذته. واستدلَّ لذلك بالتعقيب الآتي، وبأنَّه سبحانه قال في وصفه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّه عزَّ وجلَّ قال له: «كن فيكون» فلا يُتصوَّرُ فيه مدَّة الحمل.

وعن عطاء وأبي العالية والضحَّاك أنَّها كانت سبعة أشهر. وقيل: كانت ستة أشهر، وقيل: حملته في ساعةٍ، وصوِّرَ في ساعة، ووضعته في ساعةٍ حين زالت الشمس من يومها. والمشهور أنَّها كانت ثمانية أشهر(٣)، قيل: ولم يعش مولودٌ وُضِع لثمانيةٍ غيرُه عليه السلام.

ونقل النيسابوريُّ عن أهل التنجيم أنَّ ذلك لأنَّ الحملَ يعودُ إلى تربية القمر، فتستولي عليه البرودة والرطوبة(٤). وهو ظاهرٌ في أنَّ مربيَ الحمل في أول شهور الحمل القمرُ، وفي الثامن يعود الأمر إليه عند المنجِّمين، وهو مخالفٌ لما في

(١-١) ليست في الأصل.

(٢) هو أبو عبد الله، شيخ الكرَّامية وعالمهم في وقته بخراسان، وهو من المتوفين بعد الأربع مئة ظنًّا. قال الذهبي: وليس للكرَّامية مثله في معرفة الكلام والنظر. تاريخ الإسلام ٩/ ١٧١-١٧٢.
وعدَّ الشهرستاني في الملل والنحل ١/ ١٠٨ الهيصمية أقرب طوائف الكرَّامية.

(٣) قال أبو حيان في البحر ٦/ ١٨١ بعد أن ذكر هذا الاختلاف: وهذه أقوالٌ مضطربة متناقضة، كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً، إلا أن المفسرين ذكروها في كتبهم، وسوَّدوا بها الورق.

(٤) غرائب القرآن ١٦/ ٤٨.

«كفاية التعليم»(١) عنهم من أنَّ أول الشهور منسوبٌ إلى زحل، والثاني إلى المشتري، وهكذا إلى السابع، وهو منسوبٌ إلى القمر، ثم ترجعُ النسبة إلى زحل، ثمَّ إلى المشتري. وفيها أيضاً أنَّ جهَّال المنجِّمين يقولون: إنَّ النطفة في الشهر الأول تقبلُ البرودة من زحل فتجمد، وفي الثاني تقبلُ القوَّة النامية من المشتري، فتأخذ في النمو، وفي الثالث تقبلُ القوَّة الغضبيَّة من المريخ، وفي الرابع قوَّة الحياة من الشمس، وفي الخامس قوَّة الشهوة من الزهرة، وفي السادس قوة النطق من عطارد، وفي السابع قوة الحركة من القمر، فتتمُّ خلقة الجنين، فإنْ ولد في ذلك الوقت عاش، وإلَّا فإن ولد في الثامن لم يعش؛ لقبوله قوَّة الموت من زحل، وإنْ ولد في التاسع عاش؛ لأنَّه قبل قوة المشتري.

ومثل تلك الكلمات خرافات، وكلُّ امرأةٍ تعرفُ أن النطفة إذا مضت عليها ثلاثةُ أشهر تتحرك.

وقد ذكر حكماء الطبيعة أنَّ أقلَّ مدَّة الولادة ستة أشهر، ومدة الحركة ثُلث مدة الولادة، فيكون أقلُّها شهرين، ومن امتحن الأسقاط، يعلمُ أنَّ الخلقة تتمُّ في أقل من خمسين يوماً. انتهى.

وكلام المتشرعين لا يخفى عليك في هذا الباب.

وقد يعيش المولود لثمانٍ، إلَّا أنَّه قليل، فليس ذلك من خواصِّه عليه السلام إن صحَّ.

ولم يصح عندي شيءٌ من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة، بيد أنِّي أميلُ إلى أوَّلها، والاستدلال للثاني ممَّا سمعت لا يخلو عن نظر.

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، فالباء للملابسة والمصاحبة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقول المتنبي يصفُ الخيول:

فمرَّت غير نافرةٍ عليهم ... تدوسُ بنا الجماجم والرؤوسا(٢)

---

(١) لعله «كفاية التعليم في صناعة التنجيم» فارسي، للإمام ظهير الدين أبي المحامد، محمد بن المسعود بن الزكي الغزنوي. كشف الظنون ٢/ ١٤٩٧.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٦٥، وفيه وفي الكشاف ٢/ ٥٠٦، وتفسير البيضاوي ٤/ ٥، والبحر

والجارُّ والمجرور ظرفٌ مستقرٌّ وقع حالاً من ضميرها المستتر، أي: فانتبذَت ملتبسةً به ﴿مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ بعيداً من أهلها وراءَ الجبل.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزُّهدِ» عن نوف أنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في جيبها فحملت، حتى إذا أثقلت وَجِعَت ما يجع النساء، وكانت في بيت النبوَّة، فاستحيت وهربت حياءً من قومها، فأخذت نحو المشرق، وخرجَ قومها في طلبها، فجعلوا يسألون: رأيتم فتاةً كذا وكذا، فلا يخبرهم أحدٌ، فكان ما أخبر الله تعالى به[1].

وروى الثعلبيُّ في «العرائس»[2] عن وهب قال: إنَّ مريمَ لما حملت كان معها ابنُ عمٍّ لها يسمَّى: يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكانا معاً يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلَم أنَّ أحداً من أهل زمانهما أشدُّ اجتهاداً وعبادةً منهما، وأوَّلُ من عَلِمَ أمرَها يوسف، فتحيَّر في ذلك؛ لعلمه بكمال صلاحها وعفَّتها، وأنَّه لم تغب عنه ساعةً، فقال لها: قد وقع في نفسي شيءٌ من أمرك لم أستطع كتمانه، وقد رأيتُ الكلام فيه أَشْفَى لصدري، فقالت: قل قولاً جميلاً. فقال: يا مريم أخبريني هل ينبتُ زرعٌ بغير بذر؟ وهل تنبتُ شجرةٌ من غير غيث؟ وهل يكون ولدٌ من غير ذَكَر؟ فقالت: نعم، ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنبتَ الزرع يومَ خلقه من غير بذر؟ ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنبت الشجرةَ من غير غيث؟ وبالقدرة جعل الغيثَ حياة الشجر بعد ما خلق كلَّ واحدٍ منهما على حدة؟ أتقول: إنَّ الله سبحانه لا يقدرُ على أنَّ ينبتَ الشجرة حتى يستعينَ بالماء؟ قال: لا أقول هذا، ولكنِّي أقولُ: إنَّ الله تعالى يقدرُ على ما يشاء بقول: كن فيكون، فقالت: ألم تعلم أنَّ الله تعالى خلقَ آدم وامرأته من غير ذكرٍ ولا أنثى؟ فعند ذلك زال ما يجدُه وكان ينوبُ عنها في خدمة المسجد؛ لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلمَّا دنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن اخرجي من أرض قومك؛ لئلَّا

= المحيط ٦/ ١٨١، والدر المصون ٧/ ٥٧٩، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦١: والتربيا، بدل: والرؤوسا.

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦٦.

(٢) عرائس المجالس ص٣٨٤-٣٨٥.

يقتلوا ولدك، فاحتملَها يوسف إلى أرض مصر على حمارٍ له، فلما بلغت تلك البلاد أدركَها النفاس[١]، فكان ما قصَّ سبحانه.

وقيل: انتبذت أقصى الدار، وهو الأنسبُ بقِصَر مدَّة الحمل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها، كما قال الزمخشريُّ[٢] وجماعة، وفي «الصحاح»: أَجَأْتُه إلى كذا، بمعنى ألجأته واضطررته إليه. قال زهير بن أبي سلمى:

وجارٍ سارَ معتمداً عليكم[٣] أجاءته المخافةُ والرجاءُ

قال الفرَّاء: أصله من جئت، وقد جعلته العربُ إلجاءً، وفي المثل: شرٌّ ما يجيئك إلى مُخَّةِ عرقوب[٤]. انتهى.

واختار أبو حيان أنَّ المعنى: جاء بها. واعترضَ على الزمخشريِّ وأطالَ[٥] بما لا يخفى ردُّه[٦].

و«المخاض» بفتح الميم، كما في قراءة الأكثرين، وبكسرها كما في رواية عن ابن كثير[٧]، مصدرُ مَخِضَتِ المرأةُ بفتح الخاء وكسرها، إذا أخذَها الطلقُ، وتحرّك الولدُ في بطنها للخروج.

وقرأ الأعمشُ وطلحة: «فأجاءها» بإمالة فتحة الجيم[٨]، وقرأ حماد بن سلمة

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: إنها نفست بكورة أهباس من أعمال مصر. اهـ. منه.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٦.
(٣) كذا في النسخ. وفي ديوان زهير ص٧٧: إلينا، وفي الصحاح (جيأ): إليكم. وهي رواية الأعلم كما ذكر محقق ديوان زهير.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٤. وانظر مجمع الأمثال ١/ ٣٥٨. قال الميداني: والمعنى: ما ألجأك إليها إلا شرٌّ، أي: فقر وفاقة، وذلك أن العرقوب لا مخَّ له، وإنما يحوَج إليه من لا يقدر على شيء.
(٥) بعدها في (م): القول.
(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨١-١٨٢.
(٧) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر المحيط٦/ ١٨٢. والقراءة المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٨) البحر المحيط ٦/ ١٨٢.

عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة[١]، ورُوي ذلك عن مجاهد[٢]، ونقلَهُ ابنُ عطية عن شبيل بن عزرة أيضاً[٣]، وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ قراءته تحتملُ أنْ تكون الهمزةُ فيها قد قلبت ألفاً، ويحتملُ أن تكون بين بين غيرَ مقلوبة.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستند إليه عند الولادة، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّيّ: أو لذلك ولتستتر به، كما قيل.

والجِذع: ما بين العِرْق ومتشعّب الأغصان من الشجرة. وقد يقال للغصن أيضاً: جذع. والنخلة معروفة. والتعريفُ إمَّا للجنس، فالمراد واحدةٌ من النخل لا على التعيين، أو للعهد، فالمراد نخلةٌ معيَّنةٌ، ويكفي لتعيُّنها تعيُّنها في نفسها، وإنْ لم يعلمها المخاطَبُ بالقرآن عليه الصلاة والسلام، كما إذا قلت: أكلَ السلطانُ ما أتى به الطباخُ، أي: طباخه، فإنَّه المعهود. وقد يقال إنَّها معيَّنةٌ له ﷺ بأنْ يكون الله تعالى أراها له عليه الصلاة والسلام ليلةَ المعراج.

وزعم بعضُهم أنَّها موجودةٌ إلى اليوم. والظاهر أنَّها كانت موجودةً قبل مجيء مريم إليها، وهو الذي تدلُّ عليه الآثار، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّها عليها السلام لمَّا اشتدَّ عليها الطلق نظرت إلى أكمةٍ، فَصَعِدَت مسرعةً، فإذا عليها جِذع نخلةٍ نخِرَة، ليس عليها سَعَف.

وقيل: إنَّ الله تعالى خلقها لها يومئذ. وليس بذاك. وكان الوقتُ شتاءً.

ولعلَّ الله تعالى أرشدَها إليها ليريها فيما هو أشبهُ الأشجار بالإنسان من آياته ما يسكِّن روعَتها، كإثمارها بدون رأس، وفي وقت الشتاء الذي لم يعهد ذلك فيه، ومن غير لقاح كما هو المعتاد. وفي ذلك إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ أصلَها ثابتٌ، وفرعها في السماء، وإلى أنَّ ولدها نافعٌ كالتمرة الحلواء[٤] وأنه عليه السلام سيحيي

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر المحيط ٦/ ١٨٢.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠. وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٩: قراءة شبيل بن عزرة «فأجأها» مثل فألجأها.
(٤) في الأصل: الحلو.

الأمواتَ كما أحيى الله تعالى بسببه الموات، مع ما في ذلك من اللطف بجعل ثمرتِها خُرسة[1] لها.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أجاءها»، وعلى القراءة الأخرى متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مستندةً إلى جذع النخلة.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ﴾ بكسر الميم من مات يَمات، كخاف يخاف، أو من مات يميت كجاء يجيء.

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ويعقوب بضمِّها[2]، من مات يموتُ، كقال يقول.

﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ الوقتِ الذي لقيتُ فيه ما لقيت، أو قبلَ هذا الأمر. وإنما قالته عليها السلام، مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم؛ استحياءً من الناس، وخوفاً من لائمتِهم، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلَّمون فيها.

وروي أنها سمعت نداءً: اخرج يا مَنْ يُعبَدُ من دون الله تعالى. فحزنت لذلك، وتمنَّت الموت. وتمنِّي الموت لنحو ذلك مما لا كراهةَ فيه.

نعم يُكره تمنِّيه لضررٍ نزلَ به من مرضٍ، أو فاقةٍ، أو محنة من عدوٍّ، أو نحوِ ذلك من مشاقِّ الدنيا، ففي «صحيح مسلم» وغيره قال ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضَرَرٍ نزل، فإن كان لا بدَّ متمنِّياً، فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[3].

ومن ظنَّ أنَّ تمنِّيها عليها السلام ذلك كان لشدَّة الوجع، فقد أساء الظنَّ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) الخرسة: بخاء معجمة مضمومة، وراء مهملة ساكنة، وسين مهملة: ما تأكله النفساء. حاشية الشهاب ٦/ ١٥٢.

(٢) التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك. وهو أيضاً عند البخاري (٦٣٥١).

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أي: شيئاً تافهاً، شأنُه أن ينسى ولا يعتدّ به أصلاً، كخرقة الطَّمْث.

وقرأ الأكثرون: «نِسياً» بالكسر[1]. وقال الفرَّاء: هما لغتان في ذلك، كالوَتر والوِتر، والفتحُ أحبُّ إليَّ[2].

وقال الفارسيُّ: الكسرُ أعلى اللغتين[3]، وقال ابنُ الأنباريّ: هو بالكسر اسمٌ لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض، وبالفتح مصدرٌ نائبٌ عن الاسم.

وقرأ محمد بن كعب القرظي: «نِسئاً» بكسر النون والهمزة مكان الياء، وهي قراءة نوف الأعرابيّ[4]. وقرأ بكر بن حبيب السهميّ ومحمد بن كعب أيضاً في رواية: «نَسئاً» بفتح النون والهمز[5]، على أنَّ ذلك من نسأتُ اللبن إذا صببت عليه ماءً، فاستهلك اللبن فيه لقلَّته، فكأنَّها تمنَّت أنْ تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يُرى ولا يتميَّز من الماء. ونقل ابنُ عطية عن بكر بن حبيب أنه قرأ: «نَسَا» بفتح النون والسين من غير همزٍ كعصا[6].

﴿مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ لا يخطر ببال أحدٍ من الناس. ووصف النسي بذلك؛ لما أنَّه حقيقةٌ عرفيَّةٌ فيما يقلُّ الاعتدادُ به، وإن لم ينسَ.

وقرأ الأعمش وأبو جعفر في روايةٍ بكسر الميم إتباعاً لحركة السين[7]،

---

(١) قرأ بفتح النون حمزة وحفص، والباقون بكسرها. التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/٣١٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١٦٤-١٦٥.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/١٩٦.

(٤) ذكرها عنهما أبو حَيّان في البحر ٦/١٨٣، وعن محمد بن كعب ابنُ عطية في المحرر ٤/١٠، والقرطبي ١٣/٤٣٢.

(٥) المحتسب ٢/٤٠، والبحر المحيط ٦/١٨٣، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/١٠ - وتبعه القرطبي ١٣/٤٣٢ - لنوف البكالي، ونقل عن ابن جني والداني نسبتها لمحمد بن كعب.

(٦) كذا في البحر المحيط ٦/١٨٣، والدر المصون ٧/٥٨٢ نقلاً عن ابن عطية. والذي في المحرر الوجيز لابن عطية ٤/١٠ وتفسير القرطبي ١٣/٤٣٢ أن بكر بن حبيب قرأ: «نسًّا» بتشديد السين، وفتح النون دون همز.

(٧) البحر المحيط ٦/١٨٣ عنهما، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٤، =

كما قالوا: مِنْتِنٍ، بإتباع حركة الميم لحركة التاء.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريل عليه السلام كما روي عن ابن عباس ونوف.

وقرأ علقمة: فخاطبها. قال أبو حيان: وينبغي أنْ تكون تفسيراً؛ لمخالفتها سوادَ المصحف[1]. وقرأ الحبر: «فناداها مَلَكٌ من تحتها»[2] وينبغي أنْ يكون المراد به جبريل عليه السلام؛ ليوافق ما روي عنه أوّلاً.

ومعنى ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ من مكانٍ أسفلَ منها، وكان واقفاً تحت الأكمة التي صعدتها مسرعةً، كما سمعت آنفاً.

ونقل في «البحر»[3] عن الحسن أنّه قال: ناداها جبريلُ عليه السلام، وكان في بقعةٍ من الأرض أخفضَ من البقعة التي كانت عليها، ،وأقسمَ على ذلك. ولعلَّه إنّما كان موقفُه عليه السلام هناك إجلالاً لها، وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال. والقول بأنّه عليه السلام كان تحتَها يُقَبِّل الولدَ، ممّا لا ينبغي أن يُقال؛ لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال.

وقيل: ضمير «تحتها» للنخلة.

واستظهر أبو حيان[4] كونَ المنادي عيسى عليه السلام. والضمير لـ «مريم»، والفاء فصيحة، أي: فولدت غلاماً فأنطقَه الله تعالى حين الولادة، فناداها المولود من تحتها.

ورُوي ذلك عن مجاهد، ووهب، وابن جبير، وابن جرير[5]، وابن زيد،

= والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٧ منسوبةً للأعمش فقط. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٣، وانظر القراءات الشاذة ص٨٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٤٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٨٣.

(٣) ٦/ ١٨٣.

(٤) في البحر المحيط ٦/ ١٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٥٠٤-٥٠٥.

والجبَّائيّ، ونقله الطبرسيُّ عن الحسن أيضاً[١]، وقرأ الابنان والأبوان[٢]، وعاصم والجحدريّ، وابن عباس والحسن في رواية عنهما: «مَن» بفتح الميم[٣] بمعنى «الذي»، فاعل نادى، و«تحتَها» ظرفٌ منصوب، صلةٌ لـ «مَن»، والمرادُ به إمَّا عيسى أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: أي لا تحزني، على أنَّ «أنْ» مفسِّرة، أو: بأن لا تحزني، على أنَّها مصدريَّة قد حُذِف عنها الجارّ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ بمكانٍ أسفَل منك. وقيل: تحتَ أمرك، إنْ أمرت بالجري جرى، وإنْ أمرت بالإمساك أمسك. وهو خلاف الظاهر.

﴿سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ أي: جدولاً، كما أخرجُه الحاكم في «مستدركه» عن البراء، وقال: إنَّه صحيحٌ على شرط الشيخين[٤]. وذكرهُ البخاريُّ تعليقاً موقوفاً عليه[٥]، وأسندَه عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم عنه موقوفاً عليه أيضاً[٦]، ولم يصحَّ الرفعُ كما أوضحه الجلالُ السيوطيّ. وعلى ذلك جاء قولُ لبيد يصف عيراً وأتاناً:

فتوسَّطا عُرْضَ السريِّ فصدَّعا ... مسجورة متجاوِزاً قُلَّامُها[٧]

وأنشد ابنُ عباس قول الشاعر:

سهلُ الخليقة ماجدٌ ذو نائل ... مثل السَّريِّ تمدُّه الأنهارُ[٨]

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ٣١، وأخرجها عن الحسن الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٥٠٣.
(٢) الابنان هما ابن عامر وابن كثير، والأبوان هما أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم، فقوله بعدهما: وعاصم، فيه نظر، فقد ذكر رواية أبي بكر عنه، أما قراءة حفص عنه فهي: «مِن» بكسر الميم.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٨٣، وقراءة الابنين والأبوين في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٨، وقرأ بها أيضاً من العشرة يعقوب من طريق رويس.
(٤) المستدرك ٢/ ٣٧٣.
(٥) قبل الحديث (٣٤٣٦).
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٦٨، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٦-٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٠٦.
(٧) ديوان لبيد ص٣٠٧.
(٨) أنشده ابن عباس ﷺ في معرض إجابته على سؤالات نافع بن الأزرق. انظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ص٩٠، والدر المنثور ٤/ ٢٦٨.

وكان ذلك ـ على ما رويَ عن ابن عباس ـ جدولاً من الأردنّ، أجراه الله تعالى منه لمَّا أصابها العطش[1].

ورويَ أنَّ جبريل عليه السلام ضربَ برجله الأرض، فظهرت عينُ ماءٍ عذبٍ، فجرى جدولاً.

وقيل: فعل ذلك عيسى عليه السلام، وهو المرويُّ عن أبي جعفرٍ رضي الله عنه.

وقيل: كان ذلك موجوداً من قبل، إلَّا أنَّ الله تعالى نبَّهها عليه.

وما تقدَّم هو الموافقُ لمقام بيان ظهور الخوارق، والمتبادر من النظم الكريم.

وسمِّيَ الجدولُ سريًّا؛ لأنَّ الماء يسري فيه، فلامُه على هذا المعنى ياء. وعن الحسن وابن زيد والجبائيّ أنَّ المرادَ بالسريّ عيسى عليه السلام. وهو من السَّرْوِ، بمعنى الرفعة، كما قال الراغب[2]، أي: جعل ربُّك تحتك غلاماً رفيعَ الشأن، سامي القدر، وفي «الصحاح»: هو سخاءٌ في مروءة[3]. وإرادةُ الرفعة أرفعُ قدراً، ولامُه على هذا المعنى واو.

والجملة تعليلٌ لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها، وتأكيد التعليل، وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ﴾ أي: إلى جهتِك. والهزُّ تحريكٌ يميناً وشمالاً، سواءٌ كان بعنفٍ أو لا، أو تحريكٌ بجذب ودفع، وهو مضمَّنٌ معنى الميل، فلذا عُدِّيَ بـ «إلى»، أو أنَّه مجازٌ عنه، أو اعتُبر في تعديته ذلك؛ لأنَّه جزءُ معناه، كذا قيل.

ومنع أبو حيان[4] تعلُّقَه بـ «هزِّي»، وعَلَّل ذلك بأنَّه قد تقرَّر في النحو أنَّ الفعل لا يُعدَّى إلى الضمير المتصل، وقد رفع الضمير المتصل، وليس من باب ظَنَّ،

---

(١) في الأصل: من العطش.

(٢) في المفردات (سرى).

(٣) الصحاح (سرو).

(٤) في البحر ٦/ ١٨٤.

ولا فَقَد ولا عَدِم، وهما لمدلولٍ واحد، فلا يقال: ضربتَكَ، وزيدٌ ضربُه، على معنى ضربتَ نفسك، وضربَ نفسه. والضميرُ المجرورُ عندهم كالضمير المنصوب، فلا يقال: نظرتَ إليك وزيدٌ نظر [إليه][1]، على معنى نظرتَ إلى نفسك، ونظرَ إلى نفسه. ومن هنا جعلوا «على» في قوله:

هـوِّن عـلـيـك فـإنَّ الأمـور بـكـفِّ الإلـه مـقـاديـرُهـا[2]

اسماً، كما في قوله:

غـدتْ مِـن عـلـيـه بـعـدَ مـا تـمَّ ظِـمْـؤُهـا[3]

وجعلَ الجارّ والمجرور هنا متعلِّقاً بمحذوف، أي: أعني إليك، كما قالوا في: سقياً لك، ونحوه، مما جيءَ به للتبيين. وأنت تعلم أنهم قالوا بمجيء «إلى» للتبيين، لكن قال ابن مالك وكذا صاحب «القاموس»: إنَّها المبيِّنةُ لفاعليَّةِ مجرورِها بعدَ ما يفيدُ حبًّا أو بغضاً من فعل تعجُّبٍ أو اسم تفضيل[4]. وما هنا ليس كذلك. وقال في «الإتقان»[5]: حكى ابنُ عصفور في شرح أبيات «الإيضاح» عن ابن الأنباريّ أنَّ «إلى» تُستعمل اسماً، فيقال: انصرفت من إليك، كما يقال: غدوتُ من عليه. وخرَّجَ عليه من القرآن: «وهزِّي إليك». وبه يندفعُ إشكالُ أبي حيان فيه. انتهى.

وكان عليه أن يبيِّن ما معناها على القول بالاسمية، ولعلَّها حينئذٍ بمعنى: «عند»، فقد صرَّح بمجيئها بهذا المعنى في «القاموس»[6]، وأنشد:

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق. وانظر البحر المحيط ٦/ ١٨٤.

(٢) هو للأعور الشنِّي، كما في الكتاب ١/ ٦٣-٦٤، والحماسة البصرية ٢/ ٢.

(٣) هو صدر بيت، عجزه: تصِلُّ وعن قيضٍ ببيداء مَجْهَلِ.
ذكره سيبويه في الكتاب ٤/ ٢٣١، والمبرد في المقتضب ٣/ ٥٣، والكامل ٢/ ١٠٠١، دون نسبة. ونسبه ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٠٤، وعبد القادر البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ١٥٠ لمزاحم العُقيليّ.

(٤) القاموس المحيط: باب الألف اللينة (إلى) ص١٣٤٨.

(٥) ١/ ٤٨٣.

(٦) في باب الألف اللينة (إلى) ص١٣٤٩. والبيت الآتي لأبي كبير الهذلي، كما في شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٠٦٩.

أم لا سبيلَ إلى الشباب وذِكْرُه أشهى إليَّ من الرحيقِ السلسلِ

لكن لا يحلو هذا المعنى في الآية.

ومثله ما قيل: إنها في ذلك اسمُ فعل. ثم إنَّ حكاية استعمالها اسماً إذا صحَّت تقدحُ في قول أبي حيان(١): لا يمكن أنْ يُدَّعى أنَّ «إلى» تكونُ اسماً؛ لإجماع النحاة على حرفيتها.

ولعله أراد إجماع من يُعتَدُّ به منهم في نظره.

والذي أميلُ إليه في دفع الإشكال أنَّ الفعلَ مضمَّنٌ معنى الميل، والجارُّ والمجرور متعلِّق به، لا بالفعل الرافع للضمير؛ وهو مغزًى بعيدٌ لا ينبغي أنْ يُسارَع إليه بالاعتراض، على أنَّ في القلب من عدم صحة نحو هذا التركيب للقاعدة المذكورة شيئاً؛ لكثرة مجيء ذلك في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ومنه البيت المارُّ آنفاً. وقول الشاعر:

دعْ عنك نهباً صِيح في حجراتهِ ولكن حديثاً ما حديثُ الرواحل(٢)

وقولهم: اذهبْ إليك، وسرْ عنك، إلى غير ذلك ممَّا لا يخفى على المتتبِّع. وتأويلُ جميع ما جاء لا يخلو عن تكلُّف. فتأمَّل وأنصف.

ثم الفعل هنا منزَّل منزلة اللازم كما في قول ذي الرمة:

فإنْ تعتذر بالمحلِ من ذي ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نَصْلِي(٣)

فلذا عُدِّيَ بالباء، أي: افعلي الهزَّ ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فالباء للآلة كما في: كتبت بالقلم.

وقيل: هو متعدٍّ والمفعول محذوفٌ، والكلام على تقدير مضاف، أي: هُزِّي الثمرةَ بهزِّ جذع النخلة. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف، وأن هزَّ الثمرة لا يخلو عن ركاكة.

---

(١) البحر ٦/ ١٨٤.
(٢) هو لامرئ القيس. وهو في ديوانه ص٩٤.
(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ١٥٧.

وعن المبرِّد أنَّ مفعوله «رُطَباً» الآتي، والكلامُ من باب التنازع. وتُعقِّب بأن الهزَّ على الرطب لا يقع إلَّا تبعاً، فجعلُه أصلاً، وجعلُ الأصل تبعاً، حيث أدخَل عليه الباء للاستعانة = غيرُ ملائم، مع ما فيه من الفصل بجواب الأمر بينَه وبين مفعوله، ويكون فيه إعمال الأول، وهو ضعيف لا سيما في هذا المقام.

وما ذكر من التعكيس واردٌ على ما فيه من التكلُّف، وهو ظاهر.

وما قيل من أنَّ الهزَّ وإن وقع بالأصالة على الجذع، لكن المقصود منه الثمرة، فلهذه النكتة المناسبة جُعلت أصلاً؛ لأنَّ هزَّ الثمرة ثمرةُ الهزِّ = لا يدفع الركاكة التي ذكرناها، مع أنَّ المفيد لذلك ما يُذكر في جواب الأمر. وجعل بعضُهم «بجذع النخلة» في موضع الحال على تقدير جَعل المفعول «رطباً» أو الثمرة، أي: كائنةً، أو كائناً بجذع النخلة. وفيه ثمرة ما لا تسمن ولا تغني.

وقيل: الباء مزيدةٌ للتأكيد، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقول الشاعر:

هنَّ الحرائرُ لا ربَّاتُ أحمرةٍ(١) سودُ المحاجرِ لا يَقْرأْنَ بالسُّورِ(٢)

والوجهُ الصحيحُ الملائم لما عليه التنزيل من غرابة النظم - كما في «الكشف» - هو الأول.

وقول الفرَّاء(٣): إنَّه يقال: هزَّه وهزَّ به إنْ أرادَ أنَّهما بمعنًى كما هو الظاهر، لا يلتَفتُ إليه، كما نصَّ عليه بعض من يعوِّل عليه.

---

(١) في الأصل و(م): أخمرة. بالخاء المعجمة. والمثبت من المصادر.
قال الجواليقي في شرح أدب الكاتب ص٣٧٨: أحمرة جمع حمار، جمع قلَّة، والكثير حمر، وخص الحمير لأنها رُذَال المال وشرُّه. اهـ.
وقال البغدادي في الخزانة ٩/ ١٠٩-١١٠: وكذا ضبط هذه الكلمة صاحب كتاب «اللصوص»، وابن المستوفي. وقد صَحّف الدمامينيّ في الحاشية الهندية هذه الكلمة بالخاء المعجمة. وقال: والأخمرة: جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها... وتبعه من بعده.

(٢) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٢٢، أو للقتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣. وانظر بالإضافة للمصادر السابقة أدب الكاتب ص٥٢١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٥.

﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ من ساقطت بمعنى: أسقطت، والضميرُ المؤنَّث للنخلة، ورجوع الضمير للمضاف إليه شائعٌ، ومن أنكره فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وجوَّز أبو حيَّان[1] أن يكون الضميرُ للجذع؛ لاكتسابه التأنيثَ من المضاف إليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠] في قراءة من قرأ بالتاء الفوقيَّة[2]، وقول الشاعر:

كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناةِ من الدَّمِ[3]

وتُعقِّب بأنَّه خلاف الظاهر، وإنْ صحَّ.

وقرأ مسروق وأبو حيوة في رواية: «تُسقِط» بالتاء من فوق مضمومة وكسر القاف[4]. وفي روايةٍ أخرى عن أبي حيوة أنَّه قرأ كذلك، إلا أنَّه بالياء من تحت[5].

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ في جميع ذلك نصب على المفعولية، وهو نضيج البُسر، واحدتُه بِهاء، وجُمِع شاذّاً على أرطاب، كربع وأرباع، وعن أبي حيوة أيضاً أنه قرأ: «تَسقُط» بالتاء من فوق مفتوحةً، وضمِّ القاف، وعنه أيضاً كذلك، إلَّا أنَّه بالياء من تحت، فنصب «رطباً» على التمييز، وروي عنه أنَّه رفعه في القراءة الأخيرة على الفاعليَّة[6].

وقرأ أبو السمَّال: «تتَساقط» بتاءين، وقرأ البراء بن عازب: «يَسَّاقط» بالياء من تحت، مضارع: اسَّاقط[7].

---

(١) في البحر ٦/ ١٨٥.

(٢) قرأ بها مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة. انظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٦٤. وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢ عن الحسن فقط.

(٣) هو عجز بيت للأعشى، وصدره:

وتَشرق بالقول الذي قد أذَعْتَه

وهو في ديوانه ص١٧٣، وسلف ٤/ ٣٦٦.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٨٤، ونقل الطبري في تفسيره ٥/ ٥١٤ نسبتها لأبي نهيك.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٧) البحر المحيط ٦/ ١٨٤. وبالأخيرة قرأ أيضاً يعقوب من العشرة، انظر النشر ٢/ ٣١٨.

وقرأ الجمهور: «تَسَّاقَط» بفتح التاء من فوق، وشدِّ السين بعدها ألف، وفتح القاف[١]. والنصب على هذه الثلاثة على التمييز أيضاً.

وجُوّزَ في بعض القراءات أنْ يكونَ على الحالية الموطِّئة، وإذا أُضمِر ضمير مذكَّر على إحدى القراءات فهو للجذع، وإذا أضمر ضميرٌ مؤنث فهو للنخلة، أو له على ما سمعت.

﴿جَنِيًّا ۝٢٥﴾ أي: مجنيًّا، ففعيل بمعنى مفعول، أي: صالحاً للاجتناء. وفي «القاموس»: ثمرٌ جنيٌّ: جُنِي من ساعته[٢]. وعليه قيل: المعنى: رطباً يقول من يراه: هو جنيّ، وهو صفةُ مدح، فإنَّ ما يُجنى أحسنُ مما يسقط بالهزّ، وما قَرُب عهده أحسنُ مما بَعُدَ عهده.

وقيل: فعيل بمعنى فاعل، أي: رطباً طريًّا، وكأن المراد ـ على ما قيل ـ أنَّه تمَّ نضجُه.

وقرأ طلحةُ بن سليمان: «جِنيًّا» بكسر الجيم للإتباع[٣]، ووجه التذكير ظاهر.

وعن ابن السيد أنَّه قال في «شرح أدب الكاتب»: كان يجب أنْ يقال: جنيَّة، إلَّا أنَّه أخرجَ بعضَ الكلام على التذكير وبعضَه على التأنيث[٤]. وفيه نظر.

روي عن ابن عباس أنَّه لم يكن للنخلة إلَّا الجذع، ولم يكن لها رأسٌ، فلمَّا هزته إذ السعف قد طلع، ثمَّ نظرت إلى الطلع يخرجُ من بين السعف، ثم اخضرَّ فصار بلحاً، ثمَّ احمرَّ فصار زهواً، ثم رطباً، كلُّ ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقعُ بين يديها، وكان برنيًّا. وقيل: عجوة، وهو المرويُّ عن أبي عبد الله ﵁.

---

(١) وهي قراءة نافع، وشعبة عن عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو البصري، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف.
وقرأ حمزة: «تَسَاقط» بفتح التاء والقاف مع التخفيف.
وقرأ حفص: «تُسَاقِط» بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين. انظر التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣١٨.

(٢) القاموس (جني).

(٣) المحتسب ٢/ ٤١، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٤) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ٢/ ٣٠٣.

والظاهر أنَّها لم تحمل سوى الرطب، وقيل: كان معه موز، وروي ذلك عن أبي روق، وإنَّما اقتصرَ عليه لغاية نفعه للنفساء، فعن الباقر ﷺ: لم تستشف النفساءُ بمثل الرطب، إنَّ الله أطعمهُ مريم في نفاسها.

وقالوا: ما للنفساء خيرٌ من الرطب، ولا للمريض خيرٌ من العسل. وقيل: المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خيرٌ من الرطب، وذكر أنَّ التمر للنفساء عادةٌ من ذلك الوقت، وكذا التحنيكُ.

وفي أمرها بالهزِّ إشارةٌ إلى أنَّ السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوبٌ، وهو لا ينافي التوكل، وما أحسنَ ما قيل:

ألم تر أنَّ الله أوحى لمريم ... وهزِّي إليك الجذع يَسَّاقط الرُّطبْ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّه ... إليها ولكن كلُّ شيء له سببْ[1]

﴿فَكُلِي﴾ من ذلك الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من ذلك السريّ. وقيل: من عصير الرطب، وكان في غاية الطراوة، فلا يتمُّ الاستدلال بذكر الشرب على تعيُّن تفسير السريِّ بالجدول.

وما ألطفَ ما أرشد إليه النظمُ الكريم من إحضار الماء أولاً والطعام ثانياً، ثم الأكل ثالثاً والشرب رابعاً، فإنَّ الاهتمام بالماء أشدُّ من الاهتمام بالأكل، لا سيما ممَّن يريد أن يأكل ما يحوج إلى الماء، كالأشياء الحلوة الحارَّة، والعادةُ قاضيةٌ بأنَّ الأكل بعد الشرب، ولذا قدَّم الأكلَ على الشرب حيث وقع.

وقيل: قدَّم الماء لأنَّه أصلٌ في النفع، ونفعُه عامٌّ للتنظيف ونحوه، وقد كان جارياً، وهو أظهرُ في إزالة الحزن، وأخَّرَ الشرب للعادة.

وقيل: قدَّم الأكلَ؛ ليجاور ما يشاكلُه، وهو الرطب.

والأمر، قيل: يحتملُ الوجوب والندب، وذلك باعتبار حالها، وقيل: هو للإباحة.

---

(١) البيتان في ثمار القلوب للثعالبي ص٣٠٦-٣٠٧ دون نسبة. ورواية البيت الثاني فيه:
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كلُّ شيءٍ له سبب

﴿وَقَرِّى عَيۡنٗاۖ﴾ وطيبي نفساً وارفضي عنها ما أحزنكِ.

وقرئ بكسر القاف، وهي لغة نجد[1]، وهم يفتحون عين الماضي، ويكسرون عين المضارع، وغيرهم يكسرهما، وذلك من القَرِّ بمعنى السكون، فإنَّ العين إذا رأت ما يسرُّ النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، ويشهد له قوله تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ [الأحزاب:١٩] من الحزن. أو بمعنى البرد؛ فإنَّ دمعةَ السرور باردةٌ، ودمعة الحزن حارَّة، ويشهد له قولهم: قُرَّةُ العين وسُخْنتُها للمحبوب والمكروه.

وتسليتُها عليها السلام بما تضمَّنته الآية من إجراء الماء وإخراج الرطب، من حيثُ إنَّهما أمران خارقان للعادة، فكأنَّه قيل: لا تحزني، فإنَّ الله تعالى قديرٌ، ينزِّه ساحتك عما يختلجُ في صدور المتقيدين بالأحكام العادية، بأن يرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك بما أظهرَ لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية، ما يخرق العادات التكوينية، وفرَّع على التسلية الأمر بالأكل والشرب؛ لأنَّ الحزينَ قد لا يتفرَّغُ لمثل ذلك، وأكَّد ذلك بالأمر الأخير.

ومن فسَّر السريّ برفيع الشأن سامي القدر؛ جعل التسليةَ بإخراج الرطب كما سمعت، وبالسريِّ من حيثُ إنَّ رفعةَ الشأن مما يتبعها تنزيهُ ساحتها، فكأنه قيل: لا تحزني، فإنَّ الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزِّه ساحتك قالاً وحالاً.

وقد يؤيِّد هذا في الجملة بما روي عن ابن زيد قال: قال عيسى عليه السلام لها: لا تحزني، فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولستُ ذاتَ زوج ولا مملوكة، فأيُّ شيءٍ عذري عند الناس، ليتني متُّ قبل هذا، فقال لها عليه السلام: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي: آدميًّا كائناً من كان.

وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه ابنُ الروميّ: «ترئنَّ» بالإبدال من الياء همزة. وزعم ابن خالويه أن هذا لحن عند أكثر النحويين[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٥١٦، وتفسير القرطبي ١٣/٤٣٧، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.
قال العكبري في الإملاء ٢/ ١١٣ ـ مصورة دار الكتب العلمية: والكسر قراءة شاذة.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٤، وأوردها ابن جني في المحتسب ٢/ ٤٢ ـ وضعفها ـ وأبو حيان في البحر ٦/ ١٨٥.

وقال الزمخشريُّ: إنَّه من لغة من يقول: لبأتُ بالحجِّ، وحَلأتُ السويق، وذلك لتآخٍ بين الهمزة وحروف اللين في الإبدال[١].

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة: «تَرَيْنَ» بسكون الياء وفتح النون خفيفة[٢]. قال ابن جنِّي[٣]: هي شاذَّةٌ.

وكان القياسُ حذف النون للجازم، كما في قول الأفوه الأوديِّ:

إمَّـــا تَـــرَي رأسِـــيَ أزرى بـــه مـأسُ زمـانٍ ذي انـتـكـاسٍ مَـؤُوْسْ[٤]

﴿فَقُولِىٓ﴾ له إن استنطقك: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﷺ: «صياماً». والمعنى واحد، أي: صمتاً، كما في مصحف عبد الله، وقرأ به أنسُ بن مالك[٥].

فالمراد بالصوم الإمساك، وإطلاقه على ما ذكر باعتبار أنَّه بعضُ أفراده، كإطلاق الإنسان على زيد، وهو حقيقة.

وقيل: إطلاقه عليه مجاز، والقرينة التفريعُ الآتي، وهو ظاهر على ذلك.

وقال بعضهم: المراد به الصوم عن المفطرات المعلومة وعن الكلام، وكانوا لا يتكلمون في صيامهم، وكان قربةً في دينهم، فيصح نذره. وقد نهى النبيُّ ﷺ عنه[٦]، فهو منسوخٌ في شرعنا كما ذكره الجصاص في كتاب «الأحكام»[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٢) المحتسب ٢/ ٤٢ عن طلحة، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٣٩، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥. وقراءة أبي جعفر المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) في المحتسب ٢/ ٤٢.

(٤) ديوان الأفوه الأودي ص١٦ (الطرائف الأدبية).
قال المعري في رسالة الملائكة ص١٣: مأس بين القوم إذا أفسد بينهم.

(٥) قراءة زيد بن علي في البحر المحيط ٦/ ١٨٥، وقراءة أنس في تفسير الرازي ٢١/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٦) كما في حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبيُّ ﷺ: «مره فليتكلم، وليستظلَّ، وليقعد، وليتمَّ صومه» أخرجه البخاري (٦٧٠٤) عن ابن عباس ﷺ.

(٧) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢١٧.

وروي عن أبي بكر ﷺ أنَّه دخل على امرأةٍ قد نذرت أن لا تتكلم، فقال: إنَّ الإسلامَ هدمَ هذا، فتكلَّمي[١].

وفي «شرح البخاريِّ» لابن حجر عن ابن قدامة أنَّه ليس من شريعة الإسلام[٢]. وظاهرُ الأخبار تحريمه، فإن نذرَه لا يلزمُه الوفاء به، ولا خلافَ فيه بين الشافعية والحنفية لما فيه من التضييق، وليس في شرعنا، وإنْ كان قربةً في شرع من قبلنا، فتردُّد القفَّالِ في الجواز وعدمِه ناشئٌ من قلَّة الاطلاع.

وفي بعض الآثار ما يدل ظاهره على أن نذر الصمت كان من مريم عليها السلام خاصة، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان، فسلَّم أحدهما ولم يسلِّم الآخر، ثمَّ جلسا، فقال القوم: ما لصاحبك لم يُسلِّم؟ قال: إنَّه نذرَ صوماً، لا يكلِّم اليوم إنسيًّا. فقال له ابن مسعود: بئس ما قلت، إنَّما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت، وكانوا ينكرون أنْ يكون ولدٌ من غير زوج، إلَّا زنًى، فكلِّم وَأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر، فإنَّه خيرٌ لك[٣].

والظاهر على المعنى الأخير للصوم أنَّه باعتبار الصمت فيه فرع قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ أي: بعد أن أخبرتُكم بنذري، فيكون[٤] قد نذرتُ أن لا تكلِّم إنسيًّا بغير هذا الإخبار، فلا يكونُ مبطلاً له؛ لأنَّه ليس بمنذورٍ، ويحتملُ أنَّ هذا تفسيرٌ للنذر بذكر صيغته.

وقالت فرقة: أُمِرت أن تخبر بنذرها بالإشارة، قيل: وهو الأظهر.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٧٦ بإسناده عن زيد بن وهب عن أبي بكر. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ١٥٠: ولا يقول أبو بكر مثل هذا إلا عن توقيف، فيكون في حكم المرفوع. اهـ.
وفي «صحيح البخاري» (٣٨٣٤) نحوه من حديث قيس بن أبي حازم قال: دخل أبو بكر على امرأة...

(٢) فتح الباري ٧/ ١٥٠. وكلام ابن قدامة في «المغني» ٤/ ٤٨١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٦٩-٢٧٠. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٦.

(٤) في (م): فتكون.

قال الفراء: العربُ تسمِّي كلَّ ما وصلَ إلى الإنسان كلاماً، بأيِّ طريق وصل، ما لم يؤكَّد بالمصدر، فإذا أكِّد لم يكن إلَّا حقيقة الكلام.

ويفهم من قوله تعالى: «إنسيًّا» دون: أحداً، أنَّ المراد: فلن أكلِّم اليوم إنسيًّا، وإنَّما أكلِّم المَلَك وأناجي ربِّي.

وإنَّما أمرت عليها السلام بذلك ـ على ما قاله غير واحدٍ ـ لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنَّه نصٌّ قاطعٌ في قطع الطعن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: جاءتهم مع ولدها حاملةً إيَّاه، على أنَّ الباءَ للمصاحبة، ولو جُعلت للتعدية صحَّ أيضاً. والجملة في موضع الحال من ضمير «مريم»، أو من ضمير ولدها.

وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيدُ بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس: بعد أربعين يوماً، حين طهرت من نفاسها[1].

قيل: إنَّها حنَّت إلى الوطن، وعلمت أن ستُكفى أمرها، فأتَت به، فلمَّا دخلت عليهم تباكوا، وقيل: همُّوا برجمها، حتى تكلم عيسى عليه السلام.

وجاء في روايةٍ عن الحبر أنَّها لمَّا انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها، فسألوا يوسفَ عنها، فقال: لا علم لي بها، وإنَّ مفتاحَ باب محرابها عند زكريَّا، فطلبوا زكريا وفتحوا الباب فلم يجدوها، فاتَّهموه فأخذوه ووبَّخوه، فقال رجل: إنِّي رأيتُها في موضع كذا، فخرجوا في طلبها، فسمعوا صوت عقعق في رأس الجذع الذي هي من تحته، فانطلقوا إليه، فلما رأتهم قد أقبلوا إليها احتملت الولد إليهم، حتى تلقتهم به، ثم كان ما كان.

وظاهر الآية والأخبار أنَّها جاءتهم به من غير طلبٍ منهم.

وقيل: أرسلوا إليها: لتحضري إلينا بولدك، وكان الشيطان قد أخبرَهم بولادتها، فحضرت إليهم به، فلمَّا رأوهما ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ فعلت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ قال قتادة: عظيماً. وقيل: عجيباً. وأصله من فَرى الجلد: قطعه على

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٠/ ٩٦.

وجه الإصلاح أو الإفساد، وقيل: من أفراه كذلك. واختير الأول لأنَّ فعيلاً إنَّما يصاغ قياساً من الثلاثيّ، وعدمُ التفرقة بينه وبين المزيد في المعنى هو الذي ذهب إليه صاحب «القاموس»[1].

وفي «الصحاح»[2] عن الكسائيّ أنَّ الفريَ القطعُ على وَجْه الإصلاح، والإفراءَ على وجه الإفساد، وعن الراغب[3] مثلُ ذلك. وقيل: الإفراء عامٌّ.

وأيًّا ما كان فقد استُعير الفري لما ذكر في تفسيره.

وفي «البحر»[4]: أنَّه يستعمل في العظيم من الأمر؛ شرًّا أو خيراً، قولاً أو فعلاً. ومنه في وصف عمر ﷺ: «فلم أرَ عبقريًّا يفري فَرِيَّهُ»[5] وفي المثل: جاء يفري الفرِيَّ[6].

ونصب «شيئاً» على أنَّه مفعولٌ به. وقيل: على أنَّه مفعولٌ مطلق، أي: لقد جئتِ مجيئاً عجيباً. وعبَّر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب.

وقرأ أبو حيوة ـ فيما نقل ابن عطية ـ[7]: «فَرْياً» بسكون الراء، وفيما نقل ابن خالويه: «فرئاً»[8] بالهمزة.

﴿يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئنافٌ لتجديد التعيير، وتأكيد التوبيخ. وليس المرادُ بهارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام؛ لما أخرج أحمدُ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ

---

(١) مادة (فرى).

(٢) مادة (فرى).

(٣) المفردات (فرى).

(٤) ٦/ ١٧٠.

(٥) أخرجه البخاري(٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣)، وأحمد (٤٨١٤) من حديث ابن عمر ﷺ، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٤٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) مجمع الأمثال ١/ ١٧٧.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣.

(٨) كذا رسمت في الأصل، ومثله في مطبوع البحر المحيط ٦/ ١٨٦. وعنه نقل المصنف. ووقع في القراءات الشاذة ص٨٤، والدر المصون ٧/ ٥٩٢، وتاج العروس (فرأ): فريئاً. ولعله الصواب.

والطبرانيُّ وابنُ حبان وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرأيتَ ما تقرؤون: «يا أخت هارون»، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعتُ فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[1]، بل هو ـ على ما روي عن الكلبيِّ ـ أخٌ لها من أبيها.

وأخرج عبدُ الرزاق وعبدُ بن حميد عن قتادة قال: هو رجلٌ صالحٌ في بني إسرائيل[2].

وروي عنه أنَّه قال: ذكر لنا أنَّه تبعَ جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل، كلُّهم يسمَّى هارون.

والأختُ على هذا بمعنى المشابهة، وشبَّهوها به تهكماً، أو لما رأوا قبلُ من صلاحها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه رجلٌ طالحٌ فَشَبّهوها به شتماً لها[3].

وقيل: المراد: هارون أخو موسى عليهما السلام، وأخرجَ ذلك ابنُ أبي حاتم أيضاً عن السُّدِّيّ وعليِّ بن أبي طلحة. وكانت من أعقاب من كان معه في طبقةِ الإخوة، فوصفها بالأخوَّة؛ لكونها وصفَ أصلها.

وجُوِّزَ أنْ يكون هارون مطلقاً على نسله، كهاشم وتميم، والمراد بالأخت أنَّها واحدةٌ منهم، كما يقال: أخا العرب، وهو المرويُّ عن السُّدِّي.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ تقريرٌ لكون ما جاءت به فريًّا، أو تنبيهٌ على أنَّ ارتكابَ الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ.

---

(١) مسند أحمد (١٨٢٠١)، وصحيح مسلم (٢١٣٥)، وسنن الترمذي (٣١٥٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٥٣)، والمعجم الكبير للطبراني ٢٠/ (٩٨٦)، وصحيح ابن حبان (٦٢٥٠).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧-٨.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٧ (١٣١٢٠).

وفيه دليلٌ على أنَّ الفروعَ غالباً تكونُ زاكيةً إذا زكت الأصول، ويُنكَر عليها إذا جاءت بضدِّ ذلك.

وقرأ عمر بن بجاء[1] التيميُّ الشاعر الذي كان يُهاجي جريراً: «ما كان أباكِ امرُؤُ سَوْء»[2] بجعل الخبر المعرفة، والاسم النكرة. وحسَّن ذلك قليلاً وجودُ مسوِّغِ الابتداء فيها، وهو الإضافة.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. قال شيخ الإسلام[3]: والظاهر أنَّها بيَّنت حينئذٍ نذرَها، وأنَّها بمعزلٍ من محاورة الإنس حسبما أُمرت، ففيه دلالة على أنَّ المأمورَ به بيانُ نذرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما مما لا عهد به.

﴿قَالُوا۟﴾ منكرين لجوابها. وفي بعض الآثار أنَّها لمَّا أشارت إليه أنْ كلِّموه، قالوا: استخفافُها بنا أشدُّ من زناها. وحاشاها، ثم قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ قال قتادة: «المهد»: حِجْر أمِّه. وقال عكرمة: المرباة، أي: المرجحة. وقيل: سريره. وقيل: المكان الذي يستقرُّ عليه.

واستشكلت الآية بأنَّ كلَّ من يكلِّمُه الناس كان في المهد صبيًّا قبل زمان تكليمه، فلا يكون محلًّا للتعجُّب والإنكار.

وأجاب الزمخشريُّ[4] عن ذلك بوجهين:

الأول: أن «كان» لإيقاع مضمون الجملة في زمانٍ ماضٍ مبهم، يصلحُ لقريبه وبعيده، وهو هاهنا لقريبه خاصَّة، والدَّالّ عليه أنَّ الكلام مسوقٌ للتعجب، فيكون المعنى: كيف نكَلِّمُ من كان بالأمس وقريباً منه من هذا الوقت في المهد، وغرضُهم من ذلك استمرار حال الصبيِّ به لم يبرح بعد عنه. ولو قيل: من هو في المهد، لم

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو تحريف، والصواب: لجأ، كما في المصادر.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والكشاف ٢/ ٥٠٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٤٤. وتحرفت في مطبوع البحر المحيط ٦/ ١٨٦ ـ وعنه نقل المصنف ـ إلى: «ما كان أبوك امرء سوء». ويدل على تحريفه ما ذكره أبو حيان بعده.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٣.

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٠٨.

يكن فيه تلك الوكادة من حيث السابق، كالشاهد على ذلك، و«من» على هذا موصولةٌ يرادُ بها عيسى عليه السلام.

الثاني: أن يكون «نكلِّم» حكاية حالٍ ماضية، و«من» موصوفة، والمعنى: كيف نكلِّم الموصوفين بأنَّهم في المهد، أي: ما كلَّمناهم إلى الآن حتى نكلِّم هذا، وفي العدول عن الماضي إلى الحال إفادةُ التصوير والاستمرار. وهذا كما في «الكشف» وجهٌ حسنٌ ملائم.

وقال أبو عبيدة: «كان» زائدةٌ لمجرَّد التأكيد من غير دلالة على الزمان، و«صبيًّا» حالٌ مؤكِّدةٌ، والعامل فيها الاستقرار[(١)]. فقول ابن الأنباريّ: إنَّ «كان» نصبت هنا الخبر، والزائدة لا تنصبه[(٢)]. ليس بشيء، والمعنى: كيف نكلِّم من هو في المهد الآن حالَ كونه صبيًّا. وعلى قول من قال: إنَّ «كان» الزائدة لا تدلُّ على حدثٍ، لكنَّها تدل على زمانٍ ماضٍ مقيَّد به ما زيدت فيه، كالسيرافي = لا يندفعُ الإشكال بالقول بزيادتها.

وقال الزجاج: الأجودُ أن تكون «من» شرطية، لا موصولة ولا موصوفة، أي: من كان في المهد فكيف نكلِّمه[(٣)]. وهذا كما يقال: كيف أعظُ من لا يعمل بموعظتي. والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء، فلا إشكال في ذلك. ولا يخفى بعده.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم، كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ رُوي أنَّه عليه السلام كان يرضع، فلمَّا سمع ما قالوا ترك الرضاع، وأقبلَ عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار بسبابته، فقال ما قال.

وقيل: إنَّ زكريا عليه السلام أقبَل عليه يستنطقه، فقال ذلك.

وذكر عبوديته لله تعالى أولاً؛ لأنَّ الاعتراف بذلك ـ على ما قيل ـ أوَّلُ مقامات السالكين.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٧.
(٢) انظر الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٦٢.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٨.

وفيه ردٌّ على من يزعم ربوبيَّته. وفي جميع ما قال تنبيهٌ على براءة أمِّه؛ لدلالته على الاصطفاء، والله سبحانه أجلُّ من أن يصطفي ولد الزنى، وذلك من المسلَّمات عندهم. وفيه من إجلال أمِّه عليهما السلام ما ليس في التصريح. وقيل: لأنه تعالى لا يَخصُّ بولدٍ موصوفٍ بما ذُكر إلَّا مبرَّأة مصطفاة.

واختلف في أنَّه بعد أن تكلَّم بما ذكر هل بقيَ يتكلَّم كعادة الرجال، أو لم يتكلَّم حتى بلغ مبلغاً يتكلَّم فيه الصبيان، وعدُّه عليه السلام في عداد الذين تكلَّموا في المهد[١] ثمَّ لم يتكلموا إلى وقت العادة ظاهرٌ في الثاني.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الظاهر أنَّه الإنجيل. وقيل: التوراة. وقيل: مجموعهما.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ قال مجاهد: نفَّاعاً، ومن نفعِه إبراءُ الأكمه والأبرص.

وقال سفيان: معلم الخير. [وقيل][٢]: آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

وعن الضحاك: قاضياً للحوائج. والأول أولى؛ لعمومه، والتعبيرُ بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة، إمَّا باعتبار ما في القضاء المحتوم، أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع.

وقيل: أكملَه الله تعالى عقلاً، واستنبأه طفلاً. وروي ذلك عن الحسن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس أنَّ عيسى عليه السلام درسَ الإنجيل وأحكَمه في بطن أمِّه، وذلك قوله: «آتانيَ الكتاب»[٣].

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ أي: حيثما كنت. وفي «البحر» أنَّ هذا شرطٌ، وجزاؤه محذوفٌ، تقديره: جعلني مباركاً، وحذفَ لدلالة ما تقدَّم عليه.

ولا يجوزُ أنْ يكون معمولاً لـ «جعلني» السابق؛ لأنَّ «أين» لا تكونُ إلَّا

(١) الحديث في الثلاثة الذين تكلموا في المهد أخرجه البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ما بين حاصرتين من البحر المحيط ٦/ ١٨٧ وعنه نقل المصنف.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٨ (١٣١٢٤).

استفهاماً أو شرطاً، والأول لا يجوز هنا، فتعيَّن الثاني، واسمُ الشرط لا ينصبُه فعلٌ قبلَه، وإنَّما هو معمولٌ للفعل الذي يليه.

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: أمرني بهما أمراً مؤكَّداً. والظاهر أنَّ المرادَ بهما ما شُرِع في البدن والمال على وجه مخصوص. وقيل: المراد بالزكاة زكاة الفطر. وقيل: المرادُ بالصلاة الدعاء، وبالزكاة تطهير النفس عن الرذائل.

ويتعيَّن هذا في الزكاة على ما نُقِل عن ابن عطاء الله، وإنْ كان منظوراً فيه من أنَّه لا زكاةَ على الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ الله تعالى نزَّههم عن الدنيا، فما في أيديهم لله تعالى، ولذا لا يورثون، أو لأنَّ الزكاة تطهيرٌ وكسبهم طاهر.

وقيل لا يتعيَّن؛ لأنَّ ذلك أمرٌ له بإيجاب الزكاة على أمته. وهو خلافُ الظاهر.

وإذا قيل بحمل الزكاة على الظاهر، فالظاهر أنَّ المراد: «أوصاني» بأداء زكاة المال إنْ ملكتُه، فلا مانع من أنْ يشمل التوقيت بقوله سبحانه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ مدَّةَ كونه عليه السلام في السماء، ويلتزمُ القول بوجوب الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام هناك، كذا قيل.

وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ المتبادرَ من المدَّة المذكورة مدَّةُ كونه عليه الصلاة والسلام حيًّا في الدنيا على ما هو المتعارف، وذلك لا يشملُ مدَّة كونه عليه السلام في السماء. ونقل ابنُ عطية أنَّ أهل المدينة وابن كثير وأبا عمرو قرؤوا: «دِمْتُ» بكسر الدال[1]. ولم نجد ذلك لغيره، نعم قيل: إنَّ ذلك لغة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥. قال أبو حيان في البحر ٦/ ١٨٧ بعد نقله كلام ابن عطية: والذي في كتب القراءات أن القراء السبعة قرؤوا: «دُمت حيًّا» بضم الدال، وقد طالعنا جملة من الشواذ، فلم نجدها لا في شواذ السبعة، ولا في شواذ غيرهم...
وقال السمين في الدر المصون ٧/ ٥٩٦ مثل ذلك ثم قال: فيجوز أن يكون اطلع عليه في مصحف غريب.
وقال صاحب «الدر اللقيط» بهامش البحر ٦/ ١٨٧: حكاها ابن غلبون في كتاب «تصرف الخاصة في القراءات الشاذة» عن يحيى بن وثاب وطلحة، ونص على أنها بكسر الدال، فاعلمه. اهـ.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ عطفٌ على «مباركاً» على ما قال الحوفيُّ وأبو البقاء[1]. وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ فيه بعداً؛ للفصل بالجملة ومتعلقها، واختار إضمارَ فعل، أي: وجعلَني بارًّا بها[2]. قيل: هذا كالصريح في أنَّه عليه السلام لا والدَ له، فهو أظهرُ الجمل في الإشارة إلى براءتها عليها السلام.

وقُرِئ: «بِرًّا» بكسْرِ الباء[3]. ووجه نصبه نحو ما مرَّ في القراءة المتواترة.

وجعل ذاته عليه السلام برًّا من باب:

فــإنــمــا هــي إقــبــالٌ وإدبــار[4]

وجوَّز أنْ يكون النصبُ بفعلٍ في معنى: «أوصاني»، أي: وألزمني، أو: وكلَّفني برًّا، فهو من باب:

عــلــفــتُــهــا تــبــنــاً ومــاءً بــاردا[5]

وأقربُ منه على ما في «الكشف»؛ لأنَّه مثل: زيداً مررتُ به، في التناسب وإنْ لم يكن من بابه.

وجُوِّز أن يكون معطوفاً على محلِّ: «بالصلاة»، كما قيل في قراءة «أرجلكم» بالنصب[6]، وقيل: إنَّ «أوصى» قد يتعدَّى للمفعول الثاني بنفسه، كما وقع في البخاري: أوصيناكَ ديناً واحداً[7]. والظاهرُ أنَّ الفعلَ في مثل ذلك مضمَّنٌ معنى ما يتعدَّى بنفسه.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٤ مصوَّرة دار الكتب العلمية.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٨.
(٣) القراءات الشاذة ص٨٤، والمحتسب ٢/ ٤٢، والبحر المحيط ٦/ ١٨٨.
(٤) هو عجز بيت للخنساء وصدره:

تــرتــع مــا رتــعــت حــتــى إذا ادَّكــرت

وسلف ١/ ٢٦٨.
(٥) سلف ٥/ ٢٩١.
(٦) في سورة المائدة، الآية: ٦. وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص من السبعة. انظر التيسير ص٩٨. وسلف الكلام عنها في موضعها ٦/ ٧٣.
(٧) «صحيح البخاري»، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإيمان على خمس». قبل الحديث رقم (٨). وهو من قول مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ [الشورى: ١٣].

وحكى الزهراويُّ وأبو البقاء أنه قُرِئ: «وبِرٌّ» بكسر الباء والراء[1]، وهو معطوفٌ على الصلاة والزكاة قولاً واحداً، والتنكير للتفخيم.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: لم يقضِ عليَّ سبحانه بذلك في علمه الأزليّ، وقد كان عليه السلام في غاية التواضع، يأكلُ الشجر، ويلبسُ الشعر، ويجلسُ على التراب، ولم يتَّخذ مسكنًا، وكان عليه السلام يقول: سلوني فإني ليِّنُ القلبِ، صغيرٌ في نفسي.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ تقدَّم الكلامُ في وجه تخصيص هذه المواطن بالذكر، فتذكَّر فما في العهد من قدم.

والأظهرُ، بل الصحيح[2] أنَّ التعريفَ للجنس، جيء به تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها عليها السلام من اليهود، فإنَّه إذا قال: جنسُ السلام عليَّ خاصَّة، فقد عرَّض بأنَّ ضدَّه عليكم، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧] يعني: أنَّ العذاب على من كذَّب وتولى. وكان المقامُ مقامَ مناكرةٍ وعناد، فهو مئنَّةٌ لنحو هذا من التعريض.

والقول بأنَّه لتعريف العهد خلافُ الظاهر، بل غيرُ صحيح، لا لأنَّ المعهودَ سلامُ يحيى عليه الصلاة والسلام، وعينُه لا يكونُ سلاماً لعيسى عليه الصلاة والسلام؛ لجوازِ أن يكونَ من قبيل: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥]، بل لأنَّ هذا الكلامَ منقطعٌ عن ذلك وجوداً وسرداً، فيكون معهوداً غيرَ سابقٍ لفظاً ومعنًى، على أنَّ المقام يقتضي التعريض، ويفوتُ على ذلك التقدير؛ لأن التقابل إنَّما ينشأُ من اختصاص جميع السلام به عليه السلام. كذا في «الكشف»، والاكتفاءُ في العهد به لتصحيحه بذكره في الحكاية لا يخفى حاله.

وسلامُ يحيى عليه السلام، قيل: لكونه من قول الله تعالى، أرجحُ من هذا

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٨، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١٤.

(٢) قوله: الأظهر، بل الصحيح، وقوله الآتي: خلاف الظاهر، بل غير صحيح. فيه ترجيح لما في «الكشاف» ٢/ ٥٠٨ من تصحيح هذا القول. وردٌّ على البيضاوي في تفسيره ٤/ ٧ حيث عدل عن عبارة «الكشاف» بالتصحيح إلى: الأظهر، وانظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٥٦.

السلام؛ لكونه من قول عيسى عليه السلام. وقيل: هذا أرجح؛ لما فيه من إقامة الله تعالى إيَّاه في ذلك مقامَ نفسه، مع إفادة اختصاصِ جميع السلام به عليه السلام، فتأمَّل.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﵄: «يوم وُلِدَتْ» بتاء التأنيث وإسنادِ الفعل إلى والدته[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة على من فُصِّلَت نعوتُه الجليلة، وفيه إشارةٌ إلى علوِّ رتبتِه، وبعدِ منزلته، وامتيازِه بتلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلةَ المحسوس المشاهد. وهو مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفةُ «عيسى»، أو خبرٌ بعدَ خبر، أو بدل، أو عطفُ بيان. والأكثرون على الصفة.

والمراد: ذلك هو عيسى ابن مريم، لا ما يصفُه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانيّ، حيث جُعِل موصوفاً بأضداد ما يصفونَه، كالعبودية لخالقه سبحانه، المضادَّة لكونه عليه السلام إلهاً وابناً لله عزَّ وجل، فالحصرُ مستفادٌ من فحوى الكلام. وقيل: هو مستفادٌ من تعريف الطرفين بناء على ما ذكره الكرمانيّ من أنَّ تعريفهما مطلقاً يفيدُ الحصر.

وهو على ما فيه مخالفٌ لما ذكره أهلُ المعاني من أنَّ ذلك مخصوصٌ بتعريف المسند باللام أو بإضافته إلى ما هي فيه، كـ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [يونس: ١] على ما في بعض شروح «الكشاف».

وقيل: استفادتُه من التعريف على ما ذكروه أيضاً؛ بناءً على أنَّ عيسى مؤولٌ بالمعرف باللام، أي: المسمَّى بعيسى، وهو كما ترى، فعليك بالأول.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصب على المدح، والمرادُ بالحقِّ الله تعالى، وبالقول كلمتُه تعالى، وأُطلقت عليه عليه السلام بمعنى أنَّه خُلِق بقول: «كن» من غير أب.

وقيل: نصب على الحال من «عيسى»، والمراد بالحقِّ والقول ما سمعت.

وقيل: نصب على المصدر، أي: أقول قولَ الحق.

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٨.

وقيل: هو مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة، منصوبٌ بـ «أحقّ» محذوفاً وجوباً.

وقال شيخ الإسلام: هو مصدرٌ مؤكِّد لـ «قال: إنِّي عبدُ الله» إلخ. وقوله سبحانه: «ذلك عيسى بن مريم» اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله[(١)]. وفيه بعد.

و«الحقّ» في الأقوال الثلاثة بمعنى الصدق، والإضافةُ عند جمعٍ بيانيَّة، وعند أبي حيان[(٢)] من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقرأ الجمهور: «قولُ» بالرفع[(٣)]، على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو قولُ الحقِّ الذي لا ريبَ فيه، والضمير المقدَّر للكلام السابق، أو لتمام القصة.

وقيل: صفةٌ لـ «عيسى» أو بدلٌ منه، أو خبرٌ بعدَ خبر لـ «ذلك»، أو هو الخبر و«عيسى» بدل أو عطف بيان. والمراد في جميع ذلك كلمةُ الله تعالى.

وقرأ ابن مسعود: «قالُ الحق»، و«قالُ الله» برفع «قال» فيهما[(٤)].

وعن الحسن: «قُولُ الحقِّ» بضمِّ القاف واللام[(٥)].

والقولُ والقَال والقُول بمعنًى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب، ونصَّ أبو حيان على أنَّها مصادر[(٦)]، وعن ابن السكِّيت: القالُ، وكذا القيل: اسمٌ لا مصدر.

وقرأ طلحة والأعمش في رواية: «قال الحقُّ» برفع لام[(٧)] «قال» على أنَّه فعلٌ ماض، ورفع «الحق» على الفاعلية، وجعل «ذلك عيسى ابن مريم» على هذا مقولَ القول، أي: قال الله تعالى: ذلك الموصوفُ بما ذُكر عيسى ابن مريم ﴿ٱلَّذِى فِيهِ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٩.

(٣) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي جعفر وخلف من العشرة. وقرأ بالنصب عاصم وابن عامر ويعقوب. التيسير ص١٤٩، والنشر ٢/ ٣١٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٤، والكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٥، والكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨٩.

(٧) قوله: برفع لام «قال» سبق قلم. فلم أرَ من قيدها بذلك، بل مقتضى كونها فعلاً ماضياً أن تكون بالفتح. انظر البحر المحيط ٦/ ١٨٩، والدر المصون ٧/ ٥٩٨. ورُوي عن الأعمش أيضاً ضم اللام، كقراءة ابن مسعود السابقة قريباً. فلعلَّ الوهم تسرب إليه من ذلك.

يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ أي: يشكُّون، أو يتنازعون، فيقول اليهود: هو ساحرٌ. وحاشاه. ويقولُ النصارى: ابنُ الله. سبحانَ الله عمَّا يقولون.

والموصول صفةُ القول، أو الحق، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو الذي.. إلخ. وذلك بحسب اختلاف التفسير والقراءة.

وقرأ عليٌّ كرم لله تعالى وجهه والسلميُّ وداود بن أبي هند ونافع في رواية والكسائيُّ كذلك: «تمترون» بتاء الخطاب(١).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَنَهُۥٓ﴾ أي: ما صحَّ وما استقامَ له جلَّ شأنه اتِّخاذُ ذلك، وهو تكذيبٌ للنصارى، وتنزيهٌ له عزَّ وجلَّ عما افتروه عليه تبارك وتعالى، وقوله جلَّ وعلا: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ تبكيتٌ له ببيان أنَّ شأنَه ـ تعالى شأنُه ـ إذا قضى أمراً من الأمور أنْ يوجَد بأسرع وقتٍ، فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهَّمُ أنْ يكون له ولدٌ، وهو من أماراتِ الاحتياج والنقص.

وقرأ ابن عامر: «فيكونَ» بالنصب على الجواب(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ عطفٌ ـ على ما قال الواحديُّ(٣) ـ على قوله: «إنِّي عبدُ الله» فهو من تمام قول عيسى عليه السلام، تقريراً لمعنى العبودية(٤)، والآيتان معترضتان، ويؤيِّدُ ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ أبيّ بغير واو(٥). والظاهرُ أنَّه على هذا بتقدير القول خطاباً لسيِّد المخاطبين ﷺ، أي: قل يا محمد: إنَّ الله. إلخ.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «وأنَّ» بالواو وفتح الهمزة(٦)، وخَرَّجَه الزمخشريُّ على حذف حرف الجرِّ، وتعلقه بـ «اعبدوه»، أي: ولأنَّه تعالى ربي وربُّكم فاعبدوه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٩. وقراءة نافع والكسائي المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٢) التيسير ص٧٦، والنشر ٢/ ٢٢٠.
(٣) انظر الوسيط ٣/ ١٨٤.
(٤) قوله: تقريراً لمعنى العبودية. ليس في الأصل.
(٥) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٩.
(٦) التيسير ص١٤٩، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف. النشر ٢/ ٣١٨.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وهو قول الخليل وسيبويه[١].

وأجاز الفرَّاء[٢] أنْ يكون «أن» وما بعدها في تأويل مصدرٍ عطفاً على «الزكاة»، أي: وأوصاني بالصلاة والزكاة، وبأنَّ الله ربِّي وربُّكم.. إلخ.

وأجاز الكسائيُّ أن يكونَ ذلك خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أنَّ الله ربِّي وربكم.

وحكى أبو عبيدة[٣] عن أبي عمرو بن العلاء أنَّه عطف على «أمراً» من قوله تعالى: «إذا قضى أمراً»، أي: إذا قضى أمراً، وقضى أنَّ الله ربِّي وربُّكم. وهو تخبيطٌ في الإعراب، فلعلَّه لا يصح عن أبي عمرو، فإنَّه من الجلالة في علم النحو بمكان.

وقيل: إنَّه عطفٌ على الكتاب. وأكثر الأقوال كما ترى.

وفي حرف أبيٍّ ﷺ أيضاً: «وبأنَّ» بالواو وباءِ الجرِّ[٤]، وخرَّجهُ بعضهم بالعطف على الصلاة أو الزكاة[٥]، وبعضهم بأنَّه متعلِّق بـ «اعبدوه» أي: بسبب ذلك فاعبدوه.

والخطاب إمَّا لمعاصري عيسى عليه السلام، وإمَّا لمعاصري نبيِّنا ﷺ.

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾ لا يضلُّ سالكه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها؛ تنبيهاً

---

(١) الكتاب ٣/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) معاني القرآن له ٢/ ١٦٨.

(٣) لم أقف عليه في مجاز القرآن له، ونسبه له أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ١٩٠، والسمين في الدر ٧/ ٦٠١. وعلَّلاه ـ كما صنع المصنف ـ بضعف أبي عبيدة في النحو.
ووقع في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٥٣: أبو عبيد بدل أبي عبيدة.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٠.

(٥) في الأصل: والزكاة.

على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجبُ الاتفاقَ منشأً للاختلاف، فإنَّ ما حُكيَ من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصاً قاطعةً في كونه عبدَ الله تعالى ورسولَه قد اختلفَ اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، فالمرادُ بـ «الأحزاب»: اليهودُ والنصارى، وهو المرويُّ عن الكلبيّ.

ومعنى «من بينهم» أنَّ الاختلافَ لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين، و«بين» ظرفٌ استعمل اسماً بدخول «من» عليه.

ونقل في «البحر» القولَ بزيادة «من»، وحكى أيضاً القول بأنَّ البينَ هنا بمعنى البعد، أي: اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق، فتكون سببيَّةً[1]. ولا يخفى بعده.

وقيل: المرادُ بـ «الأحزاب» فِرَقُ النصارى، فإنَّهم اختلفوا بعد رفعه عليه السلام فيه، فقال نسطور: هو ابنُ الله ـ تعالى عن ذلك ـ أظهره ثمَّ رفعه. وقال يعقوب: هو الله تعالى، هبط ثم صعد. وقال ملكا: هو عبد الله تعالى ونبيُّه. وفي «الملل والنحل» أنَّ الملكانيَّة قالوا: إنَّ الكلمةَ ـ يعني: أقنوم العلم ـ اتَّحدت بالمسيح عليه السلام، وتدرَّعت بناسوته.

وقالوا أيضاً: إنَّ المسيح عليه السلام ناسوتٌ كليٌّ لا جزئيّ، وهو قديمٌ، وقد ولدت مريم إلهاً قديماً أزليًّا، والقتلُ والصلبُ وقعَ على الناسوت واللاهوت معاً[2]. وقد قدَّمنا من أمر النصارى ما فيه كفايةٌ، فليتذكَّر.

وقيل: المراد بهم المسلمون واليهود والنصارى.

وعن الحسن: أنَّهم الذين تحزَّبوا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمَّا قص عليهم قصة عيسى عليه السلام، اختلفوا فيه من بين الناس.

قيل: إنَّهم مطلق الكفار، فيشملُ اليهودَ والنصارى والمشركين الذين كانوا في زمن نبينا ﷺ وغيرهم. ورجَّحه الإمام بأنَّه لا مخصِّص فيه[3].

ورُجِّحَ القولُ بأنَّهم أهلُ الكتاب بأنَّ ذكرَ الاختلاف عقيب قصَّة عيسى عليه

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٠.
(٢) الملل والنحل ١/ ٢٢٢.
(٣) تفسير الرازي ١/ ٢٢٠.

السلام يقتضي ذلك، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فالمراد بهم الأحزاب المختلفون، وعبَّر عنهم بذلك؛ إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشعاراً بعلَّة الحكم، وإذا قيل بدخول المسلمين أو الملكانية ـ وقيل: إنَّهم قالوا بأنَّه عليه السلام عبدُ الله ونبيُّه ـ في الأحزاب، فالمراد من الذين كفروا بعض الأحزاب، أي: فويل للذين كفروا منهم.

﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: من مشهود يومٍ عظيم الهول والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة. أو من وقت شهودِه، أو مكان الشهود فيه، أو من شهادةِ ذلك اليوم عليهم؛ وهو أنْ تشهدَ الملائكة والأنبياء عليهم السلام عليهم وألسنتهم وسائر جوارحهم بالكفر والفسوق، أو من وقتِ الشهادة أو من مكانها.

وقيل: هو ما شهدوا به في حقِّ عيسى عليه السلام وأمِّه، وعِظَمُه لعظَم ما فيه أيضاً، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

وقيل: هو يومُ قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب. وهو كما ترى.

والحقُّ أنَّ المرادَ بذلك اليوم يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجيبٌ من حدَّة سمعِهم وأبصارهم يومئذٍ، ومعناه أنَّ أسماعَهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة: جديرٌ بأنْ يُتعجَّب منهما، بعد أنْ كانوا في الدنيا صمًّا وعمياً. وروي ذلك عن الحسن وقتادة.

وقال علي بن عيسى: هو وعيدٌ وتهديدٌ، أي: سوف يسمعونَ ما يخلعُ قلوبَهم، ويبصرون ما يسوِّد وجوههم.

وعن أبي العالية أنَّه أمر حقيقة للرسول ﷺ بأنْ يسمِعهم ويبصِّرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيقُ بهم فيه.

والجارُّ والمجرور على الأولين في موضع الرفع على القول المشهور. وعلى الأخير في محلِّ نصبٍ؛ لأنَّ «أَسْمِع» أمرٌ حقيقيٌّ، وفاعلُه مستترٌ وجوباً.

وقيل: في التعجُّب أيضاً إنه كذلك، والفاعل ضمير المصدر.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ لا يدرك غايتُه، حيث أغفَلوا الاستماعَ والنظر بالكليَّة.

ووضع «الظالمين» موضعَ الضمير؛ للإيذان بأنَّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

والاستدراك ـ على ما نُقِل عن أبي العالية ـ يتعلَّق بقوله تعالى: «فويلٌ للذين كفروا».

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ أي: الظالمين على ما هو الظاهر. وقال أبو حيَّان[1]: الضميرُ لجميع الناس، أي: خوِّفهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسَّرُ الظالمون على ما فرَّطوا في جنب الله تعالى. وقيل: الناسُ قاطبةً، وتحسُّر المحسنين على قلَّة إحسانهم.

﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحساب، وذهبَ أهل الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، وذبح الموت، ونودي كلٌّ من الفريقين بالخلود.

وعن السُّدِّيِّ وابن جريج: الاقتصارُ على ذبح الموت، وكان ذلك لما رَوى الشيخان والترمذيُّ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رأوه، ثمَّ ينادي منادٍ: يا أهل النار، فيشرئبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رأوه، فيذبَح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النار خلودٌ فلا موت». ثم قرأ: (وَأَنذِرْهُمْ) الآية[2].

وفي روايةٍ عن ابن مسعود أنَّ يوم الحسرة حين يرى الكفارُ مقاعدَهم من الجنَّة لو كانوا مؤمنين.

وقيل: حين يقال لهم وهم في النار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

وقيل: حين يقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

وقال الضحاك: ذلك إذا برزت جهنَّم ورَمَت بالشرر.

وقيل: المراد بذلك يوم القيامة مطلقاً، وروي ذلك عن ابن زيد، وفيه حسراتٌ في مواطن عديدة، ومن هنا قيل: المرادُ بالحسرة جنسُها، فيشمل ذلكَ حسرتهم

---

(١) في البحر المحيط ٦/ ١٩١.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩): (٤٠) (٤١)، وسنن الترمذي (٣١٥٦). وهو عند أحمد (١١٠٦٦).

فيما ذُكر، وحسرتَهم عند أخذ الكتب بالشمائل، وغير ذلك، والمراد[١] بقضاء الأمر الفراغُ من أمر الدنيا بالكليَّة، ويعتبر وقتُ ذلك ممتدًّا.

وقيل: المرادُ بـ «يوم الحسرة» يومُ القيامة، كما روي عن ابن زيد، إلَّا أنَّ المرادَ بقضاء الأمر الفراغُ ممَّا يوجبُ الحسرة. وجوَّزَ ابنُ عطية[٢] أنْ يُرادَ بـ «يوم الحسرة» ما يَعمُّ يوم الموت.

وأنتَ تعلم أنَّ ظاهرَ الحديث السابق ـ وكذا غيره كما لا يخفى على المتتبِّع ـ قاضٍ بأنَّ يوم الحسرة يوم يذبح الموت، وينادَى بالخلود، ولعلَّ التخصيصَ لما أنَّ الحسرةَ يومئذٍ أعظمُ الحسرات؛ لأنَّه هناك تنقطعُ الآمال، وينسدُّ باب الخلاص من الأهوال.

ومن غريب ما قيل: إنَّ المراد بقضاء الأمر سدُّ باب التوبة حين تطلعُ الشمس من مغرِبها. وليس بشيء. و«إذ» على سائر الأقوال بدلٌ من «يوم»، أو متعلِّقٌ بـ «الحسرة»، والمصدرُ المعرَّفُ يعمل بالمفعول الصريح عند بعضهم، فكيف بالظرف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قال الزمخشريُّ: متعلِّقٌ بقوله تعالى شأنه: «في ضلال مبين» عن الحسن[٣].

ووجَّهَ ذلك بأنَّ الجملتين في موضع الحال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور، أي: مستقرُّون في ذلك، وهم في تينك الحالتين.

واستظهر في «الكشف» العطف على قوله تعالى: «الظالمون في ضلال مبين» أي: هم في ضلال وهم في غفلة. وعلى الوجهين تكونُ جملة: «أنذرهم» معترضةً، والواو اعتراضيَّة، ووجه الاعتراض أنَّ الإنذار مؤكِّدٌ ما هم فيه من الغفلة والضلال.

وجوَّز أنْ يكون ذلك متعلِّقًا بـ «أنذرهم» على أنَّه حالٌ من المفعول، أي: أنذرهم غافلين غير مؤمنين.

وتُعقِّب بأنَّه لا يلائم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: داخل في حيز قيل. اهـ. منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٥١٠.

وقال في «الكشف»: إنَّه غير واردٍ؛ لأنَّ ذلك بالنسبة إلى النفع، وهذا بالنسبة إلى تنبيه الغافل؛ لبيان أنَّ النفع في الآخرة، وهذه وظيفةُ الأنبياء عليهم السلام عن آخرهم. ثمَّ لو سلِّم لا مناقضة، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، كيف وقد تكرَّر هذا المعنى في القرآن، إلى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦].

وأمَّا أن قوله سبحانه: «وهم لا يؤمنون» نفيٌ مؤكَّد يشتملُ على الماضية والآتية، فلا يسلَّم لو جعل حالاً، ولو سلِّم فقد عُلِم جوابُه مما سبق، وما على الرسول إلا البلاغ.

نعم لا نمنع أنَّ الوجه الأول أرجحُ وأشدُّ طباقاً للمقام، وحاصلُ المعنى على الأخير «أنذرهم» لأنَّهم في حالة يحتاجون فيها للإنذار.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحدٍ غيره تعالى مِلْك ولا مُلْك، فيكونُ كلُّ ذلك له تعالى استقلالاً ظاهراً وباطناً، دون ما سواه، وينتقل إليه سبحانه انتقالَ الموروث من المورِّث إلى الوارث، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] أو نتوفى الأرضَ ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفِّيَ الوارثِ لإرثه، واستيفاءه إيَّاه.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يردُّون إلى الجزاء، لا إلى غيرنا استقلالاً أو اشتراكاً.

وقرأ الأعرج: «ترجعون» بالتاء الفوقيَّة. وقرأ السلميُّ وابنُ أبي إسحاق وعيسى بالياء التحتية مبنيًّا للفاعل، وحَكى عنهم الدانيُّ أنَّهم قرؤوا بالتاء الفوقية[1]. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ هو وأمثاله على الصحيح سرٌّ من أسرار الله تعالى، وقيل في وجه افتتاح هذه السورة به: إنَّ الكاف إشارةٌ إلى الكافي الذي اقتضاه حالُ ضعف زكريا عليه السلام وشيخوخته وعجزه، والهاءَ إشارةٌ إلى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩١.

الهادي الذي اقتضاه عنايته سبحانه به وأدائه مطلوبَه له، والياء إشارةٌ إلى الواقي الذي اقتضاه حالُ خوفه من الموالي، والعين إشارةٌ إلى العالم الذي اقتضاه إظهاره لعدم الأسباب، والصاد إشارة إلى الصادق الذي اقتضاه الوعد.

والإشارة في القصتين إجمالاً إلى أنَّ الله تعالى شأنه يهبُ بسؤالٍ وغير سؤال. وطبق بعضُ أهل التأويل ما فيهما على ما في الأنفس، فتكلَّفوا وتعسَّفوا.

وفي نذر الصوم ـ والمرادُ به الصمت ـ إشارةٌ إلى ترك الانتصار للنفس، فكأنَّه قيل لها عليها السلام: اسكتي ولا تنتصري، فإنَّ في كلامك وانتصارك لنفسك مشقَّةً عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمتِ الصمتَ، فلمَّا علم الله سبحانه صدقَ انقطاعها إليه، أنطقَ جلَّ وعلا عيسى عليه السلام ببراءتها.

وذكر أنَّه عليه السلام طَوى كلَّ وصفٍ جميلٍ في مطاوي قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وذلك لما قالوا من أنه لا يُدْعَى أحدٌ بعبد الله إلَّا إذا صار مظهراً لجميع الصفات الإلهية المشير إليها الاسم الجليل، وجعل على هذا قولُه: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، كالتعليل لهذه الدعوى.

وذكروا أنَّ العبدَ مضافاً إلى ضميره تعالى أبلغُ مدحاً مما ذُكر، وأنَّ صاحبَ ذلك المقام هو نبيُّنا ﷺ. وكأنَّ مرادَهم أنَّ العبد مضافاً إلى ضميره سبحانه كذلك إذا لم يُقرن بعلم، كـ ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وإلَّا فدعوى الاختصاص لا تتمّ، فليتدبَّر.

وذكر ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أنَّ الجبار الذي لا ينصح، والشقيَّ الذي لا ينتصح، نعوذُ بالله سبحانه من أن يجعلنا كذلك.

❁ ❁ ❁

﴿وَٱذْكُرْ﴾ عطفٌ على «أنذرهم» عند أبي السعود[1]. وقيل: على «اذكر» السابق، ولعلَّه الظاهر. ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه السورة، أو في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصَّته، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩] وإلَّا فَذاكِرُ ذلك في الكتاب هو الله تعالى كما في «الكشاف»[2].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٦.
(٢) ٢/ ٥١٠.

وفيه أنَّه عليه الصلاة والسلام لكونه الناطقَ عنه تعالى، ومبلغ أوامره ونواهيه، وأعظم مظاهره سبحانه ومجاليه، كأنَّه الذاكر في الكتاب ما ذكره ربُّه جلَّ وعلا[1].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها اشتمالُها على تضليل من نسب الألوهية إلى الجماد اشتمالَ ما قبلها على ما أشار إلى تضليل من نسبها إلى الحيّ، والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلَّا أنَّ الفريق الثاني أضلّ.

ويقال على القول الأول في العطف: إنَّ المراد: أنذرهم ذلك، واذكر لهم قصة إبراهيم عليه السلام، فإنَّهم ينتمون إليه ﷺ، فعساهم باستماع قصَّته يقلعون عمَّا هم فيه من القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي: ملازمَ الصدق لم يكذب قطّ ﴿نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ استنبأه الله تعالى، وهو خبر آخر لـ «كان»، مقيِّدٌ للأول، مخصِّص له، أي: كان جامعاً بين الوصفين.

ولعلَّ هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهُّم تخصيص الصدِّيقيَّة بالنبوَّة، فإنَّ كل نبيٍّ صدِّيق، وقيل: الصدِّيق: من صَدَقَ بقوله واعتقاده، وحقَّقَ صدقَه بفعله. وفي «الكشاف»: الصِّدِّيق من أبنية المبالغة، والمراد فرط صدقه، وكثرةُ ما صدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، وكأن الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل، أي: كان مصدِّقاً بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًّا في نفسه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] أو كان بليغاً في الصدق؛ لأنَّ ملاك أمر النبوَّة الصدق، ومصدّقُ الله تعالى بآياته ومعجزاته حريٌّ أن يكون كذلك[2]. انتهى.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المبالغة تَحتملُ أن تكون باعتبار الكمِّ، وأنْ تكون باعتبار الكيف، ولك أنْ تُريد الأمرين؛ لكون المقام مقام المدح والمبالغة، وقد ألمَّ بذلك الراغب[3].

وأما أنَّ التكثير باعتبار المفعول، كما في: قطعت الحبال، فقد عدَّه في «الكشف» من الأغلاط. فتأمَّل.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: لم يقصد به الاعتراض. اهـ. منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٥١٠.

(٣) في المفردات (صدق).

واستُظهِر أنَّه من الصدق لا من التصديق، وأُيِّد بأنَّه قرئ: «إنَّه كان صادقاً»[1]، وبأنَّه قلَّما يوجدُ فعيل من مفعِّل، والكثيرُ من الفاعل.

وفسَّر بعضُهم النبيَّ هنا برفيع القدر عند الله تعالى وعند الناس. والجملة استئناف مسوق لتعليل موجبِ الأمر؛ فإنَّ وصفَه عليه السلام بذلك من دواعي ذكرِه، وهي ـ على ما قيل ـ اعتراضٌ بين المبدل منه وهو «إبراهيم»، والبدل وهو «إذ» في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ﴾. وتعقَّبه صاحبُ «الفرائد» بأنَّ الاعتراضَ بين البدل والمبدل منه بدون الواو بعيدٌ عن الطبع، وفيه منعٌ ظاهر[2]. وفي «البحر» أنَّ بدلية «إذ» من «إبراهيم» تقتضي تصرُّفها، والأصحُّ أنَّها لا تتصرف[3]. وفيه بحث.

وقيل: «إذ» ظرفٌ لـ «كان»، وهو مبنيٌّ على أنَّ «كان» الناقصة وأخواتها تعملُ في الظروف، وهي مسألةٌ خلافية.

وقيل: ظرف لـ «نبيًّا»، أي: منبئٌ في وقت قوله ﴿لِأَبِيهِ﴾. وتُعقِّب بأنَّه يقتضي أنَّ الاستنباءَ كان في ذلك الوقت.

وقيل: ظرف لـ «صدِّيقاً». وفي «البحر»: لا يجوزُ ذلك؛ لأنَّه قد نُعِتَ، إلَّا على رأي الكوفيين[4]. وفيه أن «نبيًّا» خبرٌ كما ذكرنا، لا نعت.

نعم تقييد الصديقيَّة بذلك الوقت لا يخلو عن شيء.

وقيل: ظرف لـ «صدِّيقاً نبيًّا» وظاهرُه أنَّه معمولٌ لهما معاً. وفيه أنَّ تواردَ عاملين على معمولٍ واحدٍ غيرُ جائز على الصحيح، والقول بأنَّهما جُعلا بتأويل اسمٍ واحدٍ، كتأويل: حلو حامض، بمزّ، أي: جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء عليهم السلام حين خاطب أباه = لا يخفى ما فيه.

والذي يقتضيه السياق ويشهدُ به الذوق البدليَّةُ، وهو بدل اشتمال.

---

(١) هي قراءة أبي البَرَهْسم كما في البحر ٦/ ١٩٣.

(٢) وتعقب الشهاب صاحبَ الفرائد فقال: لا وجه له، وليس الردُّ والقبول بالتشهي. حاشية الشهاب ٦/ ١٦٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

وتعليقُ الذكر بالأوقات مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث قد مرّ سرُّه مراراً، فتذكر.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنَّ التاء عوضٌ عن[1] ياء الإضافة، ولذلك لا يُجمَع بينهما إلَّا شذوذاً، كقوله:

يـــا أبـــتـــي أرّقـــنـــي الـــقِـــذَّان[2]

والجمع في «يا أبتا» قيل: بين عوضين، وهو جائزٌ كجمع صاحبِ الجبيرة بين المسح والتيمُّم، وهما عوضان عن الغسل، وقيل: المجموع فيه عوض. وقيل: الألف للإشباع، وأنت تعلم حال العلل النحوية.

وقرأ ابن عامر والأعرج وأبو جعفر: «يا أبتَ» بفتح التاء[3]، وزعم هارون أنَّ ذلك لحنٌ. والحقُّ خلافه. وفي مصحف عبد الله: «وا أبت»[4] بواو بدل ياء، والنداءُ بها في غير الندبة قليل. وناداه عليه السلام بذلك استعطافاً له.

وأخرج أبو نعيم والديلميُّ عن أنسٍ مرفوعاً: «حقُّ الوالد على ولده أن لا يسمِّيه إلا بما سمَّى إبراهيم عليه السلام به أباه؛ يا أبت، ولا يسميه باسمه»[5].

وهذا ظاهرٌ في أنَّه كان أباه حقيقةً.

وصحَّح جمعٌ أنَّه كان عمّه، وإطلاق الأب عليه مجاز.

﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتك له، وجؤارك إليه ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعك بين يديه، أو: لا يسمعُ ولا يبصرُ شيئاً من المسموعات والمبصَرات، فيدخلُ في ذلك ما ذكرَ دخولاً أوّليًا.

---

(١) في (م): من.

(٢) الرجز لرؤبة بن العجاج، وانظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٧٦، وخزانة الأدب ١/ ٩٢. وفيهما: يا أبتا.
والقِذَّان جمع قذذ، كصُرَد، وهو البرغوث. انظر تاج العروس (قذذ). وذكره الخفاجي في حاشيته ٦/ ١٦٠ بمثل الرواية التي ذكرها المصنف.

(٣) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣. وقراءة الأعرج في البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٧٢، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٥/ ١٤٢ لكن عن عبد الله بن محيريز بنحوه موقوفاً.

و«ما» موصولةٌ، وجوَّزوا أن تكون نكرة موصوفة.

﴿وَلَا يُغْنِي﴾ أي: لا يقدرُ على أنْ يغني ﴿عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ من الأشياء، أو شيئاً من الإغناء، فهو نصب على المفعوليَّة أو المصدريَّة.

ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتجَّ عليه أبدع احتجاج؛ بحسن أدبٍ وخُلقٍ ليس له مِن هاج؛ لئلَّا يَرْكَبَ متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكليَّة عن سبيل الرشاد، حيث طلب منه علَّة عبادته، لما يستخفُّ به عقل كلِّ عاقل من عالمٍ وجاهلٍ ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي الغايةُ القاصية من التعظيم، مع أنَّها لا تحقُّ إلَّا لمن له الاستغناء التامُّ، والإنعام العامُّ، الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، ونبَّه على أن العاقل يجب أنْ يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة، وغرضٍ صحيح، والشيءُ لو كان حيًّا مميِّزاً، سميعاً بصيراً، قادراً على النفع والضر، لكن كان ممكناً، لاستنكف ذو العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلائق؛ لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبية، فما ظنُّك بجمادٍ مصنوع، ليس له من أوصاف الأحياء عينٌ ولا أثر. ثم دعاه إلى أن يتَّبعه ليهديه إلى الحقِّ المبين، لما أنَّه لم يكن محظوظاً من العلم الإلهيّ، مستقلًّا بالنظر السويّ، مُصَدِّراً لدعوته بما مرَّ من الاستعطاف، حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعلم الفائق، وإن كان كذلك، بل أبرزَ نفسه في صورة رفيقٍ[1] له، يكون أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: مستقيماً موصِلاً إلى أسنى المطالب، منجياً عن الضلال المؤدِّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

وقوله: «جاءني» ظاهرٌ في أنَّ هذه المحاورة كانت بعد أن نُبِّئ عليه السلام.

والذي جاءه، قيل: العلم بما يجبُ لله تعالى وما يمتنع في حقِّه وما يجوز، على أتمِّ وجه وأكمله. وقيل: العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها. وقيل: العلم بما يعمُّ ذلك.

---

(١) في (م): رقيق.

ثم ثبَّطه عمَّا هو عليه بتصويره بصورةٍ يستنكرها كلُّ عاقل، ببيان أنَّه مع عرائه عن النفع بالمرَّة مستجلِبٌ لضررٍ عظيم، فإنَّه في الحقيقة عبادةُ الشيطان؛ لما أنَّه الآمر به فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ فإنَّ عبادتك الأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسوِّلها لك ويغريكَ عليها. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتأكيدٌ له، ببيان أنَّهُ مستعصٍ على من شملتكَ رحمتُه وعمَّتك نعمته.

ولا ريب في أنَّ المطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ من هو عاصٍ حقيقٌ بأن تُستَردَّ منه النعم ويُنْتَقَمَ منه. وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بـ «الرحمن». وفيه أيضاً إشارةٌ إلى كمال شناعة عصيانه. وفي الاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته؛ لأنَّه ملاكها، أو لأنَّه نتيجةُ معاداته لآدم عليه السلام، فتذكيره داعٍ لأبيه عن[1] الاحتراز عن موالاته وطاعته، والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تحذيرٌ من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام.

والخوفُ ـ كما قال الراغب ـ: توقُّع المكروه عن أمارةٍ مظنونَة، أو معلومة[2]. فهو غير مقطوعٍ فيه بما يخاف، ومن هنا قيل: إنَّ في اختياره مجاملة.

وحمله الفرَّاء والطبريُّ على العلم[3]، وليس بذاك.

وتنوين «عذاب» ـ على ما اختاره السعد في «المطول» ـ يحتملُ التعظيم والتقليل، أي: عذابٌ هائل، أو أدنى شيء منه. وقال: لا دلالة للفظ المسِّ وإضافةِ العذاب إلى الرحمن على ترجيح الثاني ـ كما ذكره بعضهم ـ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] ولأنَّ العقوبةَ من الكريم الحليم أشدّ. اهـ. واختار أبو السعود أنَّه للتعظيم، وقال: كلمة «من» متعلِّقةٌ بمضمرٍ وقع صفةً للعذاب، مؤكِّدةٌ لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، وإظهار «الرحمن» للإشعار بأنَّ وصف الرحمانيَّة لا يدفعُ حلولَ العذاب، كما في

---

(١) كذا في الأصل و(م). ووقع في تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٧ ـ وعنه نقل المصنف: إلى.
(٢) المفردات (خوف).
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٥١.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]. انتهى[(١)].

وفي «الكشف» أنَّ الحمل على التفخيم في «عذاب» ـ كما جوَّزه صاحب «المفتاح»[(٢)] ـ مما يأباه المقام، أي: لأنَّه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة، وإنَّما قال: «من الرحمن» لقوله أوَّلاً: «كان للرحمن عصيًّا»، وللدلالة على أنَّه ليس على وجه الانتقام، بل ذلك أيضاً رحمةٌ من الله تعالى على عباده، وتنبيهٌ على سَبْقِ الرحمة الغضب، وأن الرحمانيَّة لا تنافي العذاب، بل الرحيمية على ما عليه الصوفية؛ فقد قال المحقق القونويّ في «تفسير الفاتحة»: «الرحيم» ـ كما بيَّنا ـ لأهل اليمين والجمال، والرحمن الجامعُ بين اللطف والقهر لأهل القضية[(٣)] الأخرى والجلال. إلى آخر ما قال[(٤)].

وأُيِّد الحملُ على التفخيم بقوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ أي: قريناً تليه ويليك في العذاب، فإنَّ الولاية للشيطان بهذا المعنى إنَّما تترتَّب على مسِّ العذاب العظيم.

وأجيبَ عن كون المقام مقام إظهارِ مزيد الشفقة ـ وهو يأبى ذلك ـ بأنَّ القسوة أحياناً من الشفقة أيضاً، كما قيل:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم[(٥)]

وقد تقدَّم هذا مع أبياتٍ أخر بهذا المعنى[(٦)].

ويكفي في مراعاة الأدب والمجاملة عدمُ الجزم باللحوق والمسّ، وإن كان مُشعِراً بالقِلَّةِ عند الجلَّة، لكن قالوا: إنَّ الكثرةَ والعظمةَ باعتبار ما يلزمُه ويتبعه، لا بالنظر إليه في نفسه، فإنَّه غيرُ مقصودٍ بالذات، وإنَّما هو كالذوق مقدمةٌ للمقصود، فيصحُّ وصفه بكلٍّ من الأمرين باعتبارين. وكأنِّي بك تختار التفخيم؛ لأنَّه أنسب بالتخويف، وتدَّعي أنَّه ها هنا من معدن الشفقة. فتدبَّر.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٧.
(٢) مفتاح العلوم ص١٩٤.
(٣) في تفسير سورة الفاتحة ص١٥٠: القبضة. وهي الصواب الموافق لسياق الكلام ثمة.
(٤) تفسير سورة الفاتحة ص١٤٩ ـ ١٥٠.
(٥) سلف ٥/ ٨٨.
(٦) ١٠/ ٥٨٣.

وجوِّز أنْ يكون «فتكون» إلخ مترتِّباً على مسِّ العذاب القليل.

و«الولي» من الموالاة، وهي المتابعة والمصادقة، والمراد: تفريع الثبات على حكم تلك الموالاة، وبقاء آثارها من سخط الله تعالى وغضبه، ولا مانع من أنْ يتفرَّع من قليلٍ أمرٌ عظيم.

ثمَّ الظاهر أنَّ المرادَ بالعذاب عذابُ الآخرة، وتأوَّله بعضُهم بعذاب الدنيا، وأراد به الخذلان، أو شيئاً آخر ممَّا أصابَ الكفرة في الدنيا من أنواع البلاء. وليس بذاك.

وزعم بعضُهم أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والأصل: إنِّي أخافُ أن تكون وليًّا للشيطان، أي: تابعاً له في الدنيا؛ فيَمسَّك عذابٌ من الرحمن، أي: في العقبى. وكأنَّه أشكلَ عليه أمرُ التفريع، فاضطر لما ذكر، وقد أغناكَ الله تعالى عن ذلك بما ذكرنا.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنَّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذا النصائحَ الواجبة القبول؟ فقيل: قال مصرًّا على عناده، مقابلاً الاستعطافَ واللطفَ بالفظاظة والغلظة: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ اختار الزمخشريُّ كون «راغب» خبراً مقدَّماً «وأنت» مبتدأ، وفيه توجيه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضَرْبٍ من التعجيب(١).

وذهب أبو البقاء(٢) وابن مالك وغيرهما إلى أنَّ «أنت» فاعلُ الصفة؛ لتقدُّم الاستفهام، وهو مغنٍ عن الخبر، وذلك لئلَّا يلزمَ الفصل بين «أراغب» ومعموله وهو «عن آلهتي» بأجنبيٍّ هو المبتدأ.

وأجيبَ بأنَّ «عن» متعلِّقٌ بمقدَّر بعد «أنت» يدلُّ عليه «أراغب». وقال صاحب «الكشف» المبتدأ ليس أجنبيًّا من كلِّ وجه، لاسيما والمفصول ظرف، والمقدم في نيةِ التأخير، والبليغ يَلتفتُ لِفتَ المعنى بعد أن كان لما يرتكبه وجهٌ مساغٌ في العربية، وإن كان مرجوحاً. ولعلَّ سلوك هذا الأسلوب قريبٌ من ترجيح

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١١.
(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٤.

الاستحسان لقوَّة أثره على القياس. ولا خفاء أنَّ زيادة الإنكار إنَّما نشأ من تقديم الخبر، كأنَّه قيل: أراغبٌ أنت عنها لا طالبٌ لها راغبٌ فيها؟ منبِّهاً له على الخطأ في صدوفه ذلك، ولو قيل: أترغب. لم يكن من هذا الباب في شيء. انتهى.

ورجَّح أبو حيَّان إعراب أبي البقاء ومن معه بعدم لزوم الفصل فيه، وبسلامة الكلام عليه عن خلاف الأصل في التقديم والتأخير(١).

وتوقَّف البدرُ الدمامينيُّ في جواز ابتدائية المؤخَّر في مثل هذا التركيب، وإن خلا عن فصلٍ أو محذورٍ آخر، كما في: أطالعٌ الشمس، وذلك نحو: أقائم زيدٌ؛ للزوم التباس المبتدأ بالفاعل، كما في: ضرب زيد. فإنه، لا يجوز فيه ابتدائية زيد.

وأجابَ الشُّمُني بأنَّ زيداً في الأول يحتملُ أمرين؛ كلٌّ منهما بخلاف الأصل، وذلك إجمالٌ لا لبس، بخلافه في الثاني. فتأمَّل.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديدٌ وتحذيرٌ عمَّا(٢) كان عليه من العظة والتذكير، أي: والله لئن لم تَنْتَهِ عما أنت عليه من النهي عن عبادتها، والدعوة إلى ما دعوتني إليه، لأرجمنَّك بالحجارة، على ما روي عن الحسن. وقيل: باللسان، والمرادُ لأشتمنَّك، وروي ذلك عن ابن عباس والسديِّ والضحَّاك وابنُ جريج.

وقدَّر بعضُهم متعلَّق النهي الرغبةَ عن الآلهة، أي: لئن لم تَنْتَهِ عن الرغبة عن آلهتي لأرجمنَّك. وليس بذاك.

﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطفٌ على محذوف يدلُّ عليه التهديد، أي: فاحذرني واتركني، وإلى ذلك ذهب الزمخشريُّ(٣). ولعلَّ الداعيَ لذلك وعدمِ اعتبار العطف على المذكور = أنَّه لا يصحُّ أو لا يحسنُ التخالف بين المتعاطفَين إنشائيَّةً وإخباريَّة، وجوابُ القسم غير الاستعطافيِّ لا يكونُ إنشاءً، وليست الفاء في «فاحذرني» عاطفةً حتى يعود المحذور.

ومن الناس من عطفَ على الجملة السابقة؛ بناءً على تجويز سيبويه العطفَ مع

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢) في الأصل: لما.
(٣) الكشاف ٢/ ٥١١.

التخالف في الإخبار والإنشاء. والتقديرُ أوقع في النفس.

﴿مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: دهراً طويلاً، عن الحسن ومجاهد وجماعة.

وقال السُّدِّيّ: أبداً. وكأنه المراد، وأصلُه ـ على ما قيل ـ من الإملاء، أي: الإمداد، وكذا الملاوة بتثليث الميم، وهي بمعناه، ومن ذلك المَلَوان؛ الليل والنهار، ونصبه على الظرفيَّة كما في قول مُهَلْهِل:

فتصدَّعت صمُّ الجبال لموته   وبكت عليه المرملات مليّا[1]

وأخرج ابنُ الأنباريّ عن ابن عباس أنَّه فسره بـ: طويلاً[2]. ولم يذكر الموصوف، فقيل: هو نصب على المصدرية، أي: هجراً مليًّا.

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ المعنى: سالماً سويًّا. والمراد: قادراً على الهجر مطيقاً له، وهو حينئذٍ حالٌ من فاعل «اهجرني»، أي: اهجرني مليًّا بالهجران والذهاب عني، قبل أن أثخنكَ بالضرب حتى لا تقدرَ أن تبرح. وكأنَّه على هذا من تملَّى بكذا؛ تمتَّع به مَلاوَةً من الدهر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما سلف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، فإنَّ ترك الإساءة للمسيء إحسانٌ، أي: لا أصيبك بمكروهٍ بعد، ولا أشافهُك بما يؤذيك، وهو نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] في قول.

وقيل: هو تحيَّة مفارقٍ. وجوَّزَ قائلُ هذا تحيَّة الكافر، وأن يُبْدَأ بالسلام المشروع، وهو مذهب سفيان بن عيينة مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ الآية [٨ من سورة الممتحنة]، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [٤ من سورة الممتحنة].

وما استدلَّ به متأوَّلٌ، وهو محجوجٌ بما ثبتَ في «صحيح مسلم»: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام»[3].

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٥٨، والبحر المحيط ٦/ ١٩٥.

(٢) الوقف والابتداء ص٩١. واستشهد له ابن عباس بالبيت السابق.

(٣) صحيح مسلم (٢١٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وهو عند أحمد (٧٥٦٧).

وقرئ: «سلاماً» بالنصب على المصدريَّة. والرفعُ على الابتداء(١).

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: أستدعيه سبحانَه أن يغفر لك، بأنْ يوفِّقك للتوبة، ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوِّح به تعليلُ قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦] كذا قيل، فيكونُ استغفاره في قوَّة قوله: ربِّي اهده إلى الإيمان، وأخرجه من الضلال. والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيُّن تحتُّم أنَّه يموتُ على الكفر ممَّا لا ريب في جوازه، كما أنَّه لا ريبَ في عدم جوازه عند تبيُّن ذلك؛ لما فيه من طلب المحال، فإنَّ ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه محالٌ وقوعه، ولهذا لمَّا تبيَّن له عليه السلام بالوحي ـ على أحد القولين المذكورين في سورة التوبة ـ أنَّه لا يؤمن، تركَه أشدَّ الترك، فالوعدُ والإنجاز كانا قبل التبيُّن، وبذلك فارقَ استغفارُه عليه السلام لأبيه استغفارَ المؤمنين لأولي قرابتهم من المشركين؛ لأنَّه كان بعد التبيُّن، ولذا لم يؤذنوا بالتأسِّي به عليه السلام في الاستغفار.

قال العلامة الطيبيُّ: إنَّه تعالى بيَّن للمؤمنين أنَّ أولئك أعداءُ الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١] وأنْ لا مجال لإظهار المودَّة بوجهٍ ما، ثمَّ بالغَ جلَّ شأنه في تفصيل عداوتهم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢]، ثمَّ حرَّضهم تعالى على قطيعة الأرحام بقوله سبحانه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الممتحنة:٣] ثمَّ سلَّاهم عزَّ وجلَّ بالتأسِّي في القطيعة بإبراهيم عليه السلام وقومه بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى شأنه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤] فاستثنى من المذكورِ ما لم يحتمله المقام، كما احتمله(٢) ذلك المقام؛ للنصِّ القاطع، يعني: لكم التأسِّي بإبراهيم عليه السلام مع هؤلاء الكفار في القطيعة والهجران لا غير، فلا تجاملوهم

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٥، والدر المصون ٧/ ٦٠٧.

(٢) في الأصل: تحمله.

ولا تُبدوا لهم الرأفةَ والرحمة، كما أبدى إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ) لأنَّه لم يتبيَّن له حينئذٍ أنَّه لا يؤمن، كما بدا لكم كفرُ هؤلاء وعداوتهم. انتهى. واعتُرِضَ بأنَّ ما ذُكِر ظاهرٌ في أنَّ الاستغفار الذي وقع من المؤمنين لأولي قرابتهم، فنهوا عنه؛ لأنَّه كان بعد التبيُّن، كان كاستغفار إبراهيم عليه السلام؛ بمعنى طلب التوفيق للتوبة والهداية للإيمان. والذي اعتمدَه كثيرٌ من العلماء أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] نزلَ في استغفاره ﷺ لعمِّه أبي طالب بعدَ موته[1]، وذلك الاستغفارُ ممَّا لا يكون بمعنى طلب الهداية أصلاً، وكيف تُعقلُ الهداية بعد الموت، بل لو فُرض أنَّ استغفارَه عليه الصلاة والسلام له كان قبل الموت لا يتصوَّر أيضاً أن يكونَ بهذا المعنى؛ لأنَّ الآيَةَ تقتضي أنَّه كان بعد تبيُّن أنَّه من أصحاب الجحيم، وإذا فُسِّر بتحتُّم الموت على الكفر كان ذلك دعاءً بالهداية إلى الإيمان، مع العلم بتحتُّم الموت على الكفر، ومُحاليتُه إذا كانت معلومةً لنا بما مرَّ فهي أظهرُ شيءٍ عنده ﷺ، بل وعند المقتبسين من مشكاتِه عليه الصلاة والسلام.

وهو اعتراضٌ قويٌّ بحسب الظاهر، وعليه يجبُ أن يكون استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بذلك المعنى في حياته؛ لعدم تصوُّر ذلك بعد الموت. وهو ظاهر. قال الزمخشريُّ[2] في جواب السؤال، بأنَّه كيف جاز له عليه السلام أنْ يستغفرَ للكافر، وأنْ يعدَه ذلك؟: قالوا: أرادَ اشتراط التوبة عن الكفر، وقالوا: إنَّما استغفرَ له بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ لأنَّه وعده أنْ يؤمن، واستشهدوا بقوله تعالى:

---

(١) أخرج البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهدُ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالبٍ آخر ما كلمهم: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

(٢) الكشاف ٢/ ٥١٢.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ثم قال: ولقائلٍ أن يقول: الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأمَّا قضية العقل فلا تأباه، فيجوزُ أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع، ويدلُّ على صحَّته أنَّه استثنى قولَ إبراهيم عليه السلام: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ في آية ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلخ [الممتحنة: ٤] عمَّا وجبت فيه الأسوة، ولو كان بشرط الإيمان والتوبة لما صحَّ الاستثناء، وأما كون الوعد من أبيه، فيخالفُ الظاهر الذي يشهد له قراءة الحسن وغيره: «وعدها أباه» بالباء الموحدة[1]. قال في «الكشف»: واعترض الإمام حديث الاستثناء بأنَّ الآيةَ دلَّت على المنع من التأسِّي، لا أنَّ ذلك كان معصيةً، فجاز أن يكون من خواصِّه، ككثير من المباحات التي اختُصَّ بها النبيُّ ﷺ[2]. وليس بشيء؛ لأنَّ الزمخشريَّ لم يذهب إلى أنَّ ما ارتكبه إبراهيم عليه السلام كان منكراً، بل إنَّما هو منكر علينا؛ لورود السمع. واعترض صاحب «التقريب» بأنَّ نفي اللازم ممنوعٌ، فإنَّ الاستثناءَ عمَّا وجبت فيه الأسوة دلَّ على أنَّه غيرُ واجب، لا على أنَّه غير جائز، فكان ينبغي عمَّا جازت فيه الأسوة بدل عما وجبت.. إلخ. والآيةُ لا دلالة فيها على الوجوب.

والجواب أنَّ جعله مستنكراً ومستثنًى يدلُّ على أنَّه منكرٌ، لا الاستثناء عما وجبت فيه فقط، وإنَّما أتى الاستنكارُ لأنَّه مستثنًى عن الأسوة الحسنة، فلو التُسِيَ به فيه لكان أسوةً قبيحة. وأمَّا الدلالة على الوجوب فبيِّنةٌ من قوله تعالى آخراً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦] كما تقرَّر في الأصول. والحاصل أنَّ فعل إبراهيم عليه السلام يدلُّ على أنَّه ليس منكراً في نفسه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾ [التوبة: ١١٣] إلخ يدلُّ على أنَّه الآن منكرٌ سمعاً، وأنَّه كان مستنكراً في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً بعد ما كان غير منكر، ولذا تبرَّأ منه، وهو ظاهر، إلَّا أنَّ الزمخشريَّ جعلَ مدركَ الجواز قبل النهي العقل، وهي مسألةٌ خلافيَّةٌ، وكم قائلٍ: إنَّه السمع؛ لدخوله تحت برِّ الوالدين، والشفقة على أمَّة الدعوة. بل قيل: إنَّ

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٥، والبحر المحيط ٥/ ١٠٥.

(٢) تفسير الرازي ٢١/ ٢٢٩.

الأول مذهب المعتزلة، وهذا مذهبُ أهل السنة. انتهى مع تغييرٍ يسير. واعترض القول بأنَّه استنكر في زمن إبراهيم عليه السلام بعدَ ما كان غيرَ منكر؛ بأنَّه لو كان كذلك لم يفعله نبيُّنا ﷺ، وقد جاءَ أنَّه عليه الصلاة والسلام فَعَلَه لعمِّه أبي طالب.

وأجيب بجواز أنَّه لم يبلغه إذ فعل عليه الصلاة والسلام.

والتحقيق في هذه المسألة أنَّ الاستغفارَ للكافر الحيِّ المجهول العاقبة بمعنى طلب هدايته للإيمان = ممَّا لا محذورَ فيه عقلاً ونقلاً. وطلب ذلك للكافر المعلوم أنَّه قد طُبع على قلبه، وأخبر الله تعالى أنَّه لا يؤمن، وعلم أنْ لا تعليق في أمره أصلاً = ممَّا لا مساغ له عقلاً ونقلاً. ومثلُه طلب المغفرة للكافر مع بقائه على الكفر على ما ذكره بعض المحققين، وكان ذلك ـ على ما قيل ـ لما فيه من إلغاء أمر الكفر الذي لا شيء يعدله من المعاصي، وصيرورة التكليف بالإيمان الذي لا شيء يعدلُه من الطاعات عبثاً، مع ما في ذلك ممَّا لا يليقُ بعظمة الله عزَّ وجلَّ، ويكاد يُلحَق بذلك فيما ذكر طلبُ المغفرة لسائر العصاة مع البقاء على المعصية، إلَّا أنْ يفرَّق بين الكفر وسائر المعاصي. وأمَّا طلب المغفرة للكافر بعد موته على الكفر فلا تأباه قضيَّة العقل، وإنَّما يمنعه السمع، وفُرِّقَ بينه وبين طلبها للكافر مع بقائه على الكفر بعدم جريان التعليل السابق فيه. ويحتاج ذلك إلى تأمُّل. واستدلَّ على جواز ذلك عقلاً بقوله ﷺ لعمِّه: «لا أزالُ أستغفر لك ما لم أُنْهَ»[1]، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، وحمل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] على معنى: من بعد ما ظهر لهم أنَّهم ماتوا كفاراً، والتُزمَ القول بنزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] بعد ذلك، وإلَّا فلا يتسنَّى استغفارُه ﷺ لعمِّه بعد العلم بموتِه كافراً، وتقدَّم السماعُ بأنَّ الله تعالى لا يغفر الكفر.

وقيل: لا حاجةَ إلى التزام ذلك؛ لجواز أنْ يكون عليه الصلاة والسلام لوفور شفقته وشدَّة رأفته قد حملَ الآية على أنَّه تعالى لا يغفرُ الشرك إذا لم يُشفع فيه، أو

---

(١) سلف قريباً تخريج نحوه.

الشركَ الذي تواطأ فيه القلب وسائرُ الجوارح، وعلم من عمِّه أنَّه لم يكن شركُه كذلك، فطلب المغفرةَ حتى نُهي ﷺ.

وقيل غير ذلك، فتأمَّل، فالمقامُ محتاجٌ بعد إلى كلام، والله تعالى الموفق.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ بليغاً في البرِّ والإكرام، يقال: حفيَ به إذا اعتنى بإكرامه. والجملةُ تعليلٌ لمضمون ما قبلها، وتقديمُ الظرف لرعاية الفواصل مع الاهتمام.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ الظاهرُ أنَّه عطف على «سأستغفر»، والمراد: أتباعدُ عنك وعن قومك. ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني، حيث لم تؤثِّر فيكم نصائحي. ويُروى أنَّه عليه السلام هاجر إلى الشام. وقيل: إلى حرَّان، وهو قريبٌ من ذلك، وكانوا بأرض كوثا، وفي هجرته هذه تزوَّج سارة، ولقي الجبارَ الذي أخدم سارة هاجر.

وجُوِّز حملُ الاعتزال على الاعتزال بالقلب والاعتقاد، وهو خلافُ الظاهر المأثور.

﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: أعبدُه سبحانه وحده، كما يفهم من اجتناب غيره تعالى من المعبودات، وللتغاير بين العبادتين غُويِر بين العبارتين.

وذكر بعضُهم أنَّه عبَّر بالعبادة أولاً؛ لأنَّ ذلك أوفقُ بقول أبيه: «أراغبٌ أنت عن آلهتي» مع قوله فيما سبق: «يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمع» إلخ، وعبَّر ثانياً بالدعاء؛ لأنَّه أظهرُ في الإقبال المقابل للاعتزال. وجُوِّز أن يُراد بذلك الدعاء مطلقاً، أو ما حكاه سبحانه في سورة «الشعراء»، وهو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٨٣].

وقيل: لا يبعدُ أنْ يراد استدعاءُ الولد أيضاً بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] حسبما يساعدُه السياق والسباق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ خائباً ضائعَ السعي. وفيه تعريضٌ بشقاوتهم في عبادة آلهتهم.

وفي تصدير الكلام بـ «عسى» من إظهار التواضع، ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على حقيقة الحقِّ من أنَّ الإثابة والإجابة بطريق التفضُّل منه عزَّ وجلَّ، لا بطريق الوجوب، وأنَّ العبرةَ بالخاتمة، وذلك من الغيوب المختصَّة بالعليم الخبير = ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى ما تقدَّم ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ من فارقه[1] من أبيه وقومه الكفرة، لكن لا عقيبَ المهاجرة، والمشهور أنَّ أولَ ما وُهبَ له عليه السلام من الأولاد إسماعيل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] إثر دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وكان من هاجر، فغارت سارة، فحملت بإسحاق عليه السلام، فلما كبر ولد له يعقوبُ عليه السلام. ولعلَّ ترتيب هبتهما على اعتزاله ها هنا؛ لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى إيَّاه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء، فإنهما شجرتا الأنبياء، ولهما أولادٌ وأحفادٌ أولو شأنٍ خطير، وذوو[2] عددٍ كثير، مع أنَّه سبحانه أراد أن يَذكر إسماعيلَ عليه السلام بفضله على الانفراد.

ورُوي أنه عليه السلام لما قصدَ الشام أتى أوَّلاً حرَّان، وتزوَّج سارة وولدت له إسحاق، وولد لإسحاق يعقوب. والأوَّل هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ من إسحاق ويعقوب، أو منهما ومن إبراهيم عليهم السلام. وهو مفعولٌ أول لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ قُدِّم عليه للتخصيص، لكن لا بالنسبة إلى من عداهم، بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلَّ واحدٍ منهم «جعلنا نبيًّا» لا بعضهم دون بعض. ولا يظهر في هذا الترتيب على الوجه الثاني في «كلًّا» كونُ إبراهيم عليه السلام نبيًّا قبل الاعتزال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ قال الحسن: النبوَّة. ولعلَّ ذكر ذلك بعد ذكر جعلهم أنبياء؛ للإيذان بأنَّ النبوَّة من باب الرحمة التي يختصُّ بها من يشاء.

وقال الكلبيُّ: هي المال والولد. وقيل: هو الكتاب.

---

(١) في (م): فارقهم.
(٢) لفظة: ذوو. ليست في الأصل.

والأظهر أنَّها عامَّةٌ لكلِّ خيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ أوتوه ممَّا لم يؤتَ أحدٌ من العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ تفتخرُ بهم الناس، ويثنونَ عليهم، استجابةً لدعوته عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وزيادةً على ذلك.

والمراد باللسان ما يوجدُ به من الكلام، فهو مجازٌ بعلاقة السببيَّة، كاليد في العطية، ولسان العرب لغتهم. ويطلق على الرسالة الرائعة كما في قول أعشى باهلة:

إنـي أتـتـنـي لـسـانٌ لا أسَـرُّ بـهـا(١)

ومنه قولُ الآخر:

نـدمـتُ عـلـى لـسـانٍ كـان مـنـي(٢)

وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوِّ للدلالة على أنَّهم أحقَّاء بما يثنون عليهم، وأنَّ محامدَهم لا تخفى، كأنَّها نار على علم، على تباعد الأعصار، وتبدُّل الدول، وتغيُّر الملل والنحل.

وخصَّ بعضُهم لسان الصدق بما يُتلى في التشهُّد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. والعمومُ أولى.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قيل: قدَّم ذكرَه على إسماعيل عليهما السلام لئلَّا ينفصلَ عن ذكر يعقوب عليه السلام. وقيل: تعجيلاً لاستجلاب أهل الكتاب بعد ما فيه استجلاب العرب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحِّداً أخلصَ عبادته عن الشرك والرياء، أو: أسلمَ وجهه لله

---

(١) الكامل ٣/ ١٤٣١، وخزانة الأدب ٦/ ٥١١. وعجزه:

مـن عَـلـو لا عـجـبٌ مـنـهـا ولا سَـخَـرُ

(٢) ديوان الحطيئة ص٣٤٧. وفيه: لسانٍ فات... بدل: لسان كان... وهو بمثل رواية المصنف في الخزانة ٤/ ١٥٢. وعجزه كما في الديوان: فليت بيانه في جوف عكمِ.

عزَّ وجلَّ، وأخلص عن سواه. وقرأ الكوفيون وأبو رزين ويحيى وقتادة: «مخلَصاً» بفتح اللام[1]، على أنَّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ مرسلاً من جهة الله تعالى إلى الخلق بتبليغ ما شاء من الأحكام ﴿نَّبِيًّا ۝٥١﴾ رفيعَ القدر على كثيرٍ من الرسل عليهم السلام، أو على سائر الناس الذين أُرسل إليهم، فالنبيُّ من النبوَّة بمعنى الرفعة، ويجوز أن يكون من النبأ، وأصله نبيء، أي: المنبِّئ عن الله تعالى بالتوحيد والشرائع[2].

ورُجِّح الأول بأنَّه أبلغ، قيل: ولذلك قال ﷺ: «لستُ بِنَبِيْءِ الله تعالى ـ بالهمزة ـ ولكن نبيُّ الله تعالى»[3] لمن خاطبه بالهمز، وأراد أنْ يغضَّ منه. والذي ذكره الجوهريُّ[4] أنَّ القائلَ أرادَ أنَّه عليه الصلاة والسلام أخرجَه قومُه، من نَبَأَ، فأجابه ﷺ بما يدفعُ ذلك الاحتمال.

ووجه الإتيان بالنبيِّ بعد الرسول على الأول ظاهر، ووجهُ ذلك على الثاني موافقةُ الواقع بناءً على أنَّ المرادَ: أرسلَه الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه سبحانه. واختار بعضُهم أنَّ المرادَ من كلا اللفظين معناهما اللغويّ، وأنَّ ذكر النبيِّ بعد الرسول؛ لما أنَّه ليس كلُّ مرسَلٍ نبيًّا؛ لأنَّه قد يُرسل بعطيَّةٍ أو مكتوبٍ أو نحوهما.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ «الطور»: جبلٌ بين مصر ومدين، و«الأيمن» صفةٌ لـ «جانب»؛ لقوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠] بالنصب، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، من اليمين المقابل لليسار.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٨. وقراءة الكوفيين في التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/ ٢٩٥.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصُّه: وحكى الأزهريُّ عن الكسائي أن النبيء الطريق، والأنبياء طرق الهدى. اهـ. منه. وكلام الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٤٨٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٣١ من طريق حمران بن أعين عن أبي الأسود الديلي عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر لم يصح. قال النسائي: حمران ليس بثقة. وقال أبو داود: رافضي روى عن موسى بن عبيدة، وهو واه. اهـ. وسلف ٢/ ٢١٢.

(٤) الصحاح (نبأ).

والمراد به يمين موسى عليه السلام، أي: الناحية التي تلي يمينه، إذ الجبل نفسه لا ميمنةَ له ولا ميسرة.

ويجوز أنْ يكون الأيمن من اليُمن، وهو البركة، وهو صفةٌ لـ «جانب» أيضاً، أي: من جانبه الميمون المبارك. وجُوِّزَ على هذا أنْ يكون صفةً للطور. والأوَّل أولى.

والمراد من ندائه من ذلك ظهورُ كلامه تعالى من تلك الجهة، والظاهرُ أنَّه عليه السلام إنَّما سمع الكلام اللفظيَّ. وقال بعض: إنَّ الذي سمعه كان بلا حرفٍ ولا صوت، وأنَّه عليه السلام سمعَه بجميع أعضائه من جميع الجهات، وبذلك تيقَّن[1] أنَّ المنادي هو الله تعالى، ومن هنا قيل: إنَّ المراد ناديناه مقبلاً من جانب الطور المبارك، وهو طورُ ما وراء طور العقل، وفي الأخبار ما ينادي على خلافه.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ تقريبَ تشريف، مثَّل حالَه عليه السلام بحال من قرَّبه الملكُ لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته، ورفع الوسائط بينه وبينه. و«نجيًّا» فعيلٌ بمعنى مُفاعل، كجليس بمعنى مُجالس، ونديم بمعنى منادم، من المناجاة: المسارَّة بالكلام. ونصبه على الحاليَّة من أحد ضميري موسى عليه السلام في: «ناديناه» و«قربناه»، أي: ناديناه أو قربناه حال كونه مُناجياً.

وقال غير واحد: مرتفعاً، على أنَّه من النجو، وهو الارتفاع. فقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنَّ جبرائيل عليه السلام أردفَه حتى سمعَ صرير القلم والتوراةُ تكتبُ له[2]. أي: كتابةً ثانيةً، وإلَّا ففي الحديث الصحيح الوارد في شأن محاجَّة آدم وموسى عليهما السلام أنَّها كتبت قبلَ خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة[3]، وخبر رفعه عليه السلام إلى السماء حتى سمع صرير القلم، رواه غيرُ واحد، وصحَّحه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما[4]، وعلى ذلك لا يكون المعراج مطلقاً مختصًّا بنبينا ﷺ، بل المعراجُ الأكمل.

---

(١) في (م): يتيقن.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٧٣. وأخرجه أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٨٦.

(٣) خبر محاجَّة موسى وآدم عليهما السلام أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٤) المستدرك ٢/ ٣٧٣. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٣٣، والطبري في تفسيره ١٥/ ٥٥٩ _ ٥٦٠. ووقع فيها: صريف. بدل: صرير.

وقيل: معنى «نجيًّا» ناجياً بصدقه، وروي ذلك عن قتادة. ولا يخفى بعده.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ أي: من أجل رحمتنا له ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضدةَ أخيه ومؤازرتَه؛ إجابةً لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩- ٣٠] لا نفسَه عليه السلام؛ لأنَّه كان أكبر من موسى عليه السلام سنًّا، فوجودُه سابقٌ على وجوده، وهو مفعول «وهبنا»، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له، وقوله سبحانه: ﴿نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ حالٌ منه.

ويجوزُ أنْ تكون «من» للتبعيض، قيل: وحينئذٍ يكون «أخاه» بدل بعضٍ من كل، أو كلٍّ من كل، أو اشتمال من «من». وتُعقِّبَ بأنَّها إن كانت اسماً مرادفةً لبعض، فهو خلافُ الظاهر، وإن كانت حرفاً، فإبدال الاسم من الحرف ممَّا لم يوجد في كلامهم.

وقيل: التقديرُ: وهبنا له شيئاً من رحمتنا، فـ «أخاه» بدلٌ من شيئاً المقدَّر. وأنت تعلم أنَّ الظاهر[1] كونُه مفعولاً.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ الظاهرُ أنَّه ابن إبراهيم عليهما السلام، كما ذهب إليه الجمهور. وهو الحقّ. وفصَل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه عليهم السلام؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره، بإيراده مستقلًّا.

وقيل: إنَّه إسماعيلُ بن حزقيل، بعثَه الله تعالى إلى قومه، فسلخوا جلدةَ رأسه، فخيَّره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضيَ بثوابه سبحانه، وفوَّضَ أمرهم إليه عزَّ وجلَّ في العفو والعقوبة. ورَوى ذلك الإماميَّة عن أبي عبد الله ﷺ. وغالبُ الظنِّ أنَّه لا يصحُّ عنه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليلٌ لموجب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف؛ لكمال شهرته بذلك. وقد جاء في بعض الأخبار أنَّه وعَد رجلاً أن يُقيم له بمكانٍ، فغابَ عنه حولاً، فلمَّا جاءه قال له: ما برحتَ من مكانك، فقال: لا والله ما كنتُ لأخلفَ موعدي. وقيل: غابَ عنه اثني عشر يوماً. وعن مقاتل: ثلاثةَ أيام. وعن سهل بن سعد: يوماً وليلة.

---

(١) بعدها في (م): هو.

والأوّل أشهر، ورواه الإماميَّة أيضاً عن أبي عبد الله ﷺ، وإذا كان هو الذبيح، فناهيكَ في صِدقه أنَّه وعدَ أباه الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] فوفى. وقال بعضُ الأذكياء ـ طال بقاؤه ـ: لا يبعدُ أنْ يكون ذلك إشارةً إلى هذا الوعد، والصدقُ فيه من أعظم ما يتصوَّر.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ الكلامُ فيه كالكلام في السابق، بيدَ أنَّهم قالوا هنا: إنَّ فيه دلالة على أنَّ الرسولَ لا يجبُ أن يكون صاحبَ شريعةٍ مستقلَّةٍ، فإنَّ أولادَ إبراهيم عليهم السلام كانوا على شريعته، وقد اشتهر خلافه، بل اشترط بعضُهم فيه أنْ يكون صاحبَ كتابٍ أيضاً. والحقُّ أنَّه ليس بلازم.

وقيل: إنَّ المرادَ بكونه صاحب شريعةٍ أن يكون له شريعةٌ بالنسبة إلى المبعوث إليهم، وإسماعيلُ عليه السلام كذلك؛ لأنَّه بعث إلى جُرْهم بشريعةِ أبيه، ولم يبعث إبراهيم عليه السلام إليهم. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالاً بالأهمّ، وهو أنْ يبدأ الرجلُ بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقربُ الناس إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه:١٣٢]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]. أو قصداً إلى تكميل الكلِّ بتكميلهم؛ لأنَّهم قدوةٌ يؤتسى بهم. وقال الحسن: المراد بأهله أمته[1]؛ لكون النبيِّ بمنزلة الأب لأمَّته. ويؤيِّد ذلك أنَّ في مصحف عبد الله: «وكان يأمر قومه»[2].

والمراد بالصلاة والزكاة، قيل: معناهما المشهور. وقيل: المراد بالزكاة مطلق الصدقة. وحُكي أنَّه عليه السلام كان يأمرُ أهلَه بالصلاة ليلاً، والصدقة نهاراً. وقيل: المرادُ بها تزكية النفس وتطهيرها.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهو اسم مفعول، وأصلُه: مَرْضُوْوٌ، فأُعِلَّ بقلب واوه ياءً؛ لأنَّها طرفٌ بعد واوٍ ساكنة، فاجتمعت الواو والياء، وسُبِقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياءُ في

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي أمة الإجابة. اهـ منه.
(٢) البحر المحيط ٦/١٩٩.

الياء، وقلبت الضمَّةُ كسرة. وقرأ ابن أبي عبلة: «مرضوًّا» من غير إعلال[١]. وعن العرب أنَّهم قالوا: أرضٌ مَسْنِيَّة ومَسْنوَّة، وهي التي تسقى بالسواني[٢].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ هو نبيٌّ قبلَ نوح، وبينهما ـ على ما في «المستدرك» عن ابن عباس ـ ألف سنة[٣]، وهو: أخنوخ[٤] بن يرد، بن مهلاييل، بن أنوش، بن قينان، بن شيث، بن آدم عليه السلام.

وعن وهب بن منبه أنَّه جدُّ نوحٍ عليه السلام. والمشهورُ أنَّه جدُّ أبيه، فإنَّه ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ.

وهو أوَّل من نظر في النجوم والحساب، وجعل الله تعالى ذلك من معجزاته ـ على ما في «البحر»[٥] ـ وأوَّلُ من خطَّ بالقلم، وخاطَ الثياب، ولبس المخيط، وكان خيَّاطاً، وكانوا قبلُ يلبسون الجلود، وأول مُرسَلٍ بعد آدم، وقد أنزلَ الله تعالى عليه ثلاثين صحيفةً، وأوَّل من اتَّخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل.

وعن ابن مسعود أنَّه إلياس، بُعثَ إلى قومه أنْ يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبوا وأهلكوا.

والمعوَّل عليه الأول، وإن رَوى القولَ بأنَّه إلياس ابنُ أبي حاتم بسندٍ حسن عن ابن مسعود[٦].

وهذا اللفظ سريانيٌّ عند الأكثرين، وليس مشتقًّا من الدرس؛ لأنَّ الاشتقاقَ من غير العربيِّ ممَّا لم يقل به أحد، وكونُه عربيًّا مشتقًّا من ذلك يردُّه منعُ صرفه. نعم،

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٩.
(٢) السواني جمع سانية، وهي الناقة يسقى عليها.
(٣) المستدرك ٢/ ٥٤٨.
(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: بضم الهمزة وفتحها. اهـ. منه.
(٥) ٦/ ١٩٩.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٣٦ (٧٥٥٦)، وأخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٣٨٣، وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾... إثر الحديث (٣٣٤١)، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٣٧٣.

لا يبعدُ أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك؛ فلقِّب به لكثرة دراسته.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦﴾ هو كما تقدم. ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ هو شرفُ النبوَّة والزلفى عند الله تعالى، كما روي عن الحسن، وإليه ذهب الجبائيُّ وأبو مسلم.

وعن أنس وأبي سعيد الخدريّ وكعب ومجاهد: السماء الرابعة.

وعن ابن عباس والضَّحَّاك: السماء السادسة.

وفي روايةٍ أخرى عن الحسن: الجنَّة لا شيء أعلى من الجنَّة.

وعن النابغةِ الجعديِّ أنَّه لما أنشد رسولَ الله ﷺ الشعرَ الذي آخرُه:

بلغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا ... وإنَّا لنرجو فوقَ ذلك مظهرا[1]

قال عليه الصلاة والسلام له: «إلى أين المظهرُ يا أبا ليلى؟» قال: إلى الجنة يا رسول الله. قال: «أجل إن شاء الله تعالى»[2]. وعن قتادة: أنَّه عليه السلام يعبدُ الله تعالى مع الملائكة عليهم السلام في السماء السابعة، ويرتعُ تارةً في الجنَّة حيث شاء.

وأكثر القائلين برفعه حسًّا قائلونَ بأنَّه حيٌّ حيث رفع.

وعن مقاتل أنَّه ميت في السماء، وهو قولٌ شاذّ.

وسبب رفعه على ما رُوي عن كعب وغيره: أنَّه مرَّ ذات يومٍ في حاجةٍ، فأصابه وهجُ الشمس، فقال: يارب إنِّي مشيتُ يوماً في الشمس فأصابني منها ما أصابني، فكيف بمن يحملُها مسيرةَ خمس مئة عام في يومٍ واحد، اللهمّ خفِّف عنه من ثقلها وحَرِّها، فلمَّا أصبحَ الملَكُ وجد من خفَّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال:

---

(١) ديوان النابغة ص٧٣.

(٢) أخرجه البزار (٢١٠٤) كشف الأستار، وأبو نُعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٧٣-٧٤)، وفي دلائل النبوة (٣٨٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٣٢). واضطربت رواية البيت في هذه المصادر، وفي الخبر: يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٢٦، والإصابة: ١٠/ ١١٨. وقد توسع الحافظ ابن حجر في طرق الحديث، ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: قصيدة النابغة مطولة نحو مئتي بيت... وما أظنه إلا أنشدها النبي ﷺ كلها. اهـ. وانظر كلام ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠/ ٣٤٦ بهامش الإصابة.

يارب خلقتني لحمل الشمس فماذا الذي قضيتَ فيه؟ قال: إنَّ عبدي إدريس سألني أنْ أُخفِّف عنك حملها وحرَّها، فأجبته، قال: يارب فاجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلَّة، فأذِن له حتى أتى إدريس، ثمَّ إنه طلبَ منه رفعه إلى السماءِ، فأذن الله تعالى له بذلك، فرفعه.

وأخرج ابنُ المنذر عن عمر مولى غُفْرة[1] يرفع الحديث إلى النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إدريس كان نبيًّا تقيًّا زكيًّا، وكان يَقسمُ دهرَه على نصفين؛ ثلاثةِ أيَّام يُعلِّم الناسَ الخير، وأربعة أيَّام يسيحُ في الأرض، ويعبدُ الله تعالى مجتهداً، وكان يصعدُ من عمله وحدَه إلى السماء من الخير مثلُ ما يصعدُ من جميع أعمال بني آدم، وإنَّ ملك الموت أحبَّه في الله تعالى، فأتاه حين خرج للسياحة، فقال له: يا نبيَّ الله، إنِّي أريد أن تأذنَ لي في صحبتك، فقال له إدريس وهو لا يعرفه: إنَّك لن تَقوى على صحبتي، قال: بلى، إنِّي أرجو أن يقوِّيني الله تعالى على ذلك، فخرج معه يومَه ذلك، حتى إذا كان من آخر النهار مرَّا براعي غنم، فقال ملك الموت: يا نبيَّ الله، إنَّا لا ندري حيث نمسي، فلو أخذنا جفرةً من هذه الغنم، فأفطرنا عليها، فقال له: لا تَعُد إلى مثل هذا، أتدعوني إلى أخذ ما ليس لنا، من حيث نمسي يأتينا الله تعالى برزق، فلمَّا أمسى أتاه الله تعالى بالرزق الذي كان يأتيه، فقال لملك الموت: تقدَّم فَكُلْ، فقال: لا والذي أكرمك بالنبوة ما أشتهي، فأكل وحده، وقاما جميعاً إلى الصلاة، ففتر إدريس ونَعَس، ولم يفتر الملك ولم ينعس، فعجبَ منه، وصغرت عنده عبادته ممَّا رأى، ثمَّ أصبحا فساحا، فلمَّا كان آخر النهار مرَّا بحديقة عنب، فقال له مثل ما قال أوَّلاً، فلما أمسيا أتاه اللهُ تعالى بالرزق، فدعاه إلى الأكل فلم يأكل، وقاما إلى الصلاة، وكان من أمرهما ما كان أوَّلاً، فقال له إدريس: لا والذي

---

(١) في الأصل و(م): عفرة. والتصويب من الدر المنثور ٤/ ٢٧٤-٢٧٥ ومصادرِ الترجمة، وهو عمر بن عبد الله المدني، مولى غفرة بنت رباح أخت بلال بن رباح، ويقال: مولى غفرة بنت شيبة، أدرك ابن عباس، وسأل سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد. قال أحمد: ليس به بأس، ولكن أكثر حديثه مراسيل، وضعفه ابن معين والنسائي. ولم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ، كما قال يحيى بن معين. وقال أبو حاتم: حديثه عن ابن عباس مرسل. وقال ابن حجر: ضعيف وكان كثير الإرسال، مات سنة خمس أو ست وأربعين ومئة. انظر تهذيب الكمال ٢١/ ٤٢٠-٤٢٢، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٣٨، وتقريب التهذيب ص٤٨٣.

نفسي بيده ما أنت من بني آدم، فقال: أجل لست منهم، وذكر له أنَّه ملَكُ الموت، فقال: أُمرتَ فيَّ بأمرٍ، فقال: لو أمرتُ فيك بأمرٍ ما ناظرتك، ولكنِّي أحبُّك في الله تعالى، وصحبتُك له، فقال له: إنَّك معي هذه المدة لم تقبض روحَ أحدٍ من الخلق، قال: بلى إنِّي معك، وإنِّي أقبضُ نفسَ من أمرتُ بقبض نفسه في مشارق الأرض ومغاربها، وما الدنيا كلُّها عندي إلَّا كمائدةٍ بين يدي الرجل يتناولُ منها ما شاء، فقال له: يا ملك الموت، أسألُكَ بالذي أحببتني له وفيه إلَّا قضيتَ لي حاجةً أسألكها، فقال: سلني يا نبيَّ الله، فقال: أحبُّ أن تذيقني الموتَ، ثم تردَّ عليَّ روحي، فقال: ما أقدرُ إلَّا أن أستأذنَ، فاستأذن ربَّه تعالى فأذنَ له، فقبضَ روحه، ثُمَّ ردَّها الله تعالى إليه، فقال له ملك الموت: يا نبيَّ الله كيف وجدت الموت؟ قال: أعظمُ ممَّا كنت أحدَّثُ وأسمع، ثمَّ سأله رؤية النار، فانطلقَ إلى أحد أبواب جهنم، فنادَى بعض خزنتها، فلمَّا علموا أنَّه ملكُ الموت ارتعدت فرائصهم وقالوا: أمرتَ فينا بأمر، فقال: لو أمرتُ فيكم بأمرٍ ما ناظرتكم، ولكنَّ نبي الله تعالى إدريس سألني أن تُروه لمحةً من النار، ففتحوا له قدر ثقب المِخْيَط، فأصابه ما صعق منه، فقال ملك الموت: أغلقوا. فغلقوا، وجعل يمسحُ وجه إدريس ويقول: يا نبيَّ الله تعالى، ما كنت أحبُّ أن يكون هذا حظّك من صحبتي، فلمَّا أفاق سأله: كيف رأيت؟ قال: أعظم ممَّا كنتُ أحدَّث وأسمع، ثم سأله أن يريه لمحةً من الجنَّة، ففعل نظيرَ ما فعل قبل، فلمَّا فتحوا له أصابهُ من بردها وطيبها وريحانها ما أخذ بقلبه، فقال: يا ملكَ الموت إنِّي أحبُّ أن أدخل الجنَّة فآكلَ أكلةً من ثمارها، وأشربَ شربة من مائها، فلعلَّ ذلك أنْ يكون أشدَّ لطلبتي ورغبتي، فدخل وأكل وشرب، فقال له ملك الموت: اخرج يا نبيَّ الله تعالى، قد أصبت حاجتَك، حتى يردَّكَ الله عزَّ وجلَّ مع الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة، فاحتضن بساق شجرةٍ من أشجارها وقال: ما أنا بخارج، وإنْ شئت أن أخاصمكَ خاصمتُك، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت: قاضه الخصومة، فقال له: ما الذي تخاصمني به يا نبيَّ الله تعالى، فقال إدريس: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقتُه، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال جلَّ وعلا لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] أفأخرجُ من شيءٍ ساقه الله عزَّ وجلَّ إليَّ، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت:

خَصَمَك عبدي إدريس، وعزَّتي وجلالي، إنَّ في سابق علمي أنْ يكون كذلك، فدعه فقد احتجَّ عليك بحجَّة قوية». الحديث. والله تعالى أعلمُ بصحته، وكذا بصحَّة ما قبلَه من خبر كعب.

وهذا الرفعُ لاقتضائه علوَّ الشأن ورِفعةَ القدر كان فيه من المدح ما فيه، وإلَّا فمجردُ الرفع إلى مكان عالٍ حسًّا ليس بشيء:

فالنارُ يعلوها الدخانُ وربَّما يعلو الغبارُ عمائمَ الفرسان[(١)]

وادَّعى بعضهم أنَّ الأقربَ أنَّ العلوَّ حسيٌّ؛ لأنَّ الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنويَّة. وتُعقِّب بأنَّ فيه نظراً؛ لأنَّه وَرد مثلُه، بل ما هو أظهرُ منه، كقوله:

وكن في مكانٍ إذا ما سقطت تقومُ ورجلُكَ في عافية[(٢)]

فتأمَّل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلوِّ مرتبتهم، وبعد منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ أي: بفنون النعم الدينيَّة والدنيويَّة حسبما أشير إليه مجملاً = خبرُه على ما استظهره في «البحر»[(٣)].

والحصر عند القائل به إضافيٌّ بالنسبة إلى غير الأنبياء الباقين عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّهم معروفون بكونهم مُنْعَماً عليهم، فينزلُ الإنعام على غيرهم منزلةَ العدم. وقيل: يُقَدَّر مضاف، أي: بعض الذين أنعم الله عليهم. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للموصول. وقيل: «من» تبعيضيَّة بناء على أنَّ المراد: أولئك المذكورونَ الذين أنعم الله تعالى عليهم بالنِّعم المعهودةِ المذكورة هنا. فيكون الموضوع والمحمول مخصوصاً بمن سمعت، وهم بعض النبيين. وعموم المفهوم

(١) معاهد التنصيص ٣/ ٧٠.
(٢) هو لأبي الفتح نصر بن محمد بن مقلد القضاعي الشيزري، كما في وفيات الأعيان ٢/١٠٦.
وفيه: ورجلاك. بدل: ورجلك.
(٣) ٦/ ٢٠٠.

المراد من المحمول في نفسه ومن حيث هو في الذهن لا ينافي أنْ يُقصَد به أمرٌ خاصٌّ في الخارج، كما لا يخفى.

واختير حمل التعريف في الخبر عن الجنس للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] والمحذور مندفعٌ بما ذكرنا.

و«من» في قوله سبحانه: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ قيل: بيانيَّة، والجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرور السابق، والمجرور بدلٌ من المجرور بإعادة الجارِّ، وهو بدلُ بعض من كلّ؛ بناءً على أنَّ المرادَ ذريته الأنبياء، وهي غيرُ شاملة لآدم عليه السلام. ولا يخفى بعده.

وقيل: هي تبعيضيَّة؛ لأنَّ المنعمَ عليه أخصُّ من الذرية من وجه؛ لشمولها - بناءً على الظاهر المتبادر منها - غيرَ من أنعم عليه دونه، ولا يضرُّ في ذلك كونها أعمّ منها من وجهٍ؛ لشموله آدم والملك ومؤمني الجنِّ دونها.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومن ذرية من حملناهم معه عليه السلام خصوصاً، وهم من عدا إدريس عليه السلام؛ لما سمعت من أنَّه قبل نوح، وإبراهيم عليه السلام كان بالإجماع من ذريَّة سام بن نوح عليهما السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على «إبراهيم» أي: ومن ذرية إسرائيل، أي: يعقوب عليه السلام، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ أولادَ البنات من الذريَّة؛ لدخول عيسى عليه السلام، ولا أبَ له. وجعلُ إطلاق الذريَّة عليه بطريق التغليب خلافُ الظاهر.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «من ذرية آدم». و«من» للتبعيض، أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحقِّ واخترناهم للنبوَّة والكرامة. وجوِّز أن يكون عطفاً على قوله سبحانه: «من النبيين»، و«من» للبيان. وأورد عليه أنَّ ظاهر العطف المغايرة، فيحتاج إلى أن يقال: المرادُ ممن جمعنا له بين النبوَّة والهداية، والاجتباء للكرامة. وهو خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استئنافٌ مساقٌ لبيان

خشيتهم من الله تعالى، وإخباتهم له سبحانه، مع مالهم من علوِّ الرتبة وسموِّ الطبقة في شرف النسب وكمال النفس، والزُّلفى من الله عَزّ سلطانه.

وقيل: خبرٌ بعد خبر لاسم الإشارة. وقيل: إنَّ الكلامَ انقطع عند قوله تعالى: «وإسرائيل»، وقوله سبحانه: «وممن هدينا» خبرُ مبتدأ محذوف، وهذه الجملة صفةٌ لذلك المحذوف، أي: وممن هدينا واجتبينا قومٌ إذا تتلى عليه... إلخ. ونُقل ذلك عن أبي مسلم.

ورَوى بعضُ الإماميَّة عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنَّه قال: نحن عُنينا بهؤلاء القوم.

ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر جدًّا، وحالُ روايات الإمامية لا يخفى على أرباب التمييز.

وظاهر صنيع بعض المحقِّقين اختيارُ أنْ يكون الموصول صفةً لاسم الإشارة، على ماهو الشائع فيما بعدَ اسم الإشارة، وهذه الجملةُ هي الخبر؛ لأنَّ ذلك أمدحُ لهم. ووجه ذلك ظاهرٌ عند من يعرفُ حكم الأوصاف والأخبار.

و«سُجَّداً» جمع: ساجد، وكذا «بكيًّا» جمع: باكٍ، كشاهد وشهود، وأصله بُكُويّ، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء وحُرِّكت الكاف بالكسر لمناسبة الياء، وجمعه المقيس: بكاة، كـ : رامٍ ورُماة، إلَّا أنَّه لم يُسمع على ما في «البحر»[1]، وهو مخالف لما في «القاموس»[2] وغيره.

وجَوَّز بعضُهم أنْ يكون مصدر بكى، كجلوساً مصدر جلس. وهو خلاف الظاهر. نعم ربَّما يقتضيه ما أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «البكاء» وابنُ جرير وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الشعب» عن عمر رضي الله عنه أنَّه قرأ سورة مريم، فسجد، ثم قال: هذا السجود، فأين البكيّ[3]؟

---

(١) ٦/ ٢٠٠.

(٢) مادة (بكى).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٦٧، وشعب الإيمان (٢٠٥٩).

وزعم ابن عطية[١] أن ذلك متعيّنٌ في قراءة عبد الله ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «بِكيًّا» بكسر أوله[٢]. وليس كما زعم، لأنَّ ذلك إتباع، وظاهرٌ أنَّه لا يعيِّنُ المصدريَّة.

ونصب الاسمين على الحاليَّة من ضمير «خَرُّوا» أي: ساجدين وباكين، والأوَّل حالٌ مقدَّرةٌ، كما قال الزجاج[٣].

والظاهرُ أنَّ المراد من السجود معناهُ الشرعيُّ، والمراد من الآيات ما تضمنته الكتبُ السماوية، سواءٌ كان مشتملاً على ذكر السجود أم لا، وسواء كان متضمِّناً لذكر العذاب المنزل بالكفار أم لا. ومن هنا استُدِلَّ بالآية على استحباب السجود والبكاء عند تلاوة القرآن. وقد أخرج ابنُ ماجه وإسحاق بن راهويه والبزّار في «مسنديهما» من حديث سعد[٤] بن أبي وقاص مرفوعاً: «اتلوا القرآن وابكوا، فإنْ لم تبكوا فتباكوا»[٥].

وقيل: المراد من السجود سجودُ التلاوة، حسبما تُعبِّدْنا به عند سماع بعض الآيات القرآنية، فالمراد بآيات الرحمن آياتٌ مخصوصةٌ متضمِّنةٌ لذكر السجود.

وقيل: المراد منه الصلاة. وهو قولٌ ساقطٌ جدًّا.

وقيل: المراد منه الخشوع والخضوع، والمراد من الآيات ما تضمَّن العذابَ المنزل بالكفار، وهذا قريبٌ من سابقه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٠. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.
(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥.
(٤) في الأصل و(م): سعيد. وهو خطأ. والتصويب من المصادر.
(٥) سنن ابن ماجه (١٣٣٧) من طريق أبي رافع عن ابن أبي مليكة... وأبو رافع، إسماعيل بن أبي رافع: قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٦: ليِّن. وانظر مصباح الزجاجة ١/ ٢٤٠. وأخرجه البزار في مسنده (١٢٣٥) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة... وقال: هذا الحديث لا يروى عن سعد إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وعبد الرحمن بن أبي بكر هذا لين الحديث.

ونقل الجلال السيوطيُّ[(١)] عن الرازيِّ[(٢)] أنَّه استدلَّ بالآية على وجوب سجود التلاوة، وهو ـ كما قال الكيا ـ بعيد[(٣)]. وذكروا أنَّه ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليقُ بآيتها، فها هنا يقول: اللهمَّ اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهتدين الساجدين لك، الباكينَ عند تلاوة آياتك. وفي آية «الإسراء»: اللهمَّ اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك، وفي آية تنزيل «السجدة»: اللهمَّ اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدك ورحمتك، وأعوذُ بك من أنْ أكون من المستكبرين عن أمرك. وقرأ عبد الله وأبو جعفر، وشيبة وشبل بن عباد وأبو حيوة، وعبدُ الله بن أحمد العجليّ عن حمزة وقتيبة في رواية، وورش في رواية النحَّاس، وابنُ ذكوان في رواية التغلبيّ: «يُتلى» بالياء التحتية[(٤)]؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيّ، ولوجود الفاصل.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: جاء بعدهم عقبُ سوءٍ، فإنَّ المشهورَ في الخلف ساكنَ اللام ذلك، والمشهور في مفتوح اللام ضدُّه، وقال أبو حاتم: الخلف بالسكون: الأولاد؛ الجمع والواحد فيه سواء، وبالفتح: البدل، ولداً كان أو غيره.

وقال النضر بن شميل: الخلف بالتحريك والإسكان: القرنُ السوء، أمَّا الصالح، فالتحريك لا غير.

وقال ابن جرير: أكثرُ ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذمِّ بتسكينها، وقد يعكس[(٥)]، وعلى استعمال المفتوح في الذمِّ جاءَ قول لبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم   وبقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجربِ[(٦)]

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص١٧٤.

(٢) هو أبو بكر الجصاص الرازي، وانظر أحكام القرآن له ٣/ ٢١٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٧١.

(٣) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٧١.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٠٠. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٥، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٤٧٠ عن شبل بن عباد المكي فقط. وهي عنهم قراءة شاذة، كما صرح بذلك السمين في الدر المصون ٧/ ٦٠٨.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٤.

(٦) سلف ٩/ ٤٤٠.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن وأبو رزين العقيليّ والضحَّاك وابن مقسم: «الصلوات» بالجمع[1]، وهو ظاهر. ولعلَّ الإفراد للاتفاق في النوع.

وإضاعتُها ـ على ما روي عن ابن مسعود والنخعيّ والقاسم بن مخيمرة ومجاهد وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز ـ تأخيرُها عن وقتها. ورَوى ذلك الإماميَّةُ عن أبي عبد الله ﷺ.

واختار الزَّجّاج أنَّ إضاعتها الإخلال بشروطها من الوقت وغيره[2].

وقيل: إقامتها في غير جماعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظيّ أنَّ إضاعتَها تركها[3].

وقيل: عدمُ اعتقاد وجوبها. وعلى هذا الآيةُ في الكفار، وعلى ما قبله لا قطع، واستظهر أنَّها عليه في قوم مسلمين؛ بناءً على أنَّ الكفَّار غير مكلَّفين بالفروع، إلَّا أنْ يقال: المرادُ أنَّ من شأنهم ذلك. فتدبر، وعلى ما قبلهما في قوم مسلمين قولاً واحداً. والمشهور عن ابن عباس ومقاتل أنَّها في اليهود، وعن السُّدِّيّ أنَّها فيهم وفي النصارى، واختيرَ كونُها في الكفرة مطلقاً؛ لما سيأتي إنْ شاء الله تعالى قريباً، وعليه بُنيَ حسنُ موقع حكاية قول جبريل عليه السلام الآتي.

وكونها في قومٍ مسلمين من هذه الأمَّة مرويٌّ عن مجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم، قالوا: إنَّهم يأتون عند ذهاب الصالحين، يتبادرون بالزنى، ينزو بعضهم على بعضٍ في الأزقَّة كالأنعام، لا يستحيون من الناس، ولا يخافون من الله تعالى.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وانهمكوا في المعاصي المختلفة الأنواع. وفي «البحر»[4]: «الشهوات» عامٌّ في كلِّ مشتهًى يشغلُ عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٠١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٥ عن عبد الله بن مسعود والحسن والضحاك فقط.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٥.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٧.

(٤) ٦/ ٢٠١.

وعدَّ بعضُهم من ذلك نكاح الأخت من الأب، وهو على القول بأنَّ الآية فيما يعمُّ اليهود؛ لأنَّ من مذهبهم ـ فيما قيل ـ ذلك، وليس بحقّ.

والذي صحَّ عنهم أنَّهم يجوِّزون نكاح بنت الأخ وبنت الأخت ونحوهما.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: من بنى المشيد، وركبَ المنظور، ولبس المشهور.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ أخرج ابنُ جرير والطبرانيُّ وغيرهما من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «أنَّه نهرٌ في أسفل جهنم، يسيلُ فيه صديدُ أهل النار». وفيه: «لو أنَّ صخرةً زِنَةَ عشر عشراوات قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثمَّ تنتهي إلى غيٍّ وأثام»(١).

ويعلم منه سِرُّ التعبير بـ «سوف يلقون». وأخرج جماعة من طرق عن ابن مسعود أنَّه قال: الغيُّ نهرٌ أو وادٍ في جهنَّم من قيح، بعيدُ القعر، خبيث الطعم، يقذف فيه الذين يتَّبعون الشهوات(٢).

وحكى الكرمانيُّ أنَّه آبارٌ في جهنَّم يسيلُ إليها الصديدُ والقيح. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنَّ الغيَّ السوء(٣)، ومن ذلك قولُ مرقش الأصغر:

فمَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أمرَه ... ومن يغوِ لا يعدم على الغيِّ لائما(٤)

وعن ابن زيد أنَّه الضلالُ، وهو المعنى المشهور، وعليه قيل: المراد جزاءُ غيٍّ. ورُويَ ذلك عن الضَّحَّاك، واختارَه الزجَّاج(٥).

وقيل: المراد غيًّا عن طريق الجنة.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٧١ ـ ٥٧٢، والمعجم الكبير للطبراني (٧٧٣١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٩: وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان وقال: يخطئون. ووقع في المصادر: بئران. بدل: نهر، وعند الطبري: خمسين. بدل: سبعين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٥٧٢-٥٧٣، والطبراني في المعجم الكبير (٩١٠٦-٩١١٣)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣٧٤-٣٧٥، والبيهقي في البعث والنشور (٥١٨) و(٥١٩).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٣ (١٣١٦٣).

(٤) سلف ٣/ ٤٠٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

وقُرِئ - فيما حكى الأخفش -: «يُلَقَّون» بضمِّ الياء وفتح اللام وشدِّ القاف[1].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ عند الزَّجّاج[2]. وقال في «البحر»[3]: ظاهره الاتصال، وأيِّد بذكر الإيمان كون الآية في الكفر، أو عامَّةً لهم ولغيرهم؛ لأنَّ «من آمن» لا يقال إلَّا لمن كان كافراً، إلَّا بحسب التغليظ.

وحَمْلُ الإيمان على الكامل خلافُ الظاهر، وكذا كَوْنُ المراد: إلَّا من جمع التوبة والإيمان.

وقيل: المراد من الإيمان الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] ويكون ذكره في مقابلة إضاعة الصلاة، وذكر العمل الصالح في مقابلة اتِّباع الشهوات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بموجب الوعد المحتوم. ولا يخفى ما في ترك التسويف مع ذكر «أولئك» من اللطف.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب: «يُدْخَلون»[4] بالبناء للمفعول من أدخل. وقرأ ابن غزوان عن طلحة: «سيَدخلون»[5] بسين الاستقبال مبنيًا للفاعل.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أو لا ينقصون شيئاً من النقص، وفيه تنبيهٌ على أنَّ فعلهم السابق لا يضرُّهم، ولا ينقص أجورهم.

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العملَ شرطُ دخول الجنة.

وأجيب بأنَّ المراد: يدخلون الجنة بلا تسويفٍ، بقرينة المقابلة، وذلك بتنزيل الزمان السابق على الدخول لحفظهم فيه عمَّا ينالُ غيرَهم منزلةَ العدم، فيكون العملُ شرطاً لهذا الدخول لا للدخول مطلقاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر ٦/ ٢٠١.
(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٦.
(٣) ٦/ ٢٠١.
(٤) التيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٢٥٢. وقراءة يعقوب من رواية روح عنه. وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٠١.

وأيضاً يجوزُ أنْ يكون شرطاً لدخول جنَّة عدن، لا مطلق الجنة.

وقيل: هو شرطٌ لعدم نقص شيءٍ من ثواب الأعمال. وهو كما ترى، وقيل غير ذلك.

واعترَض بعضُهم على القول بالشرطية بأنَّه يلزمُ أن لا يكون من تاب وآمن ولم يتمكَّن من العمل الصالح ممَّن يدخل الجنة.

وأجيبَ بأنَّ ذلك من الصور النادرة، والأحكامُ إنَّما تناطُ بالأعمِّ الأغلب. فتأمَّل.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدلٌ من «الجنة» بدل البعض؛ لاشتمالها عليها اشتمالَ الكلِّ على الجزء؛ بناءً على ما قيل: إنَّ «جنات عدن» عَلَمٌ لإحدى الجنات الثمان، كعَلَميَّة: بنات أَوْبَر[1].

وقيل: إنَّ العلَم هو جنة عدن، إلَّا أنه أقيم[2] الثاني بعد حذف الأول مقامَ المجموع، كما في شهر رمضان ورمضان، فكان الأصل: جنَّات جنة عدن[3]. والذي حسَّن هذه الإقامةَ أنَّ المعتبرَ علميَّته في المنقول الإضافيِّ هو الجزءُ الثاني، حتى كأنَّه نُقِل وحده، كما قُرِّر في موضعه من كتب النحو المفصلة.

وفي «الكشف»: إذا كانت التسميةُ بالمضاف والمضاف إليه جعلوا المضاف إليه في نَحوه مقدَّر العلميَّة؛ لأنَّ المعهودَ في كلامهم في هذا الباب الإضافةُ إلى الأعلام والكنى، فإذا أضافوا إلى غيرها أجروه مجراها، كأبي تراب، ألا ترى أنَّهم لا يجوِّزون إدخالَ اللام في ابن دَأْيَةَ وأبي تراب، ويوجبونَه في نحو: امرئ القيس وماء السماء، كلُّ ذلك نظراً إلى أنَّه لا يُغَيَّر من حاله، كالعلم. إلى آخر ما فيه. ويدلُّ على ذلك أيضاً منعُه من الصرف في: بناتِ أَوْبَرَ، وأبي قِتْرَةَ، وابنِ دَأْيَةَ[4]، إلى غير ذلك، فـ «جنات عدن» على القولين معرفة، أمَّا على الأوَّل فللعلميَّة، وأمَّا على

(١) بنات أوبر: ضربٌ من الكمأة صغارٌ مُزَغَّبةٌ بلون التراب. ولقيت منه بنات أوبر، أي: الداهية. القاموس (وبر).

(٢) بعدها في (م): الجزء.

(٣) قوله: فكان الأصل جنات جنة عدن. ليس في الأصل.

(٤) أبو قِتْرَةَ: إبليس لعنه الله تعالى، وهي كنيته. وابن دَأْيَةَ: الغراب. القاموس (قتر) و(دأى).

الثاني فللإضافة المذكورة، وإن لم يكن «عدن» في الأصل عَلَماً ولا معرفة، بل هو مصدر عَدَن بالمكان يعدِن ويعدُن: أقام به.

واعتبار كون «عدن» قبل التركيب عَلَماً لإحدى الجنات يَستدعي أنْ تكون الإضافة في «جَنَّةِ عدن» من إضافة الأعمِّ مطلقاً إلى الأخصِّ؛ بناءً على أنَّ المتبادرَ من الجنَّة المكانُ المعروف، لا الأشجار ونحوها، وهي لا تحسُن مطلقاً، بل منها حسنٌ كشجر الأراك ومدينة بغداد، ومنها قبيحٌ كإنسان زيد، ولا فارق بينهما إلَّا الذوق، وهو غير مضبوط.

وجوَّز أنْ يكون «عدن» عَلَماً للعَدن بمعنى الإقامة[1]، كسَحَر علمٌ للسَّحَر، وأمس للأمس. وتعريف «جنات» عليه ظاهرٌ أيضاً، وإنَّما قالوا ما قالوا تصحيحاً للبدليَّة؛ لأنَّه لو لم يعتبر التعريف لزم إبدالُ النكرة من المعرفة، وهو على رأي القائل لا يجوز إلَّا إذا كانت النكرةُ موصوفةً، وللوصفيَّة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾.

وجَوَّز أبو حيان[2] اعتبارَ «جنات عدن» نكرةً على معنى جنات إقامةٍ واستقرار، وقال: إنَّ دعوى أنَّ «عدناً» علمٌ لمعنى العدن تحتاج إلى توقيفٍ وسماعٍ من العرب، مع ما في ذلك مما يوهم اقتضاء البناء، وكذا دعوى العلميَّة الشخصيَّة فيه، وعدم جواز إبدال النكرة من المعرفة إلَّا موصوفة شيءٌ قاله البغداديون، وهم محجوجون بالسماع. ومذهبُ البصريين جوازُ الإبدال، وإن لم تكن النكرةُ موصوفةً[3].

وقال أبو علي: يجوز ذلك إذا كان في إبدال النكرة فائدة لا تستفاد من المبدَل منه، مع أنَّه لا تتعيّن البدلية؛ لجواز النَّصب على المدح، وكذا لا يتعيّن كون الموصول صفة لجواز الإبدال. انتهى بأدنى زيادة.

وتعقب إبدال الموصول بأنه في حكم المشتقِّ، وقد نَصّوا على أنَّ إبدال المشتَقّ

(١) قوله: علماً للعدن بمعنى الإقامة. ليس في الأصل.

(٢) البحر ٦/ ٢٠٢.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقال الرضي: الوصف شرط إذا كان البدل بدل كل. اهـ منه.

ضعيف، ولعلَّ أبا حيان لا يُسلِّم ذلك، ثم إنَّه جوَّز كون «جنات عدن» بدل كلّ، وكذا جوَّز كونه عطف بيان، وجملة: «لا يظلمون» على وجهي البدلية والعطف اعتراض أو حال.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى بن عمر والأعمش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «جناتُ عدنٍ» بالرفع، وخرَّجه أبو حيان على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: تلك جنات، وغيره على أنَّها مبتدأ، والخبر الموصول.

وقرأ الحسن بن حيّ وعلي بن صالح: «جنةَ عدن» بالنصب والإفراد، ورويت عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف عبد الله. وقرأ اليمانيُّ والحسن في رواية وإسحاق الأزرق عن حمزة: «جنةُ عدن» بالرفع والإفراد[1]، والعائد إلى الموصول محذوف، أي: وعدَها الرحمن، والتعرُّضُ لعنوان الرحمة؛ للإيذان بأنَّ وعدها وإنجازه؛ لكمال سعة رحمته سبحانه وتعالى.

والباء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ للملابسة، وهي متعلِّقةٌ بمضمرٍ هو حال من العائد، أو «من عباده» أي: وعدها إيَّاهم ملتبسةً أو ملتبسين بالغيب، أي: غائبةً عنهم غير حاضرة، أو غائبين عنها لا يرونها. أو للسببيَّة، وهي متعلِّقة بـ «وعد» أي: وعدها إيَّاهم بسبب تصديق الغيب والإيمان به. وقيل: هي صلة «عباده» على معنى: الذين يعبدونه سبحانه بالغيب، أي: بالسِّرِّ[2]. وهو كما ترى.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الرحمن. وجُوِّز كونُ الضمير للشأن ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعوده سبحانه، وهو الجنات، كما روي عن ابن جريج. أو موعوده كائناً ما كان، فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولاً أوليًّا، كما قيل. وجوِّزَ إبقاءُ الوعد على مصدريَّته، وإطلاقه على ما ذكر للمبالغة، والتعبير بـ «كان» للإيذان بتحقُّق الوقوع، أي: كان ذلك ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أي: يأتيه من وُعد له لا محالة.

وقيل: «مأتيًّا» مفعول بمعنى فاعل، أي: آتياً.

وقيل: هو مفعولٌ من: أتى إليه إحساناً، أي: فعل به ما يعدُّ إحساناً وجميلاً،

---

(١) البحر ٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٢. وقراءة أبي عمرو وحمزة المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٢) في (م): في السر.

والوعد على ظاهره. ومعنى كونه مفعولاً كونه منجَّزاً، لأنَّ فعل الوعد بعد صدوره وإيجاده إنَّما هو تَنجيزُه، أي: إنَّه كان وعدُه عبادَه منجَّزاً.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلام لا طائل تحته، بل هو جارٍ مجرى اللَّغا، وهو صوتُ العصافير ونحوها من الطير.

والكلامُ كنايةٌ عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللغو ممَّا ينبغي أن يُجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن.

وعن مجاهد تفسيرُ اللغو بالكلام المشتملِ على السَّبِّ، والمراد لا يتسابُّون. والتعميم أولى.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ منقطع، والسلام إمَّا بمعناه المعروف، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم السلام عليهم، أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص، أي: لكن يسمعون كلاماً سالماً من العيب والنقص.

وجُوِّزَ أن يكون متَّصلاً، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ(١)

وهو يفيد نفيَ سماع اللغو بالطريق البرهانيِّ الأقوى، والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير، ولولا ذلك لم يقع موقعَه من الحسن والمبالغة.

وقيل: اتِّصال الاستثناء على أنَّ معنى السلام: الدعاء بالسلامة من الآفات، وحيثُ إنَّ أهل الجنة أغنياء عن ذلك، إذ لا آفةَ فيها، كان السلام لغواً بحسب الظاهر، وإن لم يكن كذلك نظراً للمقصود منه، وهو الإكرام وإظهار التحابب، ولذا كان لائقاً بأهل الجنَّة.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ واردٌ على عادة المتنعمين في هذه الدار، أخرج ابن المنذر عن يحيى بن كثير قال: كانت العرب في زمانها إنَّما لها أكلةٌ واحدةٌ، فمن أصاب أكلتين سُمِّي: فلانٌ الناعم، فأنزل الله تعالى هذا يرغِّب عبادَه فيما عنده. وروي نحو ذلك عن الحسن.

---

(١) سلف ٥/ ٤٠٧.

وقيل: المراد: دوامُ رزقهم ودُروره، وإلَّا فليس في الجنة بكرة ولا عشيّ، لكن جاء في بعض الآثار أنَّ أهل الجنة يعرفونَ مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفونَ مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا»؟ قال: سمعتُ الله تعالى يذكر في الكتاب: «ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيًّا» فقلت: الليلُ من البكرة والعشيّ. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليلٌ، وإنَّما هو ضوء ونور، يَرِدُ الغدوُّ على الرواح، والرواحُ على الغدو، وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا، وتسلِّم عليهم الملائكة عليهم السلام»[1].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ استئنافٌ جيء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، فاسمُ الإشارة مبتدأ، «والجنة» خبرٌ له، والموصول صفةٌ لها، والجملةُ بعده صلته، والعائد محذوفٌ، أي: نورثها، وبذلك قرأ الأعمش[2].

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة ورويس وحميد وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «نورِّث» بفتح الواو وتشديد الراء[3]، والمراد: نبقيها على من كان تقيًّا من ثمرة تقواه، ونمتِّعه بها، كما نبقي على الوارث مال مورِّثه، ونمتِّعه به، فالإيراث[4] مستعارٌ للإبقاء، وإيثاره على سائر ما يَدُلُّ على ذلك كالبيع والهبة؛ لأنَّه أتمُّ أنواع التمليك، من حيث إنَّه لا يعقب بفسخٍ ولا استرجاع ولا إبطال.

وقيل: يورَّث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: ليس من أحدٍ إلَّا وله في الجنة منزلٌ وأزواج، فإذا كان يوم القيامة وَرَّث اللهُ تعالى المؤمنَ كذا وكذا منزلاً من منازل الكفار، وذلك قوله تعالى: «تلك الجنة التي نورث» الآية[5].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨. ولم أقف عليه في مطبوع نوادر الأصول.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٠٢، وقراءة رويس عن يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣١٨.

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقيل: يحتمل الكلام التمثيل. اهـ منه.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨. وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٣ (١٣١٦٨).

ولا يخفى أنَّ هذا إن صحَّ فيه أثرٌ عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، وإلَّا فقد قيل عليه: إنَّه ضعيف؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ بعض الجنَّة موروث، والنظم الجليل يدلُّ على أنها كلَّها كذلك، ولأنَّ الإيراثَ ينبئُ عن ملكٍ سابق لا على فرضه، مع أنَّه لا داعي للفرض هنا. لكن تعقِّب بأنَّه يكفي في الإيراث كون الموروث كان موعوداً[1]، لكن بشرط التقوى، بناءً على ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى: «جنات عدن التي وعدَ الرحمنُ عبادَه»، حيث قال: المرادُ من العباد ما يعمُّ المؤمن التقيَّ وغيره، ووعدُ غير المؤمن التقيِّ مشروطٌ بالإيمان والتقوى.

نعم اختارَ الأكثرون أنَّ المراد من العباد هناك المتقون، والمراد منهم هنا الأعمّ.

والمراد من التقيِّ من آمن وعمل صالحاً، على ما قيل. ولا دلالةَ في الآية على أنَّ غيره لا يدخل الجنةَ مطلقاً، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن داود بن أبي هند: أنَّه الموحِّد[2]. فتذكَّر ولا تغفل.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية قول جبرائيل صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه، فقد روي أنَّه احتبس عنه ﷺ أياماً حين سُئِل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ عليه الصلاة والسلام كيف يجيب، حتى حزنَ واشتدَّ عليه ذلك، وقال المشركون: إنَّ ربَّه ودَّعه وقلاه، فلمَّا نزل قال له عليه الصلاة والسلام: «يا جبريل احتبستَ عنِّي حتى ساءَ ظنِّي واشتقتُ إليك» فقال: إنِّي كنتُ أشوق، ولكني عبدٌ مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، وأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الضحى. قاله غيرُ واحد[3]. فهو من عطف

(١) في (م): موجوداً.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٤ (١٣١٦٩).
(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣١٠ من قول عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي فقالوا: احتبس... فذكره سواء. وكأنه ملفَّقٌ عندهم، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة، قال: حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس أن قريشاً جاؤوا فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، فذكر القصة. وفيها: فمكث فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك، وصار لا يأتيه جبريل... فذكره

القصة على القصة على ما قاله الخفاجيّ[١].

وفي «الكشف»: وجهُ وقوع ذلك هذا الموقع أنَّه تعالى لمَّا فرغ من أقاصيص الأنبياء عليهم السلام تثبيتاً له ﷺ، وذنَّب بما أحدث بعدَهم الخُلُوف، واستثنى الإخلاف، وذكر جزاءَ الفريقين، عقَّبَ بحكاية نزول جبريل عليه السلام، وما رماه المشركون به من توديع ربِّه سبحانه إيَّاه؛ زيادةً في التسلية، وأنَّ الأمر ليس على ما زعم هؤلاء الخُلُوف، وأدمجَ فيه مناسبته لحديث التقوى بما دلَّ على أنَّهم مأمورون في حركةٍ وسكون، منقادون، مفوَّضون لطفاً له ولأمته ﷺ، ولهذا صرَّح بعده بقوله تعالى: «فاعبده واصطبر لعبادته». وفيه أنَّك لا ينبغي أنْ تكترثَ بمقالة المخالفين إلى أن تلقى ربَّك سعيداً، وعطف عليه مقالةَ الكفَّار بياناً لتباين ما بين المقالتين، وما عليه الملَكُ المعصوم، والإنسان الجاهل الظلوم، فهو استطرادٌ شبيهٌ بالاعتراض حسنُ الموقع. انتهى.

ولا يأبى ما تقدَّم في سبب النزول ما أخرجه أحمد والبخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعة في سببه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام: «ما يمنعُك أن تزورَنا أكثر ممَّا تزورنا»؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[٢]؛ لجواز أنْ يكون ﷺ قال ذلك في أثناء محاورته السابقة أيضاً، واقتصر في كلِّ روايةٍ على شيءٍ ممَّا وقعَ في المحاورة. وقيل: يجوزُ أنْ يكون النزول متكرِّراً. نعم ما ذكر في التوجيه إنَّما يحسنُ على بعض الروايات السابقة في المراد بالخَلْف الذين أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات. وقال بعضهم: إنَّ التقدير: هذا، وقال جبريل: وما نتنزل إلخ، وبه يظهرُ حسن العطف ووجهه. انتهى. وتُعقِّب بأنَّه لا محصّل له.

وحكى النقَّاش عن قوم أنَّ الآيةَ متَّصلةٌ بقول جبريل عليه السلام أوَّلاً[٣]: ﴿وَقَالَ

= بتغير وزيادة ونقص. ورواه أبو نعيم في «الدلائل» من طريقه، ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس نحوه. وقال: أبطأ عليه خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء. اهـ.

(١) في حاشيته ٦/ ١٧٠.

(٢) مسند أحمد (٢٠٤٣)، وصحيح البخاري (٤٧٣١) و(٧٤٥٥)، وسنن الترمذي (٣١٥٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٥٧).

(٣) بعدها في الأصل: بقوله.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]. وهو قولٌ نازلٌ عن درجة القَبول جدًّا.

والتنزُّل: النزول على مَهْل؛ لأنَّه مطاوع نَزَّل، يقال: نَزَّلته فتنزَّل، وقد يطلقُ بمعنى النزول مطلقاً، كما يطلق نَزَّل بمعنى أنزل، وعلى ذلك قوله:

فَلَسْتَ لإِنسيٍّ ولكن لِمَلأَكٍ تَنَزَّل من جوِّ السماء يصوبُ[1]

إذ لا أثرَ للتَّدرُّج في مقصود الشاعر، والمعنى: ما نتنزَّل وقتاً غِبَّ وقتٍ إلَّا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته سبحانه.

وقرأ الأعرج: «وما يتنزَّل» بالياء[2]، والضميرُ للوحي بقرينة الحال وسبب النزول، والكلامُ لجبريل عليه السلام.

وقيل: إنَّ الضمير له عليه السلام، والكلام له عزَّ وجلَّ، أخبر سبحانه أنَّه لا يتنزَّلُ جبريلُ إلَّا بأمره تعالى قائلاً: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما قُدَّامنا من الزمان المستقبل ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الزمان الماضي ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الزمان الحالّ، فلا تنزل في زمانٍ دونَ زمان إلَّا بأمره سبحانه ومشيئته عزَّ وجلَّ.

وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مرَّ من الزمان قبل الإيجاد، وما خلف هو ما بعدَ موتهم إلى استمرار الآخرة، وما بين ذلك هو مدَّةُ الحياة.

وقال أبو العالية: ما بين الأيدي الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى، وما خلفَ ذلك الآخرة من وقت البعث، وما بين ذلك ما بين النفختين، وهو أربعون سنة.

وفي كتاب «التحرير والتحبير»: ما بين الأيدي الآخرة، وما خلف الدنيا. ورواه العوفيُّ عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير وقتادة ومقاتل وسفيان.

وقال الأخفش[3]: ما بينَ الأيدي هو ما قبل الخَلْق، وما خلف هو ما بعدَ الفناء، وما بين ذلك ما بين الدنيا والآخرة، فالماءات على هذه الأقوال من

(١) سلف ١٢/ ٣١٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٤.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ٦٢٦.

الزمان. وقال صاحب «الغنيان»: ما بين أيدينا السماءُ، وما خلفنا الأرض، وما بين ذلك ما بين الأرض والسماء.

وقيل: ما بين الأيدي الأرض، وما خلف السماء.

وقيل: ما بين الأيدي المكان الذي ينتقلون إليه، وما خلف المكانُ الذي ينتقلون منه، وما بين ذلك المكان الذين هم فيه، فالماءات من الأمكنة.

واختارَ بعضُهم تفسيرها بما يعمُّ الزمان والمكان، والمراد أنَّه تعالى المالكُ لكلِّ ذلك، فلا ننتقل من مكانٍ إلى مكان، ولا ننزلُ في زمان دون زمان إلَّا بإذنه عزَّ وجلَّ. وقال البغويُّ: المراد: له علمُ ما بينَ أيدينا... إلخ[1]، أي: فلا نقدِمُ على ما لم يكن موافقَ حكمته سبحانه وتعالى. واختار بعضهم التعميم، أي: له سبحانه ذلك ملكاً وعلماً.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي: تاركاً أنبياءَه عليهم السلام، ويدخلُ ﷺ في ذلك دخولاً أوَّليًّا، أي: ما كان عدمُ النزول إلَّا لعدم الأمر به، ولم يكن عن تركِ الله تعالى لك وتوديعه إيَّاك، كما زعمت الكفرة، وإنما كان لحكمة بالغةٍ.

وقيل: النسيان على ظاهره، يعني أنه سبحانه بإحاطة علمه وملكه لا يطرأ عليه الغفلة والنسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك، وإنَّما كان تأخيرُ الإيحاء لحكمةٍ علمَها جلَّ شأنه.

واختير الأوَّل لأنَّ هذا المعنى لا يجوزُ عليه سبحانه، فلا حاجة إلى نفيه عنه عزَّ وجلَّ، مع أنَّ الأولَ هو الأوفقُ لسبب النزول. ورُجِّح الثاني بأنَّه الأوفقُ[2] بصيغة المبالغة، فإنَّها باعتبار كثرةٍ من فرض التعلُّق به، وهي أتمُّ على الثاني، مع ما في ذلك من إبقاء اللفظ على حقيقته، وكثيراً ما جاء في القرآن نفيُ ما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى. وفيه نظر.

نعم لا شبهةَ في أنَّ المتبادر الثاني، وأمر الأوفقيَّة لسبب النزول سهلٌ.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٢.

(٢) في (م): أوفق.

وفي إعادة اسم الربِّ المعرِب عن التبليغ إلى الكمالِ اللائق، مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من تشريفه ﷺ والإشعار بعلَّة الحكم ما لا يخفى.

وقال أبو مسلم وابن بحر: أوَّلُ الآية إلى «وما بين ذلك» من كلام المتَّقين حين يدخلون الجنة، والتنزُّل فيه من النزول في المكان، والمعنى: وما نَحِلُّ الجنَّة ونتخذُها منازلَ إلَّا بأمر ربِّك تعالى ولطفِه، وهو سبحانه مالكُ الأمورِ كلها؛ لسالفها ومترقَّبها وحاضرها، فما وجدنا وما نجدُه من لطفه وفضله، وقوله سبحانه: «وما كان ربُّك نسيًّا» تقريرٌ من جهته تعالى لقولهم، أي: وما كان سبحانَه تاركاً لثواب العاملين، أو: ما كان ناسياً لأعمالهم والثوابِ عليها حسبما وعدَ جلَّ وعلا.

وفيه أنَّ حملَ التنزُّل على ما ذكر خلافُ الظاهر، وأيضاً مقتضاه بأمر ربنا؛ لأنَّ خطابَ النبيِّ ﷺ كما في الوجه الأول غيرُ ظاهر، إلَّا أنْ يكون حكاه الله تعالى على المعنى؛ لأنَّ ربَّهم وربَّه واحد، ولو حكي على لفظهم لقيل: ربنا. وإنَّما حُكي كذلك؛ ليُجعل تمهيداً لما بعده، وكونُ ذلك خطابَ جماعة المتقين لواحدٍ منهم بعيدٌ، وكذا: «وما كان ربك نسيًّا» إذ لم يقل: ربُّهم. وأيضاً لا يوافقُ ذلك سببَ النزول بوجه، وكأنَّ القائل إنَّما اختارَه ليناسبَ الكلامُ ما قبلَه، ويظهر عطفه عليه. وقد تحقَّق أنَّا في غنًى عن ارتكابه لهذا الغرض.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ لاستحالة النسيان عليه تعالى، فإنَّ من بيده ملكوتُ السماوات والأرض وما بينهما، كيف يُتصوَّرُ أنْ يحومَ حول ساحة عظمته وجلاله الغفلةُ والنسيان، أو تركُ وقلاء من اختاره واصطفاه لتبليغ رسالته.

و«ربّ» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّ السماوات. إلخ، أو بدلٌ من «ربك» في قوله تعالى: «وما كان ربُّك نسيًّا».

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدَها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: من كونه تعالى غيرَ تاركٍ له عليه الصلاة والسلام، أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين.

والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبيَّة الكاملة، فاعبده... إلخ، فإنَّ إيجابَ معرفته سبحانه كذلك لعبادته ممَّا لا ريب فيه. أو: حين عرفتَ أنَّه عزَّ وجلَّ لا ينساك، أو لا ينسى أعمالَ العاملين، فأقبل على عبادتِه، واصطبر على مشاقِّها ولا تحزن بإبطاء الوحي، وكلام الكفرة؛ فإنَّه سبحانه يراقبُك ويراعيك، ويلطفُ بك في الدنيا والآخرة. وَجوَّزَ أبو البقاء[1] أن يكون «ربُّ السماوات» مبتدأ، والخبرُ «فاعبده»، والفاء زائدة على رأي الأخفش. وهو كما ترى. وجَوَّز الزمخشريُّ أن يكون قوله تعالى: «وما كان ربك نسيًّا» من تتمَّة كلام المتقين، على تقدير أن يكون «رب» خبرَ مبتدأ محذوف[2]. ولم يجوِّز ذلك على تقدير الإبدال؛ لأنَّه لا يظهرُ حينئذٍ ترتُّب قوله سبحانه: «فاعبده» إلخ عليه؛ لأنَّه من كلام الله تعالى لنبيه ﷺ في الدنيا بلا شكّ. وجعلُه جوابَ شرطٍ محذوف، على تقدير: ولمَّا عرفت أحوالَ أهل الجنة وأقوالهم فأقبل على العمل = لا يلائمُ - كما في «الكشف» - فصاحةَ التنزيل؛ للعدول عن السبب الظاهر إلى الخفي.

وتعديةُ الاصطبار باللام مع أنَّ المعروف تعديته بـ «على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢] لتضمُّنه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاقِّ، كقولك للمبارز: اصطبر لقِرْنِكَ، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شدَّاته.

وفيه إشارةٌ إلى ما يكابد من المجاهدة، وأنَّ المستقيم من ثَبت لذلك، ولم يتزلزل وَشْمَةً[3]، من معنى: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[4].

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ أي: مثلاً، كما جاء في رواية جماعةٍ عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة. وأصله الشريك في الاسم، وإطلاقه على ذلك؛ لأنَّ الشركة في الاسم تقتضي المماثلة. وقال ابن عطية: السميُّ على هذا بمعنى المسامي والمضاهي[5]. وأبقاه بعضُهم على الأصل.

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥١٦ - ٥١٧.

(٣) يقال: ما عصاهُ وشمةً، أي: طرفة عين. انظر اللسان (وشم).

(٤) سلف ٦/ ٢٣٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥.

واستُظهِر أنْ يُراد ها هنا الشريك في اسمٍ خاصٍّ، قد عبَّر عنه تعالى بذلك، وهو ربُّ السماوات والأرض.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنَّ المشركين مع غلوِّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلاً.

وقيل: المرادُ هو الشريك فيما يختصُّ به تعالى، كالاسم الجليل والرحمن، ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً.

وقيل: هو الشريكُ في اسم الإله، والمراد بالتسمية التسمية على الحق، وأما التسميةُ على الباطل فهي كلا تسمية.

وأخرج الطستيُّ عن ابن عباس أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن ذلك فقال: السميُّ الولد، وأنشد له قول الشاعر:

أمَّا السميُّ فأنت منه مكثِّرٌ والمال مالٌ يغتدي ويروحُ[1]

وروي ذلك أيضاً عن الضَّحَّاك.

وأيًّا ما كان، فالمرادُ بإنكار العلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيُه على أبلغ وجه وآكده.

والجملة تقريرٌ لوجوب عبادته عزَّ وجلَّ، وإن اختلفَ الاعتبارُ حسب اختلاف الأقوال. فتدبَّر. وقرأ الأخوان وهشام، وعلي بن نصر وهارون كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والأعمش، وعيسى، وابن محيصن: «هل تَّعْلَمُ» بإدغام اللام في التاء[2]، وهو ـ على ما قال أبو عبيدة ـ لغةٌ كالإظهار، وأنشدوا لذلك قول مزاحم العقيليّ:

فذر ذا ولكن هتُّعين متيَّماً على ضوء برقٍ آخرَ الليل ناصبِ[3]

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٤. وهي عن الأخوين حمزة والكسائي في السبعة ص٤١٠، والنشر ٢/ ٧.

(٣) كتاب سيبويه ٤/ ٤٥٩، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٤٨، وشرح المفصل ١٠/ ١٤١ ـ ١٤٢.

أنَّها نزلت في العاصي بن وائل[١]. وعن عطاء عن ابن عباس أنَّها نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل. وعن الكلبيّ أنَّها في أبيٍّ بن خلف، أخذَ عظماً بالياً، فجعل يفتُّه بيده ويذريه في الريح، ويقول: زعم فلانٌ أنَّا نبعثُ بعد أن نموتَ ونكونَ مثل هذا، إنَّ هذا شيءٌ لا يكون أبداً.

فـ «أل» في «الإنسان» ـ على ما قيل ـ للعهد، والمراد به أحد هؤلاء الأشخاص. وقيل: المراد بـ «الإنسان» جماعةٌ معيَّنون، وهم الكفرة المنكرون للبعث. وقال غيرُ واحد: يجوز أن تكون «أل» للجنس ويكون هناك مجازٌ في الطرف؛ بأن يطلق جنسُ الإنسان ويراد بعضُ أفراده، كما يطلق الكلُّ على بعض أجزائه، أو يكون هناك مجازٌ في الإسناد بأنْ يسند إلى الكلِّ ما صدرَ عن البعض، كما يقال: بنو فلانٍ قتلوا قتيلاً، والقاتل واحدٌ منهم، ومن ذلك قوله:

فسيفُ بني عبسٍ وقد ضربوا به ... نبا بيدَيْ ورقاءَ عن رأس خالدِ[٢]

واعترض هذا بأنَّه يُشترط لصحَّة ذلك الإسناد رضا الباقين بالفعل، أو مساعدتهم عليه، حتى يعدَّ كأنَّه صدر منهم، ولا شكَّ أنَّ بقيَّة أفراد الإنسان من المؤمنين لم يرضوا بهذا القول.

وأجاب بعض مشترطي ذلك للصحة بأنَّ الإنكار مركوزٌ في طبائع الكلِّ قبل النظر في الدليل، فالرضا حاصلٌ بالنظر إلى الطبع والجبلَّة. وقال الخفاجيُّ: الحقُّ عدمُ اشتراط ذلك لصحَّته، وإنما يشترطُ لحسنه نكتةٌ يقتضيها مقامُ الكلام حتى يعدَّ الفعلُ كأنَّه صدرَ عن الجميع، فقد تكون الرِّضا، وقد تكون المظاهرة، وقد تكون عدم الغوث والمدد، ولذا أوجبَ الشرعُ القَسَامة والدِّية، وقد تكون غيرَ ذلك، وكأنَّ النكتَة هنا أنَّه وقع بينهم إعلانُ قولٍ لا ينبغي أن يقالَ مثلُه، وإذا قيل لا ينبغي أن يُترَك قائلُه بدون منعٍ أو قتل، جعل ذلك بمنزلة الرضا حثًّا لهم على إنكاره قولاً أو فعلاً[٣]. انتهى.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٩.

(٢) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ١٥٧.

(٣) حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٢.

وقيل: لعلَّ الحقَّ أنَّ الإسنادَ إلى الكلِّ هنا للإشارة إلى قلَّة المؤمنين بالبعث على الوجه الذي أخبر به الصادقُ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] فتأمل.

وعبَّر بالمضارع؛ إمَّا استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة، وإمَّا لإفادة الاستمرار التجدُّديّ، فإنَّ هذا الأمرَ(١) لا يزال يتجدَّد حتى يُنفخَ في الصور.

والهمزةُ للإنكار، و«إذا» ظرف متعلق بفعلٍ محذوف دلَّ عليه «أُخْرَج»، ولم يجوِّزوا تعلُّقه بالمذكور؛ لأنَّ ما بعد اللام لا يعملُ فيما قبله. وعدَّ ابنُ عطيَّة توسط «سوف» مانعاً من العمل أيضاً، ورُدَّ عليه بقوله:

فلـمَّـا رأتـه أمُّـنـا هـانَ وَجْـدُهـا ... وقالت أبونا هكذا سوف يَفْعَلُ(٢)

وغير ذلك ممَّا سمع. ونقل عن الرضيّ أنه جعل «إذا» هنا شَرطيَّة، وجعلَ عاملَها الجزاء، وقال: إنَّ كلمةَ الشرط تدلُّ على لزوم الجزاء للشرط، ولتحصيل هذا الغرض عمل في «إذا» جزاؤه، مع كونه بعد حرفٍ لا يعمل ما بعدَه فيما قبله، كالفاء في ﴿فَسَبِّحۡ﴾ [النصر:٣]، و«إنَّ» في قولك: إذا جئتني فإنِّي مكرم، ولام الابتداء في قوله تعالى: «أئذا ما متُّ لسوف أُخرَجُ حيًّا».

ومختارُ الأكثرين أنَّ «إذا» هنا ظرفيَّة، وما ذكره الرضيُّ ليس بمتَّفقٍ عليه، وتحقيقُ ذلك في كتب العربية.

وفي الكلام معطوفٌ محذوف؛ لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما متُّ وصرتُ رميماً لسوف.. إلخ. واللامُ هنا لمجرد التوكيد، ولذا ساغَ اقترانها بحرف الاستقبال، وهذا على القول بأنَّها إذا دخلت المضارع خلَّصته للحال، وأمَّا على القول بأنَّها لا تخلِّصه، فلا حاجةَ إلى دعوى تجريدها للتوكيد، لكن الأول هو المشهور. و«ما» في «إذا ما» للتوكيد أيضاً.

والمراد من الإخراج الإخراجُ من الأرض، أو من حال الفناء، والخروج على الأول حقيقة، وعلى الثاني مجازٌ عن الانتقال من حالٍ إلى أخرى.

---

(١) في (م): القول.

(٢) هو للنمر بن تولب كما في ديوانه ص٣٧١ (شعراء إسلاميون).

وإيلاءُ الظرف همزةَ الإنكار دون الإخراج؛ لأنَّ ذلك الإخراج ليس بمنكرٍ مطلقاً، وإنَّما المنكر كونُه وقت اجتماع الأمرين، فقُدِّم الظرف؛ لأنَّه محلُّ الإنكار، والأصل في المنكر أن يلي الهمزة.

ويجوزُ أن يكون المراد إنكار وقت ذلك بعينه، أي: إنكار مجيء وقتٍ فيه حياةٌ بعد الموت، يعني أنَّ هذا الوقتَ لا يكونُ موجوداً، وهو أبلغُ من إنكار الحياة بعد الموت؛ لما أنَّه يفيدُ إنكاره بطريقٍ برهانيّ.

وبعضهم لم يقدِّر معطوفاً، واعتبر زمانَ الموت ممتدًّا، لا أول زهوق الروح كما هو المتبادر.

وقيل: لا حاجةَ إلى جميع ذلك؛ لأنَّهم إذا أحالوه في حالة الموت عُلِم إحالتُه إذا كانوا رفاتاً بالطريق الأولى. وأيًّا ما كان فلا إشكال في الآية.

وقرأ جماعةٌ منهم ابن ذكوان بخلافٍ عنه: «إذا» بدون همزة الاستفهام[(١)]، وهي مقدَّرة معه؛ لدلالة المعنى على ذلك. وقيل: لا تقدير، والمراد الإخبار على سبيل الهزء والسخرية بمن يقول ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: «سَأُخْرج» بسين الاستقبال وبغير لام[(٢)]، وعلى ذلك تكون «إذا» متعلِّقةً بالفعل المذكور على الصحيح. وفي رواية أخرى عنه: «لَسَأُخْرج» بالسين واللام[(٣)].

وقرأ الحسن وأبو حيوة: «أَخْرُجُ» مبنيًّا للفاعل[(٤)].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من الذكر الذي يُراد به التفكُّر. والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير، والإشعار بأنَّ الإنسانية من دواعي التفكُّر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المانعةِ عن القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان على ما قيل.

---

(١) التيسير ص١٤٩، والنشر ١/ ٣٧٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٥١٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٦.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٧.

والهمزة للإنكار التوبيخيّ، وهي على أحد المذهبين المشهورين في مثل هذا التركيب داخلةٌ على محذوفٍ معطوفٍ عليه ما بعد، والتقدير ها هنا: أيقول ذلك ولا يذكرُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه. وقيل: أي: من قبل بعثه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ أي: والحالُ أنَّه لم يكن حينئذٍ موجوداً، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخلق بالكليَّة، مع كونه أبعد من الوقوع، فَلَأَنْ نبعثَه بإعادة ما عُدِم منه وقد كان متَّصفاً بالوجود في وقت، على ما اختاره بعض أهل السنة، أو بجمع الموادِّ المتفرِّقة وإيجاد مثلِ ما كان فيها من الأعراض، على ما اختاره بعضٌ آخرُ منهم أيضاً = أولى وأظهر، فما له لا يذكرُه فيقع فيما يقع فيه من النكير؟!

وقيل: إنَّ العطف على «يقول» المذكور سابقاً، والهمزة لإنكار الجمع؛ لدخولها على الواو المفيدة له، ولا يخلُّ ذلك بصدارتها؛ لأنها بالنسبة إلى جملتها، فكأنه قيل: أيجمعُ بين القول المذكور وعدم الذكر، ومحصَّله: أيقول ذلك ولا يذكر أنَّا خلقنَاه.. إلخ.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «يَذَّكَّر» بفتح الذال والكاف وتشديدهما(١)، وأصله: يتذكَّر، فأدغم التاء في الذال، وبذلك قرأ أبيّ(٢).

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه ـ عزَّت أسماؤه ـ مضافاً إلى ضميره ﷺ؛ لتحقيق الأمر بالإشعار بعلَّته، وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام، ورفع منزلته.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: لنجمعنَّ القائلين ما تقدَّم بالسَّوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم أحياء.

وفي القَسَم على ذلك دون البعث إثباتٌ له على أبلغ وجه وآكده، كأنَّه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التصريح به بعد بيان إمكانه بما تقدَّم من الحجَّة البالغة، وإنَّما المحتاجُ إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي. انظر التيسير ص١٤٩. وقرأ بها أيضاً أبو جعفر ويعقوب وخلف ـ من العشرة ـ انظر النشر ٢/ ٣١٨.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٧. قال النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٣: وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفةٌ لخط المصحف.

وكون الضمير للكفرة القائلين هو الظاهر نظراً إلى السياق، وإليه ذهب ابنُ عطية[١] وجماعة. ولا ينافي ذلك إرادة الواحد من الإنسان، كما لا يخفى. واستظهر أبو حيان[٢] أنَّه للناس كلِّهم؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ معطوفٌ على الضمير المنصوب، أو مفعول معه. رُوي أنَّ الكفرةَ يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم؛ كلٌّ منهم مع شيطانه في سلسلة، ووجه ذلك على تقدير عود الضمير للناس أنَّهم لما حُشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حُشِروا معهم جميعاً على طرز ما قيل في نسبة القول إلى الجنس.

وقيل: يحشرُ كلُّ واحدٍ من الناس مؤمنهم وكافرهم مع قرينه من الشياطين، ولا يختصُّ الكافر بذلك. وقد يُستأنس له بما في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وُكِّل به قرينه من الجِنِّ». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله. قال: «وإيَّايّ، إلا أنَّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلَّا بخير»[٣].

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾ باركين على الرُّكَب، وأصله: جُثُوْوٌ بواوين، فاستثقل اجتماعُهما بعد ضمَّتين، فكسرت الثاء للتخفيف، فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعت واو وياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، فأدغمت الياء في الياء، وكسرت الجيم إتباعاً لما بعدها. وقرأ غير واحدٍ من السبعة بضمِّها[٤]، وهو جمعُ: جاثٍ، في القراءتين، وجَوَّزَ الراغب[٥] كونَه مصدراً، نظير ما قيل في بكى. وقد مرَّ.

ولعلَّ إحضارَ الكفرة بهذه الحال إهانةٌ لهم، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه مسلم (٣٦٤٨)، وليس في صحيح البخاري، وصرح ابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٣٩ بأنه من أفراد مسلم.

(٤) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو. التيسير ص١٤٨. وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر ٢/ ٣١٧.

(٥) المفردات (جثى).

من الشِّدَّة. وقال بعضهم: إنَّ المحاسبةَ تكون حولَ جهنم، فيجثون لمخاصمة بعضهم بعضاً، ثم يتبرَّأ بعضُهم من بعض.

وقال السُّدِّيّ: يجثون لضيق المكان بهم، فالحال على القولين مقدَّرةٌ بخلافه على ما تقدَّم. وقيل: إنَّها عليه مقدرة أيضاً؛ لأنَّ المراد الجثيُّ حول جهنم.

ومن جعل الضمير للكفرة وغيرهم قال: إنَّه يحضرُ السعداء والأشقياء حول جهنَّم؛ ليرى السعداء ما نجَّاهم الله تعالى منه، فيزدادوا غبطةً وسروراً، وينال الأشقياء ما ادَّخروا لمعادهم، ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم، ويجثون كلُّهم ثَمَّ؛ لمَا يدهمهم من هول المطلع، أو لضيق المكان، أو لأنَّ ذلك من توابع التواقُف للحساب والتقاول قبل الوصول إلى الثواب والعقاب.

وقيل: إنَّهم يجثون على ركبهم إظهاراً للذلّ في ذلك الموقف[1] العظيم، ويدلُّ على جثيِّ جميع أهل الموقف ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨]. لكن سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى ما هو ظاهرٌ في عدم جثيِّ الجميع من الأخبار، والله تعالى أعلم.

والحال قيل: مقدرة، وقيل: غير مقدرة، إلَّا أنَّه أسند ما للبعض إلى الكلّ، وجعلُها مقدَّرةً بالنسبة إلى السعداء، وغيرَ مقدَّرةٍ بالنسبة إلى الأشقياء لا يصح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه فسَّر «جثيًّا» بجماعات، على أنَّه جمع: جثْوَة، وهو المجموعُ من التراب والحجارة، أي: لنحضرنَّهم جماعاتٍ.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: جماعةٍ تشايعت وتعاونت على الباطل، أو: شاعت وتبعت الباطلَ، على ما يقتضيه كونُ الآية في الكفرة، أو جماعةٍ شاعت ديناً مطلقاً، وعلى ما يقتضيه كونها في المؤمنين وغيرهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: نُبُوًّا عن الطاعة وعصياناً. وعن ابن عباس: جراءةً. وعن مجاهد: كفراً. وقيل: افتراءً، بلغة تميم. والجمهور على التفسير الأول.

---

(١) في (م): الموطن.

وهو على سائر التفاسير مصدرٌ، وفيه القراءتان السابقتان في «جثيًّا»[(١)]. وزعم بعضهم أنَّه فيهما جمع: جاثٍ عاتٍ[(٢)]، وهو خلاف الظاهر هنا.

والنزعُ: الإخراج، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف:١٠٨] والمراد استمرار ذلك، أي: إنّا نخرج ونفرز من كلِّ جماعةٍ من جماعات الكفر أعصاهم فأعصاهم إلى أن يحاطَ بهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نُقدِّم أَوْلَاهم بالعذاب فأولاهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ فالمراد بالذين هم أولى المُنْتَزَعون باعتبار الترتيب، وقد يراد بهم أولئك باعتبار المجموع، فكأنه قيل: ثمَّ لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصليِّ من بين سائر الضَّالين، ودركاتُهم أسفل، وعذابهم أشدّ، ففي الكلام إقامةُ المظهَر مقام المضمر.

وفَسَّر بعضُهم النزع بالرمي، من نزعت السهم عن القوس، أي: رميتُه، فالمعنى: لنرمينَّ فيها الأعصى فالأعصى من كلِّ طائفة من تلك الطوائف، ثمَّ لنحن أعلم بتصليتهم.

وحملُ الآية على البدء بالأشدِّ فالأشدّ مرويٌّ عن ابن مسعود رضي الله عنه. وجُوِّزَ أنْ يراد بأشدِّهم عتيًّا رؤساء الشيع وأئمتهم؛ لتضاعفِ جُرمهم بكونهم ضُلَّالاً مضلِّين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم عن قتادة[(٣)]. وعليه: لا يجبُ الاستمرار والإحاطة.

وأُوردَ على القول بالعموم أنَّ قوله تعالى: «أشدُّ.. عتيًّا» يقتضي اشتراكَ الكلِّ في العتيّ، بل في أشديَّته، وهو لا يناسب المؤمنين.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: بكسر العين، وباقي العشرة بضمها. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.

(٢) في الأصل: جمع عات، وفي (م): جمع حاث. والمثبت من نسخة نعمان الألوسي. وانظر المفردات (جثا) و(عتا).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

وأجيب عنه بأنَّ ذلك من نسبة ما للبعض إلى الكلّ، والتفضيلُ على طائفة لا يقتضي مشاركةَ كلِّ فردٍ فردٍ، فإذا قلت: هو أشجعُ العرب، لا يلزمه وجودُ الشجاعة في جميع أفرادهم، وعلى هذا يكون في الآية إيماءٌ إلى التجاوز عن كثير، حيث خصَّ العذاب بالأشدِّ معصيةً.

و«أيهم» مفعول «ننزعنَّ» وهو اسمٌ موصول بمعنى «الذي»، مبنيٌّ على الضمِّ، محلُّه النصب، و«أشدُّ» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أشدّ، والجملة صلة، والعائد المبتدأ، و«على الرحمن» متعلِّق بـ «أشدّ»، «وعتيًّا» تمييزٌ محوّل عن المبتدأ، ومن زعم أنَّه جمعٌ جعله حالاً. وجُوِّزَ في الجارِّ أنْ يكون للبيان، فهو متعلِّقٌ بمحذوف كما في: سقيًا لك، ويجوزُ تعلُّقه بـ «عتيًّا»، أمَّا إن كان وصفاً فبالاتفاق، وأمَّا إذا كان مصدراً فعند القائل بجواز تقدُّم معمول المصدر، لاسيَّما إذا كان ظرفاً. وكذا الكلام في «بها» من قوله تعالى: «هم أولى بها صليًّا». فإنَّه جُوِّز أن يكون الجارُّ للبيان، وأن يكون متعلِّقاً بـ «أولَى»، وأن يكون متعلِّقاً بـ «صليًّا».

وقد قُرئ بالضمِّ والكسر[١]، وجوِّز فيه المصدريَّة والوصفيَّة، وهو على الوصفيَّة حالٌ، وعلى المصدريَّة تمييزٌ على طرز ما قيل في: «عتيًّا» إلَّا أنَّه جُوِّز فيه أنْ يكون تمييزاً عن النسبة بين «أولى» والمجرور، وقد أشير إلى ذلك فيما مرَّ.

والصليُّ من صَلِيَ النار - كرضي - وبها: قاسى حرَّها، وقال الراغب[٢]: يقال: صَلِيَ بالنار وبكذا، أي: بلي به.

وعن الكلبيِّ أنه فسَّر الصليَّ بالدخول. وعن ابن جريج أنَّه فَسَّرَه بالخلود. وليس كلٌّ من المعنيين بحقيقيٍّ له كما لا يخفى.

ثمَّ ما ذكر من بناء «أيّ» هنا هو مذهبُ سيبويه[٣]، وكان حقُّها أن تبنى في كلِّ موضع، كسائر الموصولات؛ لشبهها الحرفَ بافتقارها لما بعدها من الصلة، لكنَّها لما لزمت الإضافة إلى المفرد لفظاً أو تقديراً، وهي من خواصِّ الأسماء بعد الشبه،

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بكسر الصاد، والباقون بضمها. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/٣١٧.

(٢) المفردات (صلا).

(٣) الكتاب ٢/٣٩٨.

فرجعتْ إلى الأصل في الأسماء وهو الإعراب، ولأنَّها إذا أضيفتْ إلى نكرةٍ كانت بمعنى «كل»، وإذا أضيفت إلى معرفة كانت بمعنى «بعض»، فحملت في الإعراب على ما هي بمعناه. وعادت هنا عندَه إلى ما هو حقُّ الموصول وهو البناء؛ لأنَّه لما حذف صدرُ صلتها ازداد نقصُها المعنويُّ، وهو الإبهام والافتقار للصلة، بنقص الصلة التي هي كجزئها، فقويت مشابهتُها للحرف.

ولم يرتضِ كثيرٌ من العلماء ما ذهب إليه. قال أبو عمرو الجرميّ: خرجتُ من البصرة، فلم أسمع منذ فارقتُ الخندق إلى مكّة أحداً يقول: لأضربنَّ أيُّهم قائمٌ. بالضم.

وقال أبو جعفر النحاس: ما علمت أحداً من النحويين إلَّا وقد خطَّأ سيبويه في هذه المسألة. وقال الزجَّاج: ما تبين [لي] أنَّ سيبويه غلط في «كتابه» إلَّا في موضعين، هذا أحدهما، فإنَّه يقول بإعراب «أي» إذا أفردت عن الإضافة، فكيف يبنيها إذا أضيفت[(١)]؟

وقد تكلَّف شيخنا علاء الدين ـ أعلا الله تعالى مقامه في عليين ـ للذبِّ عن سيبويه في ذلك بما لا يفي بمؤنَة نقله، وقد ذكرنا بعضاً منه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنِّف. نعم يؤيِّد ما ذهبَ إليه سيبويه من المفعوليَّة قراءةُ طلحة بن مصرِّف ومعاذ بن مسلم الهرّاء أستاذ الفراء وزائدة عن الأعمش: «أيَّهم» بالنصب[(٢)]، لكنها تَرُدُّ ما نُقل عنه من تَحتُّم البناء إذا أضيفت وحُذف صدر صلتها، وينبغي إذا كان واقفاً على هذه القراءة أنْ يقول بجواز الأمرين فيها حينئذ.

وقال الخليل: مفعول «ننزعنّ» موصولٌ محذوف، و«أي» هنا استفهامية مبتدأ، و«أشدُّ» خبره، والجملة محكيَّة بقولٍ وقعَ صلة للموصول المحذوف، أي: لننزعنَّ الذين يقال فيهم: أيُّهم أشدّ[(٣)].

وتُعقِّب بأنَّه لا معنى لجعل «النزع» لمن يسأل عنه بهذا الاستفهام.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤. وكلام الزجاج فيه. وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص٨٦ عن معاذ بن مسلم وطلحة فقط.
(٣) انظر الكتاب ٢/ ٣٩٩.

وأجيب بأنَّ ذلك مجازٌ عن تقارب أحوالهم وتشابهها في العتوّ، حتى يستحقَّ أن يُسأل عنها، أو المراد: الذين يجابُ بهم عن هذا السؤال، وحاصله: لننزعنَّ الأشدَّ عتيًّا، وهو مع تكلُّفه فيه حذفُ الموصول مع بعض الصلة، وهو تكلُّفٌ على تكلُّفٍ، ومثله لا ينقاس. نعم مثله في الحذف على ما قيل قول الشاعر:

ولقد أبيتُ من الفتاة بمنزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ[(١)]

وذهب الكسائيُّ والفرَّاء[(٢)] إلى ما قاله الخليل، إلَّا أنَّهما جعلا الجملةَ في محلِّ نصب بـ «ننزعنّ»، والمراد: لننزعنَّ من يقعُ في جواب هذا السؤال، والفعلُ معلَّقٌ بالاستفهام؛ وساغَ تعليقُه عندهما؛ لأنَّ المعنى: لنناديَنَّ، وهما يريان تعليق النداء، وإنْ لم يكن من أفعال القلوب، وإلى ذلك ذهبَ المهدويّ.

وقيل: لمَّا كان النزع متضمِّناً معنى الإفراز والتمييز، وهو مما يلزمهُ العَلَم، عُوملَ معاملةَ العلم، فساغَ تعليقه. ويونُس لا يرَى التعليق مختصًّا بصنفٍ من الأفعال، بل سائر أصنافها سواءٌ في صحَّة التعليق عنده.

وقيل: الجملة الاستفهامية استئنافيةٌ، والفعل واقعٌ على «كل شيعة» على زيادة «من» في الإثبات، كما يراه الأخفش، أو على معنى: لننزعنَّ بعضَ كلِّ شيعة. بجعل «من» مفعولاً لتأويلها باسم، ثمَّ إذا كان الاستئناف بيانيًّا واقعاً في جواب: من المنزوعون؟ احتيجَ إلى التأويل، كأن يقال: المراد الذين يقعون في جواب «أيهم أشدُّ»، أو نحو ذلك. وإذا كانت «أي» على تقدير الاستئناف ووقوعِ الفعل ـ على ما ذكر ـ موصولةً، لم يحتج إلى التأويل، إلَّا أنَّ في القول بالاستئناف عدولاً عن الظاهر من كون الكلام جملةً واحدةً إلى خلاف الظاهر من كونه جملتين. ونقل بعضهم عن المبرِّد أنَّ «أيهم» فاعل «شيعة»؛ لأنَّ معناه: يشيع، والتقدير: لننزعنَّ من كلِّ فريقٍ يشيعُ أيُّهم هو أشدّ، و«أي» على هذا ـ على ما قال أبو البقاء[(٣)] ونُقِل عن الرضيّ ـ بمعنى «الذي».

(١) هو للأخطل، وهو في ديوانه ص٨٤.
(٢) معاني القرآن ١/٤٧، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩].
(٣) في الإملاء ٢/١١٦.

وفي «البحر»: قال المبرِّد: «أيُّهم» متعلِّقٌ بـ «شيعة» فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أيُّهم أشدُّ، كأنهم يتبادرون إلى هذا، ويلزمه أن يقدِّرَ مفعولاً لـ «لننزعنَّ» محذوفاً، وقُدِّر أيضاً في هذا المذهب: من الذين تشايعوا أيُّهم أشدُّ، على معنى: من الذين تعاونوا فنظروا أيُّهم أشدُّ. قال النحاس: وهذا قول حسن[1]. انتهى.

وهو خلاف ما نُقل أولاً، ولعمري إنَّ ما نُسب إلى المبرِّد أوَّلًا وأخيراً أبردُ من يَخْ[2].

وقيل: إنَّ الجملة استفهامية وقعت صفةً لـ «شيعة» على معنى: لننزعنَّ من كلِّ شيعةٍ مقولٍ فيهم أيُّهم أشدُّ، أي: من كلِّ شيعةٍ متقاربي الأحوال، و«من» مزيدة و«النزع» الرمي.

وحكى أبو بكر بن شقير أنَّ بعضَ الكوفيين يقول: في «أيهم» معنى الشرط، تقول: ضربتُ القوم أيَّهم غضب، والمعنى: إن غضبوا أو لم يغضبوا.

قال أبو حيان: فعلى هذا يكونُ التقدير هنا: إن اشتدَّ عتوُّهم أو لم يشتدّ[3]. انتهى. وهو كما ترى.

والوجه الذي ينساق إليه الذهن ويساعدُه اللفظ والمعنى هو ما ذهبَ إليه سيبويه، ومدارُ ما ذهب إليه في أيٍّ من الإعراب والبناء هو السماع في الحقيقة، وتعليلاتُ النحويين ـ على ما فيها ـ إنَّما هي بعد الوقوع، وعدم سماع غيره لا يقدحُ في سماعه. فتدبر.

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفاتٌ إلى خطاب الإنسان، سواءٌ أريد منه العموم أو خصوص الكَفَرة؛ لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام.

وقيل: هو خطابٌ للناس، وابتداءُ كلام منه عزَّ وجلَّ بعد ما أتمَّ الغرضَ من الأول، فلا التفات أصلاً. ولعلَّه الأسبقُ إلى الذهن، لكن قيل: يؤيِّدُ الأول قراءةُ

---

(١) البحر ٦/ ٢٠٨، وكلام النحاس في إعراب القرآن له ٣/ ٢٥.
(٢) كلمة فارسية معناها ثلج أو جليد. المعجم الذهبي ص٦١٨.
(٣) البحر ٦/ ١٠٩.

ابن عباس وعكرمة وجماعة: «وإن منهم»[1] أي: وما منكم أحدٌ ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: داخلها، كما ذهب إلى ذلك جمعٌ كثير من السلف المفسِّرين وأهل السنة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] وقوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

واحتجَّ ابنُ عباس بما ذُكر على ابن الأزرق حين أنكرَ عليه تفسير الورود بالدخول، وهو جارٍ على تقدير عموم الخطاب أيضاً، فيدخلها المؤمنُ إلَّا أنَّها لا تضرُّه على ما قيل؛ فقد أخرج أحمدُ والحكيم الترمذيّ وابنُ المنذر والحاكم وصححه وجماعةٌ عن أبي سميَّة قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضُنا: لا يدخلها مؤمن، وقال آخر: يدخلونَها جميعاً، ثمَّ ينجِّي الله تعالى الذين اتَّقوا، فلقيتُ جابرَ بن عبد الله ﵄ فذكرت له فقال ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ـ: صُمَّتا إنْ لم أكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلَّا دخلَها، فتكونُ على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إنَّ للنَّارِ ضجيجاً من بردهم، ثمَّ ينجِّي الله تعالى الذين اتَّقوا»[2].

وقد ذكر الإمامُ الرازيُّ لهذا الدخول عدَّة فوائد في «تفسيره» فليراجع[3].

وأخرج عبدُ بن حميد وابن الأنباريّ والبيهقيُّ عن الحسن: الورودُ: المرورُ عليها من غير دخول[4]. وروي ذلك أيضاً عن قتادة، وذلك بالمرور على الصراط الموضوع على مَتْنِها، على ما رواه جماعةٌ عن ابن مسعود ﵁، ويمرُّ المؤمن ولا يشعرُ بها؛ بناءً على ما أخرج ابن أبي شيبة وعبدُ بن حميد والحكيم وغيرهم عن خالد بن معدان قال: إذا دخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّة قالوا: ربَّنا ألم تعدنا أنْ نرِد النار؟ قال: بلى، ولكنكم مررتم عليها وهي خامدة[5].

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.

(٢) مسند أحمد (١٤٥٢٠)، ونوادر الأصول ص٢٥، ومستدرك الحاكم ٤/ ٥٨٧. ووقع عند الحاكم: عن عبد الرحمن بن شيبة. بدل: أبي سمية. وانظر الكافي الشاف ص١٠٧.

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢٤٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٨١، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦١، ونوادر الأصول ص ٢٥.

ولا ينافي هذا ما أخرجهُ الترمذيُّ[١] والطبرانيُّ وغيرهما عن يعلى بن أمية عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تقولُ النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي»، لجوازِ أن لا يكون متذكِّراً هذا القولَ عند السؤال، أو لم يكن سمعَه لاشتغاله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال في الآية: ورودُ المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها[٢].

ولا بدَّ على هذا من ارتكاب عموم المجاز عند من لا يرى جواز استعمال اللفظ في معنيين.

وعن مجاهد أنَّ ورودَ المؤمن النار هو مسُّ الحمَّى جسدَه في الدنيا، لما صحَّ من قوله ﷺ: «الحمَّى من فيح جهنم»[٣]. ولا يخفى خفاء الاستدلال به على المطلوب.

واستدلَّ بعضُهم على ذلك بما أخرجه ابنُ جرير عن أبي هريرة قال: خرج رسولُ الله ﷺ يعودُ رجلاً من أصحابه وَعِكاً وأنا معه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى يقول: هي ناري أُسَلِّطُها على عبدي المؤمن؛ لتكونَ حَظَّه من النار في الآخرة»[٤]. وفيه خفاء أيضاً.

والحقُّ أنَّه لا دلالة فيه على عدم ورود المؤمن المحموم في الدنيا النارَ في الآخرة، وقصارى ما يدلُّ عليه أنَّه يُحفظ من ألم النار يوم القيامة.

وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنَّ الورودَ الحضور والقرب[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣].

---

(١) هو الحكيم الترمذي كما صرح بذلك السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٢، والحديث في نوادر الأصول ص٢٥، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٩٠، والطبراني في الكبير ٢٢/ (٦٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٠: وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٣)، ومسلم (٢٢١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٥٩٧. وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٩٦٧٦).

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

واختار بعضُهم أنَّ المرادَ حضورهم جاثين حواليها، واستدلَّ عليه بما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] لأنَّ المراد: مبعدون عن عذابها.

وقيل: المراد إبعادُهم عنها بعد أن يكونوا قريباً منها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودهم إيَّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا﴾ أمراً واجباً، كما روي عن ابن عباس. والمراد بمنزلة الواجب في تحتُّم الوقوع، إذ لا يجبُ على الله تعالى شيءٌ عند أهل السنة. ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ قضى بوقوعه البتة.

وأخرج الخطيب عن عكرمة أنَّ معنى «كان حتماً مقضيًّا»: كان قسماً واجباً[(١)]. وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود والحسن وقتادة. قيل: والمراد منه إنشاء القسم.

وقيل: قد يقال: إنَّ «على ربك» المقصود منه اليمين، كما تقول: لله تعالى عليَّ كذا، إذ لا معنى له إلَّا تأكُّد اللزوم، والقَسَم لا يذكر إلَّا لمثله، و«على» ورد في كلامهم كثيراً للقَسَم، كقوله:

عليَّ إذا ما جئتُ ليلى أزورُها زيارة بيت الله رَجلانَ حافيا[(٢)]

فإنَّ صيغةَ النذر قد يراد بها اليمين كما صرَّحوا به، ويجوز أن يكون المراد بهذه الجملة القَسَم، كقولهم: عزمت عليك إلَّا فعلتَ كذا. انتهى.

ويُعلم ممَّا ذكر المراد من القَسَم فيما أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتُ لمسلمٍ ثلاثة من الولد فيلج النار، إلَّا تحلَّة القَسَم»[(٣)]. وقال أبو عبيدة[(٤)] وابن

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣. وعزاه لـ «تالي التلخيص» للخطيب البغدادي.

(٢) ديوان مجنون ليلى ص٣٠٦، والشطر الأول فيه:

عليَّ لئن لاقيت ليلى بخلوةٍ

وهو بالرواية التي ذكرها المصنف في حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٥. والكلام منه.

(٣) صحيح البخاري (١٢٥١)، وصحيح مسلم (٢٦٣٢)، وسنن الترمذي (١٠٣٠)، وسنن النسائي (١٨٧٦)، وسنن ابن ماجه (١٦٠٣).

(٤) كذا في الأصل و(م). ووقع في حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٦، وتهذيب اللغة للأزهري ٣/ ٤٣٨: أبو عبيد.

عطية[1] وتبعهما غيرُ واحد: إنَّ القسم في الخبر[2] إشارةٌ إلى القسم في المبتدأ، أعني: «وإن منكم إلَّا واردُها»، وصرَّح بعضُهم أنَّ الواو فيه للقسم.

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّه لا يذهب نحويٌّ إلى أنَّ مثل هذه الواو واو قسم؛ لأنَّه يلزمُ من ذلك حذف المجرور وإبقاءُ الجارِّ، وهو لا يجوزُ إلَّا إن وقع في شعر، أو نادر كلام، بشرط أنْ تقوم صفة المحذوفِ مقامَه، كما في قوله:

واللهِ مـا لَـيْـلِـي بـنـامَ صـاحِـبُـهْ[3]

وقال أيضاً: نصَّ النحويون على أنَّه لا يُستغنَى عن القسم بالجواب لدلالة المعنى، إلَّا إذا كان الجواب باللام أو بـ «أن»[4]. وأين ذلك في الآية؟

وجعل ابنُ هشام تحلَّة القسم كناية عن القلَّة، وقد شاع في ذلك، ومنه قول كعب:

تَـخْـذِي عـلـى يَسَـراتٍ وهـي لاحـقـةٌ ذوابـلٌ مَـسُّـهـنَّ الأرضَ تـحـلـيـلُ[5]

فإنَّ المعنى: مسّهنَّ الأرض قليلٌ، كما يحلف الإنسان على شيءٍ ليفعلنَّه، فيفعل منه اليسير؛ ليتحلَّل به من قسمه. ثم قال: إنَّ فيما قاله جماعةٌ من المفسِّرين من أنَّ القسمَ على الأصل، وهو إشارةٌ إلى قوله تعالى: «وإن منكم إلا واردها» إلخ نظراً؛ لأنَّ الجملةَ لا قسمَ فيها إلَّا إن عطفت على الجمل التي أجيب بها القسم من قوله تعالى: «فوربِّكَ لنحشرنَّهم» إلى آخرها، وفيه بعد[6]. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧.

(٢) يريد في قوله ﷺ: «إلَّا تحلة القسم».

(٣) الرجز في أمالي ابن الشجري ٢/ ٤٠٥، وخزانة الأدب ٩/ ٣٨٨ - ٣٨٩، وبعده: ولا مخالطُ اللَّيَّان جانبه. قال عبد القادر البغدادي: والبيت مع كثرة دورانه في كتب النحو غير معلومٍ قائله. والله أعلم به.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٠٩.

(٥) ديوان كعب بن زهير ص٨٧. وفيه: وقعهنَّ. بدل: مسُّهنَّ. وقوله: تخذي. الخذي والخذيان والوخذ: ضرب من السير. واليَسَرات: القوائم الخفاف. واللاحقة: الضامرة أي الخفيفة اللحم. وقوله: مسهن الأرض تحليل: إشارة إلى سرعة قوائمها، وذلك لأن التحليل من تحلة اليمين. شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٦٢.

(٦) شرح قصيدة بانت سعاد ص٦٢ - ٦٣.

والخفاجيُّ جوَّز الحالية والعطف، وقال: حديث البُعد غيرُ مسموعٍ؛ لعدم تخلل الفاصل(١). وهو كما ترى.

ولعلَّ الأسلم من القيل والقال جعلُ ذلك مجازاً عن القلة، وهو مجازٌ مشهور فيما ذكر، ولا يعكِّر على هذا ما أخرجه أحمد والبخاريُّ في «تاريخه» والطبرانيُّ وغيرهم عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تعالى متطوِّعاً لا يأخذُه سلطانٌ، لم ير النارَ بعينه إلَّا تحلَّة القسم، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾»(٢). فإنَّ التعليلَ صحيحٌ مع إرادة القلَّة من ذلك أيضاً، فكأنَّه قيل: لم ير النارَ إلَّا قليلاً؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ بورود كلِّ أحدٍ إيَّاها، ولا بدَّ من وقوع ما أخبرَ به، ولولا ذلك لجاز أنْ لا يراها أصلاً.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ بالإخراج منها، على ما ذهب إليه الجمعُ الكثير. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ على رُكَبهم، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

وهذه الآيةُ ظاهرةٌ عندي في أنَّ المرادَ بالورود الدخول، وهو الأمرُ المشترك. وقال بعضهم: إنَّها دليلٌ على أنَّ المراد بالورود الجثوّ حواليها، وذلك لأنَّ «ننجي»، و«نذر» تفصيلٌ للجنس، فكأنَّه قيل: نُنجي هؤلاء ونترك هؤلاء على حالهم الذي أُحضروا فيه جاثين. ولا بدَّ على هذا من أن يكون التقدير في حواليها. وأنت تعلمُ أنَّ الظاهر عدمُ التقدير، والجثوّ لا يوجبُ ذلك.

وخولف بين قوله تعالى: «اتقوا» وقوله سبحانه: «الظالمين»؛ ليؤذن بترجيح جانب الرحمة، وأنَّ التوحيدَ هو المنجي، والإشراك هو المردي، فكأنَّه قيل: ثم ننجي من وجدَ منه تقوًى ما، وهو الاحترازُ من الشرك، ونهلك من اتَّصفَ بالظلم، أي: بالشرك، وثبت عليه.

وفي إيقاع «نذر» مقابلاً لـ «ننجي» إشعارٌ بتلك اللطيفة أيضاً.

---

(١) حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٦.

(٢) مسند أحمد (١٥٦١٢)، والتاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٠٢).

قال الراغب: يقال: فلانٌ يذرُ الشيء، أي: يقذفُه لقلَّة اعتداده به. ومن ذلك قيل لقطعة اللحمِ التي لا يعتدُّ بها: وَذْر(١).

وجيء بـ «ثم» للإيذان بالتفاوت بين فعل الخَلْق وهو ورودهم النار، وفعل الحقِّ سبحانه وهو النجاة والدمار زماناً ورتبةً. قاله العلَّامة الطيبيّ طيَّب الله تعالى ثراه.

والذي تقتضيه الآثار الواردة في عصاة المؤمنين أنْ يقال: إنَّ التنجيةَ المذكورة ليست دفعيَّةً، بل تحصلُ أوَّلاً فأولاً، على حسب قوة التقوى وضعفها، حتى يخرجَ من النار من في قلبه وزنُ ذرَّةٍ من خير، وذلك بعد العذاب حسب معصيته، وما ظاهرهُ من الأخبار ـ كخبر جابر السابق ـ أنَّ المؤمنَ لا تضرُّه النار = مؤوَّلٌ بحمل المؤمن على المؤمن الكامل؛ لكثرة الأخبار الدالَّة على أنَّ بعض المؤمنين يعذبون. ومن ذلك ما أخرجه الترمذيُّ عن جابر ﷺ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يعذَّب ناس من أهل التوحيد في النار، حتى يكونوا حُمماً، ثم تدركُهم الرحمةُ فيُخْرَجُون، فيُطْرَحون على أبواب الجنة، فيَرُشُّ عليهم أهلُ الجنة الماء، فينبتُون كما ينبتُ الغُثاء في حميل السيل»(٢).

ومن هنا حظر بعضُ العلماء أن يقال في الدعاء: اللهمَّ اغفر لجميع أمّة محمد ﷺ جميعَ ذنوبهم، أو: اللهمَّ لا تعذِّب أحداً من أمَّة محمَّدٍ ﷺ.

هذا، وقال بعضهم: إنَّ المرادَ من التنجية ـ على تقدير أنَّ الخطاب خاصٌّ

---

(١) كذا في الأصل و(م). والذي في المفردات، والقاموس مادة (وذر): ذرة.
قال ابن الأثير في النهاية (وذر): الوَذْرة بالسكون: القطعة من اللحم، والوذْر بالسكون أيضاً جمعها.

(٢) سنن الترمذي (٢٥٩٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٥١٩٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجهٍ عن جابر. وقوله: «حمماً» بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة، وهو الفحم، الواحدة حممة. وقوله: «الغُثَاء» هو في الأصل كل ما حمله السيل من عيدان وورق وبزور وغيرها، والمراد به هنا ما حمله من البزور خاصة. وقوله: «في حميل السيل»: ما يحمله السيل من غثاء أو طين، والمراد أن الغثاء الذي يجيء به السيل يكون فيه الحبة، فيقع في جانب الوادي فتصبح من يومها نابتة. انظر تحفة الأحوذي ٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

بالكفرة ـ أن يُساقَ الذين اتَّقوا إلى الجنة بعد أنْ كانوا على شفير النار، وجيء بـ «ثم» لبيان التفاوت بين ورود الكافرين النَّار، وسوقِ المذكورين إلى الجنَّة، وأنَّ الأول للإهانة، والآخرَ للكرامة. وأنتَ تعلمُ أنَّ الذين يُذْهَبُ بهم إلى الجنَّة من الذين اتَّقوا من غير دخولٍ في النار أصلاً ليسوا إلَّا الخواصّ. والمعتزلة خصُّوا الذين اتَّقوا بغيرِ أصحاب الكبائر، وأدخلوهم في الظالمين، واستدلُّوا بالآية على خلودهم في النار، وكانوا ظالمين.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس وابن مسعود وأبيٌّ ﷺ، والجحدريُّ ومعاويةُ بن قرَّة ويعقوب: «ثَمَّ» بفتح الثاء[1]، أي: هناك. وابن أبي ليلى: «ثَمَّهْ» بالفتح مع هاء السكت[2]، وهو ظرف متعلِّقٌ بما بعده.

وقرأ يحيى والأعمش والكسائيُّ وابنُ محيصن ويعقوب: «نُنْجِي» بتخفيف الجيم[3].

وقرئ: «يُنْجى» و«يُنَجَّى» بالتشديد والتخفيف مع البناء للمفعول[4].

وقرأت فرقةٌ: «نُجِّي» بنونٍ واحدةٍ مضمومة وجيمٍ مشدَّدة.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: «نُنَحِّي» بحاءٍ مهملة[5]، وهذه القراءةُ تؤيِّد بظاهرها تفسيرَ الورود بالقرب والحضور.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةُ إلى آخرها حكايةٌ لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعةَ حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي من جملتها الآيات السابقة ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهراتِ الإعجاز، تُحدِّيَ بها فلم يُقْدَر على معارضتها. أو مُرَتَّلاتِ الألفاظ، ملخَّصات المعنى، مبيَّنات المقاصد؛ إمَّا

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وهي في القراءات الشاذة ص٨٦ منسوبة لابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠. والقراءة عن الكسائي في التيسير ص١٤٩، وعنه وعن يعقوب في النشر ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، ٣١٨.
(٤) انظر الكشاف ٢/ ٥٢٠.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.

محكمات، أو متشابهات قد تبعَها البيانُ بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً.

والوجه كما في «الكشاف»[1] أنْ يكون «بينات» حالاً مؤكِّدةً لمضمون الجملة، وإن لم يكن عقدها من اسمين؛ لأنَّ المعنى عليه.

وقرأ أبو حيوة والأعرج وابن محيصن: «وإذا يُتلى» بالياء التحتية[2]؛ لأنَّ المرفوعَ مجازيُّ التأنيث مع وجود الفاصل.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: قالوا. ووضعَ الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه على أنَّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يُتلى عليهم، رادِّين له. أو: قال الذين مَرَدُوا منهم على الكفر، وأصرُّوا على العتوِّ والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه الفجرة، فإنَّ الآيةَ نزلت فيهم.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتبليغ، كما في: قلت له كذا، إذا خاطبته به، وقيل: لام الأجل، أي: قالوا لأجلهم وفي حقهم. ورُجِّح الأول بأنَّ قولَهم ليس في حقِّ المؤمنين فقط، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنهم قالوا: أيُّنا ﴿خَيْرٌ﴾ نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكاناً ومنزلاً. وأصله موضعُ القيام، ثُمَّ استُعملَ لمطلق المكان.

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد والجعفيّ وأبو حاتم عن أبي عمرو: «مُقَاماً» بضمِّ الميم[3]، وأصلُه موضع الإقامة، والمراد به أيضاً المنزل والمكان، فتتوافق القراءتان. وجوَّز في «البحر» احتمالَ المفتوح والمضموم للمصدرية، على أنَّ الأصلَ مصدرُ قَام يَقوم، والثاني مصدر أَقام يُقيم، ورأيتُ في بعض المجموعات كلاماً يُنسب لأبي السعود عليه الرحمة في الفرق بين المقام بالفتح والمقام بالضم، وقد سألَه بعضهم عن ذلك بقوله:

يا وحيدَ الدهر يا شيخَ الأنام   نبتغي فرق المَقام والمُقَام

---

(١) ٢/ ٥٢١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وقراءة ابن كثير في التيسير ص١٤٩، والنشر ٢/ ٣١٨ - ٣١٩. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

وهو أنَّ الأولَ ـ يعني المفتوح الميم ـ موضعُ قيام الشيء، أعمُّ من أنْ يكون قيامُه فيه بنفسه، أو بإقامة غيره، ومن أنْ يكون ذلك بطريق المكث فيه، أو بدونه. والثاني: موضعُ إقامة الغير إيَّاه، أو موضعُ قيامه بنفسه قياماً ممتدًّا، فإنْ كان الفعل الناصبُ ثلاثيًّا، فمقتضى المقام هو الأول، وكذا إنْ كان رباعيًّا ولم يُقصَد بيانُ كون المقام موضعَ قيام المضاف إليه بإقامة غيره، أو موضعَ قيامه الممتدّ، وأمَّا إذا قُصِد ذلك، فمقتضَاه الثاني، كما إذا قلت: أقيمت تاءُ القسم مقامَ الواو، تنبيهاً على أنها خَلَفٌ عن الباء التي هي الأصلُ من أحرف القسم. ومقام[1] الكلمات كلِّها، وإنْ كانت منوطةً بوضع الواضع، لكنَّ مقامَها المنوط بأصل الوضع ـ لكونه مقاماً أصليًّا ـ لها قد نزلَ منزلةَ موضعِ قيامها بأنفسها، وجُعِل مقامها المنوط بالاستعمال الطارئ جارياً مجرى المقام الاضطراريِّ لذوات الاختيار. هذا إذا كان المقامُ ظرفاً، أمَّا إذا كان مصدراً ميميًّا والفعل الناصب رباعيّ، فحقُّه ضمُّ الميم. انتهى المرادُ منه.

وأنت تعلم أنَّه في هذا المقام ليس منصوباً على الظرفية، ولا على المصدرية، بل منصوبٌ على التمييز، وهو محوَّل عن المبتدأ على ما قيل، أي: أيُّ الفريقين مقامه خير.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ أي: مجلساً ومجتمعاً. وفي «البحر»: هو المجلسُ الذي يجتمع فيه لحادثة أو مشورة[2]. وقيل: مجلس أهل الندى، أي: الكرم، وكذا النادي.

يروى أنَّهم كانوا يرجِّلون شعورَهم ويدهنونها، ويتطيَّبون، ويلبسونَ مفاخرَ الملابس، ثمَّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين الذين لا يقدرون على ذلك إذا تليت عليهم الآيات.

قال الإمام: ومرادهم من ذلك معارضة المؤمنين، كأنهم قالوا: لو كنتم على الحق وكنَّا على الباطل، كان حالُكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا؛ لأن الحكيمَ لا يليقُ به أن يوقعَ أولياءه المخلصين في العذاب والذلّ، وأعداءه

(١) في (م): ومقامات.
(٢) عبارة البحر المحيط ٦/ ٢١٢: الندي هو المجلس الجامع لوجوه القوم والأعوان والأنصار.

المعرضين[١] عن خدمته في العزِّ والراحة، لكنَّ الكفار كانوا في النعمة والراحة، والمؤمنين كانوا بعكس ذلك، فعلم أنَّ الحقَّ ليس مع المؤمنين.

وهذا مع ظهور أنَّه قياسٌ عقيمٌ ناشئٌ من رأيٍ سقيم، نقضَه الله تعالى وأبطله بقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ وحاصلُه: أنَّ كثيراً ممن كان أعظمَ نعمةً منكم في الدنيا، كعادٍ وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية، قد أهلكهم الله تعالى، فلو دلَّ حصول نعمةِ الدنيا للإنسان على كونه مكرَّماً عند الله تعالى، وجبَ أن لا يهلك أحداً من المتنعمين في الدنيا. وفيه من التهديد والوعيد ما لايخفى، كأنه قيل: فلينظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك.

و«كم» خبرية للتكثير، مفعولُ «أهلكنا»، وقُدِّمت لصدارتها. وقيل: استفهاميَّة. والأوَّل هو الظاهر. و«من قرن» بيان لإبهامها.

والقرن: أهلُ كلِّ عصر، وقد اختُلفَ في مدَّته، وهو من قرنِ الدابة، سمِّيَ به لتقدُّمه، ومنه قرنُ الشمس لأول ما يطلعُ منها.

و«هم أحسن» في حيِّز النصب ـ على ما ذهب إليه الزمخشريُّ وتبعَه أبو البقاء[٢] ـ صفةٌ لـ «كم»، وردَّه أبو حيان بأنَّه قد صَرَّح الأصحاب بأنَّ «كم» سواءٌ كانت خبريَّةً أو استفهامية لا توصف، ولا يُوصف بها، وجعلَه صفةَ «قرن»، وضمير الجمع لاشتمال القرن على أفرادٍ كثيرة، ولو أفرد الضمير لكان عربيًّا أيضاً[٣]. ولا يرد عليه ـ كما قال الخفاجيّ ـ: كم من رجلٍ قام، وكم من قريةٍ هلكت، بناءً على أنَّ الجارَّ والمجرور يتعيَّن تعلُّقه بمحذوف هو صفة لـ «كم». كما ادَّعى بعضُهم أنَّ الرضي أشار إليه؛ لأنه يجوزُ في الجارِّ والمجرور أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة مفسِّرة لا محلَّ لها من الإعراب، فما ادعى غير مسلَّم عنده[٤].

و«أثاثاً» تمييز، وهو متاعُ البيت من الفرش والثياب وغيرها، واحدها: أثاثة،

(١) في الأصل: المفرطين. وفي مطبوع تفسير الرازي ٢١/ ٢٤٥: المعروضين.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٢١، والإملاء ٢/ ١١٦.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠.
(٤) حاشية الشهاب ٦/ ١٧٧.

وقيل: لا واحد لها، وقيل: الأثاث ما جَدَّ من المتاع، والخُرْثيُّ ما قَدِمَ وبَلِيَ، وأنشد الحسن بن عليٍّ الطوسيّ:

تقادم العهدُ من أمِّ الوليد بنا دهراً وصار أثاثُ البيت خرثيّا[1]

والرِّئي: المنظر، كما قال ابن عباس وغيره. وهو فِعْلٌ بمعنى مفعول من الرؤية، كالطِّحن والسِّقي.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر وشيبة، وطلحةُ في رواية الهمداني، وأيوب وابن سعدان وابن ذكوان وقالون: «ريًّا» بتشديد الياء من غير همز[2]، فاحتمل أنْ يكون من ذلك على قلب الهمزة ياءً وإدغامها. واحتمل أن يكون من الريّ، ضد العطش، والمراد به النضارةُ والحُسْن.

وقرأ أبو بكر في رواية الأعمش: «رِيْئاً» بياءٍ ساكنةٍ بعدها همزة[3]، وهو على القلب، ووزنه: فِلْعاً.

وقرئ: «رِياء» بياء بعدها ألف بعدها همزة، حكاها اليزيديّ[4]. ومعناها ـ كما في «الدر المصون»[5] ـ مراءاةُ بعضهم بعضاً.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «رِياً»[6] بحذف الهمزة والقصر، فتجاسَر بعضُ الناس وقال: هي لحن، وليس كذلك، بل خُرِّجَت على وجهين:

أحدهما: أنْ يكون الأصل «ريًّا» بتشديد الياء، فخفِّفَ بحذف إحدى الياءين وهي الثانية؛ لأنَّها التي حصل بها الثقل، ولأنَّ الآخِرَ محلُّ التغيير، وذلك كما حذفت في: لا سيما.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٢١، وتفسير القرطبي ١٣/ ٥٠٢.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وقراءة ابن ذكوان راوي ابن عامر، وقالون راوي نافع في التيسير ص١٤٩. وانظر النشر ١/ ٤٧١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠. وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢١ دون نسبة.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢١١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ من حكاية البزي.

(٥) ٧/ ٦٣١.

(٦) من رواية طلحة بن مصرف عنه كما في البحر ٦/ ٢١١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦، وابن جني في المحتسب ٢/ ٤٣ من قراءة طلحة.

والثاني: أن يكون الأصل «ريئاً» بياء ساكنة بعدها همزة، فنُقِلت حركةُ الهمزة إلى الياء، ثمَّ حذفت على القاعدة المعروفة.

وقرأ ابن عباس أيضاً وابنُ جبير ويزيد البربريّ والأعسم المكي: «زيًّا» بالزاي وتشديد الياء[1]، وهو المحاسن المجموعة يقال: زواه زيًّا، بالفتح، أي: جمعه، ويراد منه الأثاث أيضاً، كما ذكره المبرِّد[2] في قول الثقفيّ:

أشاقتكَ الظعائنُ يوم بانوا   بذي الزِّيِّ الجميل من الأثاثِ[3]

والظاهر في الآية المعنى الأول.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ إلخ. أمرٌ منه تعالى لرسوله ﷺ بأنْ يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ الدنيويَّة على المؤمنين ببيان مآل أمر الفريقين، إمَّا على وجهٍ كليٍّ متناولٍ لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللذة الفانية، المبتهجين بها، على أن «مَنْ» على عمومها؛ وإمَّا على وجهٍ خاصٍّ بهم، على أنَّها عبارةٌ عنهم.

ووصفهم بالتمكُّن في الضلالة؛ لذمِّهم، والإشعار بعلَّة الحكم، أي: من كان مستقرًّا في الضلالة مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: يمدُّ سبحانَه له، ويمهله بطول العمر، وإعطاء المال، والتمكُّن من التصرُّفات، فالطلب في معنى الخبر، واختير للإيذان بأنَّ ذلك مما ينبغي أنْ يفعَل بموجب الحكمة، لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:٣٧]، فيكون حاصل المعنى: من كان في الضلالة فلا عذر له، فقد أمهلَه الرحمنُ، ومدَّ له مدًّا.

وجُوِّز أنْ يكون ذلك للاستدراج، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وحاصلُ المعنى: من كان في الضلالة فعادةُ الله تعالى أن يَمدَّ له ويستدرجَه ليزداد إثماً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١١، وانظر القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩، وتفسير القرطبي ١٣/ ٥٠٢.
(٢) في الكامل ٢/ ٧٨٦، والثقفي هو: محمد بن عبد الله بن نمير.
(٣) الأغاني ٦/ ١٩٦، وفيه: أهاجتك، بدل: أشاقتك.

وقيل: المرادُ الدعاء بالمدِّ؛ إظهاراً لعدم بقاء عذرٍ بعد هذا البيان الواضح، فهو على أسلوب: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس:٨٨] إن حمل على الدعاء.

قال في «الكشف»: الوجهُ الأول أوفقُ بهذا المقام، والتعرُّض لعنوان الرحمانية؛ لما أنَّ المَدَّ من أحكامها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى آخره غايةٌ للمدِّ، وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى «من» كما أنَّ الإفراد في الضميرين الأوَّلين باعتبار لفظِها، و«ما» اسمٌ موصول، والجملةُ بعده صلة، والعائد محذوف، أي: الذي يوعدونه، واعتبار «ما» مصدريَّةً خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بدلٌ من «ما» وتفصيلٌ للموعود على طريقة منع الخلوّ. والمراد بالعذاب العذابُ الدنيويّ بغلبةِ المؤمنين واستيلائهم عليهم، والمراد بالساعة، قيل: يوم القيامة. وهو الظاهر.

وقيل: ما يشمل حين الموت ومعاينة العذاب، و«من مات فقد قامت قيامته»[1]، وذلك لتتصل الغاية بالمغيَّى، فإنَّ المدَّ لا يتَّصل بيوم القيامة.

وأجيب بأنَّ أمرَ الفاصل سهلٌ؛ لأنَّ أمورَ هذه الدنيا لزوالها وتقضِّيها لا تعدُّ فاصلةً، كما قيل[2] ذلك في قوله تعالى: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ جواب الشرط، وهما في الحقيقة الغاية، إن قلنا: إنَّ المجموع هو الكلام، أو مفهومه فقط إنْ قلنا: إنَّه هو الكلام والشرط قيدٌ له.

و«حتى» عند ابن مالك جارَّةٌ[3]، وهي لمجرَّد الغاية لا جارَّةٌ ولا عاطفةٌ عند الجمهور، وهكذا هي كلَّما دَخلت على «إذا» الشرطية، وهي منصوبةٌ بالشرط أو الجزاء على الخلاف المشهور، والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

والمراد: حتى إذا عاينوا ما يُوعدون من العذاب الدنيويِّ أو الأخرويّ فقط،

---

(١) سلف ١/ ٢٨٥.

(٢) جاء في هامش الأصل عند هذه الكلمة ما نصه: قاله المعتزلة. اهـ منه.

(٣) انظر التسهيل ص١٤٦، ومغني اللبيب ص١٧٤، وحاشية الخفاجي ٦/ ١٧٨.

فسيعلمون حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأنْ يشاهدوا الأمرَ على عكس ما كانوا يُقَدِّرونه، فيعلمون أنَّهم شرٌّ مكاناً، لا خير مقاماً.

وفي التعبير بالمكان هنا دون المقام المعبَّر به هناك مبالغةٌ في إظهار سوء حالهم.

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾ أي: فئةً وأنصاراً، لا أحسن نديًّا، ووجه التقابل أنَّ حُسن النديّ باجتماع وجوهِ القوم وأعيانهم، وظهور شوكتهم واستظهارهم.

وقيل: إنَّ المرادَ من النديّ هناك من فيه، كما يقال: المجلسُ العالي للتعظيم، وليس المراد أنَّ له ثمَّة جنداً ضعيفاً، كلا ﴿وَلَمْ يَكُن[1] لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:٤٣]، وإنَّما ذكر ذلك ردًّا لما كانوا يزعمونه من أنَّ لهم أعواناً من شركائهم.

والظاهر أنَّ «مَن» موصولة، وهي في محل نصب مفعول «يعلمون»، وتعدَّى إلى واحد؛ لأنَّ العِلْمَ بمعنى المعرفة. وجملة «هو شرٌّ» صلة الموصول. وجَوَّز أبو حيان[2] كونَها استفهاميَّةً، والعِلْمُ على بابه، والجملة في موضع نصبٍ سادَّةٌ مسدَّ المفعولين. و«هو» عند أبي البقاء فصلٌ لا مبتدأ[3].

وجوَّزَ الزمخشريُّ ـ وظاهرُ صنيعه اختياره ـ أنْ يكون ما تقدَّم غايةً لقولِ الكفرة: «أيُّ الفريقين خيرٌ» إلخ، وقولُه تعالى: «كم أهلكنا» إلخ، و«قل من كان» إلخ جملتان معترضتان للإنكار عليهم، أي: لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به، لا يتكافّون عنه، إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين، إما العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين، وإمَّا يومَ القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال، فحينئذٍ يعلمونَ أنَّ الأمرَ على عكس ما قدَّروه[4]. وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه في غايةِ البعد، لطول الفصل بين الغاية والمغيَّى، مع أنَّ الفصلَ بجملتي اعتراض فيه خلافُ أبي عليّ، فإنَّه لا يجيزه[5].

---

(١) كذا قراءة حمزة والكسائي. وقرأها باقي السبعة بالتاء. التيسير ص١٤٣.
(٢) في البحر ٦/ ٢١٢.
(٣) الإملاء ٢/ ١١٧.
(٤) الكشاف ٢/ ٥٢١.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢١٢.

وأنت تعلم أيضاً بعد إصلاح أمر انقطاع القول حين الموت وعدم امتداده إلى يوم القيامة أنَّ اعتبارَ استمرار القول وتكرُّرِه لا يتمُّ بدون اعتبار استمرارِ التلاوة؛ لوقوع القول في حيِّز جواب «إذا». وهو كما ترى.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالِّين، كما اختاره أبو السعود[1].

واختار الزمخشريُّ ـ وتبعه أبو البقاء ـ أنَّه عطف على موضع «فليمدد» إلخ[2].

ولم يجوِّزه أبو حيان سواء كان «فليمدد» دعاءً أو خبراً في صورة الطلب؛ لأنَّه في موضع الخبر إن كانت «من» موصولة، وفي موضع الجزاء إن كانت شَرطية، وموضع المعطوف موضع المعطوف عليه، والجملةُ التي جعلت معطوفةً خاليةٌ من ضمير يربط الخبر بالمبتدأ، والجواب بالشرط[3].

وقيل عليه أيضاً: إنَّ العطف غير مناسبٍ من جهة المعنى، كما أنَّه غير مناسبٍ من جهة الإعراب، إذ لا يتَّجه أنْ يقال: من كان في الضلالة يزيدُ الله الذين اهتدوا هدى.

وأجيب عن هذا بأنَّ المعنى: من كان في الضلالة زيد في ضلالته، وزيد في هداية أعدائه؛ لأنَّه مما يغيظه. وعمَّا سبق بأنَّ «من» شرطية لا موصولة، واشتراطُ ضميرٍ يعود من الجزاء على اسم الشرط غيرِ الظرف ممنوعٌ، وهو غير متَّفقٍ عليه عند النحاة كما في «الدر المصون»[4]، مع أنَّه مقدَّر كما سمعت. ولا يخفى أنَّ هذا العطف لا يخلو عن تكلُّف.

واختار البيضاويُّ[5] أنَّه عطفٌ على مجموع قوله تعالى: «من كان في الضلالة فليمدد» إلخ؛ ليتمَّ التقابل، فإنه ﷺ أمِرَ أن يجيبهم عن قولهم للمؤمنين: «أي الفريقين» إلخ، فليأت بذكر القسمين أصالةً.

---

(١) في تفسيره ٥/ ٢٧٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٢، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٢.

(٤) ٧/ ٦٣٤.

(٥) في تفسيره ٤/ ١٤.

قال الطيبيُّ: فكأنَّه قيل: قل من كان في الضلالة من الفريقين فليمهله الله تعالى، وينفس في مدة حياته؛ ليزيد في الغيّ، ويجمع الله تعالى له عذابَ الدارين، ومن كان في الهداية منهما يزيدُ الله تعالى هدايته، فيجمع سبحانه له خير الدارين. وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم، وفيه معنى قول حسان:

أتهجوه ولستَ له بكُفءٍ ... فشرُّكما لخيركما فداءُ[1]

في الدعاء والاحتراز عن المواجهة.

وفي «الكشف» أنَّ هذا أولى ممَّا اختاره الزمخشريّ.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قد تقدَّمت الأقوال المأثورة في تفسيرها، واختيرَ أنَّها الطاعات التي تبقى فوائدُها وتدوم عوائدها؛ لعمومه، وكلُّها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ بمعناه المتعارَف. وقيل: عائدةٌ ممَّا مُتِّع به الكفرةُ من النعم المخدجة الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ﴾ من ذلك أيضاً ﴿مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أي: مرجعاً وعاقبةً، لأنَّ عاقبتَها المسرَّة الأبديَّة والنعيم المقيم، وعاقبة ذلك الحسرة السرمديَّة والعذابُ الأليم.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من اللطف والتشريفِ ما لا يخفى. وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيريَّة[2] وتأكيدٌ لها.

وفي الآية ـ على ما ذكره الزمخشريُّ ـ ضربٌ من التهكُّم بالكفرة حيث أشارت إلى تسمية جزائهم ثواباً. والمفاضلة ـ على ما قال ـ على طريقة: الصيفُ أحرُّ من الشتاء. أي: أبلغُ في حرِّه من الشتاء في برده[3].

وليست على التهكُّم؛ لأنك لو قلت: النارُ خير من الزمهرير، أو بالعكس تهكُّماً. كان التهكُّم على بابه في المفضل والمفضل عليه، وذلك مما لا يتمشَّى فيما نحن فيه.

وحاصل ما أراده أنَّ المراد: ثوابُ هؤلاء أبلغُ من ثواب أولئك، أي: عقابهم[4].

---

(١) ديوان حسان ص٦٤.
(٢) في الأصل: الخبرية.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٢٢.
(٤) في الأصل: عقباهم. والمثبت من (م) وهو موافق لحاشية الخفاجي ٦/ ١٧٩.

وقول صاحب «التقريب» فيه: إنَّه غيرُ معلوم، جوابهُ: كيف لا، وقد سبقت الرحمةُ الغضب، وفي الجنَّة من الضِّعف والإفضال ما لا يُقَادر قدره، والنار من عدله تعالى. وقوله[١]: إنَّه غيرُ مناسبٍ لمقام التهديد. مع ما فيه من المنع يَرِدُ عليه أنَّ الكلامَ مبنيٌّ على التقابل، وأنَّه على المشاكلة في قولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نديًّا» فوعدُ هؤلاء ليس لمجرد تهديد أولئك، بل مقصودٌ لذاته، قاله في «الكشف».

وقال صاحب «الفرائد»: ما قاله الزمخشريُّ بعيدٌ عن الطَّبع والاستعمال، وليس في كلامهم ما يشهدُ له، ويمكنُ أن يقال: المراد ثوابُ الأعمال الصالحة في الآخرة خيرٌ من ثوابهم في الدنيا، وهو ما حصلَ لهم منها من الخير بزعمهم، وممَّا أوتوا من المال والجاه والمنافع الحاصلة منهما. اهـ.

وردَّ إنكاره له بأنَّ الزجَّاج[٢] ذكرَه في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] وأنَّ له نظائر، والبعد عن الطبع في حيِّز المنع.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ «أفعل» في الآية للدلالة على الاتِّصاف بالحدث، وعلى الزيادة المطلقة، كما قيل في يوسف عليه السلام: أحسنُ إخوته، وهي إحدى حالاته الأربع التي ذكرها بعضُ علماء العربيَّة، فالمعنى أنَّ ثوابَهم ومردَّهم مُتَّصفٌ بالزيادة في الخيريَّة على المتَّصفِ بها، بقطع النظر عن هؤلاء المفتخرين بدنياهم، فلا يلزم مشاركتهم في الخيريَّة. فتأمَّل.

والجملةُ ـ على ما ذهب إليه أبو السعود[٣] ـ على تقديري الاستئناف والعطف فيما قبلها: مستأنفةٌ واردةٌ من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين، غيرُ داخلةٍ في حيِّز الكلام الملقَّن لقوله سبحانه: «عند ربك».

وقال العلَّامة الطيبيّ: الذي يقتضيه النظمُ الكريم أنَّ هذه الجملة تتميمٌ لمعنى قوله سبحانه: «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» ومشتملة على تسلية قلوب المؤمنين ممَّا

---

(١) أي: صاحب التقريب، وتمام عبارته كما صرح بها الخفاجي في حاشيته ٦/ ١٧٩: الاعتراض بأن كون ثوابهم في بابه أبلغ من عقابهم في بابه غير محقق ولا مناسب للتهديد، فالأولى حمله على التهكُّم.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٦٠.

(٣) في تفسيره ٥/ ٢٧٨.

عسى أن يختلجَ فيها من مفاخرة الكفرة شيء، كما أنَّ قوله تعالى: «حتى إذا رأوا» إلى «جنداً» تتميمٌ لوعيدهم، وكلاهما من تتمَّة الأمر بالجواب عن قولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديًّا»، وجعل التعبير بـ «خير» وارداً على طريق المشاكلة.

وما ذكره من كون ذلك من تتمَّة الجواب هو المنساق إلى الذهن، إلَّا أنَّ ظاهرَ الخطاب يأباه، وقد يُتكلَّف له. ولعلَّنا قد أسلفنا في هذه السورة ما ينفعُك في أمره، فتذكَّر.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث. أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والطبرانيُّ وابنُ حبّان وغيرهم عن خبَّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاصي بن وائل دينٌ، فأتيتُه أتقاضَاه، فقال: لا والله، لا أقضيكَ حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا والله، لا أكفر بمحمدٍ ﷺ حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنِّي إذا متُّ ثم بعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيك. فأنزل الله تعالى: «أفرأيت» إلخ[(١)]. وفي روايةٍ: أنَّ خبَّاباً قال له: لا والله لا أكفرُ بمحمد ﷺ حيًّا ولا ميتاً ولا إذا بعثت، فقال العاصي: فإذا بعثت جئتني.. إلخ[(٢)].

وفي رواية: أنَّ رجالاً من أصحابِ النبي ﷺ أتوه يتقاضَونَ ديناً لهم عليه، فقال: ألستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهباً وفضَّةً وحريراً ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: موعدكم الآخرة، والله لأوتينَّ مالاً وولداً، ولأوتينَّ مثل كتابكم الذي جئتُم به، فنزلت[(٣)].

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقد كانت له أقوالٌ تشبه ذلك.

وقال أبو مسلم: هي عامَّةٌ في كلِّ من له هذه الصفة.

والأول هو الثابت في كتب الصحيح.

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٩١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٥)، وسنن الترمذي (٣١٦٢)، والمعجم الكبير للطبراني (٣٦٥١)، وصحيح ابن حبان (٤٨٨٥)، وهو أيضاً عند أحمد (٢١٠٦٨).
(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣، وتفسير البيضاوي ٤/ ١٤.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٦١٨.

والهمزةُ للتعجيب من حال ذلك الكافر، والإيذانِ بأنَّها من الغرابة والشناعة بحيث يجبُ أن تُرى، ويقضى منها العجب. والفاءُ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَنَظَرْتَ فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أنْ يؤمِن بها كلُّ من وَقف عليها ﴿وَقَالَ﴾ مستهزءاً بها، مصدِّراً كلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة. وإرادةُ في الدنيا ـ كما حكاه الطبرسيُّ[1] عن بعضِهم ـ تأباهُ الأخبارُ الصحيحة، إلَّا أنْ يُحملَ الإيتاء ـ على ما قيل ـ على الإيتاء المستمرِّ إلى الآخرة، أي: لأوتينَّ إيتاءً مستمرًّا ﴿مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ والمراد: انظر إليه، فتعجب من حالته البديعة، وجرأته الشنيعة.

وقيل: إنَّ الرؤية مجازٌ عن الإخبار، من إطلاق السبب وإرادة المسبّب، والاستفهامُ مجازٌ عن الأمر به؛ لأنَّ المقصودَ من نحو قولك: ما فعلتَ: أخبرني. فهو إنشاءٌ تجوِّز به عن إنشاءٍ آخر، والفاء على أصلها. والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً» الآية.

وقيل: عقيبَ حديث من قال: «أئذا ما متُّ» إلخ. وما قدَّمنا في معنى الآية هو الأظهر، واختاره العلَّامة أبو السعود. وتَعقَّبَ الثاني بقوله: أنتَ خبيرٌ بأنَّ المشهورَ استعمال «أرأيت» في معنى: أخبرني، بطريق الاستفهام جارياً على أصله، أو مخرَّجاً إلى ما يناسبه من المعاني، لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره[2]. وإرادة: أخبرني، هنا ممَّا لا يكاد يصحُّ، كما لا يخفى. وقيل: المراد: لأوتينَّ في الدنيا. ويأباه سببُ النزول. قال العلَّامة: إلَّا أن يحمل على الإيتاء المستمرِّ إلى الآخرة، فحينئذٍ ينطبق على ذلك.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمش وطلحةُ وابن أبي ليلى وابن عيسى الأصبهاني: «وُلْداً» بضمِّ الواو وسكون اللام[3]، فقيل: هو جمع: وَلَد، كأَسَد وأُسْد، وأنشدوا له قوله:

ولقد رأيتُ معاشراً ... قد ثمَّروا مالاً ووُلْدَا[4]

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ٦٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٩.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٣. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٩-١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.

(٤) هو للحارث بن حلزة. ديوانه ص١١٦. وفيه: جمعوا، بدل: ثمروا.

وقيل: هو لغةٌ في ولد، كالعَرَب والعُرْب، وأنشدوا له قوله:

فليتَ فلاناً كان في بطن أمّه ولَيت فلاناً كان وُلْدَ حمارِ[1]

والحقُّ أنَّه وردَ في كلام العرب مفرداً وجمعاً، وكلاهما صحيحٌ هنا.

وقرأ عبد الله ويحيى بن يعمر: «وِلداً» بكسر الواو وسكون اللام[2]، وهو بمعنى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردٌّ لكلمته الشنعاء، وإظهارٌ لبطلانها إثرَ ما أشير إليه بالتعجيب منها، فالجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل: إنَّها في محلِّ نصب، واقعةٌ موقع مفعولٍ ثانٍ لـ «أرأيتَ» على أنَّه بمعنى: أخبرني، وهو كما ترى.

والهمزة للاستفهام؛ والأصل: أَأطّلع، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً.

وقرئ «اطّلع» بكسر الهمز وحذف همزة الاستفهام لدلالة «أم» عليها، كما في قوله:

بسبعٍ رمينَ الجمرَ أم بثمانِ[3]

والفعل مُتَعدٍّ بنفسه، وقد يتعدَّى بـ «على» وليس بلازم حتى تكون الآية من الحذف والإيصال.

والمراد من الطُّلوع الظهور على وجه العلوّ والتملُّك، ولذا اختيرَ على التعبير بالعلم ونحوه، أي: أقد بلغ من عظمة الشأن إلى أن ارتقَى علم الغيب الذي استأثَر به العليمُ الخبير جلَّ جلاله، حتى ادَّعى علم أن يُؤتَى في الآخرة مالاً وولداً وأقسمَ عليه.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: أَنَظَرَ في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾ قال: لا إله إلا الله يرجو بها ذلك.

وعن قتادة: العهد: العملُ الصالح الذي وعد الله تعالى عليه الثواب. فالمعنى: أعلمَ الغيب أم عملَ عملاً يرجو ذلك في مقابلته.

---

(١) سلف ١٣/ ٣٣٦ بلفظ: فليت زياداً... وليت زياداً.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٣.

(٣) هو لعمر بن أبي ربيعة. شرح ديوانه ص٢٦٦. وصدره فيه: فوالله ما أدري وإنّي لحاسب.

وقال بعضهم: العهد على ظاهره. والمعنى: أعلمَ الغيبَ أم أعطاه الله تعالى عهداً وموثقاً، وقال له: إنَّ ذلك كائنٌ لا محالة. ونُقِل هذا عن الكلبيّ. وهذه مجاراةٌ مع اللعين بحسب منطوق مقاله، كما أنَّ كلامه كذلك.

والتعرُّض لعنوان الرحمانية؛ للإشعار بعليَّة الرحمة لإيتاء ما يدعيه.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجر عن التفوُّه بتلك العظيمة، وفي ذلك تنبيهٌ على خطئِه. وهذا مذهبُ الخليل وسيبويه[1] والأخفش والمبرِّد وعامَّة البصريين في هذا الحرف، وفيه مذاهب، لعلَّنا نشيرُ إليها إنْ شاء الله تعالى.

وهذا أوَّلُ موضعٍ وقعَ فيه من القرآن، وقد تكرَّر في النصف الأخير، فوقع في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً.

ولم يجوِّز أبو العباس الوقفَ عليه في موضع[2].

وقال الفرَّاء: هو على أربعة أقسام:

أحدها: ما يحسنُ الوقفُ عليه، ويحسنُ الابتداءُ به.

والثاني: ما يحسنُ الوقف عليه، ولا يحسنُ الابتداء به.

والثالث: ما يحسنُ الابتداء به، ولا يحسن الوقف عليه.

والرابع: ما لا يحسنُ فيه شيءٌ من الأمرين.

أمَّا القسمُ الأول، ففي عشرة مواضع؛ ما نحن فيه، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ـ ٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا﴾ [سبأ: ٢٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا﴾ [المعارج: ٣٨ـ٣٩]، وقوله جَلَّ وعلا: ﴿أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا﴾ [المدثر: ١٥ـ١٦] وقوله عزَّ اسمه: ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا﴾ [المدثر: ٥٢ـ ٥٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ـ ١٧]، وقوله تبارك اسمه: ﴿أَخْلَدَهُ * كَلَّا﴾ [الهمزة: ٣ـ ٤]، وقوله تعالى شأنه: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ *

(١) الكتاب ٤/ ٢٣٥.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥.

كَلَّآ﴾ [المعارج: ١٤ـ ١٥]، فمَن جعله في هذه المواضع ردًّا لما قبلَه وقفَ عليه، ومن جعلَه بمعنى «ألا» التي للتنبيه، أو بمعنى: حقًّا: ابتدأ به، وهو يَحتمل ذلك فيها.

وأمَّا القسمُ الثاني، ففي موضعين؛ قوله جلَّ جلاله حكايةً: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ١٤ـ ١٥]، وقوله عزَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ـ ٦٢].

وأمَّا الثالث، ففي تسعة عشر موضعاً؛ قوله تعالى شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١]، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤]، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣]، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ [المطففين: ٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ [المطففين: ١٥] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ [العلق: ١٥]، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩]، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٥]؛ لأنَّه ليس للردِّ في ذلك.

وأمَّا القسم الرابع، ففي موضعين؛ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤]، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٥]، فإنَّه لا يحسن الوقف على «ثمَّ»؛ لأنه حرف عطف، ولا على «كلّا»؛ لأنَّ الفائدةَ فيما بعد.

وقال بعضهم: إنَّه يحسنُ الوقف على «كلّا» في جميع القرآن؛ لأنه بمعنى: انْتَهِ، إلَّا في موضعٍ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]؛ لأنَّه موصولٌ باليمين، بمنزلة قولك: إي وربِّي.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهِر أنَّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ ولم تجدي من أن تُقِرِّي به بُدًّا[(١)]

أي: إذا انتسبنا علمتِ وتبيَّن أنِّي لست بابن لئيمة.

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٦١، والطبري في تفسيره ٢/ ٥٧ دون نسبة، ونسبه عبد القادر البغدادي في شرح أبيات مغني اللبيب ١/ ١٢٥ لزائد بن صعصعة الفقعسي.

أو: سننتقم منه انتقام من كتبَ جريمة الجاني وحفظَها عليه، فإنَّ نفس كِتبة ذلك لا تكاد تتأخَّرُ عن القول؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وقوله سبحانه جلَّ وعلا: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فمبنَى الأول تنزيلُ إظهار الشيء الخفيِّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم، بجامع أنَّ كلًّا منهما إخراجٌ من الكمون إلى البروز، فيكون استعارةً تبعيَّةً مبنيَّةً على تشبيه إظهار الكتابة على رؤوس الأشهاد بإحداثها.

ومدار الثاني: تسميةُ الشيء باسم سببه، فإنَّ كِتبة جريمة المجرم سببٌ لعقوبته قطعاً؛ قاله أبو السعود(١).

وقيل: إنَّ الكتابة في المعنى الثاني استعارةٌ للوعيد بالانتقام. وفيه خفاء.

وقال بعضهم: لا مجاز في الآية، بَيْدَ أنَّ السين للتأكيد، والمراد: نكتب في الحال.

ورُدَّ بأن السين إذا أكَّدت فإنَّما تؤكِّد الوعد أو الوعيد، وتفيد أنَّه كائنٌ لا محالةَ في المستقبل، وأمَّا أنها تؤكِّدُ ما يراد به الحال، فلا. كذا قيل، فليراجع.

وقرأ الأعمش: «سيُكتَب» بالياء التحتية والبناء للمفعول، وذكرت عن عاصم(٢).

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ٧٩﴾ مكانَ ما يدَّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أي: نطوِّل له من العذاب ما يستحقُّه، أو نزيدُ عذابه ونضاعفه له من المدد، يقال: مدَّه وأمَدَّه بمعنى، وتدلُّ عليه قراءة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «ونُمِدُّ» بالضم(٣)، وهو بهذا المعنى يجوزُ أن يستعملَ باللام وبدونها، ومعناه على الأول: نفعل المدَّ له، وهو أبلغُ من: نمدُّه، وأُكِّد بالمصدر إيذاناً بفرطِ غضب الله تعالى عليه؛ لكفره وافترائه على الله سبحانه، واستهزائه بآياته العظام، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ ممَّا يستوجبُ الغضب.

---

(١) في تفسيره ٥/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٤. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٦، والكشاف ٢/ ٥٢٣، والبحر٦/ ٢١٤.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلب ذلك ونأخذُه بموته أخذَ الوارث ما يرثُه، والمراد بـ «ما يقول» مسمَّاه ومصداقه، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، يقول الرجل: أنا أملك كذا، فتقول: ولي فوق ما تقول، والمعنى على المضيّ، وكذا في «يقول» السابق. وفيه إيذانٌ بأنَّه ليسَ لما قال مصداقٌ موجودٌ سوى ما ذكر، و«ما» إمَّا بدلٌ من الضمير بدل اشتمال، وإمَّا مفعولٌ به، أي: نرث منه ما آتيناه في الدنيا.

﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ۝٨٠﴾ لا يصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له، فضلاً أن يؤتَى ثمَّة زائداً.

وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عندَه ويأتينا فرداً لا مال له ولا ولد»[1]، وهو ظاهرٌ في المعنى المذكور.

وقيل: المعنى: نحرمُه ما زعم أنَّه ينالُه في الآخرة من المال والولد ونعطيه لغيره من المستحقِّين. وروي هذا عن أبي سهل، وتفسيرُ الإرث بذلك تفسيرٌ باللازم. و«ما يقول» مرادٌ منه مسمَّاه أيضاً.

والولد الذي يُعطى للغير ينبغي أنْ يكون ولدَ ذلك الغير الذي كان له في الدنيا، وإعطاؤه إيَّاه بأنْ يجمع بينه وبينه حسبما يشتهيه، وهذا مبنيٌّ على أنَّه لا توالد في الجنَّة، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال جمعٌ منهم مجاهد وطاوس وإبراهيم النخعيّ بعدم التوالد، احتجاجاً بما في حديث لقيط ﷺ الطويل الذي عليه من الجلالة والمهابة ونور النبوة ما ينادي على صحته، وقال فيه أبو عبد الله ابن منده[2]: لا ينكرُه إلَّا جاحدٌ أو جاهل، وقد خرَّجه جماعةٌ من أئمة السنة، من قوله: قلت يا رسولَ الله أوَلنا فيها أزواجٌ، أوَ منهنَّ مُصْلحات؟ قال ﷺ: «المصلحات للمصلحين تلذّذونهنَّ ويلذذونكم مثل لذَّاتكم في الدنيا، غيرَ أن لا توالد»[3]،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٤.

(٢) ونقله عنه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٥٩٢ بتمامه مطولاً. فانظره ثمة.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١٦٢٠٦)، وسيأتي عند المصنف في سورة الزخرف، الآية: ٧١ التوسعُ في ذِكر من خرَّجه فينظر ثمة.

وبما روي عن أبي رزين[١] العقيليّ عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لا يكون لهم ولد»[٢].

وقالت فرقة بالتوالد احتجاجاً بما أخرجه الترمذيُّ في «جامعه» عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعُه وسِنُّه في ساعةٍ واحدة كما يشتهي». وقال: حسن غريب[٣].

وبما أخرجه أبو نعيم عن أبي سعيد أيضاً؛ قيل: يا رسول الله، أيولد لأهل الجنَّة، فإنَّ الولَد من تمام السرور؟ فقال عليه الصلاة السلام: «نعم، والذي نفسي بيده، وما هو إلَّا كَقَدْرِ ما يتمنَّى أحدُكم، فيكون حملُه ورضاعه وشبابه»[٤].

وأجابت عمَّا تقدَّم بأنَّ المراد نفيُ أن يكون توالدٌ أو ولدٌ على الوجه المعهود في الدنيا.

وتُعقِّبَ ذلك بأنَّ الحديثَ الأخيرَ ضعيفٌ، كما قال البيهقيُّ[٥]. والحديثُ الأول قال فيه السفارينيّ[٦]: أجودُ أسانيده إسنادُ الترمذيّ، وقد حكم عليه بالغرابة، وأنه لا يُعرف إلَّا من حديث أبي الصديق النَّاجي[٧]، وقد اضطربَ لفظُه، فتارةً يُروى عنه: «إذا اشتهى الولد» وتارةً: «إنه يشتهي الولد»، وتارةً: «إنَّ الرجل من أهل الجنة ليولد له»[٨]، وإذا قلنا بأنَّ له على الرواية السابقة سنداً حسناً،

(١) في الأصل و(م): أبي ذر. والمثبت من المصادر. وسيذكره المصنف على الصواب عند تفسير الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٢) أورده الترمذي تعليقاً إثر الحديث (٢٥٦٣) من حديث أبي رزين العقيلي ـ وهو لقيط بن عامر ـ قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٧/ ٢٨٦: لم أقف على من أخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، وروى أحمد في «مسنده» عن أبي رزين العقيلي حديثاً طويلاً وفيه: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم غير أن لا توالد». اهـ. وهو حديث لقيط بن عامر أبي رزين السالف آنفاً.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٦٣). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٣٣٨)، وأحمد (١١٠٦٣).

(٤) صفة الجنة لأبي نعيم (٢٧٥)، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث (٤٤٠).

(٥) في البعث والنشور إثر الحديث (٤٤٠).

(٦) في البحور الزاخرة، كما صرح بذلك المصنف عند تفسير الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٧) في الأصل و(م): التاجي. والمثبت من المصادر.

(٨) هو بهذا اللفظ في أخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢٩٦.

كما أشار إليه الترمذيُّ، فلقائلٍ أن يقول: إنَّ فيه تعليقاً بالشرط، وجازَ أن لا يقع، و«إذا» وإنْ كانت ظاهرةً في المحقَّق، لكنَّها قد تُستعملُ لمجرَّد التعليق الأعمّ.

وأمَّا الجوابُ عن الحديثين السابقين بما مرَّ فأوهنُ من بيت العنكبوت، كما لا يخفى.

وبالجملة المرجَّحُ عند الأكثرين عدمُ التوالد، ورجَّح ذلك السفاريني بعشرةِ أوجه، لكن للبحث في أكثرها مجال، والله تعالى أعلم.

وقيل: المراد بـ«ما يقول» نفس القول المذكور، لا مسمَّاه، والمعنى: إنَّما يقول هذا القول ما دام حيًّا، فإذا قبضناه حُلْنَا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضاً له مفرداً عنه.

وتُعقِّبَ بأنَّ هذا مبنيٌّ على صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد، وأنه مستمرٌّ على التفوه به، راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريب في أنَّ ذلك مستحيلٌ ممَّن كفر بالبعث، وإنَّما قال ما قال بطريق الاستهزاء.

وأجيبَ بأنَّا لا نسلم البناء على ذلك؛ لجواز أنْ يكون المراد: إنَّما يقولُ ذلك ويستهزئُ ما دام حيًّا، فإذا قبضنَاه حُلْنَا بينه وبين الاستهزاء بما ينكشف له ويحلُّ به. أو يقال: إنَّ مبنَى ما ذُكر على المجاراة مع اللعين، كما تقدم.

وقيل: المعنى: نحفظُ قوله لنضربَ به وجهَه في الموقف ونعيِّرُهُ به، ويأتينا على فقره ومسكنته فرداً من المال والولد، لم نولِه سؤلَه، ولم نؤته متمنَّاه، فيجتمع عليه أمْرَان أمَرَّان؛ تبعةُ قوله ووباله، وفقدُ المطموع فيه.

وإلى تفسير الإرث بالحفظ ذهبَ النحَّاس(١)، وجعلَ من ذلك: «العلماءُ ورثة الأنبياء»(٢)، أي: حفظةُ ما قالوه. وأنتَ خبيرٌ بأنَّ حِفظَ قوله قد عُلِمَ من قوله تعالى: «سنكتب ما يقول».

وفي «الكشاف»: يحتملُ أنَّه قد تمنَّى وطمع أن يؤتيه الله تعالى مالاً وولداً في الدنيا، وبلغت به أشعبيَّتُهُ أنْ تألَّى على ذلك، فقال سبحانه: هب أنَّا أعطيناه

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥٨.
(٢) سلف ٥/ ٣٤١.

ما اشتهاه؛ أمَا نرثُه منه في العاقبة ويأتينا غداً فرداً بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام:٩٤] فما يجدي عليه تمنِّيه وتألِّيه[1]. انتهى.

ولا يخفى أنَّه احتمالٌ بعيدٌ جدًّا في نفسه ومن جهة سبب النزول، والتكلُّف لتطبيقه عليه لا يُقَرِّبُه كما لا يخفى.

و«فرداً» حالٌ على جميع الأقوال، لكن قيل: إنَّه حالٌ مقدَّرة حيث أريد حرمانه عن المال والولد وإعطاء ذلك لمستحقِّه؛ لأنَّ الانفرادَ عليه يقتضي التفاوت بين الضالِّ والمهتدي، وهو إنَّما يكون بعد الموقف، بخلاف ما إذا أُريد غير ذلك مما تضمَّنته الأقوالُ؛ لعدم اقتضائه التفاوت بينهما، وكفايةِ فردية الموقف في الصحة، وإن كانت مشتركة.

وزعم بعضُهم أنَّ الحال مقدَّرة على سائر الأقوال؛ لأنَّ المرادَ دوامُ الانفرادِ عن المال والولد، أو عن القول المذكور، والدوام غيرُ محقَّق عند الإتيان، بل مقدَّرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] ولا يخفى ما فيه.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ حكايةٌ لجنايةٍ عامَّةٍ للكلِّ مستتبعةٍ لضدِّ ما يرجون ترتُّبه عليها، إثر حكاية مقالةِ الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها، أي: اتَّخذَ الكفرةُ الظالمون الأصنام، أو ما يعمُّهم وسائر المعبودات الباطلة آلهةً، متجاوزين الله تعالى ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ أي: ليتعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وصلةً إليه عزَّ وجلَّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم وزجر عن ذلك، وفيه إنكارٌ لوقوع ما علَّقوا به أطماعهم الفارغة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستجحدُ الآلهةُ عبادةَ أولئك الكفرة إيَّاها، ويُنطِقُ الله تعالى من لم يكن ناطقاً منها، فتقول جميعاً: ما عبدتمونا كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦]. أو: ستنكر الكفرة حين يشاهدونَ عاقبة سوء كفرهم عبادتَهم إيَّاها، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٢٣.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ على الأول ـ على ما قيل ـ: تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزًّا ضدًّا للعزّ، أي: ذلًّا وهوانًا، أو أعواناً عليهم، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أظهرُ من التفسير السابق، وكونهم أعواناً عليهم؛ لأنَّهم يلعنونَهم. وقيل: لأنَّ عبادتَهم كانت سبباً للعذاب.

وتعقِّبَ بأنَّ هذا لم يحدث يوم القيامة، وظاهرُ الآية الحدوث ذلك اليوم. والأمر فيه هيِّن.

وقيل: لأنَّهم يكونونَ آلةً لعذابهم، حيثُ يجعلونَ وَقود النار وحصبَ جهنم، وهذا لا يتسنَّى إلَّا على تقدير أنْ يُرَاد بالآلهة الأصنام.

وإطلاقُ الضدِّ على العون؛ لما أنَّ عونَ الرجل يضادُّ عدوَّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفرةُ على الآلهة، أي: أعداءً لها، من قولهم: الناسُ عليكم، أي: أعداؤكم. ومنه: اللهمَّ كن لنا ولا تكن علينا(١). «ضدًّا» أي: منافينَ ما كانوا عليه كافرين بها بعد ما كانوا يعبدونَها، فـ«عليهم» ـ على ما قيل ـ خبرُ يكون، و«ضدًّا» حالٌ مؤكدة، والعداوةُ مرادةٌ ممَّا قبله. وقيل: إنَّها مرادةٌ منه، وهو الخبر، و«عليهم» في موضع الحال. وقد فسَّره بأعداء الضَّحَّاكُ، وهو ـ على ما نقل عن الأخفش ـ كالعدوِّ يستعملُ مفرداً وجمعاً. وبذلك قال صاحب «القاموس» وجعل ما هنا جمعاً(٢).

وأنكر بعضُهم كونَه ممَّا يطلق على الواحد والجمع، وقال: هو للواحد فقط، وإنَّما وُحِّد هنا لوحدة المعنى الذي يدورُ عليه مضادتهم، فإنَّهم بذلك كالشيء الواحد، كما في قوله ﷺ فيما رواه النسائيُّ: «وهم يدٌ على من سواهم»(٣).

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنَّما وحّد؛ لأنَّه ذكر في مقابلة قوله تعالى: «عزًّا»،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٨٧ من دعاء الجنيد.

(٢) القاموس (ضدد).

(٣) قطعة من حديث علي رضي الله عنه أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ١٩، ٢٠، ٢٤، والسنن الكبرى (٦٩١٠) و(٨٦٢٨)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٥٣٠)، وأحمد (٩٥٩). وانظر الكافي الشاف ص١٠٧.

وهو مصدرٌ يصلحُ لأنْ يكون جمعاً، فهذا وإنْ لم يكن مصدراً، لكن يصلح لأنْ يكونَ جمعاً نظراً إلى ما يُراد منه، وهو الذل.

وهذا إذا تمَّ فإنَّما يتمُّ على المعنى الأول، وقد صرَّح في «البحر» أنَّه على ذلك مصدرٌ يوصف به الجمع، كما يوصف به الواحد، فليراجع[1].

وقرأ أبو نهيك هنا وفيما تقدَّم: «كَلًّا» بفتح الكاف والتنوين[2]، فقيل: إنَّها الحرف الذي للردع، إلَّا أنَّه نوي الوقفُ عليها، فصار ألفها كألف الإطلاق، ثم أبدلت تنويناً، ويجوز أنْ لا يكون نوى الوقف، بل أجريت الألف مجرى ألف الإطلاق؛ لما أنَّ ألف المبنيِّ لم يكن لها أصل، ولم يجز أن تقعَ رويًّا، ويسمَّى هذا تنوين الغالي وهو يَلحقُ الحروفَ وغيرها، ويجامعُ الألِفَ واللام، كقوله:

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعتابنْ وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابنْ[3]

وليس هذا مثل ﴿قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥] كما لا يخفى، خلافاً لمن زعمه[4]. وفي «محتسب» ابن جني[5] أنَّ «كَلًّا» مصدرٌ من كلَّ السيف إذا نبا، وهو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ من لفظه، والتقدير هنا: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتقاد كَلًّا، والمراد ضعُف ضعفاً، وقيل: هو مفعولٌ به بتقدير: حملوا كَلًّا. ويقال نظير ذلك فيما تقدَّم.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٣، ٢١٤، والدر المصون ٧/ ٦٣٨.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨١٣. ولفظه فيه: والعتابا... أصابا. بألف الإطلاق، وأنشده بالتنوين بنو تميم، كما ذكر ذلك الزمخشري في المفصل مع شرحه لابن يعيش ٩/ ٢٩، وابن هشام في المغني ص٤٤٧. وتبع المصنفُ الخفاجيَّ ٦/ ١٨٢ في إيراد هذا البيت شاهداً على التنوين الغالي، وإنما ذكروا هذا البيت شاهداً على تنوين الترنم، وهو الذي يلحق القوافي المطلقة بدلاً من حرف الإطلاق، وهو الألف والواو والياء، والترنم يحصل بهذه الأحرف لقبولها مد الصوت، فإذا أنشدوا ولم يترنموا جاؤوا بالنون في مكانها. أما التنوين الغالي، وهو الذي يلحق القوافي المقيدة، فذكروا شاهداً عليه قول رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن

انظر الكتاب ٤/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ومغني اللبيب ص٤٤٧، وأوضح المسالك ص١٢، وشرح ابن عقيل ١/ ١٨ ـ ٢٠.

(٤) هو الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٣.

(٥) ٢/ ٤٥.

وقال ابن عطية: هو نعتٌ لـ «آلهة»[1]، والمراد به الثقيل الذي لا خيرَ فيه، والإفرادُ لأنه بزنة المصدر، وهو كما ترى.

والأوفق بالمعنى ما تقدَّم، وإنْ قيل: فيه تعسُّف لفظيٌّ، وأنه يلزم عليه إثباتُ التنوين خطًّا، كما في أمثال ذلك. وحكى أبو عمرو الدانيّ عن أبي نَهيك أنَّه قرأ: «كُلًّا» بضم الكاف والتنوين[2]، وهي على هذا منصوبةٌ بفعل محذوف دلَّ عليه «سيكفرون» على أنَّه من باب الاشتغال، نحو: زيداً مررتُ به، أي: يجحدون كُلًّا، أي: عبادة كلٍّ من الآلهة، ففيه مضافٌ مقدَّرٌ، وقد لا يقدر.

وذكر الطبريُّ عنه أنه قرأ: «كُلّ»[3] بضمِّ الكاف والرفع، وهو على هذا مبتدأ، والجملةُ بعده خبره.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قيَّضناهم وجعلناهم قرناءَ لهم مسلَّطين عليهم، أو سلَّطناهم عليهم ومكَّنّاهم من إضلالهم.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ تغريهم وتهيِّجُهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع التسويلات والوساوس، فإنَّ الأزَّ والهزَّ والاستفزاز أخواتٌ، معناها شدَّة الإزعاج.

وجملة «تؤزهم» إمَّا حالٌ مقدَّرةٌ من الشياطين، أو استئنافٌ وقع جواباً عما نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطينُ بهم؟ فقيل: تؤزُّهم.. إلخ.

والمراد من الآية تعجيب رسول الله ﷺ مما تضمَّنته الآياتُ السابقة الكريمة من قوله سبحانه: «ويقول الإنسان أئذا ما مت» إلى هنا، وحَكَتْهُ عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيِّ، والانهماك في الضلال، والإفراط في العناد، والتصميم على الكفر، من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطف يثنيهم، والإجماعِ على مدافعة الحقِّ بعد إيضاحه وانتفاءِ الشرك عنه بالكليَّة، وتنبيهٌ على أنَّ جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا لأنَّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١، وانظر القراءات الشاذة ص٨٦.

(٣) كذا في الأصل و(م) والبحر المحيط ٦/ ٢١٤، والدر المصون ٧/ ٦٣٩، ونسخة من تفسير الطبري كما في هامشه ١٥/ ٦٢٦. ووقع في مطبوعه: كُلًّا.

هناك قصوراً في التبليغ أو مسوّغاً في الجملة، وفيها تسليةٌ لرسول الله ﷺ، فهي تذييلٌ لتلك الآيات لما ذكر. وليس المرادُ منها تعجيبَه عليه الصلاة والسلام من إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تعليقُ الرؤية به، بل ممَّا ذُكِر من أحوالهم من حيثُ كونها من آثار إغواء الشياطين، كما ينبئُ عن ذلك قوله سبحانه: «تؤزُّهم أزًّا».

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يَهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم، ويَبيدوا عن آخرهم، وتُطهَّر الأرضُ من خباثاتهم. والفاء للإشعار بكون ما قبلَها مظنَّةً لوقوع المنهيِّ عنه محوجةً إلى النهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ تعليلٌ لموجب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، فإنَّه لم يبقَ لهم إلَّا أيامٌ وأنفاسٌ نعدُّها عدًّا، أي: قليلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] ولا ينافي هذا ما مرَّ من أنَّه يمدُّ لمن كان في الضلالة، أي: يطوِّل؛ لأنَّه بالنسبة لظاهر الحال عندهم، وهو قليلٌ باعتبار عاقبته وعند الله عزَّ وجل.

وقيل: إنَّ التعليلَ بما ذُكر دلَّ على أنَّ أنفاسَهم وأيَّامهم تنتهي بانتهاء العدِّ، ولا شكَّ أنَّها على كثرتها يُستوفَى إحصاؤها في ساعة، فعبَّر بهذا المعنى عن القليل، فكأنَّه قيل: ليس بينك وبين هلاكهم إلَّا أيَّامٌ محصورةٌ، وأنفاسٌ معدودةٌ، كأنَّها في سرعة تقضِّيها الساعة التي تُعَدُّ فيها لو عُدَّت، وهذا ليس مبينًا على أنَّ كلَّ ما يُعدُّ فهو قليل. انتهى.

والأول هو الظاهر، وهذا أبعدُ مغزًى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: آخرُ العدد خروجُ نفسك، آخرُ العدد فراقُ أهلك، آخرُ العدد دخول قبرك.

وعن ابن السمَّاك أنَّه كان عند المأمون فقرأها، فقال: إذا كانت الأنفاسُ بالعدد، ولم يكن لها مَدد، فما أسرعَ ما تنفد.

ولله تعالى درُّ من قال:

إنَّ الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ   لا يمنعُ الموتَ بوابٌ ولا حَرَسُ
وكيفَ يفرحُ بالدنيا ولذَّتِها   فتًى يُعَدُّ عليه اللفظُ والنفسُ(١)

وقيل: المرادُ: إنَّما نعدُّ أعمالهم لنجازيهم عليها.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: ركباناً، كما أخرجه جماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابنُ أبي حاتم وابن مردويه من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: يا رسول الله، هل الوفدُ إلَّا الركب؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، إنَّهم إذا خرجُوا من قبورهم استُقبِلوا بنوقٍ بيض، لها أجنحةٌ وعليها رحالُ الذهب، شركُ نعالِهم نورٌ، يتلألأ كلَّ خطوة منها مثل مدِّ البصر، وينتهون إلى باب الجنَّة». الحديثُ(٢)، وهذه النوقُ من الجنَّة كما صرَّح به في حديث أخرجَه عبد الله بن الإمام أحمد وغيره موقوفاً على عليّ كرَّم الله تعالى وجهه(٣). وروي عن عمرو بن قيس أنَّهم يركبونَ على تماثيل من أعمالهم الصالحة، هي في غاية الحسن. ويُروى أنَّه يَركبُ كلٌّ منهم ما أحبَّ من إبلٍ أو خيلٍ أو سفنٍ تجيءُ عائمةً بهم.

وأصل الوفد جمع وَافد، كالوفود والأوفَاد، والوفدُ من وفد إليه وعليه، يفدُ وَفْداً ووُفوداً ووفادةً وإفادة. قَدِمَ، ووَرَدَ.

وفي «النهاية»: الوفدُ: هم القومُ يجتمعون ويَرِدُون البلاد، واحدُهم: وافدٌ، وكذلك الذين يقصدونَ الأمراء لزيارةٍ واسترفادٍ وانتجاعٍ وغير ذلك(٤).

---

(١) أوردهما النيسابوري في غرائب القرآن ١٦/ ٨٢، والخفاجي في حاشيته ٦/ ١٨٣. وذكر ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٠ البيت الأول منهما، ونسبه للحسن البصري.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٥. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧ وقال: ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً والبيهقي وغيرهما عن عاصم بن ضمرة عن عليٍّ موقوفاً بنحوه، وهو أصح وأشهر. اهـ. وكذا رجح الحافظ ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٦٤ الموقوف، وقال في ٧/ ١٢٥: هذا حديث غريب وكأنه مرسل.

(٣) مسند الإمام أحمد (١٣٣٣). قال محققوه: إسناده ضعيف؛ لضعف عبد الرحمن بن إسحاق، وهو أبو شيبة الواسطي، وجهالة النعمان بن سعد.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (وفد).

وقال الراغب: الوفدُ والوفود هم الذين يَقدَمون على الملوك مستنجزِينَ الحوائج، ومنه الوفد من الإبل، وهو السابق لعيرِها[١]، وهذا المعنى الذي ذكَره هو المشهور، ومن هنا قيل: إنَّ لفظة الوفد مشعرةٌ بالإكرام والتبجيل، حيثُ آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفودِ الملوك، وليس المراد حقيقةَ الوفادة من سائر الحيثيات؛ لأنَّها تتضمَّن الانصرافَ من الموفود عليه، والمتَّقون مقيمونَ أبداً في ثواب ربِّهم عزَّ وجلَّ.

والكلام على تقدير مضاف، أي: إلى كرامة الرحمن أو ثوابه، وهو الجنَّة، أو إلى دار كرامته، أو نحو ذلك.

وقيل: الحشر إلى الرحمن كنايةٌ عن ذلك، فلا تقدير. وكان الظاهر الضمير، بأن يقال: يومَ نحشرُ المتَّقين إلينا، إلَّا أنَّه اختير «الرحمن» إيذاناً بأنهم يجمعون من أماكنَ متفرقة وأقطارٍ شاسعة إلى من يرحمهم.

قال القاضي: ولاختيار «الرحمن» في هذه السورة شأن، ولعلَّه أنَّ مساقَ الكلام فيها لتعداد النعم الجسام، وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها، فكأنَّه قيل: هنا يومَ نحشر المتقين إلى ربِّهم الذي غمرهم من قبلُ برحمتِه، وشملَهم برأفته، وحاصله: يوم نحشرهم إلى من عَوَّدهم الرحمة، وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه[٢].

وقد قابل سبحانه ذلك بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ أي: عطاشاً، كما روي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وقتادة ومجاهد. وأصله مصدر وَرَدَ، أي: سار إلى الماء، قال الراجز:

رِدي رِدي وِردَ قطاةٍ صمَّا
كُدْرِيَّةٍ أعجبها بردُ الما[٣]

---

(١) المفردات (وفد)، وفيه: ومنه: الوافد من الإبل، وهو السابق لغيره. ومثله في القاموس واللسان (وفد).

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٥.

(٣) الرجز دون نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ ٤/ ٣٨٦، وديوان المعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣١٤، والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص٤٠٢.

وإطلاقه على العطاش مجازٌ لعلاقة اللزوم؛ لأن من يرد الماءَ، لا يردُهُ إلَّا لعطش.

وجُوِّزَ أنْ يكون المراد من الورد: الدوابُّ التي تردُ الماء، والكلام على التشبيه، أي: نسوقهم كالدوابِّ التي تردُ الماء.

وفي «الكشف»: في لفظ الورد تهكُّمٌ واستخفافٌ عظيم، لا سيما وقد جعل المورد جهنَّم، أعاذنا الله تعالى منها برحمته، فلينظر ما بين الجملتين من الفرق العظيم.

وقرأ الحسن والجحدريُّ: «يحشر المتقون»، و«يساق المجرمون» ببناء الفعلين للمفعول[1].

واستدلَّ بالآية على أنَّ أهوال القيامة تختصُّ بالمجرمين؛ لأنَّ المتقين من الابتداء يحشرونَ مكرمين، فكيف ينالُهم بعد ذلك شدَّة. وفي «البحر»[2]: الظاهرُ أنَّ حشر المتقين إلى الرحمن وفداً بعدَ انقضاء الحساب، وامتيازِ الفريقين. وحكاه ابن الجوزيّ عن أبي سليمان الدمشقيّ[3]، وذكر ذلك النيسابوريُّ[4] احتمالاً بحثاً في الاستدلال السابق.

وأنت تعلم أن ذلك لا يتأتَّى على ما سمعت في الخبر المرويِّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فإنَّه صريحٌ في أنَّهم يركبونَ عند خروجهم من القبور، وينتهونَ إلى باب الجنَّة، وهو ظاهرٌ في أنَّهم لا يُحاسَبون.

وقال بعضهم: إنَّ المرادَ بالمتَّقين الموصوفونَ بالتقوى الكاملة، ولا يبعدُ أن يدخلوا الجنَّة بلا حساب، فقد صحَّت الأخبار بدخول طائفةٍ من هذه الأمة الجنة كذلك، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج إلينا رسولُ الله ﷺ ذات يوم فقال: «عُرِضت عليَّ الأممُ، يمرُّ النبيُّ معه الرجلُ، والنبيُّ معه الرجلان، والنبيُّ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٧. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن الحسن فقط.
(٢) ٦/ ٢١٧.
(٣) زاد المسير ٥/ ٢٦٣.
(٤) غرائب القرآن ١٦/ ٨٢.

ليس معه أحد، والنبيُّ معه الرهط، فرأيتُ سواداً كثيراً، فرجوت أن يكون أمَّتي، فقيل: هذا موسى وقومُه، ثم قيل: انظر، فرأيت سواداً كثيراً، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعونَ ألفاً يدخلون الجنَّة بغير حساب» فتفرَّق الناس، ولم يبيِّن لهم رسول الله ﷺ، فتذاكر أصحابه فقالوا: أمَّا نحنُ فولدنا في الشرك، ولكن قد آمنَّا بالله تعالى ورسوله ﷺ، هؤلاء أبناؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «هم الذين لا يسترقُون، ولا يكتوون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكَّلون». الحديث[١].

وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربي أنْ يُدخل الجنة من أمَّتي سبعين ألفاً لا حسابَ عليهم ولا عذاب، مع كلِّ ألفٍ سبعين ألفاً وثلاثَ حثياتٍ من حثيات ربِّي»[٢].

وأخرج الإمامُ أحمد والبزَّارُ والطبرانيُّ عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ ربي أعطاني سبعينَ ألفاً من أمَّتي يدخلون الجنَّة بغير حساب»، فقال عمر رضي الله عنه: هلَّا استزدته؟ قال: «قد استزدتُه فأعطاني [مع كلِّ رجلٍ سبعين ألفاً»، قال عمر: فهلَّا استزدته. قال: «قد استزدتُه فأعطاني] هكذا» وفرجَ بين يديه وبسطَ باعَيْه وحَثَا. قال هشام[٣]: هذا من الله عزَّ وجلَّ لا يُدْرَى ما عدده[٤].

وأخرج الطبرانيُّ والبيهقيُّ عن عمرو بن حزم الأنصاريّ رضي الله عنه قال: احتبَس عنَّا رسولُ الله ﷺ ثلاثاً لا يخرجُ إلَّا إلى صلاةٍ مكتوبة ثم يرجع، فلمَّا كان اليوم الرابع خرج إلينا ﷺ، فقلنا: يا رسولَ الله احتبستَ عنَّا حتى ظننا أنَّه حدثَ حدث، قال: «لم يحدث إلَّا خير؛ إنَّ ربِّي وعدني أنْ يدخل من أمتي الجنةَ سبعينَ ألفاً لا حساب [عليهم]، وإني سألتُ ربِّي في هذه الثلاث أيَّام المزيد، فوجدتُ ربِّي ماجداً كريماً، فأعطاني مع كلِّ واحد سبعين ألفاً»[٥]. الخبر، إلى غير ذلك من الأخبار، وفي

(١) صحيح البخاري (٥٧٠٥)، وصحيح مسلم (٢٢٠).
(٢) سنن الترمذي (٢٤٣٧)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٢٨٦)، وأحمد (٢٢٣٠٣).
(٣) هو هشام بن حسان من رجال الإسناد.
(٤) مسند أحمد (١٧٠٦)، ومسند البزار (٢٢٦٨)، ومسند الشاميين (٣٦١٣). وما بين حاصرتين من المصادر، والحديث ضعيف. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٠، والتعليق عليه في مسند أحمد.
(٥) أورده البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٥٢ إثر الحديث (٢٦٨). قال الهيثمي في مجمع =

بعضها ذكرُ من يدخل الجنة بغير حسابٍ بوصفِه، كالحامدينَ الله تعالى شأنُه في السرَّاء والضَّراء، وكالذين تتجافَى جنوبُهم عن المضاجع، وكالذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله تعالى(١)، وكالذي يموتُ في طريق مكَّة ذاهباً أو راجعاً(٢)، وكطالب العلم، والمرأةِ المطيعة لزوجها، والولد البارِّ بوالديه(٣)، وكالرحيم

= الزوائد ١٠/ ٤١٠: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني، وذكر الاختلاف في اسم راويه.

(١) هذه الثلاثُ الأُوَل جاءت في حديث مرفوع أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٠ ـ ٣١ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد، عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، ثم يقوم منادٍ فينادي يقول: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، فيقول: أين الذين يحمدون الله في السَّراء والضراء؟ فيقومون وهم قليلون فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي: أين الذين ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليلون، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي، فيقول: أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليلون، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم سائر الناس فيحاسبون». وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي. انظر التقريب.

وأخرجه بألفاظ قريبة عبدُ بن حميد في مسنده (١٥٨١)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق١/ ٥٠٣-٥٠٤ من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب. وأبان متروك كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

وأخرج الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩ نحوه مختصراً من طريق عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعاً وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المزي في تهذيب الكمال ١٥/ ٣١٢. وله شاهد موقوف على ابن عباس أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣ ـ زوائد نعيم)، والحارث بن أبي أسامة (١١٢٢ ـ بغية الباحث). وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٣٥٣ ـ بغية الباحث) والأصبهاني (١٠٣٦) عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات في طريق مكة ذاهباً أو راجعاً لم يعرض ولم يحاسب». قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٤٣٣): رواه الحارث عن إسحاق بن بشر وهو ضعيف. اهـ.

وفيه أيضاً أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف أيضاً. انظر تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الرافعي في «تاريخ قزوين» ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ عن أبي بكر محمد بن الحسن النقاش عن الحسن بن علي عن يزيد بن هارون عن دؤاد بن أبي هند عن=

الصبور[1]، وغير ذلك. ووجهُ الجمع بين الأخبار ظاهر.

ويلزم على تخصيصِ المتَّقين بالموصوفين بالتَّقوى الكاملة دخولُ عصاة المؤمنين في المجرمين، أو عدمُ اشتمال[2] الآية على بيان حالهم.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على ما روي من الخبر على عدم إحضار المتقين جثيًّا حولَ جهنم، فما يدلُّ على العموم مخصَّصٌ بمثل ذلك، فتأمَّل والله تعالى الموفق.

ونصب «يوم» على الظرفية بفعلٍ محذوف مؤخَّر، أي: يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يحيطُ ببيانه نطاقُ المقال.

وقيل: على المفعوليَّة بمحذوف مقدَّم خوطب به سيدُ المخاطبين ﷺ، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يومَ نحشر.. إلخ.

وقيل: على الظرفية بـ «نَعُدُّ» باعتبار معنى المجازاة. وقيل: بقوله سبحانه وتعالى: «سيكفرون بعبادتهم» وقيل: بقوله جلَّ وعلا: «يكونون عليهم ضدًّا». وقيل: بقوله تعالى شأنه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

والذي يقتضيه مقامُ التهويل وتستدعيه جزالةُ التنزيل أنْ ينتصبَ بأحد الوجهين الأوَّلين، ويكون هذا استئنافاً مبيِّناً لبعض ما في ذلك اليوم من الأمور الدالَّة على هوله.

= الشعبي عن ابن أبي ليلى عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً: «مسألة واحدة يتعلمها المؤمن خير له من عبادة سنة، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل، وإن طالب العلم والمرأة المطيعة لزوجها والولد البار بوالديه يدخلون الجنة مع الأنبياء بغير حساب». قال الألباني في السلسلة الضعيفة ٦/ ٣٠١: وهذا موضوع ظاهر البطلان، كل رجال إسناده ثقات رجال الصحيح، وضعه عليهم النقاش هذا؛ فإنه كذاب كما قال الذهبي تبعاً لبعض من سلف من الأئمة.

(١) يشير إلى ما أخرجه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٢٧١) قال: حدثنا أحمد بن محمد بن شيبة، حدثنا محمد بن عمرو بن حنان، حدثنا بقية، عن معاوية بن يحيى، عن سفيان الثوري، عن رجل، عن مكحول، عن أبي هريرة قال: يا رسول الله، هل من رجل يدخل الجنة بغير حساب؟ قال: «نعم، كل رحيم صبور» وواضح أن في الإسناد مبهماً، إضافة إلى أنه فيه بقية بن الوليد الحمصي، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء ـ كما ذكر ابن حجر في التقريب ـ وقد عنعن هنا. فالحديث ضعيف.

(٢) في (م): احتمال. وهو تصحيف.

وضميرُ الجمع لما يعمُّ المتقين والمجرمين، أي: العباد مطلقاً، وقيل: للمتقين، وقيل: للمجرمين من أهل الإيمان وأهل الكفر. و«الشفاعة» على الأوَّلين مصدرُ المبنيِّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أنْ يكون مصدرَ المبنيِّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ استثناءٌ متَّصلٌ من الضمير على الأول[١]، ومحلُّ المستثنى إمَّا الرفعُ على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يملكُ العبادُ أنْ يشفعوا لغيرهم، إلَّا من اتَّصفَ منهم بما يستأهلُ معه أنْ يشفع، وهو المرادُ بالعهد. وفسَّره ابنُ عباس بشهادةِ أن لا إله إلا الله.

والتبرِّي من الحول والقوة عدمُ رجاء أحدٍ إلَّا الله تعالى، وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود أنَّه قرأ الآية وقال: إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهدٌ فليقم، فلا يقوم إلَّا من قال هذا في الدنيا: «اللهمَّ فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، إنِّي أعهدُ إليك في هذه الحياة الدنيا أنَّك إنْ تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشر وتباعدني من الخير، وإنِّي لا أثقُ إلَّا برحمتك، فاجعله لي عندك عهداً تؤدِّيه إليَّ يوم القيامة، إنَّك لا تخلفُ الميعاد»[٢].

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن مقاتل أنه قال: العهدُ الصلاح[٣]. وروي نحوه عن السُّدِّيّ وابن جريج[٤].

وقال الليث: هو حفظُ كتاب الله تعالى.

وتسميةُ ما ذكر عهداً على سبيل التشبيه.

---

(١) أي: على القول بأن ضمير الجمع يعمُّ المتقين والمجرمين.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٦، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، والمعجم الكبير للطبراني (٨٩١٨)، والمستدرك ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٤: رواه الطبراني، وفيه المسعودي، وهو ثقة، ولكنه قد اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(٣) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٤/ ٢٨٦. ووقع في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٣: الصلاة، بدل: الصلاح.

(٤) قول السدي أورده أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢١٧، بلفظ: العهد: الطاعة، وقول ابن جريج أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٣٣. ونصه: ﴿عَهْدًا﴾: عملاً صالحاً.

وقيل: المرادُ بالعهد الأمر والإذن، من قولهم: عهدَ الأميرُ إلى فلانٍ بكذا، إذا أمره به، أي: لا يملكُ العباد أنْ يشفعوا إلَّا من أذن الله عزَّ وجلَّ له بالشفاعة، وأمرَه بها، فإنَّه يملك ذلك. ولا يأبى «عند» الاتخاذ أصلاً، فإنَّه كما يقال: أخذتُ الإذنَ في كذا، يقال: اتَّخذته. نعم في قوله تعالى: «عند الرحمن» نوعُ إباءٍ عنه، مع أنَّ الجمهور على الأول.

والمراد بالشفاعة على القولين ما يعمُّ الشفاعة في دخول الجنة، والشفاعةَ في غيره، ونازعَ في ذلك المعتزلة، فلم يجوِّزوا الشفاعةَ في دخول الجنة، والأخبارُ تكذِّبهم، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ من أمَّتي ليشفع للفئام[1] من الناس، فيدخلونَ الجنَّة بشفاعته، وإن الرجلَ ليشفع للرجلِ وأهل بيته، فيدخلونَ الجنَّة بشفاعته»[2]. وجوَّزَ ابنُ عطيَّة أنْ يُراد بـ «الشفاعة» الشفاعةُ العامة في فصل القضاء، وبـ «من اتَّخذ» النبيُّ ﷺ، و«بالعهد» الوعدُ بذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[3] [الإسراء: ٧٩]. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

وعلى الوجه الثاني[4] في ضمير الجمع الاستثناءُ من الشفاعة بتقدير مضاف، وهو متصلٌ أيضاً. وفي المستثنى الوجهان السابقان[5]، أي: لا يملكُ المتَّقون الشفاعة إلَّا شفاعة من اتَّخذ عند الرحمن عهداً، والمراد به الإيمان، وإضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: المستثنى منه محذوفٌ على هذا الوجه، أي: لا يملك المتقون الشفاعةَ لأحدٍ إلَّا من اتخذ.. إلخ، أي: إلَّا لمن اتَّصف بالإيمان.

وجُوِّزَ أنْ يكون الاستثناء من الشفاعة بتقدير المضاف على الوجه الأول في

---

(١) جاء عند هذه الكلمة في الأصل ما نصه: بالفاء، أي: الجماعة. اهـ منه.
(٢) أخرجه أحمد (١١٦٠٥).
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣.
(٤) وهو أن ضمير الجمع للمتقين.
(٥) أي: إما الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء.

الضمير أيضاً، وأن يكونَ المصدرُ مضافاً لفاعِله، أو مضافاً لمفعوله.

وجُوِّز عليه أيضاً أن يكون المستثنى منه محذوفاً كما سمعت.

وعلى الوجه الثالث[1]: الاستثناءُ من الضمير، وهو متَّصلٌ أيضاً، وفي المستثنى الوجهان، أي: لا يملكُ المجرمونَ أنْ يشفع لهم إلَّا من كانَ مؤمناً، فإنَّه يملك أن يشفع له.

وقيل: الاستثناءُ على تقدير رجوع الضمير إلى المجرمين منقطعٌ؛ لأنَّ المراد بهم الكفار، وحملُ ذلك على العصاةِ والكفَّار بعيدٌ، كما قال أبو حيان[2]، والمستثنى حينئذٍ لازم النصب عند الحجازيين، جائزٌ نصبُه وإبدالُه عند تميم. وجَوَّزَ الزمخشريُّ أنْ تكون الواو في «لا يملكون» علامةَ الجمع كالتي في: أكلوني البراغيث، والفاعل «من اتخذ» لأنَّه في معنى الجمع[3].

وتعقَّبه أبو حيان بقوله: لا ينبغي حملُ القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً، وذكر الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أنَّها لغةٌ ضعيفة، وأيضًا فالواو والألف والنون التي تكونُ علاماتٍ لا يحفظُ ما يجيء بعدها فاعلاً إلَّا بصريح الجمع وصريحِ التثنية، أو العطف؛ أمَّا أنْ تأتي بلفظ مفردٍ يطلق على جمعٍ أو مثنى، فيحتاج في إثباته إلى نقل، وأمَّا عود الضمائر مثناةً ومجموعةً على مفردٍ في اللفظ يرادُ به المثنى والمجموع، فمسموعٌ معروفٌ في لسان العرب، فيمكن قياسُ هذه العلامات على تلك الضمائر، ولكن الأحوط أن لا يقال ذلك إلَّا بسماع[4]. انتهى.

وتعقَّبهُ أيضاً ابنُ المنير بأنَّ فيه تعسُّفاً؛ لأنَّه إذا جعل الواوَ علامةً لـ «من» ثمَّ أعاد على لفظها بالإفراد ضمير «اتخذ» كان ذلك إجمالاً بعد إيضاح، وهو تعكيسٌ في طريق البلاغة التي هي الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه وإنْ لم تكن

---

(١) أي: على القول بأن ضمير الجمع للمجرمين من أهل الإيمان وأهل الكفر.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢١٧.

عائدةً على «من» إلَّا أنَّها كاشفةٌ لمعناها كشفَ الضمير العائد لها، ثم قال: فتنبَّه لهذا النَّقد[1] فإنه أروج من النَّقْد:

وفي عنق الحسناء يستحسنُ العقد[2]

انتهى.

ومنه يعلم أنَّ القول بجواز رجوع الضمير لها أولاً باعتبار معناها، وثانياً باعتبار لفظها لا يخلو عن كدر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ حكايةٌ لجناية القائلين: عزيرٌ ابن الله، وعيسى ابن الله، والملائكةُ بنات الله، من اليهود والنصارى والعرب، تعالى شأنه عمَّا يقولونَ علوًّا كبيراً = إثرَ حكايةِ جناية من عَبد ما عُبِد من دونه عزَّ وجلَّ، بطريق عطفِ القصَّة على القصَّة، فالضمير راجعٌ لمن علمت، وإنْ لم يُذكر صريحاً؛ لظهور الأمر. وقيل: راجعٌ للمجرمين. وقيل: للكافرين. وقيل: للظالمين. وقيل: للعباد المدلول عليه بذكر الفريقين المتقين والمجرمين، وفيه إسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ، مع أنَّهم لم يرضوه، وقد تقدم البحث فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها؛ بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدَّة الغضب، المفصحِ عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة.

وقيل: لا التفات، والكلامُ بتقدير: قل لهم: «لقد جئتم» إلخ.

والإِدُّ بكسر الهمزة، كما في قراءة الجمهور، وبفتحِها كما قرأ السلميُّ[3]: العَجَب، كما قال ابنُ خالويه[4]. وقيل: العظيم المنكر، والإِدَّة: الشدَّة، وأَدَّني الأمرُ وآدني: أثقلني وعَظُمَ عليَّ.

---

(١) في مطبوع الانتصاف ٢/ ٥٢٥: العقد.

(٢) هو عجز بيت للمتنبي كما في ديوانه ٢/ ١١١، وصدره: وأصبح شعري منهما في مكانه.

(٣) المحتسب ٢/ ٤٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٦. ونسبة القراءة فيه لعليِّ بن أبي طالب.

وقال الراغب[١]: الإدُّ: المنكر فيه جَلَبة، من قولهم: أدَّتِ الناقةُ تَئِدُّ، أي: رجَّعت أنينَها[٢] ترجيعاً شديداً. وقيل: الأدُّ بالفتح مصدر، وبالكسر اسم، أي: فعلتم أمراً عجباً، أو منكراً شديداً، لا يُقَادرُ قدرُه، فإنَّ: جاء وأتى، يستعملان بمعنى: فعل، فيتعدَّيان تعديته.

وقال الطبرسيُّ: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيءٍ إدّ[٣].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ في موضع الصفة لـ «إدًّا»، أو استئنافٌ لبيان عظم شأنه في الشدَّة والهول، والتفطُّر ـ على ما ذكره الكثير ـ التشقُّقُ مطلقاً، وعلى ما يدلُّ عليه كلام الراغب: التشقُّق طولاً، حيث فسَّر الفَطْر ـ وهو منه ـ بالشَّقِّ كذلك[٤].

ومواردُ الاستعمال تقتضي عدم التقييد بما ذُكر. نعم قيل: إنَّها تقتضي أنْ يكون الفطر من عوارضِ الجسم الصلب، فإنَّه يقال: إناءٌ مفطور، ولا يقال: ثوبٌ مفطور، بل: مشقوق، وهو عندي في أعراف الردِّ والقبول، وعليه يكون في نسبة التفطُّر إلى السماوات، والانشقاق إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السماءَ أصلبُ من الأرض، والتكثيرُ الذي تدلُّ عليه صيغة التفعُّل، قيل: في الفعل؛ لأنَّه الأوفقُ بالمقام، وقيل: في متعلَّقه، ورُجِّحَ بأنَّه قد قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب[٥] وأبو بحريَّة والزهريُّ وطلحة وحميد واليزيديُّ وأبو عبيد: «ينفطرن» مضارعُ: انفطرَ[٦]، وتوافقُ القراءتين يقتضي ذلك، وبأنَّه قد اختير الانفعال في «تنشق الأرض» حيثُ لا كثرة في المفعول، ولذا أُوِّلَ: «ومن الأرض مثلهنّ» بالأقاليم ونحوه، كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى.

ووجَّه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأنَّ التكثيرَ في الفعل بأنَّ السماوات

---

(١) المفردات: (أدد).
(٢) في (م) والمفردات: حنينها.
(٣) مجمع البيان ١٦/ ٧٥.
(٤) المفردات (فطر).
(٥) التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩. وقرأ بها أيضاً خلف من العشرة.
(٦) البحر المحيط ٦/ ٢١٨.

لكونها مقدَّسةً لم يُعْصَ الله تعالى فيها أصلاً نوعاً ما من العصيان لم يكن لها إلفٌ ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض، فهي تتأثَّر من عظم المعصية ما لا تتأثَّر الأرض.

وقرأ ابن مسعود: «يتصدَّعنَ»(١)، قال في «البحر»: وينبغي أن يجعلَ ذلك تفسيراً لا قراءةً، لمخالفته سوادَ المصحف المجمع عليه، ولروايةِ الثقات عنه أنَّه قرأ كالجمهور(٢). انتهى.

ولا يَخفى عليك أنَّ في ذلك كيفما كان تأييداً لمن ادَّعى أن الفَطْر من عوارض الجسم الصلب، بناء على ما في «القاموس» من أنَّ الصدعَ شقٌّ في شيءٍ صلب(٣). وقرأ نافعٌ والكسائيُّ وأبو حيوة والأعمش: «يكاد» بالياء من تحت(٤).

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ تسقط وتنهدُّ ﴿هَدًّا ۝٩٠﴾ نُصب على أنَّه مفعول مطلق لـ «تَخِرُّ»، لأنَّه بمعنى تنهدُّ، كما أشرنا إليه، وإليه ذهب ابن النَّحاس(٥).

وجُوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «تنهدُّ» مقدَّراً. والجملةُ في موضع الحال.

وقيل: هو مصدرٌ بمعنى المفعول، منصوبٌ على الحال، من هَدَّ المتعدِّي، أي: مهدودةً.

وجُوِّز أنْ يكون مفعولاً له، أي: لأنَّها تنهدُّ، على أنَّه من هَدَّ اللازم بمعنى انهدم، ومجيئُه لازماً ممَّا صرَّح به أبو حيَّان(٦)، وهو إمامُ اللغة والنحو، فلا عبرةَ بمن أنكره، وحينئذ يكون الهدُّ من فعل الجبال، فيتَّحدُ فاعل المصدر والفعلِ المعلَّلِ به. وقيل: إنَّه ليس من فعلها، لكنَّها إذا هدَّها أحد يحصل لها الهدُّ، فَصَحَّ أن يكون مفعولاً له.

وفي الكلام تقرير لِكَوْنِ ذلكَ إدًّا، والكيدودةُ فيه على ظاهرها من مقاربةِ

---

(١) في مطبوع القراءات الشاذة ص٨٦: ينصدعن.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٨.
(٣) القاموس (صدع).
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢١٨. وقراءة نافع والكسائي في التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ٢٩.
(٦) البحر ٦/ ٢١٩.

الشيء. وفسَّرها الأخفشُ هنا[1] وفي قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] بالإرادة، وأنشدَ شاهداً على ذلك قول الشاعر:

كـادت وكِـدْتُ وتـلـك خـيـرُ إرادةٍ   لو عادَ من زمن الصبابةِ ما مضى[2]

ولا حجَّة له فيه.

والمعنى: أنَّ هولَ تلك الكلمة الشنعاء وعظمَها بحيثُ لو تَصوَّر بصورةٍ محسوسةٍ لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفرَّقتْ أجزاؤها من شدَّتها، أو أنَّ حقَّ تلك الكلمة لو فهمتها تلك الجماداتُ العظام أنْ تتفطَّر وتَنْشَقَّ وتخرَّ من فظاعتها.

وقيل: المعنى: كادت القيامةُ أنْ تقوم، فإنَّ هذه الأشياء تكونُ حقيقةً يوم القيامة.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ عن غضب الله تعالى على قائل تلك الكلمة، وأنَّه لولا حلمه سبحانه وتعالى لوقعَ ذلك، وهلكَ القائلُ وغيره، أي: كدتُ أفعل ذلك غضباً لولا حلمي.

وأخرج ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: إنَّ الشرك فزعت منه السماواتُ والأرض والجبال وجميعُ الخلائق إلَّا الثقلين، وكدن أنْ يَزُلْنَ منه تعظيماً لله تعالى[3].

وفيه إثباتُ فهمٍ لتلك الأجرام والأجسام لائقٍ بهنّ، وقد تقدَّم ما يتعلَّق بذلك.

وفي «الدر المنثور»[4] في الكلام على هذه الآية: أخرجَ أحمدُ في «الزهد» وابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو الشيخ في «العظمة» وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» من طريق عون عن ابن مسعود

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٢٧.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٩٦، ووقع في مطبوعه عند تفسير الآية العاشرة من سورة الرعد. وحقه أن يذكر ـ كما ذكره الآلوسي ـ عند قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، والبيت أيضاً في تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، والأضداد للأنباري ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٣١ دون نسبة. وفيها: لهو الصبابة، بدل: زمن الصبابة.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٦٣٧.

(٤) ٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

قال: إنَّ الجبلَ لينادي الجبلَ باسمه: يا فلان هل مرَّ بكَ اليومَ أحدٌ ذاكرٌ لله تعالى؟ فإذا قال: نعم، استبشرَ. قال عون: أفلا يسمعنَ الزور إذا قيل، ولا يسمعن الخير؟ هنَّ للخير أسمع، وقرأ: «وقالوا» الآيات[1]. اهـ. وهو ظاهرٌ في الفهم.

وقال ابن المنير: يظهر لي في الآية معنًى لم أرَهُ لغيري، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى قد استعارَ لدلالة هذه الأجرام على وجوده عزَّ وجلَّ موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له سبحانه أنْ جعلَها مسبِّحةً بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وممَّا دلَّت عليه السماوات والأرض والجبال بل وكلُّ ذرةٍ من ذرَّاتها أنَّ الله تعالى مقدَّسٌ عن نسبةَ الولد إليه:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد[2]

فالمعتقدُ نسبةَ الولد إليه عزَّ وجلَّ قد عطَّل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله تعالى وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها، إبطالُ صورها بالهدِّ والانفطار والانشقاق[3]. اهـ.

واعترضَ عليه بأنَّ الموجودات إنما تدلُّ على خالقٍ قادرٍ عالم حكيم؛ لدلالة الأثر على المؤثِّر، والقدرةِ على المقدور، وإتقانُ العمل يدلُّ على العلم والحكمة، وأمَّا دلالتها على الوحدانيَّة فلا وجه له، ولا يثبتُ مثله بالشعر.

ورُدَّ بأنَّها لو لم تدلّ جاء حديث التمانع، كما حقَّقه المولى الخياليّ في «حواشيه» على «شرح عقائد النسفيّ» للعلامة الثاني.

وقال بعضهم: إنها تدلُّ على عظم شأنه تعالى، وأنه لا يشابهه ولا يدانيه شيءٌ، فلزمَ أنْ لا يكون له شريكٌ ولا ولد؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان نظيراً لله عزَّ وجلَّ، ولذا عبَّر عن هذه الدلالة بالتسبيح والتنزيه. ولعلَّ ما أشرنا إليه أولى وأدقّ، وليس مراد من نسبَ الولد إليه عزَّ وجل إلَّا الشرك، فتأمَّل.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٥، والعظمة (١١٩١)، والمعجم الكبير (٨٥٤٢)، وشعب الإيمان (٥٣٨). ورواية عون عن عبد الله بن مسعود مرسلة، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨.

(٢) سلف ١/ ٢٧١.

(٣) الانتصاف ٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

والجمهورُ على أنَّ الكلام لبيان بشاعة تلك الكلمة، على معنى أنَّها لو فَهِمتْها الجماداتُ لاستعظمتها، وتَفتَّتت من بشاعتها، ونحو هذا مهيعٌ للعرب، قال الشاعر:

لـمـا أتـى خـبـرُ الـزبـيـر تـواضـعـتْ　　　سـورُ الـمـديـنـة والـجـبـالُ الـخـشَّـعُ(١)

وقال الآخر:

فـأصـبـح بـطـنُ مـكَّـة مـقـشـعـرًّا　　　كـأنَّ الأرضَ لـيـس بـهـا هـشـامُ(٢)

وقال الآخر:

ألـم تـرَ صـدعـاً فـي الـسـمـاء مـبـيـنـا　　　عـلى ابن لبينى الحارث بن هشام(٣)

إلى غير ذلك، وهو نوعٌ من المبالغة، ويقبل إذا اقترنَ بنحو «كاد»، كما في الآية الكريمة، وقد بيِّن ذلك في محلِّه.

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ بتقدير اللام التعليليَّة، ومحلُّه بعد الحذف نصبٌ عند سيبويه(٤)، وجرٌّ عندَ الخليل والكسائي(٥)، وهو علَّة للعليَّة التي تضمَّنها «منه» لكن باعتبار ما تدلُّ عليه الحال، أعني قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾. وقيل: علَّةٌ لـ «تكاد» إلخ.

واعتُرِض بأنْ كون «يكاد» إلخ معلَّلاً بذلك قد عُلِم من «منه»، فيلزم التكرار. وأجيبَ بما لا يخلو عن نظر.

وقيل: علةٌ لـ «هدًّا»، وهو علَّةٌ للخرور. وقيل: ليس هناك لامٌ مقدَّرة، بل «أن» وما بعدَها في تأويل مصدرٍ مجرورٍ بالإبدال من الهاء في «منه»، كما في قوله:

عـلـى حـالـةٍ لـو أنَّ فـي الـقـوم حـاتـمـاً　　　عـلـى جـودِه لـضـنَّ بـالـمـاء حـاتـمِ(٦)

---

(١) هو لجرير. ديوانه ٢/ ٩١٣.

(٢) هو للحارث بن أمية الصغري، كما في الاشتقاق لابن دريد ص١٠١، وشرح أبيات مغني اللبيب ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١. وهو في الكامل ٢/ ٦٧١ دون نسبة.

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤، وأبو حيان في البحر ٦/ ٢١٨ دون نسبة.

(٤) الكتاب ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٥) نقله عنه الفراء في معانيه ٢/ ١٧٣.

(٦) سلف ٥/ ١٢٣.

بجرٍّ: حاتم، بالإبدال من الهاء في: جوده.

واستبعدَه أبو حيَّان؛ للفصل بجملتين بين البدل والمبدَل منه[١].

وقيل: المصدرُ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ محذوف، أي: الموجب لذلك دعاؤُهم للرحمن ولداً، وفيه بحث.

وقيل: هو مرفوعٌ على أنَّه فاعل «هدًّا»، ويعتبر مصدراً مبنيًّا للفاعل، أي: هدَّها دعاؤُهم للرحمن ولداً. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ فيه بعداً؛ لأنَّ الظاهرَ كونُ هذا المصدر تأكيديًّا، والمصدر التأكيديُّ لا يعمل، ولو فرض غير تأكيديٍّ لم يعمل بقياسٍ إلَّا إذا كان أمراً، كـ: ضَرْباً زيداً، أو بعد استفهام، كـ: أَضَرْباً زيداً؟ وما هنا ليس أحدَ الأمرين، وما جاء عاملاً وليس أحدَهما، كقوله:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم

نادر[٢].

والتزامُ كون ما هنا من النادر لا يدفع البعد.

ولعلَّ ما ذكرناه أدنى[٣] الأوجه وأولاها، فتدبَّر والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

و«دَعوا» عند الأكثرين بمعنى: سمَّوا، والدعاءُ بمعنى التسمية يتعدَّى لمفعولين بنفسه، كما في قوله:

دعتني أخاها أمُّ عمرٍو ولم أكن ... أخاها ولم أرضع لها بلبانِ[٤]

وقد يتعدَّى للثاني بالباء، فيقال: دعوتُ ولدي بزيدٍ، واقتصرَ هنا على الثاني

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٩. والشعر صدر بيت لامرئ القيس، عجزه:

يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وسلف ٧/ ٤٥٧.

(٣) في الأصل و(م): أدق. والمثبت من مسودة المصنف.

(٤) هو لعبد الرحمن بن أم الحكم كما نسبه ابن عبد ربه في العقد الفريد ٦/ ٣٤٤. وذكره المبرد في الكامل ١/ ١٦١ دون نسبة.

وحذف الأوَّل دلالةً على العموم والإحاطة لكلِّ ما دُعي له عزَّ وجلَّ ولداً من عيسى وعزير عليهما السلام وغيرهما.

وجُوِّزَ أن يكونَ من: دعا، بمعنى نسب الذي مطاوعه ما في قوله ﷺ: «من ادَّعى إلى غير مواليه»[1]. وقول الشاعر:

إنَّا بني نهشلٍ لا ندَّعي لأبٍ عنه ولا هو بالأبناء يشرينا[2]

فيتعدَّى لواحد.

والجارُّ والمجرور جُوِّزَ أنْ يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «ولداً»، وأن يكون متعلِّقاً بما عنده. وجملة «ما ينبغي» حالٌ من فاعل «دعوا»، وقيل: من فاعل «قالوا». و«ينبغي» مضارع انبغى، مطاوع بغى بمعنى طَلَب، وقد سُمع ماضيه، فهو فعلٌ متصرِّفٌ في الجملة. وعدَّه ابنُ مالك في «التسهيل»[3] من الأفعال التي لا تتصرَّف، وغلَّطهُ في ذلك أبو حيان[4]. ويمكن أن يقال: مرادُه أنَّه لا يتصرَّف تامًّا، و«أن يتخذ» في تأويل مصدر فاعله، والمراد: لا يليقُ به سبحانه اتخاذُ الولد، ولا ينطلبُ[5] له عزَّ وجلَّ؛ لاستحالة ذلك في نفسه، لاقتضائه الجزئيَّة أو المجانسة، واستحالةُ كلٍّ ظاهرة.

ووضع الرحمن موضع الضمير؛ للإشعار بعلَّة الحكم بالتنبيه على أنَّ كلَّ ما سواه تعالى إمَّا نعمةٌ أو مُنعَمٌ عليه، وأين ذلك ممن هو مُبدئ النعم ومُولي

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٨٤٩٧) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله سبعة من خلقه...» وعدَّ منهم من ادعى إلى غير مواليه. وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار مسند علي (٣٣٠) من حديث سعد قال: قال رسول الله: «من ادعى إلى غير أبيه أو ادعى إلى غير مواليه فقد كفر». وهذا المعنى ورد في صحيح البخاري (٣١٧٢)، وصحيح مسلم (١٣٧٠) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، بلفظ: «من انتمى إلى غير مواليه».

(٢) نسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨ لنهشل بن حري النهشلي، ونسبه المبرد في الكامل ١/ ١٤٥ لأبي مخزوم رجل من بني نهشل. وأورده البغدادي في الخزانة ٨/ ٣٠٢، وذكر الخلاف في قائله، ورجح أنه لبشامة بن حزن. انظر الخزانة ٨/ ٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) ص٢٤٧.

(٤) البحر ٦/ ٢١٩.

(٥) في (م): يتطلب.

أصولها وفروعها! وقد أشير إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحدٌ من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: إلَّا وهو مملوكٌ له تعالى، يأوي إليه عزَّ وجلَّ بالعبودية والانقياد لقضائه وقدره سبحانه، فالإتيانُ معنويّ. وقيل: هو حسيّ، والمراد: إلَّا آتي محلَّ حكمه، وهو أرضُ المحشر، منقاداً لا يدَّعي لنفسه شيئاً ممَّا نسبوه إليه. وليس بذاك كما لا يخفى.

و«من» موصولة بمعنى «الذي»، و«كل» تدخل عليه؛ لأنَّه يُراد منه الجنس، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر:٣٣]، وقوله:

وكلُّ الذي حمَّلتني أتحمَّلُ[1]

وقيل: موصوفةٌ لأنَّها وقعت بعد «كل» نكرة وقوعَها بعد «ربّ» في قوله:

ربَّ من أنضجتُ غيظاً صدرَه قد تمنَّى لي موتاً لم يطع[2]

ورجَّح في «البحر»[3] الأولَ بأنَّ مجيئها موصوفةً بالنسبة إلى مجيئها موصولة قليل. وقرأ عبد الله وابن الزبير وأبو حيوة وطلحة وأبو بحريَّة وابن أبي عبلة ويعقوب: «آتٍ» بالتنوين، «الرحمنَ» بالنصب على الأصل[4]. ونصب «عبداً» في القراءتين على الحال.

واستُدِل بالآية على أنَّ الوالد لا يملكُ ولدَه، وأنه يَعتقُ عليه إذا ملكَه.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم وأحاطَ بهم بحيث لا يكاد يخرجُ أحدٌ منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جلَّ جلاله.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: عدَّ أشخاصَهم وأنفاسَهم وأفعالَهم، فإنَّ كلَّ شيءٍ عنده تعالى بمقدار.

---

(١) هو في البحر المحيط ٦/ ٢٢٠، والدر المصون ٧/ ٦٥١ هكذا ودون نسبة.

(٢) البيت لسويد بن أبي كاهل، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٤٢١، والأغاني ١٣/ ١٠١، وخزانة الأدب ٦/ ١٢٣.

(٣) ٦/ ٢٢٠.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٢٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن ابن مسعود ويعقوب وأبي حيوة.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: منفرداً من الأتباع والأنصار، منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجاً إلى إعانته ورحمته عزَّ وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتَّخذَه ولداً وليشرك به سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

وقيل: أي: كلُّ واحدٍ من أهل السماوات والأرض العابدين والمعبودين آتيه عزَّ وجلَّ منفرداً عن الآخر، فينفردُ العابدون عن الآلهة التي زعموا أنَّها أنصارٌ أو شفعاء، والمعبودون عن الأتباع الذين عبدوهم، وذلك يقتضي عدمَ النفع، وينتفي بذلك المجانسةُ لمن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ تبارك وتعالى.

وفي «آتيه» من الدلالة على إتيانهم كذلك ألبتَّة ما ليس في: يأتيه، فلذا اختير عليه، وهو خبر «كلهم»، و«كل» إذا أضيفَ إلى معرفةٍ ملفوظٍ بها نحو: كلّهم، أو كلّ الناس، فالمنقول أنَّه يجوزُ عود الضمير عليه مفرداً؛ مراعاةً للفظه، فيقال: كلُّكم ذاهب، ويجوز عودُه عليه جمعاً مراعاةً لمعناه، فيقال: كلُّكم ذاهبون.

وحكى إبراهيم بن أصبغ في كتاب «رؤوس المسائل» الاتفاقَ على جوازِ الأمرين. وقال أبو زيد السهيليّ: إنَّ «كُلًّا» إذا ابتدئ به وكان مضافاً لفظاً ـ أي: إلى معرفة ـ لم يحسن إلَّا إفرادُ الخبر؛ حملاً على المعنى؛ لأنَّ معنى: كلكم ذاهبٌ، مثلاً: كلُّ واحدٍ منكم ذاهبٌ، وليسَ ذلك مراعاةً للفظ، وإلَّا لجازَ: القومُ ذاهبٌ؛ لأنَّ كلًّا من «كل» والقوم اسمُ جمعٍ مفردُ اللفظ. اهـ.

وفي «البحر»: يحتاج في إثبات: كلُّكم ذاهبون، بالجمع، إلى نقل عن العرب[١]. والزمخشريُّ في تفسير هذه الآية استعملَ الجمع[٢]، وحسنُ الظنِّ فيه أنَّه وجدَ ذلك في كلامهم.

وإذا حذف المضاف إليه المعرفة، فالمسموعُ من العرب الوجهان، ولا كلام في ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ أي: مودةً في

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٢٠.

(٢) بقوله في الكشاف ٢/ ٥٢٧: وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره. وانظر البحر المحيط ٦/ ٢٢٠.

القلوب لإيمانهم وعملهم الصالح. والمشهورُ أنَّ ذلك الجعلَ في الدنيا، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وعبد بن حميد وغيرهم عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله تعالى عبداً نادى جبريل: إنِّي قد أحببتُ فلاناً فأحبَّه، فينادي في السماء، ثم تنزلُ له المحبَّة في الأرض، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية»(١).

والتعرُّض لعنوان الرحمانيَّة لما أنَّ الموعودَ من آثارها، والسين لأنَّ السورةَ مكِّيةٌ وكانوا ممقوتين حينئذٍ بين الكفرة، فوعدهم سبحانه ذلك، ثم نجَّزه حين كثر الإسلام وقويَ بعد الهجرة. وذكر أنَّ الآية نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ﷺ، وَعَدَ سبحانه أنْ يجعلَ لهم محبَّةً في قلب النجاشيّ. وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف أنَّه لمَّا هاجرَ إلى المدينة وَجَدَ في نفسه على فراق أصحابه بمكَّة، منهم شيبة بن ربيعة وعتبة(٢) بن ربيعة وأميَّة بن خلف، فأنزلَ الله تعالى هذه الآية(٣).

وعلى هذا تكونُ الآية مدنية.

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «قل: اللهمَّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين ودًّا» فأنزلَ الله سبحانه هذه الآية(٤).

وكان محمدُ بن الحنفية ﷺ يقول: لا تجدُ مؤمناً إلَّا وهو يحبُّ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه وأهلَ بيته.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وصحيح البخاري (٧٤٨٥)، وصحيح مسلم (٢٦٣٧)، وسنن الترمذي (٣١٦١). وهو أيضاً عند أحمد (٧٦٢٥). ولم يرد ذكر الآية إلا في رواية الترمذي.

(٢) في الأصل و(م): عقبة، والتصويب من المصادر.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٦٤٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وهو في الفردوس للديلمي (١٩٣٢) دون ذكر سبب النزول. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨: أخرجه الثعلبي والطبراني في «مسند حمزة الزيات» وابن مردويه من حديث البراء بن عازب ﷺ. وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زياد. وهما متروكان. اهـ.

وروى الإماميَّة خبرَ نزولها في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن ابن عباس والباقر ﷺ، وأيَّدوا ذلك بما صحَّ عندهم أنَّه كرَّم الله تعالى وجهه قال: لو ضربت خيشومَ المؤمن بسيفي هذا على أنْ يبغضني ما أبغضني، ولو صببتُ الدنيا بجملتِها على المنافق على أنْ يحبَّني ما أحبَّني، وذلك أنَّه قضي فانقضى على لسان النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يبغضكَ مؤمنٌ، ولا يحبُّك منافق»(١). والمراد المحبَّة الشرعيَّة التي لا غلوَّ فيها.

وزعم بعض النصارى حبَّه كرم الله تعالى وجهه، فقد أنشد الإمام اللغوي رضيُّ الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن يوسف الأنصاريّ الشاطبيّ(٢) لابن إسحاق النّصْرانيّ الرسغنيّ(٣):

عديٌّ وتيمٌ لا أحاولُ ذكرهم ... بسوءٍ ولكني محبٌّ لهاشمِ
وما تعتريني في عليٍّ ورهطِه ... إذا ذُكروا في الله لومةُ لائم
يقولون ما بالُ النصارى تحبُّهم ... وأهل النهى من أعربٍ وأعاجم
فقلت لهم إنِّي لأحسب حبَّهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وأنت تعلم أنَّه إذا صحَّ الحديث ثبتَ كذبه، وأظنُّ أنَّ نسبةَ هذه الأبيات للنصرانيِّ لا أصلَ لها، وهي من أبيات الشيعة بيت الكذب، وكم لهم مثل هذه المكايد، كما بين في «التحفة الإثني عشرية».

والظاهر أنَّ الآيةَ على هذا مدنيَّةٌ أيضاً، ثمَّ العبرةُ على سائر الروايات في سبب النزول بعموم اللفظ لا بخصوصِ السبب. وذهب الجبائيُّ إلى أنَّ ذلك في الآخرة؛

(١) نص الحديث المرفوع أخرجه مسلم (٧٨)، وأحمد (٧٣١).
(٢) شيخ أبي حيان، وروى عنه هو والمزي والقطب الحلبي وآخرون، له حواشٍ على الصحاح وتوفي سنة ٦٨٤ هـ. بغية الوعاة ١/ ١٩٤، والأعلام ٦/ ٢٨٣.
(٣) وقع في البحر المحيط ٦/ ٢٢١ ـ وعنه نقل المصنف ـ: أن الأبيات لزبينا بن إسحاق النصراني الرسغي. وفي نفح الطيب ٢/ ٣٧٧ ـ نقلاً عن البحر ـ: لزينب بنت إسحاق النصراني الرسعني، بالمهملة. وذكر الأبيات صاحب المحاسن والمساوئ ص٦٩، ونسبها للموصلي النصراني. وأوردها ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٧٥٧، ونسبها لزبيا النصراني.

فقيل: في الجنَّة إذ يكونون إخواناً على سُرُرٍ متقابلين. وقيل: حين تعرضُ حسناتهم على رؤوس الأشهاد. وأمر السين على ذلك ظاهر.

ولعلَّ إفراد هذا الوعد من بين ما سيولون يوم القيامة من الكراماتِ السنية؛ لما أنَّ الكفرةَ سيقعُ بينهم يومئذٍ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطعٌ وتلاعن.

وذُكر في وجه الربط أنَّه لما فُصِّلت قبائحُ أحوال الكفرة عَقَّبَ ذلك بذكر محاسنِ أحوال المؤمنين، وقد يقال فيه ـ بناءً على أنَّ ذلك في الآخرة ـ: إنَّه جلَّ شأنه لما أخبر بإتيان كلٍّ من أهل السماوات والأرض إليه سبحانه يوم القيامة فرداً آنسَ المؤمنين بأنَّه جلَّ وعلا يجعلُ لهم ذلك اليوم ودًّا، وفَسَّرَه ابنُ عطية على هذا الوجه بمحبَّته تعالى إيَّاهم، وأراد منها إكرامَه تعالى إيَّاهم ومغفرته سبحانه ذنوبَهم[١].

وجُوِّز أنْ يكون الوعد بجعل الودِّ في الدنيا والآخرة، ولا أراه بعيداً عن الصواب. ولا يأبَى هذا ولا ما قبلَه التعرُّضُ لعنوان الرحمانية؛ لجواز أن يدَّعى العموم، فقد جاء «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»[٢]. وقرأ أبو الحارث الحنفي: «وَدًّا» بفتح الواو[٣]. وقرأ جناح بن حبيش: «وِدًّا» بكسرها[٤]. وكلُّ ذلك لغةٌ فيه، وكذا في الوداد.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآن، بأن أنزلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وهو في ذلك مجازٌ مشهور. والباء بمعنى «على»، أو على أصله وهو الإلصاق؛ لتضمين «يسَّرنا» معنى أنزلنا، أي: يسَّرناه منزلين له بلغتك. والفاءُ لتعليل أمرٍ ينساقُ إليه النظم الكريم، كأنَّه قيل: بعد إيحاء هذه السورة الكريمة بَلِّغ هذا المنزَّل، أو بشِّر به[٥] وأنذر، فإنَّما يسَّرناه بلسانك العربيِّ المبين. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتَّصفينَ بالتَّقوى؛ لامتثال ما فيه من الأمر والنهي، أو الصائرين إليها، على أنَّه من مجاز الأوَّل.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤.

(٢) سلف ١/ ٢٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.

(٥) في (م): وأبشر به.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ لا يؤمنون به لجاجاً وعناداً. واللدُّ جمعُ: الألَدّ، وهو كما قال الراغب: الخصمُ الشديدُ التأبّي، وأصله الشديد اللديد، أي: صفحة العنق، وذلك إذا لم يمكن صرفُه عما يريده[1]. وعن قتادة: اللُّدّ: ذوو الجدل بالباطل، الآخذون في كلِّ لديد ـ أي: جانبٍ ـ بالمراء.

وعن ابن عباس تفسيرُ اللدِّ بالظَّلَمة، وعن مجاهد تفسيره بالفُجّار، وعن الحسن تفسيره بالصُّمّ، وعن أبي صالح تفسيرُه بالعوج، وكلٌّ ذلك تفسير باللازم. والمرادُ بهم أهلُ مكّة كما روي عن قتادة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ في ضمن وعيد هؤلاء القوم بالإهلاك، وحثٌّ له عليه الصلاة والسلام على الإنذار، أي: قرناً كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، والاستفهام في معنى النفي، أي: ما تشعر بأحدٍ منهم.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحريّة وابن أبي عبلة وأبو جعفر المدنيّ: «تَحُسُّ» بفتح التاء وضمِّ الحاء[2].

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ أي: صوتاً خفيًّا، وأصل التركيب هو الخفاء[3]، ومنه رَكَز الرمح، إذا غَيَّبَ طرفه في الأرض، والركاز للمال المدفون. وخصَّ بعضُهم الركز بالصوت الخفيّ دونَ نطقٍ بحروف ولا فم، والأكثرون على الأول، وخُصَّ الصوتُ الخفيُّ؛ لأنّه الأصلُ الأكثر، ولأنَّ الأثرَ الخفيَّ إذا زال فزوالُ غيره بطريق الأولَى. والمعنى: أهلكناهم بالكليّة واستأصلناهم، بحيث لا ترى منهم أحداً ولا تسمعُ منهم صوتاً خفيًّا فضلاً عن غيره.

(١) المفردات (لدد) ووقع فيه: الخصيم. بدل: الخصم. و: الشديد اللدد، بدل: الشديد اللديد. وفي اللسان (لدد): اللديدان: صفحتا العنق دون الأذنين. . . أبو عمرو: اللديد: ظاهر الرقبة.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٢١، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن أبي حيوة، وأبي جعفر المدني. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) يعني معانيه كلها تدور عليه، ولو قلبت حروفه. انظر حاشية الشهاب ٦/ ١٨٦.

وقيل: المعنى: أهلكناهم بالكليَّة بحيث لا تَرى منهم أحداً، ولا تسمعُ مَن يخبرُ عنهم ويذكرهم بصوتٍ خفيٍّ. والحاصل: أهلكناهم فلا عين ولا خبر.

والخطاب إمَّا لسيِّد المخاطبين ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح للخطاب.

وقرأ حنظلة: «تُسمَعُ» مضارع أسمعت مبنيًّا للمفعول، والله تعالى أعلم[1].

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ أمرٌ للحبيب أنْ يذكرَ الخليل، وما منَّ الله تعالى به عليه من أحكام الخلَّة؛ ليستثير المستعدِّين إلى التحلِّي بما أمكن لهم منها.

والصدِّيقُ ـ على ما قال ابنُ عطاء ـ: القائمُ مع ربِّه سبحانه على حدِّ الصدق في جميع الأوقات، لا يعارضُه في صدقه معارض بحال.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: الصدِّيقُ: الآخذُ بأتمِّ الحظوظ من كلِّ مقامٍ سنيّ، حتى يقرب من درجات الأنبياء عليهم السلام.

وقال بعضهم: من تواترت أنوارُ المشاهدة واليقين عليه، وأحاطت به أنوار العصمة. وقال القاضي: هو الذي صعدت نفسه تارةً بمراقي النظر في الحجج والآيات، وأخرى بمعارج التصفية والرياضة إلى أوج العرفان، حتى اطَّلع على الأشياء وأخبرَ عنها على ما هي عليه[2].

ومقام الصديقية قيل: تحت مقام النبوة وليس بينهما مقام. وعن الشيخ الأكبر قُدِّس سره إثباتُ مقامٍ بينهما، وذكر أنَّه حصلَ لأبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه[3].

والمشهور بهذا الوصف بين الصحابة رضي الله عنهم أبو بكر رضي الله عنه وليس ذلك مختصًّا به، فقد أخرج أبو نعيم في «المعرفة» وابنُ عساكر وابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى الأنصاريّ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصديقونَ ثلاثة، حبيب

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٩٨، عند تفسير الآية ٧٩ من سورة النساء.

(٣) انظر الفتوحات المكية ٢/ ١٧ و٢٤.

النجار مؤمن آل يس الذي قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، وهو أفضلهم»[(١)].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ إلخ فيه من لطف الدعوة إلى اتِّباع الحقِّ والإرشادِ إليه ما لا يخفى، وهذا مطلوبٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا سيما إذا كان ذلك مع الأقارب ونحوهم.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ هذا سلامُ الإعراض عن الأغيار، وتلطّف الأبرار مع الجهّال، قال أبو بكر بن طاهر: إنه لما بدا من آزر في خطابه عليه السلام ما لا يبدو إلّا من جاهل، جعل جوابه السلام؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أهاجرُ عنكم بديني، ويفهمُ منه استحبابُ هجر الأشرار. وعن أبي تراب النخشبيّ[(٢)]: صحبةُ الأشرار تورثُ سوء الظن بالأخيار.

وقد تضافرت الأدلة السمعيَّةُ والتجربة على أنَّ مصاحبتَهم تورثُ القسوة، وتثبِّطُ عن الخير.

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ فيه من الدلالة على مزيد أدبه عليه السلام مع ربِّه عزَّ وجل ما فيه، ومقام الخلَّة يقتضي ذلك، فإنَّ من لا أدبَ له لا يصلح أنْ يُتَّخذَ خليلاً.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ كأنَّ ذلك كان عوضاً عمَّن اعتزلَ من أبيه وقومه؛ لئلَّا يضيقَ صدره، كما قيل. ولما اعتزل نبيُّنا ﷺ الكون أجمع ما زاغ البصر وما طغى عُوِّضَ عليه الصلاة والسلام بأنْ قال له

---

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣٣٨). قال ابن تيمية في منهاج السنة ٣/ ٧ ـ طبعة بولاق ـ: هذا كذب على رسول الله ﷺ.

(٢) هو عسكر بن الحصين، شيخ الطائفة، كتب العلم وتفقه، ثمَّ تألَّه وتعبد، وساح وتجرد. توفي بطريق الحج، انقطع فنهشته السباع سنة (٢٤٥هـ). سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥-٥٤٦.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَٱذْكُرْ﴾ أيُّها الحبيب ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ الكليم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله تعالى في سائر شؤونه. قال الترمذيُّ: المخلص على الحقيقة من يكون مثلَ موسى عليه السلام، ذهبَ إلى الخضر عليه السلام ليتأدَّب به، فلم يسامحه في شيءٍ ظهر له منه.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قالوا: النداء بداية والنجوى نهاية، والنداء مقام الشوق، والنجوى مقام كشف السِّرِّ(١).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ قيل: علم الله تعالى ثقل الأسرار على موسى عليه السلام فاختار له أخاه هارون مستودعاً لها، فهارون عليه السلام مستودعُ سرِّ موسى عليه السلام.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ بالصبر على بذل نفسه، أو بما وعد به استعدادُه من كمال التقوى لربِّه جلَّ وعلا والتحلِّي بما يرضيه سبحانه من الأخلاق.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وهو نوعٌ من القرب منَّ اللهُ تعالى به عليه عليه السلام. وقيل: السماء الرابعة، والتفضُّل عليه بذلك؛ لما فيه من كشف بعض أسرار الملكوت.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بما لا يحيطُ نطاق الحصر به من النعم الجليلة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ ممَّا كُشِف لهم من آياته تعالى، وقد ذُكر أنَّ القرآن أعظم مجلّى لله عز وجل ﴿وَبُكِيًّا﴾ من مزيد فرحهم بما وجدوه، أو من خوف عدم استمرار ما حصلَ لهم من التجلِّي:

ونبكي إنْ نأوا شوقاً إليهم ونبكي إن دنوا خوفَ الفراق(٢)

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قيل: الرزق ها هنا مشاهدةُ الحقِّ سبحانه ورؤيته

---

(١) في الأصل: الشر.

(٢) هو دون نسبة في أمالي الزجاجي ص٤٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٣٩.

عزَّ وجلَّ، وهذا لعموم أهل الجنة، وأما المحبوبونَ والمشتاقونَ فلا تنقطعُ عنهم المشاهدةُ لمحةً، ولو حجبوا لماتُوا من ألم الحجاب.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مثلاً يُلتفتُ إليه ويطلب منه شيء. وقال الحسين بن الفضل: هل يستحقُّ أحدٌ أن يُسمَّى باسم من أسمائه تعالى على الحقيقة.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وذلك لتظهر عظمةُ قهره جلَّ جلالُه، وآثار سطوته لجميع خلقه عزَّ وجلَّ. ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ جزاء تقواهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ جزاءَ ظلمهم. وهذه الآية لك أجرت من عيون العيون العيون، فعن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنَّه كان يبكي ويقول: قد علمتُ أنِّي واردُ النار، ولا أدري كيف الصدر بعد الورود. وعن الحسن كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجلُ لصاحبه: هل أتاك أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أتاك أنا خارج؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضحك إذن؟

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ لـمَّا افتخروا بحظوظ الدنيا التي لا يفتخرُ بها إلَّا ذوو الهمم الدنيَّة ردَّ الله تعالى عليهم بأنَّ ذلك استدراجٌ ليس بإكرام، والإشارة فيه أنَّ كلَّ ما يشغلُ عن الله تعالى والتوجُّه إليه عزَّ وجلَّ فهو شرٌّ لصاحبه.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ركباناً على نجائب النور، وقال ابن عطاء: بلغني عن الصادق رضي الله عنه أنَّه قال: ركباناً على متونِ المعرفة. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فقيراً ذليلاً منقاداً مسلوبَ الأنانية بالكليَّة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في القلوب المفطورة على حبِّ الله تعالى، وذلك أثرُ محبته سبحانه لهم، وفي الحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصر به»[1] إلخ، ولا يُشكِل على هذا أنَّا نَرى كثيراً من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ممقوتين؛ لأنَّ الذين يمقتونهم قد فُطِرت قلوبهم على

(١) سلف ١/ ١٣٢.

الشر، وإن لم يشعروا بذلك، ومن هنا يُعلَم أنَّ بغضَ الصالحين علامةُ خبث الباطن ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

وقيل: معنى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ سيجعلُ لهم لذَّةً وحلاوةً بالطاعة.

والأخبار تؤيِّد ما تقدَّم، والله تعالى أعلم، وله الحمدُ على إتمام تفسيرِ سورة «مريم»، ونسألُه جلَّ شأنه التوفيق لإتمام تفسيرِ سائر سور كتابه المعظَّم، بحرمة نبيه ﷺ.